

رسوم وروي

المجموعات التاريخية



أحوال الظاهري في ثلاثة بنى العباس

بقلم

الدكتور جان موريس فييه

دار المشرق
لondon

01333068

Bibliotheca Alexandrina





© جميع الحقوق محفوظة ، طبعة أولى ١٩٩٠

دار المشرق ش.م.م

ص.ب. ٩٤٦ ، بيروت - لبنان

ISBN 2-7214-8011-1

التوزيع : المكتبة الشرقية

ص.ب. ١٩٨٦ ، بيروت - لبنان

تصميم الغلاف : جان قرطباوي

مصدر صورة الغلاف :

صورة مطران أو جاثليق من رسوم سامراء

(القرن التاسع ميلادي/الثالث هجري)

١٦٤٦



نقلاً إلى العربية حسني زينه

المطبعة العامة لـكتبة الاسكندرية

٩٠٢.٠٩٧٤.٣.٨٧٥٦
ف.٢ . ٢

رقم التسجيل : ١١٥٥



دارالمشرق لشرمه

ساهم في اصدار هذا الكتاب
مجلس كنائس الشرق الأوسط

لَا تُقْدِمْ عَلَى قَوْلِ الْبَاطِلِ
وَلَا تُصِرِّبْ عَلَى كِتَابِنَا أَحَقٌ

شيشرون ، في الخطابة ٢ : ١٥



المصادر والمراجع

أ - المصادر العربية

١ - الكتب والمقالات

- ابن أبي أصيبيعة، موفق الدين أبو العباس: عيون الأنبياء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، ١٩٦٥.
- ابن الأثير، عز الدين: كتاب الكامل في التاريخ، ١٣ جزءاً، بيروت، ١٩٦٧ - ١٩٦٥.
- ابن الأزرق، أبو عبدالله الأندلسي: بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق محمد بن عبد الكريم، جرآن، تونس، ١٩٧٧.
- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٣ جزءاً، طبعة القاهرة ١٣٥٣ / ١٩٣٥.
- ابن جبير: رحلة، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٠٨.
- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن: كتاب المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق كرنكوف، ٨ أجزاء، حيدر آباد، ١٣٥٧ - ١٣٥٩ / ١٩٣٨ - ١٩٤٠.
- ابن خلّكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، ٨ أجزاء، بيروت، ١٩٦٨ - ١٩٧٢.
- ابن رجب البغدادي: الذيل على طبقات الخنابلة، تحقيق هـ. لاوست وس. دهان PIFD الجزء الأول، دمشق، ١٩٥١.

- ابن الساعي، تاج الدين: الجامع المختصر، تحقيق مصطفى جواد، الجزء التاسع، بغداد، ١٣٥٣/١٩٣٤.
- نساء الخلفاء، تحقيق مصطفى جواد، سلسلة دخائر العرب، ٢٨.
- ابن شاكر الكتبني: فوات الوفيات، تحقيق إحسان عباس، ٥ أجزاء، بيروت ١٩٧٣ - ١٩٧٤.
- ابن الطقطقي، محمد بن علي: الفخرى في الآداب السلطانية، دار صادر، بيروت ١٩٦٦.
- ابن عبد ربه: العقد الفريد، سبعة أجزاء، القاهرة، ط. ٣، ١٩٦٥.
- ابن العربي: تاريخ الزمان، نقله إلى العربية إسحاق أرملا، بيروت، ١٩٨٧، وقد ظهر من قبل بعنوان تاريخ الدول السرياني، بقلم إسحاق أرملا نفسه، وذلك في أجزاء: ملوك العرب، المشرق ٤٣ - ٤٧ (١٩٤٩ - ١٩٥٣) ص ٩٥ - ٥٠٦ ، ملوك التتر، حتى العدد ٥٠ (١٩٥٦).
- واختصر بالعربية بعنوان: مختصر الدول، بيروت، ١٨٩٠.
- ابن الفوطي(?)، انظر: الحوادث الجامدة.
- ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله: عيون الأخبار، تحقيق أحمد زكي العدوبي، القاهرة ١٣٥٣ هـ.
- كتاب المعارف، تحقيق ثروة عكاشة، القاهرة، القاهرة، ١٣٥٣ هـ.
- ابن القسطي: تاريخ الحكماء، تحقيق أمين الحانجي، مصر، ١٣٢٦/١٩٠٨.
- ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، تحقيق صبحي الصالح، جامعة دمشق، ١٣٨١/١٩٦١ مختارات (ص ٦٥٧ - ٨٩٣): شرح الشروط العمرية.
- ابن كثير، إسماعيل: البداية والنهاية في التاريخ، ١٣ جزءاً، بيروت، الرياض.
- الأشيهي: المستطرف في كل فن مستطرف، تحقيق مفيد قميحة، بيروت، ١٩٨٣.
- الأزدي، أبو زكريأ: تاريخ الموصل، تحقيق علي جيبة، القاهرة، ١٣٨٧/١٩٦٧.

الأزدي، محمد بن أحمد أبو المطهّر: حكاية أبي القاسم البغدادي، تحقيق آدم متز
هيدلبرج، ١٩٠٢.

الأصبهاني، عياد الدين: خريدة القصر وجريدة العصر، تحقيق بهجت
الأثري وجميل سعيد، جزان، بغداد، ١٣٧٥/١٩٥٥.

أمين، حسين: نظام الحكم في العصر السلاجوقى، سومر، ٢٠ (١٩٦٤)،
ص ٢٠٩ - ٢٦٦.

إيليا النصيبي: تاريخ إيليا برشينايا، الترجمة العربية بقلم يوسف حبى،
بغداد، مجمع اللغة السريانية، ١٩٧٥.

بابو، إسحاق روفائيل: تاريخ نصارى العراق، بغداد، ١٩٤٨.

أحوال نصارى بغداد في عهد الخلافة العباسية، بغداد، ١٩٦٠.
البداية، انظر ابن كثير.

برصوم، انظر اللؤلؤ.

البستاني، فؤاد افرايم: تمازج العناصر البشرية في بغداد العباسية، المشرق،
٣٢ (١٩٢٤) ص ٤٠٩ - ٤٤٠.

الثقافة الإنسانية في بغداد العباسية، محاضرة في مهرجان القرن الثاني عشر
لبغداد، ٨ - ١ كانون الأول ١٩٦٢، مطبوعة على الآلة الكاتبة.
موسوعته المعروفة بـ دائرة المعارف.

البيروني: الآثار الباقية من القرون الخالية، تحقيق زاخاوا، ليزغ، ١٨٧٨.

تاجر، جاك: أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي إلى العام ١٩٢٢، القاهرة،
١٩٥١.

تجارب، انظر MISKAWAIIH.

الشوكلي، أبو علي الحسن بن علي: نشوار المحاضرة، تحقيق عبد الشابلي،
٨ أجزاء بيروت، ١٩٧١ - ١٩٧٣.

الفرج بعد الشدة، تحقيق عبد الشابلي، ٥ أجزاء، بيروت ١٩٧٨.

التوحيدى، أبو حيأن: مثالب الوزيرين، طبعة دمشق ١٩٦١.

- الباحث، أبو عثمان عمرو بن بحر: رسالة في الرد على النصارى في ثلاثة رسائل للباحث، سعى في نشره يوشع فنكل، القاهرة، ١٣٤٤هـ.
- كتاب الناج، تحقيق فوزي عطوي، بيروت، ١٩٧٠.
- جبر، جميل: الباحث ومجتمع عصره، بيروت، ١٩٥٧.
- الجندي، محمد سليم: الجامع في أخبار أبي العلاء المعري وأثاره، ٣ أجزاء، دمشق، ١٩٦٢ - ١٩٦٤.
- الجهشياري، أبو عبدالله: كتاب الوزراء والكتاب، القاهرة، ١٩٣٨.
- جود، مصطفى: سيدات البلاط العباسي، بغداد، د. ت.، انظر ابن الساعي.
- الحاجري، طه: الباحث حياته وأثاره، دار المعرفة، ١٩٦٢.
- حبيبي، يوسف: يوحنا بن حيلان معلم الفارابي في المنطقة، بين البحرين، ٣ (١٩٧٥) ص ١٢٥ - ١٥٤.
- الحوادث الجامعية، تحقيق مصطفى جود، بغداد، ١٩٣٢/١٣٥١، انظر: شذرات تاريخية.
- الذهبي، شمس الدين: كتاب دول الإسلام (التاريخ الصغير) جزآن، حيدر آباد ١٣٦٤ - ١٣٦٥هـ.
- رحمه الله، مليحة: الحالة الاجتماعية في العراق في القرنين الثالث والرابع بعد الهجرة، بغداد، ١٣٩٠/١٩٧٠.
- رستم، عبد السلام: أبو جعفر المنصور، القاهرة، ١٩٦٥.
- الزركلي، خير الدين: الأعلام، عشرة أجزاء، ط. ٢، القاهرة ١٩٥٤ - ١٩٥٩.
- الزيارات، حبيب: اليهود في الخلافة العباسية، المشرق، ٣٦ (١٩٣٨) ص ١٤٩ - ١٧٣. (أعيد طبعه في الخزانة ج ٣، ١٩٤٦، ص ٥٤ - ٧٨).
- شهداء النصرانية في الإسلام، المشرق، ٣٦ (١٩٣٨) ص ٤٥٩ - ٤٦٥ (الخزانة ج ٣، ص ١٠٢ - ١٠٨).
- الجوالي أو جزية رؤوس النصارى في الإسلام، المشرق ٤١ (١٩٤٧) ص ١٤٥ - ١٥٦ (الخزانة ج ٤، ١٩٤٨، ص ٥٤ - ٦٥).

- الأسماء والكنى والألقاب النصرانية في الإسلام، المشرق ٤٢ (١٩٤٨) ص ١ - ٢١، (الخزانة ج ١، ١٩٥٢)، ص ١ - ٢١).
- سمات النصارى واليهود في الإسلام، المشرق، ٤٣ (١٩٤٩) ص ١٦١ - ٢٩٢ (مستلة، ١٩٥٠، ٩٤ صفحة).
- ساكو، لويس الأب، البطريرك تيموثاوس الكبير رائد الحوار المسيحي الإسلامي، مجلة بين الهررين، ١٤ - ١٥، ١٩٧٦، ص. ٢٣٥ - ٢٤٥، وتعليق سعيد الديوهجي، المصدر نفسه، ١٦، ص. ٤٤٩ - ٤٥٣.
- السامرائي، يونس أحمد: البحتري في سامراء بعد عصر المتوكل، بغداد، ١٩٧١.
- السيوططي، جلال الدين: تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، ١٩٥٩.
- الشابشي: كتاب الديارات، تحقيق كوركيس عواد، بغداد، ١٩٥١ و ١٩٦٦.
- شذرات تاريخية من صحائف منسية، نشرها لويس شيخو في مجلة المشرق، ١٨ (١٩٢٠) ص ٥٩٦ - ٦٠٧، وهي الحوادث الجامدة المذكورة أعلاه، انظر كتابي: Mossoul Chrétienne, 1959, P 46, n.2).
- شيخو، لويس: شعراً النصرانية بعد الإسلام، ط. ٢، بيروت ١٩٦٧.
- الصابي: انظر هلال.
- صلبيا بن يوحنا (عمرو بن متّى): أخبار بطاركة كرسى المشرق، تحقيق جيسموندي، روما، ١٨٩٦.
- الصولي، أبو بكر محمد: أخبار الراضي والمتنقى بالله، مكتبة الصاوي، مصر، ١٩٣٥.
- الطبرى، أبو جعفر محمد: تاريخ، عشرة أجزاء، القاهرة، ١٦٩٠ - ١٩٦٩.
- الطبرى، عليّ بن رین: الدين والدولة، حققه وقدّم له عادل نويهض، بيروت، ١٩٧٧.
- طه، سليم: التاريخ وكبار المؤرخين في الإسلام، سومر، ٣٢ (١٩٧٦) ص ٣٣٩ - ٣٩٠.

- عبد الرقيب، يوسف: مستشفيات وأطباء في عهد الدولة الدوستكية، بين النهرين ٢١ (١٩٧٨) ص ٥ - ١٤.
- عروضي، نظامي: المقالات الأربع، ترجمة عبد الوهاب عزّام وتحقيق الخشّاب، القاهرة ١٩٤٩.
- عربـ بن سـدـ القرطـبيـ: صـلـةـ تـارـيـخـ الطـبـريـ، تـحـقـيقـ مـيكـالـ يـانـ دـيـ خـوـيـهـ، لـيدـنـ ١٨٩٧.
- الـعـلـيـ، صالحـ أـحـمـدـ: بـغـدـادـ (استـنـادـاـ إـلـىـ ابنـ الفـقـيـهـ الـهـمـذـانـيـ)، بـغـدـادـ، ١٩٧٧.
- عـمـرـ، فـارـوقـ: الـوـلـاءـ الـأـمـوـيـ فـيـ الـعـصـرـ الـعـبـاسـيـ، آفـاقـ عـرـبـيـةـ، ١٢ـ (١٩٧٨ـ) صـ ٥٧ـ - ٥٩ـ.
- الـعـمـريـ، ابنـ فـضـلـ اللـهـ شـهـابـ الدـينـ: التـعـرـيفـ بـالـمـصـلـحـ الشـرـيفـ، تـحـقـيقـ مـحـمـدـ مـسـعـودـ، القـاهـرـةـ، ١٣١٢ـ ١٨٩٤ـ.
- الـعـمـيدـ، طـاهـرـ مـظـفـرـ: بـغـدـادـ، مـديـنـةـ الـمـنـصـورـ الـمـدـوـرـةـ، النـجـفـ، ١٣٨٧ـ / ١٩٦٧ـ.
- الـإـمـارـةـ الـعـبـاسـيـةـ فـيـ سـامـراءـ، بـغـدـادـ، ١٩٧٦ـ.
- عـوـادـ، كـوـرـكـيـسـ: كـتـابـ الـدـيـارـاتـ لـلـشـاشـيـ، طـ. ١ـ، بـغـدـادـ، ١٩٥١ـ طـ. ٢ـ، بـغـدـادـ ١٩٦٦ـ. دـيـارـاتـ بـغـدـادـ الـقـديـمـةـ، دـيـارـاتـ الـجـانـبـ الـشـرـقـيـ، مجلـةـ مـجـمـعـ الـلـغـةـ السـرـيـانـيـةـ، ٢ـ (١٩٧٦ـ) صـ ٤٧ـ - ٧٤ـ، دـيـارـاتـ الـجـانـبـ الـغـرـبـيـ، ٣ـ (١٩٧٧ـ) صـ ٧٩ـ - ١٢٢ـ.
- عـوـادـ، مـيـخـائـيلـ: أـقـسـامـ ضـائـعـةـ مـنـ كـتـابـ تحـفـةـ الـأـمـرـاءـ فـيـ تـارـيـخـ الـوزـراءـ، هـلـالـ الصـابـئـ بـغـدـادـ، ١٩٤٨ـ.
- الفـهـرـيـسـ: أـنـظـرـ اـلـنـدـيـمـ.
- قـاسـمـ عـبـدـ قـاسـمـ: أـهـلـ الذـمـةـ فـيـ مـصـرـ الـعـصـورـ الـوـسـطـيـ، القـاهـرـةـ، ١٩٧٧ـ.
- الـكـامـلـ: اـنـظـرـ اـلـأـثـيـرـ.
- كتـابـجيـ، زـكـرـيـاـ: التـرـكـ فـيـ مؤـلـفـاتـ الـجـاحـظـ، بـيـرـوـتـ، ١٩٧٢ـ.
- كـحـالـةـ، عـمـرـ رـضاـ: أـعـلـامـ النـسـاءـ، خـمـسـةـ أـجـزـاءـ، دـمـشـقـ، ١٩٥٩ـ.

الكندي، أبو عمر محمد التجبي: كتاب ولادة مصر، تحقيق سهيل نصار،
١٣٧٩ / ١٩٥٩.

لؤلؤ ٢: أبي اللؤلؤ المنشور، ط ٢، حلب، ١٩٥٦، بقلم البطريرك
إغناطيوس افرايم برصوم.

ماري بن سليمان: أخبار بطاركة كرسى المشرق، تحقيق جيسموندي، روما،
١٨٩٩.

منز، آدم: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبد
الهادي أبو ريدة، القاهرة، ط ٤، ١٩٦٧.

السعودي، أبو الحسن: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق شارل بللا،
٧ أجزاء، الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٦٦ - ١٩٧٩.

كتاب التنبية والإشراف، تحقيق ميكال يان دي خويه، ليدن، ١٨٩٤.
مسكوني، يوسف يعقوب: الديارات النصرانية في بغداد وضواحيها في
العصور العباسية، المعرفة، ٢ (١٩٦٢) ص ٣٤ - ٤٠.

المقدسي، شمس الدين: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق ميكال
يان دي خويه، ليدن، ١٨٧٧.

النديم: كتاب الفهرست، تحقيق ج. فلوجل، ١٨٧١.
نشوار المحاضرة: أنظر التنوخي.

النصر الله، موسى فريد: آثار الديارات في العصر العباسية، رسالة، جامعة
القديس يوسف، بيروت، ١٩٧٢.

نظام الملك: سياسة نامة، نقله إلى العربية أحمد لواساني عنوان: سير
الملوك، أطروحة، جامعة القديس يوسف، بيروت، ١٩٧٩.

النwoي، محبي الدين: منهاج الطالبين، النص العربي وترجمته إلى الفرنسية
بقلم L.W.C. فان دن برغ، ثلاثة أجزاء، باتافيا، ١٨٩٢ - ١٨٩٤.

رياض الصالحين، قلّم له وراجعه حسن تميم، بيروت، د.ت.
النويري، شهاب الدين أحمد: نهاية الأرب في فنون الأدب، ١٨ جزءاً،
القاهرة ١٩٢٣ وما بعدها.

هلال الصابي: تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، تحقيق أمدروز، ١٩١٤.

رسوم دار الخلقة، مع ترجمة إلى الإنكليزية بقلم إيلي سالم، بيروت، ١٩٧٧ .

الممداي، محمد بن عبد الملك: تكميلة تاريخ الطبرى، تحقيق ألبرت كنعان،
بيروت ١٩٥٨ - ١٩٦٢ .

الواسطي، غازى: الرد على أهل الذمة، النص العربي وترجمته إلى الإنكليزية
بقلم ر. غوتبيل، في J.O.A.S XLI (١٩٢١) ص ٣٨٣ - ٤٥٧ .

ياقوت الحموي: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب (معجم الأدباء) تحقيق د.
س. مرغوليوت، سبعه أجزاء، القاهرة، ١٩٢٣ - ١٩٢٥ .

معجم البلدان، خمسة أجزاء، بيروت، ١٩٥٥ - ١٩٥٧ .

٢ - الدوريات

- آفاق عربية، بغداد، ١٩٧٥ وما بعدها.
- الأبحاث، الجامعة الأميركيّة في بيروت، ١٩٤٨ وما بعدها.
- بين النهرين، الموصل، ١٩٧٣ وما بعدها.
- تراث الشعبي، بغداد، ١٩٧٠ وما بعدها.
- سومر، بغداد، ١٩٤٥ وما بعدها.
- لسان الشرق، الموصل، ١٩٤٨ - ١٩٥٢.
- مجلة مجمع اللغة السريانية، بغداد، ١٩٧٥ وما بعدها.
- المسرح، لبنان، ١٩١٠ وما بعدها.
- المشرق، بيروت، ١٨٩٨ - ١٩٧٠.
- المعرفة، بغداد، ١٩٦١ وما بعدها.

ب - المصادر والمراجع الأجنبية

١ - الكتب والمقالات

ABOTT, NABIA, *Two Queens of Baghdad*, U. Chicago, 1946.

ABDUL HAQ, Historical Poems in the *Diwān* of Abū Tammām, *Islamic Culture*, XIV (1940), p. (17-29).

- Abū Tammām, his Life and Poetry, *Ibid*, XXVI² (1952), p. 16-41.

ABEL, ARMAND, Les marchés de Bagdad, essai historico-géographique: situation, voies d'accès, ressources, dans *Bulletin de la Société belge d'études géographiques*, XI², (déc. 1939), p. 148-164, 2 cartes.

ABRAMOWSKI, R., *Dionysius von Tellmahre, jakobitischer Patriarch von 818-845, Zur Geschichte der Kirche unter dem Islam*, Leipzig, (1940) 1966.

ABU HAYYAN, v. AL-TAWHIDI.

ABU'L-MAHASIN, v. IBN TAĞRIBIRDI.

ABU YUSIF YA'QUB, *Kitāb al-Harāğ* (livre de l'impôt foncier)

- tr. fr. E. FAGNAN, Paris, 1921.

- V. BEN SHEMESH.

AHMAD, L.I., *The Role of the Turks in Iraq during the Caliphate of Mu' taṣim* (218-227/833-842), Thèse Ph.D., Manchester, 1965.

ALLARD, MICHEL, Les chrétiens à Bagdad, dans *Arabica*, IX (1962), p. 375-388 (numéro spécial sur Bagdad).

ALLARD, MICHEL, Histoire de la pensée arabe et société, dans *Etudes philosophiques offertes au Dr. Ibrahim Madkour*, Le Caire, 1974, p. 121-130 (Commentaire de la lettre [de Ĝāhīz?] sur les secrétaires).

ALLOUCHE, I.S., Un traité de polémique arabo-chrétien au IXème siècle, dans *Hesperis*, XXVI (1939) p. 123-155 (Traduction de al-Radd 'ala 'I-Nasāra).

AMEDROZ, H.F., v. MISKAWA YH.

- Three Years of Buwayhid Rule in Baghdad (A.H. 389-393), *JRAS*, (1901) p. 501-536, 749-786 (= Hilāl).

- Abbasid Administration in its Decay, *JRAS*, (1913), p. 823-842.
- The Vizier Abū 'l Fadl b. al-'Amīd, *Der Islam*, III (1912), p. 323-351, = Miskawayh.
- The Tajārib al-umam of Abū 'Alī Miskawayh, *Der Islam*, V (1914), p. 335-357.

AMEDROZ, H.F. et MARGOLIOUTH, D.S., *The Eclipse of the Abbasid Caliphate, (Original Chronicles of the 4th Islamic Century)* Oxford-Londres, 1920-1921, 7 vol.

AMIN, HUSAYN, L'administration au temps des Salgūkides (ar.), *Sūmer*, XX (1964), p. 209-226.

ANAWATI, G.C., Polémique, apologie et dialogue islamo-chrétien, dans *Euntes docete*, (U. Pontif. Urbaniana), XXII (1969), p. 375-452.

ARKOUN, MOHAMMED, Contribution à l'étude de l'humanisme arabe au IVème/Xème siècle: *Miskawayh, philosophe et historien*, Etudes philosophiques, XII, Vrin, 1970.

ARKOUN MOHAMMED, Pour un remembrement de la conscience islamique, dans *Mélanges offerts à Henry Corbin*, Tehran, 1977, p. 191-215.

ARNALDEZ, ROGER, Les chrétiens selon le Commentaire de Rāzī, dans *Mélanges islamologiques* (vol. à la mémoire d'Armand Abel), éd. P. SALMON, Leiden 1974, p. 45-57.

ARNOLD, Th.W., *The Preaching of Islam*, éd. Sh.M. Ashraf, Lahore, 1961.
AL-ASNAWI, v. V. PERLMANN, M.

AL-BAGDADI, 'ABD ALLAH, Le livre des secrétaires, éd. et présentation D. SOURDEL, dans *BEO*, XIX (1952-1954), p. 128-153.

AL-BAGDADI, 'ABD AL-LATIF, K. al-Ifāda wa'l-I'tibār, tr. angl. The Eastern Key, par K.H. ZAND, JOHN A. et IVY E. VIDEAN, Londres, 1965.

AI-BAGDADI, AL-HATIB, (Abū Bakr A.b. 'Alī b. Tābit), v. *KRENKOW*.

BAR HEBRAEUS (Grégoire Abū'l-Farağ), *Chronicon Ecclesiasticum*, éd. syr., tr. lat. ABBELOOS J.B. et LAMY Th.J., 3 vol., Louvain, 1872-1877.

BAR KALDUN, JEAN, *Vie de Rabban Yousef Bousnaya*, tr. fr. CHABOT, J.B. ROC, II (1898).

BAUMSTARK, ANTON, *Geschichte der syrischen Literatur*, Bonn, 1922.

BEN SHEMESH, A., *Taxation in Islam*, 3 vol., Leiden, 1958-1969. = les trois spécimens restants de K. al-Harāğ: Vol. I, YAHYA b. ADAM AL-QURASI. Vol. II, QUDAMA b. GA'FAR Vol. III, ABU YUSIF.

BERNHAUER, A. WALTER, Mémoire sur les institutions de police chez les Arabes, les Persans et les Turcs: JA, 5ème série, XV (1860) p. 460-508; XVI (1860), p. 114-190, 347-392; XVII (1861) p. 5-76. En fait l'auteur n'est pas al-Nabrawī mais al-Šayzarī (m 589/1193).

- BETTS, ROBERT BRENTON, *Christians in the Arab East. A Political Study*. Athènes, 1975.
- B.H., v. BAR HEBRAEUS, *Chron. Eccl.*
- BIDAWID, R.j., v. TIMOTHEE.
- BOSWORTH, CLIFFORD EDMUND, *The Islamic Dynasties*. Edinburgh U.P., 1967.
- BOSWORTH, CLIFFORD EDMUND, v. TA 'ĀLIBĪ.
- BOUVAT, L., Les Barmécides, *Revue du monde musulman*, vol. XX, Paris, 1912.
- BOWEN, H., *The life and Times of 'Alī b. 'Isā, the Good Vizier*, Cambridge et Londres, 1928.
- BRAUN, O., v. TIMOTHEE.
- BROCKELMANN, CARL, *Geschichte der arabischen Litteratur (= GAL)*, 2 vo. et 3 suppléments, Leiden, 1943.
- BROOKS, B.W., Byzantines and Arabs in the Time of the Early Abbasids, dans *The English Historical Review*, XV (1900), p. 728-747; XVI (1901), p. 84-92.
- BUSSE, HERIBERT, *Chalif und Grosskönig, Die Buyiden im Iraq (945-1055)*, *Beiruter Texte und Studien*, Bd. 6, Beyrouth, 1969.
- CAETANI, L., *Annali dell'Islam*, 10 vol., Milan, 1905-1926.
- CAHEN, CLAUDE, Fiscalité, propriété, antagonismes sociaux en Haute Mésopotamie au temps des premiers Abbassides, d'après Denys de Tell Mahré, *Arabica*, I (1954), p. 136-152.
- _____, Compte rendu de F. LOEKKEGAARD, *Islamic Taxation*, dans *Arabica*, I (1954), p. 346-353.
- _____, L'histoire économique et sociale de l'Orient musulman ancien, dans *Studia Islamica*, III (1955), p. 93-115 (suggère thèmes d'études).
- _____, Mouvements et organisations populaires dans les villes de l'Asie musulmane, milices et associations de foutouwwa, dans *Recueils de la Société Jean Bodin*, VII (1955), p. 273-288.
- _____, Compte rendu de IBN GAWZI, *Mir'at al-zamān*, et YUNINI, Dayl, dans *Arabica*, IV (1957), p. 191-194.
- _____, L'Islam et les minorités confessionnelles au cours de l'histoire, dans *La table ronde*, no. 126, juin 1958, p. 61-72.
- _____, Mouvements populaires et autonomisme urbain dans l'Asie musulmane du Moyen-Age, dans *Arabica*, V (1958), p. 225-250; VI (1959), p. 25-26, 233-265.
- _____, La changeante portée sociale de quelques doctrines religieuses, dans *L'élaboration de l'Islam*, p. 5-22.

- _____, Histoire économico-sociale et islamologie: le problème de l'adaptation entre les autochtones et l'Islam, dans *Correspondance d'Orient*, no. 5, p. 197-215 (= *Colloque sur la sociologie musulmane*, Bruxelles, 1961).
- _____, Bagdad au temps de ses derniers califes, *Arabica* LX (1962), p. 289-302.
- _____, différents articles dans *E.I.*²
- CANARD, MARIUS, *Histoire de la dynastie des Hamdānides de Djazira et de Syrie*, t. I, Alger, 1951. (tables: dans *Arabica* XVIII (1971), p. 279-519).
- _____, Quelques «à côté» de l'histoire des relations entre Byzance et les Arabes, dans *Studi orientalistici in onore de Giorgio Levi Della Vida*, I, Rome (1956), p. 98-119.
- _____, Bagdad au IVème siècle de l'Hégire (Xème A.D.), dans *Arabica*, IX (1962), p. 267-288.
- CASPAR, ROBERT, Les versions arabes du dialogue entre le catholico Timothée I et le calife al-Mahadī (IIème/VIIème s.), dans *Islamochristiana*, III, (1977), p. 109-175.
- CERDIC (*Annuaire du* -, 1976) = Eglises et groupes religieux dans la société française, intégration ou marginalisation, (5ème colloque du Centre de Sociologie du Protestantisme, Strasbourg, 7-9 octobre 1976), Strasbourg, 1977, U. des sciences humaines de Strasbourg, Coll. Hommes et Eglises 8.
- CHABOT, JEAN BAPTISTE, *Littérature syriaque*, Paris, 1934 (Bibl. catholique des sciences religieuses).
- Chron. an. 813 = *Chronicon anonymum ad ann. Chr. 813 pertinens*, texte syr. éd. BROOKS, E.W., 1905, tr. lat. 1907, CSCO, Chronica minora III, T. vol. 5/Syr. 5, p. 243-260; V. Vol. 6/Syr. 6, p. 183-196.
- Chron. an. 846 = *Chronicon anonymum ad ann. p. Chr. 846 pertinens*, texte syr. éd. BROOKS, E.W., tr. lat. CHABOT, I.B., 1904, CSCO, Chronica minora II, T. vol 3/Syr. 3, p. 157-238; V. vol 4/Syr. 4, p. 121-180.
- Chron. 1234 = *Anonymi auctoris chronicon ad A.C. 1234 pertinens*, V. II, tr. ABOUNA, ALBERT, CSCO, vol. 354, Syr. 154, 1974. (= l'Edessénien anonyme.)
- DENNET, DANIEL C.Jr., *Conversion and the Poll Tax in Early Islam*, Harvard U. Press. 1950 (Harvard Historical Monographies, no. XXII); tr. ar. FAWZI FAHMI FAHIM. *al-Ǧizya wa'l-Islām*, Beyrouth, 1960.
- DE GOEJE, M.J., Mémoire sur la conquête de la Syrie, dans ses *Mémoires d'histoire et de géographie orientales*, 2ème éd., Leiden, 1886.
- DELLY, E.K., *La théologie d'Elie Bar Šénaya*, Rome, 1957 (Studia Urbaniana, 1).
- DENYS DE TELL MAHRÉ, *Chronique* (4ème partie), tr. fr. CHABOT, J.B., Bibl. Hautes Etudes, fasc. 112, Paris, 1895. Ed. complète CHABOT,

J.B. et BROOKS, E.W. CSCO vol. 91 et 104; tr. partielle, CHABOT, J.B., CSCO vol. 121.

DONOHUE, JOHN JOSEPH, *The Development of Political and Social Institutions in Iraq under the Buwayhids*, 334-403 H., Thèse Harvard U., 1966 (dactylographiée).

DOZY, R.P.A., *Al-mu'gam al-mufassal bi asmā' l-malābis 'ind al-'Arab*, tr. ar. par AKRAM FADHIL (Bagdad, 1971) du *Dictionnaire détaillé des noms de vêtements chez les Arabes* (1843).

DUNLOP, D.M., The Translations of al-Bitrīq and Yahya [Yūhanā] b. al-Bitrīq, *JRAS*, 3d series, 1959, part 3/4, p. 140-150.

EDELBY, NEOPHYTE, *Essai sur l'autonomie législative et juridictionnelle des chrétiens d'Orient sous la domination musulmane*, Thèse dactylographiée U. Latran, Rome, 1951.

L'élaboration de l'Islam, Colloque 1959 du Centre d'études d'histoire des religions, Strasbourg, PUF, 1961.

ELGOOD, CYRIL, *A Medical History of Persia and the Eastern Caliphate*, Cambridge U.P., 1951.

ELIE DE NISIBE (Bar Šināya) *Chronographie = La chronologie d'Élie bar Šināya*, tr. fr. DELAPORTE, L.J., Bibl. des Hautes Etudes, fasc. 181, Paris, 1910.

_____, *Opus chronologicum = Eliae metropolitae Nisibenii, Opus chronologicum*, T. syr. et V. lat. BROOKS, E.W. et CHABOT, J.B., CSCO vol. 62*, 62**, 63* et 63**.

ELISSÉEF, NIKITA, *Nur ad-Din*, 3 vol., PIFD, 1967.

_____, *Thèmes et motifs des Mille et une Nuits*, PIFD, 1949.

E.N., v. *Élie de NISIBE*.

EUTYCHIUS, v. SA'ID b. AL-BITRIQ.

FARES, BISHR, *Vision chrétienne et signes musulmans*, Mém. Inst. Eg., 56 (1961).

FATTAL, ANTOINE, *Le statut légal des non-musulmans en pays d'Islam*, coll. *Recherches*, X. Beyrouth, 1958.

FIEY, J.M., Rūm à l'est de l'Euphrate, dans *Le Muséon*, XC (1977), p. 365-420.

FINKEL, JOSHUA, A risāla of al-Jāhiz, dans *JOAS*, XLVII (1927), p.311-334.

FRAYHA, ANIS, Influence of Syriac Grammar on Arabic, dans *al-Abhath*, XIV (1961), p. 39-60.

GAL v. BROCKELMANN.

GARDET, LOUIS, *La cité musulmane*, Paris, 1954.

- _____, Philosophie et religion en Islam avant l'an 330 H., dans *L'élaboration de l'Islam*, p. 39-60.
- _____, *Les hommes de l'Islam, Approche de mentalités*, coll. Le Temps et les hommes, Paris 1977.
- GARSOIAN, NINA G.**, Le rôle de la hiérarchie chrétienne dans les rapports diplomatiques entre Byzance et les Sassanides, dans *Revue des Etudes Arméniennes*, Nelle série, X (1973-1974), p. 119-138.
- GCAL, V. GRAF**.
- GEORR, KHALIL**, *Les catégories d'Aristote dans leurs versions syro-arabes*, Beyrouth, 1948.
- GERMANUS, JULIUS**, The Role of the Turks in Islam, dans *Islamic Culture*, VII (1933), p. 519-532 et VIII (1933), p. 1-15.
- GOLDZIHER, IGNAZ**, Zür Literatur des Ichtilāf al-madāhib, *ZDMG*, XXXVIII (1884), p. 669-682.
- _____, Usages juifs d'après la littérature religieuse des musulmans, dans *Revue de Etudes Juives*, XXVIII (1894), p. 75-94.
- GOTTHEIL, RICHARD**, A Fetwa on the Appointment of Dhimmis to Office, dans *Zeitschrift für Assyriologie*, XXVI (1912), p. 203-214.
- GRAF, GEORG**, *Geschichte der christlichen arabischen Literatur*, 5 vol., Vatican, 1944-1953 (= *Studi e Testi*, vol. 118, 133, 146, 147, 172).
- HAGE, WOLFGANG**, *Die Syrish-Jakobitische Kirche in Frühislamischer Zeit*, Wiesbaden, 1966.
- HARTMANN, ANGELIKA**, La conception gouvernementale du calife an-Nāṣir li-Dīn Allāh, dans *Orientalia Suecana*, XXII (1973), p. 52-61.
- _____, *An-Nāṣir, li-Dīn Allāh (1180-1225), Politik, Religion, Kultur in der später 'Abbāsidenzeit*, W. de Gruyter, Berlin-New York, 1975.
- HILĀL (AL-SABI)**, V. AMEDROZ, *Three Years*.
- HAMIDULLAH, MUHAMMAD**, Nouveaux documents sur les rapports de l'Europe avec l'Orient musulman au Moyen-Age, dans *Arabica*, VII (1960), p. 281-300.
- INAYATULLAH, SH.**, Contribution to the Historical, Study of Hospitals in Medieval Islam, dans *Islamic Culture*, XVII (1944), p. 1-14.
- IBN AL-BANNA'**, v. *MAKDISI, G.*
- IBN AL-NAQQĀŠ, MUHAMMAD b. AL-DAKKALI**, *Fatwa sur la condition des dhimmi*, tr. M. BELIN, J.A., VIII (1851), p. 417-516; XIX (1852), p. 97-140.
- IBN QUDAMA**, *Précis de droit*, tr. H. LAOUST, PIFD, 1950.
- JEAN (moine)**, *Eloge du patriarche nestorien Mār Denha Ier (1265-1281)*, éd. P. BEDJAN, *Vie de Yahwālāhā*, éd. 1895, p. 332-346; Tr. CHABOT, J.B., J.A., 9ème série, V (1895), p. 110-141.
- JEAN b. KALDUN**, *Histoire de Rabban Youssef Bousnāya (+ 979)*, tr.

- CHABOT. J.B., *ROC*, 1900.
- KABIR, MAFIZULIA, Libraries and Academies during the Buwayhid Period, dans *Islamic Culture*, XXXIII (1959), p. 31-33.
- KAUFHOLD, HUBERT, *Syrische Texte zum islamischen Recht (Johannes V. b. Abgārē)*, Munich, 1971.
- _____, *Die Rechtssammlung des Gabriel von Basra und ihr Verhältnis zu den anderen juristischen Sammelwerken der nestorianer*, Berlin, 1976.
- KAWERAU, PETER, *Die jakobitische Kirche im Zeitalter der syrischen Renaissance, Idee und Wirklichkeit*, Berlin, 1960.
- KHALIL, SAMIR, *Deux cultures qui s'affrontent: Une controverse sur L'Irāb au XIème s., entre Elie de Nisibé et le vizir Abū 'l-Qāsim*, dans *Mélanges H. Fleisch*, II, p. 619-649. [= *MUSJ*, 49 (1975-1976)].
- KHAN, M.S., The Eye-witness Reporters of Miskawayh's Contemporary History dans *Islamic Culture*, XXXVIII (1964), p.295-313.
- EL-KHATIB, NACHEAT, *Etude historique de l'époque abbasside à travers le K. al-Agānī*, thèse Paris Sorbonne, 1975, (ronéotypée).
- KRENKOW, FRITZ, The Tarikh Baghdad (vol. XXVII) of the Khatib Abu Bakr b. Ahmad b. Thabit al-Baghdadi, Short Account of the Biographies, *JRAS*, 1912, p. 31-79; Appendix, p. 77-79, The Appearance of the Prophet in Dreams.
- DE LACY O'LEARY, *How Greek Science Passed to the Arabs*, Londres, 1949/1951.
- LAOUST, HENRI, Ibn Katīr historien, dans *Arabica*, II (1955), p.42-88.
- _____, *La profession de foi d'Ibn Battā*, PIFD,.. 1958.
- _____, Le Hanbalisme sous le califat de Bagdad (241-656/855-1258), *REI*, XXVII (1959), p. 69-128.
- _____, *Les schismes dans l'Islam*, Paris, 1965.
- _____, Les agitations religieuses à Bagdad aux IVème et Vème s. H., dans *Islamic Civilisation, 950-1150*, vo. 3. Papers on Islamic History, p. 169-185. (= *Colloquium Oxford*, 1969) éd. D.S. RICHARDS, Oxford, 1973.
- _____, v. *Ibn QUDAMA*.
- LECOMTE, GÉRARD, *Le traité des divergences du hadith d'Ibn Quatayba*, tr. annotée du K. Ta'wīl muḥalif al-hadīt, PIFD, 1962.
- _____, *Ibn Qutayba, L'homme, son œuvre, ses idées*, PIFD, 1965.
- LE STRANGE, GUY, *The Lands of the Eastern Caliphate*, 3ème éd., Londres, 1966.
- _____, *Baghdad during the Abbasid Caliphate*, Oxford, 1900.
- LEVY, REUBEN, *A Baghdad Chronicle*, Cambridge U. Press, 1929.
- LEWIS, BERNARD, *Studies in Classical and Ottoman Islam (7th-16th. c.)*, Variorum Reprints, Londres, 1976.

- MAKDISI, GEORGE**, Notes on Hilla and the Mazyadids in Medieval Islam, dans *JAOS*, LXXIV (1954), p. 249-262.
- _____, Ibn al-Bannā', Autograph Diary of an Eleventh-Century Historian of Baghdad, dans *BSOAS*, XVIII (1956), p. 9-31, 239-260; XIX (1957), p. 13-48, 281-303, 426-443.
- _____, The Topography of Eleventh Century Baghdad, Materials and Notes, dans *Arabica*, VI (1959), p. 178-197, 281-309.
- _____, *Ibn 'Aqil et la résurgence de l'Islam traditionnel au XIème s.* (Vème s. H.) PIFD, 1963.
- AL-MAQRIZI, TAQI'L-DIN AHMAD**, *Histoire des Sultans Mamlouks de l'Egypte*, (tr. M. QUATREMERE du K. *al-sulūk fī ma'rifat duwal al-mulūk*), 2 vol., Paris, 1845.
- MARGOLIOUTH, D.S.**, Some extracts from the K. al-imtā 'wa 'l-mu'ānasa of *ABU HAYYAN AL-TAWHIDI*, dans *Islamica* II (1926), p. 380-390.
- _____, Wit and Humour in Arabic Authors, dans *Islamic Culture*, I (1927), p. 522-534.
- _____, Meetings and Salons under the Caliphate, dans *Islamic Culture* III (1929), p. 1-17.
- MASON, HERBERT**, *Two Statesmen of Medieval Islam*, Mouton, La Haye-Paris, 1972.
- MASSIGNON, LOUIS**, La politique islamo-chrétienne des scribes nestoriens de Deir Qunna à la cour de Bagdad au IXème siècle, dans *Vivre et penser (Revue biblique)*, II (1942), p. 7-14; repris dans *Opuscula Minora*, I, p. 250-257, Beyrouth, 1963.
- _____, *La passion de Hallâj*, 2ème éd., NRF, 1975, 4 vol.
- MAWARDI, v. LAOUST.**
- MEYERHOF, MAX**, On the Transmission of Greek and Indian Science to the Arabs, dans *Islamic Culture*, XI (1937), p. 17-29.
- M.S. = MICHEL LE SYRIEN (LE SYRIAQUE)**, *Chronique de -*, éd. syr. et tr. fr. J.B. CHABOT, 4 vol., Paris 1899-1910, (et Bruxelles, 1963).
- MINGANA, ALPHONSE**, A Charter of Protection Granted to the Nestorian Chruch in A.D. 1138, by Muktafi, Caliph of Baghdad, dans *The Bulletin of the John Rylands Library*, X (1926).
- _____, Timothy's Apology, repris dans *Woodbrooke Studies*, II, Cambridge, 1928, préf., tr. et texte, p. 1-162.
- MORONY, MICHAEL C.**, Religious Communities in Late Sasanian and Early Muslim Iraq, dans *JESHO*, XVII (1974), p. 113-135.
- MORSY, ZAGHLOOL**, *La tolérance, essai d'anthologie*, Editions arabes, Lyon, 1975 (UNESCO).
- MOUBARAC, YOUAKIM**, Note sur les chrétiens et les lettres arabes, dans

- Mémorial du cinquantenaire (1914-1964)*, Ecole des Langues Orientales Anciennes de l'Inst. Cath. de Paris, p. 123-130.
- MUFADDAL b. AL-FADA'IL**, *Histoire des sultans mamelouks*, texte ar. et tr. fr. E. BLOCHET, P.O., XII, p. 343-550; XIV, p. 375-672; XX, p. 1-269.
- MUIR, W.**, *The Caliphate, its Rise, Decline and Fall*, Beyrouth, 1963.
- Muntazam**, v. *IBN AL-ĞAWZI*.
- NADVI, S.S.**, The Origins of the Barmakids, dans *Islamic Culture*, VI (1932), p. 19-28.
- NARSALLAH, J.**, Abū 'l-Farağ al-Yabrūdī, médecin chrétien de Damas, Xème-XIème s., dans *Arabica*, XXIII (1976), p. 13-22.
- _____, Nazif b. Yumn, médecin, traducteur et théologien melkite du Xème s. dans *Arabica*, XXI (1974), p. 303-312.
- NAU, FRANCOIS**, Les traductions du grec en syriaque au VIIème s., *RHL*, IC (1929), p. 256-287.
- NWYIA, PAUL**, Actualité du concept de religion chez Hunayn b. Ishaq, dans *Arabica*, XXI (1974), p. 313-317.
- _____, Un dialogue islamo-chrétien au IXème s., dans *Axes*, IX. 5 (1977), p. 7-22.
- OMAR, FAROUK**, *The Abbasid Caliphate (132-170/750-786)*, Bagdad, 1969.
- _____, Some Observations on the Reign of the 'Abbāsid Caliph al-Mahdī (158-169/775-785), dans *Arabica*, XXI (1974), p. 139-150, et *Sūmer* XXX (1974), p. 195-203.
- _____, A General Sketch of the Attitude fo the Early Abbasids towards Ahl al-Dimma, dans *Journal of the Syriac Academy*, I (1975), p. 29-35.
- _____, The Relations between the mu'tazilites and the Abbasids before al-Ma'mūn, dans *Sūmer*, XXXII (1976), p. 189-194.
- ORTIZ DE URBINA**, *Patrologia syriaca*, 1ère éd., Rome, 1958: 2ème éd. 1965.
- PELLAT, CHARLES**, Ğāhīz à Bagdad, *Rivista degli studi orientali*, XXVII (1952), p. 47-67.
- _____, Le dernier chapitre des Avares, de Ğāhīz, dans *Arabica*, III (1955), p. 322-352.
- _____, Al-Ğāhīz, pionnier de la géographie humaine (en arabe), *Machriq*, LX (1966), p. 165-205.
- _____, Essai d'inventaire de l'œuvre ğāhīzienne, dans *Arabica* III (1956), p. 147-180.
- _____, Une charge contre les secrétaires d'Etat, attribuée à Ğāhīz, dans *Hesperis*, XLIII (1956), p. 29-50.
- _____, Al-Ğāhīz: les nations civilisées et les croyances religieuses (K. al-ahbār wa Kayfa taṣihḥ), dans *JA*, CCLV (1967), p. 65-90. Reproduit dans

Etudes sur l'histoire socio-culturelle de l'Islam (VIIème-XVème s.),
Varioum Reprints, 1976 [V].

PERLMANN, MOSHE, Asnawi's Tract against Christian Officials, dans *Ignace Goldziher Memorial Volume*, Jérusalem, part 2, 1958, p. 172-208; réédition: *Al-kalimat al-muhimma fi mubāšarat ahl al-dimma*, U. Brookline (Mass.), 1969.

PINTO, OLGA, The Libraires of the Arabs during the Time of the Abbasids, tr. angl. F. KRENKOW, dans *Islamic Culture*, III (1929), p. 210-243.

PUTMAN, HANS, *L'Eglise et l'Islam sous Timothée I (780-823)*, coll. Recherches, nouvelle série, B. Orient chrétien, 3, Beyrouth, 1975.

QUDAMA, ABU'L-FARAĞ, GA'FAR AHMAD MAKKI, *Qudāma b. Ḥaḍāra et son œuvre*, thèse, Paris, 1955 (dactylographiée).

QUDAMA, ABU'L-FARAĞ, b. GA'FAR, AHMAD MAKKI, v. BEN SHEMES SH.

RONDOT, PIERRE, L'évolution historique des Coptes, dans *Cahiers de l'Orient contemporain*, XXII (1950), p. 129-155; (compte-rendu de TAGHER). SA'ID b. AL-BITRIQ, *Annales*, éd. L. CHEIKHO, B. CARRA DE VAUX, H. ZAYAT, CSCO, vol. 51, p. 1-88 (complété par YAHYA b. SA'ID, q.v.).

SALMON, G., *Introduction topographique à l'Histoire de Bagdad d'al-Khatib al-Baġdādī*, Bibl. Hautes Etudes, fasc. 148, Paris, 1904.

SAUVAGET, JEAN, *Historiens arabes*, Paris, 1946 (= Initiations à l'Islam, V)

SCHLUMBERGER, GUSTAVE, *L'épopée byzantine, à la fin du Xème s.*, Paris 1900.

SEGAL, J.B., Syriac Chronicles as Source Material for the History of Islamic Peoples, p. 246-258, dans *Historians of the Middle East*, éd. B. LEWIS et P.M. HOLT, Oxford U. Press, 1962.

SELB, WALTER, 'Abdīšō' b. Bahrīz Vienne, 1970.

SHEDD, WILLIAM AMBROSE, *Islam and the Oriental Churches, Their Historical Relation*, Philadelphie, 1904.

SIVAN, EMMANUEL, Notes sur la situation des chrétiens sous les Ayyūbides, dans *RHR*, CLXII, (1967), p. 117-130.

_____, *L'Islam et la Croisade*, Paris, 1968.

SOMOGYI, J. de, The K. al-Muntazam of Ibn al-Jawzī, dans *JRAS*, (1932), p. 49-76.

SOURDEL, DOMINIQUE, Le «Livre des secrétaires» de Abd Allah al-Bagdādī, dans *BEO* (Damas), XIV (1952-1954), p. 115-153.

_____, La valeur littéraire et documentaire du «Livre des vizirs» d'al-

- Ǧahšiyārī, d'après le chapitre consacré au califat de Hārūn al-Rašīd, dans *Arabica*, II (1955), p. 193-210.
- _____, Fragments d'al-Šūlī sur l'histoire des vizirs 'abbāsides, dans *BEO*, XV (1955-1957), p. 99-108.
- _____, Nouvelles recherches sur la seconde partie du «Livre des vizirs» d'al-Ǧahšiyārī, dans *Mélanges Louis Massignon*, PIFD, III, 1957, p. 271-299.
- _____, *Le vizirat 'abbāside de 749 à 936*, 2 vol., PIFD, 1959-1960.
- _____, La politique religieuse des successeurs d'al-Mutawakkil, dans *Studia Islamica*, XIII (1960), p. 5-21.
- _____, La politique religieuse du calife al-Ma'mūn, dans *REI*, XXX (1962), P. 27-48.
- _____, Un pamphlet musulman anonyme d'époque abbasside contre les chrétiens, dans *REI*, XXXIV (1966), p. 1-33.
- AL-SULI, ABU BAKR MUHAMMAD b. YAHYA**, *Al-Awrāq: Ābān al-Lāhiqī, le zindiq*, éd. ar., introduction et étude en russe et français, par A.E. KRYMSKI.
- TEOPHANES**, *Chronographia*, éd. grecque et tr. lat. J. CLASSEN, vol. I, Bonn, 1839, (C.S. Historiae Byzantinae).
- TIBAWI, A.L.**, Christians under Muhammed and his first two Caliphs, dans *The Islamic Quarterly*, VI (1961), p. 30-46.
- TIMOTHÉE**, *Timothei Patriarchae I, epistulae*, CSCO., vol. 74, 75, O. BRAUN, 1914-1915.
- _____, *Les lettres du patriarche nestorien 1^{er}*, R.J. BIDAWID, Rome, 1956 (Studi e Testi, 187).
- TIMOTHÉE**, v. PUTMAN.
- TISSERANT, EUGÈNE**, art. Nestorienne (Eglise), dans *DTC*, XI.1 (1931), col. 157-323.
- TOHMÉ, ANTOINE**, *Intérêt pour l'histoire sociale de «la réfutation des chrétiens» de Ǧāhīz*, mémoire, Beyrouth, 1977 (ronéotypé).
- TRITTON, A.S.**, Islam and the Protected Religions, *JRAS*, (1928), p. 485-508.
- _____, *The Caliphs and their non-Muslim Subjects*, Oxford, 1930.
- _____, Islam and the Protected Religions, *JRAS*, (1931), p. 311-338.
- _____, Sketches of Life under the Caliphs, extraits de MUHAMMAD b. HILĀL AL-SĀBI K., al-Hafawāt, ms., dans *The Muslim World*, LIV (1964), p. 104-111, 170-179.
- TROUPEAU, GÉRARD**, Recherches sur un médecin-philosophe de Bagdad:

- Ibn Atradī (XIème s.), dans *Mémorial Mgr Gabriel Khouri-Sarkis*, Louvain 1969, p. 259-262.
- TURAN, OSMAN, Les souverains saljoukides et leurs sujets non-musulmans, dans *Studia Islamica*, (1953), p. 65-100.
- VAJDA, G., Une liste d'autorités du calife al-Nāṣir li Dīn Allāh, dans *Arabica*, VI (1959), p. 173-177.
- _____, art. Ahl al-Kitab, dans *E.I.*² s.v.
- WALZER, R., *Greek into Arabic, Essays on Islamic Philosophy*, Oriental Studies, I, Londres et Oxford, 1962.
- WIET, GASTON, *Soieries persanes*, Mémoires de l'Institut d'Egypte t.52, Le Caire, 1947.
- _____, Le «Traité des famines» de Maqrīzī, dans *JESHO*, V (1962), p.58.
- YAHYA b. SA'ID, *Annales*.
- _____, éd. ar. L. CHEIKHO, B. CARRA DE VAUXM H. ZAYAT, dans CSCO, vol. 51, p. 91-273.
- _____, éd. et tr. fr. *Histoire de Y. d'Antioche*, I. KRATCHKOVSKY et A. VASILEV, P.O XVIII p. 699-834; XXIII, p345-520.
- ZAYAT, HABIB, (ar.), *Les Juifs au temps des califes abbassides*, *Machriq*, XXXVI (1938) p. 149-173 (repris dans *Hizāna* III, 1946, p. 54-78).
- _____, *Martyrs chrétiens en Islam*, *Machriq* XXXVI (1938) p. 459-465 (*Hizāna*, III p. 102-108).
- _____, *La Capitation des chrétiens en Islam*, *Machriq* XLI (1947), p. 145-156, (*Hizāna*, IV, 1948, p. 54-65).
- _____, *Noms, prénoms et surnoms chrétiens en Islam*, *Machriq* XLII (1948) p. 1-21, (*Hizāna*, I, 1952, p. 1-21)
- _____, *Signes distinctifs des chrétiens et des juifs en Islam*, *Machriq* XLIII, (1949) p. 161-292 (Tiré à part, 1950, 94 pp.)

٢ - الدوريات والسلالسل

Arabica, Paris, 1954 ss.

Axes, Paris, 1969 ss.

BEO = *Bulletin d'Etudes Orientales*, Damas, 1931, ss.

BGA = *Bibliotheca Geographorum Arabicorum*, Leiden, 1917, ss.

BSOAS = *Bulletin of the Royal School of Oriental Studies*, Londres, 1917, ss.

Bulletin de la Société d'Archéologie Copte, Le Caire, 1935, ss.

Byzantion, Bruxelles, 1924 ss.

Cahiers Archéologiques, Paris, 1945, ss.

Correspondance d'Orient, Bruxelles, 1962, ss.

CSCO = *Corpus Scriptorum Christianorum Orientalium*, (Paris) Louvain-Washington, 1903, ss.

DHGE = *Dictionnaire d'Histoire et Géographie Ecclésiastiques*, Paris, 1912, ss.

DTC = *Dictionnaire de Théologie Catholique*, Paris, 1930, ss.

E.I. = *Encyclopédie de l'Islam* (éd. fr.), Leiden-Paris.

*E.I.*¹ = 1ère éd. et supplément, 1908-1938.

*E.I.*² = 2ème éd., 1954, ss.

ETI = *En Terre d'Islam*, Alger-Lyon, 1925-1948.

Etudes, Paris, 1856, ss.

Hesperis, Maroc, 1921, ss.

Iraq, Londres, 1934, ss.

Islam (Der --), Berlin-Leipzig, 1910, ss.

Islamic Culture, Hyderabad, 1927, ss.

Islamic Quarterly, Londres, 1954, ss.

Islamica, New York, 1924, ss.

- Islamochristiana*, Rome, 1975, ss. (Dirasāt islāmiya masīhiya).
- JA** = *Journal Asiatique*, Paris, 1822, ss.
- JAOS** = *Journal of the American Oriental Society*, Yale, 1843, ss.
- JESHO** = *Journal of the Economic and Social History of the Orient*, Leiden, 1958, ss.
- Journal of the Syriac Academy*, v. Mağallat.
- JRAS** = *Journal of The Royal Asiatic Society*, Londres, 1834, ss.
- Lumière et Vie*, Lyon, 1951, ss.
- MIDEO** = *Mélanges de l'Institut Dominicain d'Etudes Orientales*, Le Caire, 1954, ss.
- MIE** = *Mémoires de l'Institut d'Egypte*, Le Caire, 1919, ss.
- Muséon* (Le --), Louvain, 1881, ss.
- MUSJ** = *Mélanges de l'Université Saint Joseph* (ex *Mélanges de la Faculté Orientale*), Beyrouth, 1906, ss.
- Muslim World* (The --), Hartford, 1911, ss.
- Nouvelle Revue du Caire*, 1975, ss.
- Nouvelle Revue Théologique*, Louvain, 1869, ss.
- OC** = *Oriens Christianus*, Rome-Leipzig, 1901, ss.
- OCA** = *Orientalia Christiana Analecta*, Rome, 1935, ss.
- OCP** = *Orientalia Christiana Periodica*, Rome, 1935, ss.
- Oriens*, Leiden, 1948, ss.
- Orientalia Suecana*, Uppsala, 1952, ss.
- OS** = *Orient Syrien* (L'--), Paris, 1956-1967.
- PIFD** = *Publications de l'Institut Français de Damas*, 1933, ss.
- PO** = *Patrologia Orientalis*, Paris, 1903, ss.
- POC** = *Proche Orient Chrétien*, Jérusalem, 1951, ss.
- Revue des Etudes Arméniennes*, Paris, 1920-1932, 1964, ss.
- REI** = *Revue des Etudes Islamiques*, Paris, 1927, ss.
- Revue des Etudes Juives*, Paris, 1880, ss.
- Revue d'Histoire des Religions*, Paris, 1880, ss.
- Revue du Monde Musulman*, Paris, 1906-1926 (puis: *REI*).
- ROC** = *Revue de l'Orient Chrétien*, Paris, 1896-1946.
- RSO** = *Rivista degli Studi Orientali*, Rome, 1922, ss.
- Studia Islamica*, Paris, 1954, ss.
- SOC** = *Studia Orientalia [Christianæ]*, Le Caire, 1958, ss. (Id. Collectanea).
- Table Ronde* (La --), Paris, 1948, ss.
- Travaux et Mémoires*, Paris, 1965, ss.
- ZA** = *Zeitschrift für Assyriologie*, Leipzig-Berlin, 1886, ss.
- ZDMG** = *Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft*, Leipzig, 1846, ss.

the first time in the history of the world, the people of the United States have been called upon to decide whether they will submit to the law of force, or the law of the Constitution.

—

—

—

—

—

—

—

—

—

—

—

—

—

—

—

—

مقدمة المترجم

ربما كان من العصي أن تُجمع الواقع التاريخية كلها حول موضوع معين، والأمانة العلمية تقضي، مع ذلك، جمع أقصى ما هو متاح منها. والمؤرخ أمام هذا الحشد العظيم من الواقع لا يملك إلا أن يستقرئ بعض الأحكام، كما أنه معَرض لمشكلة صعبة هي: كيف يتجلب، قدر الوسع والطاقة، الحكم المنحاز الذي يصدر تارةً عن هوِي المؤرخ (سواء أكان شخصياً أو محكوماً ببيعته لطائفة اجتماعية) وطوراً عن مسلمات ميتافيزيقية لا تقع تحت التجربة والبرهان. وتشاء الأقدار أن يكون أبسط هذه الأحكام أقرها بيته، وأكثرها تعبيها، وأبعدها عن احتواء العدد الأكبر من الواقع الجزئية بنظر الاعتبار.

لا يقبل الأب فيه بالنظرية الميتافيزيقية إلى العلاقة بين النصاري وبين دولة المسلمين في الشرق. لأنَّه لا يرى لهؤلاء ولا لهذه صفات «الكل» المتجانس، أو الكيان الميتافيزيقي ذي الصفات الجوهرية التي لا مدخل للصيرورة فيها. بل إنَّ نظرته المركزة على الجزئيات تفرغ تاريخ العلاقة من مضمونه الأسطوري: موقف دولة المسلمين من النصاري ليس نابعاً من ماهيَّته الخارجية عن الزمن، ولكنَّه نابع من تاريخ هذه الدولة وظروف تشكيلها وملابساته، فضلاً عن الظروف الخارجية. ففي الممارسة الفعلية للسلطة مجال للتناقض والجهل والخطأ والحسابات الشخصية، والكثير من قرارات ولاة الأمور تصدر عن مثل هذا.

لذلك يستنبط المؤلف الواقع الجزئية على هدي التغيرات التاريخية والظروف المحلية ويحرص على وضع شهادات المؤرخين المسلمين إلى جانب غيرها من شهادات

المؤرخين النصارى لتقدير ما كان يجري، فيخلص إلى أن الموقف من النصارى كان محكمًا بإحداثيات الزمان والمكان، وأن هبّات «الاضطهاد»، إذا صحّ أن تُسمّى كذلك، كانت على قلتها متفرقة لا شاملة، ناشئة عن احتكاكات فردية لا عن سياسة منظمة مقصودة.

ولئن جاز لنا أن نستخلص العبرة من امتحان الأب فيه الحكم بالهوى (على علاقة النصارى بال المسلمين) أمام التاريخ، قلنا: إنّ هذا الحكم حكم قارّ لا يعبر عن توجّات التاريخ، إنه مسخ هائل تعجز أصابعه الضخمة عن الإمساك بجزئيات التاريخ لتأمّلها.

والكتاب، بعد هذا، جزء من ثلاثة تتناول أحوال النصارى السريان في ظلّ الساسانيين فالعباسيين فالمغول. وكان المؤلّف الذي نزل بالموصى في العام ١٩٣٩، ولم يزل مقيداً في المشرق منذئذٍ، قد مهدّ هذه الثلاثية بأربعة مجلّدات تستقصي كلّ ما يُعرف عن الديارات والكنائس والمواقع النصرانية بالعراق، ومقالات عديدة عن نصارى إيران القديمة، جمعت في مجلّد نُشر بلندن، وكتابات أخرى عن مؤلفات وشخصيات وأحداث مهمة في تاريخ السريان.

وقد طلّبت مني ترجمة هذا الكتاب التحقّق من اقتباساته العربية، فوقفتُ عليها واحدة واحدة وضبّطتها على أصوّلها، ثمّ قرأتُ الترجمة على المؤلّف في جلسات مطولة لا تُنسى، كان من ثمارها مزيد من التدقّق في بعض المصادر، وتصحيح بعض المعلومات على هدي الدراسات التي استجددت منذ صدور الأصل الفرنسيّ سنة ١٩٨٠. ونظرًا إلى اشتغال النصّ على أسماء مواضع ومفردات وعبارات غير مألوفة، ألحّقت بالكتاب ملحقاً ألفبائيّاً في التعريف بها.

المقدمة

لقد كُتِبَت عدّة تواريُخ للكنائس السريانية في ظل العَبَاسِيَّين، وقد وُصُفت فيها حياة الكنائس الداخلية وتنظيمها وإشعاعها الروحي والفكري والرسالي بكثير من الاقتدار.^(١) على أنَّ أعمَالَ البحاثة المشرقيَّين لم تحظ بنصيب مماثل من الشهرة: فقد أثمرت أعمَالَ المأسوف عليه رفائيل بابُو إسحق البغدادي والعلامة حبيب الزبيَّات ثماراً جمِّة، ولا سيَّما بفضل معرفة الأخير الواسعة بجموعات المخطوطات.^(٢)

وقد نشرت^(٣) أنا، خصوصاً منذ ١٩٥٩، كلَّ ما وجدته سواء في المصادر المكتوبة أو في أرض المشرق عن الأبرشيات والأماكن والأديرة والقوائم الأسقفيَّة والسنكسارات، إلخ. كان لا بدَّ من إحصاء تلك الأماكن كلَّها والتثبت منها وتحديد مواقعها، كما لم يكن بدَّ من إحصاء أولئك الأشخاص المذكورين في حياة الكنائس والتثبت من أسمائهم ونسبتهم إلى بلدانهم. وقد تمَّ هذا العمل التمهيدي استناداً إلى المصادر المسيحية السريانية والعربية بشكل أساسي.

بيد أنَّ المصادر المسيحية السريانية الأصل لا تكفي. فقد عاش السريان مع جماعات مسيحية أخرى كالأرمن والأقباط والملكيَّين بين ظهرانيَّ شعوب إسلامية كالفرس والترك والعرب خصوصاً. وإنَّ أخبار البطاركة التي جمعها كلَّ من ماري وصليباً للمشارقة من السريان، وتاريخ ديونيسيوس التلمحري وميخائيل السرياني وابن العربي والرهاوي المجهول، إلخ، للمغاربة من السريان، تذكر ذكرًا عابرًا (وفي أغلب الأحيان مشوَّهًا) أسماء أصناف شتَّى من الشخصيات: نصارى علمانيَّين من

أطباء وكتاب، أو حكام غير نصارى من وزراء وأمراء وسلاطين وخلفاء ومن شاكلهم. فمن أجل التتحقق من هؤلاء، وفهم علاقاتهم في ما بينهم وبالتالي، كان لا بدّ من الالتفات إلى المصادر الإسلامية، والعربية منها بخاصة.

في رأس هذه المصادر، كما لا يخفى، يأتي القرآن الكريم،^(٤) إمام المسلمين في سلوكهم.

فقد حدد الوحي الذي أوحى إلى النبي محمد، ودون في المصحف، الوضع القانوني لأهل الكتاب من سكان الجزيرة العربية، حتى من قبل الفتح الذي ضمّ إلى دار الإسلام جماعات من أهل الكتاب، النصارى بخاصة، ممن كانوا رعايا في الأمبراطورية الساسانية الفارسية: عرب وبط (آراميون)، والأمبراطورية البيزنطية (روم). هذا الوضع هو وضع المعاهدين.

فقد سمح هؤلاء الناس الذين لم يدخلوا في الدين الجديد بأن يستمرّوا في الإقامة بدار المسلمين.^(٥) كانوا يتمتعون بحماية (ذمة) المسلمين وكانوا يعفون من الخدمة العسكرية،^(٦) على شرط أن يخضعوا لشريعة الإسلام ويؤدوا الجزية. ولذلك سُموا بأهل الذمة أو بالذميين.

ومع سير الفتوحات تغيرت شروط تطبيق هذا المبدأ بحسب «العهود» التي كانت تكتب للبلدان المفتوحة صلحًا، بيد أن النصوص القرآنية الأساسية بقيت هي نفسها.

ثمة آياتان من بين الآيات المتعلقة بالنصارى واليهود، هما الأكثر ذكرًا. الأولى هي الآية ٢٩ من سورة التوبة^(٧) وتحتخص بالجزية، الفريضة الموروثة من القانون الساسي^(٨) والطبيعة تمامًا في ذلك الوقت وفي ظروف الفتح. لذلك لم تكن فريضة الجزية المنصوص عليها في القسم الأول من الآية موضع أحد ورَدَ، بل لم تزل مقبولة من حيث المبدأ. وهذه هي الآية: ﴿فَاتَّلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا
بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يَحْرُمُونَ مَا حَرَمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أَوْتَوُا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوْا الْجُزْيَةَ﴾.

حَقًا كان مبلغ هذه الجزية عرضة لتخمينات تتراوح في الشدة^(٩)، ولكن بقية

الآية كانت مدعاه لتفصيلات متساهلة أحياناً وصارمة أحياناً أخرى. أما هذه البقية فهي: «... عن يد وهم صاغرون». وقد حمل بعض المتشددين هذه العبارة على المعنى الحرفي وذهبوا إلى اعتبارها توجّب إذلال الذميين، فمن ذلك ما تعرّضوا له أحياناً من مضائقات يرقى مثلاً لها الأول إلى الوثائق المتأخرة المعروفة بالشروط العمرية، التي سرّاها في حينها.

أما الآية الثانية، التي فسرت أحياناً تفسيراً متشدداً، فتقول: «يا أيها الذين آمنوا لا تَخْذُلُوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم» (المائدة: ٥١). ولسوف يستشهد بهذه الآية كلّ الذين يريدون إقصاء المسيحيين عن خدمة المسلمين ولا سيما في الوظائف الرسمية.^(١٠)

على هذه القاعدة القرآنية حددت المذاهب الفقهية، في كتب الفقه، سبل السلوك النظرية التي لم تحظ دائماً بالتطبيق والتي تجاوز دراستها نطاق بحثنا. وقد قام بهذا الأمر خير قيام A.S. Tritton وأنطوان فتّال والمطران إدلبي.

وليس من غرضنا أيضاً أن ندرس العلاقات بين النصارى وال المسلمين في ظلّ الأمويين.^(١١) لم يكن خليفة دمشق صلة بالكنيسة السريانية الشرقية إلا من خلال ولادة العراق. وقد ترك تعريب الدواوين معظم الكتاب النصارى في مراكزهم بيد أولى الإجراءات التمييزية ربيماً بدأت في ظلّ أواخر الأمويين. يعقد ابن قيم الجوزي في كتابه أحكام أهل الذمة فصلاً يجمع فيه تحت باب «المنع من استعمال اليهود والنصارى (في) شيء من ولايات المسلمين وأمورهم»^(١٢) أهم الوثائق السابقة على عصره (القرن ١٤) فيجعل أوائل هذه الإجراءات في خلافة عمر بن عبد العزيز (أي بعد ٧١٧)،^(١٣) مع أنّ الوثائق التي تنسب إلى هذا الخليفة، من بين رسائل «شروط» ربيماً كانت ترقى إلى زمن متأخر جداً عن زمانه، كما سنرى ذلك في موضعه.^(١٤) وهذا يلفت انتباها إلى نقطة منهجية أولى. على الرغم من كراهة التاريخ المعاصر لتغليب توزيع الأحداث توزيعاً زمنياً زمنياً متسلسلاً فإنّ دراستنا ستلتزم دائماً بتاريخ الواقع تاريخاً دقيقاً.^(١٥) من ذلك أنّ موقفاً نجده في القرن ١٣ ربيماً اختلف اختلافاً بيّناً عن موقف نجده في صدر الإسلام. ولئن اقتصرنا على موضوع الجزية فليس بوسعنا أن نستخلص مبادئ عامة من سلوك ابن فضلان

الصارم، لا سيما إذا تذكّرنا توصيات فقيه آخر معاصر للرشيد، هو أبو يوسف يعقوب، إذ يقول: «ولا يُضرب أحد من أهل الذمة في استيادائهم الجزية، ولا يُقاموا في الشمس ولا غيرها ولا يجعل عليهم في أبدانهم شيء من المكاره ولكن يُرفق بهم، ويُحبسون حتى يؤذوا ما عليهم ولا يخرجون من الحبس حتى تستوفى منهم الجزية».^(١٦) ويقول: «قد ينبغي يا أمير المؤمنين أيّدك الله أن تتقدّم في الرفق بأهل ذمة نبيك وابن عمك محمد (ص) والتقدّم لهم حتى لا يُظلموا ولا يؤذوا ولا يُكلّفوا فوق طاقتهم ولا يؤخذ شيء من أموالهم إلا بحق يجب عليهم».^(١٧)

إلى جانب العامل الزمني الذي يجب أن يظلّ ماثلاً في الذهن، لا بدّ أيضًا من تجنب عدة مغالط. من ذلك أنه ينبغي التحرّز الشديد من التعميم عند استعمال لفظيّ «المسلمون» و«النصارى» حتى في داخل حقبة واحدة محدودة كخلافة «بني العباس» مثلاً.

فنحن، إذ نتكلّم عن النصارى المشرقيّين، لسنا أمام جماعة واحدة ولا أمام موقف موحد في داخل الجماعات الفرعية: المشارقة من السريان (النساطرة)، المغاربة من السريان (اليعقوبة) أو الروم الملكيون، كما أنّا إذ نقف أمام الإسلام لا نجد جماعة قدّرت من قطعة واحدة. وكما يقول بحقّ محمد أركون^(١٨): «إنّ ما نسميه الإسلام السنيّ يمثل واقعًا اجتماعيًّا ثقافيًّا ودينيًّا فرض نفسه في وقت متأنّر، وخصوصًا منذ القرن الرابع للهجرة. معنى هذا أنّ التنافس كان حتى ذلك الحين حادًّا بين أشكال اجتماعية ثقافية لم تزل تتنازع إدارة المدينة. إنّ صروف الصراعات الشيعيّة السنّيّة تعبر، في الواقع، عن توازنات وإعادة توازنات مجتمع يعاني أزمة مستديمة: أزمة غزو حتى وفاة المأمون (٢١٨ هـ)، ثمّ أزمة وهن عضويّ يصيب سلطة عاجزة عن حمو الإشكال الأصليّ القائم في جوهر دولة المسلمين حموًا دائمًا. فإنّ هذه الدولة، التي يفترض فيها أن تكون «ثيوقراطية عدالیّة»، من حيث المبدأ، لم تستطع أبداً أن تيسّر بالفعل، وفي منظور الأمة الحاضر صوريًّا، اندماج الجماعات والطبقات والشعوب المتباينة جدًا والتي كانت تقوم، كدولة، بأمر حكمها وتتديرها».

من ذلك أنّا عندما نقرأ المصادر الأصليّة أو نقرأ دراسات كلود كاهن،^(١٩) فاروق عمر، ماريوس كانار، جورج لوكونت، هنري لاوست، جورج مقدسبي،

شارل بلا، دومينيك سورديل، إلخ. ، عن هذه الشخصية المهمة أو تلك المرحلة المتميزة من التاريخ، سرعان ما يتبيّن لنا أن التقلبات التي يفید منها النصارى أو يذهبون ضحاياها (حتى من قبل أن يحدّ «وضعهم» كأقلية) ما هي إلا أصوات هامشية مصدرها التيارات الكبرى وأحياناً الدوّامات العنيفة التي تعصف بالمجتمعات الإسلامية نفسها. وهذا ما يفسّر كون مواقف المذاهب الفقهية المختلفة من النصارى بعيدة، حتى نظرياً، عن الإجماع.

لذلك كان لزاماً علينا، ومن منظورنا الضيق، البقاء على أقرب مسافة ممكنة من النصوص لتحديد زمن وظروف هذا الحادث أو ذاك، هذا القرار أو ذاك. وإن ما يلفت النظر هو، كما سبق لترتيتون أن وأشار، «أن المؤرّخين المسلمين (باستثناء المقريزي، إذن لمصر) لم يصرفوا اهتمامهم إلا نادراً إلى التاريخ للأقلّيات، ومنها النصارى».^(٢٠)

وهذا يصحّ، من باب أولى، على كتب الأدب التي يغلب عليها التكُلُّف إلى حد يلجهنا إلى التردد في الاعتراف منها مع خوفنا من إغفال بعض المعلومات النفيضة إذا أهملناها.

إن المؤرّخ إذ يقف أمام المؤلّفين المسلمين الذين «تشأّ معظم إشاراتهم إلى الذميين من بعض الاضطرابات التي تقع بين هؤلاء وبين جيرانهم المسلمين»، وينظر إلى المؤلّفين المسيحيين الذين «اعتادوا الإطناب في ذكر مساوى المسلمين» معرّض لأن يوحّي^(٢١) بأنه إنما أراد تقديم «عرض لأعمال القمع والاضطهاد تتخلله فترات أبهى». ^(٢٢)

فمن أجل تحاشي هذا الخطأ و«استعادة المنظور الصحيح» لا بد من «توزيع الأحداث على إمبراطورية واسعة»^(٢٣) وعلى مدة زمنية متطاولة. هذا ما حاولناه متبّعين الحركة التاريخية العامة. ولا بد أيضاً من أن ننسب هذه الأحداث إلى الذهنية العامة السائدة في ذلك الزمن، وإن كان هذا لا يغيّر شيئاً في الأحداث، كأن «نتخيّل، مثلاً، نوع المعاملة التي قد يلقاها في البلاد المسيحية المعاصرة أنس يدينون بغير الديانة السائدة» أو حتى في حقبة أحدث، «الظروف المفروضة على

الكاثوليك في إيرلندا الشمالية...» هذا صحيح، ولذلك سأحمل نفسي، ما استطعت، بعد تأمل الـ «كيف» على حزر الـ «لماذا»، حزر الذهنية المحيقة بالحدث.

فمن اليسير، في معالجة موضوع كالذي تناوله، اتهم الكاتب بالانحياز، أو قل بالتعصب، ربما لا شيء إلا لأنّه يحرك أحياناً «ذكريات مؤلمة» كان من الأجدى (كما يقال) أن يطويها النسيان. لذلك أقول للقارئ إنّه ربما كان أجدر به ألا يتوجّل أكثر في قراءة هذه الدراسة إذا لم يكن مستعداً لأن يحسن الظنّ بي.

ثمة مصدر آخر للصعوبات في عمل كهذا، ألا وهو خطّة الكتاب: كيف ينظم عرض بحيث يكون عامّاً ومفصّلاً في الوقت نفسه، كما تمنّى كلود كاهن؟

بالنسبة إلى العصر العباسي أمامنا ستة وثلاثون بطريركًا سريانياً شرقياً لا يقابلون إلا في العدد سبعة وثلاثين خليفة لأنّ ولايات الفريقين تتراكب. وسرعان ما يتبيّن لنا صعوبة تفضيل أحد التصنيفين على الآخر: التصنيف بحسب البطاركة أو بحسب الخلفاء. والحقّ أنّنا قد أخذنا الاثنين في نظر الاعتبار وإن كنا أميّل إلى إيلاء أهميّة أكبر للبيئة المسلمة التي عاش النصارى في أكتافها. ولما كنا قد اعتمدنا الخلفاء السبعة والثلاثين رؤوساً للأقسام فقد أظهرنا، بإخراج طباعي مناسب، تواли البطاركة الستة والثلاثين ضمن الأقسام التي يندرجون تحتها. لم يغب عن بالي أنّ الأوليّة التي اختصّنا بها الخلفاء قد يوجد ما يسوغها بالنسبة إلى أوائل دوله بني العباس، أي عندما كان الخلفاء هم الشخصيّات البارزة (وإن كان بعض وزرائهم دور مهمّ)، وأنّه لا يوجد حتّماً ما يسوغها في العصور المتأخرة من تلك الدولة كالقرن الشيعي في ظلّ البوهيم أو التصلّب الديني زمان السلاغقة.^(٢٤) إنّ هذه التقسيمات الكلاسيكيّة نفسها لا تتطابق على موضوعنا، إذ إنّه من الحال أن نعمّ فنقول مثلاً إنّ « موقف» البوهيم^(٢٥) من النصارى كان كهذا بينما كان « موقف» السلاغقة كذلك...

إنّ الأمر ليكتسي صعوبة بالغة بالنسبة إلى الأخر، لأنّ السلطة الحقيقية، من وجهة النظر التي تعنينا، أي من حيث العلاقة بالنصارى، كانت في أغلب الأحيان بيد العامة الذين يحرّكهم القصاصون أو معلّمو المدارس (أمثال ابن فضلان)

الذين كان قرارهم يغلب على قرار أولئك الذين كانوا يسكنون اسمياً بزمام السلطة. ذلك لأنَّ الحكام لم تكن لهم أية رغبة في إرباك سلطتهم المتهافة بمناصرة جماعة متناقضة الأهمية، وإن لم يكن في وسعنا أن نحدّد التاريخ الدقيق الذي بدأ فيه هذا التغيير يرتسם أو يزداد حدة.

والحقّ أنه مع كُلَّ السنين تضاعف عدد الذين دخلوا الإسلام من أهل الذمة ولم يعد من هُمُّ السلطة الالتفات إلى هذه الأقلّيات المتناقضة. وقد تُوصل إلى حل توفيقي ارضي معه النّمّيون التّنّقوع في وضع مواطنين من الدرجة الثانية على ما في هذا الوضع من الذلة.^(٢٦)

وإنّي مقرّ بعد هذا بالعجز عن إيجاد «جبهة واحدة» تنتظم هذا العمل، وإن عرّضني ذلك إلى تهمة كتابة تاريخ «أخبارى»، لأنَّ «البني» التي يجب علينا تحليلها هنا هي بني ذهنية أكثر مما هي بني مادية: عندما تضيع ساقية في الرمل هل نستطيع أن نعرف متى بدأت تغور ومتى انتهت؟

رِبَّما كان على المؤرّخ هنا أن يستحيل عالماً في الاجتماع^(٢٧) لكي يحاول الكشف عن العوامل الخفية، غالباً، التي تسود العلاقات المتحرّكة بين أهل الذمة وعثّي الأمة الإسلامية في ذلك الزّمن. نظراً إلى استحالة عمل ذلك في الكلّ (لأنَّ كلّ تعميم، حتّى في نطاق فترة زمنية قصيرة سيكون خاطئاً) سنقتصر على القيام بذلك في بعض الحالات المحدّدة التي تملك فيها عناصر الحكم. أمّا في معظم الأحيان فسنضطر إلى سرد الواقع، من دون محاولة تأويلها.

الحواشِي

(١) انظر في ثبت المصادر والمراجع: HAGE, KAWERAU, TISSERANT إلخ. وعن تواريخ الأدب السرياني أو العربي المسيحي انظر: GRAF, CHABOT, ORTIZ DE URBINA, BAUMSTARK، برسوم، أبونا، إلخ.

(٢) وقد سبقت هذه الدراسة محاولة SHEDD الذي لم يكُد يستند إلاً على المصادر المسيحية. وإن ملحقاته لتمثّل تجربة أولى في سبيل تصنيف الأحداث البارزة في أبواب تجمعها. وهو يضيف أيضاً رواية قصيرة للشروط العمريّة (238-235 p.). وكذلك رسالة ماجستير في الجامعة

الأميركية بيروت (١٩٤٢) بقلم عبد العزيز علوان تحت إشراف الأستاذ قسطنطين زريق. (لم
أطلع عليها).

(٣) تحاول الدراسة الحاضرة أن تسد الفراغ الواقع بين حقبة الفريثين والساسيين والتي كتبت
عنها في (Jalons pour une histoire de l'Eglise en Iraq(CSCO vol. 310, Subsidia, 36, 1970)
وتحقبة المغول التي أعادتها في Chrétiens Syriaques sous les Mongols (CSCO vol. 362, Sub-
sidia 44, 1975).

(٤) يأسف الطيباوي، ص (٣٠)، لكون معظم المستشرقين، إن لم نقل كلهم «لا يدرسوون
القرآن، وسيرة الرسول وبدایات تاريخ الإسلام على الأقل، آخذين وجهة النظر الإسلامية
بعین الاعتبار الجادة». وهو يرى أن عليهم أن يتذکروا دائمًا أن «الإنسان، في الفكر
الإسلامي، خاضع للتوجيه الإلهي كما نص عليه القرآن، ورَسَخَتْ ستة الرسول وخلفائه
الراشدين التي استلهمت هذا التوجيه». وما فتوحات الإسلام، ومنها علاقاته بالشعوب
المغلوبة، إلا «تنفيذ للأمر الإلهي» (وتدرج بالتالي في تدبير لا يتغير)، كما أن «بعثة محمد
تتوجه إلى الإنسانية جماء» (وهذا التدبير يحكم الجميع إذا). لذلك فإن «نمط الإدارة» المستمد
من هذين المبدأين قد أُقِرَّ وأُبْرِمَ ولا يجوز له أن يتغير بتغير الأمكنة والأزمان.

(٥) النوري، منهاج، ج ٣، ص ص ٢٧٥ - ٢٩٢.

(٦) يرد الطيباوي على قول بعض المستشرقين إن الرابط بين الجزية والإعفاء قد يكون «تفسيرًا
متأنّرًا». وهو يشير (بعد ARNOLD, The Preaching of Islam, p.21-62) إلى عدة حالات
أعفى فيها بعض النصارى العرب من الجزية لدى قتالهم إلى جانب المسلمين. ويقول
الطيباوي إن الجزية اكتسبت منذ خلافة عمر بن الخطاب دلالة «قومية» وعسكرية بعد أن
كانت لها دلالة دينية في زمن الرسول.

(٧) يذهب BEN SHEMESH في مقدمة الجزء الثالث، ص ص ٢٠ - ٢١ إلى أن الجزية
المنصوص عليها في هذه الآية لم تكن إلا «ضريبة عقوبة جماعية» تعد علامه على الخصوص
والتحقير وتصاحبها علائم الإذلال الخارجية. ويرى أن الفقهاء لم يقارنوها بالجزية الإيرانية
والبيزنطية السابقتين على الإسلام إلا لاحقًا(؟).

(٨) DENNETT, P. 42، وقد اعتبرها الفرس من قبل علامة على الدونية يذهب Abu Abdallah al-Hwarizmi في BOSWORTH إلى أن اللفظ نفسه آرامي أكثر مما هو فارسي، فهو يظهر
في صورة جزيت/ جزيت في الإدارة الساسانية المتأخرة جداً بالأramaic.

(٩) أنظر مقالة CL. CAHEN تحت Djizya في E.I², II, p.573-576 والتي في نهاية الأرب،
ج ٨، ص ٢٣٧، قاسم ص ٢٨.

(١٠) تستند كلمات الأسنيوي إلى القرآن والحديث وأخبار الخلفاء. لا يشك هذا المفسّر المصري
من القرن الرابع عشر في كون الشروط المفروضة على الذميين أمورًا «اجتمع عليها حكام

الشرع المطهر أعزه الله، ورؤوس أمراء المسلمين... فصار ذلك أمراً محكماً به لا تجوز خالفته ولا يحلّ نقضه». الكلمات المهمة في مباشرة أهل الذمة، ص ٥.

(١١) هذا موضوع كتاب DENNETT عن العلاقات بين اعتناق الإسلام والجزية في أوائل الإسلام حيث يدرس السواد والشام والجزيرة (الرها) ومصر وخراسان. أنظر أيضاً الطيباوي، المرجع المذكور، JESHO, Notes on Taxation in Early Islam, in AI-DURI, (1974) p. 136-144. XVII، لا بد من أن يُدرس يوماً بدقة موقف عمر بن الخطاب من النصارى. فالمتطرّفون من الفرون المتأخرة ينسبون إليه أولئك من الأقوال، هل هذه الأقوال صحيحة؟ منها قوله: «لا تولوا اليهود والنصارى فإنهم يقلّبون الرشا في دينهم ولا يحلّ في دين الله الرشا» مذكور في مقالة A. Gottheil, Fetwa, ص ٢٠٦ مع إحالة إلى الطروشي (المتوفى سنة ١١٢٦) والأبيسيهي (المتوفى ١٤٤٦)، نضيف إلى ذلك الأسنوي (المتوفى ١٣٧٠) ص ٨. إن دراسة كهذه قد تدلّ على أننا كلّنا ابتعدنا عن عصر عمر وجدنا الأقوال النسبوية إليهأشدّ قسوة. وإنّ هذه الأقوال لتناقض، على أية حال، ما يتبّه إلى عمر ذلك الحنفي المتقدّم، أبو يوسف يعقوب (المتوفى ٧٩٨) من قوله قبيل موته: «أوصي الخليفة من بعدي بذمة رسول الله (ص) أن يوفي لهم بعدهم وأن يقاتل من ورائهم ولا يُكلّفوا فوق طاقتهم» ص ١٢٥. - حتى عمر بن عبد العزيز كان يقول «إن الذين كانوا قبلي كانوا يُكلّفون أهل الذمة فوق طاقتهم». كتاب الخراج لأبي يوسف، ص ١٣٢. - وقد ورد هذا الموضوع في مؤتمر عقد بعثان حول «بلاد الشام في العهد الأموي» بين الرابع والعشرين والتاسع والعشرين من تشرين الأول ١٩٨٧.

(١٢) ج ١، ص ٢٠٨ - ٢٣٨.

W.W. BARTHOLD, Caliph Umar II and the Conflicting Reports on his Personality, in Islamic Quarterly, XV, p.69-95.

(١٤) ينبغي مقارنة هذا بكتب الفقه وبخاصة كتاب الأحكام لابن قيم الجوزية.

(١٥) يتبّه كلوود كاهن، في نقده F. LOEKKEGARD, Islamic Taxation, dans Arabica المراجع المذكور آنفًا، ص ٣٥٣، إلى اللامبالاة بالواقع والتاريخ، وإلى خطر رسم صورة جامدة وتركيب صورة متوسطة (ومتناقضة) انطلاقاً من معطيات تتواتي في الحقيقة. ويرى P. RONDOT في المرجع المذكور ص ١٣٢، أن موقف المسلمين من النصارى لم يكن قطّ «تنفيذاً منهجياً مطلقاً لمحضّ دقيق ومتناスク» بل تناوباً مزاجياً بين تدابير ودية وتدابير قاسية. وهو يصف هذه «السياسة» بأنّها متقطعة وأحياناً متناقضة».

(١٦) ص ١٢٣.

(١٧) ص ١٢٤ - ١٢٥. يروي المؤلّف في هذا الشأن عن الرسول قوله: «مَنْ ظَلَمَ مَعْهُدًا أو كَلَّفَهُ فَوْقَ طاقتِهِ فَأَنَا حَسِيجُهُ». وقد استعمل الإمام الأوزاعي هذا الحديث عينه في توبیخ

صالح بن علي حاكم لبنان الذي نكل بالقبائل المغلوبة، البلذري، فتوح البلدان، تحقيق رضوان محمد رضوان، مصر ١٩٣٢، ص ١٦٨.

(١٨) Miskawayh, p.161.

(١٩) E.I². Dhimma .

(٢٠) المرجع المذكور، ص ١٥٠.

(٢١) هذا ما يأخذه المطران أدلي على حبيب زيات، سمات النصارى واليهود في الإسلام في مقالة MARMADUKE PICKTHALL, P.O.C. II (1952), p.192-193

(The Caliphs) في مجلة Islamic Culture, IV (1930), p.474-477

(٢٢) «نصارى لبنان، في منطقة الشرق الأدنى» عبارة في عرف دكتور في علم الاجتماع، (Informations Catholiques Internationales, N 532, p.32) «مرادفة لـ : مضطهدین خلال خمسة عشر (كذا!) قرناً» - أمّا R.B. BETTS في المرجع المذكور ص ٧ - ١٩ فيقدم على تسمية الفترة المتداة «من الفتح العربي حتى جملة نابليون على مصر (٦٣٣ - ١٧٩٨) : «The Dark Millenium» (ألف سنة من الظلام) ...

(٢٣) مع التذكير بأننا لا نملك معلومات كافية عما كان يجري في الولايات عدة.

(٢٤) قد نجمع الخلافات في أعرق كبرى كما فعل لاوست مثلاً في Les Schismes dans l'Islam ولكن هل أدى الانتقال من عصر إلى عصر إلى تغيير الموقف من المسيحيين؟

(٢٥) كما لو كان للبيهقيين كلهم، أو السلاجقة كلهم موقف واحد.

(٢٦) يقول كلود كاهن في ص ٢٣٦ من Dhimma المذكور آنفًا إنه يجب التشديد على أن وضع الذميين كان يتحول تدريجيًّا بسبب تحولهم في كل مكان من وضع الأكرثية إلى وضع الأقلية، ولكن كيف وصلت الأمور إلى هنا؟ ولكن ظهر، على وجه الإجمال، تصلب ضدّ الذميين في بلاد الإسلام ابتداءً من القرون الثلاثة أو الأربعية الأخيرة من العصر الوسيط، وكان للنسبة العددية الجديدة ضلع ماديًّا ومعنويًّا في ظهور هذا التصلب، فكيف نفسُ هذه «النسبة الجديدة»؟ وما المقصود «بالعوامل الاجتماعية أصلًا التي أدت حينًا إلى انفاء الجماعات غير المسلمة وأحياناً إلى اضمحلالها التام»؟

(٢٧) الفصل الأخير من كتاب بول فن (Seuil, 1971) عن Comment on écrit l'Histoire (عنوان: «التاريخ، علم الاجتماع، التاريخ الكامل» يدعوني إلى كثير من القلق. ولكن ربما كنت، بلا ينطوي عليه موضوع بحثي من تلاوين الأهواه، أدرى من أن أجاذف باستخلاص نتائج قد تبدو للبعض منحازة ولكنها تبدو لي مفتقرة إلى الإرهاف، بل قاصرة عن احترام الآخر.

١ - السفّاح (١٣٢ - ٧٤٩ / ٧٥٤)

I كان الجاثليق آبا الثاني^(١) يدبر، منذ ٧٤١، الكنيسة السريانية الشرقية التي كان يطلق عليها اسم «كنيسة بلاد فارس» لما استولى أبو العباس عبدالله الملقب بالسفّاح^(٢) على إيران كلّها وسار على الكوفة ثمّ انتصر في معركة الزاب سنة ٧٥٠ على آخر خلفاء بني أميّة، مروان (الحمار)، الذي مضى إلى مصر حيث قضى آخر أيامه.

كان هذا التغيير في النظام موافقاً جدًا للجاثليق وقومه.^(٣) فقد كان أهل العراق^(٤) والنصارى من أهل الذمة بخاصة، يذكرون أعمال التفرقة المهينة التي دبرها بعض ولاة الأمويين من أمثال الحجاج بن يوسف (٩٥ - ٦٩٤ / ٧٥) وقاربه يوسف بن عمر الثقفي (١٢٠ - ٧٣٨ / ١٢٦).^(٥)

منذ الفتح الإسلامي، كانت المدائن^(٦)، عواصم فارس القديمة ومقرّ كرسيّ الجشلقة، قد بدأت تفقد من أهميتها. حتى من قبل ولادة آبا الثاني، كانت أبواب مدينة بهرسir (التي كانت تضمّ كنيسة كونхи، كرسي مار ماري) قد نقلت إلى الكوفة، وكان البطريرك ايشعو يهـ الثالث قد غادر البلدة إلى كركا دبيت سلوخ،^(٧) أي كركوك الحالية. وقد ترك آبا الثاني أيضاً المدائن الملكية، في السنة السادسة لولايته، عندما اصطدم بـكائد سكانها النصارى والتمرد الذي أعلنه طلّاب المدرسة البطريركية هناك.^(٨) وبعد أن عين عليها وكيلين انتقل أول الأمر إلى موطنـه كـسـكـرـ حـيـثـ أـقـامـ فـيـ دـيـرـ وـاسـطـ. ومن ثـمـ نـجـدـهـ فـيـ الـكـوـفـةـ، ثـمـ فـيـ الـحـيـرـةـ، ثـمـ فـيـ

كسكر مرة أخرى، وأخيراً عاد إلى المدائن حيث توفي. يروى أن آبا الثاني مات عن مئة وعشر سنين، في السنة الثانية لخلافة السفاح. وربما التقى الرجلان بالكوفة؟ على أيّة حال، إنَّ السن العالية التي بلغها البطريـك، فضلاً عن هموم السفاح، تجعلنا نستبعد اشتغال الخليفة الجديد كثيراً بأمور النصارى.

كان هذا الأخير يبحث عن مركز يقيم فيه إدارته. وقد استقرَّ أولاً في الكوفة، حيث مكث ستين وتسعة أشهر، ثم ارتحل وحلَّ على مقربة من الأنبار^(٩) حيث شرع في الثالث من حزيران سنة ٧٥٢، في بناء قصر ومدينة هي مدينة الهاشمية^(١٠) وهناك مات، وبهَا كان قبره.

لقد ركَّز المؤرخون في ما بعد على أهمية بناء المنصور مدينة بغداد عاصمة نهائية للخلافة العباسية (باستثناء خمسين سنة في سامراء). والحقيقة أنَّ العباسيين كانوا قد مالوا إلى الخيار «الشرقي» منذ أن استقرَّ السفاح على الفرات الأوسط. ربما كان السبب الحقيقي الرغبة في الابتعاد عن ناحية غالب عليها طابع الأمويين المكرهين؟ ولكن هذا ربما دلَّ على خروج الخلافة في الوقت نفسه من فلك بيزنطية، الذي كانت دمشق من مواقعه المتقدمة الباهرة، ودخول هذه الخلافة في فلك فارس، ومعلوم أنَّ سلالة بني العباس قد انطلقت من خراسان. وقد تعزَّز هذا التوجه الشرقي بعد ذلك بعشرين عاماً، عندما أنشأ المنصور مدينة السلام دافعاً عاصمتها نحو إيران، ناقلاً إياها من وادي الفرات إلى وادي دجلة.

جاثليقان متنازعان . . .

بعد وفاة آبا الثاني، ظلَّ كرسى الخليفة شاغراً مدة ستين، بسبب الخلافات على من يخلفه. عندئذ، وفي السنة الثالثة لخلافة السفاح (في العام ٧٥٢، إذن؟) «استشهد»^(؟) الطبيب النصري إسرائيل^(١١) ولا نعرف شيئاً عن ظروف موته. ولقد شهد أول النزاع على خلافة الجاثليق الميت محاولات الاستعانة بالقوة الزمنية السابقة عصرها في النزاع على هذا المنصب أيام الساسانيين. في البداية جرت الأمور بعيداً عن الخليفة وظلت على المستوى المحلي، بالمدائن، وقام بالدور الأول عامل المدينة الذي لا نعرف عنه إلاً أنَّ اسمه أبان.^(١٢)

II كان أحد المرشحين للجشلةة، واسمه سورين^(١٣) قد نصب بالحيلة مطراً لنصبيين، ثم نقل إلى حلوان ولم يكن له من مؤيد لترشيحه إلا مطران مرو. لم يتورّع سورين هذا عن تحرير الكنائس من أوانيها الطقسية وسائرها النفيسة ليرشو العامل. فما كان من أبان إلا أن أكره، بقوة جلاوزته، بقية المطارنة على رسم صاحبه جاثيًّا. ولكن الدخيل لم يكث في السدَّة إلا واحداً وخمسين يوماً، لأنَّ عقوب مطران جنديسابور تمكَّن من إعلام السفَّاح بما جرى. عزل الخليفة عامل المداين وأمر بردُّ أموال الكنائس، وانتُخب عقوب جاثيًّا شرعياً وبُعث سورين مطراً إلى البصرة. ولكن هذا لم يكُفَّ عن الكيد ليعود جاثيًّا، كما لم تكُفَّ رعيته بالبصرة عن اعتباره كذلك.

أمَا ععقوب الذي ظلَّ جاثيًّا من ٧٥٣ إلى ٧٧٣، فقد كان عجوزاً بلا حول ولا قوَّة، قبل، على ما روَى الأخباريُّ صليباً، كلَّ الشروط التي فرضها عليه، عند انتخابه، المطارنة وحتى رجال رعيته النافذون، في أغلب الظن. إنَّها المرة الأولى التي نلتقي فيها، في ظلِّ العباسيين، بالعلمانيين النصارى الذين كثيراً ما سيطروا على الجشلةة أيام الساسانيين، وصنعوا تاريخ النصارى في الخلافة العباسيَّة أسوأَ بالجشلةة.

في قضيَّة رسامه الجاثليق ععقوب سنة ٧٥٣، سنكتفي بالإشارة إلى وجود شخص مجهول اسمه يحيى بن إبراهيم^(١٤)، رافق الجاثليق إلى المداين ليستوثق، في ما يبدو، من مرور شعائر الرسامنة بسلام. ولئن صحَّ ظني في كون يحيى هذا نصراًنياً فلا ريب أنه كان ذا منصب رسمي، ومن العسير علىَّ أن أحدد الآن ماهيَّة هذا المنصب. وربما كان هو الذي أعلم الخليفة باغتصاب سورين سدَّة الجشلةة بعدما أقدم الأخير على فعلته.

أودَ أن أنبئ قبل اختتام فصل السفَّاح إلى أنَّ حركة دخول النصارى في الإسلام، التي تعزى جزئياً إلى الرغبة في التحرر من الجزية (وهي حركة بدأت منذ صدر الإسلام)^(١٥) استمرَّت في ظلِّ الخليفة العباسيِّ الأول. يقول ساويرس بن

المقفع: ^(١) «وكتب عبد الملك إلى جميع مملكته أن كلّ من يصير على دينه ويصلّي كصلاته يكون بغير جزية، فمِنْ عظم الخراج والكلفة عليهم أنكر كثير من الأغنياء والقراء دين المسيح وتبعوه». وما يقوله ابن المقفع عن مصر يصحّ على بقية نواحي المملكة.

الحواشي

(١) عن أبي الثاني، انظر ماري، ص ٦٦ - ٦٧، صليبا، ص ٦٢، ابن العربي، التاريخ الكنسي، ج ٢، عمود ١٥٤ - ١٥٦، إيليا برشنيا، تاريخ، ص ٧٠.

(٢) ثمة إشكال حول دلالة اللقب ما المقصود به، فهو الكثير العطاء أم الكثير سفك الدماء؟ انظر B. LEWIS The Regal Titles of the First Abbasid Caliphs, dans Studies, cit II, p.15-16.

(٣) ابن العربي، وهو من المتأخرین جداً، لأنّ معظم تاریخه قد كتب بعد سقوط العباسيّن، يفضل هؤلاء على الأمويّن قائلاً إنّ العباسيّن «كانوا أفضّل من الذين كانوا بدمشق». ابن العربي، التاريخ الكنسي، ج ٢، العمود ١٥٤ - ١٥٦. ومن غير المجدى، أن نبحث على مَ يستند (٤) R.B. BETTS, (cit p10) عندما يكتب: «في منتصف القرن الثامن كان النصارى يرثّونهم. قد أدركوا أنّ التسامح الإسلامي الرسمى، الذي بدا جدّاً منذ حوالي قرن، لم يكن في الواقع إلا سجناً صارماً لا مناص منه إلا بالإسلام أو الفرار»، فمن نكّد الحظّ أن مثل هذه التعميمات السهلة شائعة جدّاً.

(٤) لم يكن العراق الغربي يشتمل في ذلك العصر إلا على القسم الجنوبي من العراق الحالي، وكان شماله يشتمل ولادة الجزيرة.

(٥) على بعد ٣٥ كلم إلى الجنوب من بغداد.

(٦) Chron. anon. 670/680, tr. GUIDI, p26

Lettre d'Aba II aux membres de l'Ecole, texte syr et tr. fr. J.B. CHABOT, dans Actes du XI Congrès des orientalistes, Paris, 1897 (1898), quatrième section, p. 295-335.

(٧) لقد أبحث لغبي الإحالة إلى فهارس مجلداتي «أشور المسيحية» Assyrie Chrétienne للاستعلام عن البلدان المسيحية بالعراق، وعن بلدات إيران أحلت إلى مجموعة مقالاتي الصادرة في مجموعة Variorum Reprints, Londres, 1979.

(٨) هنا استكتب أبي العلاء حسان بن سنان التّونخي، من نصارى الأنبار «على جميع أمره» وكان حسان قد أسلم قبل هذا وحسن إسلامه، «وكان يتكلّم ويقرأ ويكتب بالعربيّة وبالفارسية وبالسريانية». وقد عمر حتى أدرك خلافة الرشيد في العام ٨٠٥/١٨٦ وكان قد بلغ حينها ١٢٠ سنة. التّونخي، نشوار، ج ٦، ص ١٠٠، الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج ٨، ص ٢٥٩.

- (١٠) يذهب المقدسي، ص ١١٩ - ١٢١، إلى أن السفاح هو الذي أحدث بغداد، ثم بني فيها المنصور مدينة السلام.
- (١١) صلبيا، ص ٦٣.
- (١٢) لم يظهر اسمه بين أسماء الولاة الذين أحصاهم صالح أحمد العلي في مقاله «المدائن في المصادر العربية»، في سومر، المجلد ٢٣ (١٩٦٧)، ص ٦٣ - ٦٤.
- (١٣) ماري، ص ٦٧ - ٧٠، صلبيا، ص ٦٢ - ٦٣، ١٥٦، ابن العربي، التاريخ الكنسي، ج ٢، العمود ١٥٦.
- (١٤) المسماى «المقلد» أو الملقب به؟
- (١٥) يقدم ARNOLD في ص ٨١ - ٨٤ أمثلة على بعض هذه الحالات بين خلفي عمر وعبد الملك، وبخاصة في خلافة عمر بن عبد العزيز.
- (١٦) كتاب سير الآباء البطاركة، P.O.، ج ٥، ص ١٨٩ - ١٩٠.

٢ - المنصور (١٣٦ - ٧٥٤ / ٧٧٥)

بعد تردد كان لا بد منه خلال عهد الخليفة العباسي الأول، اتخذت الخلافة العباسية المتزايدة القوة أتجاهًا دائمًا، ومركزاً ثابتاً في بغداد خلال خلافة واحد من أكابر الخلفاء، ألا وهو أبو جعفر عبدالله المنصور.^(١)

من المحال أن نظره الخليفة الجديد في لوحة تبين جوانب شخصيته كلها، فالمزايا التي ينسبها إليه المسعودي، مثلاً،^(٢) لم تكن تزييه إلا في أواخر خلافته التي دامت ثلاثة وعشرين سنة. فقد كان كما يقول المؤرخ نفسه «مُنْكَ السِّن حازم الرأي قد عركته الدهور وحَلَّتْ الأَيَّام سطونه».^(٣)

ولا بد أيضًا من التمييز، في تعامله مع النصارى، بين طريقة في التعامل مع نصارى الشغور الملكيين والمغاربة من السريان (اليعاقبة)، وخصوصاً إبان الحملات على العدو البيزنطي، حليفهم الطبيعي، وبين طريقة في التعامل مع أولئك المقيمين في قلب دار الإسلام ببغداد وبخاصة، أي مع المشارقة من السريان (النساطرة).

زد على ذلك أن وشایات (بعض الحساد من النصارى، أو حتى المطارنة) كانت تؤدي في العديد من الأحوال، كما سنبينه من بعد، إلى عواقب وخيمة على مصائر إخوانهم في الله أو حتى على بطاركتهم. والأنكى من هذا أن بعض النصارى لم يكتفوا بتبادل الاتهامات بل استغلوا قربهم من السلطة للإثراء وأيدوا من مظاهر الخيال ما استعظم المسلمين احتفاله. من ذلك كانت الشكاوى إلى الخليفة وبعض ردود الفعل العنيفة أحياناً.^(٤)

بعد تولي الخليفة، أي في ١٣٦ - ٧٥٤ / ١٣٧ - ٧٥٥، كان على المنصور أن

يَهْتَمُ ببعض شؤون النصارى. فمن ذلك أن طبيباً نصراًئياً اسمه سرجيس، كان في خدمة نصر، صاحب الجيش، توصل بوساطة سيده إلى استدرج البلاط إلى التدخل في النزاع بين الجاثيلق يعقوب الثاني^(٥) ومنافسه المخلوع سورين. كان ذلك الطبيب من أنصار سورين، وقد استصدر أمراً من الخليفة بخلع يعقوب، فأبعد هذا عن منصبه. ربما نسب إلى الخليفة، من جراء ذلك، شيء من التهور، ولكنه لم يكن يتجاوز السادسة والثلاثين آنذاك! وقد تعلم الخليفة بسرعة أن شؤون النصارى في ما بينهم وفي ما يخص علاقتهم بال المسلمين معقدة جداً. وفي الخبر التالي مثال على ذلك.

عيون الخليفة

يبدو أن إحدى أوائل المشكلات بين الخليفة والنصارى قد نشأت عن الثقة التي أولاهم إياها، في غرّة عهده، ليكونوا عيوناً له ترصد من بقي حياً من آل أمية وأتباعهم.^(٦)

كانت فرصة سانحة: فكلّ ما يخطر بالبال من ملاحقة وابتزاز وتنكيد من كل ضرب كان يُمارس تحت ستار هذه المهمة. فمن ذلك أنه لما أراد راهب يُدعى زعارة، من دير مار متّى القريب من الموصل، أن يستولي على نفائس ديره، اتهم إخوانه بالتسّرّ زاعماً: «أنّ ذهببني هشام وبني مروان كان بالدير». فما كان من السلطة إلا أن أصدرت «أمراً عاماً بالقبض على رؤساء الأديرة والكنائس ويإحصاء أموال الأديرة والكنائس والمعابد». (٧) ولو أنّ النصارى اكتفوا بالتناه布 في ما بينهم لكان الأمر. إلا أنّهم تجروا على التسّرّ وراء « مهمّتهم» ليظلموا المسلمين ويعرقّلوا أشغالهم ويتعلّقوا إلى أموالهم ويسوّوا كراماتهم. وقد جاء الردّ عندما حجّ^(٨) المنصور أي في العام ١٤٠ - ٧٧٦ - ٧٧٧.^(٩)

عندئذ اشتكي نفر من المسلمين إلى نديمه شبيب بن شيبة،^(١٠) الذي أوصى شكاوهم إلى الخليفة. فأمر الخليفة حاجبه الريبع بن يونس^(١١) بأن يكتب إلى الولاية بعزل الدّمّيّين من مناصبهم والاستعاضة عنهم بغيرهم من المسلمين. ويروى أنّ شبيبًا لما رأى الخليفة يأمر بذلك قال له: «يا أمير المؤمنين، إنّ المسلمين لا يأتونك

وهو لاء الكفرة في خدمتك، إن أطاعوهم أغضبوا الله، وإن أغضبواهم أغروك بهم،
ولكن تولي في اليوم الواحد عدّة، فكلما ولّيت رجلاً عزلت آخر». ^(١٢)

إنَّ هذا الخبر ليطلعنا على مبلغ النفوذ الذي كان لبعض النصارى، ولا سيما
الكتاب منهم، لدى الخليفة وحاشيته، ^(١٣) إذ قد كان عليه وعلى حاشيته أن
يتحمّلوا مكائدتهم لصعوبة الاستغناء عن خدماتهم حتّى ذلك الوقت.

شُؤون اليعاقبة

ولكن الأمبراطورية العباسية لم تكن تضمّ النساطرة وحدهم، أي المشارقة من
السريان بل كان هناك المغاربة منهم المقيّدون باليعاقبة والذين كان مقرّ بطريقهم في
أنطاكيّة. عند هؤلاء كانت خلافة البطريرك تسبّب أزمة يستعين أطراف التزاع فيها
بالسلطة السياسيّة. ^(١٤)

في العام ٧٥٥ وبعد وفاة بطريق أنطاكيّة إيوانيس (يوحنا الخامس) أوحى
مقاتل بن حكيم العكي والي الجزيرة ^(١٥) إلى المنصور أنَّ أحد رهبان دير قرطمين،
واسمه إسحق الحراني، يحسن علم الصنعة. وقد أثار هذا اهتمام الخليفة الذي كان
يعتقد باستحالة المعادن، ^(١٦) وكان يحتاج إلى ذهب كثير لعساكره. لذلك نصب
المطارنة اليعاقبة إسحق الحراني بأمر من الخليفة فما كان من الكنيسة السريانية
الغربيّة إلا أن رفضت الاعتراف بشرعنته لأنَّه لم يُنتخب انتخاباً حرّاً. ولكن من نكـ
الدنيا على إسحق أنَّ الخليفة لم يلبث أن اكتشف خرقته قبل نهاية العام، فأمر به
فختن ^(١٧) وألقـت جثـته بالفرات.

وفي السنة عينها، توصل غاصب آخر اسمه أناسيوس الصندلي إلى أنْ يعيـن
بطريقاً لأنطاكيّة وتوصل أيضاً إلى الحصول، بوساطة أصحابه في البلـاط، على عهد
الخليفة بتعيينه. وهذا الغاصب أيضاً مات شـرـ ميتة في نهاية حـيـاة حـافـلة
بالمكـائد. ^(١٨) أخيراً وفي العام ٧٥٨ انتخب المطارنة اليعاقبة، في صورة شـرعـية، وفي
جمعـ لهم عـقدـوه في منـبعـ بطـريقـ جـرجـسـ الـبـعلـتـانـيـ. ^(١٩)

هل أرهقـ بطـريقـ رـعـاـيـاهـ بـطـالـبـهـ؟ـ هـذـاـ عـلـىـ الأـقـلـ ماـ اـتـهـمـهـ بـهـ دـاـوـدـ أـسـقـفـ

دارا، الذي وشى برئيسه إلى مالك، كاتب الخليفة، مزّقاً وشايته بحجج من شأنها إثارة السلطات المسلمة: فالبطيريك لم يكتف بالتقاعس عن طلب عهد الخليفة بشتبته، بل فعل ذلك عمداً لكي يتوجب، فيها قال «إدخال اسم النبي في صرته».

وقد قُضى على جرجس وعذب على الرغم من فجاجة الافتداء.^(٢٠) ولكنه استطاع أن يرد التهم الملفقة ضده في سهولة (ألم يكن يحمل في صرته اسم النبي المكتوب على دنانير الخليفة؟).^(٢١) إلا أن فطنته ألمت الخليفة سؤالاً لم يكن في الحسبان وإن كان يعبر عن اهتماماته المالية: ألم يكن جرجس هذا يعرف علم الصنعة؟ ومن سوء الطالع أن البطيريك لم يقدر على الإجابة إلا بالتفي. ولم يدم حسن المعاملة الناجم عن اهتمام الخليفة العابر إلا قليلاً، وتوقف عندما أدرك الخليفة أنه لن ينتفع من جرجس بشيء. وقد بقي جرجس في السجن ببغداد تسع سنوات^(٢٢) حتى تولى خليفة المنصور، أي من ٧٦٦ إلى ٧٧٥.

في هذه الأثناء أوعز المنصور إلى المطارنة بتعيين داود أسقف دارا المفترى بطريقاً على أنطاكيه. ولدى رسالته المفروضة أحاط عسكر الخليفة بالذبح شاهرين سيفهم وأكرهوا رعيته على قبول القربان من يده. وكان من جراء ذلك أن استتر عدد من المطارنة وجابوا أبرشياتهم متذرعين بثياب بيسن كالتي يلبسها العلمانيون لا بالمسوح السود التي للرهبان، ذلك «لأن الملك أعطى الغاصب خطأ بسجين كل من لم يطعه، وضربه وإهلاكه». (٢٣) ولا يُلام المسلمون على تعديات ارتكبوها ضد بعض النصارى نزولاً عند طلب نصارى آخرين من أبناء ملتهم.

النصاري وتأسيس «بغداد»

يعد تأسيس بغداد «عادة واحداً من أهم الأحداث العظام في تاريخ العالم الإسلامي»^(٢٤) ومع ذلك فالمتصور لم يؤسس بغداد، بل إن ما بناه في السنة التاسعة من خلافته ٧٦٢/١٤٥، هو مدينة السلام، المدينة المدورة التي أراد أن يسكن فيها أصحابه الخراسانيين.

وقد أدى نمو العمران نمواً سريعاً حول المدينة المدورة، ومن ثم على الضفة

الشرقية لدجلة، إلى غلبة الاسم القديم،^(٢٥) الذي كانت تسمى به إحدى البليدات الصغيرة التي احتوتها عاصمة العباسين، على العاصمة نفسها.

كان السلوقيون قد غادروا من قبل وادي الفرات إلى وادي دجلة، تاركين بابل ليؤسسوا سلوقية تنفيذاً لإرادة الانقطاع عن نظام الحكم القديم ومخالفته، لأسباب تشبه الأسباب التي دعت العباسين إلى الاستقرار في العراق. ولقد ابعد المنصور أكثر عن مراكز الأمويين، ولكنه خضع أيضاً لجاذبية عاصمة الساسانيين، المدائن الملكية سلوقية، طيسفون وما إليها.

لم لا يكون المنصور قد اتخذ في بساطة هذا الموقع الرائع حيث يدانى دجلة الفرات ويتصل به عبر نهر الملك؟ ألم يأخذه الفرثييون عن السلوقيين وزادوا طيسفون، مدینتهم الخاصة على سلوقية مدينة السلوقيين ثم مرفأ بلاشباد، وأتخذها الساسانيون فبنوا إلى جانبها بيراسيير. كان ثمة ما يغرى بالظن أنّ حضور الأكاسرة قد استحصل منها منذ أن غادرها ولاة الأمويين إلى الكوفة. ولكن ربما كانت المدائن الملكية قد أصبحت أكثر تلهلاً بعد أن انزعت ببواباتها وتداعت أسوارها وأحدثت فيها فيضانات دجلة ثغرات شتى.^(٣٦) على أيّة حال، لقد اختار المنصور موقعاً يبعد خمسة وثلاثين كيلومتراً إلى الشمال.^(٣٧)

في ذلك الزمن جرى أمر يكشف عن العقليات السائدة.^(٣٨) فقد اقترح أبو أيوب المرياني^(٣٩) الوزير، الذي كان فارسياً من خوزستان لا إيرانياً، أن ينقض طاق كسرى ليستعمل لبناءه في البناء. فحاول خالد البرمكي، الذي هاله الأمر، أن يجد الأعذار ليصرف المنصور عما عزم عليه قال: «لا تفعل يا أمير المؤمنين فإنه آية الإسلام^(٤٠) . . . وهو مصلح على بن أبي طالب (ع) والممؤونة في نقضه أكثر من نفعه» فأجابه المنصور: «أبيت يا خالد إلا ميلاً إلى العجمية؟».^(٣٠) لذلك نقض قسم من الطاق، وفاقت النفقـة الوفـر المرتـجـي لأنـ كلـ نـقـلةـ كـانتـ تـسـتـغرـقـ يـوـمـيـنـ ذـهـابـاـ وإـيـابـاـ.

عندئـذـ أـرـادـ المـنـصـورـ الرـجـوعـ عـمـاـ أـرـادـ فـقـالـ خـالـدـ: «قـدـ صـرـنـاـ إـلـىـ رـأـيـكـ وـتـرـكـناـ هـدـمـ الإـيـوانـ» إـلـاـ أـنـ خـالـدـ نـصـحـ لـهـ بـمواـصـلـةـ الـهـدـمـ حـتـىـ لـاـ يـقـالـ إـنـ الـخـلـيـفـةـ أـضـعـفـ هـمـةـ مـنـ نـقـضـ مـاـ بـنـاهـ غـيرـهـ، فـكـانـ أـصـرـ وـتـوـقـفـ الـهـدـمـ.^(٣١) حـتـىـ إـنـهـ أـمـرـ بـعـدـ

ذلك، وقبل موته بأربعة أعوام بترجمم قصر الساسانيين الأبيض في طيسفون وفرض غرامة مالية على كل من وجدت في حوزته لبنات من قصر كسرى، وكأنّي به قد أحسّ أخيراً بسحر المشهد. بالنسبة إلى الكنيسة السريانية الشرقية أيضًا كان تأسيس بغداد يعني العودة إلى مركزها التقليدي في ما يسمّونه بيت أراماني أي ديار الآراميين. ذلك لأنّ الموقع الذي اختاره الخليفة لبناء عاصمته كان محفوفاً بالأديرة صغارها وكبارها، وللرهبان دور عظيم الأهمية في الأساطير المتبعة بتأسيس المدينة.^(٣٢) كان ثمة دير على مقربة من الموضع الذي بُني فيه قصر الخلد. إلى الشرق، وبالقرب من قرية العتيقة كان ثمة دير آخر ملار فثيون نزل به المنصور وطرد منه بعض المسلمين الذين ملكوه بوضع اليد.^(٣٣)

بديهي أن الخليفة لم يخطط لحي النصارى في مدينة السلام، لأنّه كان ينوي إيواء أصحابه الخراسانيين. ومع ذلك سرعان ما نشأت زيادة على قرية العتيقة وديرها (مار فثيون)، صاحبة لليعاقبة بالقرب من باب المحول (مع كنيسة مار توما) وإلى الجنوب الغربي من الكرخ، وهي للروم والنساطرة بالقرب من باب الشامية، الباب الشمالي للرصافة التي بُنيت سنة ٧٦٨/١٥١ لابن الخليفة الذي صار من بعد يُعرف بالخليفة المهدى.

طيب عظيم

في العام ١٤٨/٧٦٥، وبعد ثلاث سنوات من تأسيس بغداد «مرض (المنصور) وفُسِّدت معدته»^(٣٤) ولَا عجز أطباء المدينة عن شفائِه ذكر له اسم أحد معلمي مدرسة جندisbury الشهيرة، ومدير بيمارستان تلك المدينة الطبيب النسطوري جورجيس بن جبرائيل من بني بختيشوع، الذين اشتُهروا في ما بعد.^(٣٥)

عندما بلغه أمر الخليفة بالشخصوص إلى بغداد للتّوّ، أراد الطيب الذي لم يكن معتاداً على طاعة الأوامر أن يهرب نفسه للسفر خلال أربعة أيام. إلا أنّ عامل المدينة أمهله حتى الغد ولَا امتنع اعتقاله وأراد اصطحابه بالقوة. ولكنّ جورجيس كان محبوباً من الشعب في جندisbury إلى حدّ أنّ خبر اعتقاله أثار الشغب في المدينة. ومن حسن التوفيق أنّ المطران هدا الجموع وأقنع جورجيس بالمسير، وترك

إدارة البيمارستان لابنه بختيشوع. كان الابن يفضل مرافقة أبيه إلى العاصمة ولكن الأب أقنعه بالبقاء حيث هو واصطحب معه تلميذه إبراهيم. وقد توصل بختيشوع بدوره إلى إقناع والده باصطحاب تلميذ آخر، معروف بسوء فعاله هو عيسى بن شهلوفا^(٣٦) الذي حظي من بعد بصيت مشؤوم في بغداد. أما في ذلك الوقت فكان يقال عنه إنه «بؤذني أهل البيمارستان».

كان أول لقاء بين الطبيب ومريضه الكبير ناجحاً. فقد مدح جورجيس الخليفة بخطبة بلغة بالفارسية وبالعربية^(٣٧)، فاستحق بذلك رضا الخليفة وإنعامه. أما العلاج الذي بدا أنه سيطول فقد كان يبشر بالشفاء.

غير أن ظلاً من الإزعاج ظل يشوب إقامة الطبيب، إذ لم يقدم له الخمر مع أول وجبة طعام جلبت له.^(٣٨) ولما طالبهم بها قيل له بامتعاض: «إن الشراب لا يشرب على مائدة أمير المؤمنين»،^(٣٩) فأجاب: «لا أأكل طعاماً ليس معه شراب» ولما تيقن أن لا سبيل إلى نيل مراده تحمل بالصبر وارتضى الشرب من ماء دجلة، وكذلك كان شأنه في العشاء. ويدو أنه اقتنع في اليوم التالي بشروبه الجديد، إذ نسمعه يقول: «ما كنت أحسب شيئاً يجزي من الشراب، فهذا ماء دجلة يجزي من الشراب».

ويسوق لنا ابن أبي أصيبيعة الأخبار برواية أخرى، تبدو لنا أشبه بطبع الطبيب. بعد أيام على وصوله لاحظ الخليفة أن سحته قد تغيرت، فاراتب من الأمر وسأل وزيره الرابع: «لا تكون قد منعته مما يشربه على عادته؟» فأجابه الرابع أن نعم، فأمر الخليفة بأن يجلب للطبيب من أفضل خمور قطربل...

مع وصول جورجيس حصل النساطرة على نصير عظيم النفوذ قادر على بلوغ أذن الخليفة الذي كان إعجابه به يزداد يوماً بعد يوم. وكان من خبر ذلك هذه القصة الطريفة عن المدية التي أهدتها الخليفة إلى طبيبه^(٤٠) في عيد الميلاد سنة ١٥١/٧٦٨: فلما بلغ المنصور أن جورجيس قد غادر في عيام زوجته التي شاخت وأفعدها الوهن عن القيام على رجليها، بعث إليه ثلاثة آلاف دينار مع ثلاثة جوار روميات حسان بصحبة سالم الخصي. ولكن جورجيس رد الجواري وقال للخليفة:

«هؤلاء لا يكونون معنِّي في بيت واحد. لأننا عشر النصارى لا نتزوج بأكثر من امرأة واحدة وما دامت المرأة في الحياة لا نأخذ غيرها. فحسن موقعه من الخليفة، وأمر في وقته أن يدخل جورجيس إلى حظاياه وحرمه وخدمه».^(٤١)

وقد زاد إثر ذلك موضع الطبيب في عين الخليفة وعظم محله، فهل أدى تزايد نفوذ جورجيس إلى تغيير موقف الخليفة من الجاثيليقين المتنافسين؟ لقد بدا أنَّ المنصور، الذي أصغى في غرَّة خلافته إلى نصر صاحب الجيش ومال إلى سوريين الدخيل وأيده ضد الجاثيليق الشرعي يعقوب، قد صار أميل إلى يعقوب حتى إنَّه جسَّ سوريين. على أيَّة حال، إنَّ توالي دخول المتنافسين إلى السجن وخروجهما منه أمر يصعب تحديده تسلسله الزمني، لأنَّه يوافق تفاوت نصيب حماتهما العلمانيَّين من رضا الخليفة وسخطه.

وقد جرى أمر آخر في أثناء وجود جورجيس الطبيب ببغداد، هذا إذا أصاب ابن العربي عندما أرْخَ لبناء كنيسة صغيرة للنساطرة في تكريت سنة ١٥٠/٦٧٧.

نقرأ في تاريخه لتلك الحقبة أنَّ الأسقف صليبا زخا قد خرج من السجن الذي كان فيه مع الجاثيليق يعقوب، وبدأ بترميم كنائس أبرشيته بالطيرهان، ومعلوم أنَّ ترميم الكنائس يدلُّ دائمًا على تحسُّن العلاقة بالسلطنة في دار الإسلام. وفي الحالة التي بين أيدينا، عقد اتفاق ثلثيَّ بين كبير أساقفة اليعاقبة (مباركة بطريقه المحبوس) وقبريانوس مطران نصبيين النسطوري، وصليبا زخا أسقف الطيرهان النسطوري، أتيح بوجهه لصليبا أنَّ يبني كنيسة صغيرة بتكريت عاصمة اليعاقبة بدلاً من كنيسة القديس ضوميط التي ردَّت إلى يعقوبة نصبيين من بعدما أخذها منهم النساطرة.^(٤٢) ولكنَّ جورجيس بن يختيشوع مرض وكان ذلك من سوء حظ الخليفة الذي شفي على يديه ومن سوء حظ النصارى الذين نعموا بحماته، فأذن له المنصور بالعودة إلى جنديسابور.

ولما مثل بين يدي الخليفة ليستأذنه بالمسير، دعاه الخليفة إلى الإسلام قائلًا: «أسلم وأنا أضمن لك الجنة». ولكنَّ الطبيب تحرَّأ على الرد قائلًا: «رضيت حيث آباءي في الجنة أو في النار».^(٤٣) سرَّى مرارًا أكابر المسلمين يستهلوون حديثهم

بعدوة كهذه. فهذا واجب عليهم^(٤٤) ولم يكن المستنيرون منهم يستأذون إذا ما أخفقت محاولتهم.^(٤٥) لذلك حصل جورجيس الطبيب على هدية وداع بلغت عشرة آلاف دينار. وقبل أن يغادر أوصى عيسى بن شهلوفا بديلاً عنه، وكان ذلك سنة ٧٦٩/١٥٢.

الطبيب الملعون

كان عيسى بن شهلوفا شماساً نسطوريّاً، وقد قدر المنصور براعته في الطب. ومع ذلك فلا أحد يصف عيسى هذا في مصاف كبار الأطباء، ولم يؤثر عنه أي عمل مكتوب، لا نقاً عن اليونانية أو السريانية ولا تائياً من عند نفسه.

عندما أراد الخليفة، الذي لم يزل في حاجة إلى المال،^(٤٦) أن يزيد الخراج، وكل أمر النصارى إلى طبيبه الجديد الأثير. فما لبث هذا أن استدعي الجاثيلق (رئيسه الديني!) الذي لم يجرؤ على رفض المثلول أمامه بل جاء في رهط من ستة وثلاثين أسقفاً، رميًّا في محاولة للتهويل على الداهية المقدتر. إلا أن عيسى نظر إليهم باستعلاء، وتكلّف مدّ يده إليهم ليقبّلواها. فما كان من شليمون أسقف حديثة الموصى المتهب إلا أن قرعه تقريراً شديداً ووصفه بأنه «يهودا الثاني». وقد دفع شليمون ثمن جرأته غالياً.^(٤٧)

حاول الرؤساء الدينيون جاهدين أن يستعملوا ضدّ عيسى نفوذ نصراني آخر ذي مكانة هو ابن الطباخ الكسكري صاحب بيت المال، ولكن هذا لم يكن قرن ذاك.

وقد ذهب الخلياء والحميّة بالشّماس المتغطرس إلى حد العمل على حبس جاثيلقه. وعنده خلا له الجو ليأمر الأساقفة بتسليمه أموال الكنائس، ويعزل أولئك الذين رفضوا الانصياع لأوامره: وقد أعاذه على مراده أن سورين الدخيل كان دائمًا جاهراً لرسامة أساقفةجدد... وإن المرء ليفهم الآن الظروف التي دفعت ماري^(٤٨) إلى أن يقول: «وبسطت أيدي العمال على النصارى وفارق بعضهم دينه».^(٤٩)

المصادر المسيحية تذكر اسم أحد هؤلاء الولاة: والي حدثة الموصل أي أبرشية شليمون، وكان اسمه إبراهيم بن يحيى. وقد أنزل إبراهيم، بموافقة عيسى بن شهلوفا، كلّ أنواع الإهانات بالأسقف شليمون.

ربما كان علينا أن نفترّس، على ضوء هذه الظروف عينها صنوف التشكيل التي أنزلها بالنصارى كما بال المسلمين،^(٥٠) موسى بن مصعب،^(٥١) عامل الجزيرة، وعلى دفعتين في ما يبدو،^(٥٢) في ٧٦٩ - ٧٧٠ وفي ٧٧٤ - ٧٧٥.

آية تكون التواريخ الصحيحة فالمحلنة قد وقعت في خلافة المنصور. أقدم الطاغية الذي يصفه ديونيسيوس المزعوم بالسيج الدجال^(٥٣) ويسميه ميخائيل السرياني باليهودي،^(٥٤) على اعتصار مدن عمالته وقرابها.^(٥٥) فقد سلب الكنائس والأديرة وألزم الذميين أن يتقدّموا في أعناقهم أقراضاً من الرصاص للدلالة على كونهم ذميين، وتلك علامات مميزة سجدها في ما بعد.

يبدو أنَّ المنصور لم يستجب للشكواوى التي رُفعت إليه ضد الطاغية، وبخاصة لدى إحدى زياراته لمدينة الموصل.^(٥٦) ومن الجدير بالذكر هنا أيضاً أن بعض النصارى قد مالوا الطالم على ظلمه. حتى إنَّ ديونيسيوس المزعوم نفسه يعترف بذلك إذ يقول: «فإنقسمت القرى وأثرى بعض الرهبان».

في بغداد دالت أخيراً دولة عيسى بن شهلوفا الغشوم. أمّا البطل الذي خلع الطاغية عن عرشه فكان قبريانوس^(٥٨) مطران نصبيين. فقد كتب عيسى إلى قبريانوس كتاباً يطلب فيه منه أن ينفذ إليه من آلات البيعة أشياء جليلة ثمينة لها قدر ويتهدّده متى أخرّها عنه وقال في كتابه: «أليس تعلم أنَّ أمر الملك بيدي إن أردت أمْرْضته وإن أردت شفتيه». واتفق أن خرج المنصور في بعض سفراته حتى وصل إلى قريب من نصبيين. فاحتلال المطران في إيصال الكتاب إلى وزير المنصور الريبع بن الفضل الذي اغتنم الفرصة للتخلص من الطيب المتflux. فأطلع الخليفة على ما في الكتاب فأمر المنصور بأنخذ جميع ما يملكه عيسى وتأديبه ونفيه وزوجته إلى الهند.^(٥٩)

وقد مال المنصور إلى قبريانوس جزاء ما أسداه إليه من خدمات^(٦٠) وأحسن إلى الرهبان ورؤساء البيع.

لتنظر عابرين إلى هذا الخبر الذي يورده ماري عن المنصور. فبعد أن نفى عيسى سأل الخليفة بعض النصارى: «أليس يقال إنَّ الأساقفة يسمع الله صلواتهم فلم لا يسألون الله قتل عيسى؟ فأجابه: إنه بدعائهم قد نُفِي ولا يعرف له خبر». سجد أمثلة أخرى من خلفاء وغيرهم من أعيان المسلمين من كانوا يؤمّنون بقدرات الأساقفة الخارقة للعادات.

ظللت أصداء ما ارتكبه عيسى بن شهلوفا من أعمال الغصب والابتزاز تتردد في أثناء جثلقة حنان يشوع الثاني خليفة يعقوب الثاني. فقد مات حنان يشوع مسموماً باسم دَسَه له دائن أراد أن يستخلص منه قرية دوقرة^(٦١) التي كان سلفه قد رهنا ليستدين بها مالاً طلبه منه عيسى.^(٦٢)

إبراهيم الطيب الطيب

حاول المنصور أن يقنع جورجيس بن يختيشوع بالعودة إلى بغداد بدليلاً من عيسى بعدما عُزل ونُفي. بيد أنَّ جورجيس اعتذر وانتدب تلميذاً آخر من تلامذته اسمه إبراهيم. وقد تحسنت حال النصارى^(٦٣) بفضل إبراهيم هذا وبفضل قبريانوس مطران نصبيين. فقد سمح للمطارنة بالعودة إلى كراسيهيم التي خلعوا عنها، كما أفرج عن السجناء منهم من أمثال الجاثليق يعقوب وشليمون الحديسي.

المنصور يضطهد النصارى؟

هل اتخذت في ظل المنصور إجراءات تمييزية ضد النصارى، إذا ما استثنينا المحبة السوداء التي كان هؤلاء إياها عرضة لكلّ ألوان التنكيد يرتكبها... عيسى بن شهلوفا باسم الخليفة؟

يسرد المؤرخ البيزنطي ثيوفانوس (المتوفى نحو ٨١٨)^(٦٤) قائمة بثل هذه الإجراءات:

- سنة ٧٥٧: يحضر بناء كنائس جديدة وإنشاد الترانيم الدينية خارج جدران الكنيسة وكذلك مجادلة المسلمين.

- سنة ٧٥٨: أخضع الرهبان والعمدّيون للجزية التي سبق إعفاؤهم منها وختم على السكريتaries إلى أن يسترد النصارى الأواني المقدسة من اليهود^(١٥) ويدفعوا أثمنها.

- سنة ٧٦٠: أُقْضِيَ النصارى عن كتابة ديوان بيت المال، ولكنهم أعيدوا إلى وظائفهم للحاجة إليهم.

- سنة ٧٦٧: أمر بنزع الصليب عن قبب الكنائس، وبإقامة الشعائر الدينية ليلاً وتعلم الآداب النصرانية.

- سنة ٧٧٠: أمر بحلق اللحى وباعتبار قلنس طول الواحدة منها ذراع ونصف.

- سنة ٧٧٣: أمر بوسم اليهود والنصارى بالحديد الحامى، هؤلاء يهربون إلى الأراضى البيزنطية. (٦٦)

إنّ هذه القائمة لتعطينا فكرة عنّيّةَ الحدّت هذه الإجراءات ضدّهم. ففي نهاية أحكام سنة ٧٦٧، وبعد الأمر بتعلم الآداب النصرانية يوضح كارل الفسكي أنّ المقصود بذلك هو اليونانية.^(٦٧)

هذا وإن كون المصادر البيزنطية (والمصادر السريانية الغربية في جزء منها) تتفرد بذكر مثل هذه الإجراءات في تلك الحقبة، يدلّ، في ما يبدو، على أنّ هذه الإجراءات لم تمسّ إلّا ذلك الجزء من الخلافة الذي كان سابقاً تحت سلطة البيزنطيين. هناك كان النصارى على مذهب العدو في الدين، كما أنّ الحرف من الطابور الخامس في تلك المناطق الحدودية كان يسّوغ التمييز بالوان الثياب (وحتى الكي بالحديد الحامي) للذين فرضاً على النصارى. ومن هذا المنطلق يجب أن نفهم ما دبره المنصور من إجلاء بعض النصارى عن التغور.^(٦٨) لا سيل إلى إنكار نية الإذلال الكامنة في هذا التدبير، ولكن الإنصاف يتضيّع مما أن نذكر أمر مقاتل بن حكيم العكي عامل الجزيرة القاضي بأن يلبس المسلمين كلّهم السواد.^(٦٩) في هذه الحالة لم يكن للعلماء المميزة من وظيفة غير تلك التي يدلّ عليها لفظها نفسه.

ولئن أخذ على المنصور قسوته على النصارى في بعض الحالات أجبنا بأنه لم

يُكن بال المسلمين أرفق، وخصوصاً في أوائل خلافته.^(٧٠) وهذا يكفي على أية حال لإنفائه من تهمة التعصب ضد النصارى.^(٧١)

ينسب قطع رأس رجل مرتد اسمه قورش إلى عباس عامل الجزيرة^(٧٢) الذي يمتدحه كثيراً ديونيسيوس المزغوم نفسه، والذي لم يتجاوز ما فعله إقامة حد الإسلام على كل مرتد.

البصرة

ربما كان بوسعنا أن نُنزل البصرة، مع الحدود البيزنطية، في منزلة المناطق التي بدا فيها المسلمون أكثر عرضة للإثارة، فرددوا بعنف على تحاوزات بعض النصارى. على أية حال فقد وقع في البصرة حادثان: ففي بداية العام ٧٦٧/١٥٠ اتهم طبيب نصري بصري، اسمه خصيب، بالتسبب في موت محمد، أحد بنى الخليفة السفاح، أي ابن أخي المنصور، فسجن حتى مات. ييد أن ابن أبي أصبيعة يرى أن خصيباً قد ظلم ويرى ساحتة مما اتهم به.^(٧٣)

الحادث الثاني هو طرد كاتب نصري من كتاب الخليفة من أحد مساجد البصرة وذلك على الرغم من الوعيد الذي توعد به القاضي سوارا بن عبد الله^(٧٤) إذ أمر برمه خارج المسجد. وقد أثني المنصور على القاضي.

هنا أيضاً لا يجوز لنا أن ندين مدينة بكمالها بناء على حادثين. ربما كان نصارى البصرة، على قول طه الحاجري،^(٧٥) قد بالغوا في نشاطهم التبشيري واستعملوا وسائل ضغط نجهلها. وهذا ما يستعين من المرثاة التي رثى بها أبان بن عبد الحميد اللاحقي^(٧٦) سوارا القاضي:

كَمْ مُسْلِمٌ أَنْقَذَ مِنْ عُصَبَةٍ
تَسْجُدُ لِلصَّلَبَانِ كَفَّارٍ
يُدْعَى إِلَى الْكُفَّرِ فَإِنْ عَافَهُ
دَانَ بِإِكْرَاهٍ وَاجْبَارٍ

في نهاية خلافة المنصور كان كل شيء جاهزاً لبداية حضارة: إدارة تستمد خزانتها، الملائكة الآن، إمبراطورية متaramية الأطراف، وعاصمة تكبر يوماً بعد يوم، ولم يبق إلا العثور على الرجال، على الخلفاء أو من يقوم مقامهم لإدارة الكل.

الشيء نفسه يصبح على النصاري. فعلى الرغم من الشوائب المتعلقة بشكل مخصوص بالمناطق الحدودية وبالملكيّين أو بالمغاربة من السريان، فإنَّ الكنيسة التي كانت أكثرّيتها من مشارقة السريان كانت تستند على الكتبة والأطباء ممثّلين لها أكفاء لدى السلطة. وقد استطاعت أن تقوم بدورها في نموّ هذه الحضارة كلما حظيت ببطريرك أو بطران مبِرّز إمّا بقداسته أو بعلمه، إذ إنَّ المسلمين يقدرون الاثنين. عندئذٍ كانت تستعيد مكانتها كديانة ثانية للدولة (غير رسمية طبعًا) تلك المكانة التي كانت تتمتع بها في ظلّ الساسانيين بالطرق نفسها: بطاركتها وجواثقتها وأساقفتها من جهة، كتبتها وأطباؤها من جهة ثانية، علىَّا بأنَّ أحجارها كانوا يخرجون من صفو الكتبة والأطباء حينًا، أو يتحدرُّون من أسر الكتاب والأطباء أحياناً.

الحواشي

- (١) كتاب عبد السلام رستم، أبو جعفر المنصور، القاهرة، ١٩٦٥، ١٥٢ صفحة، يحتوي على تحليل تقريري لشخصية المنصور من خلال شواهد أدبية (فتقر في معظم الأحيان إلى الإحالات المناسبة). عن لقبه: انظر B. LEWIS, Studies, cit, II, p.16-19.
- (٢) مروج، الفقرة ٢٤١٩.
- (٣) التبيه، ص ٣٤١.
- (٤) سيكون هذا عاملًا من عوامل الاحتکاك الثابتة، عاملًا يميّزه P. RONDOT (ص ١٣٣) في كتاب جاك تاجر، (ص ١٥٩). بالنسبة إلى أقباط مصر الذين استغلّوا الثقة التي أولاهم إياها الخلفاء ليمارسوا سياسة المحاباة والواسطات إزاء إخوانهم في الملة، وسياسة العداء واللامبالاة حيال الأكثرية... فقد عرفوا المجد والمالي، الجاه والسلطة حتى جاءهم غضب الشعب بزوال النعمة وانحطاط الشأن. كذلك (ص ١٣٢): «كانت جماعة الأقباط تکفر في أغلب الأحيان عن خطأ بعض الطامعين وشططهم الذي يسُوّغ أعمال المسلمين الانتقامية».
- (٥) ماري، ص ٦٧ - ٧٠، صليبيا، ص ٦٣، ابن العربي، التاريخ الكنسي، ج ٢، العمود ١٥٦ - ١٦٤.
- (٦) إنَّ الفتوى المنسوبة إلى محمد بن عليّ ابن النقاش الشافعي المصري والتي ترقى إلى سنة ٧٥٩/١٣٥٧ - ٨ هي تكرار حرفي للفصل الذي يعالج الموضوع نفسه في كتاب أحكام أهل الذمة لابن قيم الجوزية الحنبلي الشامي المتوفى ٧٥١/١٣٥٠، ص ٢١٤ - ٢٣٨.
- (٧) ديونيسيوس المزعوم، ص ٩٦ - ٩٧.

- (٨) نجد في قوائم أمراء الحج الملحقة ببعض طبعات مروج الذهب للمسعودي (مثلاً طبعة محمد محى الدين عبد الحميد، القاهرة، ١٩٦٤، ج ٤، ص ٤٠١ - ٤٠٢) أنَّ المنصور قد حجَّ (فضلاً عن سنة ١٣٦ أي قبل مبايته) سنة ١٤٠ و ١٤٧ و ١٥٢ و ١٥٧. وقد مات على طريق الحجَّ سنة ١٥٧. ويدرك المقربي في الذهب الميسوب في ذكر من حجَّ من الحلفاء والملوك، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٥٥، أنَّ ثلاثة من الحلفاء العباسيين وحسب قد حجوا وهم المنصور والمهدى والرشيد(؟).
- (٩) عرفت مطاردة الأمويين في أوائل العصر العباسى إلَّا أنها نجد دلائل على التعاطف مع الأمويين خلال القرن الثلاثة الأولى للهجرة. أنظر فاروق عمر، الولاء، المصدر المذكور.
- (١٠) وكان يلقب «بجييس القراء» و«أخي المساكين» الزركلي، ج ٣، ص ٢٢٩، مع مراجع.
- (١١) لم يصبح الريبع وزيراً إلَّا سنة ١٥٣، SOURDEL, Vizirat, p 725. ولكن متى كان حاجياً؟ من غير المستبعد أن يكون ابن قيم الجوزية، ومن بعده ابن النقاش ص ٤٣٧، وهما من المتأخرین قد غلطاً في تسمية الشخصيات، كما في العديد من الأحوال الأخرى، ونسبة الرواية إلى الريبع، نديم المنصور المعروف في كتب الأدب. أنظر SOURDEL, Vizi-rat, p 88n².
- (١٢) ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، ج ١، ص ٢١٥.
- (١٣) حتى عندما كان الخليفة يريد إقصاءهم عن مناصبهم، كما أراد أن يفعل عمر بن الخطاب (؟). كان يقوم دائمًا رجل كأبي موسى الأشعري ليقول له: «له دينه ولـي كتابته» ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج ١، ص ٤٣.
- (١٤) ابن العربي، التاريخ الكنسي، ج ١، العمود ٣١٦ - ٣٢٨.
- (١٥) ميخائيل السريانى، ج ٣، ص ٥٢٣ - ٥٢٤: يتهمه ميخائيل السريانى بقتل راهب كان في الطريق إلى القدس بغية الاستيلاء على كتاب في الصنعة ظنه في حوزته. في العام ١٣٦/٧٥٤ خلف العكى أبي جعفر عندما صار هذا خليفة، ولقب بالمنصور، الطبرى، ج ٧، ص ٤٧٠.
- (١٦) يقول المؤرخ محمد بن علي المهدى المذكور في مروج الذهب للمسعودي الفقرة ٣٤٤٦، إنَّ المنصور كان أول خليفة قرب المتجممين وعمل بأحكام النجوم. وفي كتاب سير الآباء البطاركة P.O., X, P.364-365 يقول: نجد أنَّ إسحاق قد ظهر لزوجة المنصور في الحلم وتبنَّى لها بولود طال انتظارها له. وينذهب النص إلى أنَّ إسحاق أراد أولاً خلع البطريرك القبطي مينا الأول ٧٦٦ - ٧٧٥.
- (١٧) يكتفى ديونيسيوس المزغوم، ترجمة CHABOT، ص ٥٨، بالقول: «الذى رفعه حرمه وأهلكه» كذلك يقول ميخائيل السريانى: «قيل للملك: إنَّه يعرف الصنعة ولا يريد أن يعلمك إياها». ج ٢، ص ٥٢٥.

- (١٨) هذا وقد كان قبل ذلك، وفي ظلّ مروان، قد اتّهم بطريقه يوانس بسوء السيرة والمتاجرة بالرتب الكنيسة وما إلى ذلك، ابن العربي، التاريخ الكشفي، ج ١، العمود ٣٠٨ - ٣١٠.
- يبدو ديونيسيوس المزعوم وكأنه يعتبر انتخابه شرعياً. أمّا موته فيوشحه بوشاح الحياة إذ يقول: «وهو أيضاً لم يُرزق بطول العمر، إذ هلك سريعاً ومات هذه الميّة على قول أو تلك الميّة على قول آخر. أمّا نحن فلستنا نزعم لأنفسنا الحق في الكلام بالأمور المكتومة بل نكلها إلى الله الذي يظهر له كلّ شيء واضحًا جليًا»، ترجمة CHABOT، ص ٥٩.
- (١٩) بُيَّنَة من نواحي الراها، وكان جورجيس هذا راهبًا من قُسّرين، ديونيسيوس المزعوم، ترجمة CHABOT، ص ٥٩، ميخائيل السرياني، ج ٢، ص ٥٢٥.
- (٢٠) وقد كان حبس البطيريك مناسبة ليكيل ديونيسيوس المزعوم، ترجمة CHABOT الشنائين للخليفة قائلًا، ص ٨٧: «وكان هذا الملك، متى بلغه أن رجلًا حرّك يده أو رجله في طول المملكة وعرضها، لا يهدأ له بال قبل أن يهلكه سواء أكان هذا الرجل فارسيًا (عَبَاسِيًّا)، عربيًّا (أمويًّا) أو سريانيًّا. وكان يُعدُّ كأعظم صديق له مَن دَلَّه على رجل يملك شيئاً». ويقول المؤرّخ نفسه في الصفحة ١٤١: متى كان الملك ظالماً، كان كلّ وزرائه ظلمة. ومعلوم أنّ الكتاب ليس من وضع البطيريك ديونيسيوس بل ربما كان لراهب من دير زقين.
- (٢١) وقد كانت هذه القضية تطرح على بعض المسلمين السؤال المعكوس: «ألا يجب إزالة آيات القرآن من على النقود، لأنّها كانت تمثّل في أيدي اليهود والنصارى ورجال جنب ونساء حيّض»، G. WIET, Le traité des famines de Maqrizi, dans JESHO, V.I. (1962), p. 58. وانظر المقريزي، شذور العقود في ذكر النقود، تحقيق Daniel EUSTACHE dans Hesperis-Tamuda X, (1969), p. 112-113.
- على عبد الملك بن مروان.
- (٢٢) ميخائيل السرياني، ج ٢، ص ٥٢٧ - ٥٢٩.
- (٢٣) ديونيسيوس المزعوم، ص ٨٧ - ٨٨، يحاول هذا المؤلّف الدفاع عن داود زاعمًا أنه لم يكن له يد في المظالم التي كان رجاله يرتكبونها باسمه. إن كلّ هذه المحاولات للدفاع عن بطاركة غير شرعيّين تحول دون القبول بنسبة هذا الكتاب إلى بطريقه شرعيّ مثل ديونيسيوس.
- Bagdad, Capitale du nouvel Empire abbasside, par D.SOURDEL, dans Arabica, 9. (٢٤)
- Philosophie et religion en Islam في الصفحة ٤٣ من كتابه L.GARDET (1962), P.26.
- Some aspects of Islam إلى أن تأسيس هذه المدينة يمثل «افتتاحاً على الشرق» - وانظر أيضًا the Arab-Iranian Culture from the earliest time up to the fall of Bagdad, par S.B. SA-MADI, Islamic Culture, XXVI, 1952, p32-49.
- (٢٥) عن معنى الاسم انظر عبد العزيز الدوري في E.I², p. 920. ويعيل باحثون آخرون إلى أنَّ

- أصل الاسم آرامي. وقد أصبحت القرية حيّاً لأبي العباس الفضل، انظر: LEVY, A *Baghdad Chronicle*, p. 6 .
- (٢٦) أنظر مقالتي عن خطط المدائن، مع خريطة تبيّن تحولات مجرى دجلة في مجلة سومر، ٢٣ ، (١٩٦٧)، ص ٣ - ٣٨ .
- (٢٧) من وجهة النظر الجغرافية، تلعب بغداد دوراً مشابهاً للدور المدائن عاصمة لأواسط مجرى هذا النهر، متوسطة تقريراً بين الشمال والجنوب ومواجهة لنفس الجبال نحو إيران (طريق خراسان)، تماماً كما أنَّ الموصل عاصمة الشهاب تلعب دوراً مشابهاً للدور مدن أشور، غرود، نينوى وخورسabad.
- (٢٨) يروى الخبر ابن الطقطقي، ص ١٢٥ .
- (٢٩) راجع: SOURDEL, *Vizirat*, p.78-87.
- (٣٠) يبيّن S.S. NADVI في كتابه *The Origin of the Barmakids* ص ٢٤ ، أنَّ الأسرة جاءت من بلخ وها صلات ببوذية الهند.
- (٣١) سنة ١٤٦/٧٦٣.
- (٣٢) يروى الطبرى، ج ٣ ، ص ٢٧٧ أنَّ الرهبان كانوا يعلمون أنَّ ملكاً يلقب بأبي الدوانيق سيأتي إلى هذا الموضع ويبني مدينة. وكان هذا لقب المنصور بالذات، راجع لطائف المعارف للشاعلى تحقيق إبراهيم الأبىاري وحسن كامل الصيرفى، مصر، ١٩٦٠ ، ص ٤٤ . وينذهب ابن الأثير الكامل، ج ٥ ، ص ٥٥٧ - ٥٦٠ إلى أنَّ اسم المؤسس مقلاص وهذا أيضاً ما كان يدعى به الخليفة في صباحه. أما سعيد بن البطريق فيقول في: Annales, CSCO, 51, p.49 إنَّ اسم بغداد هو اسم راهب (٩) كانت صومعته بالموضع الذي بني فيه المنصور مدinetته. والحقيقة أنه كانت هناك بلدة بهذا الاسم على ضفة نهر الصراط. انظر أساطير مختلفة في R. LEVY, A *Baghdad Chronicle*, p. 15-17.
- (٣٣) الطبرى، ج ٣ ، ص ٢٧٤ - ٢٧٥ ، صلilia، ٦٩ - ٧٠ - كما بيّنت في مقالى، Rum à l'est de l'Euphrate, Le Muséon, 90, (1977), p. 372
- (٣٤) ابن أبي أصيبيعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ١٨٣ - ١٨٦ .
- (٣٥) لمزيد من المصادر عنه راجع مقال دومينيك سورديل في E.I.², I,p. 1138
- (٣٦) تختلف كتابة الاسم باختلاف المؤلفين: نجد «ابن شهلا» عند ابن أبي أصيبيعة، وابن شهلاً عند ابن القسطى الذي يخصه بإشارة خاصة (ص ١٦٥).
- (٣٧) ابن العبرى، تاريخ الزمان، ص ١١ - عن دور جورجيس في ترجمة كتب الطلب اليونانية.
- أنظر ابن أبي أصيبيعة، ص ٢٧٩ ، وخصوصاً ص ١٨٣ .
- (٣٨) الطبرى، III، ص ٤٢٤ .

- (٣٩) نجد في الكامل لابن الأثير، ج ٦، ص ٢٤ أن الخليفة منع الملاهي في البلاط، حتى إنه أمر بكسر طببور على رأس بعض الخدم.
- (٤٠) أنظر إيليا التصيبيفي في حوادث هذه السنة، وابن العربي، تاريخ الزمان، ص ١٠ - ١١.
- (٤١) ابن أبي أصيبيعة، عيون الأباء، ص ١٨٥.
- (٤٢) أظن أنني استطعت التعرّف على هذه الكنيسة النسطورية «الصغرى» في المبنى الذي وجد الآثاريون العراقيون به سنة ١٩٧١ ثلاثة قبور عليها كتابات سريانية ومنها واحدة عليها صليب. وهذا المبنى «ملاصق للسور» كما يقول ابن العربي، التاريخ الكشمي، ج ٢، العمود ١٥٦ - ١٥٨، في الزاوية الداخلية الشهالية الغربية من سور المدينة على مسافة ٧٠ متراً تقريباً من دجلة. وقد نقل اقتراحـي حول هذا الموضوع J.N. POSTGATE في مجلة Iraq للمدرسة التقنية البريطانية في العراق، ج ٣٤، (١٩٧٢)، ص ١٤٥ - ١٤٦.
- (٤٣) ابن القسطنطيني، أخبار، ص ١١١، ابن العربي، مختصر، ص ٢١٥.
- (٤٤) آل عمران: ٦٤: «قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله». فالإسلام في ذاته «ديانة رسالية»، طيباوي، ص ٤٦. إن واجب النصيحة ربما وجد صدى له في قول الإنجيل: «اللَّهُ عَلَيْهِمْ حَتَّى يَدْخُلُوَا»، لوقا ١٤: ٢٣.
- (٤٥) وهذا يتفق مع خاتمة الآية وهي: «إِنْ تُولِّوْا فَقُولُوا اشْهُدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ». يروي ابن قتيبة في كتاب التأويل، ص ٥٧ - ٥٦، خبراً مثالاً مغفلـاً ذكر الأسماء قال: «وَيَلْبُثُنِي أَنَّ رجلاً من أصحاب الكلام قال لرجل من أهل الذمة، ألا تسلم يا فلان فقاتل حتى يريد الله تعالى فقال له قد أراد الله ولكن إبليس لا يدعك فقال له الذي قاتل فأنا مع أقوامـه».
- (٤٦) «وَكَانَ يَعْطِي الْجَزِيلَ وَالْخَطِيرَ إِذَا كَانَ إِعْطَاؤَهُ تَبْدِيلًا وَيَنْعِي الْيِسِيرَ وَالْحَقِيرَ إِذَا كَانَ إِعْطَاؤَهُ تَضْبِيئًا»، المسعودي، مروج، فقرة ٢٤٣١.
- (٤٧) عن الإهانات التي تعرض لها انظر ١١١-١٠٨ Assyrie Chrétienne, I, p.108-111 والجدير بالذكر أن عيسى كان مطلق اليدين بقدر ما كان الخليفة منشغلـاً بمطاردة الزنادقة، أي جميع أعداء الإسلام. وفي العام ٧٧٢م، أعدم ابن المقفع وابن أبي العوجاء. LAOUST, Schismes, p.72-73.
- (٤٨) ص ٦٨، س ١٧ - ١٨.
- (٤٩) ومنهم والد معروف الكرخي، وفيات رقم ٧٠٠، الزركلي، ج ٨، ص ١٨٥. ثمة رواية أخرى في مناقب معروف الكرخي لابن الجوزي، تحقيق صادق محمد الجميل، في المورد، بغداد، ٩ (١٩٨١)، ص ٦١٧ - ٦١٨.
- (٥٠) دينيسيوس المزعوم، تاريخ، ص ١٤٣ - ١٤٤.
- (٥١) كان اسمه موسى بن كعب التميمي تبعـاً للطبرـي، ج ٨، ص ٤٧، ٥٤، ٥٦. وتسمـيه مصادر أخرى موسى بن مصعب (الخثعمـي). نظـراً إلى التخلـيط الكبير في الأسماء فإني أميل

إلى الملاحظة التي يديها محقق كتاب تاريخ الموصل لأبي زكريا الأزدي (القاهرة) ص ٢٤٤ ،
الخاشية رقم ٣. قارن: تاريخ ديونيسيوس المزعوم، ص ٩١. الراوي المجهول - ٢٥٦ -
٢٦٦ إلخ.

(٥٢) تختلف التواريخ التي يوردها كلّ من ديونيسيوس المزعوم وميخائيل السرياني.

(٥٣) تاريخ، ص ٩١، وخصص له الكاتب ما يقارب المائة صفحة الأخيرة من القسم الرابع.

(٥٤) ميخائيل السرياني، ج ٢، ص ٥٢٦ - ٥٢٧.

(٥٥) المقصود هنا هي الجزيرة لا جزيرة ابن عمر التي لم تكن تسمى هكذا في ذلك الزمن.

(٥٦) هنا أيضًا يكيل ديونيسيوس المزعوم الاتهام للمنصور (ص ١٠٠) : «ولكن لما كان الملك يسر بالتخريب أكثر مما يسر بالسلام طرد المشت肯ين من حضرته وأنزل عقوبات صارمة بأكابرهم».

(٥٧) ص ٩٨.

(٥٨) قبريانوس الأول، المتخب سنة ٧٤١، هو نفسه الذي كانت له مشاكل مع آبا الثاني (المتوفى سنة ٧٥١) والذي حرص طلاب المدائن ضده. وقد كان تصالح مع يعقوب الثاني وتوفي سنة ٧٦٧ بعدما شغل كرسي المطرانية خمساً وعشرين سنة، راجع Nisibe, p.75-78.

(٥٩) ابن القسطي، ص ١٦٥، ابن أبي أصيبيعة، ص ١٨٥ ، ماري، ص ٦٩.

(٦٠) وقد كان المنصور، عند اعتلائه سدة الخلافة في العام ٧٥٤، استعان بخدمات قبريانوس لينتقل إلى الحرية للأموال التي جمعها من الماشمية مدينة السفاح، ماري، ص ٧٠.

(٦١) بالقرب من واسط، ياقوت، معجم البلدان، طبعة بيروت، ج ٢، ص ٤٨٤.

(٦٢) صليبا، ص ٦٣ - ٦٤. هذا الدائن المشؤوم هو أبو العباس الفضل بن سليمان الطوسي الذي يذكره الطبرى مراجعاً في الجزء الثالث من تاريخه. وقد شارك في مسيرة العباسين الطويلة من خراسان منذ سنة ١٢٩هـ. وقد ولى سنة ١٤٦هـ. قطائع الضفة الغربية للعاصمة، وصار صاحب ختم الخليفة سنة ١٥٨هـ، ووالي خراسان وسجستان سنة ١٦٦هـ حتى ١٦٧هـ. وقد عاد إلى بغداد سنة ١٧٠هـ، ودفع إليه مجدداً ختم الخليفة، ثم مات في السنة نفسها.

(٦٣) ربما كانت تلك مناسبة لأول نكبة تقع على موسى؟ وقد أعيد هذا العامل القاسي إلى منصبه ثم خلع لدى مبادع المهدى (ميخائيل السرياني، ج ٢، ص ٥٢٧) «وانكشف ما نزل بالناس من كروب».

(٦٤) D.H.G.E., III, C.KARALEVSKII Chronographia, p.678-679, 687,690 وشاهد من S.V. Antioche, vol, 598

(٦٥) حبيب الزيارات، الخزانة الشرقية، المجلد ٣، ١٩٤٦ في مقالة «اليهود في الخلافة العباسية»، ص ٥٤ - ٧٨، يتكلّم عن «عداء اليهود للنصارى في الإسلام».

(٦٦) التدبر الأخير ينسبه ديونيسيوس المزعوم إلى موسى بن مصعب، ص ١٠٤ - ١٠٥.

- (٦٧) يذكر ابن الأزرق، ص ٦٨٤، أن النصارى قد تعهدوا بأن لا يعلموا صبيانهم القرآن الكريم.
- (٦٨) البلاذري، فتوح البلدان، طبعة ليدن، ج ١، ص ١٩٦ مذكور عند فاروق عمر، ص ٣١، ميخائيل السرياني، ج ٢، ص ٥٢٢، حيث يسمى هؤلاء «جرماني» أي الجرامقة (السريان).
- (٦٩) ديونيسيوس المزعوم، ص ٤٦. ومن هذا الباب أن بعض ملوك الساسانيين كان قد «أمر العرب حيثما يارخاء الشعور ولبس المصبغات، وأن لا يركبوا الخيل إلا عراة». الإشيهي، المستطرف، تحقيق مفيد قميحة، بيروت، ١٩٨٣، ج ١، ص ١٩٩.
- (٧٠) عن فظائع المتصور، انظر تعليق عبد الشابي في تحقيق كتاب الفرج بعد الشدة للتنوخي، ج ٣، ص ٢٢٥ - ٢٢٦.
- (٧١) يبدو مع ذلك أن بعض أيدي الكتاب قد قطعت، وينسب ابن القيم ذلك إلى المهدي، (ص ٢١٦). ومن ضحايا القطع رجل اسمه سهونا. في ما بعد ذكر سليمان بن وهب أن بعض أجداده، واسمها ماهويه الواسطي، قد حمله بالأبار حماد التركي الذي قلدته المتصور «تعديل» السواد، الجهشياري (طبعة الحلبي، ص ١٣٤).
- (٧٢) ميخائيل السرياني، ج ٢، ص ٥٢٧. يلاحظ ميخائيل أن الارتداد «كان بسبب بعض الأهواء».
- (٧٣) ص ٢١٤ - ٢١٥.
- (٧٤) D. SOURDEL, Nouvelles recherches, p. 276. أما ابن القيم فيجعل هذه الحادثة في خلافة المهدي.
- (٧٥) كتاب الباحظ، حياته وآثاره، ص ٣٦٠.
- (٧٦) فؤاد افرايم البستاني، دائرة المعارف، ج ٢، ص ٣٨ - ٣٩. نلاحظ أن اللاحقى كان الشاعر المفضل لدى الباحظ، PELLAT, Ĝâhîz à Baghdad, p. 63 avec réf. ربما أعاد A.E. KRYMSKI, Ābān al-Zindiq, Moscow, 1913 Lâhiqi le Zindiq بالروسية والفرنسية، مع نص عربي للصوفي، الأوراق، وفيه فقرة عن ديانة أبان ص ١٧ - ١٨. يخصص ابن الأبار فقرة طويلة لأبان اللاحقى في كتابه اعتاب الكتاب، تحقيق صالح الأشت، مطبوعات المجمع العلمي بدمشق، ١٩٦١/١٣٨٠، ص ٧٧ - ٨٢.

٣ - المهدى (١٥٨ - ٧٧٥ / ١٦٩ - ٧٨٥)

كان الخليفة العبّاسي الثالث أبو عبدالله محمد، الذي تسمى بالمهدي يختلف كثيراً عن أبيه المنصور. فقد أمر بفتح أبواب السجون^(١) حال توليه الخلافة. وقد استفاد جرجس بطريق العياقة المحبوس منذ تسع سنوات من هذا العفو،^(٢) ومثله يوحنا مطران نصيبين النسطوري.^(٣) ولكن المهدى، احتراماً منه لأوامر أبيه، منع جرجس من التلقيب بلقب البطريق.^(٤)

وقد ظلّ المهدى على هذا الحلم مدة حياته. وقد قال عنه المسعودي إنّه كان «محبّاً إلى الخاصّ والعامّ لأنّه افتتح أمره بردّ المظالم وكفّ عن القتل وأمنّ الخائف وأنصف المظلوم وبسط يده في إعطاء الأموال».^(٥) أمّا ماري فيقول إنّه «أحسن السيرة وترك خراج سنة على الناس وردّ ضياعهم عليهم وعاملهم في أموالهم بخلاف سيرة أبيه». ~~لذا~~ بيد أنّ المهدى كانت له مساوى تقابل مزاياه. فقد فتح خزائن أبيه وعمّه وراح ينفق منها بسخاء سوء العاقبة على الجيش والدواوين والطرق والبريد فحسّنها كثيراً، ثمّ تجاوز إنفاقه الحدّ حتى شمل الجواري^(٦) والق bian، وكلّ أولئك الذين كان يريد مكافأتهم.^(٧) كان طيباً جواداً، نبيلاً متسماً، وكان أيضاً سهلاً التصديق للخوارق مثله مثل سائر أهل عصره وجعل يجمع كتب السحر.^(٨)

كان منجمّه الرسمي رجلاً خلقيدونياً، ويذهب ابن العبرى إلى أنّه كان مارونيّاً ويُدعى ثيوفيلوس بن توما. وقد تبنّى ثيوفيلوس هذا بأنّ موت سيده سيكون بعيد موته هو بقليل، فكان كمال قال.^(٩)

وقد دفع حب الاستطلاع المهدى إلى إقامة علاقات (بين غزوتين) مع القيصر

لأوون البيزنطي، ليطلب منه كتب علوم اليونان القدمة. وهكذا تطورت في ظلّ المهدى حركة الترجمة الكبرى التي بدأها المنصور منذ تأسيس بغداد مع الطريق^(١١) الذي ربما كان من بعض أسرى الروم. وقد نقل ثيوفيلوس نفسه من اليونانية إلى السريانية أشعار هوميروس وبعض كتب أرسطو. ومعلوم أنّ السريان كانوا قد بدأوا منذ زمن بعيد بنقل كتب اليونان^(١٢) إلى لغتهم، ولذلك جاء معظم الترجمات الأولى من السريانية إلى العربية.

وقد نبه ابن خلدون إلى دور النصارى في «تحضُّر» العرب^(١٣) عندما كتب في مقدّمه الشهيرة: «حتى إذا تبحّج السلطان والدولة وأخذ (العرب) من الحضارة بالحظ الذي لم يكن لغيرهم من الأمم... تشوّفوا إلى الاطلاع على هذه العلوم الحكيمية بما سمعوا من الأساقفة والأقساة المعاهدين بعض ذكر منها... فبعث أبو جعفر المنصور إلى ملك الروم أن يبعث إليه بكتب التعاليم مترجمة، فبعث إليه بكتاب أوقليدس وبعض كتب الطبيعيات. فقرأها المسلمون واطلعوا على ما فيها وازدادوا حرصاً على الظفر بما بقي منها».

سنعود ثانية إلى الدور المهم الذي قام به النصارى في حركة الترجمات العلمية من اليونانية إلى السريانية والعربية. ولنقل هنا إنّه يحقّ لنصارى الشرق المعاصرين أن يفتخرُوا بهذا الإسهام الجليل في تشكيل الثقافة العربية.^(١٤) بيد أنّ هذه اللوحة يتخلّلها بعض الظلال، إذ قد جاء وقت مع خلافة المتوكل التفت فيه المسلمون إلى الجانب السلبي أو حتّى المدّام للدخول ذلك القدر الضخم من العناصر الغربية في الفكر الإسلامي. فالأزمة التي ارتبطت بنشوء الفكر المعتزلي تسترثُد في ما تسترثُد الترجمات التي بدأت في عصر المنصور والمهدى. ولقد أحسن المسعودي إذ ربط اعتقادات الملحدين والذاهين عن الدين بما «انتشر من كتب ماني وابن ديسان ومرقيون مما نقله عبدالله بن المقفع وغيره وترجمت من الفارسية والفالهولية إلى العربية».^(١٥)

المقصود هنا هو اللسان الفارسيّ، ولكن مجرّد إدخال الفلسفة قد حرف الفكر العربيّ المسلم النقيّ عن المواجهة، إذ حوله من الإيمان إلى علم الكلام. والنصارى

السريان مسؤولون (بصورة غير مباشرة) عن ذلك، فضلاً عن الفرس والروم. وهم سوف يؤخذون على ذلك من بعد.

الصيدلاني الظريف

كان للمهدي طبيب اسمه موسى بن إسرائيل الكوفي،^(١٧) ولكننا نجد إلى جانبه، وفي بطانة الخيزران، رجلاً نصراوياً كان الوسيط المعترف به بين أهل منه، والمخالقة منهم بخاصة، وبين عرش الخلافة. كان هذا النسطوري المدعى أبو قريش عيسى نسخة جديدة عن سلفه جبرائيل السنجاري الذي كان الأمر الناهي في بطانة الملكة شيرين في عصر كسرى. كان أبو قريش صيدلانياً وكانت له دكة بالقرب من بعض أبواب قصر الخلافة.

يروي لنا ابن العربي^(١٨) في كثير من الطلاقات ما كان من خبر هذا الصيدلاني في بعض أيام سنة ١٤٣ / ٧٦٠. فقد جاءته جارية بقارورة فيها بول ليقول لها مم تشكوا صاحبتها. فما كان من صاحبنا إلا أن نظر إلى التفسرة بعين الجدّ مظهراً أنه يتفحّصها ثم أجاب بلا تردد ولا اضطراب: «صاحبها هذا الماء حبلى وستلد مولوداً ذكراً يكون له شأن عظيم ويملك على الناس». يعلم الله كم كان خوف هذا المزاج عظيماً عندما قالت له الجارية إنّ التفسرة لم تكن إلا للخيزران^(١٩) جارية ولـي العهد الأثير، وإنّه إذا صدق تنبؤه أثرى إلى ولد الولد،^(٢٠) أما إذا كان كاذباً... إرتابع المسكين وأُسقط في يده، فراح يعود من هذه الكنيسة إلى ذاك الدبر ويكثر من الصوم والصلوة والزكاة حتى ذلك اليوم الموعود. ومن حسن التوفيق أنّ موسى، الذي لقب بالهادي من بعد، ولد سنة ١٤٤ / ٧٦١^(٢١) فاستقبل أبو قريش عيسى في القصر بحفاوة بالغة، ثمّ رقي إلى مرتبة طبيب الأميرة الرسمية. ولما صار المهدي، والد الطفل، خليفة سنة ١٥٨ / ٧٧٥، وصارت أم ولده الخيزران صاحبة السلطة الحقيقة صار للنساطرة في شخص عيسى نصير ذو نفوذ.

شؤون الجاثيلق

كان أول دور اضطلع به «الطبيب» هو الحصول على إذن المهدي لأهل طائفته

بانتخاب جاثليق جديد^(٢٢). ولما حصل عيسى على الإذن لم يتدخل في الاختيار. فقد كان ثمة مرشحان يناصر كلاً منها فريق من رجال الكنيسة والعلمانيين. وتعلم أن هؤلاء، ولا سيما أعيان المدائن (والآن أعيان بغداد) كانوا يلعبون دوراً رسمياً، في انتقاء المرشحين لا في عملية الانتخاب نفسها التي كانت من امتيازات الأساقفة والمطرانة.

هذه المرة كان أول من تقدم للانتخاب حنان يشوع أسقف لاشوم^(٢٣) وكان شاباً عالماً بارعاً ذكياً نقياً^(٢٤) وكان من ورائه رئيس الشامسة مارُوبي وأهل الحيرة والجرامقة، أما المرشح الثاني فكان راهباً يدعى جيورجيس من دير بيت حالاً متضلعَا من السريانية والعربية والفارسية.

لماذا يتوصّل مجمع دير مار فيثيون ببغداد إلى انتخاب شرعي؟ يكتفي المؤرخون هنا بالقول إنَّ القضية رُفعت إلى المهدى الذي استدعاي المرشحين.

إنْ لجري امتحان الخليفة للمرشحين دلالة على ذهنية ذلك العصر. ففي مرحلة أولى دعا الخليفة الرجلين إلى الإسلام قياماً بواجب النصيحة، فرفض جيورجيس، أما حنان يشوع فتخلص متذرعاً بأنه لا يعرف العربية^(؟) بعد هذه الرسميات بدأت اللعبة التي ستتيح اختبار علم الخبرين. سألهما الخليفة: «عصا موسى التي صنع بها العجایب من أي أصناف الخشب كانت»^(٢٥). لا يهمّنا من أوحى لل الخليفة بهذا السؤال، ولا ما كانت الأجوية: فقد كان جيورجيس أربع الاثنين فمنه المهدى جائزة العلم. ولكن الخليفة أُعجب ببهاء طلة حنان يشوع وقاره فرجح كفتة. وربما كان الخليفة متزعجاً من رفض جيورجيس القاطع الدخول في الإسلام. الخلاصة أنَّ حنان يشوع قد اختير وكلف الربيع بن يونس الوزير بتنفيذ القرار.^(٢٦)

III لا نعرف إلا القليل عن جثلة حنان يشوع الثاني، وذلك من قول صليباً المختصر: وقد «أعجب الناس تدبّره». وبعد أربع سنوات من التنازع، توصل الدائن الغضوب أبو العباس الطوسي، الذي صادفناه في ما تقدّم، إلى وضع حد لطالبة الجاثليق بقرية دوكرة، فسمّم الخبر «وخرجت الدوكرة عن أملاك الكرسي».

مشكلة التغور من جديد

يتهم المؤرخ البيزنطي ثيوفانوس الم Heidi أيضاً باضطهاد النصارى. (٢٧) وهو يجعل ذلك في العام ٧٧٢، إذن قبل مبايعة الم Heidi بالخلافة. يروي ثيوفانوس أنَّ الأمير قد أرسل من دبىق، قاعدة عملياته ضد البيزنطيين، «ماكزياس المتعصب»، وأمره باستعباد النصارى وإكراههم على الخروج من دينهم وتخريب الكنائس». والحق إنَّ «ماكزياس» هذا ليس إلا المحتسب (٢٨) الذي أرسله الم Heidi «في بداية خلافته» لكي «ينترب الكنائس التي أنشئت في زمن العرب وبيع عبيد النصارى. فهُدمت كنائس كثيرة وهرب العبيد». يقول ابن العبرى إنَّ إحدى الكنائس التي هُدمت كانت للخلفيدين (الروم) بحلب، وهذا يحدد موقع التخريب. وفي حلب أيضاً أكره الم Heidi سنة ٧٧٨ بني تونخ من العرب النصارى على الإسلام فأسلم ٥٠٠ رجل، ويُذكر في هذه المناسبة استشهاد رجل يُدعى الليث. (٢٩)

يدرج ميخائيل السريانى هذه الإجراءات في سياق ردَّ فعل الخليفة ضد الزنادقة وعلى رأسهم المانوية. ويبدو أيضاً أنَّ من أسبابها سخط الخليفة إثر هزيمته أمام لاوون الرابع. (٣٠) لذلك كان بوسمعنا أن نشاط رأى فاروق عمر (٣١) إذ يعتبر أنَّ هذه الحالات استثنائية وأنَّ «موقف الم Heidi العام» إنما كان موقف التسامح. وسيتاح لنا أن نتبين ذلك أكثر في علاقاته مع الجاثلين طبياثاوس.

ولكن يبقى أمامنا خبر «شهيد»: ففي يوم الاثنين الأول من آيار ٧٨٠ أُعدم في الرافقة الراهب السوري رومانوس. فقد أخذ رومانوس في غزوة سنة ٧٧١ وظلَّ أسيراً مبدئياً ببغداد حيناً في معسكر وحيناً آخر في منزل لبعض أمراء النصارى. وقد اتهم منذ سنة ٧٧٨ بالتجسس، فاستطاع أن يثبت أنَّ ثمة التباساً في الأسماء بينه وبين سمِّي له، ولكن دنا أجله لـما توصل إلى رد بعض أسرى الروم إلى النصرانية من بعد ما اعتنقوا الإسلام. أمر الربيع بجلده وأمر الم Heidi بقتله من بعدها حاول زعزعة إيمانه. (٣٢)

أما الإجراءات التي ينسبها إلى خلافة الم Heidi كلَّ من ابن القيم (٣٣) وابن النقاش (٣٤) فقد تبيَّن أنَّ عدداً منها يرقى بالفعل إلى عهد المنصور. (٣٥) فاللامنة

الأساسية في كتاب أحكام أهل الذمة هي إنّه «في عهد هذا الخليفة أو ذاك تعاظمت أهمية أهل الذمة»... فظلموا المسلمين. والأمر يتعلّق دائمًا بالكتاب المتعجّرين (الذين لا غناه عنهم). وقد مرّ دهر قبل أن يتوصّل الخلفاء إلى الاستغناء عنهم، على الرغم من هجاء المتذمّرين. من ذلك أنّ بعض الصالحين ممّن كانت له عادة في حضور مجلس الخليفة ذكر للمهدي اجتماع الناس إلى بابه متظّلين من ظلم أهل الذمة ثمّ أنشده:

بأي وأمّي ضاعت الأذهان والأفهام
أم ضاعت الأحلام
من صدّ عن دين النبي محمدٍ
أله بأمر المسلمين قياماً
فيما، فتلك سيوفهم مشهورة
إلا تكن أسيافهم مشهورة

تجدر الإشارة هنا إلى أنّه في هذه الحقبة أي ابتداءً من العام ١٦٦٢/٧٨٢ تقدّم إلى أنّه في هذه الحقبة أي ابتداءً من العام ١٦٦٢/٧٨٢ حتى نهاية عهد المهدي ظلت الوزارة، في ما يبدو، بين يدي الفيض بن أبي صالح، وهو سليل أسرة من نيسابور كانت نصرانية. كان هذا الوزير الرفيع الأدب سخياً مفضلاً، عزيز النفس كثير الكبر والتّيه، وكانت له، ولا شك علاقات بأهل ملة أبيه، ولكن المؤرّخين لا يذكرون شيئاً عن هذا الشأن.

بين جاثليقين

كان المهدي في أواسط سنتي خلافته العشر عندما مات البطريرك حنان يشع مسموماً بيد الطوسي.

وقد تقدّم إلى خلافة الجاثليق المغدور أربعة مرشّحين: الراهب جيورجيس الذي لم يوفق في المرّة السابقة، توما أسقف كسكل مدبر السيدة الشاغرة، افرييم مطران جنديسابور الأوّل في الرتبة بين المطرانة وهو السايم الأول شرعاً، وأخيراً مطران مغمور من بعض أبرشيات الأطراف التابعة لحدياب،^(٣٦) طياثاوس أسقف بيت بعش.

هذه المرّة جمع جيورجيس الراهب، بعونه رئيس الشمامسة بيرُوي، أصوات نصارى (المدائن) وأهل كسكل، وأهل نصبيين.^(٣٧) وقد أعاد الطيب على انتخاب جيورجيس ولكنّهم وجدوه ميتاً.

لـ IV
لن أعود إلى تفاصيل انتخاب طيماثاوس المعروفة جيـاً، ذلك الانتخاب الذي يصعب غسله من وصمة الاتـجار بالدين. فقد رشح كاتـب يـدعى أبو نوح الأنباري، نجد عقبـه في خدمة المـتوكل من بـعد، أسقفـ بـيت بـغـشـ. وقد كان هـذا الكاتـب قد تـرـى مع طـيـماـثـاـوسـ بمـدرـسـةـ إـبرـاهـيمـ بنـ دـشـنـدـادـ الأـعـرجـ فـيـ شـوـشـ.^(٣٨)
ثم إن طـيـماـثـاـوسـ اختـارـ التـرـهـبـ أمـاـ أبوـ نـوحـ فـصارـ كـاتـبـاـ لـدىـ مـوسـىـ^(٣٩)ـ بـنـ مـصـعبـ عـامـلـ المـوـصـلـ. وـمـنـ مـوـقـعـهـ هـنـاكـ مـدـ يـدـ العـونـ إـلـىـ طـيـماـثـاـوسـ، (الـذـيـ صـارـ أـسـقـفـ بـيـنـ بـغـشـ)، ليـسـتـرـدـ خـراـجـ أـبـرـشـيـتـهـ. وـبـيـدـوـ أـنـ أـبـاـ نـوحـ كـانـ (فـيـ بـعـضـ الدـوـاـوـينـ) بـيـغـدـادـ عـنـدـ اـنـتـخـابـ طـيـماـثـاـوسـ فـيـ أـيـارـ سـنـةـ ٧٨٠ـ لـأـنـهـ كـانـ هـنـاكـ لـاقـتـراحـ اـسـمـ صـدـيقـهـ.^(٤٠)

أما أبو قريش عيسى الذي مات مرشحه فقد انحاز إلى مؤيدي طياثاوس، بدليل أننا نراه يلوم مطران جنديسابور على معارضته، تلك المعارضة التي أدت إلى إعادة شعائر الرسامة مرة ثانية في كنيسة الأصيغ العبادي (المنسوب إلى الحيرة) بدار الروم.

يُوسف المروزي

ثمة حادث ربما عُگر علاقات طيبة اثاؤس بالمهدي ، ذلك هو خبر يوسف مطران مرو . فقد كان يوسف هذا خطيباً مشهوراً بالعربية والفارسية ، وكان قد أعطى صوتة لطيبة اثاؤس لقاء وعود كاذبة . وعندما تنكر طيبة اثاؤس لوعوده من بعد انتخابه ، انضم يوسف إلى المتمردين الذين رسموا جاثليقاً منافساً في دير الطين بالقرب من حدائق دجلة فحرمهم طيبة اثاؤس من شركة المؤمنين .

هل تعلقت قضية ثانية بهذه؟ يقول ابن العربي إنَّ يوسف قد قبض عليه متلبِّساً باللواط. (٤١) عندئذٍ لم ير المذنب إلَّا حلاً واحداً لمشكلته: فأشهر إسلامه بين يدي المهدى الذى استعمله على بعض أعمال البصرة.

ولما أراد توسيع إسلامه أمام الخليفة أطلق الاتهام الذي أصبح (سوء الحظ) كلاسيكيًا: (٤٢) «النصارى يدعون ليل نهار لانتصار الروم». كان هذا الكلام

يساوي، في ظروف الحرب الدائرة آنذاك، اتهاماً بالخيانة. في البداية حمل الخليفة الأمر على محمل الجد، وهدد بالقضاء على النصارى. ومن حسن التوفيق أنَّ الطيب عيسى لم يكن بعيداً عن مجرى الأحداث فأجاب الخليفة فوراً: «الروم يكرهوننا أكثر من اليهود».

وقف المهدى متخيلاً بين هذين القولين (وهذا مما يشرفه)، وأحبَّ أن يقف على حقيقة الأمر: ما كانت علاقات النساطرة بالروم؟ طرح السؤال على بطريق شريف كان أسيراً عنده. فلم يترك جوابه مكاناً لأدنى ريب: «يكاد النساطرة أن لا يكونوا نصارى. وهم إلى العرب أقرب منهم إلينا» يعني أنَّ تمييز النساطرة وجهين في ذات المسيح يلغى آلام الإله وأمومة مريم للإله، ويجعل موقفهم أدنى إلى عقيدة المسلمين.

من بعدهما أخفق يوسف في الهجوم العام، أراد أن يوقع بطيماثاوس الذي كان قد كذب عليه وألقى عليه الحرم. دبر يوسف مكيدة منمقة: رسالة مزيفة من الجاثليق إلى قيسار الروم تقول: «إنَّ العرب ضعاف، فاغزهم تنتصر». وقد خبّئت الرسالة، مع شيء من الذهب في موضع يسهل اكتشافه لدى أية مصادرة. ولكن الحيلة لم تنطل على الخليفة. لم يقع يوسف المرتد كثيراً في وظيفته بالبصرة بل هرب ولحق بالروم حيث ارتد إلى النصرانية في ما يُروى.

طيماثاوس والمهدى

إنَّ المؤلَّفات الكثيرة التي نُشرت عن هذا الموضوع^(٤٣) لتعفيانا من بسط الكلام فيه. يؤكّد صليباً^(٤٤) أنَّ الخليفة كان يستدعي الجاثليق «في أكثر الأيام ... (وكانت) له معه مباحث يطول شرحها». ^(٤٥)

يروي طيماثاوس نفسه بعض ما جرى في هذه المباحثات في رسائله إلى صديقه سرجيس. ففي بداية وقائع مناظرات اليوم الثاني، كما وردت في النص السرياني^(٤٦) يُسرُّ الجاثليق إلى صديقه: «بأنَّ المقابلات مع الخليفة كانت تجري باستمرار، وكانت حيناً في شؤون الدولة، وحياناً لإرواء الظماً إلى الحكمة الذي كان

يشتعل في صدر الخليفة. فهو ودود ويحب تعلم الحكم متي وجدها عند غيره». ربما دلت الجملة الأخيرة على أن التواضع لم يكن من خصال طبياً، ولكنها تعبر، في أية حال، عن جيل النساء على الخليفة.

وقد طلب المهدى من طبياًوس أيضًا أن يترجم له كتاب طوبيقاً لأرسسطو عن السريانية. وفي سنة ٧٨٢، أنجز الجاثليق، بمعونة أبي نوح، ترجمة فضلها الخليفة على ترجمة أخرى من اليونانية رأساً.^(٤٧) ولكن الجاثليق اعترف بعد ذلك بكثير، حوالي سنة ٧٩٩، بأنه استعان ببعض الروم لمراجعة النص الأصلي.^(٤٨)

من المعروف، أخيراً، أن طبياًوس كان يهتم بالعلوم وقد صنف فيها مصنفات عدّة، منها كتاب في علم الفلك.^(٤٩) وقد كان من شأن هذا أيضًا أن يقربه إلى الخليفة.

تجدر الإشارة، ختاماً، إلى أنه ليس لنا أن نرکز خلافة المهدى كلها على علاقاته الطيبة بطيماًوس، وكأن هذا كان مستشاره المسنوع الكلمة النافذ الأمر. ولشن استفاد النصارى من هذه الظروف المؤاتية، فإن محور الاهتمام كان غيرهم، إنه هاجس المهدى في حلٍ سلمي لعضلة أهم من المشاكل الصغيرة المتعلقة بالنصارى. وما تلك إلا معضلة العلوين في نزاعهم مع الهاشميين،^(٥٠) أولئك العلوين الذين تعقبهم المتصور، والذين أشകت إحدى انتفاضاتهم أن تطيح بالخلافة. وقد كان المهدى يرى حل هذه المشكلة برفع سلسلة نسب الأئمة إلى جده العباس بحيث يتمكّن من جمع شمل الفتّين المتنافستين.

كذلك، فقد كان لا زهار حياة البلاط^(٥١) المؤاتية للهوايات المترفة والجدل الودي، عواقب وخيمة منها «خلق جو من عدم الاستقرار لما كان لنفوذ الموالي، حسّاد وزير الخليفة، من دور في الكيد لهذا الأخير مكائد لا يتوصّل دائمًا إلى التغلب عليها» ولقد شهدت العهود اللاحقة تفاقم هذا الميل وتزايد نفوذ الفرس في الدواوين وبين أهل الحكم. وقد استفاد النصارى من هذه الحال قبل أن يقعوا ضحايا ردّة الفعل عند تصليب العقيدة في خلافة المتوكّل.

كانت عناصر المأسي التالية جاهزة كلها عندما توفي المهدى عن ثلاثة وأربعين عاماً في ٢٢ محرم ١٦٩ / ٤ آب ٧٨٥.

الحواشي

- (١) تناول العفو الشيعة بخاصة وذلك في سياق سياسة التهدئة، LAOUST, *Schismes*, p.73.
- (٢) الراهوي المجهول، ص ٦٦٦.
- (٣) إيليا النصيبي في أخبار السنة ١٥٩هـ. يبدو أنَّ هذا المطران قد حُبس بالموصل مع بعض أعيان المدينة، من قبل موسى بن مصعب.
- (٤) ميخائيل السرياني، ج ٣ - ٤، ابن العربي، ج ١، العمود ٣٢٨. يضيف ميخائيل السرياني «أنَّ بعض الوشاة (النصارى؟) اتهموه لدى العكى أمير المجزرة بأنه قد داس برجليه أوامر الملك». وقد دافع المطران ثيودوسيوس الحنائى عن البطريرك. نلاحظ في هذا الشأن، أنَّ جرجس لم يكن يعرف العربية فكان على المطران أن يتترجم ما يقول.
- (٥) مروج، الفقيرتان ٢٤٤١ و ٣٤٤٧، التنبية، ص ٣٤٣.
- (٦) ص ٧٠.
- (٧) الراهوي المجهول، الصفحة نفسها.
- (٨) الكامل، ج ٦، ص ٨٣ - ٨٤، ابن الطقطقي، ص ١٤٣. نرى الخليفة يشاطر بعض النبط (السريان) طعامه. انظر أيضًا في الطبرى، ج ٣، ص ٥٤٢، قصة الجارية الرومية الحسناء التي انكشف جيبها الواسع عن صليب ذهبي معلق بين ثدييها.
- (٩) ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ١١.
- (١٠) تاريخ الزمان، ص ١١ - ١٢. إنَّ المنجم النصرانى الوحيد الذي يذكره لك. نلينو في Sun, Moon and Stars (Muhammedan) de l' *Encyclopedia of Religions and* مقاله.
- Ethics, 2nd. ed., 1934, vol. 12, p.91.
- DUNLOP, D.M., The Translations of al-Bitriq and Yahya b. al-Bitriq, in JRAS, (١١) 1959, p.140-150.
- (١٢) أنظر مقالتي في: MIDEO (القاهرة)، ج ١٨، ص ٣٥٣ - ٣٥٧، Le Mystérieux. Annoté par S.P. BROCK, Greek into Syriac Traducteur (١٩٧٧)، ص ٤٠٦ - ٤٢٢.
- M. ALLARD, dans *Mélanges H. Fleisch*, Beyrouth, 1977, II, p.730-737. (١٣)
- (١٤) طبعة دار الكتاب اللبناني، ج ١، ص ٨٩٢.
- Note sur les Chrétiens et les lettres arabes, par Youakim MOUBARAK, P. 123- 130. De même: Influence of Syriac Grammar on Arabic, par Anis FRAYHA. (١٥)
- الأبحاث، ١٤، (١٩٦١)، ص ٣٩ - ٦٠، إلخ.
- (١٦) مروج الذهب، الفقرة ٣٤٤٧.
- (١٧) ابن أبي أصبيعة، ص ٢٣٠ - ٢٣٢.

(١٨) ج ٢، العمود ١٦٤ - ١٦٦، ابن أبي أصيحة، ص ٢١٦ - ٢١٧. ابن القسطي، ص ٢٨٣ - ٢٨٠.

(١٩) مصطفى جواد، سيدات البلاط، ص ١٥ - ١٩، الزركلي، ج ٢، ص ٣٧٥ - ٣٧٦، AB- BOT, *Two Queens*, p. 21-134.

(٢٠) يقول ماري في الصفحة ٧٠، إنه تلقى عربوناً قيمته ألفاً درهم.

(٢١) كان في السادسة والعشرين من عمره عندما توفي سنة ٧٨٦/١٧٠.

(٢٢) يفرد صليباً يجعل الانتخاب في خلافة المنصور سنة ٧٧٣. أما ماري وعمرو (ملحق صليباً في ١٢٩ Gismondi, p.129) فيجعلانها في خلافة المهدى وكذلك إيليا النصيبي الذي يجعلها في سنة ٧٧٥/١٥٩.

(٢٣) Assyrie Chrétienne, III, p.54-60 خلافاً لما يقوله ماري (ص ٧٠) فإن هذه البلدة متميزة عن الداقوق (طاووق) الموجودة على بعد ١٢ كلم منها. لن أعطي بعد الآن مراجع عن التقسيمات الإدارية المسيحية، فهوسع طالبها أن يجدتها في مجلدات Assyrie Chrétienne.

(٢٤) ماري، ص ٧٠ - ٧١، صليباً، ص ٦٣ - ٦٤، ابن العربي، ج ٢، العمود ١٦٤ - ١٦٦. إيليا النصيبي، تحت السنة ١٥٩ هـ.

(٢٥) في هذا الحديث غرورج عن المناوشات التي ازدهرت خلال هذه الخلافة والخلافة التي أعقبتها. وقد تكلم الكندي عن هذه الأحاديث في ظلّ المأمون، نظامي عروضي، ص ١١٠ - ١١١.

(٢٦) نحن إذن في مستهل خلافة المهدى، إذ قد أفل نجم الوزير بعد ذلك. سنتلقى به ثانية في خلافة المادى.

Chronographia, I, p. 700 (٢٧)

(٢٨) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٣. ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ١١.

(٢٩) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٤٧٨ - ٤٨٠.

R. CASPAR, *Les Versions Arabes*, p.115 (٣٠)

(٣١) Some Observations ومقالات أخرى للباحث نفسه.

(٣٢) أنظر جملة من التفاصيل حول هذه الحالة وحول حياة الأسرى ببغداد في St. Romain le Néomartyr, d'après un document géorgien, par le p. PEETERS, *Analecta Bollandiana*, XXX, (1911), p.393-427.

من أصل عربي مفقود.

(٣٣) ص ٢١٥ - ٢١٧ . ٢١٧ - ٢١٥.

(٣٤) ص ٤٣٨ - ٤٤١ . ٤٤١ - ٤٣٨.

(٣٥) فالمنصور هو الذي استعمل على الأهواز ودجلة وفارس عماره بن حمزة، الطبرى، ص ٣٧٩ - ٣٧٨.

(٣٦) أبرشية نسطورية تشمل شمال العراق الحالي.

(٣٧) إذا صحت لنا قراءة «صويا» بدلاً من «صوب»؟

(٣٨) صلبيا، ص ٦٦ - ٦٨.

(٣٩) ماري، ص ٧١، يسميه أبا موسى.

(٤٠) وقد ورد في خطوطه ينفرد الأب بولس سبات بذكرها (في ملحق كتاب الفهرس ص ١١ فقرة ٩٣) أنّ أبا نوح قد صار كاتبًا لطبياثاوس. وقيل إنّ اسمه عبد المسيح.

(٤١) سترى حالات مماثلة عند رجال الكهنوت، من ذلك قيس من الحيرة «ترك الإنجيل جبًا للصبا»، على قول جحظة البرمكي (المتوفى سنة ٣٢٤/٩٣٦)، نشوار المحاضرة، طبعة الشالجي، ج ٢، ص ١٩٥ - ١٩٦.

(٤٢) ثمة مقارنات مع ما كان يحصل في ظلّ الفرس، تذكرها N. GARSOIAN في *Le rôle de la hiérarchie chrétienne*, p. 132-135

(٤٣) آخر ما تُكتب فيه هو كتاب H.PUTMAN الذي يعرض القضية من شتى جوانبها ويقدم ببليوغرافيا وافية. أضف إليه مقالة L. SAKO ومقالة T. CASPAR.

(٤٤) ص ٦٤ - ٦٦.

(٤٥) يوجز طبياثاوس في رسالته الأربعين (بيداويد، ٣٢ - ٣٣) إلى سرجيس مناظرة دارت بينه وبين فيلسوف أرسطوطاليس حول بعض الأمور الدينية: الله، أفعاله، تمسّده، إلخ. يذهب المطران بيداويد (ص ٣٢، الحاشية رقم ٢) إلى أنّ هذا الفيلسوف ربّما كان عبدالله الاشمي الذي كتب في رسالة له إلى الكلندي: «وقد قرأت ذلك كله ودرسته وناظرت فيه مع طبياثاوس جاثليق». الأغلب أنّ عبدالله هذا كان نسطوريًا أسلم. أنظر KINDI par G. TROUPEAU, E.I.², IV, p.123-124

(٤٦) CASPAR —

(٤٧) الرسالة ٤٣، بيداويد ٣٥، راجع G. BAUDOUX, La lettre du patriarche Timothé au prêtre docteur Pethion, dans *Annuaire de l'Institut de Philologie et d'Histoire Orientales*, volume offert à Jean Capart, III, (1935), p.40.

(٤٨) Ep. 48، بيداويد ٣٧ - ٣٨.

(٤٩) ماري، ص ٧٤.

(٥٠) SOURDEL, Vizirat, p. 92-93

(٥١) المرجع، نفسه، ص ١١٦.

٤ - الهمادي (١٦٩ - ٧٨٥ / ١٧٠ - ٧٨٦)

وعلى ذكر المكائد، فقد ذهب الخليفة الجديد ضحية إحداها بعد سنة واحدة من توليه الخلافة، ولم يكن بعد قد تجاوز السادسة والعشرين من العمر. أما من دبر موته فهي والدته الخيزران التي كانت قد سررت كثيراً بولادته، والتي بدأ القلق يساورها من هذا الولد عندما أراد التخلص من سلطتها^(١) وحبس هارون أخيه الأثير عندها. فهي، في ما روي، التي دبرت خنق الهمادي^(٢) ل تستخلف ابنها الأطوط لإرادتها هارون الرشيد.

أدلت مؤامرة الخيزران^(٣) ووفاة الهمادي إلى إنقاذ حياة أطبائه النصارى أبي قريش عيسى، عبدالله الطيفوري^(٤) وداود بن سرابيون^(٥) الذين كان الهمادي قد حكم عليهم بالموت لأنهم ما أفلحوا في شفائه.^(٦) وفي اللحظة الأخيرة استدعي إلى سرير الخليفة العليل طبيب آخر كان يقيم بالقرب من نهر صرصر، اسمه عبد يشوع. كما أنّ بختي Shaw بن جرجيس، قد استدعي أيضاً من جنديسابور، إلا أنه وصل من بعد فوات الأوان.^(٧)

لا نعرف الكثير عن حال النصارى في ظلّ هذا الخليفة العابر «القاسي القلب الشرس الأخلاق». ^(٨) فقد أخذ بسيرة أبيه في مطاردة الزنادقة ونجح نجح العداء للعلويين.

يروي لنا ماري حدثاً عجيباً، يبرز في حياة الهمادي القصيرة، كالصخر العظيم النابئ في عرض الجبل. فقد اتفق أنّه لما مرّ الخليفة بحديثة الموصل أراد، لسبب لا نعرفه، أن يكسر تابوتاً لبعض الشهداء، معظّماً عند نصارى الناحية، ويطرحه في

دجلة. إلا أنه تراجع عن أراد بعدها ألت برأسه وعينيه أوجاع حادة مفاجئة. ولما شفي جدد الأمر بكسر التابوت. وتقول رواية إن الأوجاع تجددت، وإنه مات هذه المرأة... يختلف سبب موت الخليفة في هذه الرواية اختلافاً بيناً عن ينسبه المؤرخون إلى الحيزران من ضلوعها في تدبير قتل ولدها^(٩) وعلى آية حال يقى سلوك الخليفة عصيّاً على التفسير. إذ ربما كان قد ضاق صدره، بعد خيبة رجائه في شفاء عجائبي منّاه به راهب دعيّ من رهبان الحديثة المؤمنين بقدرات التابوت، مثلما كان قد خاب ظنه في علم الأطباء الثلاثة من قبل؟

لا نعرف شيئاً عن علاقات طيباًثاوس بالهادي. ويحوز لنا أن نقدر أنها قد تبادلا بعض الأحاديث، إذ يقال عن الخليفة إنه «كان كثير الأدب محباً له». (١٠) زد على ذلك أنّ الهادي كان في أول عهده «كثير الطاعة لأمة الحيزران مجياً لها في ما تسأل من الحاجات» (١١) للمرتّبين إليها ولعلّ طيباًثاوس كان منهن بفضل أبي قريش. إنّ مرض الهادي الذي جعله نفوراً من الناس وخلافته القصيرة التي خيم على أواخرها ظلّ خلافاته مع أمّه، لم يسمح للم الخليفة الشاب بإقامة علاقات وثيقة مع الجاثيقي. وإن كان ماري يؤكد بلا تردد، ومن بعدما ذكر الهادي في جملة الخلفاء المعاصرين لطيباًثاوس: «أنّه لم يبق ملك إلا وكاتب وجذبه إلى الإيمان وتلمذه».

الحواشي .

- (١) المسعودي، مروج، الفقرة ٢٤٧٧، يبيّن أنّ الهادي قد حظر عليها الاشتغال في شؤون الخلافة سواء ما خصّ منها المسلمين أو ما خصّ الذميين.
- (٢) يذهب فاروق عمر إلى أنّ سبب الوفاة هو تسمم عرضيّ نتج عن خطأ بعض الجواري، . Caliphate, p. 341.
- (٣) المرجع نفسه، ص ٣٣٤ - ٣٤٣.
- (٤) ابن أبي أصيبيعة، ص ٢٢٠ - ٢٢٤.
- (٥) هل هذا الطبيب هو الجغرافي الذي قدّم رواية جديدة لكتاب صورة الأرض للخوارزمي؟
راجع André MIQUEL, La géographie humaine du monde musulman, I, 1976 (1973) p. XXVIII.
- (٦) ابن القسطي، ص ٢٨١.

- (٧) ابن أبي أصيحة، ص ١٨٦ - ١٨٧ .
- (٨) مروج، الفقرة ٢٤٧٠ .
- (٩) يذهب السيوطي، ص ٢٨٠ ، إلى أن الهادي رأى حاول من قبل تسميم أمّه؟ وجاء في بعض روایات مقتل الخليفة أنّ أمّه «عملت على قتلها لما وعك بأنّ غمّوا وجهه ببساط وجلسوا على جوانبه» .
- (١٠) المسعودي، مروج، الفقرة ٢٤٧٠ .
- (١١) المصدر نفسه، الفقرة ٢٤٧٦ .

٥ - الرشيد (١٧٠ - ٧٨٦ / ١٩٣ - ٨٠٩)

لا يجوز لنا أن نحكم حكمًا عامًّا على عهد دام ثلاثة وعشرين سنة، علمًا بأنَّ الخليفة الجديد قد باشر أمور الخلافة وهو بعد في العشرين من العمر. فالخيزران، تلك الأمّ المسلطية التي دبرت، في ما قيل، قتل ابنها البكر موسى المادي لتضمن العرش لابنها الأثير هارون الرشيد، قد ظلت «خلف الستار» بالمعنى الحقيقي للعبارة.^(١)

بعدما أوصل الخليفة الشاب والدته إلى مثواها الأخيرين،^(٢) بدأ يتصرف بصورة مستقلة، فعيَّن مثلاً بعض الرجال في مناصب كان قد أُجْلَى تعينهم فيها لأنَّ أمَّه لم تكن راضية عنهم،^(٣) ومن حسن حظ المملكة أنه كان متاثرًا بالبرامكة (١٧٠ - ١٨٧ / ٧٨٦ - ٨٠٣)^(٤) فقد «اختلت أموره بعد البرامكة وبيان للناس قبح تدبيره وسوء سياساته»^(٥) على حد قول المسعودي الصارم.^(٦)

أما عن النصارى فقد كان طيباً ثاؤس الجاثليق في السدة منذ ست سنوات^(٧) وقد تمتع برعاية المهدى والد الخليفة الجديد وحماية أم ولده الخيزران بمساندة أبي قريش عيسى الطبيب. وعِمًا قليل سُنَّاه في جملة المقربين إلى الرشيد مشمولًا بعطف السيدة زبيدة، وتمتَّعوا برصيده آل بختيصور أطباء البلاط ورصيد غيرهم من الكتاب النصارى.

وزارة يحيى بن خالد (١٧٠ - ١٨٧ / ٧٨٦ - ٨٠٣)
منذ العام ٧٨٠، وعقب غزوة مظفرة للأراضي البيزنطية^(٨) أسكن يحيى

البرمكي وأبواه خالد في حي البرامكة الأرستقراطي بالشهاشية (شمال شرق بغداد) جماعة من الروم كان سباههم وأجلاتهم، وفيهم بطريقهم، عن بلدة سمالوس^(٩) البيزنطية. وقد صارت دار الروم^(١٠) التي أحلوا فيها، دير الروم ومقر جثة المشارقة من السريان بعد مئة سنة من ذلك التاريخ. وقد بقي منها إلى جانب الكنيسة البطريركية، كنيسة للملكين يقال لها كنيسة سمالو وكنيسة أخرى لليعاقبة. كان البرامكة يقيمون علاقات وثيقة مع النصارى، ويشهد على ذلك أيضاً اسم حيهم: الشهاشية (نسبة إلى الشهاش).

إن ما ينسبه المسعودي^(١١) إلى يحيى البرمكي من أنه كان: «ذا علم ومعرفة وباحث ونظر» وأنه كان يجمع في داره للاستفادة عدداً من مشاهير أهل النظر المسلمين ومن الفرق كلها، يصحّ أيضاً على الجيل الأول من البرامكة كلّه.

شجع البرامكة عمل الترجمة^(١٢) الذي كان قد بدأ في خلافة المهدى. ومن المحتمل أن تكون قد أسست بداع منهن المكتبة الشهيرة التي عُرفت بخزانة الحكمة^(١٣) والتي صارت من بعد نواد معهد الترجمة الذي سُمي بيت الحكم.

وقد استقدم يحيى إلى بغداد، لإدارة البيمارستان الذي أنشأه، طيباً هندياً^(١٤) عُرف العرب بالطبّ الهندي من خلال ترجماته. وفي العام ٧٩١/١٧٥ استخدم جعفر البرمكي جبرائيل بن بختيشوع الذي كان والده بختيشوع بن جورجيس قد عاد إلى بغداد سنة ٧٨٧/١٧١، من بعدهما أزاحه أبو قريش عيسى، وشفى هارون الرشيد.^(١٥)

ستتكلّم عما قليل عن دور جبرائيل بن بختيشوع لدى الخليفة، وليكفنا أن نلحظ هنا أن جعفرًا البرمكي كان يحبه جباراً جمّاً.

وقد جاء لعلاج الرشيد من جندسابور أيضاً ماسويه بن يوحنا^(١٦) الصيدلي والمكحّال، أول ساعور في أول بيمارستان أنشئ في بغداد.^(١٧) أمّا ابنه، أبو زكريّا يوحنا بن ماسويه فقد صار في خلافة المأمون رئيساً للمترجمين وخدم المتوكّل أيضاً، حتى وفاته بسامراء، سنة ٨٥٧/٢٤٥.^(١٨)

وقد حوى سنه ٧٩٠ م. خبر من شأن ذكره أن يكمّل في نظرنا صورة بلاط

الرشيد. فقد عين الخليفة عبيد الله بن المهدى عاملاً على مصر.^(١٩) وقد أرسل عبيد الله إلى الرشيد جارية نصرانية، من البيها بصعيد مصر، صارت حظيته. ومن سوء التوفيق أن المحبوبة اعتلت، فاستدعي طبيب مصرى شهير هو بوليانوس (٨٦٧ - ٨٠١) بطريق الإسكندرية للملكيّة من النصارى ولم يلبث هذا النطاسي أن شخص العلة: إنه الحنين إلى الأوطان. وقد صحت الحسنة بعدما أكلت «من كعك مصر الحشن والصين» وسر الخليفة بذلك وهدا سره. فكان أن تسلم بوليانوس جائزة نقدية سنوية فضلاً عن منشور من الخليفة بأن تعاد إليه كنائسه التي غصبه إياها «اليعاقبة» (أي الأقباط هنا).^(٢٠)

سواء أجلبت المخطوطات على يد من كان يبعث لشرائها من الامبراطورية البيزنطية أم كانت في مجلة غنائم الغزوات، فقد أغنت مكتبات بغداد وجاءت بعمل كثير للمترجمين. وتجدر الإشارة هنا إلى تغيير نظر الفقهاء: ففيما كان الإمام الأوزاعي المتوفى سنة ٧٧٤، في خلافة المنصور، يرى أن الكتب الإغريقية إذا ما أخذت في بعض الغزوات يجب أن تُدفن في الأرض لأن فيها شرّاً، نجد الشافعى المتوفى سنة ٨٢٠، في خلافة المأمون، يرى أن يُؤتَى بنٌ يترجمها: فإذا كانت في الطب أو العلوم لم يستتبع بيعها، أما إذا كان فيها شرك وجب تزيقها.^(٢١)

إن ما يعنينا هنا ليس الشاطف الفكرى الكثيف لذلك العصر، فهذا موضوع قد أُشبع درساً من قبل،^(٢٢) بل إن ما يهمنا هو دور النصارى البارز في هذا النشاط، ذلك الدور الذى يشرفهم حقاً. ولكن يجب أن نتبَّه أيضاً إلى ما كان ينطوي عليه وضع نخبة المثقفين النصارى المتميّز من خطر على جماعة النصارى كلها. إن ارتفاع نسبة تمثيل النصارى في الطبقات المهنية العليا من المجتمع (كتاب، أطباء) كان من العوامل المؤدية إلى تفاقم الوضع الهاشمى لفئة الأقلية النصرانية. وذلك لأن البنية الاجتماعية المهنية لهذه الفئة عينها لا تمتثل البنية الاجتماعية المهنية للأكثرية المسلمة التي لم تكن حتى ذلك الوقت ممثّلة بنسبة كافية في الطبقات المهنية العليا نفسها.^(٢٣)

قبل أن نغادر يحيى البرمكى ولديه، نذكر في مجلة الشعراء الذين مذكورون أبا قابوس عمرا بن سليمان الحميري من بني شيبان الذين كانوا بالخيرة.^(٢٤)

أول تنظيم لأحوال النصارى

هل كان الفضل وأخوه جعفر ابن يحيى البرمكي أقل تسامحاً من والدهما؟ ينسب غازي الواسطي^(٢٥) إليهما قراراً بعزل غير المسلمين من الدواوين. فالفضل، في ما قيل، قد «خرّب (...) معاقلهم ومعابدهم بخراسان وأمر بأن لا يكنوا من بياض شيء مما بقي من كنائسهم لئلا يتشبهوا بمساجد المسلمين في البلاد».

على أية حال أن أول تنظيم لأحوال أهل الذمة يعود إلى القاضي^(٢٦) أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنباري الكوفي المولد، المستشار القانوني لجعفر البرمكي. فقد خلع عليه الرشيد (لأول مرة في الإسلام) لقب قاضي القضاة وكفّه بتصنيف كتاب في القانون. وقد عُرف كتابه الذي كُتب في صورة رسالة، هي في الحقيقة مجموعة أمالي جمعها تلميذه بشر بن الوليد الكندي^(٢٧) تحت عنوان كتاب الخراج، ولو أنه يعالج جملة متنوعة من المباحث الأخرى، ومنها الأصول الواجبة في معاملة النصارى.

إن هذه الأصول التي تكشف عن مكانة النصارى المرموقة في مجتمع البرامكة، تعبر عن تسامح كثير. وقد ذكرت طرفاً منها في المقدمة، لدى الكلام عن الجزية.

لنلاحظ هنا أن النص يطلعنا على المقدار الذي يجب أن تدفعه كل «طبة» ويوقفنا على المهن التي كان يمتهنها اليهود والنصارى من أهل الذمة في المدن. فالصيارفة وتجار النسيج وأصحاب الضياع والتتجار والأطباء كانوا يُعدون في الأغنياء وكان عليهم أن يدفعوا ٤٨ درهماً في السنة، أما التجار وأصحاب الحرفة فكانوا يُعدون أغنياء أو متوسطي الحال وكانت جزيتهم إما ٤٨ أو ٢٤ درهماً سنوياً وأما العمال اليدويون كالخياطين والأساكفة والصباغين فكان عليهم ١٢ درهماً.^(٢٨) وكان هذا المبلغ يمثل حسب كالم كاهن أجر عشرة إلى خمسة عشر يوماً. ويرى هذا المؤلف: «أن الرجل المخاضع للجزية لم يكن مع ذلك أسوأ حالاً من المسلم الذي كان مكلفاً بالزكوة التي كان الذميّ معفى منها من حيث هو كذلك».^(٢٩)

كان يُسمح للنصارى بالإقامة في مدن المسلمين وأسواقهم ولكن لم يكن يحق لهم أن يبيعوا الخمر فيها ولا الخنزير. ويعالج فصل كامل^(٣٠) مسألة الكنائس

والبيع: وخلاصة القول إنّه يجوز ترميمها ويحظر إحداث أيّ منها، كما أنّه يجب ألاً تظهر الصليبان في العلن. هذا كله ليس جديداً بل هو جزء من شروط الصلح التي أبرمت عند الفتح.

ثمة فصل يفاجئنا بما ينطوي عليه من إذلال، إنّه ذلك الذي يعالج «لباس أهل الذمة وزرّهم». ولقد أُشير إلى هذا الأمر من قبل: إنّ هذه التدابير لا أساس لها في القرآن الكريم بل تصدر عن سياسة زمنية ومؤقتة.^(٣١) لن نناقش صحة النتائج الأخرى، إذ إنّه من المفهوم أن يفرض على نصارى التغور المتاخمة للعدو البيزنطي «أن يتميّزوا عن المسلمين»، وخصوصاً عن العسكر، كما أمر بذلك عمر بن الخطّاب في ما قيل. بيد أنّ أبي يوسف يدهشنا عندما يوصي^(٣٢) ببغداد وبين العام ١٧٠ ٧٨٦ / ١٨٢ ٧٩٨، وفي خلافة الرشيد ووزارة البرامكة «بأن لا يترك أحد منهم يتشبه بال المسلمين في لباسه ولا في مركبه ولا في هيئته ويؤخذوا بأن يجعلوا في أوساطهم الزنارات مثل الحيط الغليظ يعقده في وسطه كلّ واحد منهم، وبأن تكون قلائصهم مضرّبة، وأن يتّخذوا على سرّوجهم في موضع القرابيس مثل الرمانة من خشب، وبأن يجعلوا شراك نعالهم مثنيّة، إلخ...»^(٣٣)

عندما تصبّلت العقيدة عند الحنابلة من السنة وعند الشيعة تطورت هذه الإجراءات التميّزية المذكورة حتى أصبحت المعاملات اليومية مع النصارى موضع تحرّج إذ عدّت مصافحتهم سبباً للجنابة.^(٣٤) ثم صارت تطرح أسئلة أخرى عن جواز الرد على تحيّتهم.^(٣٥) وهل يجوز الشراء من دكاكينهم؟ هذا عدا عن المسائل الشرعية المتعلقة بالزواج والوصاية على الأطفال والمواريث... وقد كانت المسألة الأخيرة مداعاة لعدد من التسويفات الشرعية وتكييف القوانيننصرانية بما يوافق الشرع الإسلامي.^(٣٦)

أدت الإجراءات التميّزية والضرائب الخاصة مدة خلافة الرشيد إلى خروج بعض النصارى من دينهم. وقد حاول بعضهم، في ما يبدو، أن يجد بعض المخارج؟ وبين الفقيه محمد الشيباني^(٣٧) (المتوفى سنة ٨٠٥) تلميذ أبي يوسف كيف يعبر المدعون على اعتقاد سلوك لا لبس فيه: «فاما اليوم ببلاد العراق فإنّ (اليهود

والنصارى) يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ولكنهم يزعمون أنه رسول إلى العرب^(٣٨) لا إلى بني إسرائيل. ويتمسكون بظاهر قوله تعالى: «هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم» فمن يقر منهم بأنّ محمدا رسول الله لا يكون مسلما حتى يتبرأ من دينه مع ذلك، أو يقر بأنه دخل في الإسلام. حتى إذا قال اليهودي أو النصراني: أنا مسلم أو أسلمت لم يحكم بإسلامه. لأنّهم لا يدعون ذلك. فإنّ المسلم هو المستسلم للحق المقاد له: وهم يزعمون أن الحق ما هم عليه. فلا يكون مطلق هذا اللفظ في حقّهم دليل الإسلام حتى يتبرأ من دينه. كذلك لو قال: برئت من اليهودية ولم يقل مع ذلك: دخلت في الإسلام، فإنّه لا يحكم بإسلامه، لأنّه يتحمل أن يكون تبرأ من اليهودية ودخل في النصرانية. فإن قال مع ذلك: ودخلت في الإسلام فحيثُل يزول هذا الاحتمال».

واضح أنّ الهدف من الصيغة التي يجب على من يوذ الدخول في الإسلام أن يتلفظ بها هو قطع الطريق على أصناف التحايل كلّها. إنّ أول من صنفت له صيغة الخروج من النصرانية كان، في ما قيل، عون كاتب الفضل بن الربيع،^(٣٩) ولعله أبو الفضل عون بن هارون بن مخلد بن أبيان كاتب الضياع في خلافة المؤمنون (١٩٦ - ٢١٨ / ٨٤٠ - ٨٣٣). وقد حفظ لنا التوبيري،^(٤١) وهو كاتب من القرن الثامن للهجرة (١٤) م، نصّ هذه الصيغة، وهي تحتوي على «الشهادتين العظمتين وما شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنّ محمداً عبده ورسوله صلّى الله عليه وسلم، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كلّه ولو كره المشركون، وأنّ عيسى عبدالله ونبيه، ومريم أمّة الله، وأنّ محمداً (ص) خاتم النبيين، وأفضل المرسلين، وأنّ شريعته أفضل الشرائع ومثله أفضّل الملّل، وأنّ ما جاء به عن الله حقّ، وقال: «أنا برئت من كلّ دين يخالف دين الإسلام». ثم تسجيّل شهادته عند القاضي ويشهد عليه شاهدان».

ولدينا فضلاً عن هذه وثائق أخرى أصرّ منها تخنس بالملكيين المصريين الذين يعتنقون الإسلام، وفيها صيغ بديلة لليعاقبة أو النساطرة. من هذه الوثائق قانون إيمان مسيحي مقلوب قد خلط بعض المعتقدات الساذجة، كتمثيل الثالوث باعتباره مؤلّفاً من الآب والأم والروح القدس. ولا يكتفي المسلم الجديد بالاعتراف

بأكل لحم الجمل والزواج من امرأتين. بل يعلن موافقته، على ذبح الشيماسة والديرانين، وهدم الكنائس والأديرة. هذا النص الكاريكاتوري الكريه مثبت في كتاب لتعليم الترسّل^(٤٢) كنموذج على «عين النصارى» الداخلين في الإسلام.

تهمة التجسس

كانت أحوال النصارى من رعايا العباسين حرجة دائمًا حيثما تاختمت أراضي الخلافة أراضي الأمبراطورية البيزنطية التي كانت تدين رسمياً بالنصرانية. لم يكن في هذا شيء مختلف عما كانت عليه الحال منذ أيام الساسانيين،^(٤٣) ولقد رأينا أسلاف الرشيد يتّخذون التدابير الكفيلة بشنّ الطابور الخامس المحتمل أو صبّ سخطهم عليه إذا ما باؤوا بهزيمة ما.

هنا أيضًا تنفرد المصادر البيزنطية^(٤٤) والسريانية الغربية^(٤٥) بتقديم المعلومات، ذلك لأنّها هي وحدها المعنية بها مباشرة. وتروي هذه المصادر أنّ الرشيد «قد زاد الجزية في أول عهده، فهاجر كثيرون من هؤلاء وهربوا من بلدتهم وبقيت أراضيهم في يد العرب». كذلك أمر الخليفة «في السنة الثانية بأن تخرب الكنائس والمعابد إلى الغرب من نهر سنجا» ليكمل بناء مدينة الحدث^(٤٦) التي استنقذها من البيزنطيين من بعدهما استولوا عليها قبل إقامتها. لذلك استعملت حجارة كنيسة كيسوم الكبيرة وحجارة بعض عشرة كنائس أخرى بدلاً من المقالع لإعادة بناء سور الحدث.^(٤٧) لا نعرف هل جرت هذه الأمور لأنّ الخليفة نفسه أمر بها أم كانتمبادرة قام بها عامل الناحية عبد الملك بن صالح.

يشير طيّاثوس البخالقى في رسالة أرفقت بنصّ القوانين الكنسية التي أقرّت في مجمع سنة ٧٩٠^(٤٨) إلى زيارته الخليفة ستّ مرات، ويبدو أنه قد خصّص هذه الزيارات الستّ للحصول على إذن الرشيد بإعادة بناء هذه الكنائس.^(٤٩)

ومن حسن طالع النصارى، ولا سيّما نصارى الشغور، أنّ غزوات الرشيد الأولى كانت مظفرة، وبخاصة في العام ١٨١ / ٧٩٧ - ٧٩٨، إذ قبلت الأمبراطورة هيلانة بأن تدفع الخراج للعرب.^(٥٠)

في السنة ٧٩٧ عينها^(٥١) اجتاز الرشيد بالرها، «فواجهه المسلمين وشكوا النصارى مدعين أنَّ ملك الروم يزورهم كلَّ سنة سرًا ويصلُّ في كنائسهم» وطلبوا منه هدم الكنيسة الكبرى وإبطال دُق النوافيس. وقد تدخل يحيى^(٥٢) مستشار الخليفة فردَّ التهمة عنهم. فكان أنْ أمر الخليفة بضرب المسلمين وطردهم بدلاً من أن يستمع لهم.

في العام ٨٠٧ كاد قرياقوس بطريرك أنطاكيه لليعاقبة أن يذهب ضحية مكيدة دبرها له أساقفته أنفسهم^(٥٣): كان الرشيد في قاعدة عملاته برج داير^(٥٤) عندما جاءه الأخبار ليسوقوا ضد قرياقوس الاتهامات المعتادة «لقد سُوِّد قرياقوس علينا من دون الرجوع إلى رأينا، وبهذه عهد ويرهقنا بالملوك». إنَّه بحاجة الملك والمسلمين جميًعاً. وهو يبني البيع في بلاد الروم ويكتبهم، ولا يرضي المكوث في موضع أنت فيه، فإذا كنت بالشرق ذهب إلى المغرب». ^(٥٥)

بدأ الخليفة بتصديق المفترين لما استعظم قدرهم. وما إن أطلع أحد عَمَّاله، المدعو ابن مطر، على سخطه حتى سارع إلى التنكيل بالنصارى في أنطاكيه والقدس إلخ. وهدم بعض الكنائس. «وغمى من ذلك مالاً كثيراً».

بعد ذلك عملت أصناف النفوذ المتضاربة. كان للبطريرك محام بارع ذو علاقات مكينة بأهل السلطة، ألا وهو ثيودوسيوس أسقف سلوقيه الذي صادفناه من قبل. بيد أنَّ المتمردين أضافوا إلى افتراطهم تهمة القتل، قالوا إنَّ البطريرك قد اغتال أحد الأساقفة.

ولما بلغ قرياقوس أنَّ الخليفة قد سير الجندي ليقبضوا عليه بالرقة، قصد الخليفة بنفسه وارتمى على قدميه وصلَّى من أجله. فوقع ذلك في نفس الرشيد فوكل أمر محاكمته إلى إسحاعيل بن صالح الكاتب. وكان هذا يعرف البطريرك فلم يصعب عليه تبرئة الحبر. فسمح له الخليفة بالعودة إلى ديره بالرقة.

وقبل أن نختتم أخبار الحروب مع البيزنطيين، نشير إلى أنَّ الخليفة كان يصطحب في أسفاره أحياناً طياراتوس جاثليق النساطرة. هل كان يفعل ذلك للاستمتاع بحديثه العلمي أم للتبرُّك به؟ أم لاستخدامه وسيطاً في تعامله مع سُكَان

الأرض من النصارى الذين يجدهم في طريقه أو يرجو استسلامهم السريع؟ هذه الأسباب كلها قد صادفناها من قبل عندما كان الملوك الساسانيون يصطحبون أسلاف طيماوس^(٥٦) ولو بالقوّة أحياناً. ولدينا بالنسبة إلى هذا الأخير مثال محدد: في السابع من حزيران ٧٩٩ (١٨٣ هـ) استجاب الجاثليق لأمر الرشيد باللحاق به إلى الأراضي البيزنطية. وقد سمع له باستعمال مطابا البريد الملكي^(٥٧) ليُعجل في الوصول.

مفصل العام ١٨٧ / ٨٠٣

كان اليوم المقدر يقترب، ذلك اليوم الذي خلع فيه هارون الرشيد إماماً ساماً أو حسداً،^(٥٨) الوصاية الثانية في حياته، وصاية البرامكة. وقد جاء القرار كالكثير من قرارات الخلفاء الخطيرة بعيد عودة الخليفة من الحجّ.^(٥٩) ذهب الرشيد أولاً إلى الخيرة حيث أقام بضعة أيام^(٦٠) عند أحد كبار أمراء النصارى، عون الجوهرى الذي كان قصره المسكن اللائق الوحيد في المدينة.^(٦١)

لتتوقف قليلاً أمام عون العبادى هذا (أو العبادان)، المتسوب إلى العباد أى نصارى الخيرة من العرب (الذى كان صاحب الحيرة^(٦٢) وكان جوهرياً^(٦٣)) من حيث حرفة. وإن المرء ليقدر الثراء العريض الذى تمتّع به هذا الرجل إذا ما رأى النفقات البادحة التي كان ينفقها الأكابر^(٦٤) ليزيّنوا حظاياتهم وأحبابهم وحتى كلامهم.

هل كانت أرباح هذا الجوهرى فاحشة؟ يبدو أنّ الأمر كان كذلك، حسب الخبر الذى يرويه ماري عن الجواهر التى أهدتها الرشيد إلى بعض سراريته فباعتھا من عون الذى اشتَطَ في الثمن لـأراد الخليفة شراءها من جديد. لذلك ذاق الجوهرى الغنى طعم الحبس ولم يفرج عنه إلاً بعدما تدخل جبرائيل بن بختيشوع المنطّب وتأوفيلاً الراهاوى^(٦٥) القهرمان. وقد فرق عون صدقات^(٦٦) جزيلة فرحاً بخروجه من الحبس.

كان لعون أيضاً مشاكل مع طيماوس الجاثليق. ذلك أنّ عوناً كان، كغيره

من النصارى الموسريين، منذ جرائيل السنجاري أيام كسرى وحتى يختيشوع في ظلّ المتوكّل. قد تأثّر بعادات بيته وأخذ لنفسه بعض الجواري، فلامه طيّا ثاؤس على ذلك.^(٦٧)

بعدما أقام الخليفة مدة بالحيرة عند عون الجوهري،^(٦٨) أصعد على الفرات إلى دير كان بالقرب من الأنبار.^(٦٩) هذا الدير المشهور هو دير يونان الراهب تلميذ مار أوّجين.^(٧٠) من هناك انطلق مسرور الخصيّ بالأمر المقدّر بقتل جعفر البرمكيّ. إنّ تفاصيل هذا الحادث الكثيف لم تزل موضع نقاش،^(٧١) وليكفنا أن نشير هنا إلى أنّنا نجد في عداد المقربين الذين شاركوا جعفرًا آخر أكلة له، الطبيب النصراوي يختيشوع الذي كان آنذاك في خدمة البرمكي.^(٧٢)

درع للنصارى^(٧٣)

بعد نكبة جعفر البرمكيّ وحبس معظم أهله، وفيهم يحيى الذي مات سنة ٨٠٥/١٩٠، فقد جرائيل بن يختيشوع، طبيب جعفر الخاصّ، سيدّه وحاميه. بيد أنّه وجد سيدًا أعظم نفوذاً واحتلّ منه مكانة لا تضاهى.

في السنة عينها، ٨٠٥/١٩٠، استدعي جرائيل إلى البلاط^(٧٤) حيث تحققت على يديه سلسلة من الشفاءات المدهشة، بدءاً بالمحظيّة التي نسيت أنّ ذراعها مشلولة عندما بسطت يدها في حركة غريزية لستر عورتها إذ خافت أن تنكشف. وقد نال جرائيل من شفائها ٥٠٠،٠٠٠ درهم.^(٧٥)

والأهمّ أنّ جرائيل قد حاز ثقة هارون الرشيد المطلقة. فقد نجده في الرقة^(٧٦) سنة ١٩٣/٨٠٨، أول من يدخل على الخليفة كلّ صباح ويحادثه بأحاديث حميمة. وقد أزال التكّلف في معاملة الرشيد، حتى كان يستجيز لنفسه من الإدلال ما كان قميّاً بأنّ يوحي بحياة أي شخص آخر لو أقدم على مثله. من ذلك ما وقع له على مائدة عون العبادي بالحيرة. فقد أثبت جرائيل للخليفة أنّ طريقة أكله السمك من غير أن يشرب عليه من خمر طيزناباذ (الموصوف كخمر قطربل) تشبه طريقة من يسعى إلى تسميم نفسه.^(٧٧) فلما اقتنع الخليفة أمر بأنّ

يحمل إليه خمسة آلاف دينار وقال لمن له أذنان: «من يلومني على محنة هذا الرجل الذي يدبرني هذا التدبير؟».

كان من شأن أنعام الخليفة على هذا «الذمي» والبالغ الطائلة التي كان الطبيب يجمعها^(٧٩) أن تثير حفيظة الكثرين وحسدهم. ويبدو أن الرشيد كان يستمتع بإثارة الحساد. من ذلك ما أعلنه على مسمع من الحاشية كلّها عقب عودته من الحج: «دعوت لك (جبرائيل) والله في الموقف دعاء كثيراً»^(٨٠) فقال له أحدهم بحياء أنّ الطبيب ليس إلا ذمياً فرداً عليه الخليفة: «نعم ولكن صلاح بدني وقوامه به وصلاح المسلمين بي. فصلاحهم بصلاحه وبقائه» فسارع الجميع إلى الموافقة على قول الخليفة.

إلى جانب أولئك الذين كانوا يقرّون بنبوغه الطبيّي الذي لا يماري فيه (على ما في تفسيرات الطبّ في ذلك العصر من مفاهيم تدعونا إلى التبسم) نجد رهطاً يحرقون الأسنان عليه، كهذا الشاعر المتميم الذي أنسد.^(٨١)

ألا قل للنبي ليس على الإسلام والمسلمة
لجريأيل أي عيسى أخي الأنذال والسفلة (كذا!)
أفي طبّك يا جبريل ما يشفى ذوي العلة
غزال قد سبى عقلي بلا جرم ولا زلة

ولكن من كان يجرؤ على الكلام عندما يعين الرشيد جبرائيل وسيطراً عاماً إذ يقول: «كلّ من كانت له إلى حاجة فليخاطب بها جبرائيل، لأنّي أفعل كلّ ما يسألني فيه ويطلبه مني»^(٨٢) كان في يد جبرائيل، الذي صار منزلة يوسف بن يعقوب من عزيز مصر، أن يعين طيباً ثاوس الجاثلين على تدبير شؤون رعيته.^(٨٣)

فقد نرى جبرائيل ينصر طيباً ثاوس لدى الخليفة في أحوال التنافس الشائكة على الكراسي الأسقفية،^(٨٤) في الحصول على عهد الخليفة^(٨٥) وفي جملة قضايا أخرى^(٨٦) كان فيها جبرائيل، في ما كتب الجاثلين، «يداً لي وشفتين ولساناً على باب ملكنا المظفر، بل كان متيّ ضميرًا وقلباً يعقل». كان متيّ ذلك كله وكذلك كان للكنيسة الجامعة. مدد الله في أجله وأجل مولانا الملك المظفر سنين مديدة».^(٨٧)

أما القضية التي بُرِّزَ فيها «ظل» الخليفة فكانت قضية السمات المميزة التي أراد الرشيد أن يفرضها على النصارى ببغداد.

ينزل هذا القرار في منزلة نزوة من نزوات السخط الذي انتاب الخليفة إثر المزعنة التي أوقعها به نقوفر قيس الروم سنة ١٩١/٨٠٦.

في رمضان ١٩١/نيسان ٨٠٧، أصدر الرشيد أوامر^(٨٨) من الرقة بهدم الكنائس باللغور، وأخذ أهل الذمة، حتى ببغداد، بخالفة هيئة المسلمين في لباسهم وركوبهم.^(٨٩) ولكن جبرائيل أبطل هذا التدبير، إذ حمله عاد الخليفة إلى بغداد دخل عليه جبرائيل بطليسان^(٩٠) مصبوغ لابساً الغيار والزنار. فلما أنكر الرشيد ذلك عليه قال لل الخليفة: «أنا أحد الذمة ولا يجوز أن أخالف زِّيَّم» فرفع الرشيد الأمر عن النصارى.^(٩١)

وفي خلافة الرشيد، في ما روی، أخبر بعض النساطرة مَنْ زاروا مصر جبرائيل أن قبر نسطور، بكوم الشقف^(٩٢) قرب أخيه بالصعيد، في أزرى حال فاليعاقبة، أي الأقباط هنا، يرجونه بالحجارة ويقولون إن القبر لا يطرأ أبداً لأن نسطور قد أحرقه نار الغضب الإلهي. حصل جبرائيل على كتاب من الخليفة، حمله هذا النسطوري إلى مصر، يأمر عامل الناحية أن يجعل رفاة نسطور في تابوت ويعث بها إليه لكي يصار إلى دفنه بما يليق من الإجلال في كنيسة الجملة بكوخى. ولكن راهباً نسطوريًا استدرك الأمر ليزيل العار عن أبناء ملته ويرهن لهم أن الذي يسخر به العiacبة ويرجونه ليس نسطور فادعى أن أحد الرسل القدسين ظهر له في الحلم ليلاً وقال له: «إن هذه الحكاية لا نصيب لها من الصحة وأن عظام نسطور ليست في مصر ولا يعرف أحد مكان قبره. ففكّ جبرائيل الطيب عن نقل العظام من مصر».^(٩٣)

وكان جبرائيل دوراً فاعلاً أيضاً في قضية تهديم كنائس البصرة ومرفأ الأبلة المجاور لها.^(٩٤)

وأصل ذلك أن رجلاً يدعى حمدون بن علي (ويتّهمه ماري ببعض النصارى)

توصل إلى إقناع الرشيد بأن النصارى «يعبدون ويسجدون لعظام الموتى وهي في بيئهم» فحصل من الخليفة على أمر بهدم هذه ال碧ع.

فما كان من سرجيس مطران البصرة إلا أن أطلع جبرائيل على ذلك، فعمل الطبيب وغيره من النصارى الذين في خدمة الخليفة على تصحيح معلوماته، فأصدر الرشيد أمراً بإعادة البناء. للاحظ عابرين الدعم القوي الذي لقيه طبياًوس، في هذه الحالة، من قبل السيدة زبيدة، ولنا عودة إلى دور هذه الملكة في الرفق بالنصارى.

وعلى الرغم من تعاطف المقامات العليا لم تنته قضية البصرة ببساطة. فقد وقف حمدون في وجه تنفيذ أمر الخليفة، ولم يكن من سبيل معه إلا بأمر ثان، بعيد حلم رأه الأمين (١٩٣ - ٨٠٩ / ١٩٨ - ٨١٣)، حتى أجبر هذا المعاند على السماح بإعادة بناء المعابد المهدمة.

ولكن لنعد إلى جبرائيل المتطلب. لقد كان أحفى طبعاً وأصعب قياداً من أن يكتفي بالموافقة طائعاً على قرارات جاثيلقه أو أن يشاطره آراءه كلها. وها نحن نراه يدعم إبراهيم أسقف جي (بناحية أصبهان) في تردد على طبياًوس.^(٩٥) كما نراه يعاند الجاثيلق في قضية الجواري اللوائي الخذهن لنفسه.^(٩٦)

إي نعم! لقد أصبحينا على بعد شاسع من بخثيشوع الأول الذي رد الجواري الروميات الحسان. لقد انساق جبرائيل مع تيار بيئته والأخذ لنفسه الجواري، كما فعل عون العبادي. فلما حرمه طبياًوس رد على توبيخ الجاثيلق بقبح القول، فما زاد طبياًوس على أن قال «يا مسيح كافه».

لم يطل الأمر باللعنة حتى حلّت بالطبيب العاصي. فلدى عودته من لدن الجاثيلق «كبا به الفرس، فوقع واندقّت يده اليمنى ورجله» فحملته أمّه إلى الجاثيلق بدبر كليليشوع. لم يقبله طبياًوس بل فرض عليه الصوم ثلاثة أيام، أقام بعدها الحبر الصلاة ثم أخذ زيتاً من القنديل ومسح الجريح وشفاه....

كاد جبرائيل حُقاً أن يموت قتلاً قبل موت الرشيد. كان هذا الطبيب في صحبة الخليفة إبان مرض موته بستانباد، قرب طوس سنة ١٩٣ / ٨٠٩، حيث صرّح

بفجاجة أنَّ السبب الحقيقي لمرض الخليفة هو تهالكه على ملذات المائدة والفراش. عندئذٍ جيء بطبيب آخر، هو أسقف من بلاد فارس^(٩٧) فألقى على جبرائيل التبعة في تفاقم علة الرشيد، وقال للخليفة: «الذي عاجلك لم يكن يفهم الطب... هذا المرض كله من خطأ جبرائيل». صدقة الخليفة^(٩٨) وأمر بقتل جبرائيل،^(٩٩) ولكن الفضل بن الريبع الوزير^(١٠٠) أنقذه بتأخير تنفيذ الإعدام. وهكذا مات الخليفة واستطاع جبرائيل أن يتبع خطه، فخدم الأمين بن الرشيد بخاصة بعد أن كان مؤذبه من قبل.^(١٠١)

زبيدة

إبنة المنصور وزوج الرشيد وأم الأمين، لقد خلفت هذه الأميرة ذكرى كأعظم ما يكون لكبرى سيدات العصر العباسي،^(١٠٢) وقد خلفت الخيزران المستبدة، وكان لها حميد الأثر في سيرة الرشيد.

يذكر ماري^(١٠٣) أنَّ زبيدة كانت «تكرّم طيماثاوس كثيراً وتميل إلى النصارى وتستخدمهم»، وقد شاركت في عمل «أعلام الشعانيين»، ولكنه لا يذكر في أي دير شهدت ذلك العيد الشعيّي. وعملت الصلبان من الذهب والفضة وأعطت طيماثاوس أوان من الذهب والفضة وبعض الأقمشة الفاخرة...

رأينا سابقاً دور هذه الملكة في مساعدة جبرائيل وسرجيس مطران البصرة للحصول على توقيع الخليفة بإعادة بناء ما تهدم من كنائس المدينة على أيدي أصحاب حمدون بن علي، وقد حصلت أيضاً، وبنفسها هذه المرة، على إذن بترميم قسم منهدم (متى هدم؟) من دير غير معروف الاسم. وقد سمح الرشيد أيضاً بتوسيع هذا الدير. ومعلوم أنَّ طيماثاوس قد جدد دير كليليشوع ثم انتقل إليه^(١٠٤) فسمّي منهذ بدير الجاثليق.^(١٠٥)

ترتبط باسم زبيدة، في علاقاتها بالنصارى، قصة تطليقها الذي يلفه الغموض والذي توصل طيماثاوس، في ما قيل، إلى تخنيتها إليها بحيلة فقهية. إن ملفَّ هذه القضية «المزعجة» ضخم حتى الآن^(١٠٦) وقد انضاف إليه مؤخراً مقالة

الأب ساكو ورد السيد سعيد الديوه جي عليه.^(١٠٧) أوقف الأب بومان على أن طبياثاوس كان قديراً على اقتراح حل ملتو لهذه القضية، ولكنني أوقف السيد ديهو جي إذ يستبعد مصادقة الفقهاء المسلمين على حل كهذا (أن تظاهرة زبيدة بالنصر). حتى الخليفة الذي لم يكن فقيهاً لم يكن ليقبل هذا الحل.^(١٠٨) فثمة بون شاسع بين الدعاء على عرفات لصديق نصري وبين القبول بردة ولو كانت ظاهرية فقط. وقد ظلل المسلمون متشددين في هذا الأمر، حتى إن قرشياً اسمه روجي، في ما قيل، ارتد إلى النصرانية بسبب معجزة.^(١٠٩) فحبس سنتين ليستتاب ثم حكم عليه بالقتل بأمر الرشيد في الراقة يوم ٢٩ تشرين الأول سنة ٧٧٩.^(١١٠) ثم حمل نصري من فارس رأسه إلى بلدته.^(١١١)

لذلك قد أقبل أن طبياثاوس أسدى خدمة إلى زبيدة بإيجاده مخرجاً فقهياً حلّ الخليفة من يمينه المتهورة، ولكننيأشك في أن هذا المخرج هو كما يصفه ماري.

أيام العروس

كانت خلافة الرشيد ك أيام العروس^(١١٢) بالنسبة إلى النصارى، وذلك بفضل جبرائيل وفضل زبيدة وفضل طبياثاوس خاصة، ولو أن هذه الصورة تبدو أجمل بكثير مما كانت عليه الحال في بقية أنحاء المملكة.^(١١٣) كان الحوار^(١١٤) دارجاً أو بالأحرى المناظرات. «ومن جملة ما جرى (طبياثاوس) مع (الرشيد) ذات يوم عند انقضاء المجلس قال له: يا أبا النصارى أجبني عنّا أسألك باختصار وأي الأديان عند الله الحق؟ فقال له مسرعاً: الذي شرائعه ووصياته تشكل أفعال الله في خلقه فأمسك عنه فلما انفصل من المجلس قال: الله دره لو قال النصرانية لأسألت إليه ولو قال الإسلام لطالبه بالانتقال إليه ولكنّه أجاب جواباً كلّياً لا دفع له...»^(١١٥)

لا تخربنا الرواية ما كان عسى الرشيد أن يفعل ليسيء إلى طبياثاوس لو قال إن النصرانية «عند الله هي الدين الحق». تدل الرواية، بالنسبة إلى عقل النصري الذي يوردها، على براعة طبياثاوس. وهي تدل أيضاً على سعة أفق الخليفة الذي اكتفى بجواب لا يخفى عليه غموضه، وإن تجاوز عنه لما ينطوي عليه من حسن تخلص الجاثليق.^(١١٦)

ال المسلمين المتشددون أنفسهم كانوا يفضلون هذه المناظرات مع النصارى على الموضوعات الملتبة التي بدأت تُطرح بين المسلمين أنفسهم:^(١١٧) هل القرآن مخلوق؟ ما علاقة النظر العقلي بالسمع؟ إلخ. كانت المناظرة مع النصارى مطمئنة على الأقل. فهؤلاء قوم على جانب من المغايرة لا يخشى معه انتقال العدوى. لذلك كان من شأن الموقف المتساهل حيالهم^(١١٨) أو قل حتى الموقف الأبوي، أن يزيد الشعور بامتلاك الحقيقة. فالتسامح صفة يتتصف بها من يقدر ألا يكون متساحماً لأنّه الأقوى. ومن ذلك العطایا التي ليست إلا وسيلة لتأكيد التفوق. لذا يكتب طیماثاوس إلى صديقه سرجيس أنه نزل على الخليفة ضيفاً لثلاثة أيام متالية، وأنّه استقبل ب بشاشة وحبور وأنّه أعطي ٨٤٠٠ زوري، إلخ.^(١١٩) إنّ مجرد ذكر هذه الأشياء كلّها يبيّن إلى أي مدى كان الجاثليق يشعر بمجانية موقف الخليفة. كان كلّ واحد من المتحاورين قادرًا على أن يطمئن نفسه. وكان كلّ واحد منها راضياً عن نفسه.

بم فكّر طیماثاوس عندما مات الرشيد؟ لا بدّ أنّ المخاطر الأخيرة التي تعرض لها صديقه جبرائيل قد أفلقته، كما أزعجه وجود ذلك الأسقف الفارسي ببغداد. ذلك الدسّاس الذي ألقى التهمة على جبرائيل... ولا ريب أنّ طیماثاوس لم يستحسن ما دبره الخليفة من تقسيم المملكة بين ولديه. ألم تنبئ هذه القسمة بمقاتل الإخوة في المستقبل؟ لا شيء في رسائله يتبع لنا أن نجزر مشاعره في تلك الحقبة.

الحواشی

- (١) الجهيشاري، كتاب الوزراء والكتاب، ص ٢٢٥ - ٢٢٦.
- (٢) مروج، الفقرة ٢٤٩٥.
- (٣) عن تسلّط الخيزران على الرشيد، انظر: D. SOURDEL, *Vizirat*, p. 161.
- (٤) انظر مشجر سلاله البرامكة في كتاب *Vizirat* ص، ٧٤٤، ومعلومات أخرى عن البرامكة في الكتاب نفسه ص ١٢٧ - ١٨١، وأيضاً مقالة سوردل في E.I.².
- (٥) التبيه، ص ٣٤٦.
- (٦) ليس فاروق عمر في E.I.² III, p.239-241. (هارون الرشيد) بأوفر ثناء على الرشيد. فعل

الرغم من «الصورة البرّاقة التي نجدها عن العصر الذهبي» في ألف ليلة وليلة يرى هذا الكاتب في خلافة الرشيد «نقطة بداية التفكك السياسي للأمبراطورية الإسلامية». (٧) لا يمكننا الاعتماد على تسلسل أخبار طبياثاوس لأن رسائله ليست مؤرّخة، انظر بيداويد، ص

. ٦٩ - ٧٠

(٨) أنظر مقتطفات من المؤرّخين عن غزوات العباسين الأوائل في E.W. BROOKS, *Byzantines and Arabs.*

(٩) أنظر مقالتي: Rüm à l'est de l'Euphrate, *le Muséon*, 90, (1977), p.374-376.

(١٠) المقصود هنا هم الروم البيزنطيون وليس النصارى بعامة كما ظن LE STRANGE في كتابه بغداد ص ٢٠٧. ليس من الصحيح أن يقال إن لفظي «روميين» أو «روم» كانوا يستعملان بهذا المعنى في عربية القرون الوسطى. انظر حبيب الزيات في مجلة الشرق، ٣٥، (١٩٣٧) ص ٣٣٩ - ٣٥٢.

(١١) مروج، الفقرة ٢٥٦٥.

(١٢) من بين المترجمين النصارى المعروفين في خلافة الرشيد، ذكر فثيون مترجم كتب الطب، ابن أبي أصيبيعة، ص ٢٤٢ - ٢٤٤، ٢٨٠.

(١٣) كوركيس عواد، خزائن الكتب القديمة في العراق، بغداد، ١٩٤٨، ص ١٠٥ - ١١٢، ٥٠. PINTO, *The Libraries*, p. 223.

(١٤) الفهرست، ص ٣٤٥. يُدعى هذا الطيب ابن الدهان عند العرب، INAYATULLAH, p. 3.

(١٥) بدعة من يحيى، مختصر، ص ٢٢٥ - ٢٢٦ ، ٢٢٦ - ٢٢٧ ، ٧٢ ، ٥١ et ٥٠ BOUVAT, p. 50، 51 et 71, 72 يروي ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ١٧، كيف امتحن لدى وصوله بحضور أبي قريش عيسى وعبد الله الطيفوري ودادود بن سرايبيون وسرجيوس تلميذ والده. وقد توصل إلى تقرير أنَّ التفسرة التي عرضت عليه قد أخذت من بول بغل لا من بول بعض الجواري كما قيل له، ابن أبي أصيبيعة، ص ١٨٦ - ١٨٧ . وقد توفي جبرائيل حوالي سنة ١٩٠/٨٠٦، أو ربما بعد وفاة الرشيد، على قول الصفدي، الواقي بالوفيات، ج ١٠ ، ص ٨٩، رقم ٤٥٣٣ . يذهب الصفدي إلى أنَّ الاسم سرياني وأنَّ معناه «خادم المسيح»(٩).

(١٦) ابن أبي أصيبيعة، ص ٢٤٢ - ٢٤٦ ، ٢٤٦ R. LEVY, *A Baghdad Chronicle*, p. 67.

(١٧) INAYATULLAH, p.2

(١٨) راجع الزركلي، ج ٩ ، ص ٢٧٩ PUTMAN, p. 103, n.2 يضاف إلى ذلك تنوُّه المنحوس في شأن تلميذه حنين بن إسحق، ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ٤٣ . ويشير ابن الأثير في الكامل، ج ٦ ، ص ٥٩ ، إلى أنه توقع موت عبد الرحمن بن أنعم قاضي إفريقيا (أنظر الزركلي، ج ٤ ، ص ٧٨) سنة ١٦٢/٧٧٨ - ٧٧٩(٩). نلاحظ أنَّ ابن الأثير قد ذكر في

- مكان آخر (الكامل، ج ٦، ص ١٢) تاريخاً آخر (١٥٦هـ) لموت القاضي، ثمّ كيف كان «بخي» بن ماسوبيه بالقيروان في ذلك التاريخ؟ وكم كان له من العمر؟
- (١٩) عامل أرمينية سنة ١٧٢٨/٧٨٨، الطبرى، ج ٣، ص ٦٠٧، ابن الأثير، الكامل، ج ٦، ص ١١٨.
- (٢٠) ابن أبي أصيوعة، ص ٥٤٠ حيث يجب تصحیح تعليق المحقق على معنی الكلمة «يعاقبة». يبدو أنَّ «كتاب سير الآباء البطاركة» P.O., X, p.384 يلمح إليه إذ يقول إنَّ بولتيانوس كان «طبيباً ماهراً وكانت ملوك الإسلام تراعيه لأجل صناعته».
- Informations fournies par les ouvrages de droit sur la conduite de la guerre, M. Ca- (٢١)
nard, dans *Quelques à côté*, p.117-119.
- M. MEYERHOF, Kh, GEORR, DE LACY O'LEARY, R. WALZER, etc. (٢٢) من ذلك
- J. CARBONNIER, dans CERDIC, p.133 (٢٣) راجع
- (٢٤) شيخو، شعراء، ص ٢٤١ - ٢٤٨، دائرة، ج ٥، ص ٤٨ - ٥٠.
(٢٥) ص ٣٩٣ - ٣٩٤.
- (٢٦) منذ ١٦٦هـ، في خلافة المادى، الطبرى، ج ٣، ص ٥١٧.
- Préface de FAGNAN, p.X; voir maintenant BEN SHEMESH (٢٧)
- (٢٨) ص ١٢٢ - ١٢٣، هذه الطبقات الثلاث هي تلك المقبولة في المذهبين الحنفي والحنبلية، النويري، ج ٨، ص ٢٣٧. أمّا عند النوروي الشافعى المذهب، مناج الطالبين، ج ٣، ص ٢٧٩ - ٢٨٠ فالحد الأدنى هو دينار، أمّا متوسطى النعمة فيدفعون دينارين وأمّا الأثرياء فأربعة. ويترك المذهب المالكى تقدير الجزية إلى الإمام.
- (٢٩) CL. CAHEN, *L'Islam, des origines au début de l'empire Ottoman* p. 82-83 ويقول أيضًا: ولا تنقصنا النصوص التي تشهد أنَّ جماعة النصارى، أي الأيسر حالاً، كانت تُلزم فعلاً بدفع جزية الأفقر حالاً.
- (٣٠) ص ١٣٨ - ١٤٩.
- (٣١) محمد حيد الله، في مقدمة تحقيق كتاب الأحكام لابن القيم، ج ١، ص ٧٤ - ٩٥، قاسم، ص ٢٧، إلخ.
- (٣٢) ص ١٢٧.
- (٣٣) برى دي خوبه، في الصفحة ١٤٩ من كتابه *Mémoire sur la conquête de la Syrie* أنَّ عمر بن العزيز قد أصدر فعلاً أوامر مشابهة لتلك التي يُوصي أبو يوسف هارون الرشيد بالإبقاء عليها (؟) ولكنه يضيف «ويبدو أنَّ الخليفة لم يصرخ إليه».
- (٣٤) يورد G. Wiet في كتابه *Le traité des famines de Maqrizi* ، ص ٥٣ الحاشية رقم ٣، إحالات إلى تنزيل النصارى واليهود منزلة الرجال الجنب أو النساء الحيض. في خلافة

- المهدي سأله رجل سفيان الشوري: «أصافح اليهود والنصارى؟ فقال: برجلك نعم»، وفيات الأعيان، طبعة بيروت، ج ٢، ص ٣٨٨.
- (٣٥) وقد ورد مع ذلك الجواب بنعم على هذا السؤال في صحيحي مسلم والبخاري.
- (٣٦) وقد دُرست وجهة النظر الحقوقية المسيحية في كتابي W. SELB et H. KAUFHOLD.
- (٣٧) في شرح كتاب السير الكبير، إملاء محمد بن أحد السريسي، تحقيق صلاح الدين المنجد، مصر، ١٩٥٧، ج ١، ص ١٥١ - ١٥٢.
- (٣٨) يواخذ الطيباوي بعض المستشرين «من أمثال موبر، لامنس وكابيتاني» على موقف مائل، ص ١.
- (٣٩) القلقشندي، ج ١٣، ص ٢٨٧ - ٢٨٨.
- (٤٠) نشوار المحاضرة، ج ٨، ص ٤٥.
- (٤١) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري (٦٧٧ - ١٢٧٨/٧٢٣ - ١٣٢٣)، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٩، ص ١٤٥.
- (٤٢) كتاب التعريف بالمصطلاح الشريف لشهاب الدين بن فضل الله العمري (السوف سنة ١٣٤٩/٧٤٩) طبعة القاهرة ١٨٩٤/١٣١٢، ص ١٥٢ حتى ١٥٤. يقدم H. DE CASTRIES في كتابه: L'Islam, impressions et études, Paris, 1896 ، الملحق ٣، تصنّى بين أخرى للنصارى بحسب ابن سلمون قاضي قرطبة (٣٢٢ - ٣٢٣). وهو يشفع النصّ بصيغة بجحد الإسلام فرضتها الكنيسة البيزنطية على المرتدين عن الإسلام إلى النصرانية (ص ٣٢٣ - ٣٣٤). وينبه الكاتب إلى «نسيج الخرافات الذي تنطوي عليه صيغ اللعنات التي تكال للنبي العربي وللّه». وثمة شعائر جمود بيزنطية أخرى في Patrologia Graeca, Revue de l'histoire des religions, 53 (1906), vol. 140, p. 124-146 A.T. KHOURY, Les théologiens byzantins et l'Islam (Louvin- Paris 1969) p.145-163
- J. NASRALLAH, R.E.I., XLVI, (1978), p.148 مع مراجع. وأيضاً p.187-194
- N. GARSOIAN, Rôle de la hiérarchie chrétienne, p. 135 et n.69. (٤٣)
- THEOPHANE ad. an. 6278 (787 A.D.), p.46, cité par DHGE s.v., Antioche, col (٤٤) 599.
- (٤٥) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٨، ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ١٣، الرهاوي المجهول، ج ٢، ص ١.
- (٤٦) بين ملطية وسميساط ومرعش، ياقوت، معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٢٧.
- (٤٧) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٨، ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ١٣.
- (٤٨) رسالة إلى أفريم مطران جنديسابور، E.P.I، بيداويد ٣٩.
- (٤٩) لا من باب الاهتمام بحادثة البصرة التي ستتكلّم عنها لاحقاً.
- (٥٠) أنظر المراجع في PUTMAN ص ١٣٦ ، الحاشية رقم ٣.

- (٥١) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ١٠، ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ١٤، الراوي المجهول، ج ٢، ص ١.
- (٥٢) ربما كان البرمكي يحيى بن خالد الذي لم يكن قد لقب بعد بلقب الوزير، Vizirat, p. 136.
- (٥٣) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ١٩ - ٢١، ابن العبري، ج ١، العمود ٣٣٩ - ٣٤٠.
- (٥٤) في هذه الفترة لا يذكر الطبرى هذا الموقع إلاً مرئين في العام ١٨٨ و ١٨٩ (ج ٣، ص ٧٠٧، ٧٠٧) كما أنه لا يذكر فيها وجود القاسم ابن الرشيد.
- (٥٥) سيطر مقر بطريرك أنطاكية المزيد من المشاكل (الراوي المجهول، ج ٢، ص ٢١)، لأنَّ بعض رعيته مقيم في الأراضي البيزنطية والبعض الآخر في دار الإسلام. وحسب تقلُّب العصور، أي حسب حالة العلاقات بين الملوكين نجد تواريُخ المغاربة من السريان تقتصر على أبناء الشطر الغربي، حيث تُكتب، أو تتحصَر في أخبار الشطر الشرقي، أي في مفريانة تكريت.
- (٥٦) GARSOIAN, le rôle de la hiérarchie chrétienne, p. 119 - 138.
- (٥٧) بيداويد، ص ٣٧ - ٧٧ : Ep. 48
- (٥٨) ثمة دراسات لأسباب نكبة هذه الأسرة العظيمة التفرُذ منها دراسة وافية في كتاب D. SOURDEL, p. 156-161 Vizirat, وقد توصل هنري لاوست إلى نتائج مشابهة تقريباً في كتابه Les Schismes dans l'Islam p.82 فهو يظن أنَّ البرامكة إنما أرادوا قلب الخلافة السنوية ليحملوا الزنادقة إلى السلطة ويستعملوهم في إقامة خلافة الشيعة.
- (٥٩) حجَّ الرشيد ثمان مرات، المسعودي، التبيه، ص ٣٤٦. يقول ابن الطقطقي إنَّ الرشيد كان «يحجَّ سنة ويغزو سنة»، ص ١٥٥.
- (٦٠) الطبرى، ج ٣، ص ٦٧٨.
- (٦١) الجاحظ كتاب الأمصار وعجائب البلدان، مذكور عند شارل بلا في المشرق، ٦٠ (١٩٦٦)، ص ٢٠٢ - ٢٠٣.
- (٦٢) المسعودي، مروج، الفقرة ٢٥١١.
- (٦٣) لا نجد أي ذكر لكونه حازناً أو صاحب بيت المال.
- (٦٤) فقد ابْتَاع الرشيد يوماً ياقوتة ثمنها ٣٠٠، ٠٠٠ دينار، ابن الطقطقي، ص ٢٠٩.
- (٦٥) يجب أن لا يُخلط بين هذا وبين سمية ثيوفيلوس بن توما الفلكي الذي مات قبل عشرين يوماً من وفاة المهدي، ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ١٢، ماري، ص ٧٤ - ٧٥.
- (٦٦) وقد أفاد طهياً تأوس من هبَاته. فقد حصل منه على ٣٠٠٠ «زوسي» (دينار؟) لشراء أرض. كما حصل على مبلغ مماثل من متبرع آخر هو جبرائيل الطيب 22 Ep. بيضاويد، ص ٤٦ بتاريخ ٧٩٩ / ٨٠٤ (؟).
- (٦٧) الوحيد الذي حفظ ذكر هذا الخبر هو الجاحظ في كتاب الحيوان، ج ٤، ص ٢٧ - ٢٨.
- (٦٨) يذكر ابن أبي أصبيعة، ص ١٩٦، أنَّ جبرائيل قد لام الخليفة على قلة الرزء للطعام ونصح

له بتغيير الهواء واقتراح عليه الذهاب إلى الحيرة فتمتنع الرشيد قائلاً: «قد نزلنا الحيرة مراراً فأجحفنا بعون العبادي في نزولنا بلده».

(٦٩) الطبرى، ج ٣، ص ٦٧٥، الكامل، ج ٦، ص ١٧٧. مروج، الفقرة ٢٥٩٦، ٢٦٠٢.

(٧٠) Assyrie Chrétienne, III, p.237-239. يمكن الاطلاع من كتاب الديارات للشيشتى على إقامات الرشيد في الأديرة، كدير زكا بالرقة على الفرات حيث قرض الشعر وحيث ترك ماردة أم المعتصم (ص ٢٢٠ - ٢٢٧)، أو دير عانا الذي مات بقربه أم الفضل (ص ٢٢٩) وهي في الطريق إلى الحيج مع الخليفة إلخ. تذكر وفيات الأعيان، (طبعة بيروت، ج ١، ص ٤٥٦) أن الخليفة كان ينزل كثيراً بدير العذارى قرب بغداد ليشرب.

(٧١) Vizirat, p.152-154

(٧٢) ابن الطقطقى، ص ١٧٠. مع أن جبرائيل قد حذر يحيى من أن الخليفة يأخذ عليه استبداده بالأمر، 170, Vizirat, p. 157, 170. من بين شعراء البرامكة ظل أبو قابوس النصراني، الذي صادفناه من قبل، وفيما لذكره حتى إنه تجاوز على مدح جعفر، من بعد نكتبه، في حضرة الرشيد، على أن الخليفة لم يعاقبه. انظر شيخوخ، شعراء، ص ٢٤١ - ٢٤٨.

(٧٣) طياثاوس، Ep. 21، بيداويد ص ٨٢، مؤرخة بستة ٧٩٩ / ٨٠٤ (؟).

(٧٤) ابن العربي، تاريخ الزمان، انظر مراجع أخرى في 5 PUTMAN, p 98 no.

(٧٥) ابن أبي أصبيعة، ص ١٨٨

(٧٦) من الصعب الموقفة على رأي، A. ABEL, les marchés de Bagdad, p. 151. إن إقامة الرشيد بالرقة، «في أهل بلاده» إلى «أنفه» من بغداد، لا سيما إذا نظرنا إلى ما ينسبه إليه الطبرى، ج ٣، ص ٧٠٦، من ثناء على العاصمة. لقد كانت اضطرابات الشام من أسباب هذا التنقل في البداية، وفي ما بعد، ربما كان وجود محبوته الرومية بقصر هرقلية على بعد ١٠ كلم إلى الشرق من الرقة، قد أسهم في إبقاء الخليفة بعيداً عن بغداد. ولكننا قد ندفع بالفارقة بعيداً إذا ما شئنا على أن الخليفة الذي يرتبط اسمه عادة باسم بغداد هو الذي أقام فيها فعلياً أقل من غيره. مع ذلك، فلا شك في أن الرشيد كان قد بدأ في عمارة قصر ومدينة مسورة بالقططل، قرب سامراء، «ليتنزه بها إذا ضجر من المقام ببغداد».

الطبرى، ج ٣، ١١٨٠.

(٧٧) الطبرى، ج ٣، ص ٧٣٥ - ٧٣٧.

(٧٨) المسعودى، مروج، الفقرة ٢٥١١، ابن أبي أصبيعة، ص ١٩١ - وقد حفظ أبو نواس في بعض أشعاره نصيحة أخيه

«... أبي عيسى وجبريل له عقل
فقلت الراح يعجبني فقال كثره قتل
فقلت فقدر لي فقال قوله فصل
ووجدت طبائع الإنسا ن أريعة هي الأصل

إبن أبي أصبيعة، ص ٢٠٠ - ٢٠١.

(٧٩) يعدد ابن أبي أصبيعة على مدى صفحات تفاصيل ثروة جبرائيل بن بختيشوع وخزانته وأمواله في جنديسابور وسوس والبصرة والسوداد. وكل ما جمعه خلال ٢٣ سنة قضاها في خدمة الرشيد وأكابر المملكة. وعن زيادة رزقه انظر التتوخي، الفرج بعد الشدة، ج ٤، ص ٢١٩ - ٢٢٦.

(٨٠) المصدر نفسه، ص ١٩٢.

(٨١) المصدر نفسه، ص ٢٠١، بحسب كتاب المجرد في الأغاني.

(٨٢) إبن أبي أصبيعة، ص ١٨٨.

(٨٣) لا أتكلّم هنا عن مكانة جبرائيل العلمية. فمن المعروف أنه كان يستعين على ترجماته بصديقه المطران عود يشوع بن بحريز، ابن أبي أصبيعة، ص ٢٨٢.

(٨٤) في نصيبين مثلاً، p 81 Ep. 54، بيداويد، ص ٤٠، ٧٨ - ٧٧، مؤرخة بسنة ٧٩٩/٤ (؟). وقد حاول الأطباء المتحدّرون من المدينة التصدّي لنفوذ جبرائيل.

(٨٥) PUTMAN, p. 100 et no. 4

(٨٦) كما توسط طهائلوس لدى جبرائيل ليحول دون استقدام أحد الأطباء من جنديسابور إلى بغداد. فكان أن جيء بباسوبيه الصيدلاني، ابن أبي أصبيعة، ص ٢٤٥.

(٨٧) Ep. 54، بيداويد، ص ٤٠، ٧٨ - ٧٧، مؤرخة بسنة ٧٩٩/٤ (؟).

(٨٨) الطبرى، ج ٣، ص ٧١٣، الكامل، ج ٦، ص ٦، ٢٠٦.

(٨٩) يجعل ابن القيم هذه الإجراءات «لما قلد [هارون الرشيد] الفضل بن يحيى أعمال خرسان» ص ٢١٧. والحقيقة أنّ تعين الفضل بن يحيى يقع سنة ١٧٧/٧٩٣ (Vizirat, p ٧٩٣/١٧٧) ١45-١47. ولم تكن ظروف ذلك التاريخ مؤاتية، في ما يبدو، لقرار كهذا. وليس هذه أول مرة يغير فيها ابن القيم توارييخ الأحداث.

(٩٠) رينهارت دوزي، المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، ترجمة أكرم فاضل، بغداد، ١٩٧١، ص ٧٣.

(٩١) ماري، ص ٧٣.

Coptes et Syriaques, contrats et échanges, dans S.O.C. Collectanea, no. 15 (1972-٩٢) 1973), p.317-318.

(٩٣) ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ١٨.

(٩٤) ماري، ص ٧٣ - ٧٥.

(٩٥) Ep.3، بيداويد، ص ٢٠، ٨٢ مؤرخة بسنة ٧٨١/٧٨٠ (؟). كذلك شق يوحنا بن بختيشوع عصا الطاعة على مطران جنديسابور، فكتب طهائلوس إلى والده لينفع حدو لرعونته. Ep. 45، بيداويد، ص ٣٦ مؤرخة بسنة ٧٩٨/٧٩٥ (؟).

(٩٦) ماري، ص ٧٤.

- (٩٧) ابن أبي أصيبيعة، ص ١٨٩. هل هو نفس «الجاثليق» (كذا) الذي أتى به من «شيراز» سابقاً (قبل ٨٠٣) ليعالج طرفاً من البرص في صدر الفضل بن يحيى البرمكي على ما يرويه لنا نظامي عروضي في المقالات الأربع، الحكاية الحادية عشرة عن الأطباء.
- (٩٨) يصدق السيوطي، ص ٢٩٦، الرواية الفائلة بغلط جبرائيل في العلاجة. ويدرك بعض المؤرخين، ومنهم السيوطي، ص ٢٩٠، قول الرشيد: «ولكل واحد من ولدي علي رقيب، فمسرور رقيب المأمون، وجبريل بن بختيشون رقيب الأمين».
- (٩٩) يبدو أنّ مثل هذا القرار كان على شيء من الشيوع حتى صار أحد موضوعات القصص الشعبية، p. 120 ELISSEEFF, 1001 nuits,

(١٠٠) وزر منذ ١٨٧/٨٠٣، انظر ANWAR G. CHEJNE, Al-Fadl b. Rabi', a politician of the early abbasid period, in *Islamic Culture*, 36, (1962), p. 167-181, 237-244.

- (١٠١) الطبرى، ج ٣، ص ٧٣١، الكامل، ج ٦، ص ٢٠٧ .
- (١٠٢) كحالة، أعلام النساء، ج ٢، ص ١٧ - ٣٠، مصطفى جواد، سيدات البلاط، ص ٤٥ - ABBOT, Two Queens, p.137-264
- (١٠٣) ص ٧٣ ، ٧٥ .
- (١٠٤) من قطيعة أم جعفر حيث كان يقيم من قبل .
- (١٠٥) M.ALLARD, Chrétiens à Bagdad, p. 378-379;
- (١٠٦) أنظر مقالة عبد العزيز الدوري عنه في E.I², II, p. 203
- (١٠٧) أنظر لائحة المصادر والمراجع تحت هذين الاسمين.
- (١٠٨) لقد أجمع الفقهاء على ضرورة زواجهما من غيره قبل أن يحمل الخليفة من عين الطلق.
- (١٠٩) رؤيا حمل في القربان، ميخائيل السريانى، ج ٣، ص ١٨ - ١٩ ، ابن العبرى، تاريخ الزمان، ص ١٦ .

- (١١٠) كان اسمه النصراني أنطونيوس، حبيب الزيارات، شهداء النصرانية في الإسلام، مجلة الشرق، ج ٣٦ (١٩٣٨)، ص ٤٥٩ - ٤٦٥ . يروى سنكسار الملكانيين أنه استشهد في ٢٥ كانون الأول ويختلف بيده في rigine et les caractéristiques des synaxaires melkites (XI-XVII^e siècle). Subsidia Hagiographica, no. 45, Bollandistes, Bruxelles 1969. Passion arabe, (I. DICK), dans le Muséon, LXXIV (1961), p.109-133.

- (١١١) أين؟ يكرّس SAMUEL M.ZWEMER كتاباً كاملاً لدراسة The Law of Apostasy in Islam, London, 1924. أنظر الفصل الثاني منه، ص ٣٣ - ٥٤ ، «الشريعة» الفصل

الرابع، ص ٧٧ - ١٠٢ «Centuries of Intolerance and Persecution» حيث لا يذكر المؤلف أي مثال من الفترة التي تعنينا. ثمة مقال يستحق المناقشة في Islamic Review Apostasy and its Consequences Under Islam and Christianity.

(١١٢) المسعودي، مروج، الفقرة ٣٤٤٩.

(١١٣) لا أتكلّم هنا عن العلاقات المزعومة بين الرشيد وشارمان. فكما يقول فاروق عمر في E.I.²: «لم نجد حتى اليوم شيئاً في المصادر العربية يسُوَغ هذا الادعاء. ويبدو أن لا أساس له من الصحة». وثمة تفاصيل جديدة في مقالة فاروق عمر، الاستشراق وتاريخ العصر العباسي، في مجلة الاستشراق، بغداد، ١٩٨٧، ص ١٢٥ - ١٢٦.

(١١٤) فلا مجال لقيام حوار حقيقي إذا لم يكن الطرفان المتحاوران في وضع من المساواة يعترف به كلامها، وهذا مما لا يمكن أن يقوم بين خليفة وبين بعض أهل الذمة.

(١١٥) ص ٦٥.

(١١٦) يتبَّه دومينيك سورديل في مقالته Kātib في IV, p.786 إلى «أن الناس في ذلك العصر كانوا يتذوّقون كثيراً الكتابات... التي تثير الدهشة أو الإعجاب».

(١١٧) أنظر قول أبي إسحق الفزاري الكوفي (المتوفى ٦/١٨٥ - ٢/٨٠١) في كتاب الشرح والإبادة، لابن بطة العكبري، تحقيق هنري لاوست، دمشق، ١٩٥٨، ص ٢١: «لأن أجلس إلى النصارى في يعتهم أحبت إلى من الجلوس في حلقة يتخاصم فيها الناس في دينهم». وأيضاً قول الفضيل بن عياض (ت ١٨٧ / ٨٠٣): «أكل طعام اليهودي والنصراني ولا أكل طعام صاحب بدعة». ص ٣٩.

(١١٨) في هذه النقطة على الأقل نجد الحكايات الشعبية تعبّر تماماً عن عقلية ذلك العصر يلاحظ ELISSEEFF, 1001 nuits, p49».

(١١٩) Ep.8، بيداويد، ص ٧٧.

٦ - الأمين (١٩٣ - ٨٠٩ / ١٩٨ - ٨١٣)

إعتلى أبو موسى محمد، الذي تسمى بالأمين،^(١) بن هارون الرشيد، عرش الخلافة سنة ١٩٣ / ٨٠٩. وقد عاش طيماً ثاوس إلى ما بعد خلافته القصيرة التي مزقتها الحرب مع أخيه المأمون.

والحق أنَّ الأمين لم يتع له الوقت الكثير ليهتم بالنصارى باستثناء القرار الذي أحيى به أمر الرشيد بإجبار حمدون بن علي على القبول بإعادة بناء كنائس البصرة.^(٢) نجد في بطانته الأشخاص أنفسهم الذين صادفناهم في خلافة أبيه. فمنهم عون الجوهري الذي استضاف الأمين ثلاثة أشهر بالحيرة «لطيب هوائها» وأنفق من ماله الخاص على الحاشية كلها،^(٣) ومنهم جبرائيل بن بختيسوع الذي كان مؤذب الأمين والذي أصبح كاتم سرِّه الخاص.

وكان الأمين مثل أبيه «لا يأكل ولا يشرب إلا بإذن [جبرائيل]».^(٤) بيد أنَّ الأحداث المأساوية التي شهدتها حرب الأخوين^(٥) والتي لم تشهد بغداد حرَّاً مثلها في الضرواة من قبل، قد خلقت آثاراً في سُكَّان المدينة وبخاصة في جبرائيل الذي انتهت العامة داره.

وقد نهب العلويون أيضًا مزارعه بالبصرة والأهواز.^(٦) يشير ابن أبي أصيبيعة إلى الفرق في سلوك جبرائيل حيال هذين الحادثين. في الحادث الأول نرى «هلع جبرائيل» الدال على شدة تعلقه بماله. في الحادث الثاني سروره، لأنَّ هذا النهب يكاد ينفعه شهادة الولاء للخلفية، وقد كان ذلك لصالحة الطيب، إذ من المعروف أنَّ الأمين كان «سفاكاً للدماء يركب هواه».^(٧)

إلاً أن جبرائيل كان في قراره نفسه قد حكم على عقل الخليفة. وقد اتفق أن الأمين سكر يوماً فاكره أبا عصمة صاحب حرسه وجبرائيل المنطوب على تبادل ثيابهما. فمن ذلك الوقت تبناً جبرائيل بزوال عز هذا الملك «لتغييره ما بنفسه [من نعمة]». ^(٨)

في العام ١٩٧/٨١٢ وقعت إحدى المعارك بين الأمين والمأمون عند باب الشهاسية^(٩) بالقرب من حي النصارى بشمال شرق بغداد. وقد انتزعت لأجل ذلك بعض أعمدة الكنائس ليُعمل منها قذائف تُرمى بالجانيق، إذ «لم يكن بيغداد حجارة». ^(١٠)

في العام ١٩٨/٨١٣ قُتل الأمين. ويبدو أن المصادر النصرانية لا تأسف عليه. وإلى قول المسعودي إن الأمين كان «قبع السيرة ضعيف الرأي» ^(١١) يزيد الراهاوي المجهول^(١٢) قوله: «وقد بدّد الكنوز التي كنّزها كلّ من كان قبله من الملوك الأول، ولكن في الباطل، لأنّه كان ماجّناً وميالاً إلى الفحش». ^(١٣)

ربما كان هذا كلّ ما يمكن أن يقال عن النصارى في عهد الأمين الكثيّب لولا أنّ ثمة اسمًا يذكره الطبرى^(١٤) ذكرًا عابرًا ويستدعي منا الالتفات: إنه مغنٌ من الكوفة يُدعى أحمد بن إسحق بن برصوصا. ولthen حقّ لنا التردد في اسم أبيه، إسحق، الذي ربما كان نصرايّاً أو مسلماً فلا ريب في أنّ جدّ أحد هذا كان نصرايّاً يعقوبياً. ما زلنا نجهل ظروف إسلام الأسرة، أو إسلام رجالها على الأقلّ. ولتكلفنا الإشارة إلى أنّ أمثال هذه الحالة كانت تحدث، ثمّ صارت تتكرّر أكثر فأكثر بسبب الضغوط الاجتماعية بخاصة. كان تأكل الجماعات المسيحية بفعل الإسلام قد بدأ منذ زمن. ^(١٥)

ملحوظة أخرى: كان ثمة بعض النصارى في الأحزاب كلّها يعملون في خدمة السلطات النافذة الأمر في أقاليمهم. ^(١٦) فإذا غلّب حزبهم شاطروا مصير أسيادهم، وفي أغلب الأحيان كان ينصح لهم باعتماد الإسلام، فكان ذلك أيضًا من عوامل تخلي البعض منهم عن دينه.

الخواشي

- (١) الصفدي، ج ٥، ص ١٣٥ - ١٣٩، رقم ٢١٤٩.
- (٢) ماري، ص ٧٣.
- (٣) المصدر نفسه.
- (٤) ابن أبي أصبيعة، ص ١٨٩، ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ١٨.
- S.B. SAMADI, The Strugle between the two Brothers, Al-Amin and Al Mamūn, in (٥)
Islamic Culture, XXXII (1958), p 99-120.
- (٦) ابن أبي أصبيعة، ص ١٩٤ - ١٩٥.
- (٧) التنبية والإشراف، ص ٣٤٩.
- (٨) ابن أبي أصبيعة، ص ١٩٧.
- (٩) الطبرى، ج ٣، ص ٣٩٥ - ٣٩٦.
- (١٠) ميخائيل السريانى، ج ٣، ص ٣٠، ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ٢١.
- (١١) التنبية والإشراف، ص ٣٤٩.
- (١٢) ج ٢، ص ٥.
- (١٣) يكتفى F. GABRIELI في مقالته E.I², p.449-450 في القول إنه كان «طائشاً». يكرر ابن الطقطقى، ص ١٧١، قول ابن الأثير «لم نجد للأمين شيئاً من سيرته نستحسنه فنذكره».
- (١٤) ج ٣، ص ٩٥٤ - ٩٥٦. يقول الجاحظ في الصفحة ٤٩ من كتاب الناج، إن أمه «كانت نبطية لكناء» وقد قسمت بالسگين بساطاً نفيساً أهداه الرشيد إلى ابنها.
- (١٥) يقدر آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع المجري، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده، القاهرة ط ٤، ١٩٦٧، ج ٤، ص ٨٤، أنه كان ببغداد ما بين أربعين وخمسين ألف نصارى في بداية القرن الثالث للهجرة.
- (١٦) نذكر عابرين رجلاً اسمه ميكائيل (ملکانی؟) كان في فرقة الخوارزمية التي ضمت ٧٠٠ رجل ورافقت علياً بن عيسى عندما قدم من الري لمحاربة المأمون سنة ١٩٥ - ٨١١، الطبرى، ج ٣، ص ٨٠٠.

٧ - المؤمن (١٩٨ - ٨١٣ / ٢١٨ - ٨٣٣)

لا شاهد لدينا على علاقات الخليفة الجديد طيماً تاوس،^(١) مع أنّ ماري يذكر أنّ هذا الجاثيقي (الذى ربيّاً كان آنثى يناظر الخامسة والستين من عمره) قد أدرك خلافة المؤمن. ولتنذر، على الرغم من استحالة تأريخ الأحداث بدقة ويقين، إشارة ماري إلى أنّ طيماً تاوس مات عن جثلته دامت ٤٣ عاماً، سنة دخول المؤمن إلى بغداد، بعد ست سنوات من توليه الخلافة، أي في صفر ٢٠٤ / آب ٨١٩.

كانت السنوات التي فصلت بين موت الأمين (أيلول ٨١٣) وبين دخول المؤمن، سنوات اضطراب سواء في العاصمة أو في الأقاليم، وبخاصة الشام وفلسطين القريبيتين من تحوم بيزنطية، حيث عانى النصارى من تدهور الحالة العامة.^(٢) وفي الرها أغرى «العرب» النصر بين شبت العقيلي^(٣) وعمرًا^(٤) الخارجين بالقدوم لتهديم الكنائس. فقام النصارى ثم جمعوا مبلغ ٥٠٠٠ زوري وتوصلوا بوساطة يحيى بن سعيد^(٥) إلى صرف المعتدين عما عزموا عليه.^(٦) وفي حران أمر إبراهيم القرشي بتهديم الكنائس الحديثة، ولكنّه أمر في الغد من ذلك اليوم بإعادة بنائها^(٧) من بعد ما رأى في المنام حلماً هائلاً.

كان الصراع الذي دام أربع عشرة سنة (١٩٦ - ٨١١ / ٢١٠ - ٨٢٥) ضد نصر وعمرو الخارجيين، حافلاً بالتعديلات. فقد نهب الخارجيان ديرًا لا يسميه ميخائيل السرياني. ثم جاء بعض النصارى المتمردين على بطريق أنطاكيه فأجهزوا على الدير. «فكان أول دير يُحرق (سنة ٩٨١٢) في مملكة العرب». ^(٨) وانتشر قطاع الطرق في الغرب كله (الشام) ...

على أنّ هذا كله لم يمنع نصرًا «الملعون»، الذي كان يقتل الفرس (أي العباسين) مثلما يقتل النصارى من أن يتّخذ لنفسه «كاتبًا نصرانِيًّا فهُمَا». (٤) ولما قبض الأمير عبدالله بن طاهر على نصر وبعثه إلى المأمون ببغداد امتدحه ميخائيل (نقلًا عن ديونيسيوس؟) قائلاً: (٥) «كان نصر، على طغيانه، يحب النصارى ويقتل كاهل مَن يخرج من دينه منهم بألوان المكوس». وكان يقول: متى دفعتم لي الجزية فأنتم وما تختارون من الدين. فترك كثيرون لذلك المساجد وعادوا إلى الكنائس».

عند العياقة، كان البطريرك قرياقوس (٧٩٣ - ٨١٧) قد جاء إلى الشرق لتعيين رئيس أساقفة (٦) لتكريت، مركز الإقليم الشرقي من كنيسته السريانية الغربية. ولما كان التنافس لم يزل قائماً بين هؤلاء «الشرقين» وبين البطريرك، ظنّ قرياقوس أنه قد وقع على الرجل «ال قادر على مقاومة أعمال هؤلاء القوم ودرئها ». كان هذا كاتبًا اسمه باسيليوس، أصله من بلد (٧) «وكان يشتغل في القضاء وفي جباه المكوس». (٨)

وكان باسيليوس هذا «مصابًا بداء الكبراء» وكان «بلا روية... تيّاهًا». وكانت فاتحة أمره أن دخل في نزاع (وهذا تقليديّ) مع أهل الموصل ورهبان دير مار متّى، فأغري الأمير بحبس مَن يشاء وتغريم مَن يشاء، ثم إنه ما اكتفى «بالتعالي على النصارى» بل ربما تعدى ذلك إلى ظلم مسلمي تكريت. ولم يقتصر على تدبير الكنائس بل تدخل في الإدارة العامة التي لم تكن من شأنه، فكان يخالط الأمراء ويجبي الضرائب حقّ إنه تسلق إلى فرض الجزية على المسلمين! ولما رأى هؤلاء تكبه قاموا عليه وأساءوا إلى النصارى بسيبه، فقتلوا من حميّتهم، الخنازير في الشوارع وهاجموا الكنائس.

عندئذ انحدر باسيليوس إلى بغداد ليشتكي على المسلمين. فما كان من هؤلاء إلا أن سبقوه فوصلوا قبله وحرّروا دعوى لم تخُل من المأخذ التي صارت تقليدية: الصليبان، النواقيس، الخمر فضلاً عن الخنازير التي «تدخل إلى المساجد». واتهم المطران وآخر من أعيان رعيته، يُدعى عبدون، «بشنّم الرسول». أمّا الردّ فكان منشوراً بإبطال شرائع النصارى وأمراً بالقبض على الرجلين المتهمين، ففرّ باسيليوس وقبض على عبدون، فأغري أول الأمر بالخلع والشرف والمنصب إذا ما اعتنق

الإسلام فلما قتلت أرحب بالوعيد ثم عذب. وبعد سبعة أشهر من الحبس والتعذيب حُدّ بالسيف ثم صلب، وقد وقعت بعض العجازات فوق قبره في ما روي. أما باسيليوس «الذي كان يتوعّد العرب بالطرد من بيوتهم»، فلم يتمكّن أبداً من العودة إلى تكريت. وقد مات سنة ٨٢٩ مختبئاً في دير عين قنا (قصر سرج) بالقرب من مسقط رأسه بَلَد. فهذه الحالة قد تدخل إذن في فئة «الاستفزاز وردة الفعل».

٧ أخرت الاضطربات التي سادت أوائل خلافة المؤمنون انتخاب خلف لطيمثاوس^(١٤) عند المشارقة من السريان.^(١٥) كان هذا الخلف إيشوع بر نون وكان إيشوع هذا من الزملاء القدامى لطيمثاوس وأبي نوح الأنباري الكاتب في مدرسة ابراهام بر داشنداد بشوش.^(١٦) وقد كان إيشوع بر نون قضى بضعة أشهر ببغداد حوالي سنة ٧٩٠، مؤدياً لابن الطبيب جرجس المسمى ماسوبيه.^(١٧)

انتخب الجاثليق الجديد في بداية تموز ٨٢٣. وقد توافق الآباء المسيمون على اسم إيشوع بر نون بأمر من أربعة رجالات: طبيين هما جبرائيل بن بختيشوع وصهره ميخائيل، وكاتبين هما يعقوب ووهب. لا نعرف شيئاً عن الاثنين الآخرين وربما كانوا أبويا الكاتبين دليل بن يعقوب وسليمان بن وهب اللذين اشتهرتا في الجيل التالي؟

وقد أنيط تدبير أموال الجاثلقة، إبان خلوّ السلة برجل يُدعى عبدا هو ابن عون الجوهري العبادي الذي نعرفه والذي كانت داره بسبانبر، إحدى الضواحي بغدادية طيسفون.

كان جبرائيل بن بختيشوع لا يزال هناك سنة ٨٢٣ منذ أن بدأ في خدمة جعفر البرمكي سنة ٧٩١/١٧٥. والحق أنّ الفترة الانتقالية التي أعقبت مقتل الأمين، سنة ٨١٣، لم تكن سهلة على جبرائيل الذي رفض التقرّب إلى المؤمنون. وقد سخط عليه الخليفة الجديد، وقبض عليه وصادر أمواله كلها.^(١٨) ولكن في العام ٨١٧/٢٠٢ اعتُلَ الحسن بن سهل،^(١٩) الذي صار وزيراً من بعد، وكان المؤمنون قد أوكلوا إليه أمر القبض على جبرائيل. فما كان من الحسن إلا أن أطلق جبرائيل ليعالجه ثم شفع له بعفو الخليفة (فسفاه الطبيب ولكن إلى حين).

لما دخل المأمون بغداد سنة ٤٢٠٤/٨١٩^(٣٠) «أمر بأن يجلس جبرائيل في منزله ولا يخدم، ووجه من أحضر ميخائيل المطتب، وهو صهر جبرائيل، وجعله مكانه وأكرمه إكراماً وافراً كياداً لجبرائيل».

وفي أثناء فترة السخط هذه انتخب إيشوع بر نون. وقد توصل جبرائيل وصهره إلى التفاهم على اسمه. في العام ٤٢٦-٨٢٥ ميلادي ألم بالمؤمن داء أعجز ميخائيل عن شفائه، فاستدعي يوحنا بن ماسوبيه. إلا أن ميخائيل نجح في إزاحته، إلى أن جاء بجبرائيل الشيخ الذي استطاع أن يشفى الخليفة، فوصله هذا بهدايا جليلة نقداً وعييناً وأمر بأن يرد إليه كل ما صودر منه من الأموال والضياع.

ظلّ جبرائيل ينعم مدة ثلاث سنوات أخرى بالعزّ الذي عرفه من قبل، أيام الرشيد، حتى إنّ هذا الطبيب كان، على قول ابن أبي أصيبيعة «عند المأمون مثل أبيه» وكان «كلّ من تقلّد عملاً لا يخرج إلى عمله إلاّ بعد أن يلقى جبرائيل ويكرمه»^(٢١). من ذلك أنّ صالحًا بن الرشيد، عامل البصرة قد حُجب عن الدخول على الخليفة، على ما بذله من مال في محاولة ذلك، واضطرّ إلى العودة بخفىٰ حنين، لا لشيء إلاّ لأنّه استكثر طلب جبرائيل خمس مئة ساجة لعمارة داره القرية من الميدان بالبصرة وعرض حمل مئتي ساجة إليه فحسب.^(٢٢)

ولما انطلق المأمون سنة ٤٢٨/٨٢٨ ليغزو الأراضي البيزنطية، أراد أن يصطحب طبيبه المهرم. ولكن الخليفة لما رأى ما عليه من الضعف، اكتفى باصطحاب ابنه بختي Shaw. وقد مات جبرائيل إبان هذه الغزوة، أي في غياب الخليفة، فدفن في دير مار سرجيس بالمدائن «فمضى في تجميل موته ما لم يمض لأمثاله».

خبا نجم ميخائيل المطتب، صهر جبرائيل، ولكن بختي Shaw^(٢٣) بن جبرائيل قام مقام أبيه، وبقي للنصارى نصير قريب من العرش.

في هذه الأثناء، كان إيشوع بر نون قد أنهى جثلة دامت أربع سنوات، احتفظ المؤرخون منها بذكرى بعضه المرضي^(٢٤) لسلفه طبياً ثاوس. حتى إنّ الأطباء قد اضطروا أحياناً إلى تسليم الأمور بينه وبين الأساقفة الذين كانوا يريدون خلعه.

هذاً إيشوع بر نون، ورأى رؤيا منبهة بموافقة الميّة، ثم لفظ أنفاسه الأخيرة في دير الجاثليق الذي كان طبياً ثاوس قد عُمره.

VI خلف إيشوع بر نون جيورجيس بن الصبّاح^(٢٥) الذي كانت سنه تناهز المئة عندما سيم جاثليقاً يوم الأحد في ١٦ حزيران ٨٢٧/١٧ ربّع الأول. كان جيورجيس هذا قبل عشرين عاماً رئيس رهبان دير بيت عابي وكان قد جأ إلى جبرائيل مستعيناً به على استرجاع إحدى ضياع الدير التي اغتصبها جار له. وقد أُعجب رئيس الأطباء باستقامة هذا الديرياني وسعى لدى طبياً ثاوس ليرسمه مطراناً لجنديسابر. والآن عمل جبرائيل وميخائيل على تقديميه إلى كرسى الجائحة بالرغم من علو سنه. لا يذكر المؤرخون شيئاً مخصوصاً عن علاقات هذا الخبر بالسلطات أو بال الخليفة أو بالوزراء. وإنما يعني هذا أنّ بطريقه لم يكن يقوم دائماً بالدور الأهم في «العلاقات العامة» لجماعته. فقد اكتفى جيورجيس بصنع آيات ومعجزات مشهورة كشفاء الأمراض الصعبة وإخراج بعض الشياطين. ومن المحتمل أن يكون أهل البلاط، والنساء منهم خاصة، قد استعنوا به ولكن ليس لدينا أي ذكر لذلك.

وقد توفي جيورجيس الثاني بعد حوالي أربع سنوات من الجائحة، في غرة المحرّم من سنة ٢١٦/آذار ٨٣١.

VII كان خلفه سبر يشوع^(٢٦)، الجاثليق الثالث في خلافة المأمون، قد لفت انتباه الخليفة بالاستقبال الذي هيأه له «ولاصحابه وجماعة النصارى الذين كانوا معه لما حصل بدمشق» التي كان سبر يشوع مطراناً على رعيتها، سنة ٢١٥/٨٣٠.^(٢٧) وقد ظلت ذكرى تلك الحفاوة ماثلة في الأذهان، حتى إذا شعرَ كرسى الجائحة بموت جيورجيس الثاني، انتخب سبر يشوع.^(٢٨) لم يحفظ المؤرخون عن جائحته إلا تجديده (بإذن الخليفة) دير مار فتيون بحي العتيقة في جنوب غرب بغداد.

لم يكن للجائحة الشيوخ الذين خلفوا طبياً ثاوس، والذين لم تدم جائحة كلّ منهم أكثر من أربع سنوات، إلا علاقات مجاملة، في ما يبدو، بعرش الخلافة، بينما تقطّع ديونيسيوس التلموري بطريقه المغاربة من السريان في ذلك الزمان برصاص المأمون، ولو إلى حين.

ديونيسيوس التلمحري والمأمون

يجذّرنا أحد الباحثين المسلمين المعاصرين^(٢٩) من استعمال آثار ديونيسيوس التلمحري إلّا بكثير من الحيطة،^(٣٠) ولا سيّما في تعاملنا مع «أحكامه المتهورة» التي ساقته إليها «عداوه للنظام الجديد».

قد سبقت مّا الإشارة إلى أنّ المؤلّفين السريان الغربيّين كانوا من شدّة معاملة السلطات الإسلاميّة لجّماعاتهم أغلب شكوى مّا كان المشارقة من سريان الداخل، وذلك لقرب الأوائل من الحدود البيزنطيّة. فهذا ماري السرياني الشرقيّ يكتب عن المأمون أنّه كان «يُبَيِّلُ إلَى النَّصَارَى»^(٣١) بينما يقول ميخائيل السرياني، السرياني الغربي^(٣٢) (المتأثر بديونيسيوس؟) إنّ المأمون «كان يلعنه الجميع لما أنزل بالناس من صنوف البلاء». ومع ذلك، يجدّر بنا ألاّ نبالغ في التبسيط، إذ إنّ سريانياً غربياً آخر، هو الرهاوي المجهول^(٣٣) يذكر أنّ «الملك المأمون كان عادلاً في أحكامه، محباً للسلام رحيمًا». ويضرب على ذلك مثلاً: في العام ٨٢٤ جاءت المواسم وفيرة وانفرجت الشدّة عن الناس: «فأنـتـ السـبـلـ، وـخـيـمـ السـلامـ عـلـىـ النـاسـ بـفـضـلـ طـيـةـ» على من ظـلـيـمـ منـ النـاسـ أوـ نـهـيـتـ أـرـضـهـ وـمـالـهـ. وقد أمرـهـ المـأـمـونـ بـأـنـ يـعـفـواـ النـصـارـىـ منـ إـضـافـةـ الـعـسـكـرـ وـأـنـ لـاـ يـظـلـمـهـمـ منـ العـرـبـ أوـ الـفـرـسـ^(٣٤) أحدـ. وقد طـابـ لـلـنـصـارـىـ العـيشـ فـيـ ذـلـكـ الزـمـانـ، وـكـانـواـ يـصـلـوـنـ اللـهـ بـلـاـ انـقـطـاعـ سـائـلـيـهـ أنـ يـمـفـظـ عـلـيـهـمـ حـيـاةـ المـأـمـونـ».

ها نحن قد ابتعدنا كثيراً عن اللوحة القاتمة التي يرسمها ديونيسيوس المزعم^(٣٥) إذ يكتب: «وقد أخذنا على أنفسنا أن نقول كلّ شيء وأن ننقل إلى من يأتي بعدها ذكرى... الأباء التي كان ينوه بها أسلافهم لكنّها يحتاطوا لأنفسهم فلا يظلموا». يلاحظ فاروق عمر، بحقّ، أنّ هذا «الحيف» لم يكن نازلاً بالنصارى وحدهم، ولئن فرح الرهاوي المجهول بوفرة الغلال في هذا العام أو ذاك، فهذا يعني أنّ العام السابق كان عام قحط، وكان هذا العسر يصيب الشعب كله لا النصارى من دون غيرهم.

زد على ذلك أن العمال منهم من كان حسن السيرة ومنهم من كان جائراً. وقد امتحن ديونيسيوس عبدالله بن طاهر^(٣٧) عامل المأمون ورببه الذي كان (على قول المعتصم) أحد أكابر رجالات المملكة الأربعة العظام. ^(٣٨) وقد أغان عبدالله ديونيسيوس على التخلص من منافس دخيل اسمه أبي رام. ^(٣٩) كما قصد عبدالله ديونيسيوس عبدالله بمصر، سنة ٨٢٦ - ٨٢٧، لما كان عاماً عليها ليتوسط له لدى أخيه محمد الذي راح نائبه يقطن بهم كنائس الراهب ويكره سكان المدينة على تحرير عبيدهم ليدخلوا الإسلام. ولا بد من الإشارة، مع ميخائيل السرياني^(٤٠) إلى أن المحرض على هذه التدابير كاتب خلقيدوني (ملكيان) اسمه وليد.

وقد كان على ديونيسيوس البطريرك أن يتدخل لدى الخليفة نفسه في قضية شكوى يعاقبة بغداد على أسقفهم لعاذر بن شيئاً. ^(٤١) ذلك أن الخليفة، لسياسة طبعه، ^(٤٢) أعطى اليهود المنقسمين إذنًا يجيز للجماعة الدينية أن تختار رئيسها الدينية ولو لم يتجاوز عدد أفرادها العشرة، وأجاز لهذا المختار الحصول على اعتراف الخليفة به. ^(٤٣) وقد وافق هذا الأمر لعاذر الأسقف ولكنه لم يوافق ديونيسيوس البطريرك الذي قال: «عندما يكثر الرؤساء فيما نضعف ويظهر علينا المسلمين». ^(٤٤)

لم يشا الخليفة «الذي كان حصيفاً» أن يظلم البطريرك الذي « جاء ليسلم عليه بهدايا من أراضي الأرض»، بل أذن لديونيسيوس «أن يلحق به حيث كان يتربّ بالستان ليعرض قضيته». وقد ناظره ديونيسيوس، في ما روي، «مناظرة النّد للنّد... كمن يخاصم صاحبه في قسمة بعض الغنائم» حتى «تعجب أساقتنا وعسکره مما أظهرته، بقوّة الربّ، من الجرأة مثلما تعجبوا من صبر الملك الحليم». فوعد الخليفة بفحص القضية.

بعد عشرة أيام ذكره ديونيسيوس بوعده عن طريق لعاذر المارديني الكاتب اليعقوبي «الذي يقف بين يدي الملك». ^(٤٥) وبعد مشاوره الفقهاء في هذه القضية^(٤٦) أذن المأمون لديونيسيوس بالدخول فيما كان من البطريرك إلا أن ألقى على الخليفة خطبة في البطاركة وسلطاتهم، حتى نبهه الخليفة قائلاً: «اسمع يا بطريرك. وانظر كم نصبر عليك» وقد أسرف الحوار عن الموافقة على عزل لعاذر عن

الأسقفية، بيد أن الخليفة لم يأذن للبطريرك «بطرده من الكنيسة ولا بحرمانه من الصلاة».

جاءت قضية أخرى تناقض إلى الأولى: أمير الموصل قد ظلم اليعاقبة و«نقض» كنيستهم. لفت الخليفة نظر البطريرك قائلاً: «لا يليق بنا أن ننظر في أمركم». ذلك لأن أمثال هذه الشكاوى كانت من اختصاص ديوان المظالم. مع ذلك، فإن المأمون لما كان «يقدّر شجاعة البطريرك» أمر بأن ينظر هل «أسلم أهل الموصل بلد़هم صلحاً للعرب، كما يقول البطريرك [وهل] الذي فتحها كتب لهم عهداً بأن لا تنقض كنيستهم وأن لا تنسخ شرائعهم». فجيء الخليفة بالعهد المطلوب^(٤٧) فأمر المأمون بأن يكتب بذلك إلى عامل الموصل، وكان ذلك سنة .٨٢٩

إذا صدقت رواية Диونيسيوس للأحداث فإننا لنعجب حقاً بصبر المأمون. إلا أنه لم يتمالك نفسه عن التألف من الصراعات الدائرة في قلب جماعة المغاربة من السريان عندما قال: «لقد والله أسامتموني وأزعجتموني يا عشر النصارى! ولا سيما أنتم يا عشر اليعاقبة، مع أننا نحمل ما يتلّم به بعضكم من بعض»، وقد نقل ديونيسيوس قوله بأمانة.^(٤٨)

وفي السنة التالية، أي ٨٣٠، حمل ديونيسيوس الهدايا إلى الخليفة ولحق به بدمشق (حيث رأينا المأمون من قبل ينزل ضيفاً على سبريشوع مطران المشارقة من السريان). رأى الخليفة الفائدة السياسية التي قد يجنيها إذا ما اصطحب ديونيسيوس البطريرك إلى مصر حيث كان النصارى من الأقباط البشمرورية قد خرجوا على الطاعة. كانت وساطة بطريركه姆، يوسف الإسكندرى قد أخفقت من قبل، ولم يقيِّض لوساطة ديونيسيوس نجاح أفضل.^(٤٩)

زيادة على هذا الإخفاق تجراً البطريرك على إلقاء تبعة التمرد على إبراهيم، أخي المأمون بسبب جباية الضرائب. هذه المرة غضب الخليفة من جراءة البطريرك وظل كالساخط عليه حتى نهاية خلافته. وقد سارت أحوال ديونيسيوس من سُوء إلى أسوأ عندما أصبح إبراهيم نفسه خليفة سنة ٨٣٣ وتلقّب بالمعتصم. فكان على البطريرك أن يختبئ حتى يصار إلى تهيئة الخليفة الجديد.

نوابير تمييزية؟

لم يكن ثمة ما يرضي المؤمن عن نصارى مصر. وعند رجوعه إلى بغداد^(٥٠) ساءه أيضًا أن النصارى «اتفق لهم مجاهرة في بغداد بالبغى والفساد على معلميه على بن حمزة الكسائي^(٥١)، فلما قرأ عليه المؤمن ووصل إلى قوله تعالى: ﴿أَئِمَّا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَخَلَّوْا إِلَيْهِمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى، أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أُولَئِكَ بَعْضٌ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ قال الكسائي: يا أمير المؤمنين، أتفق أكتاب الله ولا تعمل به^(٥٢)».

وقد جمع المؤمن، في ما يروى، كلَّ مَنْ كان في خدمته من الذميين «وصرف وسجن ألفين وثمان مئة» وبقي جماعة من الكتاب اليهود في ديواني الجيش والخارج فأمر المؤمن بصرفهم أيضًا.^(٥٣) ربما وجدنا في هذا التصرف مسوًغاً لقول المسعودي عن المؤمن: «وَرَبَّمَا حَرَّكَ مِنْهُ الْغَضْبُ فَعَجَّلَ بِالْعَقوبة».^(٥٤)

ربما أعاد الإطار التاريخي على تفسير سخط المؤمن. نحن الآن في العام ٨٣٠: تكَّنَ الأفшиن من إخضاع الخارجين عصر،^(٥٦) واشتعلت الحرب مع الروم الثانية، ولعلنا ندرج في هذا السياق أيضًا خبراً طريفاً يورده هلال الصابي^(٥٧) عن كاتب خائن لئيم يُدعى أبو الفضل فرج بن زياد الرخاجي. فقد كان من كيده لزميله المفضل عليه أبي الحسن مخلد بن أبان أن جعل في رأس الشاشيات الآتية التي اصطنعها له صلباناً من خوص النخل، وذلك لإثبات التهمة عليه بالنفاق، إذ أخفى عن الخليفة أنه من «عبد الصليب». ومن حسن التوفيق أن المفترى عليه اكتشف المكيدة وأبدل الشاشيات وأفحى المفترى العقوبَ لـما اتهمه بين يدي الخليفة. ولم ينقل لنا المصدر ما كان من شأن المؤمن أن يفعل لو قامت البينة على التهمة. بيد أنَّ مناخ التوتر الذي ساد أواخر الخلافة، كالذي ساد أوائلها، يجب ألا ينسينا السنوات التي مرَّت بينها والتي كانت من ألمع سُقُنِ العصر العباسي ومن أشدّها حرارة بالنسبة إلى خيارات علم الكلام داخل الإسلام.

هل كانت ثمة أراجيف تهم الإسلام بالانتشار بقوة السيف؟ فمن أجل الردّ عليها، في ما يبدو، ومن أجل إظهار تفوق الإسلام دعا الخليفة إلى بغداد كلَّ مَنْ

كان بدار الإسلام من رؤساء الملل ليناظروا علماء المسلمين. ولعلّ هذه الدعوة تفسّر قدوم^(٥٨) يزدان بخت، رئيس المانوية، من الريّ إلى بغداد، وإذ أفحمه علماء المسلمين دعاه الخليفة إلى الإسلام، فلما ترقى في الرفض لم يشأ المؤمن إجباره، بل بعث معه من يحرسه من سوء معاملة العامة.^(٥٩)

تيارات علمية وكلامية

في خلافة المؤمن عرفت حركة الترجمة إلى العربية ذروتها.^(٦٠) كانت للخليفة عدّة اتصالات بقياصرة الروم ليطلب منهم، في ما يطلب، أن يأذنوا لبعثة عربية بالسفر إلى بلاد الروم لجمع المخطوطات في علوم الطبيعة والهندسة والطب، أو أن يبعثوا إلى بغداد عالماً بالرياضيات يونانيّاً مشهوراً اسمه لاوون. فالمؤمن هو مؤسس معهد الترجمة العظيم الذي يُعرف ببيت الحكمة والذي أنيطت إدارته بسهل بن هارون. كان معظم المترجمين، في البداية، من النصارى الملكانيين والعاقبة والنساطرة خصوصاً. وبفضل هؤلاء انتقلت علوم اليونان إلى العرب ثم عادت بواسطتهم إلى أوروبا.

وقد بقىت بعض أسماء الذين ترجموا للمؤمن. فمن النصارى الحجاج بن مطر وعبد المسيح بن ناعمة الحمصي^(٦١) في ترجمة كتب الطب، ومحى بن البطريق الذي (كان في جملة) الحسن بن سهل.^(٦٢)

ومن بين الأطباء رأينا في بداية خلافة المؤمن جبرائيل بن بختишوع وصهره ميخائيل، بعد ذلك نجد جبرائيل بن بختишوع^(٦٣) إلى جانب الخليفة، حتى في الحملات على بلاد الروم. وقد اقترب اسمه باسم المؤمن في العديد من الأقوال المأثورة^(٦٤) التي تنسبها كتب إلى هذا الخليفة وهذا الطبيب، وتنسبها كتب أخرى إلى غيرهما. ويظهر، فضلاً عن بختишوع، ابن ماسويه الذي صادفناه من قبل^(٦٥) وكذلك سلمويه.^(٦٦)

كان كحال الخليفة رجلاً ناصرياً اسمه جبرائيل^(٦٧) وكان أول من يدخل عليه كل يوم، وكذلك كان أحد مشاهير الكتاب في ذلك العصر، عليّ بن هيثم

الذى كان يلقب بجونقا، والذى كان المأمون يتحفظ إذا تكلّم أمامه لأنّه «تعرّق في الإعراب».^(٦٨) وجونقا هذا هو الذي تجّرّأ يوماً أن يجلس في «مجلس العرب» في دكّة الشهاسية، حتى ذكره الكتاب الذين هجر صفوفهم (لا المسلمين) بالأصول، فاضطر إلى العودة والجلوس مع النبط.^(٦٩) وهذا يذكّرنا بأنّه مهما بلغ شأن النصارى من النفوذ في قصور الخلفاء، فقد كان ثمة دائمًا «عتبة للتسامح» كانوا يشعرون بوجوب الوقوف عندها. كان عليهم، كما كان يقال آنذاك، ألا «يتعدّوا طورهم».^(٧٠)

نجد مثلاً آخر على ذلك في خلافة المأمون أيضًا،^(٧١) إنه النصراوي المصري بگام البيبورى: «كان بگام إذا كان يوم الجمعة لبس السواد (لون العباسين) وتقلّد بالسيف والمنطقة (بدلًا من زنار الذميين!) وركب برذونا (فالفرس كان محظوظاً على النصارى) وبين يديه أصحابه، فإذا بلغ المسجد وقف ودخل خليفته، وكان مسلماً، يصلّي بالناس ويخطب باسم الخليفة ويخرج إليه». وإننا لنرى في هذه الفقرة الصغيرة مزيجاً مدروساً من تحطّي بعض الأصول واحترام بعضها الآخر مما لم يكن من احترامه بدّ. كان على كلّ واحد أن يعرف، في الوقت المناسب، إلى أين يستطيع أن يذهب من دون أن يستفز الآخرين.

على أية حال كان اهتمام الرأي العام في عصر المأمون يدور حول مسائل تخصّ بالجماعة الإسلامية نفسها.^(٧٢) وفي حزيران ٨٢٧ انحاز الخليفة إلى المعتزلة وأعلن عن عقيدته بأن القرآن «وإن كان متّلأً فهو خلوق وأنّ الحرية الإنسانية لا تلغّيها عقيدة القدر».^(٧٣) ومن ثمّ كانت المحنة^(٧٤) التي امتحن بها علماء الإسلام وأدت إلى الحكم بالموت على من لم يقل منهم بخلق القرآن. إلا أنّ وفاة الخليفة حالت دون تنفيذ الأحكام. كان انحياز الخليفة إلى الاعتزال من نتائج دخول الفلسفة إلى الفكر الإسلامي، وذلك بسبب حركة الترجمة التي كان النصارى مسؤولين إلى حدّ بعيد عنها من آثار محمودة أو مذمومة. لذلك شملتهم ردّة فعل أهل السنة والجماعة في جملة ضحاياها.^(٧٥)

الحواشي

- (١) لم يذكر اسم الخليفة في رسائل الجاثليق، Index dans PUTMAN p.154-157.
- (٢) THEOPHANE, ad. an. 6305, p.499, cité dans DHGE, s.v. Antioche, col. 589 sq. حيث يتكلّم عن «اضطهاد عام بالشام».
- (٣) الطبرى، ج ٣، ص ٨٤٥، ٩٧٥ ، ١٠٤٣ - ١٠٤٦ ، ١٠٦٧ - ١٠٧٤ .
- (٤) السلمي؟ المذكور مع نصر في العام ١٩٦٨/٨١١ في المصدر السابق ص ٨٤٥ .
- (٥) ميخائيل السريانى، ج ٣، ص ٢٢ ، ابن العربى، تاريخ الزمان، ص ٢٠ .
- (٦) ميخائيل السريانى، ج ٣، ص ٤٧ - ٤٨ ، ابن العربى، تاريخ الزمان، ص ٢٢ .
- (٧) ميخائيل السريانى، ج ٣، ص ٢٣ .
- (٨) المصدر نفسه، ص ٢٣ - ٢٤ ، ٣٧ ، ٥٢ - ٥٣ ، إلخ .
- (٩) المصدر نفسه، ص ٣٦ . هل كان هذا يحيى بن سعيد الذي رأيناها من قبل؟
- (١٠) المصدر نفسه، ص ٦٠ - ٦١ .
- (١١) لم يكن يلقب بالفاريان بعد .
- (١٢) بلّيدة إلى الغرب من الموصل على طريق نصيبين، تسمى اليوم أسكى موصل .
- (١٣) ميخائيل السريانى، ج ٣، ص ٢٨ - ٢٩ ، ٤٨ - ٤٩ ، ٦٠ ، إلخ . أنظر المراجع في DHGE, VI, col 1144-1145, s.v. Basile (no. 128) par ARN VAN LANTSCHOOT
- (١٤) يقول صليبا، ص ٦٦ ، إن السيدة ظلت شاغرة مدة ستة وخمسة أشهر، والواقع أن إنشاع بر بنون لم يستحب إلا في العام ٢٠٨/٨٢٣، أي بعد ذلك بأربع سنوات .
- (١٥) وقد حضر المأمون، في تاريخ غير محمد، عيد الشعانين بدير الأعلى بالموصل، الشابشى، الديارات، ط ٢، ص ١٧٧ - ١٧٩ .
- (١٦) ماري، ص ٧٥ - ٧٦ ، صليبا، ص ٦٦ - ٦٨ ، ابن العربى، ج ٢ ، العمودين ١٨٢ - ١٨٤ ، إيليا النصيبي، الحاشية العربية ص ٧١ .
- (١٧) ماسوحة بن يوحنا(?)، ابن أبي أصيبيعة، ص ٢٤٢ - ٢٤٦ .
- (١٨) ابن العربى، تاريخ الزمان، ص ١٨ ، ابن أبي أصيبيعة، ص ١٨٩ - ١٩٠ ، ١٩٨ ، إلخ .
- Vizirat, p. 215-218 (١٩)
- M.ZAHNISER, Insights from the 'Uthmaniyya of al-Jahiz into the religious policy of (٢٠) al-Ma'mun, in Muslim World, 69, (1979) pp.8-17.
- (٢١) ابن أبي أصيبيعة، ص ١٩٠ .
- (٢٢) ابن أبي أصيبيعة، ص ١٩٥ .
- (٢٣) ابن أبي أصيبيعة، ص ٢٠١ - ٢٠٩ . يصفُ نظامي عروضي، ص ١٣٧ ، بختشوع

بالطبيب البارع، المخلص والرفيق» ويروي أنه فيها كان يعالج رجالاً من أقارب الخليفة استعصى داؤه، اعتمد على «سعد أمير المؤمنين» ليجرب دواء خطراً لشفاء الداء العضال.

(٢٤) ولو أنّ لربنون مكانة في الأدب السرياني، ولا سيما في تفسير الكتاب المقدس، انظر- NEST G. CLARKE, *The Selected Questions of Iso' bar Nun on the Pentateuch, Studia post-biblica*, V, Brill 1962; *The Rules of Iso'b. Nun*, in A. VÖÖBUS, *Syriac and Arabic Documents*, ETSE, 11, Stockholm, 1960, p. 189-204.

السرياني.

- (٢٥) صليباً، ص ٦٨ - ٦٩، ماري، ص ٧٦، ابن العربي، ج ٢، العمود ١٨٨، إيليا التصيبيني، الحاشية العربية ص ٧١ - ٧٢، ميخائيل السرياني، ج ٣، الملحق الرابع، ص ٥٢٤ - ٥٢٥، ولدى GISMONDI قراءة «الصياغ»(٢).
- (٢٦) ماري، ص ٧٥ - ٥٦، صليباً، ص ٦٩ - ٧٠، ابن العربي، ج ٢، العمود ١٩٠، إيليا التصيبيني، الحاشية العربية، ص ٧٢.
- (٢٧) الكامل، ج ٦، ص ٤١٨.

(٢٨) لم يكن يُعد «عالماً» بل كان يُعد «من غير فهم» مع أنه كان «حافظاً للأخبار اليعية» عن ظهر قلب.

- (٢٩) FARUK OMAR, *A General Sketch*, op. cit.
- (٣٠) ينبغي لنا مع ذلك أن نحلل فقرات القسم الرابع من تاريخ ديونيسيوس المزعم وتلك التي ينسبها ميخائيل السرياني إلى ديونيسيوس الأصيل. يبدو لي الأول أكثر تبسيطًا للأمور وأكثر تظاهراً بالتقوى مستشهدًا على مدى الصفحات بنبوءات قد تفسر (وقد لا تفسر) الأحداث التي يوردها. وببقى السؤال مطروحاً: كيف كان ديونيسيوس الأصيل مؤرخاً؟
- (٣١) ص ٧٤.
- (٣٢) ج ٣، ص ٧٥.
- (٣٣) ص ١٠ - ١١، ١٧.
- (٣٤) يدلّ لفظ «العرب» على أهل الشام والأمويين سابقًا، بينما يدلّ لفظ «الفرس» على العباسيين المرتبطين بخراسان.

- (٣٥) ص ١١٦.
- (٣٦) إنه كلام على شيء من الغموض، ولكنه ربما أوحى بوجوب معرفة كيف يكسب رضا السلطة وكيف يحتسب «الاستفزاز»، أي بعبارة أخرى عدم تحظى «عبة التسامح»؟
- (٣٧) كان هذا الرجل كريم الأصل: فالكلّ يعرف الوصيّة الرفيعة القيمة الأدبية والأخلاقية التي وصّاه بها أبوه طاهر عندما تقدّم عبدالله أمر الرقة ومصر وما إليهما. ولما أطلع المأمون على هذه الوصيّة أمر بنسخها وإرسالها إلى عمال الولايات جميعاً. انظر نصّها في مصادر شئ كالطبرى وابن خلدون، إلخ. وفي ابن الأزرق، ص ٦٨٨ - ٦٩٨.

مبشرة إلى شؤون النصارى، بيد أنَّ ابن الأزرق يوردها في فصل معاملة أهل الذمة، ص ٦٨٤ - ٦٩٨.

- (٣٨) الزركلي، ج ٤، ص ٢٢٦ - ٢٢٧ و ٢٢٧، par E. MARIN^{E.I.², I, p 54,}
- (٣٩) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٥٧ - ٥٨ عن أمر المأمون: «وتنصر [البطريك] الحق في ما يصلح من الأمور ولا يتتجاوز حد الإنصاف». ابن العربي، ج ١، العمود ٣٥٦ - ٣٥٨.
- وكان عبدالله يحيى ديونيسيوس حبًّا جمًا نلمسه في قول البطريك: «وقد لامني على ركوب البحر إليه وأنا في هذه السنة من الكبير وعلى هذا الشرف في الرتبة... قال: مَن حملك على القدوم إلى مصر؟ أما كان بوسعك أن تكتب لي لتعلمني بما تحب؟».
- (٤٠) ج ٣، ص ٦٠ - ٦٤، ابن العربي، ج ١، العمود ٣٦٠.
- (٤١) ابن العربي، ج ١، العمود ٣٦٦ - ٣٧٢.
- (٤٢) المسعودي، مروج، الفقرة ٣٤٥٣.
- (٤٣) أنظر المراجع في كتاب PUTMAN ص ١٤٤ - ١٤٥، آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج ١، ص ٩٠.
- (٤٤) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٦٥ - ٧٠.
- (٤٥) تجده ثانية مع المأمون بدمشق سنة ٨٣٠، ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٧٦.
- (٤٦) يذكر ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٦٧ (نقلًا عن ديونيسيوس) اسم قاضي القضاة يحيى بن أكثم. أما الطبرى، ج ٣، ص ١٤١٠ فيشير إلى أنَّ يحيى لم يقلد هذا اللقب إلا في خلافة المتوكل سنة ٢٣٧.
- (٤٧) ولا يدلُّ هذا أبدًا على صحة هذا العهد، فقد كانت عدّة عهود مزيفة من هذا النوع قيد التداول، كذلك الكتاب الذي يغنى بهود خبر من الجزية، الصفدي، الواقى، ج ١، ص ٤٤ - ٤٥، ابن الأبار، أعتاب، ص ٢٠٦.
- (٤٨) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٦٥ - ٦٧، ٧٣، ٧٦، ابن العربي، ج ١، العمود ٣٦٦.

(٤٩) أنظر مقالتي: Coptes et Syriaques, p. 321-322 avec réf.

(٥٠) ابن القسم، ص ٢١٨.

(٥١) عن هذا الرجل (ت ١٨٩ / ٨٠٥) انظر F. KRENKWO, Tarikh Baghdad.

(٥٢) ابن القسم، ص ٢١٨ - ٢١٩، انظر أيضًا غازي الواسطي، ص ٣٩٦.

(٥٣) ابن القسم، ص ٢١٩.

(٥٤) الشبيه، ص ٣٥١.

(٥٥) ربما جاز لنا أن نربط بسورة الغضب هذه «حالات الإسلام» التي لم يقتصر المأمون أنها كانت جدية حقًا، هذا إذا صدق الكلام الذي ينسبه إليه الكندي المزعوم في خطابة أهل حاشيته. فقد قال الخليفة، في ما روی: «والله إني لأعلم أنَّ فلانًا وفلانًا حتى عدد جملة من خواص

أصحابه ليظهرون الإسلام وهو أقرباء منه ويرأونني ، وأعلم أنّ باطنهم ليخالف ما يظہرون به وذلك أنّهم قوم دخلوا في الإسلام لا رغبة في ديننا هذه بل أرادوا القرب منا والتعزّز بسلطان دولتنا لا بصيرة لهم ولا رغبة في ما دخلوا فيه... وإنّي لأعلم أنّ فلاناً وفلاناً حتى عدّ جماعة من أصحابه كانوا نصارى فأسلموا كرهاً فيما هم ب المسلمين ولا نصارى». رسالة الهاشمي إلى الكندي ورسالة الهاشمي إلى الكندي، تحقيق ANTON TIEN لندن، ١٨٨٠، ص ٦٦.

(٥٦) غازي الواسطي، ص ٣٩٤ - ٣٩٥ وما يليها، يقدم تفاصيل كثيرة عن موقف المؤمن من القبط. ويستشهد بشاعر يقول:

لعن النصارى واليهود فكأنهم خرجوا أطباء وكثاباً لئن والبيتان سقيا الوزن والمعنى، ولا يصخان إلا إذا قرئا كما يلي: لعن النصارى واليهود كأنهم فتاهبوا الأرواح والأموالا	بلغو بنا من دهرنا الأمالا تناهبو الأرواح والأموالا بلغو بنا من دهرنا الأمالا فتاهبوا الأرواح والأموالا (المترجم)
---	---

(٥٧) رسوم دار الخلقة، ص ٤٣ - ٤٤.

(٥٨) حسب خطوطه لأحمد بن يحيى بن المرتضى (القرن الرابع عشر)، المثلية والأمل في شرح كتاب الملل والتخل. (انظر: 41-40 MIDEO, XI, p. ARNOLD, p. 86

(٥٩) النديم، فهرست، ج ١، ص ٣٣٨.

(٦٠) أنظر الآن سليم طه، التاريخ وكبار المؤرخين في الإسلام، سومر، ٣٢ (١٩٧٦) ص ٣٣٩ - ٣٩٠.

(٦١) ابن أبي أصيبيعة، ص ٢٨٠.

(٦٢) المصدر نفسه، ص ٢٨٢ - ٢٨٣. يذهب دنلوب، ص ١٤٢، إلى أنّ يحيى قد أسلم، مستندًا في قوله إلى أنّ يحيى كان مولى للمؤمن.

(٦٣) ابن أبي أصيبيعة، ص ٢٠١ - ٢٠٩.

(٦٤) أنظر ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج ١، ص ٣٠٩، ج ٢، ص ١٠٣، ج ٤، ص ٩٤... .

(٦٥) وهو أيضًا، على كونه شماساً، اتّخذ عدة جوار، فجرّ على نفسه تأنيب الجاثليق وملامة أخي زوجته الراهب الطبيب دانيال بن الطيفوري، ابن أبي أصيبيعة، ص ٢٤٨ - ٢٤٩. ويدرك أن إحداهن كانت رومية وتدعى قراطيس.

(٦٦) ستصادفه من جديد في خلافة المعتصم.

(٦٧) ابن أبي أصيبيعة، ص ٢٤١ - ٢٤٢.

(٦٨) ياقوت، إرشاد، ج ٥، ص ٤٥٣ - ٤٥٩.

D. SOURDEL, la deuxième partie du livre des Vizirs, p. 286; M. 'AWWAD, Lost (٦٩)

- استناداً إلى كتاب الإرشاد *Fragments of kitab al-Wuzara'*, Beyrouth 1964, p. 51-52.
- لياقوت، ج ٥، ص ٤٥٦ - ٤٥٧ .
- (٧٠) أنظر قول خالد بن صفوان في كتاب الأحكام لابن القيم، ص ٢١٨ :
- فقاتل بسيفك من تعذى طوره واجعل فتوحك سيوفك الأقباطا**
- (٧١) سعيد بن بطريق (المسمى أفيشيوس)، كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، في تحقيق لويس شيخو، ب. كارادوفو، حبيب الزيارات، ص ٥٩. وهو الذي جدد عمارة قبة كنيسة القيامة بالقدس، المصدر نفسه، ص ٥٥ .
- (٧٢) مع إشارة خاصة إلى وصيته، D. SOURDEL, *la politique religieuse du Calife al-Ma'mun* (٧٣)
- الطبرى، ج ٣، ص ١١٣٥ - ١١٣٨ .
- LAOUST, *Schismes*, p. 107-109; PUTMAN, p. 143 (٧٣)
- (٧٤) أنظر مقالة A.J. WENSINCK في E.I.¹, III, p. 549-551
- (٧٥) يشير الرهاري المجهول (ص ٢٠) إلى حدوث اضطرابات لدى موت المؤمن بنواحي دارا ونصيبين وأمد وماردين ورأس العين. وقد قُتل فيها بعض النصارى كما أنَّ فرقة من الجيش الذي أرسله الخليفة الجديد قضت على المتمردين بدارا.

٨ - المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧ - ٨٣٣ / ٨٤٢)

بعد خلافة المؤمن الحافلة بالأحداث الفكرية والدينية، سادت خلافة المعتصم^(١) أجواء مختلفة كل الاختلاف. كان من شأن السلم الذي فاز به الخليفة الجديد بعد انتصاره على العلوية والزط، وبعد المدنة التي عقدها مع توفيق ملك الروم أن يسهل استمرار الحركة الفكرية، ولكن ذلك لم يكن يعني الخليفة كثيراً. فمن وجهة النظر الدينية، استمرت الخلافة على مذهب الاعتزال، ولكن يبدو أن المحنـة قد خفت حدتها لأنَّ المعتصم لم يكن يولي المسائل الدينية مثل ما كان يوليها سلفه من الاهتمام، فضلاً عن قلة بضاعته منها.

كانت أعظم إنجازات هذا العهد نقل عاصمة الخلافة من بغداد إلى سامراء،^(٢) وسوف نرى من بعد بم كان ذلك يهم النصارى. من الوجهة السياسية كان هذا التدبير يعني تفضيل العنصر التركي^(٣) على العنصر العربي وقد عجل هذا في المدى البعيد، على انحطاط دولة بني العباس.

إستناداً إلى نص من الفهرست،^(٤) ذهب بعض المؤلفين^(٥) إلى أنَّ الفضل بن مروان، وزير المعتصم من سنة ٨٣٣/٢١٨ إلى سنة ٨٣٦/٢٢١، كان نصراً.^(٦) على أني أقترح أن يقرأ نص التدريم مع وضع بعض الفوائل كما يلي: «الفضل، بن مروان، بن ماسرجيس^(٧) النصراوي»، مع تعليق النعت الأخير باسم الجد. إذا صحت فرضيتي فربما كان مروان، والد الوزير هو الذي أسلم، وربما كان الفضل نفسه قد تلقى في صغره تعليماً نصراً.^(٨) أولئك؟ هذا ولا نعلم شيئاً عن علاقاته بالنصارى من حيث هو وزير.

أما رؤساء الكنيسة، فقد رأينا الشخصيات ذات النفوذ في أواخر العهد السابق: كان ديونيسيوس التلمحرى كالمخوط عليه في نظر الخليفة. في العام ٨٣٤ قصد بغداد يلتمس الدخول على الخليفة الجديد^(٩) للتسليم عليه، بيد أنَّ المؤرخ الذي يورد الخبر يسكت عن النتيجة السلبية لهذه المحاولة. ولا يعود هذا المؤرخ إلى ذلك إلَّا بعد بعض صفحات^(١٠) حيث يدع البطيريك يمحكي عن «لقائه الأول» بالمعتصم بسامراء سنة ٨٣٦، وينسب إليه قوله: «لقد استقبلني بسلام». عند المشارقة من السريان نجد سبريشوع وقد مات في السنة الثانية لخلافة المعتصم، أي سنة ٨٣٥.

VIII كان انتخاب إبراهيم الثاني أسقف حديثة الموصى، خلفاً للجاثليق، تدبيراً دبّره أعيان العلمانيين. فقد اختاره الطبيب الراهب سلمويه بن بنان،^(١١) تلميذ الكنديّ،^(١٢) وأخوه إبراهيم صاحب ختم الخليفة وبيت المال، ومعه أهل الحيرة وكسركر، بينما مال بخثيشوع الطبيب وأهل الأهواز إلى أبي مطران جنديسابور. وقد اختار آباء الكنيسة أبيا. وكان الجاثليق المتخب في طريقه إلى المدائن للسيامة إذ نبه سلمويه الخليفة قائلًا^(١٣): «لم يصونوا شرف وقوفي بحضرتك ولا حرمة خدمتي لك منذ شبابي حتَّى كبرى».

فكتب المعتصم إلى الطاهري صاحب بغداد يأمره أن يحول دون سيامة أبيا (فقيئه هذا بالأغلال) وأن يفرض إبراهيم «بأمر الملك»، فتمَّ ما أراد. إنقسمت الرعية مدة سنوات ثم مات أبيا وثبتت جثافة إبراهيم».

«كان إبراهيم طاهراً عفيفاً إلَّا أنه كان عاجزاً عن تدبير الكنيسة»،^(١٤) وخلَّ أصحابه وأقاربه ينهبون أموال الرعية^(١٥). وقد ظلَّ إبراهيم على كرسى مار ماري حوالي ثلث عشرة سنة، حتَّى عهد المُتوَكِّل، حيث سُنِّلقاه من جديد.

رأينا للتَّوْ توسط سلمويه المطلب لتزكية إبراهيم الجاثليق، ويجب أن يعَد سلمويه هذا في عداد الأطْبَاء الذين كان لهم أعظم سلطان على الخلفاء، والذين كانوا في موقع يمْكِّنهم من إعاقة أبناء ملتهم من النصارى. فقد كان الأمير، الذي اختاره منذ ٢١٨/٨٣٣، يسمّيه «أبي»، وكان يقرّبه إليه أكثر من مسروor الخادم.

وكان الخليفة يعلن على الملا أن طبيه كان أهم في نظره من قاضي القضاة، «لأنه يعتني بشخصي، وشخصي أكرم عندي من جاهي ومن ملكتي». ولما مات سلمويه بن بنان سنة ٢٢٦/٨٤١، شعر الخليفة الذي فُجع به بالضياع، ولم يطل به الوقت حتى وافته المنية بعد سنة.

لم يظهر النصارى إلا قليلاً في عهد المعتصم، باستثناء سلمويه المتطلب وزملائه يوسف بن صليباً وسليمان بن داود بن بابان ويوسف القصيري البصريّ وبولس بن حنون الذين ربما اختلفوا إلى مجلس الأمير التركي أبي دلف. وقد صادف المعتصم رهاناً وابتاع منهم سنة ٢٢١/٨٣٧ ديراً مع ضياعه في الموقع الذي بني فيه قصره بسامراء. ^(١٦)

في هذه الأثناء هدمت بعض الكنائس (السريانية الغربية في ما يبدو) صباح عيد الفصح من العام ٨٣٥، بحجّة أنها قد أُحرِّثت. ومن سوء التوفيق أنَّ ابن العربي الذي يورد الخبر، ^(١٧) لا يذكر أين كانت هذه الكنائس ولا الظروف المحيطة بالحادث.

وفي العام ٢٢٣/٨٣٨، سعى أحد أبناء المعتصم، المكتى بأبي داود والذي يُعدّ ميخائيل السرياني «عدو النصارى» ^(١٨) باستصدار «أمر من أبيه يحظر على النصارى أن يظهروا الصليبان خارج الكنائس، وأن يقرعوا النواقيس، وأن يجهروا بالصوت في الصلاة أو في الجنائز بالسبيل، وأن يظهروا الخمر بأية مدينة أو على الطرق. فصار الناس متذمّل طعمة للعِمال الذين كانوا يتشدّدون أو يترفقون في تنفيذ هذا الأمر حسبي يشاؤون أو بقدر ما يأخذون».

تعبر هذه الفقرة عن أهمّ أسباب الاحتكاك بين النصارى وال المسلمين وأقدمها: إنّها الأمور التي لا يستطيع أولي الأمر «التسامح فيها» إلا إذا تلقّهم أحد بهدية... وتظهر بقية النصّ النتائج المعتادة: هجر النصرانية إلى الإسلام، وعند هدوء الحال محاولات الارتداد إلى النصرانية. من ذلك أنَّ رجلاً من المسلمين راح يطارد المرتدين عن الإسلام ببلدة سروج، فتقبض «على نفر منهم فتحملوا التعذيب بشجاعة». ^(١٩) بيد أنَّ امرأة من قرية بشمان قاومت وأقنعت (كيف؟) قاضي الرقة

«فطلب هذا الرجل وقبض عليه وضربه وألقاه في السجن... فكان بذلك خلاص»
النصارى.

يلاحظ ديونيسيوس معزّياً نفسه أنه «بینما كانت الشؤون العامة، أي شؤون الملك على غير ما يرام، فإن كنيستنا كانت (في الداخل) تنعم بالاستقرار، لأن المؤمنين وسائر الناس كانوا مثقلين بهموم الخراج ومكوس العمال، في خضم تحارب الملوك وتصارعهم». ولا تخلو المصيبة من نفع، فعل الأقل «لم تكن ثمة اضطرابات أو خلافات بين رؤساء الكنيسة»، و«كان المؤمنون ينعمون بالاستقرار». وفي السنة ذاتها، لما حاصر الخليفة أنقرة وعمورية، اصطحب أيوب بطريرك أنطاكية للملكانية. فدعا أيوب المحاصرين، بإيعاز من الخليفة، إلى التسليم ودفع الجزية لتحقق دمائهم، فاستقبلوه بالشتائم ورشق الحجارة. فأخذت المديتان عنوة وأعمل فيها السيف والنار، وسيق الناجون سبايا.^(٢٠)

وفي العام ٨٣٨/٢٢٣ أيضاً، وبينما كان الخليفة عموريه دبر العباس بن المأمون وعجيف بن عنبسة مكيدة لقتل المعتصم غيلة. إلا أن طبيباً من النساطرة، لا نعرف اسمه، أذرر الخليفة.^(٢١) ولد أن تحرر ما بعد ذلك.

«معجزة جديدة»

ثم فصل أقل مأساوية، أنه وصول جرجة، ابن ملك التوبة إلى بغداد. ولكن المعتصم لما قيل له إن هذا الشاب الذي لم تتجاوز سنه الثالثة والعشرين كان دعياً، أزله في بعض قصور الخلافة ببغداد وأنظره من شباط إلى آب سنة ٨٣٦، لكي يتحرّى عن نسبة. فلما ثبتت منه استقبله بما يليق بملته.

فرح نصارى بغداد بهذه «المعجزة الجديدة» فرحاً عظيماً، ولا سيما اليعاقبة منهم، أهل ملة الأمير الضيف. والمعجزة أن الأمير كان يظهر كل ما كان النصارى يخفونه عادة: ففي قمة تاجه صليب ذهب وعلى رأس مظلته صليب آخر، كان يمسك صوّلجاناً بإحدى يديه ويمسك بالأخرى صليبياً. وقد سار عن يمينه وعن يساره فتيان نويون يحملون الصليبان بأيديهم وتقدّمه أسقف يركب فرساً (وهذا ما كان يحظر على النصارى) وفي يده صليب... وكانت هذه الصليبان كلّها من ذهب!^(٢٢)

والأكثر من ذلك أنه لما عرف الأمير بما طعن به على نسبه أحد رعاياه أمر بالذنب،^(٢٣) الذي كان أسلم، فقيد من دون أن يعقب ذلك أية ردة فعل. وهذا مما لم يكن لنصارى من بغداد أن يعقله قطّ.

أما ديونيسيوس البطريرك، فقد كان عليه ليلقى الأمير أن يتضرر حتى يفرغ الخليفة من استقباله، وأن ينتقل، بصحبة الأساقفة والأعيان، وفيهم سليمان^(٢٤) الطبيب، من بغداد إلى سامراء، تلك «المدينة الجديدة المبنية بين مهرين» (كذا). وقد وجد ديونيسيوس الشاب «أرشوزكسيًا مخلصاً» وقدم له القریان بيده. وقد تمت فرحة البطريرك لما تلقى (أخيرًا) من الخليفة عهد تنصيبه.

ويظهر أيضًا نصارى آخرون، سنة ٨٣٩/٢٢٤، إبان ثورة المازيار آخر الأمراء القاريين بطرستان.^(٢٥) وقد اشترك علي بن رين^(٢٦) اليهودي الكاتب وإبراهيم بن مهران^(٢٧) صاحب الشرطة في المفاوضات مع الخليفة الذي أسلم بين يديه علي بن رين في ظروف نجهلها.^(٢٨)

ونسبين أيضًا أحد كتاب المعتصم، لا وهو يحيى الجرمقاني، أبي السرياني^(٢٩) ولكن ليس بوسعنا أن نعرف الدور الذي قام به في علاقات جماعته بالسلطة.

هذه المعلومات المتفقة كلها لا تكفي لتكوين فكرة عن حال النصارى (وغيرهم من المواطنين) في عهد المعتصم. إن ما نسبه ميخائيل السرياني (نقلًا عن ديونيسيوس) إلى المعتصم من أنه «كان يفرض مكوسًا على كل شيء، وحتى على الموق»^(٣٠) ربما استحق أن يصنف في مجلة «الأحكام المتهورة» لو أن الراهن المجهول، الذي يتميز بالحيداد عادة،^(٣١) لم يكن هو أيضًا يقوس على هذا الخليفة: «كان أشد جشعًا من أسلافه... وكان يستعمل على الناس كل من زايد على غيره وضمن له شيئاً، وفي خلافته نزل بالناس حيف كثير على أيدي قضاة ظلمة وعمال جشعين».^(٣٢)

وقد كانت هذه الحال مناسبة لكي يختتم ديونيسيوس تاريخه بنغمة متباينة: «لقد تكاثرت المصائب التي جرّها طمع العمال على الناس في هذا العهد، وفاقت كل ما عرف منها في ما خلا من عهود ملك العرب: فكل واحد من العمال يأخذ

لنفسه ما كان يضيقه إلى المكوس، وكان يضيف ويزيد قدر ما يريد. وقد عينوا كتاباً مخصوصين لكلّ فئة ونصبّوهم بحيث كانوا يأكلون أموال المساكين ويفترسونهم بكلّ وجه»^(٣) وهو يضرب على ذلك أمثلة من الرقة ودمشق وقورس. وقد كانت هذه الحالة تكرّر كلما كان عامل الناحية بمنأى عن سلطة مركزية على قدر كاف من القوّة، ومن سوء التوفيق أن يتزايد تكرار هذه الحالة مع تقلص سلطة الخلافة وتناقضها.

الحواشي

- (١) الصفدي، ج ٥، ص ١٣٩ - ١٤١، رقم ٢١٥٠.
- (٢) العميد، سامراء، ص ٥١ - ٥٨، ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٨٨، يشگك في اختيار الموضع «الذى لم يكن على شيء من التزاهة ولا يمتاز بحسن الموقع ولا فيه من آلاء الله أثر» وهو يرى أن الخليفة «تحيره من أجل الصيد».
- (٣) AHMAD, *the Role of the Turks*, cit. الأتراك في المجتمع العباسي حتى نهاية عهد المأمون، ثم (ص ١٢٢ - ١٢٣) العنصر والترك، (ص ١٣٣ - ١٥٠) الترك في بغداد وسامراء. عن هذه المدينة «التي بنيت للترك»، انظر بخاصة ص ١٣٨ - ١٤٢.
- (٤) ج ١، ص ١٢٧ ، والمواثي III ٢، ص ٥٤.
- (٥) مثلاً، هدية العارفين، ج ١، ص ٨١٨.
- (٦) يرى سورديل في كتابه *Vizirat* ، ص ٢٤٧ ، الحاشية رقم ٢ ، أن الفضل نفسه قد أسلم.
- (٧) أصلح هنا، كما فعل التركلي أيضاً، ج ٥، ص ٣٥٨، فاجعل النقطة من تحت بدلاً من وضعها من فوق (فتقرأ ما سرخس) كما فعل صاحب الفهرست، ولا نستطيع أن نستنتج شيئاً عن انتهاء الملي من اسم بلدته الأم: سل (أو: سُل أو سيل) بناحية نهر بوق (وهو قناة بجنوب بغداد، ياقوت، معجم البلدان، ج ٥، ص ٣١٨). والاسم ماسجيس مختصر من مار سرجيس.
- (٨) ولد سنة ١٥٧ هـ، أي في نهاية عهد المنصور.
- (٩) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٨٥.
- (١٠) المصدر نفسه، ص ٩٠.
- (١١) ابن أبي أصبيعة، ص ١٧٨ ، ٢٣٤ - ٢٤٠.
- (١٢) الفهرست، ص ٢٦١.

- (١٣) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٩٤، الذي يسمى هذا الطيب سليمان (؟).
- (١٤) ابن العربي، العمود ١٩٠، ماري، ص ٧٧ - ٧٨، صليبا، ص ٧٠ - ٧١، إيليا التصيبيفي، الحاشية العربية ص ٧٢، ميخائيل السرياني، ج ٣، الملحق ٦ يقول: «نصب بأمر الخليفة».
- (١٥) نشير إلى أن أحد تلاميذه، المسماى خنخ، فر بصنادوق المال واعتنق الإسلام.
- (١٦) وهذا يذكرنا بالنصرة عندما ابْتَنى مدينة السلام. المُسْعُودِيُّ، مروج، الفقرة ٢٨٠٤، التنبيه، ص ٣٥٧، الطبرى، ج ٣، ص ١١٧٩، العميد، ص ٢٦، ٢٩، ٣٢، ٣٣، يذكر ابن أبي أصيبيعة دير بنى الصقر الذي صار حى إيتاخ (الإيتاخية) في خلافة المعتصم والواشق، ثم عرف بالحمدانية في خلافة المتوكل. ونجد لديه أيضا إشارة إلى كنيسة بالقادسية، أي بالقسم الجنوبي من سامراء، المصدر نفسه، ص ٢٣٦.
- (١٧) تاريخ الزمان، ص ٢٩. الكنايس لمار أحومنه ومار جرجس.
- (١٨) ج ٣، ص ٩٦ - ٩٧، ابن العربي، ج ١، العمود ٣٨٤.
- (١٩) ربما كانت هذه هي المناسبة التي أحرق فيها غنائم المرتد (المذكور في الطبرى، ج ٣، ص ٣٠٢) في العام ٢٢٥ / ٨٣٩ - ٨٤٠. وفي رسالة موجهة إلى الجاحظ كتب الفتح بن خاقان: «وقد قرأت رسالتك في بصيرة غنام ولو لا أن أزيد في مخالتك لعرفتك ما يعتريني عند قراءتها»، ياقوت، إرشاد، ج ٦، ص ٧٢. ويلخص الجاحظ هذه الرسالة في كتاب الحيوان (٩/١). أما نصها فتجده في مختارات من رسائل الجاحظ نسخة المتحف البريطاني ومنها نسخة في الخزانة التيمورية، على ما ذكر طه الحاجري في كتابه الجاحظ حياته وأثاره، ص ٣٦٢، الحاشية ٣.
- (٢٠) سعيد ابن بطريق، ص ٢٠، في C.S.C.O., ٥١.
- (٢١) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٤٠١، ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ٣٣، الطبرى، ج ٣، ص ١٢٥٦ وما يليها.
- (٢٢) ميخائيل السرياني، نقلأ عن ديونيسيوس، ج ٣، ص ٩٠، ٩٤، ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ١٧٤. يلمح ابن أبي أصيبيعة إلى ذلك، ص ٢٥٠.
- (٢٣) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٩٣، ابن العربي، ج ١، العمود ٣٨٤.
- (٢٤) ابن بابان أو ابن بنان؟
- (٢٥) أنظر مقالة ف. مينورسكي عن المازيار في المازيار في E.I.², III, p.498-499. عن النواحي الكلامية LAOUST, Schismes, p.96-97.
- (٢٦) الطبرى، ج ٣، ص ١٢٧٦، ١٢٧٧، ١٢٩٣.
- (٢٧) المصدر نفسه، ص ١٢٧٦، ١٢٨٩ - ١٢٨٨، ١٢٩٣. في العام ٨٦٥ / ٢٥١ استقرَّ بيَنَدَاد حيث لم يذهب الترك منزله، المصدر نفسه، ص ١٥٤٠.

(٢٨) يذكر الفهرست، ص ٣١٦، كتابه «في الآداب والأمثال على مذاهب الفرس والروم والعرب». أنظر أيضًا ابن أبي أصيبيعة، ص ٤١٤. وينذكره أيضًا ابن عبد ربه في العقد الفريد (طبعة القاهرة، ١٩٥٢) ج ٤، ص ١٧٢ - ١٧٣. ويسميه هذان المؤلفان الآخرين «الكاتب النصراني».

(٢٩) الطبرى، ج ٣، ص ١١٨٢.

(٣٠) ميخائيل السريانى، ج ٣، ص ١٠٤.

(٣١) ص ٢٥، وفي الصفحتين ٢٦ - ٢٧ أمثلة على تصرفات العمال. ربما كان الخلية نفسه لا يقرُّ هذه الأساليب، إذ يخبرنا عنه ابن الأزرق (ص ٤٥٠) خبرًا يدلُّ على رأفته: ففي بعض الأيام الماطرة أخرج من الطين، بالقرب من سامراء، حماراً لرجل مسكين وأعاد العمل الذي كان على ظهر الدابة غير مبال بتوسيع ملابسه. وقد شكر الرجل (الذي نال مع ذلك ٤٠٠ درهم) باللسان «النبيطي» الشاب الطيب الذي لم يفصح عن نفسه. (تصحيح الطبعة التونسية التي تحمل «قبطي» في موضع نبطي). فالعجز المسكين، وهو نصارى في أغلب الظن، كان يتكلَّم السريانية لا القبطية.

(٣٢) ج ٢، ص ٢٥.

(٣٣) سنة ٨٤٣، مذكور في ميخائيل السريانى، ج ٣، ص ١٠٤، وأيضًا ص ١١٠: «الفطائع والويلات النازلة بأبناء الكنيسة... ولم تزل الشرور تتکاثر علينا!». مات ديونيسيوس في

. ٢٢ آب سنة ٨٤٥.

٩ - الواقع (٢٢٧ - ٨٤٢ / ٢٣٢ - ٨٤٧)

كان ارتقاء أبي جعفر هارون الواقع بالله سدّة الخلافة مبعث آمال لدى رعيته من مسلمين ونصارى: «لما خلف أباه فرح الناس واستبشروا بأنه ربّما حفف عنهم أباء المكوس المرهقة التي ربّها أبوه عليهم. إلا أنه تهالك على الشرب والغناء والملاذ والمجون وترك الخلافة بين أيدي رجال ثلاثة.^(١) لذلك لم ير الناس الفرج مما كانوا فيه من شدائٍ أثقلت كواهلهم، بل ألقى على أعناق الناس عبء نير لا يُطاق من الضرائب الباهظة، تجبي منهم بلا حلم ولا رأفة. وقد راح العمال الذين أقامهم هارون هذا، الملقب بالواشق، على تدبير شؤون المملكة يعتسرون بالشعوب الخاضعة لحكمه أمّا عسف، مدة عهده. أمّا هو فلم يكن يبالي قطّ بما يجري، إذ كان مشتغلاً عن ذلك بالشرب واللهو والمجون ليه ونهاره».^(٢)

بينما كان الكتاب من المسلمين والنصارى يحبسون وتصادر أموالهم لتغذية الخزينة،^(٣) كانت تعقد في القصر مناظرات في علوم الطبيعة وما وراء الطبيعة يشارك فيها ابن بختيصور، يوحنا بن ماسويه^(٤) وميخائيل ابنه،^(٥) حنين بن إسحق وسلمويه.^(٦) وفي باب العقيدة استؤنفت المحنة ضد المسلمين من أهل السنة والجماعة الذين لم يقبلوا الاعتزال.^(٧) فقد كان الخليفة «يذهب في كثير من أموره مذاهب المؤمن، شغل نفسه بمحة الناس في الدين فأفسد قلوبهم وأوجدهم السبيل إلى الطعن عليه».^(٨)

حتى عندما كان الأمر يتعلق باقتداء الأسرى المسلمين من البيزنطيين، كانوا يسألون: «كلام الله مخلوق أم لا؟» فإن قالوا: «مخلوق» افتدوا وإن قالوا: «غير مخلوق» تركوا بين أيدي البيزنطيين.^(٩)

أدت هذه السياسة إلى ثورات شعبية^(١٠) محلية قام بها المسلمون، ولا سيما انتفاضة أحمد بن نصر الخزاعي، الذي قبض عليه وعذب.^(١١) وكان ذلك سنة ٨٤٥/٢٣١ - ٨٤٦.

وفي السنة نفسها، أي في ٦ آذار سنة ٨٤٥، يذكر أنَّ اثنين وأربعين «شهيدين» من بين الثلاثين ألف أسير الذين أخذوا من عمورية في العام ٨٣٨، قتلوا بسامراء «على الفرات» (كذا).^(١٢)

أُقصي بخيانة المطلب إلى جنديسابور بعدما سخط عليه الخليفة، ثم استدعي في مرض موت الأخير، إلا أنه وصل بعد فوات الأوان.

وقد قُبض على بعض النصارى وبخاصة الكتاب الذين كان الوزير بن الزيات يلاحقهم بدعواته، فالتحق النصارى والمسلمون معًا في الحبس وفيهم سليمان بن وهب وأحمد المدب وأحمد بن إسرائيل. وكان النصري أول من سمع في المنام صوتًا ينبيء بموت الخليفة. وقد تحققت النبوة، وأطلق الكتاب،^(١٣) ثم أسلم سليمان بن وهب بعد مدة.^(١٤)

مات الواثق سنة ٨٤٧/٢٣٢، عن عمر يناهز الثلاثين عاماً.^(١٥) وقد خصه ابن العربي بترجمة ختامية لا أثر فيها للمديح^(١٦) قال: «كان خلفاء العرب إلى هذا الحين لا يهمهم إلا إحراز النصر والظفر لكنهم بعد ذلك استسلموا للخلاعة وانهمكوا في السكر». ^(١٧)

وقد أثرت عن الواثق قصيدة ألمته إياها تصاوير قصر المختار بسامراء، وهي تصاوير تمثل «بيعة فيها الرهبان، وأحسنتها صورة شهار البيعة»^(١٨) ونرى هنا أنَّ الموضوعات النصرانية لم تزيّن حباب الخمر فحسب.

الحواشي

(١) الاثنين الأولان هما، من غير شك، ابن الزيات الوزير، وقاضي القضاة ابن أبي دؤاد، الصنفدي، ج ٧، ص ٢٨١ - ٢٨٥، رقم ٣٢٦٤. ربما كان الثالث إسحق بن إبراهيم، صاحب شرطة بغداد؟ p.254-268.

- (٢) مخائيل السرياني، ج ٣، ص ١١٣، الرهاوي المجهول، ج ٢، ص ٢٥ - ٢٨ .

(٣) أنظر تحت السنة ٢٢٩ / ٨٤٣ - ٨٤٤، الطبرى، ج ٣، ص ١٣٣١، الكامل، ج ٧، ص ١٠ وما بعد.

(٤) ابن أبي أصيوعة، ص ٢٤٦ - ٢٥٥ .

(٥) المصدر نفسه، ص ١٨٣ - ١٨٤ .

(٦) المسعودي، مروج، الفقرة ٢٨٥٧ . الصفدي، ج ١٥، ص ٣٠٧ - ٣٠٨، رقم ٤٣١، ابن أبي أصيوعة، ص ٢٣٤ - ٢٤٠ .

(٧) LAOUST, Schismes, p. 110-111

(٨) المسعودي، التنبىء، ص ٣٦١ . نحو هذا التاريخ (سنة ٢٣١ / ٩٤٥) مات واحد من كبار فقهاء المعتزلة هو إبراهيم بن سيار النظام (الصفدي)، ج ٦، ص ١٤ - ١٩ (رقم ١٩ / ٢٤٤٤) علو أهل السنة والجماعة، وأحد التوابع الذين لا يولد مثلهم إلا في الألف سنة كما قال عنه الباحث (مذكور في الزركلي)، ج ١، ص ٣٦ . أما ابن قتيبة (كتاب التأويل، ص ١٥) فيعده على العكس من ذلك «شاطراً من الشطار يغدو على سكر ويروح على سكر ويبيت على جرائزها ويدخل في الأدناس ويرتكب الفواحش والشائنات». الرجل يهمنا هنا لأنّه لم يتردد في وضع كتاب في «تفضيل الشليل على التوحيد» BROCKELMANN, GAL, S1, p 339 . إن هذه الحالة، على تطرفها لذات دلالة على ذلك العصر. أنظر أيضاً القصيدة المحسوبة بالكلمات «النصرانية» وأسماء القديسين التي ألهما حب مدرك بن محمد (أو بن علي) الشيباني (النصف الثاني من القرن الرابع للهجرة - العاشر للميلاد) لعمرو بن يوحنا أحد نزلاء دار الروم، التنوخي، نثار المحاضرة، ج ٤، ص ٢٦٥ - ٢٧٥ ، مع بعض المراجع. ثمة مراجع أخرى في كتاب كوركيس عواد: كتاب الديارات للشاشي، الطبعة الثانية، ص ٢٠٤ الحاشياتان ١ و ٣ . وقد كاد أبو نواس يصرّح بالارتداد إلى النصرانية ليستهوي غلاماً نصريائياً . BEN CHEICH, dans BEO, XVIII (1963-64), p.72.

(٩) ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ٣٦ - ٣٧ يعرض هذه الأمور معكوسة. ثمة عرض صحيح لها في ١١١ LAOUST, Schismes p. 111 مع إحالة إلى ابن كثير، البداية، ج ١٠، ص ٣٠٣ - ٣٠٧ .

(١٠) يرى كلود كاهن أنه «في الأمسكار الكبرى، حيث كان الحكم العباسي والتسيّع الأرستقراطي المعتمد يتدوان وكأنهما مرتبان، انتظمت صفوف المعارضة الشعبية تدرّجياً في صورة المذهب الخلبي، أي التمسّك بظاهر السمع في وجه الخذلانات العقائدية - La changeante portée so ciale, p21

(١١) الذهبي، دول الإسلام، ج ١، ص ١٠٠، يصفه « بشهيد السنة ». ابن كثير، البداية، ج ١، ص ٣٠٣ - ٣٠٨ .

- (١٢) الترجمة الفرنسيّة لـ *EVODIOS* مع مراجع في ADEL-THEODORE KHOURY, *Les théologiens Byzantins et l'Islam*, (Louvain- Paris 1969), p.163-179.
- (١٣) D. SOURDEL, *La deuxième partie du livre des vizirs*, p. 294-295; *Vizirat* p.262-268.
- (١٤) أنظر الشابلي، الحاشية رقم ٦٥ ص ٢، نشوار المحاضرة، ج ٨. وكان سليمان يعرف اللسان «النبيّ» ص ٦٦.
- (١٥) من بين الشعراء الذين مدحوه نذكر أبي ثام، المتوفى بالموصل سنة ٨٤٢/٢٢٨ - ٨٤٣ والذى يصفه لويس شيخو في عداد «شعراء النصرانية بعد الإسلام»، ص ٢٥٦ - ٢٦٠.
- والصحيح أنه ولد نصارياً، وكان أبوه تداوس خارجاً بدمشق. ولما أسلم أبو ثام سمي أبوه أوساً ولفق نسباً يرتفع إلى بني طيء، انظر ABDUL HAQ, Abu Tammam, his Life and Poetry, in *Islamic Culture*, XXVI, II (April 1952), p. 16.
- Historical Poems in the Diwan of Abu Tammam, *Ibid*, XIV (1940), p.17-29.
- (١٦) تاريخ الزمان، ص ٣٦ - ٣٧. وثمة نص مماثل عن المقدّر، المصدر نفسه ص ٥٥.
- (١٧) يروي ابن العربي عن الواقع أنه كان يبني شراء مغنية بمئة ألف دينار وتقليل مالكها ولاد مصر، فضلاً عن المال. وقد منه أصحاب خزانته لما لم يجدوا المال الكافي. ثم آل الأمر إلى شراء الجارية بعشرة آلاف دينار.
- (١٨) أبو الفرج الأصبهاني، أدب الغرباء، تحقيق صلاح الدين المجد، بيروت، ١٩٧٢، ص ٢٤ - ٢٥.

١٠ - المتكل (٢٣٢ - ٨٤٧ / ٢٤٧ - ٨٦١)

قلب أبو الفضل جعفر المتكل على الله سياسة أسلافه الدينية رأساً على عقب، فهجر الاعتزال ورفع المحنة.

إنَّ ما سُمِّيَ بِرَدَّ أهْلِ السَّنَّةِ قد حَصَلَ عَلَى مراحلٍ: فِي الْعَامِ ٨٤٨، وَضُعِتَ الخطوط العريضة لسياسة تعليمية مناهضة للبدع: ^(١) فِي الْعَامِ ٨٥٠، أَمْرٌ بِتَهْدِيمِ مشهد الحسين بكربلاء، ^(٢) فِي الْعَامِ ٨٥٢ عِنْ قاضٍ قضاةً مِنْ أَهْلِ السَّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فِي الْعَامِ نَفْسَهُ أُعِيدُ جَسْدُ أَحْمَدَ بْنَ نَصْرِ الْخَزَاعِيِّ الْمُشَوَّهِ إِلَى أَقْارِبِهِ، أَخِيرًا كَتُبَ إِلَى عِمَالِ النَّوَاحِي بِاتِّبَاعِ الْقُرْآنِ وَالسَّنَّةِ فَحُسِبَ ^(٣) وَبِحِبسِ كُلَّ مَنْ جَلَسَ لِدُرُسِ الْكَلَامِ أَوْ تَدْرِيسِهِ. وَيَنْدَهِبُ الْمَسْعُودِيُّ الَّذِي رَاقَهُ أَنَّ الْمَتَوَكِّلَ «أَمْرٌ بِالتَّقْلِيدِ وَأَظْهَرُ الرِّوَايَةِ لِلْحَدِيثِ» إِلَى حد اعتبار خلافته «أَحْسَنُ أَيَّامَ وَأَنْضَرَهَا، مِنْ اسْتِقَامَةِ الْمَلَكِ وَشَمْلِ النَّاسِ بِالْأَمْنِ وَالْعَدْلِ». ^(٤) وَلَكِنَّ هَذَا الْوَصْفُ لَا يَخْلُو مِنْ مَسْحةٍ خِيَالِيَّةٍ، فَالْمَسْعُودِيُّ يَجِدُ نَفْسَهُ مُضطَرِّعاً إِلَى تَقيِيدِ حِمَاسَتِهِ إِذْ يَكْتُبُ: «وَضُعِتْ لَهُ الدُّنْيَا فَنَالَ مِنْهَا أَعْظَمُ الْحَظَّ عَلَى إِثْرَاهِ الْمُزْلَ وَالْمُضَاحِكِ وَالْأُمُورِ الَّتِي تَشِينُ الْمُلُوكِ» وَلَئِنْ تَسَاهَلَ الْمُؤْرِخُونَ الْمُحَدِّثُونَ وَقَالُوا «حِيَاتُهُ الْخَاصَّةُ لَا تَعْنِينَا» فَلِيُسْبِّحُو بِوَسْعِهِمْ إِلَّا أَنْ يَلَاحِظُوا أَنَّهُ كَانَ «فَطَّا مَسْرَفاً مُتَقْلِبَ الْمَزَاجِ». ^(٥) وَمِنْ أَكْثَرِ مَا يَلْفَتُ اِنتِباهَنَا لِدِي قِرَاءَةِ الطَّبَرِيِّ قَوْلُهُ تَكَرَّاراً: «وَغَضَبَ عَلَى... وَغَضَبَ عَلَى...». ^(٦)

غالباً ما كان نديماً وحاشيته ضحايا نزواته. وإنَّ هذه السمة من سمات طبعه لتفسر، فضلاً عن تسنته الصارم (مبديئاً)، موقفه من النصارى. فموقفه هذا لا يصدر عن سياسة مدروسة وثابتة بقدر ما يصدر عن قرارات ودوادة أو لدوادة حسب

مزاج اللحظة الحاضرة أو تأثره بفلان أو فلان. من ذلك أن تقلباته في شأن ولاية عهده، وفضيلته أحد أبنائه تارة وفضيلته غيره تارة أخرى،^(٧) جرّت العدواة في ما بينهم وأدت في النهاية إلى قتله.

من المحال أن يجد المرء حبكة متواصلة الخيوط في خضم الأحداث التي عرفها عهد دام أكثر من خمس عشرة سنة كانت الاعتقالات والصادرات من أهم معالمها. فقد «أهلك العلماء والكتاب في زمانه، على قول صليبا،^(٨) وحطّ مراتبهم وعادى العلم وأهله فانتقضت العلوم في أيامه، وقتل كثيراً من الكتاب واستصنف أموالهم وهدم منازلهم»، حتى صارت المصادر في هذا العهد سبيلاً ملوفاً للحصول على المال كلما اشت肯ى بيت المال من القلة.^(٩)

ومن النصارى الذين ابتلوا بالمصادرة (وقد كان رهط من المسلمين عرضة لها أيضاً) نجد سليمان بن إبراهيم الجنيد^(١٠) الكاتب، أخي أيوب كاتب مسرور الخادم. فقد قبض على سليمان سنة ٢٣٣/٨٤٧ - ٢٣٤/٨٤٨، وضرب حتى أقرّ بسبعين ألف دينار، فسيق إلى بغداد ليخرج المبلغ من داره ثم أعيد إلى سامراء وحبس. في السنة عينها، غضب الخليفة على نفر من موالي والد الوزير، وفيهم الهيثم بن خالد.^(١١) وفي العام ٢٣٥/٨٤٩، جاء دور أصحاب إيتاخ القائد التركي^(١٢) في الحبس، وذلك من بعدما أُعدم سيدهم، ومن بينهم قدامة بن زيد «النصراني البغدادي» كاتب ضياعه.^(١٣) ويجب أن نتبّه هنا، مرة أخرى، إلى أنّ نصارى ذلك الزمان لم يعذّروا قدامة هذا شهيداً. ففي العام ٨٥٠ كتب المفسّر إيسوع داد المرزوقي، أسف الحديث، تفسيره لأية من الإنجيل تتبنّاً بالاضطهادات، فلم يجد حتى أيامه أنّ النبوة قد صحت إلّا في اضطهاد قديم اجتبلته على النصارى فعال بدعة متطرفة.^(١٤)

إجراءات تمييزية

ومع ذلك فقد أمر الموكّل بتنفيذ إجراءات تمييزية تستهدف الذميين بالذات من بين يهود ونصارى، وذلك في شوال ٢٣٥/١٨ نيسان - ١٦ أيار ٨٥٠. إلا أنّ المؤرّخين الذين يصفون هذه الإجراءات بإسهاب أو بإيجاز،^(١٥) لا يوضحون

الظروف التي دعت الخليفة إلى هذا الأمر. النص نفسه لا يرشدنا إلى شيء، ولذلك نجدنا مضطرين إلى الاستعانة بابن القيم، الذي يعدّ متأخراً والذي ليس لديه إلا تفسير دائم واحد: لقد تكاثر الديمّون في الدواوين وزادوا على الحدّ، حتى أزاحوا المسلمين وحلّوا محلّهم في خدمة شجاع، والدة الخليفة، وفي بطانة أهله وأقاربه. ويسمى ابن القيم منهم سلمة^(١٦) بن سعيد الذي كان «[المتوكل] يأنس به وبمحاضره»^(١٧) والذي افترى على قوم من المسلمين، فيما قيل ليهلكهم.

أما ما احتاج به بين يدي الخليفة، على قول ابن القيم، فهو أنه يجب على المسلمين ألا يتّخذوا من المشركين أولياء لهم، بل يجب عليهم، على الصدّ من ذلك، أن يعاملوهم معاملة الأعداء وألا يستعينوا بهم في تدبير أمورهم لأن «[الله] جعل في المؤمنين... ما أغنى عن الاستعana بالمرتكبين».

كان تكبير الكتاب النصاري، في ما يبدو، هو الذي دفع المسلمين مرة أخرى إلى الثورة عليهم. أما الذين كانوا يشتكون فهم كتاب آخر من المسلمين كانوا يشعرون أن النصاري يطمعون في إزاحتهم من أماكنهم، وهم أيضاً ناس من الشعب مظلومون كذلك الرجل الذي كان يلعن الخليفة في الطواف بالكتبة، والذي تحرّأ على أن يقول له عن الكتاب النصاري: «خفتهم ولم تحف الله»، وكان المتوكّل قد جعل في موكيه من يأخذ المتظاهرين ويخضرهم بين يديه على خلوة».

ولئن لم تكن الدواوين قادرة آنذاك على الاستغاء عن خدمات النصاري جميعهم، في مستقبل قريب، فقد كان المسلمين يعلمون بذلك منذ ما قبل ذلك بكثير، وقد كان من شأن إباء أهل السنة والجماعة الذي استجاشته مناومة الخليفة لأهل الكلام، أن يعزّز المحرص على إدارة المسلمين أمورهم بأنفسهم والتخلّص من الظلمة المكرهين.

يرى كاتب معاصر^(١٨) في انصياع الخليفة لضغط المسلمين والثّاذه هذه الإجراءات التميّزية ضد النصاري «نتيجة [سياسة] التخلّص السياسي». فهو يكتب (ما ترجمته): «كان [العباسيون] مستعدّين لأن يستعينوا بآية جهة ليزيلوا شعبيّتهم. كان المتوكّل يحتاج إلى مساندة الشعب وعلماء أهل السنة. ولذلك كان

عليه أن يعيد الاعتبار إلى بعض التدابير التمييزية ضد الذميين مما عفا عليه الزمن، وهي تدابير ستها أسلافه من الخلفاء حسبما كان يملئه نوع من الانتهازية لا أصل له في القرآن الكريم ولا في مبادئ الإسلام الأخلاقية».

أيًّا كان نصيبُ أواخر هذه الجملة من الصحة، هل يصح القول إنَّ المُتوكِّل لم يكن يفعل سوى نبش بعض التنظيمات السابقة التي طواها النسيان؟

«الشروط العمرية»

هنا يجب أن يعاد طرح مسألة ما سُمِّي «بالشروط العمرية» ودرسها ثانية. نحن نعلم أنَّ النقد التاريخي الذي أبطل نسبة القيود المفروضة على النصارى إلى الخليفة العظيم عمر بن الخطاب^(١٩) ليس بها إلى عمر بن عبد العزيز، قد خطأ الأن خطوة ثانية وصار يُعد «الشروط» وثيقة مزيفة ترقى إلى القرن الرابع للهجرة. وقد لا نجد لها للمرة الأولى، وفي صيغة أقل تفصيلاً، إلا لدى ابن حزم الأندلسي.^(٢٠) أليس من الممكن أن يكون النص قد خرج من بعض أروقة عصر المُتوكِّل، إن لم نقل بإيعاز منه؟ سترى عن قليل كيف اهتم الخليفة (نفسه أو الفتح بن خاقان؟) بكتاب الجاحظ على النصارى . . .

لما كانت هذه «الشروط العمرية» مهمة، ولم تصر إصالتها موضع شك إلَّا حديثاً (وكذلك، وبطريقة معكوسه، إصالحة العهود التي من بها الخلفاء الراشدون، أو حتى النبي نفسه، على النصارى)، ولما كان هذا النص أصلاً لكل الإجراءات اللاحقة ضد النصارى فلتتحققه عن كثب.

صنفت^(٢١) الشروط^(٢٢) على اختلاف الروايات، فتثنين، في كل فئة ستة شروط. الستة الأولى تعد مستحقة لموافقتها روح الشريعة الإسلامية، وتهدف إلى حماية الإسلام ويؤدي انتهاكها إلى نقض عهد الحماية المعقود للنصارى.^(٢٣) هذه الشروط «المعطلة» هي: الطعن على القرآن أو النبي، فتنية المسلم عن دينه أو التعرض له في شخصه أو في ماله، إصابة امرأة مسلمة على سبيل النكاح أو الزنى،^(٢٤) معاونة أعداء الإسلام.

الشروط الستة الأخرى «مستحبة» ولئن لم تنسب إلى عمر بن الخطاب فلأيتها معترف بتأخرها وبصدورها عن الفقهاء، كما أن خرقها لا يبطل العهد.

وهي^(٢٥) مع بعض الفروق في التفاصيل:

- الشروط المتعلقة بتغيير أزيائهم بلبس الغيار وشد الزنار.^(٢٦)
- حظر دق الناقيس^(٢٧) أو الجهر بالتراتيل.
- عدم تجاوز مباني المسلمين في العلو.^(٢٨)
- إخفاء الخمر والخنزير... الصلبان عن الأنظار.
- التستر في الجنائز وعدم الجهر بالندب والنياحة.
- حظر ركوب الخيل، وبياح لهم ركوب الحمير والبغال فحسب^(٢٩) ويجب أن تكون الركاب من خشب وأن تُتَّخذ البرادع بدلاً من السروج.

وفي وسعنا أن نضيف إلى الشروط المتعلقة بالعلامات المميرة عن المسلمين، حظر التسمي بأسماء المسلمين أو التكفي بكناهم أو التلقب بألقابهم.^(٣٠)

ولكن أيّاً يكن الأمر بالنسبة إلى أصل «الشروط العمرية»، فلا شك في أنها كانت شديدة الوطأة على النصارى، ودفعت بالعديد منهم إلى اعتناق الإسلام. ربما كان علينا، من وجهة نظر المؤرخ الحديث، أن ننسبها إلى نفسية ذلك العصر، وأن نقارنها مثلاً بالقيود التي فرضها أوروبا النصرانية على اليهود في القرون الوسطى، بما فيها قيود الباباوات عليهم في «الغيبتو» ببروما، قبل أن نقدم على إدانتها.

IX الحائيليق تاذاسيس (٨٥٣ - ٨٥٨)

ولكن، لنعد إلى حبكة التاريخ. في التاسع من تشرين الثاني سنة ٨٥٠، مات الحائيليق إبراهيم الثاني عن جثلقة دامت ثلاثة عشر عاماً، أثر عنه فيها أنه كان «عacula قليل العلم متواضعاً»، وكان مع ذلك «كثير الرحمة» للمستعفين. وفي أيامه عانى النصارى شدائد عظيمة، على قول ابن العربي، فقد أدت إجراءات

المتوكل إلى تهديم خمس كنائس بالبصرة أيضاً. كما أنَّ بعض المقابر قد «سوَتْ بالأَرْضِ لِكَيْ لَا تَعْلُو قُبُورُ النَّصَارَى عَلَى قُبُورِ الْمُسْلِمِينَ».

لم يكن انتخاب خلف لإبراهيم أمراً يسيراً. فهذه المرأة أيضاً، قام العلمانيون النصارى بدور حاسم. أُجريت دورتان أوليتان بتدبير من أطباء الخليفة: بختيشوع صاحب الحظوة الكبرى، يوحنا بن ماسويه، الذي صادفناه من قبل، وطبيب ثالث هو ابن الطيفوري. كان هذا الثالث، واسمه إسرائيل بن ذكريّا، طبيب الفتح بن خاقان.^(٣١) وكان سليل أطباء من كسرى،^(٣٢) صادفنا منهم رئيسهم عبد الله بن الطيفوري^(٣٣) أيام الهادي.

ولكن لما مات الاثنان اللذان زَكَاهُما الأطباء، الواحد تلو الآخر قبل السيامة، قدم الكتاب مرشحهم في الدورة الثالثة. هنا تدخل إبراهيم بن نوح الأنباري وعثمان بن سعيد. لا نعرف عن عثمان هذا إلا أنه كان صاحب بيت المال^(٣٤) على ما يقوله عنه ماري. أمّا إبراهيم حفيد أبي نوح رفيق طيماً وأوس وصديقه، فالمعروف أنه كان كاتب إبراهيم بن المهدي.^(٣٥) وقد مات مرشحهما أيضاً.

في الدورة الرابعة توافق الأعيان على القبول بما يراه إبراهيم بن نوح. إلا أن رأيه لم يعجب بختيشوع الذي كان له مرشح آخر. فتنافس الكاتب والطبيب في السعي لدى الخليفة ليرجح كلّ منها كفة صاحبه: فغلب بختيشوع وانتخب صاحبه تذاسيس،^(٣٦) مطران جنديسابور، مدينة آل بختيشوع. وقد وافق الخليفة على انتخابه «وَسَرَ النَّصَارَى بِانْعَطَافِ الْمَوْكِلِ» (كذا!).

ما كاد تذاسيس يسام جائلاً في السنة الخامسة لخلافة المتوكل حتى انبرى معارضوه، إبراهيم بن نوح وأصحابه، يشهرون به لدى الخليفة ويتهمنون بختيشوع بالغش في صفتة. ولم يزل المفترون يفتئتون في الكيد حتى توصلوا إلى حبس الجائليق بعد شهر من سيامته (سنة ٨٥٣) ولم يكتفوا بذلك حتى جرّوا سخط الخليفة على بختيشوع.

وداعاً يا بختيشوع

قبل أن نشهد أفال نجم من أكابر النصارى الذين نعموا بحظوظ الخلفاء،

للتلقي نظرة أخيرة على سليل هذه الأسرة الشهيرة، على بختيشوع بن جبرائيل بن بختيشوع بن جرجس بن بختيشوع العيلامي، الذي تذكرنا أسماء آبائه بعهود الأئمة الباذخة. وقد عمر بختيشوع نفسه، منذ عودته إلى خدمة المتكفل، بالخلع التي خلعها عليه الخليفة، وبالجاه وكثرة الأموال والضياع والعبيد والإماء حتى صار «يعادله». (٣٧) كان يجالس الخليفة على سدة الملك. وقد كان قريباً منه في بعض الأيام «وكان عليه دراعة دياج رومي وقد اتفق ذيلها قليلاً فجعل المتكفل يحادث بختيشوع ويعبث بذلك الفتى حتى بلغ إلى حد النفاق. ودار بينهما كلام اقتضى أن سأله المتكفل بختيشوع: «إذا تعلم أن المنشوش يحتاج إلى الشد والقيادة؟» لم يتزدد بختيشوع في الجواب: «إذا بلغ فتى دراعة طبيبه إلى حد النفاق شددهناه». فضحك المتكفل لما في رد طبيبه من سرعة البديهة، وأمر بأن يحمل إليه ثوب أجل قدراً. (٣٨) ولما كان بختيشوع في ذروة الجاه كان ينتقل من داره إلى قصر الخلافة بعرفة من خشب الأبنوس وكان في خدمته ما يقارب الألف شخص.

كان ينغمس في المجون من مغرب الشمس حتى منتصف الليل، على زعم ابن العبري، الذي يقوس على النساطرة عادة لكونه من اليعاقبة. وكان، في ما قيل، يعذ نفسه فوق قوانين الكنيسة، والأخذ لنفسه امرأتين ولدت له إحداهما جبرائيل والأخرى يوحنا الذي صار مطران الموصل في ما بعد.

ولكن طيبينا كان ينهض عند منتصف الليل فيصلي ومن حوله الخصيان السود. وبعد الصلاة كان يجلس على سريره ويقرأ الإنجيل حتى الفجر. وكان ينفق كل ليلة خمس مئة دينار، في ما روي، ثمن شموع وزيت وطيويب. وفي الصباح كان يركب دابته أو يرتقي عربته ويدهب إلى خدمة المتكفل.

هل كانت نكبة عقوبة من الله على سوء مسلكه، كما يظن ابن العبري؟ أم على مكره في قضية اختيار الجاثليق كما يرى ماري؟ أم أنه لم يقتصر على الكيد للموالي و«الأحرار» بل تعدى ذلك إلى المؤامرة على الأمراء و«السادة الأقمار» كما جاء في رجز لأعرابي يذكره الطبرى؟ على أيّة حال «غضب» الخليفة مرة أخرى، وعلى بختيشوع هذه المرة. ربما كانت المناسبة وليمة أولها الطبيب لل الخليفة وأثارت غيرته

جلالاتها؟ فقد كان يختishow «أمر طباخيه بأن يعمروا خسنه آلاف جونة، في كل جونة باب خبز سميد، دست رفاق وزن الجميع عشرون رطلاً، وحمل مشوى وجدي بارد، وفائقة وجاجتان مصدرتان، وفرحان ومصوّصان، وثلاثة ألوان، وجام حلواه». (٣٩) هذا عدا عن العطور والرياحين وشيء كثير من الثلج المجلوب لتبريد المشروبات، لأن الوقت كان صائفاً.

أخذ منه كل شيء بجريرة سخط الخليفة. (٤٠) حتى الخشب والفحمر والخمر التي كانت بداره اشتراها رجل من الأعيان اسمه حسين بن مقلد بستة آلاف دينار، ثم باعها باثني عشر ألفاً، كما عاد بيع ضياعه التي صودرت بعشرة ملايين درهم (٤١) على بيت المال.

ولما افتقر بختيشوع هام على وجهه بالبلاد، حتى مات سنة ٢٥٦ / ٨٧٠ (٤٢) متفياً بالبحرين، وخلف ولدين وثلاث بنات.

إضطهاد جديد (٢٣٩ / ٨٥٣)

وقد أمر المتوكل، في فورة غضبه على طبيه، بحبس تاذسيس الجاثليق، وإيادة تطبيق أحكام العام ٢٣٥ / ٨٥٠. (٤٣) كما أمر بتهديم دير يزدفنه بسامراء (٤٤) وأقطعه محمدًا بن جليل صاحب الشرطة ليبني به دوراً للسكن. ناشت عظام إبراهيم الثاني الجاثليق (ت ٨٥٠) وطرحت في النهر الذي صار يرى عليه مدة شيء كالسراج، في ما يروى. وطرد القساوسة والشمامسة من سامراء لكي لا يقوموا على دفن النصارى أو يصلوا بهم، ولا يعلنو اسم الجاثليق في سفر الأحياء. وقد هدمت أيضًا بضعة كنائس وأديرة، منها دير مار قرياقوس الذي كان يحتفظ فيه بعيد الشعانيين، وكذلك هيكل مار يونان الأنباري (ربما بسامراء؟ أو ربما كان من بناء آل الأنباري؟)

وطبقت التدابير التمييزية ثانية: مخالفة زيء الثياب ولا سيما الزنان وحظر ركوب الفرس. وحرّم على النصارى أن يخرجوا إلى الأسواق يوم الجمعة، كما حرم على أولادهم أن يدرسوا في كتاتيب المسلمين. (٤٥) وروعى أن لا تكون لدورهم

نواخذ على مسجد للمسلمين وفرض عليهم أن يسمّروا على أبوابهم صورة شيطان من خشب، إلخ. (٤٦) وعلى هذا يعلق ماري بقوله: «وتفتحت على النصارى المحن من كل وجه تأدبياً من الله وتمكّن الحساد منهم بتغيير النية في بختيشوع». (٤٧)

ولعل فترة الاضطهاد هذه شهدت خروج أكبر عدد من النصارى من دينهم ودخولهم في الإسلام. إلى تلك الفترة يعود إسلام نفر من الكتاب الساطرة الذين ترقى بعضهم إلى رتبة الوزارة ومنهم عيسى بن فروخان شاه، أحمد بن إسرائيل الأنباري، وأخرين من بني مخلد الدورقاني. (٤٨)

الهجوم النفسي

لم يكن يكفي المتوكّل أن يتملّق العلماء بالحطّ من موضع النصارى، بل كان لا بد له، لإنجاح (٤٩) الحملة المؤيدة لأهل السنة والجماعة، من أن يحارب ميل العامة إلى النصارى وتعاطفها معهم. فقد «صارت النصارى أحب إلى العوام من المجروس وأسلم صدوراً عندهم من اليهود وأقرب مودة وأقل غائلة وأصغر كفراً وأهون عذاباً». وكانت العامة تعاني من شعور بالتفصّل إزاء النصارى، فهي تنسب إلى البيزنطيين العلوم والعقريّة كلها التي وجدتها العلماء والحكماء في ما نقل من كتب اليونان، وال العامة تستعظام مناصب النصارى، وتقرّ بثرائهم العريض. يصدر هذا التحليل الوجيه، على ما فيه من تهكم، عن كاتب جامع وناشر لامع هو الجاحظ الذي يعدّه شارل بلا الموجّه الخفي لسياسة المتوكّل، (٥٠) أو على الأقل مستشاره غير الرسمي «المكلّف بإعلان القرارات الحكومية ونشرها، وتعزيز الأفكار الدينية المستحسنة في فترة مخصوصة، والدفاع عن آل العباس والإسلام والعرب». (٥١)

وفي وسعنا أن نلاحظ أنّ الجاحظ لم يخدم الدعاية الرسمية إلاّ متى لم يكن فيها مذهب في الاعتزاز عرضة للنقد. (٥٢) وربما حقّ لنا أن نذهب إلى أبعد من هذا لنتساءل: ألم يحتلّ الجاحظ على حاته الذين كانوا يدّونه بالمال لقاء الدعوة لهم؟ هل كان هذا العقل المستثير المولع بالفنون، الأميل إلى التكبير منه إلى التعصّب «من أكذب الأمة» كما اتهمه ابن قتيبة؟ (٥٣) فمن علائم «ازدواجيته» أنّ هذا الكاتب

الواسع الأفق تحول فجأة إلى داعية للمذهب الشافعي ليخطب وَ المُوَكِّل الذي كان أول من اعتمدته.^(٤٤) وربما كان قد تعمّد المبالغة في التعبير في رسالة «الرَّد على النصارى». فقد أخذ عليه ابن قتيبة أنه «يعمل كتاباً يذكر فيه حجج النصارى على المسلمين فإذا صار إلى الرَّد عليهم تجوز في الحجَّة كأنَّه إنما أراد تنبئهم على ما لا يعرفون وتشكيك الضعفة من المسلمين».^(٤٥)

وهكذا يتبيَّن لنا أنَّ أعمال الجاحظ تحتاج إلى إعادة قراءة من هذه الزاوية، وكذلك التمييز بين ما هو أصيل منها في نسبته إلى أبي عثمان وبين ما هو منحول. وهنا لا بدَّ من ملازمة جانب الحيطة القصوى في استنتاج النتائج والالتفات إلى تنبئه شارل بِلَّا:^(٤٦) «إنَّ الميل إلى اعتبار الجاحظ العبَّانَا مقتدرًا على الدفاع عن القضية وضدَّها بالبراعة والحمىَّة نفسيهما يقود نقاد الأدب ومؤرخيه إلى سوء تقويم مقدراته، وإلى القبول ببعض العناوين المتناقضة من دون فحص ولا تمحيق». فمن ذلك أنَّه تنسب إلى الجاحظ رسالة في ذمِّ أخلاق الكتاب وأخرى في مدح الكتاب. والحق أنَّ شارل بِلَّا قد يَبْيَن، في هذه الحالة المخصوصة، أنَّ النصَّ الأوَّل ليس إلَّا «تلفيقاً جزئياً» وتوليفاً متَّخِّراً عن الجاحظ. أمَّا الثاني فيعتقد أنَّه مفقود.

تبُدو رسالتُ الرَّد على النصارى وكأنَّها تهدف إلى تغيير صورتهم في أذهان العامة، مع أنها، بعد التأمل، أقرب إلى أن تكون هجوماً مضاداً منها إلى أن تكون تفنيداً. فهي تميِّز عن سائر الكتب السجالية التي وضعها المسلمون في أنها لا تستهدف النصرانية وعقائدها، بل تستهدف النصارى أنفسهم بطريقة أصيلة، وذلك في سعيها إلى أسقاط المَهَلَّة الأسطوريَّة^(٤٧) التي تحيط بهم، وإبطال المعقول المحلل لهؤلاء النصارى، من فلاسفة وأطباء وكتاب وفلكلَّيين، من أوصلوا كتب البدع الخطرة إلى الأغنياء والظرفاء والمجان الذين لو لا ذلك «لما عرفوا غير كتاب الله تعالى وسنة نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».^(٤٨) ولئن كان بوسَع المرء أن يشتم في هذه الجملة نفحة من لهجة المنافقين، فإنَّها مع ذلك تعبر بوضوح عن مشاعر ردة الفعل السنيَّة عند المُوَكِّل، تلك الرَّدَّة التي تشَدَّد على الجانب السليبي للترجمات، أي على ما جلبته من عناصر غريبة عَزَّزَت تيارات الشعوبية والزنقة.

لم يكتف الجاحظ بالرَّد على النصارى في مساندته لجهود الخليفة. فهو في كتاب

البخلاء^(٥٩) يهاجم الأطباء النصارى بالسخرية، متهمًا على الطبيب المسلم المغلوب على أمره أسد بن جانى الذى لا يجد القبول من الناس، لأنّه مسلم، لأنّ اسمه أسد لا صليباً أو جبرائيل أو بيرا، ولأنّه يكتفى بأبي الحارث لا بأبي عيسى أو بأبي إبراهيم، لأنّ لهجته عربية لا كلهجة أهل جندىسابور.

أما الكتاب فإن الجاحظ (أو بالأحرى، أحد المصنفين التأثرين، قبل ٨٦٩،^{٦٠}) لا يميز بين المسلمين والنصارى (فكُلَّ الذين يذكُرُهم تقرِيبًا مسلمون)، وهو يلزم إجمالاً أصحاب مهنة يعدها غير لائقة: «فإن [الخط] لو كان حطًا ما حرمَه رسول الله صلى الله عليه وسلم». إنها مهنة كريهة لقومٍ تبع أدلةً. وقد كان أول من ارتد عن الإسلام، كاتب رسول الله «فأحكام [الكتاب] أحكام الأرقاء، وحمله من الخدمة محلَّ الأغبياء... ثم هو مع ذلك في الذروة القصوى من الصلف والسنام الأعلى من البذخ وفي البحر الطامي من التيه والسرف» والكتاب يوحون للناس بالمهابة وفيهم كلُّ الناقصين بقطع النظر عن الأخلاق الديمومة التي تعيب الكثير منهم. ويشير الكاتب بخاصة إلى الآثرة وقلة التضامن في ما بينهم: «[فهم لأشكالهم] مذلون، وأهل [صناعتهم] قالون» وهذا مما نصادفه كثيراً جداً في صفوف الكتاب النصارى.

لم يكتفى المتوكِّل بتکليف الجاحظ كتابة الرد على النصارى، بل أراد مصنفًا سجالياً أرصن وأبقى، فالتقت إلى يهودي أسلم منذ عهد المعتصم هو علي بن سهل الطبرى^(٦١) كاتب المازيار. ففي كتاب «الدين والدولة» يذكر علي بن سهل النصارى بالحال التي صاروا إليها لدى قبولهم بأن يكونوا من أهل «الذمة». (٦٢) وقد كتب أيضاً كتاباً في الرد على النصارى لم يحفظ إلا بعضه.

وحوالى الحقبة عينها، أي في ٨٥١ وإبان خلو كرسى الجاثلة جاءت إلى بغداد، على ما قيل،^(٦٣) بعثة بيزنطية للمناظرة في الأمور الدينية. وكانت المسائل التي تناولتها المنازرة عدم التزام النصارى بتعاليم الإنجيل (كغفران الإساءة، والzed في أعراض الدنيا، إلخ)^(٦٤) وقد كان موضوع رفع الصوت عالياً في الصلاة من الموضوعات التي كانت تناقش في تلك الحقبة.^(٦٥)

إذا تفكّرنا في مَنْ توسط لإيصال رسالة الماحظ في الرَّد على النصارى^(٦٥) إلى الخليفة المتوكّل، جاز لنا أن نتساءل عَمَّا كان دور الفتح بن خاقان^(٦٦) وبني خاقان جملة في ما اصطلح على تسميته «برد الفعل السُّني». هل انتصر تأثير الترك ونفوذهم لدى الخلفاء، ولا سيّما منذ عهد المعتصم على ثقل سلاحهم؟ لم يكن لهم تأثير فكريّ أيضًا؟^(٦٧) أليس يجوز أن يكون انتصار المذهب السُّني (مذهبهم السُّني) انتصارًا لهم؟ ثمّ أليس يجوز لنا أن نرى فيه ردًّا تركيًّا على الشعوبية التي غلب عليها التفود الإيراني؟ من حقّنا أن نحلم في ما كان سيصير إليه (أو يبقى عليه) إسلام عربيٍ نقِيٍّ غير متأثّر بهذه المؤثرات. في الحال التي بين أيدينا، لم يدرس بعد دور بني خاقان دراسة وافية من هذه الوجهة لنتمكّن من الجواب عن هذا السؤال.^(٦٨)

صحيح أنَّ المعتصم قد كان ترك بغداد، سنة ٨٣٥ - ٨٣٦، لأسباب سياسية، أهمّها التنافس بين العسكر التركي المجلوب مَعَ وراء النهر وبين بورجوازية بغداد العربية المدعومة من قبل جند خراسان. بيد أنه لم يكن للعقيدة أن تخرج سالمة من البوتفقة التي تكون فيها مزيجها. وكما أعقبت أزمة بغداد الضيقة المترعرعة (والشاعرية) شوارعُ سامراء^(٦٩) العملاقة الباردة الجافة والمخططة بدقة هندسية، كذلك كان إسلام عصر المتوكّل يؤذن بالإصلاح الذي سيأتي بعد قرنين من الزمان على يد السلاجقة (الأتراك أيضًا).

إنَّ الإسلام العربي الذي تخلّص من تأثير البيزنطيين عندما غادر دمشق، قد لاقى اليونان ثانيةً في ترجمات بيت الحكمة، وقد صار يتراوح، أسوةً بالخلافة، ومنذ بروز تحديات الفلسفة بين الكتلتين الإيرانية والتركية.

عودة تاذسيس

ظلَّ تاذسيس الجاثليق محبوسًا^(٧٠) ثلاث سنوات ونصف ببغداد أولاً، ثم بسامراء. وقد أحضر يومًا بين يدي الخليفة لأنَّ التهمة اشتتَت عليه وربما صار يستحق القتل. وحاكم القضية: كان بسامراء طبيب نسطوري اسمه سرجيس. واتفق أن دبَّ بينه وبين أطباء آخرين من جماعته نزاع، فغادرهم وانضمَّ إلى أتباع أريوس.^(٧١) وكما جرت العادة مع أمثاله من المارقين، قذف أهل ملةه القديمة واتهم

الجاثيلق بكتابه قيس الروم، والدعاء له، واطلاعه على شؤون مملكة العرب إلخ. فأمر الم وكل بتاذسيس فأحضر بين يديه، فاستجو به. ولما أنكر الجاثيلق التهم أراده الخليفة أن يقسم على قول الحق، «فأبى [الحبر] خوفاً لئلاً يخالف كتاب الشريعة» التي تمنع من القسم. ربما أعجب الخليفة بإباء الرجل فلم يلتقط إلى الاتهام بعد ذلك وأمر بالجاثيلق فأُعيد إلى الحبس.

في أثناء هذه السنوات المظلمة اضطرّ النصارى أن يصبروا على قهر الإجراءات التمييزية ومضضها وعلى أكثر من ذلك أحياناً. في العام ٢٤١/٨٥٥، ظاهر نصارى حمص ثرداً محلياً فاستحقوا بذلك معاملة متميزة جداً لدى قمع التمرد: هدمت بعض الكنائس. (٧٢)

وفي العام ٢٤٢/شباط ٨٥٧، ارتدى إلى النصرانية عطار بغداد فأقيم عليه حذّ الشرع على المرتد، ثم أحرق جسده أمام باب العامة بقصر الخلافة. (٧٣)

الفرج بعد الشدة

في العام ٢٤٣/أيلول ٨٥٧ مات يوحنا بن ماسوبيه (٧٤) الطبيب الجديد الأثير عند الم وكل، فأمر الخليفة بأن تقام له جنازة لائقة، فذُكر (وهل كان قد نسي؟) أن كل قساوسة النصارى قد طردوا من سامراء. عند ذِكْر انقلب الخليفة المتقلب على الفور: يفرج عن الجاثيلق، يؤذن للقسوس والشمامسة بدخول المدينة وحتى البقاء فيها، و... زالت الشدة.

بعد الجنازة الفاقحة التمس كتاب الخليفة وأطباوه (فقد كان بعضهم لا يزال بالقصر) (٧٥) إذن بعودة الجاثيلق إلى كرسيه ببغداد. فأمر الم وكل أمير بغداد بإرسال الحرس لمواكبة الحبر، «فأدخل بغداد أحسن دخول بالإكرام العظيم».

وقد جرى أمر آخر عزّز مشاعر الم وكل الطيبة (الجديدة) نحو النصارى. فلما قدم إلى دمشق سنة ٢٤٣/آذار ٨٥٨ (٧٦) طرحت في طريقه الرياحين وعقدت القباب «فلما اجتاز الم وكل تحتها استحسنها» وسأل الفتاح بن خاقان عن اسم منظم الحفل، فقيل له إنه سرجيس، مطران نصبيين للمشارقة من السريان الذي اتفق أن

كان بالمدية. أمر له الخليفة على الفور بعشرة آلاف درهم واستفسر عن طريقة أفضل لمكافأته: أليس من الممكن عزل تاذسيس وتعيين سرجيس جاثليقاً؟ فيَنْ الفتاح بن خاقان للخليفة أن ذلك لا يكون عند النصارى،^(٧٧) فاقتنع وفي نفسه من ذلك شيء، وطلب إطلاعه على موت تاذسيس متى مات.

في انتظار ذلك تحسّن حال النصارى، وصار الأكابر يقصدون نصيبين لزيارة المطران الذي يحبّه الخليفة. ولم يدع تاذسيس سرجيس يتقدّم الجثّة طويلاً، فمات سنة ٦/٢٤٤ تشرين الثاني ٨٥٨ عن جثّة دامت خمس سنوات وثلاثة أشهر، قضى منها ثلاثة سنوات ونصف في السجن.

نحو هذا التاريخ، جاء دور العيّاقبة في الانقسام. فقد اختلف باسيليوس الثاني مطران تكريت مع بطريركه يوحنا الخامس. وحسب أفضل التقاليد المتّبعة (أو أرذلها) تبادل الخبران التهم وحمل النزاع إلى الخليفة، فحكم لصالح البطريرك وأحلّ ملكي صادق^(٧٨) محل باسيليوس.

X سرجيس الأول

تأخر انتخاب سرجيس انتخاباً قانونياً بالرغم من أمر الخليفة بتعيينه. وقد أثار بعض الأخبار الجدال القديم: هل يجوز لمطران نصيبين أن يصير جاثليقاً؟ أم يحظر ذلك لأنّ صوماً مطران نصيبين كان السبب في قتل بابي الجاثليق، ولأنّ يوحنا الداسي، مطران نصيبين كان قد خلع الجاثليق حنان يشوع... مهمّا يكن من أمر الأساس القانوني لهذا الفيتوا^(٧٩) فقد جاء أمر الخليفة المتكرّر يجبر الآباء على تحاوز الحظر وجرت سيامة سرجيس سنة ٢١/٢٤٦ تموز ٨٦٠.

كان المتوكّل قد بدأ، منذ بضعة أشهر، ببناء قصره الجعفري في الموضع المسماّ بالماحوزة، وبناء المتسوكليّة (سامراء الجديدة) إلى الشمال من المدينة الأصلية.^(٨٠) وكأنّما ليبعد عن بغداد أكثر.

في هذا الوقت بُرِزَ من بين النصارى ذاك الذي ائتمنه الخليفة على نفقات بناء القصر الجديد: دُلّيل بن يعقوب كاتب الأمير التركي بُغا الصغير، الملقب بالشراي.^(٨١) للاحظ عابرين وجود سرجويه^(٨٢) الطبيب في بطانة الأمير التركي.

حنين بن إسحق

في هذه الفترة، نجد جواب حنين بن إسحق (٨١٠ - ٨٧٣) على يحيى بن المنجم المسلم.^(٨٣) فقد كان ابن المنجم قد أفرغ جهده في تقديم النصح لحنين ليدخل الإسلام. وعلى إثر عدّة لقاءات، ولا سيّا عند أبي الحسن البرمكي، كتب ابن المنجم كتاب البرهان^(٨٤) الذي كان يعده هو نفسه بيتاً وقائماً (في ما كان يعتقد) على معقولة العقل الذي كان النصارى أنفسهم قد دخلو إلى عالم الإسلام، لما نقلوا إليه كتب أرسطو.^(٨٥) أمّا قسطا بن لوقا الملكاني الذي تلقى نسخة من الكتاب أيضاً، فيشي على هذه المبادرة قائلاً: «إنك قد رُمْت سبيلاً والتمست طريقة لم يَرِمها أحد قبلك ممّن تكلّم في الفن الذي تكلّمت فيه. فقد كان مع أمير المؤمنين (رضي) قوم من أهل الكلام والعلم بالمنطق جماعة... وما بلغنا أن أحداً منهم رام أن يبيّن الحجّة في دينه ببرهان هندسي...». على أنّ قسطا يجد العيب الصوري في هذا البرهان ويبيّنه في صبر وأناة. أمّا حنين فإن جوابه القصير ينمّ عن ضيق صدره بإصرار^(٨٦) صديقه المسلم على محاولة إقناعه بحقيقة الإسلام. وهو لا يتردد (وهذا ما لا يقع إلا نادراً في علم المنطق التقليدي) في إنكار المقدمة الكبرى:^(٨٧) «أنا لم أقر لك قطّ أن الكتاب الذي جاء به صاحبك حقّ». وقد استقوى حنين بصداقته وبمكانته الاجتماعية، فتجرّأ على سرد قائمة من ستة أسباب ربّما قادت، من وجهة نظره، إلى ما يسميه «قبول الباطل»: «أولها أن يضطرّ القائل مخاطبه إلى أن يقبل منه ما يقوله من غير إرادته ولا اختياره. والثاني أن يكون الإنسان في ضيق وشدة فينتقل منها إذا لم يقدر على احتسّاها إلى ما يرجو منه السهولة والسرعة. والثالث أن يؤثّر العزّ على الذلّ والشرف على الضعف والقوّة على الضعف. والرابع أن يكون صاحب الكلام خبيئاً، محتالاً في القول فيمّوه به ويطغى من يدعوه إليه. والخامس أن يكون بين قوم كثيري الجهل فيستعين بجهلهم وقلّة آدابهم، على ذلك. والسادس أن يكون بين المدعى وبين غيره نسب طبيعي. فلا يجب قطع ذلك النسب في ما بينها».^(٨٨)

يأمكنا أن نعجب بالحرية التي يتمتع بها حنين إزاء محاوره والتنويه في الوقت نفسه «بسماح» ابن المنجم، مع أن الطبيب النصراوي يتحاشى «تطويلاً وتهجينًا

يغضب منها». ولكننا نشعر، مع ذلك، بسأم عقل متفوق يرى النصرانية تتهاافت من حوله للأسباب المذكورة كلها. لذلك ربما رأيناه يختتم رسالته إلى ابن المنجم بقوله: «وما أشكّ، مع نيلك وفضلك أَنْهَ تَبَيَّنَ لَكَ (بِمَا قَدْ ذَكَرْتُهُ وَاحْتَصَرْتُ فِيهِ) وَجْهَ الْأَمْرِ وَجْلَيْهِ». ويرشدك الإقناع وبهذا عن التعب والفحص وتعرف قصد من ينصح صديقه بعقل ومعرفة والله يرشد إلى الصلاح». لم يكن حنين يرجو دعوة محاربه ابن المنجم إلى اعتناق النصرانية وإن كان يحاول على الأقل أن يقنعه بصرف النظر عن الإلحاد في دعوته إلى الإسلام.

ولكن الطيب النصري كان يعاني بعض المشاكل داخل طائفته. فمن غير أن يعرف تاريخ الحادثة بالضبط، يذكر المؤرخون قصة الخلاف بين حنين وبين بختيصور أو إسرائيل الطيفوري.^(٨٩) فقد أبدى حنين مشاعر عداء للإيقونات ربما تحصلت لديه إبان إقامته في بلاد الروم،^(٩٠) فشكاه بختيصور أو الطيفوري إلى الخليفة (وإذا سمي في المصادر فهو الم وكل) الذي ترك أمر البت في عقوبته إلى الجاثليق. وقد قيل أحياناً إنّ هذا الجاثليق هو تاذسيس وقيل إنّ تاريخ الحادثة هو سنة ٢٤٠، ٨٥٤، والحق أنّ تاذسيس كان بالسجن في هذا التاريخ.

ولأنني لأميل إلى رواية صليبا وابن العربي اللذين يجعلان القضية في جملة سرجيس (٨٦٠ - ٨٧٢). ولشن كان لا بد للقصة من أن تجري في عهد الم وكل، فالالأغلب أن تكون في السنة الأخيرة من خلافته، وأن يكون المتهم (بكسر الماء) إسرائيل الطيفوري.

أما ما ينسبه ابن العربي إلى حنين من أنه «قطع زناره» فليس لهذا إلاّ معنى واحداً: إنه قد أسلم.^(٩١) ولكن الملاحظ أن المؤرخين الآخرين، حتى المسلمين منهم، لا يذكرون هذا الأمر. فقد مات حنين على النصرانية سنة ٢٦٠، ٨٧٣.

النصاري وأغتيال الم وكل

عندما «انتقم الله من [الم وكل] وأرسل عليه بعض جنده الواصلين إليه فقتله في فراشه وخَلَصَ المؤمنين من شره»^(٩٢) لم يكن للنصاري إلاّ دور ثانوي في القضية.

في أول الأمر اشتمت امرأة تركية رائحة المؤامرة وأرادت إبلاغ الموكّل. ووقع الكتاب الموجّه إلى الفتح بن خاقان بين يدي كاتبه أبي نوح عيسى بن إبراهيم بن نوح بن أبي نوح الأنباري،^(٩٣) فأطلع أبو نوح سيده الذي وافقه على أن البلاغ ليس جدياً وقرر ألا يطلع الموكّل عليه. الواقع أنّ الفتح قد قتل مع الخليفة.^(٩٤)

في أواخر أيام الخليفة نرى من حوله طبّيه النصارى ابن الأبرش^(٩٥) وإسرائيل بن ذكريا الطيفوري.^(٩٦) كان احترامهما للمتملّق للموكّل بعيداً جداً عن منادات رجل مثل بختيشون: كانوا يوافقان مثلاً على الطبق الذي يروق الخليفة.

قتل الموكّل غيلة بيدي ابنه المتصرّ وغيره من المتأمرين في ١١ كانون الأول من العام ٨٦١،^(٩٧) وكانت مدة خلافه حوالي خمس عشرة سنة.

الحواشي

Cl. CAHEN, *La changement portée sociale*, p. 18-19 (١)

(٢) الطبرى، ج ٣، ص ١٣٨٩ - ١٣٩٠.

(٣) LAOUST, *Schismes*, p. 111-112

(٤) مروج، الفقرة ٢٨٧٤ و ٣٤٥٦، التنبية، ص ٣٦١ - ٣٦٢.

E.I.^(١), III, col. 839-840 par K.V ZETTERSTEEN (٥)

(٦) يلاحظ كتاب الناج المنسوب إلى الباحث ومعاصر الموكّل (ص ٩٥): «ومن أخلاق الملك سرعة الغضب وليس من أخلاقه سرعة الرضى» و(ص ٧٣) «وليس في الأرض نفس تصر على مضمض الحقد، ومطاولة الأيام صبر الملوك». من ذلك كانت هذه النصيحة (ص ٦٠) ومن أخلاق الملك السعيد أن لا يعاقب وهو غضبان، لأنّ هذه حال لا يسلم معها من التعدي والتجاوز لحد العقوبة». ولكن هل كان الموكّل يتعرّف نفسه في هذه الصورة، هذا إذا عرف بها؟

(٧) التهبي، دول الإسلام، ج ١، ص ١٠٨، يوضح أنّ الموكّل ساق ولاية العهد إلى المعذّب بدلاً من المتصرّ، حبّاً بقيمة، أم ولده.

(٨) ص ٧١.

S. BOUSTANY, *Ibn al-Rūmī*, P. 43-44 (٩)

(١٠) الطبرى، ج ٣، ص ١٣٧٨، الكامل، ج ٧، ص ٣٩.

(١١) الطبرى، الموضع نفسه.

Vizirat, p. 272-273 (١٢)

الطبرى، ج ٣، ص ١٣٨٦ (١٣).

Les Borboriens, Cf. *The Commentaries of Iṣo'dād of Merw*, ed. M.D. GIBSON(Cambridge 1911-1913) I, p. 270 (١٤)

(١٥) النصوص المفصلة، الطبرى، ج ٣، ص ١٣٨٩ - ١٣٩٤ (مختصر في الكامل)، ج ٦، ص ٥٢، ابن القيم، ص ٢١٩ - ٢٢٤، ماري، ص ٧٩، ابن العبرى، تاريخ الزمان، ص ٣٧، صليبا، ص ٧١، الذهبي، دول الإسلام، ج ١، ص ١٠٤.

(١٦) وأصله من الأنبار، وتجد قصة ارتقائه إلى هذه الرتبة في كتاب الفرج بعد الشلة للتنوخى، ج ٣، ص ١٠٠ - ١٠٤. ولما كان كاتبًا لدى شجاع أم المتوكل قاتل الخليفة إفطاً بقيمة ٣٠٠ دينار. الحكاية ٣٤ في كتاب الذخائر والتحف لابن الزبير، تحقيق محمد حميد الله، الكويت، ١٩٥٩. وقد أذن له المتوكل بركتب الحمار في القصر مثلاً.

(١٧) نجده في القصر قبيل الخليفة (الطبرى، ج ٣، ص ١٤٦٣) ثم سنة ٨٦٢/٢٤٨ عند موت المتصر (المصدر نفسه، ص ١٤٩٤ حيث يسمى سعيد بن سلامة). وكان كاتب أم المستعين في العام ٨٦٣/٢٤٩ (المصدر نفسه، ص ١٥١٢) وقد حفظت داره من النهب سنة ٨٦٥/٢٥١ (المصدر نفسه، ١٥٤). أنظر أيضًا ٣٥٤ et no. 4 Vizirat, p. 304 et no. 4 (١٨).

M. MIAH, *The Reign of al-Mutawakkil*, Ph. D. thesis S.A.O.S. London, 1962, in F. OMAR, A General Sketch, p. 35.

(١٩) يجب أن يحدد التاريخ الذي بدأت منه هذه النسبة. وما يلفت النظر أن ابن القيم الذي يورد صيغة مفصلة لهذه «الشروط» (ص ٦٥٧ - ٨٧٣) يقول «وشهرة هذه الشروط تغنى عن إسنادها» (ص ٦٦٣). ولا يخفى محقق الكتاب، الشيخ صبحي الصالح، دهشته من اكتفاء فقيه كبير كابن القيم بهذه الملاحظة في شأن على هذا القدر من الأهمية من الوجهتين التاريخية والفقهية. على أن بعض الروايات المختلفة تورد إسناداً مختلفاً، فيما ذكر ابن عساكر CAE (TANI, Annali dell'Islam, III, p. 959, no. 1) والحق أن تعدد روایات «الشروط» واختلافها يقومنا دليلاً ضد نسبتها إلى عمر بن الخطاب (ولو أن هذه الوثيقة، على قول دي خويه TANI, Annali dell'Islam, III, p. 959, no. 1) و Mémoire sur la conquête de la Syrie, p. 149) (Mémoire sur la conquête de la Syrie, p. 149) تحفظ الخلف كثيراً في أن يختلفوا منها أو يضيفوا إليها أو يغيّروا فيها كلمة». وهذا ما يسميه دي خويه البرهان «الصوري».

(٢٠) هذا بحسب CAETANI ص ٩٥٧، الذي يعطي مراجع أخرى ولا سيما بالروسية N.P. DE GOEJE, Mémoire, p. 538-613 MIEDNIKOFF, I, p. 143-149 وأيضاً 149-150 MUIR, The Caliphate p. 149 التي يكتب: «صحيح أنهم قد ختم عليهم، منذ البداية، بالذلة حسب ما تأمر به الآية ٢٩ من سورة التوبة، ولكن أسوأ

«الشروط» المتشددة لم تفرض إلا في فترة متأخرة جدًا، فلما عمل بها تدريجيًّا صارت بحكم العادة شرعة البلاد».

(٢١) مثلاً عند التوبيري، نهاية الأرب، ج ٨، ص ٢٣٨ - ٢٣٩.

(٢٢) أنظر A.S. TRITTON, *The Caliphs; A. FATTAL, Statut légal*.

(٢٣) قاسم، ص ٢٧.

(٢٤) وقد ضبط عدد من النصارى، وفيهم رهبان وحتى أساقفة، بالجرائم المشهود مع بعض النساء المسلمات، فما استطاعوا النجاة من حد الزنى إلا باعتناق الإسلام، مثل ذلك فيلوكسينوس أسقف آذربيجان للمغاربة من السريان، سنة ٩٦٢، ابن العربي، ج ٢، العمود ٢٤٨. هذا وقد عمَّ ابن فضلان النصارى بالتهمة.

(٢٥) ومن المصادر التي نجدها فيها (فضلاً عن التي ذكرت من قبل): القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١، ص ٤١٥، ج ١٣، ص ٣٦٢ - ٣٦٤، الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ١٢٧، ١٣٨، ابن الأخوة، معلم القربي، ص ٤١ - ٤٢، ابن الأزرق، بدائع، ص ٦٨٤ - ٦٨٨، حيث يقال إنَّ ثمة رواية «مبسطة» في كتاب من عبد الرحمن بن غنم إلى عمر مع زيادات الأخير. نلاحظ عابرين منع النصارى واليهود من الدعوة إلى دينهم، وإظهار معتقدهم «في عَزِيزِ وَالسَّيْحِ»، صبح الأعشى، ج ١٣، ص ٣٦٥. هذا الحظر الأخير يصدر عن الآية ٣٠ من سورة التوبه «وَقَالَ الْيَهُودُ عَزِيزُ ابْنِ اللَّهِ، وَقَالَ النَّصَارَى السَّيْحُ ابْنُ اللَّهِ». (٢٦) يضيف السيوطي، ص ٣٤٧، «الغل». اعتناق الإسلام يكون بأن «يقطع النصراني زناه». «إذا دخل (النَّمَى) حامًا فيه مسلمون. جعل في عنقه خاتم حديد أو رصاص ونحوه» النwoي، منهاج الطالبين، ص ١٤٠.

(٢٧) النwoي، رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، قدم له وراجعه الشيخ حسن غيم منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ص ٥٥٤ رقم ١٦٩٢ - ٩٣، يعزُّو أصل هذا الحظر إلى الحديث.

(٢٨) وفي هذا المجال، منع إحداث كنائس، أو تهديم ما أحدث منها. من حيث المبدأ يجب تهديم الكنائس المشيدة في المدن التي أسسها المسلمون (كالقاهرة وبغداد مثلاً) وذلك بإجماع فقهاء المذاهب الأربعة. هذا على الأقل ما يقول به الشيخ الدمشقي سنة ١٧٣٩ (راجع MOSHE PERLMANN, *Shaykh Damanhuri on the Churches of Cairo*, U. of California Publ. Near East Studies 19, 1975) والحق أنَّ هذا المبدأ لم يطبق بدقة أبدًا. وهذا يشير مرة أخرى إلى الفرق بين القانون والممارسة. وفقهاء المشرق، في ما أعلم، أقلَّ عنفًا من ابن عبدون الأندلسي (ت ٤٣٩ / ١١٠٠) الذي يمحظ على النساء المسلمات الذنو من الكنائس لأنَّ القساوسة «فسقة زنا لوطه» ولكلَّ واحد منهم عشيقتان أو أكثر من نساء النصارى. ابن عبدون، ثلاث رسائل أندلسية في أدب الحسبة والمحاسب، طبعة القاهرة، ١٩٥٥، ص ٤٨.

(٢٩) يربط هذا المطر بالمشاركة في الجهاد لا تكون بعض دواب الركوب أليل من بعض. ففي باب دواب الركوب، يقول القلقشندي (ج ٢، ص ١٣ - ٣٣) إنَّ البغل «مختار لركوب الرؤساء من العلماء والوزراء، والحكام إلخ....» وإنَّ ركوب الحمار لا يعيَّب، فقد كان يركبه الرشيد (الأغاني ج ٥، ص ٢١٩) وأنَّ النبي نفسه كان يركب الحمير والبغال. ويعزو الجاحظ هذا التمييز بين المطاي إلى «جهل العامة»، كتاب الناج ص ١٤٥ - ١٤٦. وقد كان رؤساء اليهود والنصارى يركبون حيرًا مصرية فارهة «ومنها التفيس الغالي الثمن...» وهي تنتهي في الأثمان إلى ما يقارب أثمان أوساط الخيل». ويري De Goeje, Mémoire, p. 149 أنَّ البند المتعلق بالطايا قد أضيف إلى «الشروط» في زمن المتوكل، ولدى مراجعتها ثانية سنة ٢٣٩، تحديدًا. انظر تعليق عبد الشابلي على الحمير في تحقيقه كتاب الفرج بعد الشدة للتنويجي، ج ٣، ص ١٠٧ - ١١٦.

(٣٠) يذكر حبيب الزيات في الأسماء والكتفي، ص ١، ابن تيمية الذي ينسب، في رسالته في مسألة الكنائس، هذا البند إلى عمر بن الخطاب. وبين الزيات أنَّ هذا البند وإن وجد فإنه لم يطبق أبدًا، ويدرك نفرًا من النصارى سُمِّوا بأحمد ومحمود. وانظر أيضًا SAID BOUS-

TANY, dans Ibn al Rūmi, I, Beyrouth, 1967, p.100, no.5.

(٣١) الفهرست، ص ١٤٤.

(٣٢) ينسبون إلى طيفور الذي كان مولى للخيزران والهادي والرشيد.

(٣٣) عن إسرائيل انظر ابن أبي أصيوعة، ص ٢٢٥، الطبرى، ج ٣، ص ١٤٥٥ - ١٤٩٦، الكامل، ج ٧، ص ١١٤، إلخ. عن أبيه ذكريات ابن أبي أصيوعة، ص ٢٢٤ - ٢٢٥.

(٣٤) يجب ألا يخلط بينه وبين سميه الذي عرف في القرن التالي، Vizirat, p. 742-743.

(٣٥) الجهمشياري، كتاب الوزراء، ص ٣١٢، السطر الثاني.

(٣٦) ماري، ص ٧٨ - ٨٠، صلبيا، ص ٧١ - ٧٢، ابن العبرى، ج ٢، العمود ١٩٢ - ١٩٤، ١٩٨، ايليا النصبيين، الحاشية العربية، ص ٧٢ - ٧٣.

(٣٧) ابن العبرى، تاريخ الزمان، ص ٣٩، ابن أبي أصيوعة، ص ٢٠٢: «ومباراة الخلافة في الزي واللباس».

(٣٨) ابن أبي أصيوعة، ص ٢٠٢. ثمة مثال آخر على ألفته بال الخليفة في قصة الهدية التي أهدتها إليه في عيد النوروز: «ملعقة كبيرة محروقة من ياقوت أحمر» في «دوامة من عود هندي لم يُرَ قطُّ مثله، كالأنبوس سواداً، وعليه حيلة ذهب محرق»، أعطته إياها دنانير جارية يحيى البرمكي لما صحب والده جبرائيل الذي جاء يقصدها، نشور المحاضرة، ج ٨، ص ٢٤٥ - ٢٤٩.

(٣٩) ابن أبي أصيوعة، ص ٢٠٥.

(٤٠) يروى الصفدي، ج ١٠، ص ٨٧ - ٨٩ رقم ٤٥٣٢، أنَّ القاضي أمد بن أبي دؤاد والوزير ابن الزيات هما اللذان دبّرا نكتبه.

(٤١) الهمداني، تكملاً، ص ٦٢.

- (٤٢) الصفدي، سنة ٢٦٠/٨٧٣ - ٨٧٤.
- (٤٣) الطبرى، ج ٣، ص ١٤١٩ ، الكامل، ج ٦، ص ٧١.
- (٤٤) تصحّح الصفحة ٧٩ من ماري.
- (٤٥) يستند SOMOGYI, P.73 إلى المتنظم لابن الجوزي ليشير إلى أنّ أهل الذمة ألمزوا بتعليم أولادهم وتأديبهم بالعربية أو بالسريانية (في العام ٨٥٤/٢٤٠) وذلك لكي لا يقدروا على الحاجة في الإسلام.
- (٤٦) القلقشندي، ج ١، ص ٤١٥ . يقدم غولدزير في كتابه، Zur Literatur, P. 674-675 أمثلة مماثلة على حظر بناء كنائس جديدة.
- (٤٧) بينما تربط المصادر النصرانية (يضاف إليها هنا: سعيد ابن بطريق، ص ٦٣, Annales, CSCO, 51) الأضطهاد بنكبة بختيشوع، يؤجل الطبرى، ج ٣، ص ١٤٣٧ والكامل، ج ٧، ص ٨٥، هذه النكبة إلى سنة ٢٤٤/٨٥٨ (؟) ولا يفتر حبس الجاثليق لمدة طويلة إلا بسقوط بختيشوع، لأنّه كان صنيعة الطبيب.
- (٤٨) MASSIGNON, Scribes Nestoriens, p. 251 . بعد العام ٢٩١ كان عليّ بن عيسى، رئيس بني مخلد، يحمر خجلاً من نسبة النصراني، ابن العربي، ج ١، العمود ٢٤٠.
- (٤٩) جبر، ص ٢٥ .
- (٥٠) E.I.², II, Djahiz, p.396
- (٥١) PELLAT, Čahiz à Bagdad, p. 54
- (٥٢) المرجع نفسه، ص ٥٧ .
- (٥٣) تأويل، ص ٤١ - ٤٢ .
- (٥٤) FINKEL, a Risala, p. 321 . للمقارنة بتصرّفات الجاحظ (وسكتاته) في كتاب الأخبار وكيف تصحّح، تحقيق شارل بلا في : Journal Asiatique, CCLV (1967), p. 102 «فصحّ أنّ دين الناس بالتقليد لا بالنظر، وليس التقليد إلى الحقّ يأسر منه إلى الباطل».
- (٥٥) تأويل، ص ٤١ ، مذكور أيضاً في الجاحظ للحجاجي، ص ٣٦٣ - ٣٦٥ .
- (٥٦) PELLAT, Une charge, p. 29-30
- (٥٧) ANTOINE TOHMÉ, Intérêt pour l'histoire sociale de la réfutation des Chrétiens رسالة ماجستير، بيروت ١٩٧٧ ، والطريقة المتبعة في هذه الدراسة حدّتها المأسوف عليه الأب ميشال ألار في Histoire de la pensée arabe et sociologie, (analyse de la «Lettre sur les secrétaires»)، dans Etudes Philosophiques offertes au Dr. I. Madkour, Le Caire, G.C. ANWATI, Polémique, apologie et dialogue Islamo-chrétien, dans Euntes docete (U. Pontif. Urbaniana) 22 (1969) p. 396-399 . وانظر مختارات من هذه الرسالة في كتاب الترك المذكور آنفاً، ص ٢٠٥ و ٢٠٦ .
- (٥٨) الرد، ثلاث رسائل للجاحظ، ص ٢٠ .

(٥٩) تحقيق طه الحاجري، القاهرة، ١٩٦٣، ص ١٠٢. نلاحظ أن الجاحظ لم يكن حسن الأطلاع على شؤون النصارى (أو سبئ الطورية؟) لما كتب: «وفي حكمهم أنَّ من أعنان المسلمين على الروم يقتل وإن كان ذا رأي سملوا عينيه ولم يقتلوه»، كتاب الحيوان، ج ٤، ص ٢٨، وربما كان ميالاً إلى ازدراء «النبي»، لأنَّه على كونه قبيح الوجه كان يجد أنَّ للنبي (كما للمغاربة) سمعة أشبه بسمعة القروود (PELLAT, Milieu basrien, p.22) مستشهاداً بكتاب الحيوان، ج ٤، ص ٢٤. حيث يقول الجاحظ: «وربما رأينا الملاح النبطي في بعض الجعفريات على وجه شبه القرد».

(٦٠) فهو يشير في فردوس الحكمة ed. M.Z. SIDDIQI, Gibb Memorial, 1982, p.1 إلى أنه سليل أسرة مروزية من الكتاب. وقد كان أبوه مال إلى الطب واستحق لقب «ربن»، أي معلم. وفي كتاب الدين والدولة، ص ١٨٩، يذكر أنَّ عمَّه أبو زكَار يحيى بن نعمان المعروف في نواحي العراق وخراسان، قد ألف كتاباً في الرَّد على أهل الأديان، انظر ابن القسطي، تاريخ الحكمة، ص ١٨٧.

(٦١) المراجع في ٢٥٦ G. LE- Islamochristiana, I, p 144 (no. 11, 10), III, p. 1 أنظر أيضاً COMTE, les citations de l'Ancien et du Nouveau Testament dans l'oeuvre d'Ibn Qu-tayba, dans Arabica, V (1958), p.34-46. لاعتقاد الإسلام مزايا مادية، فضلاً عن اعتقاد الدين الحق، يقول: «ومَنْ لَمْ يُجِبْ إِلَى ذَلِكَ وَاعْطَى الْجَزِيرَةَ عَنْ يَدِ صَاغِرًا، حَقَنَ بَهَا دَمَهُ وَوَجَبَتْ لَهُ النَّذْمَةُ وَالطَّاعَةُ، وَكَانَ فِي ذَلِكَ رِيَاضَةً لِلْكُفَّارِ لَطِيفَةً، وَتَذَلِّيلَ لِنَخْوَتِهِمْ وَخِيلَاهُمْ وَدَاعِيَةً لِأَهْلِ الْأَنْفَةِ وَالْحَمِيمَةِ مِنْهُمْ إِلَى الْاِنْتِقَالِ عَنْ لَؤُمِ الْذَّلِيلِ وَالنَّذْمَةِ إِلَى شَرْفِ الْعَزِّ وَالْحَرَيَةِ فَإِنَّ أَبْوَا ذَلِكَ أَيْضًا كَانَتِ الْحَرَبُ مِنْ وَرَائِهِمْ». ليس للنصارى «عزٌّ» ولا «حرىَّة»، فهو في حال «الذَّلِيلِ» وقد قال حنين بن إسحق الشيء نفسه تقربياً في ما بعد.

(٦٢) أما اشتراك فوتويوس وكيريلوس الذي صار من بعد قدسيساً هو وأخوه ميثوديوس فهو أمر مشكوك فيه.

J. RUPP, Dialogue islamo-chrétien près de Bagdad au temps de St. Cyrille, dans l'Osservatore Romano, éd., hebdomadaire, 19 Septembre, 1978, p.11 أنظر J. GAUDEUL, Islamochristiana, 10 (1984), p. 100-157. السادس من حياة قسطنطين (كيريلوس) المنسوبة إلى أقليميتوس الأوخرادي. وانظر ترجمتها بتصرف إلى العربية في مجلة بين النهرين، ج ٦، ٢٤ (١٩٧٨)، ص ٤١٢ - ٤١٥. وقد عثر بن عبد العزيز المزعومة إلى لاورون الثالث. ولعلها كانت من وضع رجل مسلم من حصن حوالي سنة ٨٨٥ - ٩٠٠. أما الكراس Pamphlet anonyme الذي ترجمه ونشره دومينيك سورديل في: R.E.I., 34 (1966), p 1-33 فقد يكون جزءاً من هذه الرسالة.

(٦٤) أنظر GAUDEUL, GAUDEUL، ص ٥١، الحاشية ١٠٤. وقد كان العياقة، ومنهم ديونيسيوس

برصليبي، يوجهون هذا الانتقاد إلى الملكانين، راجع مقالتي : Rum à l'est de l'Euphrate,

p.411.

(٦٥) يشير أبو حيّان التوحيدي، إلى توسط الفتح بن خاقان في إيصالها إلى الخليفة، ياقوت، إرشاد الأريب، ج ٦، ص ٦٩.

(٦٦) E.I.², II, p. 857, par O.PINTO . أنظر كتابي، ص ١٨٥ - ٢٩٨: الجاحظ والترك وفيه (٦٧) - ١٩٩ - ٢٢١: الجاحظ والفتح، عن الفتح نفسه انظر ص ٢٨٨ - ٢٩٨ بخاصة. في المرجع نفسه ص ١٥١ - ١٧٠: عصر التفوذ التركي في دولة بني العباس (حتى المهدى). قد تكون بعض تفاصيل الفصل عن أمميات الخلفاء التركيات، ص ١٧١ - ١٨٠ ، موضع نقاش، إلا أن المؤلف لم يتساءل عن تأثير الترك في العقيدة. وربما لم يميز أيضاً ما في الثناء على الترك من مبالغة إذا خرج من فم متملّق كالجاحظ في هذه الحال. أليس يجوز لنا أن نقول ما قاله Ch.PELLAT (Les nations civilisées, R67) عن رسالته في تقضيل السودان على اليopian، أنها «ليست أكثر من تمرين يليق به».

(٦٨) يلتقي محمد أركون مع تساؤلاتي عندما يكتب في «مسكوبية»، ص ١٦٣ ، الحاشية ٥: «لا نقدر على استبعاد علاقة تربط دخول الترك إلى المسرح وبداية التقليد».

(٦٩) لم يتساءل JULIUS GERMANUS أيضاً في كتابه The Role of the Turks in Islam ، عن التأثير الديني الممكن لأندرال سامراء.

(٧٠) كما أن مدينة السلام صارت بغداد، كذلك هنا غالب أحد أسماء الموقع القديم على المدينة، وهو اسم غير عربي ولو اجتهد البعض في تأويله وذهب إلى أن أصله سرّ من رأي.

(٧١) مع أخيه تو ما مطران باجرمي ، ونونا رئيس شمامسة نصبيين للمغاربة من السريان. وقد دون A. VAN ROEY, dans Bibliothèque du Muséon, vol. 21, Louvain, 1948

(٧٢) إنها المرة الوحيدة التي يذكر فيها أتباع أريوس ببغداد. والاسم مدون بوضوح عند ماري وعند ابن العربي.

(٧٣) الطبرى، ج ٣، ص ١٤٢٤ - ١٤٢٢ . هل ترك في تلك الحقبة نصارى بغداد منهم جماعات ودخلوا الإسلام؟ ففي «المؤثرات التي يغلب عليها الطابع الأسطوري» (H. LAOUST,) (٧٤) مقالة عن أحمد ابن حنبل والتي تحيط برواية موت الإمام أحمد ابن حنبل في ربيع الأول /٢٤١ تقویز ٨٥٥ ، يذكر ابن حلkan (ج ١، ص ٦٥) أنه في يوم وفاته أسلم عشرون ألفاً من النصارى واليهود والمحوس. وفي بعض المخطوطات: ستون ألفاً.

(٧٤) الطبرى، ص ١٤٣٤ ، وفي نسخة عطارد (؟).

(٧٥) ابن أبي أصبيعة، ص ٢٤٦ - ٢٥٥ .

(٧٦) ثمة مبالغة في التبسيط في القول (مثل الأ بشي بي، المستطرف، ج ١، ص ٢٤٨ ، إن المتوكّل «أقصى اليهود والنصارى ولم يستعملهم وأذلم وأبعدهم...»).

(٧٦) الطبرى، ج ٣، ص ١٤٣٥ .

(٧٧) وهذا يؤكد أيضًا أن تأذيسis كان قد خرج من السجن، وإنماً لكان من السهل على الخليفة أن يعزله.

(٧٨) ميخائيل السريانى، ج ٣، ص ١٢٤ ، ابن العبرى، ج ٢ ، العمود ١٩٥ .

(٧٩) أنظر كتاب: Nisibe, p. 84

(٨٠) Assyrie Chrétienne, p. 115 مع مصادر.

(٨١) E.I.², I, p. 1327, par D. SOURDEL

(٨٢) Vizirat Abbasside, p. 256, 304, 322 ١٦٥٩ ، ١٥٤١ ، ١٥٣٦ ، ١٥١٣ ، ١٤٣٨

no. 4

(٨٣) الطبرى، ج ٣، ص ١٥٣٦ . في العام ٨٥٢/٢٣٨ كان بغا قد أرسل إلى أهل أرمينيا أبا العباس الوارثي النصرانى، الكامل، ج ٧، ص ٦٧ .

(٨٤) ربما كان المحاور علياً بن يحيى المترجم. أنظر الملف: Islamochristiana, I, No 12.12,p.138; no. 11.17,p.145; no.12.20, p.160; no. 12.18, p.159; no. 12.19.p. 159-160; II, no. 11.17, p.191.

(٨٥) هل يجب أن نذكر باستحالة قيام حوار حقيقي طالما أن كلاً من المحاورين يريد أن يبرهن (ابن المترجم يسمى كتابه: البرهان) أن الآخر مخطئ وأنه هو على الحق (ويتكرّر ورود هذه الكلمة في كتابته). وقد عبر حنين بن إسحق عن نفاد صبره إذ لم يتربّد في استعمال كلمة باطل مراراً. أما قسطا فإنه يلتزم إرادياً بإبقاء المناظرة على مستوى المنطق، ولكنه مع ذلك يرسل هذه الكلمات: «مع معرفتك باختيال الكلام في الأديان ونقله على».

PAUL NWYIA Actualité du concept de religion chez Hunayn Ibn Ishaq, dans Arabica, XXI (1974) p.313-317, et Un dialogue Islamo-Chrétien au IX siècle, dans Axes, Une correspondance isla-mochrétiennne, dans Patrologia Orientalis t.40 (1981), pp 521-723 وقد نشر البرهان والرذان عليه تحت عنوان isla-IX,5, (1977), p.7-22 لروا فمبعوث من أرمينيا إلى أبي عيسى أحمد بن المترجم وربما كان متأخراً (٩٠٨ - ٩٢٠) عن الرذ السابق.

(٨٦) أنظر في نص ابن المترجم تكرّر عبارة «النصيحة».

Pour un remembrement de la (٨٧) عن «النظام المعرفي الإسلامي» انظر كتاب محمد أركون conscience islamique

(٨٨) قارن: ابن كفر في: مصباح الظلمة في إيضاح الخدمة، القاهرة، ١٩٧١ ، ص ٢٧٥ .

(٨٩) ملف يوسف حبي، حنين بن إسحق مهرجان افرام - حنين، بغداد، ١٩٧٤ ، ص ٣١٧ . ٣١٩

Sur le culte des saintes images dans l'Eglise syriaque orientale, V.E.K. DELLY, dans (٩٠)

Orient Syrien, I (1956) p. 291-296 et J. DAUVILLIER, *ibid*, p. 297-304.

(٩١) زيّات، سهات، ص ٤٥ - ٤٧.

(٩٢) صلبيا، ص ٧١.

(٩٣) الطبرى، ج ٣، ص ١٤٦٢. كان هذا الكاتب قد أسلم في خلافة المتوكل نفسه. وقد كان إسلامه أسطخ يوحنا بن ماسویه المطبل الذي صاح بجماعة من الرهبان كانوا ببابه: «أخرجوا يا أولاد الزنا من داري واذهبوا أسلموا، فقد أسلم المسيح الساعية على يد المتوكل». ابن أبي أصيبيعة ص ٢٥٠. وفي هذا السياق يروى عن الطبيب نفسه خبر وقع له مع قسّ كان معوداً وكان يقول إنه قد جرب الأدوية المعروفة كلها. فلما عيل صبر ابن ماسویه صاح به: إن أردت أن تبرا فأسلم فإن الإسلام يصلح المعدة. ابن القسطنطى، ص ٢٥٣.

(٩٤) وقد زعم قاتلتها أنّ الفتح قتل الخليفة وأتهم لذلك قتلوه، ابن الطقطقى، ص ١٩٢.

(٩٥) وقد عالج إبراهيم بن أبي الأبرش إساعيل ولد العترة، ابن أبي أصيبيعة، ص ٢٤١، وقد عرف أبيوب الأبرش مترجماً للمواد الطبية من اليونانية إلى السريانية والعربية، المصدر نفسه، ص ٢٤١، ٢٨٠.

(٩٦) ابن أبي أصيبيعة، ص ٢٥٥. وسوف نلتقي به لاحقاً لدى موت المتصر، الصفدي ج ٩، ص ١١ - ١٢، رقم ٣٩٢٩.

(٩٧) ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ٤٠. عن مغزى الاختيال في السياسة الدينية لتلك الحقبة، انظر Dominique Sourdel, *La politique des successeurs d'al-Mutawakkil*, p. 5-9.

١١ - المنصر (٢٤٧ - ٢٤٨ - ٨٦١ / ٨٦٢)

كان أبو جعفر محمد المنصر بالله في الخامسة والعشرين من العمر لما خلف أباه. كان سرجيس الجاثليق في السنة منذ تموز ٨٦٠، وكان قد انتقل إلى سامراء «لتقرب الأمور عليه». (١) وقد استفاد من تساهل الخليفة فأعاد بناء هيكل دير مار يونان الذي هدم في زمن سلفه.

كان الخليفة الجديد «ذا شهامة ومعرفة» (٢) ولكنّه لم يُتح له الوقت لمسابقة سياساته في الانفتاح على العلوين. (٣) فقد مات عن خلافة دامت ستة أشهر. وقد اتّهم طبيبه النصراوي، إسرائيل الطيفوري بأنّه كان سبب وفاته العاجلة، إما لأنّه استعمل في فصده مبضعاً مسموماً (٤) أو لأنّه قد قطر في أذنيه قطرات أدت إلى انفاسخ رأسه. (٥)

الحواشي

(١) لا نعرف هل هو رسمه (أم رسم جاثليق آخر) أو رسم أسقف معاصر لمدينة سامراء (٨٣٦ -

E. HERZFELD, Die Ausgraben von Samarra, انظر ٨٨٩

Dritter Band, Die Malereien von Samarra, pl. LX-LXV, notamment (en couleur) pl.

LXI; D.S. Rice Deacon or drink? dans Arabica, V (1958), p. 15-33, pl I-II; et J. DAU-

VILLIER, l'ambon ou bema dans les textes de l'Eglise Chaldeenne et de l'Eglise Sy-

rienne au moyen-Âge, Cahiers archéologiques, VI (1952), p. 19, fig 3.

(٢) المسعودي، التنبية، ص ٣٦٢ - ٣٦٣، كانت أمّه أم ولد رومية تُدعى حبشية.

SOURDEL, Politique Religieuse, p. 9 (٣)

(٤) مروج الذهب، الفقرة ٢٩٩٠.

(٥) الكامل، ج ٧، ص ١١٤.

١٢ - المستعين (٢٤٨ - ٢٥١ / ٨٦٢ - ٨٦٦)

كانت لأبي العباس أحمد المستعين بالله، ابن محمد أخي التوكل، سياسة دينية أفسر تحديداً،^(١) ولعله اضطر إلى التقرب من الشيعة لما فرّ من سامراء إلى بغداد أمم منافسه المعترّ، سنة ٢٥١ / شباط ٨٦٥.

كان على النصاري، كغيرهم من رعايا الخلقاء في تلك الحقبة، أن يختاروا أحد المنافسين وأن يدفعوا ثمن غلظتهم في الاختيار. نجد في ذلك الزمن، سنة ٢٤٩ / ٨٦٣، سلمة بن سعيد الذي صار كاتب خارق الصقلية، أم المستعين^(٢) التي كانت تصنع ما تشاء بابتها «لم يكن يمنعها من شيءٍ تريده». وعلى الرغم من هذه الشبهة، فإنَّ دار سلمة ودار إبراهيم بن مهران «العسكري»، النصراني أيضاً، حماهما حرسها والمصارعون وغيرهم من الجيران^(٣) فسلمتا من نهب الترك الذين هبوا دار دليلٍ لما غادر الخليفة سامراء.

كان أبو نوح عيسى بن إبراهيم، كاتب الفتح بن خاقان المغدور قد انتقل إلى خدمة موسى، ابن بغا الكبير، الذي «كان في ذلك الوقت الخليفة الحقيقي»، وكان كاتبه بمثابة وزير، وكانت إليه الأعمال كلها، وكان موسى فضلاً عن هذا «يطيع خصيَّة الأثير في كل شيء». فمن ذلك أنه لما اختلف صاعد بن خلد مع أبي نوح على قضية مالية، جاء عبدون أخو صاعد إلى الخصيَّ ووعده بمال كثير إذا عزل أبي نوح وجعل صاعداً مكانه، فتمَّ له ما أراد. في ما بعد تصالح صاعد وأبو نوح وزوج الثاني ابنته من الأول. وكان هذا الزواج أول ما وضع صاعداً على طريق الوزارة^(٤). وكانت القصة قد بدأت سنة ٢٥١ / ٨٦٥.

إن سيرة دليل بن يعقوب في تلك الحقبة حرية بالاهتمام أيضاً. فنحن نجده سنة ٨٦٣/٢٤٩ كاتب ضياع المستعين.^(٥) وفي العام ٨٦٥/٢٥١، أراد باغر^(٦) التركي أحد نواب الأمير بغا الكبير (وأحد الذين فتكوا بالموكل أيضاً)، أراد أن ينال بالسوء رجلاً مسلماً من أصدقاء دليل، اسمه أحمد بن مارمة. فما كان من دليل إلا أن حامى عن صديقه فأراد باغر أن يقتل دليلاً أيضاً، لكنه لم يفعل لأنَّ الأمير بغا هدأه قائلاً: «... أمري وأمر الخلافة في يديه، فتنتظر حتى أصير مكانه إنساناً وشأنك به».

وعلى الرغم من مصالحتهما عاد باغر، على سكر، إلى توعد دليل بالقتل. عندئذٍ تدخل الخليفة نفسه لتهدئه ذلك الجلف.^(٧) وهذا يبين لنا كيف أنَّ الكتاب النصارى متى كانوا أوفياء ونزيهاء، كانوا أهلاً لأن يحضنهم أسيادهم الود، ويحفروا إلى حمياتهم. ونجد آخر ذكر لدليل سنة ٢٥٢/٨٦٦. ويبدو أنه لم يزل حتى ذلك التاريخ في خدمة بغا الشرابي.^(٨) وقد قبض على هذا (وهو من قتلة الموكل أيضاً) وحبس، وحُكم عليه المعتر بالقتل سنة ٢٥٤/٨٦٨.^(٩)

توصل بعض النصارى إلى مراكز مهمة في خلافة المستعين أيضاً. نذكر منهم بشر بن هارون، كاتب محمد بن عبدالله الطاهري الذي كان آئلاً على خراسان وطبرستان والري وسائر المشرق، ومنهم أخوه بشر، جبر بن هارون الذي ناب عن العامل إبان حملته على طبرستان لمحاربة الحسن بن زيد العلوي^(١٠) سنة ٢٥٠/٨٦٤. وكان لهذين الأخرين أخ ثالث، اسمه إبراهيم، وكان كاتباً أيضاً.^(١١) وقد تحسنت حال الأخوة الثلاثة في الخلافة التالية (بعدما نهيت دورهم في الجانب الشرقي من بغداد سنة ٢٤٩/٨٦٣)^(١٢) وذلك بفضل محمد بن عبدالله الذي دبر مع أبي أحمد الموفق خلع المستعين^(١٣) لتولية المعتر، أخي نفسه.

خلص الأتراك ابن المعتر، وغادر المستعين سامراء «وأدبرت الأمور عنه»^(١٤) وانحازت بغداد إليه بينما بقى سامراء بيد المعتر^(١٥) الذي أمر سعيداً الحاجب فقتل ابن عمِّه المخلوع بحضور فضلان^(١٦) الطيب النصراوي، سنة ٢٥٢ / تشرين الأول ٨٦٦. وقد جيء برأسه إلى المعتر فلم ينظر إليه حتى فرغ من لعب الشطرنج. وكان المستعين في الخامسة والثلاثين من عمره.

الحواشي

- FORSTNER, MAR- SOURDEL, *Politique Religieuse*, p. 10-12 (1)
TIN, MAINZ, 1966
- (٢) الطبرى، ج ٣، ص ١٥١٢.
(٣) المصدر نفسه، ص ١٥٤٠.
(٤) نشوار المحاضرة، ج ٨، رقم ٣٤، ص ٧٨ - ٨٢، وللشونجى أيضًا، الفرج (تحقيق الشاجى)
ج ٣، ص ٢٣ - ٢٧. الصفدى، الواقى، ج ١٦، ص ٢٣٣ - ٢٣٥.
(٥) الطبرى، ج ٣، ص ١٥١٣.
(٦) الصفدى، ج ١٠، ص ٧١ - ٧٣، رقم ٤٥٠٩.
(٧) الطبرى، ج ٣، ص ١٥٣٦.
(٨) المصدر نفسه، ص ١٦٥٩. - ويدرك الصفدى عزل دليل بدون الإشارة إلى تاريخ محمد،
ج ١٠، ص ٧٢.
(٩) D. SOURDEL, dans E.I², I, p 1327. - الصفدى، ج ١٠، ص ١٧٣ - ١٧٥، الفقرة
٤٦٥٧.
(١٠) الطبرى، ج ٣، ص ١٥٢٤ - ١٥٢٥، الكامل، ج ٧، ص ١٣٠ - ١٣١.
(١١) كان قهورمان محمد بن عبدالله بن ضاهر. ويظهر في كتاب الديارات، ط ٢، للشابشى، ص
١٢٣، في قضية اختلاس ثياب نفيسة.
(١٢) الطبرى، ج ٣، ص ١٥١١.
(١٣) مروج، الفقرة ٣٠٦٠.
(١٤) التنبية، ص ٣٦٤.
(١٥) ابن العرى، تاريخ الزمان، ص ٤٢.
(١٦) الطبرى، ج ٣، ص ١٦٧١.

١٣ - المعتر (٢٥١ - ٨٦٦ - ٨٦٩)

إستمرت أزمة الخلافة في عهد أبي عبدالله محمد المعتر بالله^(١) ابن عم سلفه المستعين. كان سرجيس لا يزال جاثيًّا (منذ ٨٦٠)، ولكنه لا يفعل ما يذكر به. من وجہ السیاسۃ الدینیّة شهدت خلافة المعتر إعادة الاعتبار إلى سیاسة أبيه التوکل، من بعد التغیر الذي طرأ في العهدين السابقین. إتسم ارتقاء الخليفة الجدید عرش الخلافة بتغيیرات في إدارات الدواوین وفي الجيش وفي القضاء.^(٢) أمّا في الرتب الأدنى من هذه وهي التي نجد فيها النصارى بخاصة فلم يكن الانحصار إلى صفت المعتر موضع تساؤل. يذكر هنا من بين كتاب بغداد يعقوب بن إسحق وإبراهيم بن نوح.^(٣) وفي العام نفسه ٢٥١/٨٦٦، تقلد ابن الأخير، أبو نوح عیسى الحتم والتوقیع.^(٤)

بيد أنَّ سيرته انتهت كسيرة مولاه أحمد بن إسرائيل نهاية مأساوية. إذ إنها تجسراً، بعد سكرة في ما يبدو، فدخلها على المعتر ليعلمه على إسرافه في النفقات: لم يبق بيت المال شيء، لا شيء لأرزاق الحرس التركي!

ذلك أنَّ الخليفة الجديد كان «يؤثر اللذات ويعدم الرأي»،^(٥) وكان خاصصاً لأئمَّه قبيحة^(٦) الرومية، أمَّ ولد التوکل، التي كانت ترفض مساعدة ابنها على دفع أرزاق الجناد التمرّدين مع أنها كانت غنِيَّة جدًا.

قبض على ثنائي السكارى المطالبين، وضربا لاستخلاص منها المال. ومن بعدما دفعوا المال عذباً أيضاً ليقرّا بجرائم ما ارتكباهما، ولا سيما أبو نوح الذي أناخوا عليه قائلين: «وأنت مع هذا مقيم على دينك النصرانية»، ثم نقل الاثنان إلى

باب العامة، الموضع المعتمد للإعدام. هناك جُلد خمس مئة جلدة، ثم حملا منبطحين على بغلين من بغال السقائين. فهات أبو نوح من يومه وكذلك مولاه أحمد بن إسرائيل.^(٧)

رأينا سابقاً أننا نجد في أطباء هذه الحقبة إبراهيم بن أبيوب الأبرش الذي عالج إسحائيل ابن المعتر. وقد خلع المعتر في العام ٢٠٥ / تموز ٨٦٩. وحبس في حجرة حتى مات جوعاً، وكان عمره ٢٤ سنة.

الحواشي

- (١) عن هذا الخليفة انظر: FORSTNER, MARTIN, AL-Mu'tazz billah, Gemersheim, 1976.
- كان أبو عشر الفلكي قد تبّأ له بأنه سيصيير خليفة بعد حرب أهلية. وقد كافأه المعتر بهدايا كثيرة وعينه رئيس منجمي الخلافة، نشوار، ج ٨، ص ٥٧.
- (٢) SOURDEL, Politique Religieuse, pp. 12-13.
- (٣) الطبرى، ج ٣، ص ١٦١٥.
- (٤) المصدر نفسه، ص ١٦٤٠، يشير سورديل (Vizirat p.297) إلى أن التنوخي يذكر أنه كاتب الضياع.
- (٥) التنبيه والاشراف، ص ٣٦٤ - ٣٦٥.
- (٦) من باب التسمية بالضد، ذلك لأنها كانت أحسن نساء عصرها، التعالى، لطائف، ص ٤٦. عن قبيحة، انظر: ابن الساعي، نساء الخلفاء، ص ١٢٥ - ١٢٧.
- (٧) الطبرى، ج ٣، ص ١٧٠٦ - ١٧٢٠ - ١٧٢٢. - ثمة تفاصيل أخرى في Vizirat, p 317 no. 4، التنوخي، الفرج، ج ١، ص ٢١١ الحاشية رقم ٢٤.

١٤ - المهدى (٢٥٥ - ٨٦٩ / ٨٧٠)

«عادت الخلافة إلى بني الواقق» مع أبي إسحق محمد المهدى^(١) بالله. ولكن بدلاً من ردة الفعل المتساهلة التي كانت متوقعة، «تميّز الخليفة الجديد بأصوليته وحرصه على مباشرة أمور القضاء بنفسه لما صار يتولى قضاء المظالم». ^(٢) ويُطبّق المسعودي في الثناء عليه: «كاد أن يكون في بني العباس مثل عمر بن عبد العزيز في أمية هذبًا وفضلاً ودينًا، فصادف أقواماً لا يجوز عندهم أخلاق الدين ولا يريدون إلا أمر الدنيا، فسفكوا دمه وتشتتت أمورهم بعده». ^(٣)

بديني أن يكون أول ما فعله رجل كهذا لدى وصوله إلى السلطة هو تحرير الشراب والنبي عن القيام. ^(٤) كان التدبير الأول يمس النصارى مباشرة. ربما كانت الأديرة، حيث تسکب «بنت الدير»، مصادر إلهام للشعراء^(٥) (مع أنَّ كتب الديارات لم تزدهر إلا بعد حوالى قرن من ذلك الزمن) إلا أنها كانت، في نظر المسلم الورع، من موارد التهلكة.

لقد كان الحمارون الذميين، «المرقطو الثياب المختومو الأعناق»، عرضة لانتقادات الجاحظ^(٦) سواء سموا «أذين أو شالوما، أو مازيار، أو ازدانقاذار، أو ميشا». ولذلك فقد درج الخلفاء المصلحون على إغلاق الحانات^(٧) وطرد المغنين والقيان وكسر آلات الملائكة. ^(٨) وقد «بذل المهدى كل ما في وسعه من جهد لانشال الخلافة من انحطاطها». ^(٩)

وذهبت به الحمية إلى حد الأمر بأن تمحي الصور التي كانت تزيّن قاعات

القصور بسامراء^(١٠) خاصة. إلا أن زهده وتقشفه ومسووحه وتهجده وما كان يبذله من نصائح سرعان ما أتعبت الناس.

وقد اضطر إلى القضاء على عدد من الخارجين أو المنافسين ولكنه أخفق أمام الأخير منهم: الأمير التركي موسى، ابن بغا الكبير، الذي دخل سامراء في ١٢ من المحرم سنة ٢٥٦ (٣٠ كانون الأول ٨٦٨). قبل وصول موسى بن بغا^(١١) كان بختي Shaw في صحبة صالح بن وصيف الأمير التركي الذي اضطر إلى الاختباء، ولا نعلم كيف تخلص بختي Shaw.

لما رفض الخليفة أن يخلع نفسه، من بعدما قبض عليه، أمر به فقتل، وروى بعضهم أنه قد عصرت خصيياه. ولم تبلغ مدة خلافته سنة.^(١٢)

لا نعرف شيئاً عن النصارى في خلافة المهتدي العابرة، ما خلا وجود بعض الأطباء وبعض «النكبات» التي ربما نزلت بالخوارين. في فوضى سامراء نجد أمراء الترك يرفعون الخلفاء والوزراء ويضعونهم، ولا يكاد المرء يجد الوقت للكلام عن الصغار حتى يرى الكبار يختفون من المسرح.

الحواشي

(١) الصندي، ج ٥، ص ١٤٤ - ١٤٦، رقم ٢١٥٨.

(٢) SOURDEL, *Politique Religieuse*, p. 13.

(٣) التنبية، ص ٣٦٦ - ٣٦٧، ثمة مناقشة لشخصية هذا الخليفة الحقيقة بقلم BARTHOLD في *Islamic Quarterly*, London, XV (1971) p. 69-95

(٤) مروج، الفقرة ٣١١، يضيف ابن الطقطقي، ص ١٩٩ أنه: «منع أصحابه من الظلم والتعدي».

(٥) عن فن الخمريات انظر: E.I.², p 1030-1041 بقلم J.E. BENCHEIKH ومع ذلك تجدر الإشارة هنا إلى أن الأديرة كانت حلاً للملاهي الشعيبة البربرية برئادها الجميع ولا سيما أيام الأعياد (هذا إذا غضبنا النظر عن دورها كمراكز روحية وفكرية). انظر J.M. FIEY أعياد الأديرة، أعياد شعبية في مجلة التراث الشعبي، بغداد، (١٩٧٩) ٢، ص ١٢١ - ١٣٠ . G. TROUPEAU, *Les couvents chrétiens dans la littérature arabe*, Nouvelle revue du Caire, I, (1975), p 265-279.

- (٦) البيان، (ط. القاهرة. ١٩٦٠)، ج ١، ص ٩٤.
- (٧) يمكن التعليق على حب الحمراء من حيث هو عائق في سبيل اعتناق الإسلام، مع اعتبار الأخطاء غروراً.
- (٨) ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ٤٢ - ٤٣.
- (٩) K.V. ZETTERSTEEN, dans E.I.^١, III, p 750-751. كان وزيره أبو أيوب سليمان بن وهب بن سعيد يتحدر من أسرة نصرانية ويصفه ابن الطقطقي ص ٢٠٠، بأنه «أحد عقلاه العالم». أنظر مصادر عنه في: SOURDEL, Vizirat, p. 300 no. 5.
- (١٠) مروج، الفقرة ٣١٣٠.
- (١١) الطبرى، ج ٣، ص ١٧٩٠.
- (١٢) يحاول الأب لويس شيخو في كتابه شعراً النصرانية ص ٢٦٣ - ٢٦٦ أن يرصد سيرة أبي موسى عيسى بن فروخان شاه القنائى فيجعل منه وزيراً للمعترض. والحق أنه كان حدثاً عهداً بالإسلام، ولم يكن، كنصراني، يشغل في أول أمره إلا وظيفة قيئٍ على الضياع في خلافة المترائل، سنة ٢٤٣، pp. 734-736 Vizirat مع مصادر.

١٥ - المعتمد (٢٥٦ - ٨٧٠ / ٢٧٩ - ٨٩٢)

أخيراً، نقع على خليفة حكم، اسمياً^(١) على الأقل، أكثر من بضعة أشهر، فقد رأى سرجيس الجاثليق خلال اثني عشر عاماً ستة خلفاء يصعدون ويهبطون. ولما كان سرجيس قد توفي نهار الأحد ٢١ أيلول ٨٧٢، فمن المرجح أن يكون قد التقى المعتمد الذي استخلف سنة ٢٥٦ / حزيران ٨٧٠، مع آن التاريخ لم يحفظ ذكر هذا اللقاء.

قبل أن نغادر سرجيس الجاثليق لنذكر، وإن كنا لا نملك تأريحاً للحدث، مكيدة جديدة دبرها سميه، الطبيب الأريوسي الذي كان قد سبب المتاعب لتأذيسين بين العامين ٨٥٣ و٨٥٦. ففي أيام سرجيس، أي بعد ٨٦٠، استولى الطبيب المارق على إحدى كنائس رعيته، ببغداد في ما يبدو. لم يرض خليفة ذلك الزمن (أحد الستة الذين تقلدوا الخلافة أيام الجاثليق) أن يبت في القضية من غير مناظرة تجري في حضرته بين الطبيب والجاثليق. خاف النساطرة على قول ابن العربي،^(٢) لأنهم كانوا يعرفون أنَّ رئيسهم قليل العلم والفصاحة. ولكنه غالب خصميه، خلافاً لما كان يتوقع، فحكم الخليفة على الطبيب بأن يدخل الإسلام. ولما تردد هذا، ولما كان الخليفة يحبه أمهله حتى يتفكر في الأمر. وبعد فترة حزم الطبيب أمره: فكان أن «قطع نصراني آخر زياره».

كان أبو العباس أحد المعتمد على الله ابن التوكّل، وكان ربما اتبّع سياسة أبيه لو لا أنَّ أخيه الموفق، الذي كان من قبل قد ساند المعتز،^(٣) أبعده عن مباشرة شؤون الحكم بنفسه. وينبغي ألا يفوتنا أيضاً أنَّ بغداد كانت بين العامين ٨٧٣

و٩٢٩ تحت حكم الحرس البريتوري البيزنطي الأصل.^(٤) أما الوزراء فكانوا يعينون ويعزلون عدّة مرات.^(٥) في العام ٨٧٣/٢٦٠، أي في أثناء خلو كرسي الجائحة، مات الطبيب الكبير حنين بن إسحق الذي صادفه في عهد المتوكل.^(٦)

XI تأخر انتخاب أنوش،^(٧) مطران الموصل، جاثليقاً حوالي خمس سنوات. كان كلّ من المرشحين قد استعان بأصدقاء له من أصحاب التفوذ. وكان أحدهم، واسمه إسرائيل مطران كسكر، قد انتخب عملياً، إلا أنَّ أمير بغداد أمره بالتخلي، ولما تلّكَ في ذلك، هجم عليه أحد أنصار أنوش المتعصّبين وشله من على البيم وعصر خصيتيه، فمات إسرائيل بعد أربعين يوماً.^(٨)

واستمرت التزاعات العنفية بين الأسر المتنافسة. فقد أوشك مرشح آخر سامه يوحنا بن نرسى أن يتّخِب (وقد انتُخِب في ما بعد)، بيد أنَّ أنوش المستند إلى الأطباء الملكيين لم يرغب عن طموحه في بلوغ السُّلْطَة. وقد بلغها، وسيم جاثليقاً سنة ١٣/٢٦٣ كانون الثاني ٨٧٧.

منْ كان أولئك «الأطباء الملكيون»؟ نعرف منهم واحداً على الأقلّ، كان في خدمة الموفق، إنه يوحنا بن بختيشوع الذي كان متربّحاً أيضاً. ويروى أنَّ الوصي العظيم التفوذ كان يثق فيه ثقة عظيمة «ويسميه مفرج تكريبي».^(٩) وكان ابنه بختيشوع بن يوحنا طبيباً^(١٠) أيضاً، وسنصادفه لاحقاً.

سنة تحوّل

إتّسمت السنة التي أعقبت انتخاب أنوش، أي ٨٧٨/٢٦٥، «بانعطاف في السياسة الداخلية لدولة الخلافة»: ففيها ظهر بعض الموظفين الشيعة. في السنة عينها اختفى الإمام الثاني عشر محمد بن الحسن وهو بعد حدث، في ظروف غامضة، في سرداد بسامراء، على ما قيل. «وقد مال كثيرون إلى أن يروا في هذا الاختفاء أصابع شرطة الخلافة».^(١١)

كانت تلك السنة مهمة من وجهة نظر النصارى أيضاً. فقد أدى دخول كثيرين من النصارى الإسلام حدثاً، إلى وصول عدد منهم (ويصورة غير متوقعة)

إلى السلطة، مثل ذلك الكتاب المتحذرون من دور فني.^(١٢) ولكنّ نفراً من أفراد أسرهم ظلّوا على النصرانية، كالنساء منهم بخاصة. كان من شأن هذا أن يحدث، في ظروف أخرى، قطيعة جذرية، ولكن المسلمين الجدد في هذه الحالة لم يتنكروا لأصولهم بل إنّ أقاربهم الذي ظلّوا على النصرانية قد تملّكون بواسطتهم من تحسين حالهم بعض الشيء. وهذا ما سمّاه لويس ماسينيون، في شيء من المبالغة، «السياسة الإسلامية - المسيحية» للكتاب الذين كانوا نساطرة سابقاً.. «في بغداد». (١٣) ولعلّ المثل الساطع على هؤلاء الأخوة غير الأعداء هو مثل الوزير (المسلم) صاعد بن مخلد^(١٤) وأخيه (النصراني) عبدون.

وقد اتفق في هذه السنة بالذات، ٨٧٨/٢٦٥، أنّ «حبيباً (?) الرّاهب الذي من بيت الحكمة ببغداد»^(١٥) (أي أنه مترجم رسمي؟) وجد ببرمنا (?) على ما روي، «نسخة عهد وسجّل» بالعربيّة «على جلد ثور» ادعى أنّ فيه نصّ المعاهدة الشهيرة المعقودة سنة ٦٣١/١٠ بين النبيّ محمد وبين نصارى نجران (باليمن) من بني الحارث^(١٦) الذين زعم بنو خلَد الارتباء إليهم. ثمة صيغة إسلامية لهذه المعاهدة^(١٧) أقدم عهداً (وربما كانت أصلية)، وأقصر نصّاً، ييد أنّ نصّ «حبيب الرّاهب» كان أصرّح ويورد سلسلة من الإجراءات السياسيّة المحدّدة التي لم تكن لترد فيها إلاّ بعد قرون طویلة من التعايش: «لا تعزل الدولة الإسلامية الأساقفة ولا تهدم الكنائس بل تسمح بإعادة عمارتها، تكون الجزية ٤ دراهم على الرأس و١٢ على التجّار ويُضاف إليها الخراج، في حال الحرب يعفى النصارى من القتال والتجسس على العدو، ومن تجهيز الجيش (ولا يطلب منهم إلاّ إيواء الجنود ثلاثة أيام وثلاث ليال)، تخفّف القوانين المشدّدة، لا تحظف نساء النصارى ولا يكرهنن على الإسلام».

إننا لنشعر أنّ هذا النصّ يردّ على «الشروط العمرية» (المزيفة)، إذ يجد في الوقت المناسب (أو يخترع) عهداً أقدم (بินاظرها في التزييف) ويناقضها تماماً. كانت الأحوال السياسيّة، في عهد الوزراء من بني مخلد (النصارى سابقاً) مؤاتية لتطبيق بنود «العهد» وتحقيق شيء من الانفراج (المؤقت) في أوضاع النصارى.

ولعلّ هذا الوضع الجديد هو الذي كان ببال ماري لما كتب هذه الجملة

الأخيرة في ترجمة أنوش: «وحسن رأي المعتمد^(١٨) في النصاري». ومع ذلك يبدو أنَّ النصَّ يربط تغيير الموقف هذا بهزيمة صاحب الزنج^(١٩) (موته ٨٨٣/٢٧٠) من بعد ما دُوَّنَّ في البلاد، ولا سيَّاً سواد البصرة منذ العام ٨٦٨/٥٥٥.^(٢٠)

مات أنوش الجاثليق سنة ٢٣/٢٧٠ أيار ٨٨٤. ولم يبقَ كرسى الجاثليق شاغراً إلَّا خمسة أشهر ونصف. أراد أعيان النصاري (عبدون بن مخلد وسلمة بن سعيد^(٢١) المقيمان بسامراء) منذ البداية انتخاب يوحنا الترسى،^(٢٢) أسقف الأنبار، من دون التفكير بفرضه على الرعية. ومن أجل صيانة قاعدة الانتخاب وإرضاء عبدون في الوقت نفسه اختار نفر من الآباء راهباً من أقارب عبدون مرشحاً ثالثاً، علمًا بأنَّ الثالث كان مطران الموصل.

XII وقعت القرعة على يوحنا. واضطُرَ النباس إلى إجباره على القبول بالمنصب، ثمَّ سيم جاثليقاً سنة ١٤/٢٧١ كانون الأول ٨٨٤. وقد اشتهر إثر آية حديث إِيَّان صلاة سيماته إذ شفيت على الفور فخذل كسرت في الزحام. وبذلك صار له حظ من احترام الناس. ولكن بعد بضعة أشهر من انتخابه،^(٢٣) أي سنة ٨٨٥، استولى «شَطَّار بغداد» على دير كليليشوع، الواقع على نهر عيسى (إلى الجنوب من الجانب الغربي من بغداد) ومقرَّ الجاثليقة منذ أيام طهياثاوس. نهوا الأواني المقدسة وكلَّ ما وقعت عليه أيديهم من التفافس، خلعوا الأبواب ونقضوا بعض الجدران ونقبوا السقوف ليبيعوا الخشب وموادَّ البناء. عجل محمد بن طاهر بإرسال الحسين بن إسماعيل صاحب الشرطة الذي قاتل النهايب ومنعهم من تدمير بقية الدير. وسمح للنصاري بإعادة بناء ما تهدم^(٢٤) بفضل نفوذ عبدون بن مخلد. في السنة التالية، ٢٧٢/٨٨٦، اجتمعت العامة وهدمت ما كان أعيد بناؤه.^(٢٥) ويورد المؤرخون لأعمال الشغب هذه أسباباً شتَّى. فإيليا النصيبي النسطوري ينسب ذلك إلى فورة غضب الشعب على تكبير النصاري الذين لم يحترموا بنود التمايز والذين «كانوا يركبون الخيل»، ومعلوم أنَّ هذا كان حكراً على المسلمين. أمَّا ابن العربي فيرى أنَّ السبب المباشر كان بخل الجاثليق. فقد كانت العادة جرت ببذل شيء من المال لشيخ عربيٍ هو إمام المسجد المجاور «القلية» الجاثليق. فلماً منع الجاثليق ذلك المال، دبر الشيخ وأصحابه مكيدة للجاثليق: رمى بعض المنديسين حجارة على

جنازة رجل مسلم، فادعى بأنَّ الحجارة جاءت من جهة كليليشوع، فكان أن عادت العامة بعد الدفن إلى الدير... .

من المحتمل أن يكون السببان قد تكاملَا، أي أنْ يكون خياله النصارى الأثرياء قد أذكى نار السخط وأن يكون حادث الجنازة النقطة التي طفح بها الإناء (كانت الجنازة من أكثر نقاط الاشتباك حرارة لأنَّها كانت من الجانبين ذريعة لاحتلال الشارع).

عمل يوحنا الجاثليق، يعاونه عبدون، على إعادة بناء دير كليليشوع^(٢٦) ولكنَّه لم يعد إلى الإقامة فيه قبل نهاية خلافة المعتمد، بل فضل الاستقرار بواسطه، بعيداً عن عرش الخلافة، ومكث هناك خمس سنوات. ولما عاد إلى بغداد في أواخر جملقته، أقام بدار الروم، بالكنيسة التي بناها الأصبع العبادي^(٢٧). تركت الجملقة إذن جانب دجلة الغرب، أي الكرخ، لتنتقل إلى الجانب الشرقي، وتستقر إلى حين في الشهاسية شهابي بغداد. يستغل عبدون كونه أخاً للوزير «فتعدي طوره» وصار يحكم في المسلمين كما نتبين من شعر^(٢٨) يستهدفه، في ما يبدو:

ويحكم عبدون في المسلمين
ومن مثله تؤخذ الجالية
فهذا الخلافة قد ودعت
فخلل الزمان لأوغاده إلى لعنة الله والهاوية

وقد تجاسر الشاعر نفسه على هجاء صاعد^(٢٩) الوزير، بقوله:

سَجَدَنَا لِلْقُرُودِ رِجَاءَ دُنْيَا حَوْتَهَا دُنْسَا أَيْدِي الْقُرُودِ

هل كان سلوك عبدون سبب سقوط أخيه صاعد، كما أشار إليه لويس ماسينيون؟ على أيَّة حال يجوز لنا أن نذهب مذهب سورديل^(٣٠) في ما استنتاجه من نص الشاشبي^(٣١) إذ قال: «لدينا قناعة بأنَّ الموقَّف كان يبحث عن ذرائع للتخلص من كاتبه». قبض على الأخرين صاعد وعبدون أبي مخلد سنة ٢٧٢ / ٨٨٥. أمَّا صاعد المسلم فقد مات سنة ٢٧٦ / ٨٨٩ من كثرة ما قاسى من عذاب. وأمَّا عبدون النصارى فقد ترهَّب من بعد ما أفرج عنه وأقام بدير قني حتى العام

٩٢٢/٣١٠.

وقد لقي يوحنا بن نرسى نفسه بعض المتابع في أواخر جثلته. يروى ابن العبرى أنَّ الوزير إسماعيل بن بليل^(٣٣) استولى على بعض ضياع الجثلقة. فلم يتردد يوحنا في الذهاب لمقابلة ابن بليل. لا نعرف هل استرجع الضياع أم لا، ولكن المحادثة انتهت بشهادة الحائليق بإيمانه المسيحي^(٣٤).

مات المؤقت سنة ٢٧٨ / ٢ حزيران ٨٩١، ومات الخليفة المعتمد في السنة التالية / تشرين الأول ٨٩٢، عن حوالى خمسين سنة، وربما مات مسموماً باسم دُسْه له خلفه؟

لم يكن له شأن يذكر في سياسة عصره، إذ كان ينفق أيامه في الملذات والملاهي والغناء، وهذا ما يتبع للمسعودي^(٣٥) فرصة الاستطراد في الكلام عن الغناء والخمور... أما سعيد بن البطريق^(٣٦) فيقدم خلاصة عن عهده، لا أثر فيها للثناء، إذ يكتب: «وأتصلت الحروب والفتنة وزاد فساد البلدان والأمصار وكثير المتغلبون في جميع الدنيا. وكانت أيام خلافته كلها دائمة الفتنة متصلة الحرب».

لم يتأخر أجل الحائليق يوحنا بن نرسى عن أجل الخليفة كثيراً فمات في الفاتح من رمضان ٢٧٩ / ميلاد ٨٩٢. وقد انتهت جثلته بمعجزة كما بدأت بمعجزة:^(٣٧) عندما اجتازوا بنعشه في بعض الطرق (هذه المرأة أيضاً سبّت الجنائز تفاصم السخط!) «بصق عليه رجل مسلم لهوا فسقط من وقته» ثم برئ من بعدهما طرحوه ملقى على التابوت.

الحواشى

(١) «كان المعتمد مستضعفاً»، ابن الطقطقي، ص ٢٠٢ . - الصفدي، ج ٦، ص ٢٩٢ - ٢٩٣ ، ٢٧٨٩ رقم .

(٢) ج ٢، العمود ١٩٨ - ٢٠٢ .

SOURDEL, *Politique religieuse*, p. 13-15; Vizirat, p. 305-328. (٣)

L. MASSIGNON, *Le mirage byzantin dans le miroir bagdadien d'il y a mille ans*, repro- (٤)

duit dans *Opera Minora*, p 136; Rum à l'est de l'Euphrate, p.p. 403-420.

(٥) ابن الطقطقي، ص ٢٠٣ .

- (٦) ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ٤٣، E.I.², II, s.v. p. 598-599, par G. STROHMAIER.
- (٧) ماري، ص ٨١ - ٨٢، صليبيا، ص ٧٣ - ٧٤، ابن العربي، ج ٢، العمود ٢٠٦ - ٢٠٨، إيليا التصيبيني، الحاشية العربية، ص ٧٣ وتحت العام ٢٧٠ للهجرة.
- (٨) يبدو أن طريقة القتل هذه كانت دارجة في تلك الحقبة، انظر حالة عائلة في العام ٨٥٩/٢٤٥ في الكامل لابن الأثير، ج ٧، ص ٨٩.
- (٩) ابن أبي أصيبيعة، ص ٢٧٦ - ٢٧٧.
- (١٠) المصدر نفسه، ص ٢٧٧.
- (١١) SOURDEL, *Politique religieuse*, p. 14.
- (١٢) Vizirat, passim.
- (١٣) Opera minora, I (1963), p. 250-257.
- (١٤) ياقوت، معجم البلدان، ج ٢، ص ٥٢١ تحت دير عبدون، يقول إنَّه أسلم على يد الموقق. عن دوره انظر: Vizirat, p. 318-322 . كان المسلمين الأقدم عهداً بالإسلام يرتبون قليلاً من حمية هؤلاء المتجلدين في الإسلام. فمن ذلك التعليق اللاذع المنسب إلى الناقد محمد بن القاسم أبي العيناء (ت ٢٨٣/٨٩٢) الذي لما اضطُرَّ إلى الانتظار حتى يفرغ الوزير D.S. MARGOLIOUTH, Wit (لكل جديد للدة)، and Humour, in Arabic Authors, p. 525.
- (١٥) التاريخ السعْري (P.O., XIII, p. 601 et Sq.) المصادر في مقال ماسينيون Scribes Nesto- riens, p. 253, no. 1.
- (١٦) شيخو، المشرق، ج ١٢ (١٩٠٩) ص ٦١٨ - ٦٧٤، ٦٠٩ - ٦٨٢.
- (١٧) المصادر في مقال TIBAWI, p. 34, 42-43. Scribes Nestoriens, p. 253, no. 2 Massignon,
- (١٨) يصحح النص الذي يورد «المعتقد».
- (١٩) الذي يسميه ماري (ص ٨١ - ٨٢) «العلوي البصري». ويظهر هذا اللقب بخاصة في كتاب العيون والحدائق في أخبار الحقائق، (ج ٤، القسم الأول، ص ١٤، طبعة عمر السعدي)، دمشق، ١٩٧٢.
- (٢٠) الطبرى، ج ٣، ص ١٧٤٢ - ٢١٨٤.
- (٢١) صادفناه منذ ٢٤٨/٨٦٢. وقد تقلَّد، فيها تقلَّد من مناصب على ما قيل، الكتابة لأم المستعين. ويتقلَّد ابن القِيم، أحکام، ص ٢٢٠.
- (٢٢) ماري، ص ٨٢ - ٨٣، صليبيا، ص ٧٤ - ٨٠، ابن العربي، ج ٢، العمود ٢١٠ - ٢١٤، إيليا التصيبيني، تحت الأعوام ٢٧٠ - ٢٧٢، ٢٧٩ والhashia العربية ص ٧٤.
- (٢٣) «سبعة» عند ابن العربي، ولكن في العام ٢٧١ (؟).
- (٢٤) الطبرى، ج ٣، ص ٢١٠٧ - ٢١٠٨، ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ٤٤ - ٤٥.

(٢٥) الطبرى، ج ٣، ص ٢١٠٨، إيليا التصييبى تحت العام ٢٧٢ للهجرة، تبعاً لـ محمد بن يحيى.

(٢٦) يذهب صليباً إلى أن الدير قد هدم ثلاث مرات؟

Rum à l'Est de L'Euphrate, p. 377-385 (٢٧)

(٢٨) ينسبه المسعودي (مروج، الفقرة ٣٤٠٨) إلى علي بن بسام و يجعله في خلافة المقتدر (٩٠٨) - (٩٣٢). - وقد كان ابن بسام (ت ٣٢٠/٩١٤) هذا يرى أن الحظوة التي تتمتع بها النصارى في وزارة بني الفرات شرط من أشرطة الساعة يؤذن بقرب قيامها. وينسب فوات الوفيات

(طبعه بيروت، ج ٣، ص ٩٢) إليه هذين البيتين:

إذا حكمَ النصارى في الفُروجِ وتساهوا بالبغالِ وبالسروجِ
فُقل لِلأعورِ الدجالِ هذا أوأْكَ إِنْ عَزَّمْتَ عَلَى الْخُرُوجِ.

(٢٩) مروج، الفقرة ٣٤١٤.

(٣٠) Vizirat, p. 322.

(٣١) الطبعة الثانية (١٩٦٦)، ص ٢٧٠ - ٢٧٣.

(٣٢) وزير الخليفة (٢٦٥ - ٢٧٨/٨٧٨ - ٨٩١) ثم كاتب الموقن أيضاً بعد صاعد بن خلدون (٢٧٢/٨٨٥) - ونجد في نشوار المحاضرة، ج ٢، ص ٣١٩، أنَّ أعرابياً عائناً قال لإسماعيل بن ببل: «قتلت والله المزنِ» لما رأى غلاماً لإسماعيل يقتل زبورة «مزنِّا». وفي قول الأعرابي إشارة إلى أصل صاعد في التصرانية.

(٣٣) في البداية حاول أن يتخلص متذرعاً بأنه لم يكن بارغاً في المناظرة، فرد عليه الوزير: «ولم يجعلوك أسفقاً إذن؟» فأجابه يوحنا في تواضع: «لست أهلاً لذلك ولكنهم لم يسمعوا لي». كان آخر ما قاله صحيحاناً، ولكن هل كان جاهلاً إلى الحد الذي كان يدعوه؟ يقول صليباً عنه إنه كان «رجلًا مشهوراً بالعلم» (هذا إذا لم يكن كلام صليباً روسيّاً).

(٣٤) مروج، الفقرة ٣٢١٣ وما يليها.

(٣٥) التاريخ المجموع، (Annales CSCO, 51) ص ٦٨.

(٣٦) في خلافته مات (بعيداً عن بغداد) اثنان من أكبر المحدثين، البخاري (ت ٢٥٦/٨٧٠) ومسلم (ت ٢٦١/٨٧٥)، وقد حدد «صحيحاهما» معلم الحديث والستة بشكل ثلثي.

(٣٧) ثمة معجزة طويلة، توصلت بين الاثنين (يروها صليباً، ص ٧٨ - ٨٠) وهي ظهور الجاثلين لتاجر ليحميه من السرقات الخ. ويجري قسم من القصة في مصر بين يدي ابن طولون (وكاتبه أبي يعقوب إسحق بن نصیر) وتنتهي في ديار الروم بتنصر اللصوص الذين أسلّهم التاجر، واسمته أبو نصر بن الصلت.

١٦ - المعتضد (٢٧٩ - ٨٩٢ / ٢٨٩ - ٩٠٢)

خلف أباه الموقّف في الوصاية من سنة ٨٩١/٢٧٨ ثمّ بُويع له بالخلافة سنة ٨٩٢/٢٧٩. كان المعتضد رجل دولة حقيقىًا، ورجل إدارة ممتازًا،^(١) كان قويًا ذكياً، وكان من أبرز خلفاء بنى العباس.

يلاحظ دومينيك سورديل^(٢) أنَّ إجماع المؤرخين على كيل الثناء على المعتضد يعزى في أغلب الأحيان إلى أسباب متباعدة جدًا، إذ إنَّ ما سعى إليه قبل كل شيء كان تبدئة الخواطر بالنسبة إلى القضايا السياسية الدينية «التي أثارها، منذ البداية، وصول العباسيين إلى السلطة، والتي هدفت إلى حلّها التدابير التي دبرها المأمون فالمتوكل» علماً بأنَّ تلك القضايا لم تكن قد فقدت شيئاً من حدتها في ذلك العصر. وقد عكف المعتضد «إجمالاً» على تحسين الحال العامة لا على إزالة الإساءات الفردية فحسب. وتنقل إلينا المصادر النصرانية الشعور نفسه بالنسبة إلى علاقة إدارته بالنصارى: «وظهر من نعم الله على النصارى بحسن رأي المعتضد فيهم ما شكروه وحمدوه عليه». ^(٣)

وقد حسد بعض المسلمين عبد الله بن سليمان^(٤) كاتب المعتضد على الثقة التي أولاها إليها مولاها واستجرؤوا على التلميح بأنَّ الخليفة «يميل إلى النصارى». فلما أطلع المعتضد على الأمر قال: «ما وليت نصرايَا سوى عمر ابن يوسف للأنبار، والجهاذنة يهود ومجوس واعتهدت عليهم لقتهم لا ميلاً إليهم لكن لشقي بيهم». وأضاف خطاطئاً كاتبه عبد الله بن سليمان: «إذا وجدت نصرايَا يصلح لك فاستخدمه فهو آمن من اليهود لأنَّ اليهود يتوقعون عودة الملك إليهم وأمن من المسلم لأنَّه

بموافقته لك في الدين يروم الاحتياط على مزلك وموضعتك وأمن من المجروس لأنَّ المملكة كانت فيهم». باختصار، كان النصارى خدمة مثالٍ لأنَّهم لم يلوا السلطنة في البلاد ولن يتولُّوها من بعد. وهذا ما غلط فيه المعتصد بالضبط، ظنَّ أنَّ النصارى لا يصوبون إلى هذه السلطة التي لم يلوها قط. ولكن موقفهم من الصليبيين ومن المغول في ما يلي من الأيام سيكشف عن هذه الصبوة.

XIII في خلافة المعتصد، وبعد خلو السدة حوالي سبعة أشهر قُلد الجائزة يوانيس^(٥) مطران الموصل، الذي سيم جائياً في ٢٥ ربيع الآخر ١٥٢٨٠ تموز ٨٩٣. وقد دعم ترشيحه الحسين بن عمرو^(٦) الذي صار من بعد كاتب علي، ولني عهد المعتصد، ثم كاتبه لما بُويع بالخلافة باسم المكتفي.^(٧) وسوف نلقاء من بعد.

كان الحسين بن عمرو، كغيره من الكتاب من قبله ومن بعده، عرضة لهجاء الشعراء، وقد حفظ ابن الأثير^(٨) فيه هذه الأبيات (للحسين بن الضحاك الخلنج) التي ترقى إلى العام ٢٨٦/١٤٩٩:

حسين بن عمرو عدو القرآن	يصنُّ في العرب ما يصنُّ
يقوم هبَّته المسلمين	صفوفاً لفرد إذا يطلع
فإنْ قيلَ قد أقبلَ الجاثلِيق	تحفَّى له ومشى يَظْلَعُ

هل تتوقف عند البيت الأول؟ كان الشاعر يعتبر هذا النصري (وكل النصارى؟) عدواً للقرآن.

ثمة نصير آخر من أنصار الجاثلِيق أقام له استقبالاً بكنيسة الأصبع بدار الروم، ثم استقبالاً ثانياً بدير كليليشوع بالجانب الغربي من دجلة، إنه فروخان شاه.

ومن أعمال يوانيس، يذكر أنه وسع محل الإقامة الذي اختاره، في كنيسة الأصبع، بشراء دار الروم التي كانت قد نقلت إليها جالية سهالو، وبasher، بذلك، العملية التي حُولَّت الكلَّ إلى دير الروم، مقرَّ الجائزة السريانية الشرقية. وقد ساعده عمر بن يوسف، الذي صادفناه من قبل، (بالمال أو بالنفوذ؟) على تملك عمارَة «الروم».

مع أنّ صليباً يصف يوانيس بأنه «تام الفضل جامعاً للفضائل» فإنه يضيف أنّ الجاثليق «كان شديد الحبّ للهمال». ويواافق ابن العربي على أنه كان طهراً، ويزيد أنه كان نهراً أيضاً. ويذهب ماري (الذي كان نسبياً مثله) إلى أبعد من هذا ليقول: «وكان يأكل كثيراً ويشرب مفرطاً، حتى إنّ البعض كانوا يحملونه على الشرب ليروا ما يصنع إذا ما سكر».

أصيب يوانيس بسكتة عُمرَّ بعدها سنة، ثم مات في غرة شعبان ٩٢٨٦
أيلول ٨٩٩.

نصارى قرب العرش

نجد في بطانة الخليفة المعتصم، كما في بطانة من قبله، أطباء نصارى. وكان أشهر هؤلاء غالب^(٩) الذي طبّب الموقّف من قبل. كان في خدمة غالب المتتبّب سبعون غلاماً، كلّهم نصارى، بلا شكّ، لأنّه كان يحظر على النصارى اتخاذ الغلام من المسلمين.

وقد اتّهم أحد هؤلاء الغلام بتشمّن النبيّ.^(١٠) إلا أنّ مركز الطبيب كان من القوّة بحيث لم يتجرّأ أحد من المسؤولين المسلمين على إقامة الحدّ على المتهّم. فأنجحيل المدعون من باب إلى باب حتى اجتمعوا على القاسم بن عبيد الله^(١١) ثم على المعتصم. ويذهب ابن العربي إلى أنّ الخليفة قال: «العرب كذبة» وبعث بعض العسكر ليخلّصوا الغلام. أمّا ابن الأثير فيروي أنّ الخليفة بعث المدعين إلى القاضي البارع أبي عمر^(١٢) الذي «دخل باباً وأغلقه ولم يكن بعد ذلك للخادم ذكر ولا للعامة ذكر اجتماع في أمره».

ولما مات غالب المتتبّب بأمد سنة ٩٠٠ / ٢٨٧، كان الخليفة بها مع مؤنس فشّفاه بحضور دفنه.

كان ابن الميت، أبو عثمان سعيد،^(١٣) طبيباً أيضاً وعاش ببغداد حتى جمادى الآخرة سنة ٣٠٧ / أواخر تشرين الثاني ٩١٩.

ويشير عريب بن سعد القرطبي، صاحب صلة تاريخ الطبرى^(١٤) إلى نفوذ

النصارى في هذه الحقبة أيضًا: للترقى في المجتمع كان لا بدًّ للمرء، في ما قال، من أن يذكر بعلاقاته بالنصارى قائلًا: «إنَّ أهلي منكم وأجدادى من كباركم» ويروى الكاتب خبرًا وقع بحدِّ الحسين بن القاسم الوزير مفاده: «أنَّ صليباً وقع من يد عبد الله بن سليمان^(١٥) جدده، في أيام المعتصم فلما رأه الناس قال: هذا شيء تترى به عجائزاً فتجعله في ثيابنا من حيث لا نعلم». تؤكّد هذه الإشارة الأخيرة أنَّ نساء هذه الأسرة لم يكن قد دخلن الإسلام بعد. وقد رأينا سابقًا أنَّه كان يسمح لهنَّ بممارسة شعائر دينهنَّ بحرية.

يجدر بنا أن نلتفت مع ذلك إلى وضع الكتاب النصارى الخرج، في هذه الخلافة كما في التي قبلها، إذا مال الدهر على أسيادهم المنقسمين على بعضهم. لما كسر المعتصم حمدان بن حدون في المحرم من العام ٢٨٢ / أواخر آذار ٨٩٥، هرب حمدان مع كاتبه النصراوي زكريًا بن يحيى. عبر الاثنان دجلة معاً واحتباً في بعض الأديرة (كان وضع الأديرة حرجًا أيضًا) ثم هربا ثانية في مركب حتى قبض عليهما معاً.^(١٦)

ويبين الخبر التالي أنَّ النصارى في عهد المعتصم تسلّلوا حتى إلى صفوف الأشباح: فقد كان في جملة الأشباح التي كانت تتراءى لل الخليفة راهب أبيض اللحية.^(١٧)

XIV يوحنا بن الأعرج

كان المعتصم لا يزال على عرش الخلافة لما مات الجاثليق يوانيس، في شعبان ٢٨٦ / الأحد ٩ أيلول ٨٩٩. ظلَّ كرسى الجاثليقة خاليًا مدة سنة إثر مكيدة لا تكاد تصدق ولا كانت لتعيننا مباشرة هنا لولا أنَّ الجاثليق المنتخب قانونيًّا يوحنا بن عيسى (أو بن مرتا)^(١٨) لم يلق معارضه عنفية من قبل مطران الموصل يوحنا بن بختишوع المتطبب، ولولا أنَّ الفريقين لم يمحشا كلَّ أعوانهما في الدواوين من بين نصارى ومسلمين.

أهمُّ الشخصيات هم الخليفة المعتصم وبدر الأمير النافذ الأمر الذي ولي النظر

في المظالم^(١٩) في ذلك الوقت. أمّا عبيدة الله بن سليمان فكان لا يزال في الوزارة (٢٧٩ - ٢٨٨ / تشرين الأول - نيسان ٩٠١)، والواقع أنّ ابنه القاسم كان ينوب عنه في غالب الأحيان (قبل أن يخلفه) «وكان يُكلّف عادة بعرض الطلبات على الخليفة والعمل كاتباً في خدمة بدر»^(٢٠).

أجرى بدر التحقيق في إنصاف تام. أمّا أعيان النصارى الذين استجوا لهم فلم يُسمّوا كلّهم. ومع ذلك نجد أسماء:

- كاتبه، مالك بن الويلد^(٢١).
- أخوين طبيبين من بني أسلم، كانوا يسكنان بالزعفرانية على بعد ١٨ كلم إلى الجنوب من بغداد وفي منتصف الطريق إلى المدائن.
- داود بن سلم، غير معروف، إلا أن يكون أحد الاثنين السابقين أو أن يكون الطبيب داود بن ديلم^(٢٢) الذي يذكره ابن العبري.

بعد المشاورات الفردية، عقد بدر جلسة عامة ضمّت الجاثليق المنتخب ومنافسه والأساقفة والكتاب والأطباء. وقد كان من شأن غموض القانون الكتباني السرياني الشرقي في ما يتعلق بانتخاب الجاثليق، ولا سيما افتقاره إلى تحديد واضح لدور العلمانيين، أن دفع بعض الأطباء إلى تدخل حاسم: «إلينا نحن البغداديين يعود انتخاب منْ نريد وما الأساقفة إلا أدوات يتم بهم الأمر».

يبدو أنَّ الأخبار توصلوا إلى إقناع الأمير بأنَّ دورهم لم يكن يقتصر على التنفيذ. ثم تبيَّن أيضًا أنَّ يوحنا بن بختيشوع قد حبس زميله مطران جنديسابور، الذي كان يعتبر السادس الأول شرعاً، ليمنه من الانتخاب. على أيَّة حال كانت نتيجة الانتخاب مؤكدة قانونيًّا: فاز يوحنا بن عيسى.

ولما طالت المناقشة إلى ما بعد صلاة المغرب قُدِّم طعام الإفطار للمجتمعين (لأنَّ ذلك كان في صوم رمضان) واستمرَّت المناقشة. وقد أصرَّ بدر على السؤال: ألا يجوز القبول بيوحنا بن بختيشوع؟ ثم تسأله القاسم بن عبيدة الله عن المزايا المطلوبة في المرشح ليصير جاثليقاً. فأجابه ابن بختيشوع: العلم أولاً. وقد أتاح هذا الجواب الفرصة لمالك وداود ليقولا له: « فهو أعلم منك...». أخيراً اقترب الجمع

من الأسباب الحقيقة المانعة من اختيار ابن بختي Shaw, فقال أحد الأساقفة: «لا يصلح لنا جاثليق يلعب بالكلاب والقرود» (وفي ذلك تعريض بسيرة مطران الموصل الديناوية). ولكن كان ثمة أمر آخر. ولما حشر الأساقفة في آخر معاقلهم أقرّوا بالمانع القانوني: كان ابن بختي Shaw ابن سفاح مولوداً من سرية لأبيه ولذلك لم يكن أهلاً للمناصب الكنسية. عندها ردّ عليهم القاسم: «فليم جعلتموه على الموصل مطراناً؟» فوجدوا لذلك مخرجاً وقالوا: «اختاره أهل الموصل وهم لا يعلمون ولما علموا ذلك تنذموا». ظاهر المحققون بالقناعة وعذل بدر ابن بختي Shaw على جراءته.

ولما كان من غد ذلك اليوم وافق الخليفة على حكم الأمير، وصار من الممكن سيامة يوحنا برأبجر. حرث ابن بختي Shaw مدة عند أصحابه الأطباء بالزعفرانية. إلا أنه حضر السيامة في ١٣ رمضان ٢٨٧ / الخميس ١١ أيلول ٩٠٠ (٢٣).

إن العهد الذي قطعه الجاثليق الجديد على نفسه أمام الرعية يخصن بسياسة الأمور الداخلية للكنيسة وربما خرج عن نطاق موضوعنا، لو لا أنه يفضح آفة ذلك الزمن: الرشوة والفساد العام، وفي الكنيسة الاتجار بالدين.

مات المعتصد سنة ٩٠٢/٢٨٩ ومدّ في أجل يوحنا بن الأعرج ثلاث سنوات آخر.

الحواشي

(١) ابن الطقطقي، ص ٢٠٧.

(٢) *Politique religieuse*, p. 15-21

(٣) ماري، ص ٨٤.

(٤) نجد فيما بعد، ص ٩٣، أنه حرر قرار الخليفة في شأن ميراث الذهرين. هل هو ابن الطبرى الذي ختم حياته كمؤدب للمعتصد، على ما يرويه التوخي؟ الفرج (طبعه الشالجي)، ج ٣، ص ١١٧ - ١١٨.

(٥) ماري، ص ٨٣ - ٨٥، صليباً، ص ٨٠ - ٨١. ابن العربي، ج ٢، العمود ٢١٨ - ٢٢٢، إيليا النصيبي، تحت العام ٢٨٦، ٢٨٠ والحاشية العربية ص ٧٤.

- (٦) ماري، الحسن بن عمر، SOURDEL, *Vizirat abbaside*: الحسين بن عمرو، ص ٣٣١ ، الحاشية رقم ٦ ، ص ٣٥٣ - ٣٥٤ ، ٧٣٧ .
- (٧) الطبرى، ج ٣ ، ٢١٤١ ، ٢١٨٨ ، ٢٢٠٧ ، ٢٢٢٤ ، ٢٢٣٠ .
- (٨) الكامل، ج ٧ ، ص ٤٩٥ .
- (٩) ابن أبي أصيوعة، ص ٣١١ - ٣١٢ .
- (١٠) الكامل، ج ٧ ، ص ٤٨٤ ، ابن العبرى، تاريخ الزمان، ص ٤٧ .
- (١١) إذا كان الحادث قد وقع سنة ٢٨٤/٨٩٧ ، فإن القاسم لم يكن قد صار بعد وزيراً - Vizir, p.373
- (١٢) محمد بن يوسف بن يعقوب الحنفى. انظر: MASSIGNON, *Passion*², p. 482-485
- (١٣) أنظر مراجع عنه في الأعلام للزرکلى، ج ٣ ، ص ١٥٢ . يضاف إليها ابن أبي أصيوعة، ص ٣١٢ .
- (١٤) ص ١٤٦ .
- (١٥) وزر من ٢٧٩ إلى ٢٨٨ ، انظر أيضاً: BOWEN p. 302
- (١٦) الطبرى، ج ٣ ، ص ٢١٤٥ .
- (١٧) المسعودى، مروج، الفقرة ٣٣١٩ ، في العام ٢٨٣/٨٩٦ .
- (١٨) ماري، ص ٨٥ - ٨٩ ، صلبيا، ص ٨١ - ٨٤ . ابن العبرى، ج ٢ ، العمود ٢٢٢ - ٣٣٠ ، إيليا التصييفى، تحت العام ٢٨٧ ، ٢٩٢ والhashia العربية ص ٧٤ .
- (١٩) Vizirat, p. 341
- (٢٠) المرجع نفسه، ص ٣٣٢ .
- (٢١) راجع ٤٤٠ no. 4, ٤٤٠, ٣٩٥, ٤٣٧ . كان في خدمة عبدالله، نائباً عن أبيه، الخاقانى
- (٢٢) الصفدي، ج ١٣ ، ص ٤٦٩ الفقرة ٥٧٠ ، (ت ٣٢٩ هـ)، وديلم، المصدر نفسه ج ١٤ ، ص ٣٤ ، الفقرة ٢٩ .
- (٢٣) يصحح نص صلبيا العربى ص ٨٣ س ٤ ، حيث يجب أن يكون اسم الخليفة المعتمد بدلاً من المعتمد. وقد صححت أنا أسماء عدّة حسب المصادر الإسلامية منها القاسم بدلاً من قسم، مالك بدلاً من ملك، الخ.

١٧ - المكتفي (٢٨٩ - ٩٠٢ / ٢٩٥ - ٩٠٨)

كان أبو محمد علي المكتفي بالله بن المعتصم مقىًّا بالرقة مع كاتبه الحسين بن عمرو النصراوي لما وصله الخبر بوفاة أبيه بغداد.^(١)

سار الخليفة الجديد في سياساته الديبية «مفتنياً فعال أبيه»^(٢) حتى في شؤون النصارى. وقد ورث عن أبيه أيضًا القاسم بن عبيدة الله الوزير الذي غلب عليه كليلًا.^(٣) وكان المكتفي على وجه الإجمال سمحاً: فقد «أمر بهدم المطامير التي كان المعتصم اتخذها لعذاب الناس».

ويبدو أن النصارى استمرّوا في القيام بوظائفهم في مختلف الدواوين.^(٤) وقد ساق ذلك الأمير الشاعر ابن المعتز (ت ٩٠٨ / ٢٩٦) إلى القول، وقد سئم من صدود الوزراء والكتاب عنه، بعد ما كاتبهم في حواجه نظماً ونثرًا:

أَفَمَا تَرَى بِلَدًا أَقْمَثُ بِهِ أَعْلَى مَسَاكِنِ أَهْلِهِ خُصُّ
وَوُلَاثَهُ نَبَطَ زَنِادَةَ مَلَائِي الْبُطُونِ، وَأَهْلُهُ خُصُّ^(٥)

أما الذي كثُر الحديث عنه من بين الكتاب النصارى فهو الحسين بن عمرو كاتب الخليفة ونديمه.^(٦) كان قهرمان المكتفي، وقتها كان ولـي العهد، بالريّ سنة ٨٩٤ / ٢٨٦. ثم قُلِّدَ المعتصم سنة ٨٩٩ / ٢٨٦ النظر في أعمال آمد. وقد لازم المكتفي منقد توليه الخلافة سنة ٩٠٢ / ٢٨٩.

كان كاتب ضياع الولد والحرير والنفقات، وكاتب ابن الخليفة، حتى كاد أن يصير وزيراً فعلياً، تحت ستار كاتبه المسلم إبراهيم بن حдан الشيرازي، لما سعى

القاسم بن عبيد الله لدى الخليفة في نكتبه، سنة ٩٠٣/٢٩٠، على اختلاف الرواية في ما آل إليه أمره. إذ تذهب رواية الطبرى المخفة إلى أنه حُبس ثم نُفي، أما رواية التتوخي فتذهب إلى أنه نُفي إلى الأهواز ثم أُعدم.

بين حرب وحرب (ضد القرامطة، الروم، الطولونيين الذين دالت دولتهم...) كانت الحياة تجري ببغداد ناعمة متفرة. وقد سُجِّل ابن العربي الملُوْب الذي لعبه بعضهم سنة ٩٠٢ على ابن الخليفة، جعفر، الذي كان مولعاً بالتنجيم. فقد طلب إليه فأَل «مولود»، وُلِدَ في ذلك اليوم، وبعدما تبَرَّ الأمير في التنبؤ بمستقبله قيل له إنّ «المولود» لم يكن إلَّا هريراً.

إستمرّ الأطّباء النقلة في أعمالهم. وكان من أشهرهم في تلك الحقبة يوسف القسّ الملقب بالساهر، وقد فسّر البعض قلة نومه بورم في دماغه.^(٧)

على أنّ شخصيّات الدرجة الأولى اختفت قبل موته الجاثليق يوحنا بن الأعرج. بعد نكبة الحسين بن عمرو الكاتب، فقد الطبيب أبو يعقوب إسحق بن حنين العظيم، في تشرين الثاني ٩٠٤، نصيره القاسم بن عبيد الله الوزير الذي كان «يفشى إليه أسراره» ويكتبه نظماً.^(٨)

وبَلْ سنة من وفاة الوزير عقدت في ديوانه مناظرة في: «أيّ الأطّباء كان الأقدم والمقدم؟» جمعت أبا العباس بن فراس (؟) وأبا العباس عبدالله بن شمعون الذي «كان متضلّعاً من علوم الأقدمين». وقد كانت مناسبة ليكتب إسحق بن حنين كتابه في تاريخ الأطّباء،^(٩) المستلهم من يحيى النحوي، ويكتب أيضاً لعبد الله بن شمعون «مقالة في الأشياء التي تفيد الصحة والحفظ وتنبع النسيان».^(١٠)

مات يوحنا بن الأجر الجاثليق في ٨ رجب ٢٩٢/١٦ أيار ٩٠٥. وكان قد ظلّ وفيّاً للعهد الذي أخذه على نفسه ولم يمس، عمره كله ديناراً ولا درهماً، بل كان يفُرق واردات القليلة على ذوي الفاقة والمحاجين.

لم يعد على المسرح أحد من كبار منظمي المعارك الانتخابية، ولا يبدو أنّ الحكام كانوا يبالغون باختيار خلف له. أما الذي انتُخب بعد خلو السدة لفترة عشرة أشهر فكان

XV أسف المرج، إبراهيم أبرازا.^(١) وقد سيم في ١١ ربيع الأول
٩٠٦ / ٢٩٣ كانون الثاني ١٠.

كان إبراهيم على الصد من سلفه، إذ لم ينتخب إلاًّ بعدما فرق رشى سخية في الأساقفة المنتخبين (من مال صرّة صارت إليه بصورة غير متوقعة) وإثر تدخل عبد الله بن شمعون الكاتب الذي رأيَه من قبل نصيراً لإسحق بن حنين.

إن جثلقة إبراهيم الطويلة (٣٢ سنة) التي بدأت في خلافة المكتفي قد طوت خلافَيِّ المقتدر والفاهر لتنتهي في حزيران ٩٣٧، تحت خلافة الراضي. وكما يقول ماري «تقلّبت على أيامه الدول»، وسوف نرى في ما يلي كيف كان ذلك.

النصيرُ المُبْعَد

في خلافة المكتفي، على ما قيل، تخلّص إبراهيم من وصاية عبد الله بن شمعون الكاتب الذي كان رجح انتخابه.

وكان هذا الكاتب قد اشترط عليه شروطاً ثلاثة ليمنحه التأييد:

- أن لا يعيد الجاثليق تادوروس، مطران باجرومي المعزول إلى كرسيه.
- أن يرفع مجلس عبد الله بن شمعون إذا حضر.
- أن يشاوره في ما يعتقد ويحمله.

ظلّ الشيطان الأخيران حبراً على ورق، أمّا الشرط الأول فقد حرق بشكل فاضح: ذلك أنه بعدما أقصى إبراهيم المطران فترة إلى دير الأنبار، أعاده إلى كرسى باجرومي (داقوق - كركوك).

بدأ الكاتب بالإعراب عن سخطه بأن كف عن تناول القربان من يد الجاثليق مع استمراره في حضور الصلوات بالكنيسة. ولما لامه الجاثليق قال إن ذلك يستحبيل عليه ما ذكر اسم إبراهيم في سفر الأحياء.

بعد مدة، ذهب إلى أحد من هذا وانتقل إلى مذهب الملكانية، ووصلهم جهراً بالهبات الكثيرة وأسدى إليهم خدمات شتى.

ويجب أن ننتظر حتى العام ٩٢٠ لنسمع شيئاً جديداً عن عبدالله بن شمعون الكاتب، وذلك لما نهيت داره^(١٢) ببغداد إبان شغب العامة في خلافة المقتدر.

قضية تادوروس

إنتهت قضية تادوروس، المطران الذي أعاده إبراهيم عسفاً إلى كرسى باجرمي، نهاية تعسة. ربما لم يُرد الجاثيلق الطيب القلب أن يصدق ما كان رُمي به المطران من تهم ولكنَّه اضطُرَّ إلى تصديق ذلك لما ذهب إلى داره واستقبلته عشيقه المطران ولم تكتم عنه علاقتها بتادوروس. حاول المذنب الاستغاثة بالحسن بن وهب، أخي الوزير القاسم بن عبيد الله، ليتملّص من الإدانة. وُلِّـأعلن حرماته في كنائس بغداد وكنائس رعيته «قطع زناره».

لم يكن في وسع السلطات المدنية إلا أن تعلن رضاها رسمياً عن إسلام المطران. إلا أن علياً بن عيسى^(١٣) أمر بالحطّ من الرزق الذي يُجري على المسلم المتجدد، قال: «هذا كان في الكفر زاهداً(؟) وفي دين الإسلام يجب أن يكون أعظم زهادة». فلما عصى أهل شهرزور كتب تادوروس رقعة تضمن فتحها، ولما وقف على الرقعة عليّ بن الحسين^(؟)، أحضره وقرره أنها رقعته، فلما أقرّ قال له: «يا ملعون، ما أردتْ قبحك الله بالإسلام التدين به، لكن كيما تخُرج ما في نفسك على المسلمين، وإلا فأنت من قواد الجيوش وأهل الحرب»، ومنع مما كان يُجري عليه من الرزق. فعاش من التطهُّب بباب النبوي ومن صدقات إبراهيم الجاثيلق، ثم مات في بعض السُّبُل^(١٤).

الخواشي

(١) الطبرى، ج ٣، ص ٢٢٠٧ .

(٢) المسعودى، التنبيه، ص ٣٧١ .

(٣) المسعودى، مروج، الفقرة ٣٣٥٨ .

(٤) ولم يُخل هذا دون استمرار النصارى في دخول الإسلام على عهده، ومنهم مثال البلاغة قدامة بن جعفر، الفهرست، ص ١٣٠ .

- (٥) ديوانه، بيروت، د.ت.، ص ٢٨٥ ، مذكور في الحضارة الإسلامية في القرن الرابع لأدم متر، ج ١ ، ص ١٦٢ .
- (٦) الطبرى، ج ٣ ، ص ٢١٤٠ ، ٢١٨٨ ، ٢٢٠٧ ، ٢٢٢٤ ، ٢٢٣١ ، Vizirat, p. 331 no. 6, BOWEN, Ali b. Isa, p. 59 مع مصادر؛ ٣٥٣-٣٥٤
- (٧) ابن أبي أصيبيعة، ص ٢٧٨ ، ابن القسطنطيني، ص ٢٥٦ .
- (٨) انظر المصادر في شعراء النصرانية بعد الإسلام، لشيشخو، ص ٢٤٨ - ٢٥٠ ، توفي سنة ٢٩٨ - ٩١١/٢٩٩
- (٩) تجد النص مع ترجمته الانكليزية بقلم فرانز روزنتال في: Oriens, VII (1954), p. 55-80
- (١٠) ابن أبي أصيبيعة، ص ٢٧٥ .
- (١١) ماري، ص ٨٩ - ٩٤ ، صلبيا، ص ٨٣ - ٨٤ ، ابن العربي، ج ٢ ، العمود ٢٢٩ - ٢٤٥ إيليا التصيبيني، تحت العام ٣١٠ للهجرة والشاشة العربية ص ٧٤ - ٧٥ . اقتبس في هذا الفصل بعض المعطيات من سيرة حياة إبراهيم الثالث في: O.C.P. XLIV (1978) p. 420- 441
- (١٢) تاريخ الزمان، ص ٥٣ .
- (١٣) لئن كان وقيتاً وزيراً فهذا يعني أن القضية تماطلت حتى عهد المقتدر بين ٣٠١ و ٣٠٤ / ٩١٣ - ٩١٧ .
- (١٤) التفاصيل في سيرة إبراهيم الثالث.

١٨ - المقتدر (٩٣٢ - ٩٠٨/٣٢٠ - ٢٩٥)

كان أبو الفضل جعفر المقتدر بالله^(١) بن المعتضد في الثالثة عشرة من عمره لما أخذت له البيعة بالخلافة. وقد تقاسمت السلطة النساء، كما هو متوقع، ولا سيما أمّه شَغَب^(٢) الرومية، والقهرمانات أم موسى^(٣) أو ثمل الدلفية، والخصيان الذين صار بعضهم قادة عسكر، كمؤنس، وغيرهم من الشخصيات، وبخاصة الوزراء، الذي نرى منهم خمسة عشر وزيراً يتعاقبون في عهده.^(٤) من وجهة النظر الدينية، كانت حياته الشخصية «دنياوية جداً». ويرى ماسينيون أنّ «نفسية المقتدر بقيت نفسية ولد أريبٍ ناضج قبل أوانه، صاحب نزوات نهم، لا صبر له على العمل ولا صبر له عن اللذائذ، واضح الاهتمام برسوم دار الخلافة وأداب المعاشرة، قادر على البت في أمور الدولة إذا كان صاحياً، متضجر متقلب المزاج، لا هم له ولا همة عظيمة...».

إنَّ أول ما يطالعنا من الشؤون المتعلقة بالنصارى في خلافة المقتدر، هو شأن علميٍّ في حوالي هذه الفترة قدم إلى بغداد من مرو يوحنا بن حيلان الفيلسوف النسطوري المعروف بأنه كان معلم الفارابي.^(٥)

مع ذلك شهدت بداية هذا العهد هبة رسمية ضد النصارى في العام ٩٠٨/٢٩٥ على قول ابن القيم،^(٦) أو في العام ٩٠٩/٢٩٦ على قول عريب القرطبي^(٧) وابن تغري بردي^(٨) وابن كثير^(٩) إلخ. فقد نصَّ أمر من الخليفة بإبعاد النصارى واليهود عن كتابة الدواوين وحصرهم في الصيرفة والطب وفرض عليهم ليس الغيار وغيره من العلامات المميزة في زي الشاب وقد أعدم أبو ياسر النصراني كاتب مؤنس^(١٠) الخادم، في ما قيل.

ما كانت دواعي هذا الأمر؟ يقول لنا عريب: «وكان النصارى في آخر أيام العباس بن الحسن قد علا أمرهم وغلب عليهم الكتاب منهم، فُرِّفع في أمرهم إلى المقتدر، فعهد فيهم بنحو ما كان عهد به المtower من رفضهم واطراحهم وإسقاطهم عن الخدمة، ثم لم يدم ذلك فيهم».

والحق أن ابن الفرات الوزير الجديد نفسه، كان له أربعة نداماء من النصارى^(١١) هم: أبو بشير عبدالله بن الفروخان^(١٢)، أبو الحسين سعيد بن إبراهيم التستري، أبو منصور عبدالله بن جبير وأبو عمرو سعيد بن الفروخان، هذا عدا عن النصارى الذين كانوا في خدمته.

بدينه أن يشاطر هؤلاء الموالي مولاهم في النساء والضراء. من ذلك ما يرويه التنوخي^(١٣) من نكبة أبي منصور عبدالله بن جبير لدى عزل ابن الفرات عن وزارته الأولى سنة ٩١٢ / تموز ٢٩٩. فمن بعدهما حبس أبو منصور طلب منه مال. وإذا أبي جيء بحلاق وكلف بأن يتتف بالمناقش ربع شعر رأسه. ولما لم يتنازل أمر الحلاق بنتف الربع الثاني. ولكن الكاتب توصل إلى رشو الحلاق حتى يكتفي بحلق هذا القسم من رأسه. فُسُكِّبَ القير على الجرح ولكن القير لم يكن مفرط الحرارة (هل دفع رشوة أخرى؟). عنثٰنْ أقرّ بدفع سبعين ألف دينار. ثم عالجه الحلاق بالزيت، إلا أنَّ القسم المتوف بقي «إلى الآن»، على قول التنوخي.

لنعد إلى العام ٩٠٨ - ٩٠٩، والأمر القاضي بمنع استخدام النصارى في الدواوين. ما كانت نتائجه؟ ربّما عاد إلى هذه المناسبة إسلام أبي زكريا سعيد السوسي، المسماً بखلف. و«كان نصراً في حداثته، على قول التنوخي، (١٤) ولكنه أسلم وحسن إسلامه». وهو يذكر في العام ٩٢٠ / ٣٠٨ كرجل مسموع الكلمة عند السلطان، ويذكر أنه جمع ثروة عظيمة ولم يفقد شيئاً من مزاياه، ويؤثر عنه أنه كان تقىً.

ومع ذلك نستمر في رؤية الكتاب النصارى. ففي جمادى الآخرة ٢٩٦ / ٩٠٩ منتصف شباط خلعت خلعة على ابن دليل الذي كان آئنْ كاتب محمد بن أبي الساج.^(١٥)

ويضع ابن العربي هنا،^(١٦) في العام ٢٩٩ - ٩١٢، خبراً عن المقتدر الذي فرق ألف دينار ذهباً على جواريه المغنيات. وإذا طلب الترك بأرزاقهم فلم يجدوها انهالوا على الكتاب والأغنياء بالتعذيب ليستخلصوا منهم الأموال. ولما كان ابن العربي قد ارتكب هنا مفارقة تاريخية بالنسبة إلى هذه السنوات،^(١٧) سنكتفي بالنظر إلى الحادث من دون الالتفات إلى تارينه. لئن كان الحادث قد وقع بعد عشر سنوات من الفقرة السابقة التي تصف البيعة للمقتدر بالخلافة، فلا بد أن يكون الخليفة في الثالثة والعشرين من عمره وبذلك تكون في العام ٣٠٥ / ٩١٧ (؟) وعلى أية حال ليس ثمة من ذكر لكون الكتاب الذين عذبوا من النصارى تحديداً.

لا محل إلاّ لخبر واحد ببغداد

إن نفوذ الجاثليق إبراهيم في قصر المقتدر يقاس بالقرار الذي استحصل عليه سنة ٢٣٠ / ٩١٣، ضد بطريرك الروم الملكانيين الياس الأول الذي قدم إلى بغداد لسيامة أسقف لإيرينوبوليس (مدينة السلام).^(١٨) وما المكائد التي سبقت ظفر الجاثليق إلا المكائد المعروفة بين ملتين متحاربتين: اتهامات متبادلة بالتجسس، ملاحظات الوزير علي بن عيسى الضجرة: «أنتم النصارى كلّكم سواء في الحقد الذي تضمرونه لنا، ولا تخونونا إلاّ مراءة»، أو ردود الكاتب النصري اصطيفن بن يعقوب (صاحب بيت مال الخاصة عند مؤنس الخادم) الذي قال للوزير: «أنت لا تفرق بيننا عندما تشتهي سفك دمائنا». رشا (من جهة النساطرة فحسب) وصلت حتى الثلاثين ألف دينار، وربما رعاية السيدة والدة المقتدر بفضل أقارب غالب المتبّب، وفيهم المرضعات... لعبت هذه العناصر المتضاربة كلها حتى غالب إبراهيم: فرض الوزير غرامة على الياس وأخذ توقيعه بأنه لا يحق له أبداً التلّقّب بلقب الجاثليق ببغداد ولا بتسمية مطران مقيم بها. وقد شكل عهد المقتدر لإبراهيم اعتراضاً بفضيل جاثليق النساطرة على غيره من الرؤساء الدينين النصارى من يعاقبة وملكانية. وسوف ننظر من بعد في هل نستطيع اعتبار هذا العهد «اعترافاً» حقيقياً بشرعية الكنيسة النسطورية، وفي ما كان يعنيه هذا العهد بالنسبة إلى موقف السلطة الإسلامية في ذلك الزمن.

... تعاقب الوزراء يولون ومخلعون بـكائد الحريم والحرس البريسيوري الرومي : وفي وزارة الحاقداني^(١٩) (٩١٢/٣٠١ - ٩١٣) نصادف مرة ثانية الكاتب النصراوي مالك بن الوليد، في عداد الذين يعول عليهم في المهمات عبدالله أخي الوزير^(٢٠) ونائبه .

لن أتكلّم هنا عن العزائين النفسي والجسدي (من حيث الافراج عن المساجين) اللذين جاءت بهما للملكانية وخاصة سفارات الروم إلى المقتدر، وذلك لأنني استفضلت في الكلام عنها في مقالتي Rum à l'est de l'Euphrate^(٢١) الذي استقبلت به سفارة العام ٩١٧ غوذج لصفة تلك الأعياد.

مع ذلك، فقد تولى الوزارة رجل يتحدر من آباء نصارى هو علي بن عيسى الجراح الذي تقلد الوزارة من ٩١٣ حتى ٩١٧، ثم من ٩٢٧ حتى ٩٢٨ . ويذهب ابن العربي إلى أن هذا الوزير كان يضم حقداً حقيقياً على الجاثليق إبراهيم . وأنه عمل كلّ ما استطاع عمله ليجرّده من امتيازاته .^(٢٢)

ربما كان الجاثليق قد أساء التصرف مع الوزير إذ سأله الوزير: «من هم النصارى الذين يتناولون القربان بالملعقة؟» أجاب إبراهيم «قد تعلم أنهم غير النساطرة»، ملمحًا بذلك إلى نسببني الجراح^(٢٣) في النصارى . يقال إنّ هذا الجواب الذي اعتبره الوزير جارحاً كان في أصل العداوة بين الوزير والجاثليق . وقد صار النصارى يكرهون الجاثليق لأنّ الوزير كان يكرههم بسببه على قول ابن العربي .

ويروي ابن القسطي^(٢٤) في هذا الشأن قصة ذات مغزى . لما كان الطاعون بالسوداد، وكان الأطباء لا يكفون للقيام بالعمل، طلب سنان بن ثابت بعض التعليمات من الوزير: هل يجب أن يعالج الذميين والدواوب فضلاً عن المسلمين . فأجاب الوزير: «الناس قبل البهائم والمسلمون قبل أهل الذمة». ومع ذلك يجوز لنا أن نخمن أن الأطباء النصارى قد استفادوا من رعاية السيدة أمّ المقتدر التي أنشأت أربعة بيمارستانات في بغداد .^(٢٥)

في خضم الصراعات على النفوذ في تلك الحقبة كان النصارى ينعمون تارة

بالمال والجاه وتارة يحرمون من كل شيء أو حتى يُقتلون تبعاً لمصير مولاهم. فمن ذلك أنّ نديماً نصراوياً آخر من ندماء ابن الفرات، هو أبو الحسن سعيد بن إبراهيم التستري (وربما غيره من الندماء أيضاً) قبض للمرة الأولى مع مولاه سنة ٩١٨/٣٠٦. وعاد إلى السلطة سنة ٩٢١/٣١١. ثم قبض على التستري مرة ثانية مع ابن الفرات سنة ٩٢٢/٣١٢، وأعدم الوزير. ولا نعلم هل لقي كاتبه المصير نفسه. (٢٦)

في العام ٩٢٠/٣٠٨، إذا صح تاريخ ابن العبري (؟) وقع شغب بيغداد (بسبب ارتفاع الأسعار فيما يبدو) فخلعت أبواب السجون وأطلق اللصوص وال مجرمون، فاعتدوا على النصارى (وحلدهم ؟) ونبت بعض دور الكتاب، ومنها دار عبد الله بن شمعون. ف الواقعهم صاحب بغداد، فقطعت أيدي المجرمين. (٢٧)

لذكر في هذا التاريخ ٣٠٩/٩٢٢، مأساة الحلاج. من بين المصادر النصرانية يذكر ابن العربي في تاريخ الزمان^(٢٨) أنه: «ألقى القبض على زاهد عربي في بغداد يُقال له الحلاج ادعى أنه إله متجسد وصار يتظاهر بأنه يحترح المعجزات. فأمر الخليفة بجلده ألف جلدة ثم قطعوا يديه ورجليه وأحرقوا جسده ورفعوا رأسه على رمح وطافوا به بغداد وفارس».

في العام ٩٢٣/٣١١ هدمت كنائس للمكانين بفلسطين (الرملة، عسقلون، قيصرية) وكذلك في تبيّس بصر من دون أن يُؤكَد على ذكر السبب.^(٢٩) ولما اشت肯ى النصارى إلى المقتدر، أمر الخليفة بإعادة عمارة ما تهدم. ثم هدمت هذه الكنائس في الشغب ثانية، فأعيد بناؤها مرّة أخرى.

ولا يصدر هذا كله عن سياسة للسلطة محددة، إنما نجد أنفسنا أمام تقلبات أمزجة العمال المحليين (وهذا يدلّ على ضعف السلطة المركزية) أو فورات العامة التي يجدها خطيب، أحدّ كلامًا من المأثور، استثارته قلة تبصر النصارى حينًا أو عجرفة كتابهم أحيانًا.

كانت الحال العامة في المملكة مؤاتية مثل أعمال العنف هذه. فقد أطلق المسلمون والنصارى على العام ٩٢٤/٣١٢ اسم «سنة الملاك»^(٣٠) بسبب فظاظة

المحسن ابن الوزير ابن الفرات وقصوة تدابيره. وكان الوزير نفسه^(٣١) في السنة الأخيرة من وزارته التي انتهت بإعدامه.

الكتاب في كل مكان

على أن هذا لم يحُل دون احتفاظ الكتاب النصارى بروظائفهم. يذكر عريب^(٣٢) أيضاً أربعة نصارى في العام ٩٢٥/٣١٣: بنان (؟)، مالك بن الوليد، الذي كان آئِذ بديوان الدار وابن القنائي الذي كان وأخوه بديوان الخاصة وبيت المال. ويظهر الثاني، أي مالك، أيضاً في السنة التالية مشرقاً على فرز بريد أحد الخصيبي.^(٣٣)

ونلمح أيضاً في العام ٩٢٨/٣١٦ كاتباً نصراوياً هو إبراهيم بن أيوب^(٣٤) الذي كانت إليه الجبهة وأرزاقي المصافية^(٣٥) في وزارة محمد بن علي بن مقلة. وقد كان تولى النظر في أحوال بيت المال يوماً بيوم في وزارة علي بن عيسى الثانية للمقتدر.

ونجد في هذه الفترة (قبل ٩٣٣/٣٢١) وفي خدمة مؤسس القائد دانيال ابن العباس الكاتب، صهر غالب المطلب الذي رأيناه إلى جانب المعتصم. أمّا صهره الآخر سعدون فهو كاتب يانيس، وهو أمير من أصل رومي كان صهراً لبدر.

وقد أعطت هذه العائلة داية للمقتدر ابن شعب «حسب القاعدة التي وضعتها السيدة شجاع في خلافة الموكّل»، وكان اسم الداية نظم وتوفيت ٢٩٨ - ٩١٠ - ٩١١^(٣٦).

لا نعجب، متى رأينا كثافة حضور النصارى في محيط الأمير، من قول القائل آئِذ^(٣٧) أن من أراد الوزارة فعليه برضاء إبراهيم^(٣٨) كاتب الأمير ورضا اصطافن بن يعقوب كاتب مؤسس القائد.^(٣٩) وكما جرى العرف نجد النصارى في كل مكان وبالتالي مع جميع الفرقاء والأحزاب، حسبما تملّيه صدف الوظيفة. من ذلك أنَّ أبي صالح مقلح رئيس الخصيان السود، وعدو مؤسس القائد، كان له كاتب نصراوياً خصيّ أيضاً.^(٤٠)

أمّا موقف الجاثليق إبراهيم من هؤلاء الكتاب النافذين، فلدينا خبر يدلّ على أنه كان يتعالى عليهم. يروى أنّ علون كاتب يونس (أو مؤنس) لما عاد من دمشق قصد مقرّ الجاثليق، فمنعه الخبر من الدخول يومه كله. وقد تكفل اثنان من أصدقاء الكاتب النصاري، هما أبو عمر والد متى، وأبو الفرج إسرائيل بن عيسى كاتب اليقطاني^(٤١) بإيصال قول الجاثليق: «تخرج إلى بلاد مصر والشام وتبتاع لبيع الملكانية أملاكاً بخمسة عشر ألف دينار ولبيع السطور بعشرة آلاف دينار والله لا وصلت إلى إلاّ بعد أن تحمل عشرة آلاف دينار ليكون لي الفضل على الملكانية». وقد سوي الأمر بخمسة آلاف دينار^(٤٢) وأدخل المذنب إلى حضرة الجاثليق الترق.

إبراهيم يُتجرّ بالدين؟

إن رنين الدنانير حول كرسيّ الجاثليقة يؤكّد ظئناً بأنّه كان على المرء أن يكون قدّيساً مثل يوحنا بن عيسى لكي يفلت من حمى المال التي سيطرت على تلك الحقبة. الكلّ كان للبيع أو للشراء.

لم تزل الأمور، حتى الكنسية منها، تسير بشكل أفضل عندما يسمع (بضم الياء) أصحاب النفوذ «صلوات رنانة راجحة يفهمونها جيداً» كما كان يقول ايشوع يهوب الثالث. نشير على سبيل المقارنة إلى أنّ الوزير الخاقاني، معاصر إبراهيم عيّن سبعة عمال في المركز نفسه وعزلهم عنه في مدة عشرين يوماً.^(٤٣)

وقد رأينا أنّ إبراهيم نفسه قد انتخب بعدما سخا في توزيع المال، وكان لا بدّ له من أن يملاً خزائنه. وما أخذ عليه من باب المتاجرة بالراتب الدينية أنه عيّن ثلاثة مطارنة على نصيبين بعد أن أخذ مالاً من كل منهم. ولكننا نذكر إنصافاً له أنه لم يعزل الاثنين بل وافقهما الأجل.

ومع ذلك يبدو من الصعب علينا أن نبرئ ساحة إبراهيم من تهمة الجشع. إذ يروى أنّ رجلاً يدعى الاسكافي^(٤٤) قد فاجأ الجاثليق وهو يعد مقداراً كبيراً من الزوري (الدرّاهم هنا؟) والدنانير فصاح به: «زي شمعون و فعل سيمون لا أعرفك جاثليقاً». وبعد أن كفر كلّ منها الآخر، انجرّ عن ذلك خصم لم يكن في مصلحة

الجاليلق أن يطول. فطلب من أصدقائه الكتاب أن يحاولوا ثني الاسكافى، ولكنهم لم يفلحوا.

أما المقىدر فقد ززع عرشه مرات. عزل في بداية عهده إبان فتنة ابن المعزن، ثم خلع أيضاً إيان الشعب ببغداد سنة ٣١٧ / شباط ٩٢٩، ونهب العسكر قصره، فأعاده مؤنس، ولكن المقىدر انقلب عليه وعداه سنة ٣٢٠ / ٩٣٢، ثم قتل الخليفة على رأس عسكره لما خرج لمؤنس في ٣١ تشرين الأول، بالقرب من باب الشياصية، حيث الجثة بشمال شرق بغداد.

الحواشى

- MASSIGNON, Hallag², I, p. 441-446 (١)
 (٢) مصطفى جواد، سيدات البلاط، ص ٩٥ - ٩١
 (٣) وكانت إحدى نسائها الثقات نصرانية اسمها فرج، وحملت مرة ختم الخليفة إلى أحد الوزراء، كتاب الوزراء، ص ٢٩٣، وحاشية الشالبي على الفرج بعد الشدة، ج ٤، ص ٣٧٠.
 (٤) المسعودي، التنبية، ص ٣٧٦ - ٣٨٧، E.I¹, III, p. 768-769, par K.V. ZETTERSTEN
 (Xs.A.D.). Vizirat, p. 387, 469. ينتهي تاريخ الطبرى سنة ٣٠٢ للهجرة ويحمله عريب.
 (٥) انظر يوسف حبي، في مقالته «يوحنا بن حيلان معلم الفارابي في المتنق» مجلة بين النهرين E.I², II, p. 797, par Walzer, avec réfé-
 H.F. AMEDROZ, The Taqarib al-umam, Der Islam V (1964) p. 354-357.
 (٦) ص ٢٢٤ - ٢٢٥.
 (٧) ص ٣٠ - ٣٣، انظر: مراجع أخرى في: BOWEN, p.101
 (٨) الترجم، ج ٣، ص ١٦٥.
 (٩) البداية، ج ١١، ص ١٠٨، لا شيء عند الطبرى ولا عند ابن الأثير.
 (١٠) ابن القيم، أحكام، ص ٢٢٤. القلقشندي، ج ١٣، ص ٣٦٨: «ابن ياسر».
 (١١) Vizirat, p. 513 . . يبدو نصّ كتاب الوزراء هلال الصابي (ط. بيروت ١٩٠٤، ص ٩٥
 وط. الحلبي بالقاهرة ص ١٠٩) مضطرباً عندما يذكر أن ابن الفرات اضطر إلى الدفاع عن

نفسه، أمام علي بن عيسى، الذي اتهمه بتعيين غير المسلمين في بعض المناصب. وفي هذه الرواية أنه رد عليه بأن الناصر للدين الله (المتأخر عنه كثيراً) كان قد جعل إسرائيل النصراني على الجندي (؟) ويذهب BOWEN، ص ١٧٠، إلى أن السوابق المئوية بها تقع في عصري الموقف والمعتضد.

- (١٢) هل هو من بني ذلك الرجل من الأعيان الذي استقبل يوانيس في كنيسة الأصيبح سنة ٩٨٩٣
- (١٣) نشوار، ج ٨، ص ٩٣ - ٩٤، مع مراجع في الكتاب نفسه ج ٣، ص ٢٥ الحاشية رقم ٣.
- (١٤) نشوار، ج ٨، ص ١٠٨، وانظر المراجع في الحاشية رقم ١.
- (١٥) عرب، ص ٣١. بدبيهي أن يجد ابن دليل متسعًا من الوقت ليدخل الإسلام؟
- (١٦) تاريخ الزمان، ص ٥١.
- (١٧) فهو يجعل موت المكتفي في العام ٢٨٩ بينما هذا هو تاريخ موت سلفه المعتضد. - بالنسبة إلى المقتدر، (ص ٥٥)، يكرر ابن العربي جملته عن تغير حياة العرب، تلك الجملة التي ذكرها سابقاً لدى الكلام عن الواقع ص ٣٦ - ٣٧.
- (١٨) انظر التفاصيل عن هذه القضية في Rum à l'est de l'Euphrate, p. 387-389 وفي سيرة إبراهيم الثالث.
- (١٩) يذكر حبيب الزيارات في الخزانة، ج ١، ص ٣، كاتباً نصراينياً آخر للوزير نفسه، هو علي بن عيسى الدنداوي.
- (٢٠) Vizirat, p. 395.
- (٢١) يذكر ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ٥١ - ٥٢، أن السفرين انتظرا شهرين بتكريت. ولا يذكر شيئاً عن العلاقات التي قامت، بلا شك، بينهم وبين النصارى.
- (٢٢) لما بعثه الوزير عبدالله بن خاقان إلى مصر سنة ٩١٢/٣١٢ - ٩٢٤، أراد علي أن يفرض الجزية على الرهبان والضففاء والمساكين والأديرة والأساقفة... فبعثوا بعثة إلى بغداد حيث ثبتت امتيازاتهم، سعيد بن البطريق، تاريخ، ص ٧٤٨.
- (٢٣) انظر مشجر نسبه في: Vizirat, p. 748
- (٢٤) ابن الققطي، ص ١٣٢ - ١٣٣، آدم متز، ج ١، ص ٩٢.
- (٢٥) آدم متز، ج ٢، ص ٢٠٧. في الترجمة العربية سوق يحيى، والأغلب أن المقصود يحيى بن خالد البرمكي.
- (٢٦) عن شعر سعيد التستري أنظر شعراء النصرانية لشيخو، ص ٢٥٠ - ٢٥٢ مع مراجع، يضاف إليها الصفدي ج ١٥، ص ١٩٥ - ١٩٧، الرقم ٢٧١.
- (٢٧) تاريخ الزمان، ص ٥٢ - ٥٣. يجعل ابن العربي من عبدالله طبيباً (؟)، وغير ممتنع أن يجمع الفئتين. فصاحب الرسالة العذراء التي يذكرها عبدالله البغدادي، ص ١٢٠، يجعل الطب في جملة المعارف المطلوبة من الكاتب الجيد.
- (٢٨) ص ٥٣.

- (٢٩) سعيد بن البطريرق، ص ٨٢، *Annales*.
 (٣٠) Vizirat, p. 421, 425 ؛ يسرد هلال الصابي، ص ٢٢٣ - ٢٢٧ الغرامات التي فرضها المحسن بن الفرات.
- (٣١) وقد أقيمت في وزارة وزير آخر من بني الفرات، هو أبو الفتح الفضل بن جعفر المعروف بابن خنزبه، (في العام ٩٣٢/٣٢٠ أو ٩٣٨/٣٢٦) المناظرة الفلسفية الشهيرة بين أبي سعيد السيرافي وبين أبي بشر متى بن يونس المنطقي الدورقاني. وقد كان الأخير يزعم أن منطق أرسطو لا بد منه لتمييز الصواب من الخطأ. ونص هذه المناظرة مثبت في مقابسات التوحيدية (تحقيق حسن السنديبي، القاهرة، ١٩٢٩) ص ٦٨ - ٨٧، ١٦٩ - ١٧٢، الامتناع والمؤانسة ج ١، ص ١٠٨ - ١٢٨، وكذلك إرشاد الأريب ليافوت، ج ٦، ٣، ص ١٠٥ - ١٢٥.
- (٣٢) صلة تاريخ الطبرى، ص ١٢٥.
 (٣٣) Vizirat, p. 440
 (٣٤) صلة، ص ١٣٥.
- (٣٥) المصافية هم «الرجال الملازمون لدار الخلافة»، عريب، Vizirat, p. 443, 449, 543, no. 5 ص ١١٨.
- (٣٦) Massignon, Hallag,² I. p. 447
- (٣٧) يشير ابن الأثير في الكامل، ج ٨، ص ٢٣٦، إلى أن ضحايا فيضان تكريت سنة ٩٣١/٣١٩، من مسلمين ونصارى قد دفنتوا معاً.
- (٣٨) يروى الصابي، الوزراء (ط. الحلبي، ١٩٥٨)، ص ١٥٨، أن هؤلاء الكتاب كانوا قد أثروا ثراءً عظيمًا: مليون دينار لاصطفن ودانيل، بينما لم يكن الأول يتغاضى إلا عشرة دنانير راتبًا له لما كان نائباً لدانيل في خدمة مؤنس ثم ٤٠ ديناراً في وزارة ابن الفرات الثانية (٣٠٦ - ٣٠٤). من هذا نفهم لماذا كانوا يپرون الحسد.
- (٤٠) صلة، ص ١١٢.
- (٤١) نجد رجالاً اسمه محمد بن علي اليقطيني (ت ٩٧٧/٣٦٧) Hallag², I, p. 138, n. 2
- (٤٢) لا يبدو أن الحالين غرمته غرامة كما كان يحق له ولرأس الحالوت (على قول الجاحظ في كتاب الحيوان، ج ٤، ص ٢٧ - ٢٨) على رعيتهم، وإن لم يكن لها الحق في حبس أفراد الرعية أو ضريهم في دار الإسلام.
- (٤٣) Vizirat, p. 397
- (٤٤) ربما كان هذا الاسكافي هو إبراهيم بن عون الذي يذكره أبو البركات (مصابح الظلمة، ص ٣٠١) وينسب إليه كتاب حال الشكوك. ونقرأ في تاريخ ابن العربي الذي يسميه ابن أوان (؟): «الكرسي كرسي شمعون والفعل فعل سيمون». والمقصود بشمعون القديس بطرس ويسيمون، سيمون الساحر.

١٩ - القاهر (٩٣٤ / ٣٢٢ - ٣٢٠)

كان أبو منصور محمد القاهر بالله، أخو سلفيه المكتفي والمقتدر، موضع نقد شديد من المسعودي: «شديد الإقدام على سفك الدماء، أهوج.. غير مفگر في عواقب أمره».^(١)

كانت خلافته^(٢) التي دامت سنة وستة أشهر، أقصر من أن تسع الوقت الكافي للكلام عن الأقلية النصرانية. وربما خفنا عليهم من بعض القرارات المتشددة التقليدية (كمنع الخمر، وطرد المغنين والقيان) التي قررها الخليفة لولا أن حياته الخاصة لم تكذب قراراته فقد كان يحب الخمرة، وكان يسكر معظم وقته ويطرب للغناء ويتحمّر من بين القيان تلك التي يميل إليها.^(٣)

نجد إلى جانب الخليفة الجديد رئيس أطباء بغداد الشهان مئة والستين سنان بن ثابت الصابيء الذي حلّه الخليفة على الإسلام.^(٤) إلا أن القاهر لم يضغط، فيما يبدو، على طبيبه النصراني الأثير عيسى بن يوسف المعروف بابن العطّارة، وكان «يركن إليه ويفضي إليه بأسراره»^(٥) نأمل ألا يكون هذا الطبيب النصراني هو الذي ألمّ أنواع الفطائع ولا سيّما ما أنزل منها بشغب أم المقتدر، التي كانت مع ذلك قد أحسنت معاملة القاهر لما كان محبوساً.^(٦) وقد نفي ابن العطّارة، المولود سنة ٨٨٤ - ٢٧١، إلى الموصل فيما بعد وصودرت أمواله. ثم استدعي إلى بغداد ليمستشار في اختيار الوزير سنة ٩٣٣ - ٣٢١، ثم مات ببغداد سنة ٩٦٨ - ٣٥٨، وكان قد عمي قبل ذلك بعامين.

ثمة نصراني آخر هو إسحق بن علي القنائي الذي كان كاتب الضياع وبيت

المال في وزارة الحاكمي للمقتدر سنة ٣١٢ - ٩٢٤ / ٣١٣ - ٩٢٥ . وقد اعتبر إسحق هذا خطراً من قبل أحد الخصيبي الذي لم يقبل بالوزارة سنة ٣٢١ / تشرين ٩٣٣ ، إلا إذا قبض على إسحق وبضعة أشخاص آخرين . ومن أجل استدراجه إلى القصر ، أبلغه الفاهر أنه يريد تقليله مهمات الوزارة على أن يخلع لقب الوزير على رجل مسلم . إن كون الخليفة قد انطلت على إسحق يثبت أن فكرة تولية نصراني مهمات الوزارة في تلك الحقبة كان أمراً غير مستبعد . ولا نعرف ما حلّ بإسحق بعدما قُبض عليه .^(٧)

ومثلما جرت العادة من قبل نجد النصارى خارج قصر الخليفة أيضاً : من ذلك أن بشرًا النصراني كاتب أبي سليمان داود الحمداني هو الذي حمل سنة ٩٣٢ / ٣٢٠ كتاباً من مولاه بشأن مؤنس .^(٨) ومعلوم أن الخليفة توصل إلى القبض على القائد وإعدامه .

بيد أن فظائع ذلك العهد لم تقف عند هذا الحد ، إذ سقط الخليفة نفسه فريسة بعضها . نجد عند ابن العربي رواية ، ربما استندت إلى كتاب تاريخ ثابت بن سنان بن ثابت المفقود (والذي يغطي الأحداث من سنة ٩٠٢ / ٢٩٠ إلى ٩٧٣ / ٣٦٣) ،^(٩) تصف كيف تدبّر الأشراف أمر تحديد حرس القصر . لما كان هؤلاء المرتزقة كلّهم يصدّقون المنجمين ، رشا الأشراف المنجمين ليلقوا في روع الجند أن الخليفة يتّهياً للقضاء عليهم .^(١٠) وهكذا تمكّن رجال الوزير ابن مقلة من دخول القصر ، فاضطرّ الخليفة المخمور إلى الاستسلام . ولما رفض أن يخلع نفسه أمر الراضي ، ابن أخيه وخلفه ، بأن تُسمّل عيناه . وتذهب بعض روایات هذه المأساة إلى أن بختيشوع بن يحيى طبيب الراضي هو الذي دعا برجل ليقوم بهذه المهمة .^(١١)

حبس الخليفة الأعمى ولم يفرج عنه إلا بعد إحدى عشرة سنة ، فكان يستعطي الناس على باب المسجد الجامع حتى وفاته سنة ٩٥٠ / ٣٣٩ .

الحواشي

- (١) التبيه، ص ٣٨٧ - ٣٨٨ .
- (٢) ابن قتيبة، عيون، ج ١، ص ٢٦٩ الفقرة ٤٧٣ . السيوطي، ص ٣٨٦ - ٣٩٠ . كتاب دول E.I.², IV, p. 442, par SOURDEL
- (٣) ابن قتيبة، عيون، ج ١، ص ٢٦٩ . السيوطي، ص ٣٨٦ - ٣٩٠ . كتاب دول الإسلام، ج ١، ص ١٤٣ ، البداية والنهاية، ج ١١، ص ٢٠٤ .
- (٤) ابن العبرى، تاريخ الزمان، ص ٥٤ - ٥٦ .
- (٥) ابن أبي أصيحة، ص ٣٢٠ ، ابن القسطى، ص ١٦٦ ، الكامل، ج ٨، ص ٦٠٢ ، Vizirat, p. 474-475 et 477 . كانت أخبار يختيشوع بن يحيى قد عادت إلى الصدارة: فقد التجأ إليه رجل اسمه أبي القرافر كان يدعى أنّ اللاهوت قد حلّ فيه، وقد قتل على ما رواه الهمданى في التكملة، ص ٨٦ .
- (٦) ابن العبرى، تاريخ الزمان، ص ٥٥ .
- (٧) Vizirat, p. 437 no. 4, 478, 700, 741 .
- (٨) صلة، ص ١٦٩ .
- (٩) تاريخ الزمان، ص ٦٧ .
- (١٠) المصدر نفسه، ص ٥٥ .
- (١١) مسكونيه، ج ١، ص ٢٩٢ ، مذكور في تحقيق ابن قتيبة، عيون، ج ١، ص ٢٧٧ حيث نجد رواية أخرى.

٢٠ - الراضي (٩٤٠ / ٣٢٩ - ٣٢٢)

إن خلافة أبي العباس أحمد الراضي بالله بن المقتدر معروفة جيداً بفضل كتاب محمد بن يحيى الصولي^(١) الذي كان مؤدبه ثم صار نديمه من بعد.

رأينا من قبل أن الجاثيلق إبراهيم اضطرّ سنة ٩١٣، في خلافة المقتدر، إلى إثبات لقب حبر بغداد الأوحد لنفسه. وها هو يضطرّ بعد عشرين عاماً إلى الدفاع عن «حقوقه». إنّها قضية تركة أبي بشر عبدالله بن فرجويه.^(٢)

كان هذا الرجل النسطوري، من رجال ابن الفرات الثقات،^(٣) قد أوصى بدفع سبعة آلاف دينار من تركته إلى الجاثيلق ليتفقها في وجوه الإحسان. وإذا تنكّرت أرملة الرجل للوصية ردّ الجاثيلق بتحريم إقامة المراسم الدينية للفقيد. خاف رجال الكنيسة ولم يجرؤ أيّ منهم على مخالفة أمر الجاثيلق والتعرض لغضبه باستثناء شهاب اسمه موسى وجد نفسه متنازعاً بين ولاتين (نظرًا إلى انتهاءه إلى بيت الفقيد) ثم رضي أخيراً بالصلاة على الميت. ولكن ساء ما فعل، إذ أنّ الجاثيلق الغضوب أبلغه سخطه وتركه هزة يهزّ بها طلاب الأسکول. أمام هذا الهيجان المجنون جأت أرملة ابن فرجويه إلى أمّ الوزير (والطبيب؟) أبي الحسن بن المقلّد.^(٤) لم يأبه الجاثيلق لهذه الحماية العالية بل جمع، من ثقته بنفسه، رهبان بغداد وطلابها وقساؤتها وجاء بهم حتى قعدوا على باب الوزير. فلما لبث أن انضمّ إلى جمعهم كلّ من كان هناك من كتاب النساطرة وأطبائهم حتى عملوا مظاهره صاحبة. أخيراً وصل ذاك الذي كان يقدر على إيصال الجاثيلق إلى الوزير، إنه الكاتب النافذ القول ابن سنجلا الذي سنتقي به بعد حين. فأدخل الجاثيلق إذن إلى خطة المظالم التي كان الخليفة قد فوّض أمرها آئنِ إلى الوزير.^(٥)

واستجيب في الحال لشکوى إبراهيم وطردت الأرملة من ملاذها، «وسلّمت إلى الجاثليق ليستوفي منها الدين».

ابن سنجلا

من كان إذن هذا الرجل قادر على الدخول كما دخل على الوزير، بين العامين ٩٣٤ - ٩٣٦^(٦) واقناعه باستقبال الجاثليق فوراً؟ إن «أخبار الراضي والمتنبي» تعرّفنا به^(٧) جيداً وتطلعنا على أي سند كان يستند إبراهيم، في أواخر جثلته على الأقلّ.

كان أبو الحسن سعيد بن عمرو (أو عمرون) بن سنجلا (أو سنكلا) كاتب الراضي قبل أن يبايع بالخلافة. وفي العام ٩٣٥ عُين كاتباً خاصاً بابني الخليفة، ثم قُلد زمام ديوان النفقات. وقد كان بارعاً في «الأخذ الأصدق من مال الظلم» (لوقا: ١٦: ٩) مختصاً نفسه بأنواع المكاسب والمزايا ولا سيما المالية منها، ومتشفعاً في الوقت نفسه في تخفيض ما يتصادر عليه الآخرون من أمثال ابن عبدوس أو أحمد بن علي. وكان يحتاط بذلك لنفسه ويكتفل لها الشفاء عند انقلاب الأحوال، مثلما حصل لما أعيد أحمد بن علي إلى الوزارة سنة ٩٤١.

ولما كان الراضي لا يفعل إلا ما يريده ابن سنجلا^(٨) استطاع هذا الكاتب أن يسدي خدمات جلّى إلى النصارى وإلى الجاثليق إبراهيم. وقد شغل صهر ابن سنجلا (زوج اخته) أبو القاسم علي بن يعقوب مناصب مهمة أيضاً.

بالإضافة إلى قضية حقوق الجاثليق حوالي سنة ٩٣٣، نجد ابن سنجلا، في ٧ كانون الأول سنة ٩٣٧، وإنما خلوق كرسى الجثلقة بموت إبراهيم، يلتمس من الخليفة أمراً بعقوبة رجل مسلم (يدعى الحاججي) تحامل على نصراني «مشهود له بالفضل» هو أبو عمرو بن شريح حال الكاتب، ثم يستصدر هذا الأمر على الرغم من شغب العامة بالطرق. لقد كان ابن سنجلا، على قول M. CANARD، زعيم الطائفة النسطورية الحقيقية في أثناء فترة خلوق الكرسى هذه.

أحكام المواريث

لم تزل الدولة (أي موظفوها) تحاول أن تقتنص حقوق الورثة من الصارى (وهي حقوق لم ينص عليها الشعـر القرآـني) ولا سيما مواريث الكتاب المخطوط عليهم، ذلك لأنّ أموالهم كانت مطمعاً لأصحاب السلطـان.^(٩) وقد كان الصارى أنفسهم يتلاعبون بالفارق بين قانونهم العـرقي في هذه المسـألة وبين أحكـام الشـرع الإسـلامـي، إذا ما كان الأـخـير لـصـالـحـهم. ومن أـجل تحـاشـي هـذا الـاغـراء عملـ يـوحـنـا بنـ الأـعرـج سـلـفـ إـبرـاهـيم عـلـى التـشـريـع لـهـذـهـ المـسـأـلـةـ، مـقـرـبـاًـ أـحـكـامـ القـانـونـ الـكـنـسـيـ منـ أـحـكـامـ الشـرعـ الإـسـلامـيـ.^(١٠) ومعـ ذـلـكـ كـانـ خـطـرـ الـمـوـظـفـينـ الـطـهـاعـينـ يـظـلـلـ قـائـمـاـ. وـيفـهمـ مـنـ نـصـ غـامـضـ مـلـارـيـ^(١١)ـ أـنـهـ كـانـ لـلـجـائـلـيـقـ نـصـيبـ مـعـلـومـ مـنـ تـرـكـاتـ الصـارـىـ، وـأـنـ هـذاـ حـقـ قدـ سـلـبـ مـنـهـ فـيـ تـارـيخـ غـيرـ مـحـدـدـ، وـأـنـ إـبرـاهـيمـ الـجـائـلـيـقـ قدـ وـقـفـ مـتـظـلـلـ بـبابـ وـزـيرـ غـيرـ مـسـمـيـ وـأـظـهـرـ توـقـعـ الـمـعـتـضـدـ بـيـدـ عـبـدـ اللهـ بـنـ سـلـيـانـ^(١٢)ـ «ـبـأـنـ ذـلـكـ لـأـهـلـ الذـمـةـ»ـ فـأـخـرـجـ لـهـ الـوـزـيرـ (ـغـيرـ الـمـسـمـيـ) توـقـيـعاـ يـقـرـهـ عـلـىـ ماـ كـانـ لـهـ.^(١٣)

هل وقعت في خلافة الراضي حملة هجاء للذميين من الكتاب؟ يذهب ابن الق testim^(١٤) إلى أن الشكاوى منهم كانت كثيرة، ويورد أبياتاً لمسعود بن الحسين الشريف منها:

ما هـكـذـاـ فـعـلـتـ بـنـوـ الـعـبـاسـ
قـلـدـتـ أـمـرـ الـمـسـلـمـينـ عـلـدـوـهـمـ^(١٥)
ظـلـلـاـ، وـتـنسـيـ مـخـصـيـ الـأـنـفـاسـ
لـاـ تـذـكـرـنـ اـحـصـاءـهـمـ مـاـ وـفـرـواـ
مـُتـصـرـفـينـ الـحـلـقـ الـأـكـيـاسـ
لـاـ تـعـتـدـرـ عـنـ صـرـفـهـمـ بـتـعـدـرـ الـ

يدو أنَّ البيت الأخير يعبر عن رأي الخليفة في الكتاب الذميين، ولا شيء يدلُّ على أنه طردهم من خدمته. بل إنه لما صرف ابن فضلان اليهودي بابن مالك^(١٦) النصراني نظم الشاعر نفسه أبياتاً متوعدة أخرى:

حـفـ اللـهـ وـانـظـرـ فـيـ صـحـيقـيـكـ الـقـيـ
وـقـدـ خـطـ فـيـهـاـ الـكـاـيـتـوـنـ فـأـكـثـرـواـ
وـلـمـ يـقـ إـلـأـ أـنـ يـقـولـواـ: فـلـلـكـ

ومع هذا ظلت العلاقات الطيبة بين ذوي الأدب والكيسنة من نصارى

ومسلمين مستمرة، فمن ذلك ما يذكره المسعودي عن مناظرات جرت بينه وبين أبي زكريا دنحا اليعقوبي المذهب، «المتكلّف الجليل النظار»^(١٧) لما قابله ببغداد وبتكريت «في الكنيسة المعروفة بالخضراء» قبل العام ٣١٣/٩٢٥.

أمّا من ناحية العلاقات الرسمية فقد جاء أسقف عسقلون الملكاني إلى بغداد في أواخر خلافة الراضي (٩٤٠/٣٢٨) يتّمس إذن بإعادة عمارة كنيسة السيدة العذراء التي خربها المسلمين واليهود وأحرقوها، فما حصل على شيء.^(١٨)

إن المرء ليتسائل إلى مَيْعُزِي إلْحَاقِ هَذَا الْأَسْقُف؟ أكان ذلك لأنَّه من الملكانية^(١٩) بينما كان معظم الكتاب، الذين تمُّ الشكوى تحت أيديهم، من النساطرة؟ أم كان ذلك لأنَّ المسؤولين كانوا مشغلين بأمور أخرى أهم؟ على أيَّة حال كان النصارى يعملون في مختلف وظائف الدولة وهم يظهرون في بعض الأحداث، المؤرخة أو غير المؤرخة، من خلافة الراضي:

- في السنة الأولى من عهده، في رمضان ٣٢٣/آب ٩٣٥، نرى الكاتب الملكاني اصطيفن الذي كان يعمل في خدمة مؤنس يصير بطريقه لأنطاكية باسم ثاودوسيوس.^(٢٠)

- في السنة عينها مات اصطيفن الآخر، صاحب بيت مال الخاصة.^(٢١)

- من جهة الأطباء، واجه بخثيشوع بعض المتّابع. فقد أعطى هارون أخي الخليفة شربة قوية مات فيها هارون في ١٥ ربيع الأول ١١/٣٢٤ شباط ٩٣٦. وكان الخليفة يحب أخيه هذا على الرغم من ميله إلى المكاييد، فحزن عليه حزناً عظيماً. ولكنه أبي أن ينتقم لأخيه من الطبيب قائلاً: «وإن كان المشؤوم ما تعمّد ذلك، ولكنَّه أعمى القلب قصير العلم بليد الفكر مرزوق في أيامه محظوظ»^(٢٢). واكتفى الخليفة إذن بنفيه إلى الأنبار، ثم اضطر إلى إعادته نزولاً عند طلب السيدة أمّه.^(٢٣) ومات بخثيشوع سنة ٣٢٩/أيلول ٩٤١.^(٢٤)

وقد عرف طبيان آخران في ذلك العهد ماتا كلاهما في سنة موت الخليفة:
- داود بن ديلم، مات ببغداد في الخامس من المحرم ١٠/٣٢٩ تشرين الأول
^(٢٥) ٩٤٠

- وأبو بشر متى بن يونان الدور قنائي الطبيب والمتجم والمطفي الذي مات ببغداد في ١١ رمضان ٣٢٨٠ / ٩٤٠ حزيران (٢٦)

لما دخل أبو عبدالله أحمد بن علي الكوفي، (٢٧) كاتب الأمير بجكم التركي، إلى بغداد في أواخر عهد الراضي، قبض على موظفي ابن شيرزاد كلهم وصادرهم. إلا أن ابن سنجلا وصهره أبي القاسم علي بن يعقوب (٢٨) عملا على إطلاق أبي الحسن طازاذ بن عيسى (٣٠) أحد الكتاب النساطرة وتکفلا بدفع ما صودر عليه.

نهاية مُلك

اشتد المرض على الراضي في أواخر العام ٩٤٠، وعالجه سنان فلم يفلح في شفائه، ولما كان الخصي التركي زيرك، نديمه الأثير ومدير القصر، قد مات في تشرين الثاني، انتقل الراضي إلى داره، (٣١) وأمر بأن تُطرح في دجلة، (٣٢) كأضحية تكفيرأخيرة، ٤٠٠ دين من الخمر المطبوخ المعْتَنِي من عهد المعتصم. ثم ما لبث أن مات هو في كانون الأول، عن اثنين وثلاثين سنة، ولم تكد خلافته تدوم سبع سنوات.

وهاك تأييده بقلم ابن الطقطقي: (٣٤) «كان شاعراً فصيحاً لبياً، ختم الخلفاء في أشياء منها: أنه آخر خليفة دون له شعر، وأخر خليفة انفرد بتدبير الملك وأخر خليفة خطب على منبر يوم الجمعة وأخر خليفة جالس الندماء ووصل إليه العلماء» (٣٥) وأخر خليفة كانت مراتبه وجوازه وخدمه وحجّابه تحرى على قواعد الخلفاء المتقدّمين».

وحقيق المؤرخ الذي يتغى تحاشي النظر إلى الأمور من زاوية ضيقة (زاوية مصير الجماعة المسيحية فحسب) لا ينسى أنّ الحضارة الإسلامية كانت تمثّل في تلك الحقبة بهزّات عنيفة. ففي العام ٣٢٣ / ٩٣٥، وفي خضم حال من الارتباك السياسي الشديد، ثارت بغداد اضطرابات خطيرة. عدا الخنابلة على الدكاكين ونهبها، وتدخلوا في المعاملات التجارية لفرض احترام الشريعة، هجموا على

الخوارين (النصارى، والمجوس) وعلى القيام وكسروا آلات الملاهى وانتهكوا، من حبيتهم، حرمات المنازل وبلغوا صاحب الشرطة عن كل رجل يجدونه في السبيل مع امرأة من غير محرمة. فخرج توقيع الراضي بنهم عما هم عليه وتوعدهم بالضرب والقتل وحرق المنازل.^(٣٦)

كانت الأوضاع ناضجة لقيام ديكاتورية عسكرية: إنه دخول ابن رائق الذي تلقب بلقب جديد هو أمير الأمراء. وفي ذلك يجيد يحيى^(٣٧) بقوله: «ونظر فيها كان الوزراء ينظرون فيه وبطل مذ ذلك الوقت أمر الوزراء فلم يكن للوزير نظر في شيء من الأشياء ولا كان له غير اسم الوزارة وكذلك سائر من تقلد الإمارة لخلفاء بني العباس بعد ابن رائق وإلى هذه الغاية». ^(٣٨) ويضيف ابن كثير^(٣٩) أن الخليفة لم يبق له سلطان على شيء وأنّ ابن رائق نزله عنزة الأجير. وبهذا بدأت مع ابن رائق واحدة من أعنى الفترات في تاريخ الخلافة العباسية لم يبق فيها من الخلافة إلا اسمها.

ولكن الخليفة حظي بعد قليل «بحماة» آخرين، إذ أن سلالة البوهرين الشيعة كانت قد بدأت تذر قرناها بإيران، حوالي ٣٢٢/٩٣٤. ولن يطول بها الوقت حتى تسيطر على بغداد وتشهد معها الخلافة فترة جديدة من الازدهار في ظل النفوذ الشيعي.

خلافة إبراهيم

في هذه الظروف كان لا بد من اختيار خلف لإبراهيم الثالث أبرازا، الذي مات في شعبان ٣٢٥/حزيران ٩٣٧.

جرى الانتخاب بصورة قانونية، ولا ذكر لتدخل السلطة المدنية ولا لتطفل العلمانيين من النصارى. فاختير إيليا أسقف الأنبار لعلمه وفضائله. فحرر المجمع وثيقة الانتخاب (شلموث) وحصل ابن سنجلا، الذي كان كاتباً بديوان الرمام، على إذن الخليفة بتسيير سيامة الجاثليق بالمدائن. عندئذٍ وقع أمر غير مألف: ذهب الجاثليق المنتخب إيليا لزيارة ابن سنجلا زيارة شكر بروتوكولية وخاطبه بكلام غير

متوقع قائلًا: «بعد جلوسي على كرسي الفطرة يكون لي من مقدرة الحل والعقد أن أجيز لك أن تصيف إلى فلانة زوجتك، جارية نرجو من الله أن يرزق منها ولدًا» فأنكر الكاتب هذا الكلام، وانتزع الشلموث من يدي إيليا، ومزقه مغضبا صائحا: «كأنك تقرّب إلى بحل شريعة المسيح» ولم يعد يطيق ذكر الجاثليق أو ذكر انتخابه. وإذا تردد الآباء فيها يعملون، حكى لهم ابن سنجلا خبر معجزة وقعت لرجل كان في مثل حالته، بفضل صلوات راهب تقى. فقرر رأيهم على انتخاب جديد، إلا أن ابن سنجلا صار يشمئز من الأساقفة. عندئذٍ أنفذ الوضع ابن سنان الطبيب الصابيء الأصل، الذي أخبرهم أنه قد صادف هو أيضًا راهبًا قديساً في دير آبا يوسف ييلد بالقرب من الموصل. فقبل ابن سنجلا بالفكرة وأجبر الأساقفة على القبول بها. فاستدعي الراهب^(٤٠) ولكنه تمنَّ مع أنه كان قد أنبأ بذلك في رؤيا رأها. فأنفذ كتاب من بغداد إلى ناصر الدولة الحمداني يأمره أن يحيي بالراهب طوعًا أو كرهاً. فلم يستجب الراهب حتى ساقوه مكرهاً إلى أن وصل إلى حدثة الموصل فرأى علامات جديدة أقنعته بأنَّ الرب قد اختاره. عندئذٍ قبل عمانوئيل^(٤١).

وعندما وصل إلى بغداد أدخل على الراضي «حسب العادة». فاستفسر منه الخليفة عن بضعة أمور من ديانة النصارى ولا سيما عن محبة الأعداء.^(٤٢) ولما استحسن الراضي أجوبة عمانوئيل أذن بتعيينه ووصله بهدايا وأنفذه في موكب مشرف إلى مقر الجاثلقة بدار الروم.

XVI جرت رسامة عمانوئيل نهار الجمعة في ٢٢ شباط ٩٣٨/١٦ ربيع الآخر ٣٢٦، بعد أن ظلّ الكرسي شاغرًا أكثر من ثانية أشهر. ولا نسمع بعد ذلك عن الجاثليق شيئاً في أواخر أيام الراضي. رأينا أنَّ الكتاب النصارى كانوا ينالون حظهم مما يلمُ بهوايهم من صروف الدهر. لذلك رأى ابن سنجلا أنه من الأوفق أن يختبئ عند صهره علي بن يعقوب^(٤٣) لدى موت الراضي.

الخواشى

- (١) انظر تقويم ماسينيون للصولي في: Hallag,² II, p. 130-133
- (٢) لقد صحّح ماسينيون في المرجع نفسه، ج ١، ص ٤٦٥، ٤٩٠، ٤٩١، الاسم الذي جعله جيسموندي محقق ماري، أبو فرجونا أو ابن فرجونا، انظر أيضًا: Vizirat, p. 407, 509, 510.
- (٣) «وكان الغالب على الدواوين والأعمال في وزارة ابن الفرات هذه، أبو بشر عبدالله بن فرجويه»، كتاب العيون والحدائق، دمشق، ١٩٧٢، ص ١٩٨٤.
- (٤) ربما وجب أن نقرأ هنا ابن مقلة؟ راجع مقالة سورديل عنه في E.I.² III, p. 910 et 911 وVizirat, p. 483-490 يقترح ماسينيون في 491 Hallag², I, p. أن يُقرأ الاسم سليمان بن الحسين بن مخلد؟ - على أيّة حال هناك ابن مخلد ظلّ على التصريحة وهو أبو الحسن (عبدون) ولكنه لم يتقدّم الوزارة قطّ MASSIGNON, Scribes Nestoriens, dans Opera minora I, p. 252.
- (٥) Vizirat, II, p. 640-649
- (٦) وقد كان له دور في قضية أسقف الروم الملکانيين سنة ٩١٣.
- (٧) انظر اسم سعيد بن عمرو في فهرست أخبار الراضي ص ٢٩٣. ويختصر سيرته BUSSE في الصفحة ٢٤٨ الحاشية رقم ٥، وفي الصفحة ٤٦٣ DONOHUE, p. 343.
- (٨) كان يدخل على الخليفة ويخرج مكلّفاً بهمّات سرية، انظر مثلاً كتاب العيون، ص ٣٠٧ - ٣٠٨، ولابن سنجلا كتاب يذكره البيروني في الآثار الباقية، ص ٢٠٤ - ٢٠٥.
- (٩) لما مات عبدالله بن بختيشوع، كاتب الأموال في خلافة المقتدر، صودرت ثروته، ابن أبي أصبيعة، ص ٢١٤.
- (١٠) ماري، ص ٨٨. - عن موقف القانون السرياني الشرقي من المسألة، انظر: W. SELB et H. KAUFHOLD
- (١١) ماري، ص ٩٣.
- (١٢) وزر من ٨٩٢ - ٩٠١
- (١٣) يذهب لويس ماسينيون، في Opera Minora ، ج ١ ص ٢٥٤، إلى أن حق النصارى في الميراث قد أبطل في خلافة المعتمد (٨٦٩ - ٨٩٢) ثم أعيد في خلافة المعتصم (٨٩٢ - ٩٠٢) ثم أبطل في وزارة ابن الفرات الأولى (٩٠٩ / ٢٩٦) ثم أعيد في صورة جزئية في وزارة ابن الفرات الثانية. وإن المرء ليسترب من صحة هذه المعلومات التي لا تذكر مصادرها.
- (١٤) ص ٢٢٥ - ٢٢٦.
- (١٥) يجب أن يدرس موضوع «أعداء الإسلام». ربما كانت اللوحة الجدارية (البيزنطية) بقصرين

عمره المقصورة في b E.I.², I, Pl. X بعد الصفحة ٦٤٠ من أوائل الشواهد على هذا الموضوع. وقد درست في مقالة رشيد بربورييه Les représentations figurées dans l'art des Umayyades en Syrie في مجلة التاريخ، الجزائر، عدد ٦ تموز ١٩٧٨، ص ٣١ والشكل ٩. ونجد فيها قيسر ورذريق، آخر ملوك القوط، وكسرى والنحاشي يملؤن أيديهم علامات على أدائهم الطاعة. وهذا هو موضوع «ملوك الأرض» الذي كان يوجد في الفن الإيراني الساساني.

(١٦) أبو ابن مالك بن الوليد الذي صادفناه للمرة الأخيرة سنة ٣١٣ - ٩٢٥ / ٣١٤ - ٩٢٧.

(١٧) التنبية، ص ١٥٥.

(١٨) يحيى بن سعيد، P.O. XVIII, p. 711

(١٩) ربما كان المسلمين أيضاً ينتقمون على الروم لأجل ما فعلوه من حل المسلمين على النصرانية بعد صلح ملطية سنة ٩٣٤ / ٣٢٢، في بداية خلافة الراضي. فقد كان على المسلمين الراغبين في أن تسلم لهم أموالهم أن ينحازوا إلى خيمة نصب عليها الصليب، الكامل، ج ٨، ص ٢٩٦. انظر أمثلة أخرى في مقالتي Rûm, p. 406-407 et notes

(٢٠) سعيد بن البطريق، ص ٨٧، Annales (CSCO. 51)

(٢١) الصولي، أوراق، ص ٧١، يسميه ما اصطفا.

(٢٢) الصولي، أخبار الراضي، ص ٧٥ - ٧٦، أما ابن تفري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٣، ص ٢٥٧، فيظن أن الطيب تعمد قتل هارون.

(٢٣) الفهداوي، تكملاً، ص ٩٣.

(٢٤) الكامل، ج ٨، ص ٣٧٨، الصفدي، ج ١٠، ص ٨٩، الرقم ٤٥٣٤.

(٢٥) ابن أبي أصبيعة، ص ٣١٥ - ٣١٦، الصفدي، ج ١٣، ص ٤٦٩ الفقرة ٥٧٠.

(٢٦) ابن أبي أصبيعة، ص ٣١٧.

(٢٧) تعليق M. CANARD عليه في ترجمة الصولي، ج ١، ص ١٥٣ الحاشية رقم ٥.

(٢٨) E.I.², I, p. 890-891, par M. CANARD

(٢٩) كاتب سابق لذكي الحاجب وكذلك كاتب محمد بن اينال الترجمان، ووكليل بجكم في مفاوضاته مع البريديين، M. CANARD في ترجمة الصولي، ج ١، ص ٢٣٠ الحاشية رقم ٣.

(٣٠) DONOHUE, p.261

(٣١) كانت هذه الدار بباب الشهاسية، وكانت لريق مولى إبراهيم ابن المهدي. وقد اشتراها الصوفن ثم ابتعها ابن سنجلاء من ورثة اصطفن. ثم سكنتها أخيراً زيرك الفهري الخادم.

الصولي، أوراق، ج ١ ص ١٤٦، كتاب العيون (جهول المؤلف) ص ٣٤١.

(٣٢) الصولي، أوراق، ج ١، ص ١٤٦، تاريخ الزمان، ص ٥٦.

(٣٣) كتاب العيون، ص ٣٤١ - ولم يكن الراضي يشرب غير المطبخ.

(٣٤) في كتاب الفخرى، ص ٢٢٦، أُنْظَرَ أَيْضًا: E.I.¹, III, p. 1168-1169 s.v par K.V. ZETTERSTEEN

(٣٥) يقول المسعودي في التنبيه، ص ٣٩٧ - ٣٨٨: «وكان جواً محبًّا للأدب حسن الشعر»، وفي المروج، الفقرة ٣٤٦٨: «أديباً شاعراً».

(٣٦) الكامل، ج ٨، ص ٣٠٩ - ٣٠٧. - يلاحظ هنري لاوست في مقدمة كتابه عن ابن بطة ص XXXIX أن كتاب البداية ج ٩، ص ١٨١ - ١٨٢، أكثر تحفظاً في رواية الأحداث بينما لا يشير إليها كتاب دول الإسلام بأدنى ذكر.

P.O. XVIII, p. 711-712 (٣٧)

(٣٨) كتب يحيى حوالي سنة ١٠١٣.

(٣٩) بداية، ج ١١، ص ١٨٣ - ١٨٤.

(٤٠) تذكر المصادر هنا للمرة الأولى رجلاً من أعيان النصارى هو أبو عيسى المتدر بن النعيم العبادي الذي أدرك لوقا، مطران الموصل، على جسر دجلة هارباً متذمراً في زي غير زيه ليتحاشى رسامة الجاثليق الجديد.

(٤١) ماري، ص ٩٤ - ٩٨، صلبيا، ص ٨٤ - ٩١، ابن العربي، ج ٢، العمود ٢٤٦ - ٢٤٨، إيليا التصيبيني، تحت العام ٣٢٦، ٣٤٩ والخاتمة العربية ص ٧٥.

(٤٢) انظر جوابه في المخطوط: B.N. ar. 190, catalogue TROUPEAU, I, p. 161

(٤٣) تمارب الأمم، ج ١، ص ٤١٧.

٢١ - المتقي (٣٢٩ - ٩٤٠ / ٣٣٣ - ٩٤٤)

لم يبايع لأبي إسحق إبراهيم المتقي بالله،^(١) أخي الراضي، إلاً بعد خمسة أيام من وفاة سلفه، وذلك لكثره ما هان على الناس أمر وجود الخليفة أو عدم وجوده. ويصف المسعودي ذلك فيجيد إذ يقول:^(٢) «ولم نعرض لوصف أخلاق المتقي^(٣) والمستكفي والمطبي ومذاهفهم إذ كانوا كالملوئ عليهم لا أمر ينفذ لهم». ذلك أن أمراء الترك والديلم وغيرهم كانوا يتبعون في بسط صولتهم على بغداد، وأضحت الولايات كان كلًّا واحدة منها مستقلة بذاتها «فصار الخلفاء مقهورين خائفين قد قعوا باسم الخلافة ورضوا بالسلامة». ومن سوء الظالع أن بغداد شهدت، سنة تولي المتقي، مجاعة ووباء وفيضانًا.^(٤)

من الناحية السياسية، نجد سعيداً بن عمرو بن سنجلا يظهر بعد وفاة بجكم ٣٢٩ قبل ٩٤١، فيصادرهُ أحمد بن علي الكوفي على خمسين ألف دينار دفعها ابن سنجلا من دون أن يضرب أو يهان، وذلك لأنَّه كان قد ترقَّ في معاملةِ أحمد لما كان في مثل حاله من قبل. وقد ظهر أيضًا علي بن يعقوب صهره من مكمنه فصودر على ٧٠٠٠ دينار.^(٥)

أما من الناحية الدينية، فنجد وفاة بجكم تطلق تحركاً حنبلياً. فقد نزل الحنابلة إلى السُّبُل يصيرون «طهرت السنة»، وحاولوا تهديم مسجد للشيعة والتعدّي على الضَّرَّائِين إلاً أنَّهم هدوا من بعدما أُلْقِي القبض على بعضهم وُضُرب بعضهم الآخر بالعصي.^(٦)

في خضمِ الصراع بين فريقي الجيش من الديلم والترك تنقلت بغداد في تلك

الأيام من يد هؤلاء إلى يد أولئك وبالعكس، ثم وزر أبو إسحق محمد بن إبراهيم الأسكافي المعروف بالقراريطي وتقلّد أمارة الأمراء كورتكين الديلمي، المكتنّ بأبي الفوارس، في أول تموز ٩٤١^(٧) أمّا ابن سنجلا الذي كان قد دفع إلى القراريطي مبلغ ٥٠٠٠ دينار، فقد ظنَّ أنه أمن غائلته بذلك فذهب لزيارتة بصحبة سلفه. فلما حصل بذلك قبض عليهما وأمر بها فُضِّرياً، ثم اضطُرَّا إلى أن يدفعا^(٨) مالاً لكي يفرج عنها.^(٩)

لا أحسبنا نجانب الصواب إذا قدرنا أن أدنى الكتاب النصاري مرتبة في تلك الفترة قد تأثر بتقلبات السياسة، مثلما كان الشعب يعاني من انعدام الأمن الناتج عن تحركات الفرق العسكرية على اختلافها... . ويدرك هنا أيضًا رجل انتهازي^(١٠) ببغداد «فتح على الناس أبواب المصائب على مصاريعها»، فثار به فييان الحي (المسلمون) وقتلوه. وقد كاد الديلم أن يضعوا النار في الحي لو لم يتوصّل الأمير كورتكين إلى منعهم من ذلك «فشهد له أهل الستر والرشاد برجاحة العقل وسداد الرأي».

في ٢١ أيلول ٩٤١ عُيِّن محمد بن رائق أميرًا للأمراء للمرة الثانية من بعدما فتك بالديلم.

عمانوئيل وابن رائق

إن موهبة الجاثليق في الرؤى قد أتاحت له إقامة علاقات مع أمير الأمراء. لم يلتقي الرجالان من قبل في ولاية ابن رائق الأولى (٣٢٤ - ٩٣٦/٣٢٦)،^(١١) لأنَّ عمانوئيل لم يكن قد نصب جاثليقاً بعد. لكن قبل عودة الأمير إلى السلطة، أي قبل ٣٢٩ / أيلول ٩٤١، وقع للكاتب النصاري أبي سعيد بن يشفور الداقوقى المولد (والسطوري، إذن) خبر عجيب، يرويه ماري ويذكر إسناده.^(١٢)

كان للكاتب النصاري صديق مسلم هو ابن آدم التاجر، الذي يحدّد ماري بدقةً موضع داره. وقد أسرَ التاجر يومًا إلى صاحبه بأن يذهب في حيطة إلى تلك الدار، للقاء رجل تبيّن أنه ابن رائق. بادر الأمير إلى الكلام فقال: «ألاست

نصرانياً؟» فلما أجابه الكاتب بالإيجاب قال له ابن رائق: «صيف لي الجاثليق» وبيدو أن الصفة كانت مقنعة لأنَّ الأمير قال للكاتب هذه الجملة الغامضة: «اذهب وحصَّه سلامي وقل له أنا على العهد». وانتهى الحديث عند هذا الحد وافترق الثلاثة تحت جنح الليل.

ولما أدى الكاتب الرسالة إلى الخبر، حاول أن يستفهم منه عن حقيقة الأمر. ولكن ذلك لم يكن بالأمر الهين مع عمانوئيل لأنَّه كان «شرس الأخلاق». ومع ذلك فقد رضي الجاثليق بأن يروي القصة في آخر الأمر.

كان ابن سنجلا الكاتب قد غُيَّ إِلَيْهِ أَبْنَ رَائِقَ الْأَمِيرِ قد سمع به قول الوشاة وأنَّه يسعى في هلاكه وهلاك جماعة من النصارى معه. فقصد الكاتب الجاثليق يلتمس منه العون. وقد أعاده الجاثليق بأنَّ ظهر هو والمسيح وشخص ثالث غير مسمى، في الحلم لابن رائق. فقال الشخص الثالث للأمير: «المسيح يقول لك: لم تعتقد القبيح بأبي الحسن بن سنجلا وأهل ملته، فأعدل عن هذا ليفرج عنك». ثم طمأن الجاثليق (في المنام أيضاً) ابن رائق إلى أنه سيفلح فيما يعزم عليه من أمور إذا وعد باحترام النصارى.

فلما استعاد ابن رائق لقب أمير الأمراء واحتفظ به حتى اغتياله سنة ٣٣٠ / ٩٤٢، «وفي بالعهد وعامل النصارى بالجميل وتَأَكَّدَ ما بينه وبين الجاثليق».

بعد أحداث أخرى كثيرة وقعت وبلايا عميمة حلَّت ببغداد، اشتدَّ خطر البريديين على العاصمة، فاستهپن ابن رائق العامة ضدَّهم، حتى إنَّه فتح أبواب السجون وأخرج منها اللصوص وقطع الطريق لدرايتهم بمعالجة السلاح. إلا أنَّ هؤلاء انقلبوا على التجار والأثرياء... وانتهت الواقعة بفرار ابن رائق والخليفة في ٢٣ جمادى الأولى ٣٣٠ / آذار ٩٤٢.

حكم أبو الحسين البريدي بغداد لأخيه مدة أربعة أشهر فحسب. وافتتح الخراج والجزية في آذار ٩٤٢/٣٣٠ في وقت يكون الدفع أصعب ما يكون. وقد كانت التحرّيات لهذا الغرض فرصة سانحة للنهب. (١٣)

لم يطل الوقت حتى قُتل ابن رائق ورجع الخليفة إلى بغداد في حماية أبي محمد

الحسن ناصر الدولة^(١٤) الحمداني الشيعي صاحب الموصل. وقد كان له هو أيضاً وزير نصراوي (نسطوري) اسمه دنحا، كان يثق به ويواليه المهام، من ذلك أنه هو الذي جاء ملواه بالجيش والمال ليأخذ حلب سنة ٩٤٤/٣٣٣^(١٥).

نلاحظ عابرين أنه لما اشتدت الماجاعة ببغداد سنة ٩٤٢/٣٣١ وانهض جسر السفن الوحيد على دجلة تحت وطأة الفيضان، اجتاح الروم قيليقية واستأنسوا من المسلمين خلقاً كثيراً وكتبوا إلى الخليفة أنهم لا يطلقون الأسرى إلا إذا دفع إليهم منديلاً بكنيسة بالرها، عليه صورة وجه المسيح، وكانت الرها في أيدي المسلمين.^(١٦) فاستحضر علي بن عيسى والفقهاء والقضاة واستشروا، فأشار علي بن عيسى على الخليفة بتخليص المسلمين من الأسر، فسلم المنديل وُنقل إلى القسطنطينية^(١٧) سنة ٩٤٤.

إلا أنَّ ملك الحمدانيين لبغداد لم يلبث أن ثقلت وطأته على الناس حتى «تَنَى الناس بني البريدي وغيرهم مع ما ناهم من الضرر والضرائب والغلاء ونكبات الناس وأخذ أموالهم. وشكى مع ذلك أنَّ أمر الرفض قد أُعلن في بغداد».^(١٨)

ولما خاف الخليفة نفسه أن يُقْبَضَ، رأى أن يغادر بغداد مرَّة ثانية ويحل بالموصل في كنف بني حمدان وحمايتهم. ويصف المسعودي، الذي شهد الحادث، بلبلة الناس وارتكابهم لدى رؤية الخليفة يرحل.^(١٩) «وقد استعظم أهل بغداد ما نزل بهم في هذا الوقت... من خروج أبي إسحق المتقى لله عنهم وما كان قبل هذا الوقت من البريديين وابن رائق وتوزون التركي وما دفعوا إليه من الوحشة بخروج أبي محمد الحسن... الملقب بناصر الدولة»... الخ.

في النصارى نجد طازاذ مثل ابن شيرزاد ببغداد يعنى من مهماته^(٢٠) ويلحظ الصولي^(٢١): «أن الجوالى لسنة اثنين [وثلاثين وثلاثمائة] قد فتحت في شهر ربيع الأول (٢ تشرين الثاني / أول كانون الأول ٩٤٣) فلحق أهل الذمة خطب عظيم وظلم قبيح».^(٢٢)

فضلاً عن هذا نجد لعة الترقيات والنكسات تُظهر الكتاب النصارى على مسرح الأحداث ثم تغمرهم وتفعل مثل ذلك بنظرائهم المسلمين. ففي الفاتح من

شوال ٨/٣٣٢ حزيران ٩٤٣، قُبض أبو علي سعيد بن داود المسيحي، طيب توزون الشخصي وأخوه أبو عمرو فهد وابن خالته، وضرروا ضرباً مبرحاً ليقرروا بمال يبذلوه. وفي المحرم ٣٣٣/٢٤ آب - ٢٢ أيلول ٩٤٤ عادوا إلى مناصبهم وكأن شيئاً لم يكن.^(٢٣)

وفي أواخر أيلول وأوائل تشرين الأول من السنة عينها يظهر الجاثليق عمانوئيل في صورة غير مشرفة في نص الصولي:^(٢٤) «ووجه الأمير بقوم من أصحابه، فأمرهم أن يكسوا أهل الريف من النبادين^(٢٥) والقواعدين، وتعطيل ما يجري من أمر النبادين بدار الروم بالجانب الشرقي، ونسب ذلك إلى الجاثليق، وأن له عليهم قائماً، وأنه يرسل أهل نحلته فيعوز بهم [كذا!] وصادره على خمسين ألف درهم بوساطة طازاذ وابن سنجلا، وعطف بعد ذلك على النبادين والقواعدين، فحبس منها وعاقب، وسكن أمر البلاء قليلاً».

انتهت خلافة المتقى بصورة مأساوية. فقد ألقى عليه القبض الأمير توزون التركي. وبعد أخذ البيعة لأبي القاسم عبدالله بن المكتفي، أكره توزون المتقى على خلع نفسه، ثم أمر به فسملت عليه، «فصالح، فأمر أصحاب الدبابد فضرروا بها، فصالح فلم يسمع صياغه». ^(٢٦) كانت سن الخليفة المخلوع ٣٦ سنة، ولم يمت إلا سنة ٩٦٨/٣٥٧، أي بعد ٢٤ سنة.^(٢٧)

الحواشي

(١) الصفدي، ج ٥، ص ٣٤١ - ٣٤٢، الرقم ٢٤١١.

(٢) التنبية، ص ٤٠٠.

(٣) يقول ابن الطقطقي، ص ٢٢٩، أنه لم يكن له من السيرة ما يؤثر.

(٤) ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ٥٧، E. ASHTOR, dans Un mouvement migratoire au

Moyen Age, migration de l'Irak vers les pays méditerranéens, Annales 27 (1972), p.

185-214 (reproduit dans the Medieval Near East, Variorum Reprints, 1978).

هجرات التجار على مدى هذا العهد (ص ١٨٦)، وكذلك هجرة كتاب كبار إلى مصر، من

- أمثال أبي يعقوب إسحق بن نصیر البغدادي (ت ٩١٠) الذي رأس دیوان الإنشاء لأحمد بن طولون (ص ١٩٠، إحالة إلى إرشاد الأریب لیاقوت، ج ٦، ص ٢٣٧ - ٢٣٨).
- (٥) الصویلی، ج ٢، ص ١٩٨.
- (٦) المصدر نفسه، ص ١٩٨.
- (٧) المصدر نفسه، ص ٢٠٤. ويسمیه ابن مسکویہ کورنکیج، تجارب، ج ٢، ص ١٩.
- (٨) الصویلی، الأوراق، ج ١، ص ٢٠٥: ١٣٠٠٠ دینار، ویذكر ابن مسکویہ، ج ٢، ص ١٩: ١٥٠٠٠ دینار!
- (٩) المداني، تکملة، ص ١٢٤، ابن مسکویہ، ج ٢، ص ٢٥.
- (١٠) الصویلی، الأوراق، ج ١، ص ٢٠٦.
- (١١) E.I.², II, p. 926-927, par D. SOURDEL. وقد اختباً أول أمره عند بعض النصارى ببغداد من بني حسان، كتاب العيون، ص ٣١٦.
- (١٢) أبو علي الحسن بن سليمان بن الجمال.
- (١٣) BOWEN, p. 374
- (١٤) الصویلی، ج ١، ص ٢٢٧ - ٢٢٩، الذہبی، كتاب دول الإسلام، ج ١، ص ١٤٩، ابن كثير، ج ١١، ص ٢٠٢ - ٢٠٣.
- (١٥) نشوار، ج ٣، ص ٢٤ - ٢٥. كان معسکر انطلاق سيف الدولة بدیر الأعلى بالموصل.
- (١٦) تاريخ الزمان لابن العربي، ص ٥٧. يحيى، ص ٧٣٠ - ٧٣٢، P.O. XVIII يقول يحيى بن جریر في كتاب المرشد إنه رأى المتذيل بكتابته القدسية صوفيا سنة ١٠٥٨/٤٥٠ - ١٠٥٩، ولكنه ينطئ، إذ يقول إنَّ المتذيل ظلَّ بالرُّثا حتى العام ١٠٢٩/٤٢٩، كتاب المرشد، الفصل ٣٥، في سمیر خليل في Islamochristiana, 2 (1976), p. 217.
- (١٧) The Turin Shroud. - خلافاً لرأي IAN WILSON في كتابه Lon- La revue d'histoire ecclésiastique (Louvain), 1987 don, 1978) أعتقد أنني قد بيَّنت في، ١٩٨٧ أنه يجب التمييز بين المتذيل وبين كفن تورينو.
- (١٨) الصویلی، ج ١، ص ٢٣٥ - ٢٣٦.
- (١٩) مروج، الفقرة ٢٦٦٢.
- (٢٠) الصویلی، ج ١، ص ٢٤٥.
- (٢١) المصدر نفسه، ص ٢٥١.
- (٢٢) في السنة ذاتها فرض لص اسمه حمدي، بالتواطؤ مع ابن شيززاد فيها قيل، إثابة على أهل بغداد يفتدون أنفسهم منه بها. ثم ظفر به اسکرج الدیلمی صاحب الشرطة وقتلها، السیوطی، ص ٣٩٦، ابن الأثیر، الكامل، ج ٨، ص ٤١٦.
- (٢٣) الصویلی، ج ١، ص ٢٧٧.
- (٢٤) الصویلی، ج ١، ص ٢٨٠.

(٢٥) عن أحكام الشرع في شأن الخمر انظر مقالة A.J. WENSINCK عن الخمر في E.I.² IV, p. 1027-1029.

(٢٦) الصولي، ج ١، ص ٢٨٢.
P.O. XVIII، ٧٣٧، ص يحيى.

٢٢ - المستكفي (٣٣٣ - ٩٤٤ / ٣٣٤ - ٩٤٦)

كان أبو القاسم عبدالله المستكفي بالله، ابن المكتفي وابن عم المتنبي في «سائر أوقاته فازعاً وجلاً» كما وصفه بعض خدمه النصارى.^(١) وليس لنا أن نذكر عليه هذا لأن ذكرى سلفه (المخلوع والمسمول) كانت ماثلة أمام ناظريه.

بعدما مات توزون في المحرم من العام ٣٣٤ / آب - أيلول ٩٤٥ وللأتراك الأمر لكاتبته ابن شيرزاد،^(٢) وفي إثره لا نزال نجد كاتبه طازاد^(٣) النصراوي.

معز الدولة

ييد أن السلطة سرعان ما انتقلت من أيدي الترك (السنّة) إلى أيدي البوهين^(٤) (الشيعة). كانت أخبارهم قد بدأت تتوارد منذ مدة من الزمن، وكانوا يقتربون من العاصمة، في كانون الأول ٩٤٥ دخل أحمد بن بويه «الديلمي الأقطع»،^(٥) إلى بغداد، بعد أن كان قد بسط سيطرته على البصرة وواسط والأهواز، فخلع عليه المستكفي لقب معز الدولة. وهكذا «ضاعت دولة» بني العباس، كما لاحظ البيروني،^(٦) منذ أن أفرطوا في خلع الألقاب المنسوبة إلى الدولة على أعوازهم.

بعد شهر أو أكثر من الشهر بقليل، على دخول معز الدولة بغداد، خلع الأمير الخليفة وسمّل عينيه (في كانون الثاني ٩٤٦). وكان المستكفي قد ساد (إذا جاز القول) ستة وأربعين شهر.^(٧) لم تكن هناك مناسبة للكلام عن النصارى خلال هذا العهد القصير الذي ابتليت فيه بغداد بالمجاعة المستمرة.

كان وصول البوهيين إلى بغداد، بالنسبة إلى المسلمين، فاتحة عصر جديد من عصور الخلافة: عصر السيادة الشيعية. كانت ردة فعل المتوكّل السنّي على الخلافة المعتزليّة قد تورّطت في الرّمال الخاسفة لأزمة الخلافة التي استمرّت منذ العام .٨٦١/٢٤٧

لم تكن الحقبة البوهية أصعب من سابقاتها بالنسبة إلى النصارى. فقد وقعت بعض فورات العنف والقرارات التمييّزة، بيد أن الكتاب والأطباء النصارى كانوا دائمًا في الواقع المناسب على مقربة من أصحاب الصولة. وقد كان نفوذهم بارزًا أحياناً ومغموراً في أغلب الأحيان. ولئن ذابوا واختفوا من بعض المناطق فذلك بسبب التّأكّل، بسبب التّعب، بسبب السّأم من كونهم «مختلفين» لا بسبب الاضطهادات العنيفة.

الحواشي

(١) أبو إسحق إبراهيم بن الوكيل، أنظر مروج الذهب، الفقرة ٣٥٥٣. كان أبوه إسحق الوكيل متصرّفًا في خزانة الشراب والكسوة بدار الخلافة، مروج، الفقرة ٣٥٤٣.

(٢) يحيى، ص ٧٤١ - ٧٤٢ (P.O. XVIII)

(٣) تجرب الأئم، ج ٢، ص ٨٧. ويقتفي الألب DONOHUE أثره حتى العامين ٩٤٧/٣٣٦ - ٩٤٨ و ٩٥٢/٣٤١ و ٩٥٣ - ٩٥٤.

(٤) انظر مراجع ببليوغرافية عن البوهيين تحت اسم: فاروق عمر.

(٥) يحيى، ص ٧٤٢.

(٦) الآثار الباقيّة، ص ١٣٢.

(٧) مروج، الفقرة ٣٥٣٥.

٢٣ - المطیع (٩٧٤/٣٦٣ - ٣٣٤)

هل أراد معز الدولة إلغاء الخلافة نهائياً، على ما اتهمه به ابن كثير؟^(١) المهم أنه نصب خيال خليفة في شخص أبي القاسم الفضل الذي تلقب بالمطیع لله والذي ربما كان أليق به أن يتلقب بالمطیع للبوهين.^(٢)

وقد أدرك المسعودي ذلك إذ ختم مروجته بهذه الجملة المعبرة عن الاشمئاز: «وغلب على الأمر ابن بویه الدیلمی والمطیع في يده لا أمر له ولا نهي ولا خلافة تعرف ولا وزارة تذكر».^(٣)

وهذا لا يعني أنَّ السلام ساد من أول ما دخل ابن بویه إلى بغداد. فقد كان على معز الدولة محاربة ناصر الدولة صاحب الموصل^(٤) في السنة الأولى لخلافة المطیع أي سنة ٩٤٥/٣٣٤. كان كل واحد منها يملك على أحد شطري بغداد: البوهی على الجانب الغربي والحمدانی على الجانب الشرقي. ولما هرب هذا من حملة المعز عليه هرب كثیر من سکان ذلك الجانب معه فهات عشرة آلاف على الطرق، ودخل الدیلم ووضعوا السيف فيمن بقي ونبوا الدور واستباحوا النساء.^(٥) ومن الصعب أن نعرف هل هرب النصاری أيضًا أم لا. فالمعلوم أنهم كانت لهم كنائس ومحال في الجانب الغربي وفي الجانب الشرقي، وبخاصة في أحیاء الشماسية إلى الشمال حيث كان مقرَّ البختلة وأحياء سوق الثلاثاء إلى الجنوب.

ونقرأ أنَّ المجاعة أصابت بغداد في العام ٩٤٥/٣٣٤ أيضًا.^(٦) وليس في الأمر ما يستغرب نظرًا إلى الظروف. ويدرك ابن العبری أنَّ بعض المنجمین قد كان تنبأ بها. وينبغي لنا الانتظار حتى العام ٩٥٠/٣٣٩ لنجد المؤرخ نفسه يذكر^(٧) «حدوث رخص وافر» وهو قليلاً ما يفعل هذا.

بعد عامين من ذلك التاريخ شب حريق في الأحياء الجنوبية الشرقية من بغداد، بسوق الثلاثاء حيث كان يسكن بعض النصارى، كما تقدم، فهات به خلق كثير.^(٨) وفي العام التالي اندرأ الجراد على نواحي بغداد والموصل فغلت الأسعار.^(٩) ولا يدهشنا أن تقل الأخبار عن النصارى في أثناء تلك السنين الطوال العجاف، فعندما يستغل المرء بسُد الرمق، لا ينفك في كتابة التاريخ.

ها بعض الأمارات على تحسُّن الأحوال: الجاثليق عمانوئيل يظهر ويهم بإعادة البناء. نحن الآن في العام ٩٥٣ - ٣٤٣، ولا بد من ترميم كنيسة دار الروم بالشهاشية إلى الشمال الشرقي من العاصمة وكنيسة الدير الذي بحلاة العتيقة، ترميمًا مهمًا.^(١٠) أمّا الأولى فقد طالب بذلك أبناء الرعية، وأمّا الثانية فبأمر الجاثليق، وأمّا الحصول على الإذن الرسمي فهو سهولة الطيب أبي علي سعيد بن داود المسيحي.

وافتّق أن اشتري رجل من أعيان النصارى، هو أبو عيسى المنذر بن النعيم العبادي الذي صادفناه من قبل، أبواباً للهيكل ثمنها مئة دينار. وكانت الأبواب جاهزة في سوق النجارين تنتظر من ينقلها لما أمر الجاثليق فجأة بأن تجلب على الفور. في اليوم التالي فهم المقربون من الجاثليق استعجاله الأمر، لما اتصل بهم الخبر بأن سوق النجارين بباب الطاق احترق كله ليلًا. لم يكن عمانوئيل قد فقد موهبة الرؤيا الصادقة بعد خيبة العام ٩٤٤.

وقد التزم بنفقات الترميم (للكنيستين؟) أبو علي بن غسان النصراوي كاتب ركن الدولة بن بويه.

الشيرازيون ببغداد

يدلّ الاسم الأخير المذكور على أنَّ النصارى انخرطوا في خدمة الأسياد الجدد، وقد كان البعض منهم مع أولئك الأسياد منذ أن كانوا في الأعمال الإيرانية من الخلافة حيث بدأ البوهيمون بالتوسيع. إذ نجد في خدمة عِمَاد الدولة علي، وهو من أوائل بني بويه، الذي حكم فارس من شيراز (من قبَل الخليفة الراضي مبدئًا) من ٣٢٥ إلى ٩٣٧ - ٩٣٥، ووزيره النصراوي الراري أبو سعد إسماعيل بن

موسى.^(١١) وقد صحب هؤلاء النصارى موالיהם إلى بغداد حيث صار في طائفة النصارى هناك جماعة ضاغطة جديدة، هي جماعة الشيرازيين،^(١٢) إلى جانب جماعات أهل المدائن وأهل الحيرة وأهل كسكي، أصحاب النفوذ التقليدي.

منذ العام ٩٤٨/٣٣٧ يظهر أيضًا في خدمة البوهيمين واحد من معارفنا القدامى، إنه ابن سنجلا الذي عمل آئذٍ كاتبًا على الضياع بسوان بغداد، للأمير روزبهان بن ونداد خورشيد الديلمي، أحد قواد معز الدولة.^(١٣)

ولما خالف هذا القائد على معز الدولة سنة ٩٥٦، قلق الأمير البوهيمي: هل يطيعه جنده من الديلم في محاربة رجل من جنسهم؟ هل يقدر الترك وحدهم على كسره؟ ثم ألن يغتنم الحمداني، صاحب الموصل، الفرصة لينقض عليه من الشهال؟ لذلك أوعز معز الدولة إلى خازنه النصراوي أبي علي الحسن بن إبراهيم الشيرازي^(١٤) بأن يعُذ الزوارق ليجي ولده وحرمه وأمواله إلى البصرة. قبل أن يرسلهم بعث الخازن أبي الحسن علياً بن عون المسيحي لاستشیر الجاثليق المعروف بصدق رؤاه: عم ستنجلي المعركة بين المعز وبين روزبهان؟ فأجاب عمانوئيل: «بأن الخبر يأتيه في مستهل الشهر بما يسر وبالظفر».^(١٥)

وهذا يفسّر لنا لم تمنع الجاثليق بعض المكانة لدى البوهيمين. وقد قلق الخازن يوماً (بتاريخ غير محدد) على صحة مولاه (وعلى مستقبله هو أيضًا؟)، وكان الأمير يعاني من حمى في المثانة فأرسل الخازن ابن أخته إلى عمانوئيل يسألها: هل حياة الأمير في خطر؟ فأجابه الحبر: «قل له ليس يتأذى بممات معز الدولة وكان ذلك رمزاً على أن يموت قبله».

عدد النصارى

لم نتكلّم حتى الآن عن عدد النصارى. إن تقدير هذا العدد يفترض القدرة على تكوين فكرة، على شيء من الوضوح، عن تطور عدد السكان في مدينة معينة (بغداد مثلاً) أو ناحية معينة، ومقارنة هذا العدد بالبالغ المجموع من جزية الرؤوس.

ولشن جرّبت دراسات كهذه على بعض المدن^(١٦) فأنا ستصطدم، إذا ما طبّقت على بغداد، بتناقض شهادات المؤرخين. نقرأ عند التتوخي،^(١٧) مثلاً، أنَّ سكان المدينة في الفترة التي وصلنا إليها، أي سنة ٩٥٦/٣٤٥ في خلافة المطیع، صاروا إلى عشر ما كانوا عليه في خلافة المقتدر (٢٩٥ - ٩٠٨/٣٢٠ - ٩٣٢). فكيف يجوز لي: A. ABEL أن يكتب^(١٨) أنَّ سكان بغداد كانوا يزيدون على مليون نسمة في أيام المقدس^(١٩) (٩٥٦/٣٥٥)، أي في خلافة خلف المطیع؟ هل كان عدد سُكّانها عشرة ملايين نسمة إذن قبل خمسين سنة؟

أما الجزية في بداية القرن الثالث/ التاسع، فقد كان ارتفاعها من بغداد ١٣٠٠٠ درهم وفي بداية القرن الرابع/ العاشر، ١٦٠٠٠ دينار.^(٢٠) ويرى متز^(٢١) «أنَّ هذين الرقمين يدلّان على أنَّه كان في بغداد نحو من خمسة عشر ألفاً من أهل الذمة يدفعون الجزية، ويجب أن نسقط منهم ألف يهودي». ونستطيع أن نقول بشيء من اليقين إنَّه كان في بغداد ما بين أربعين وخمسين ألف نصارى». لا بدَّ من إعادة درس هذه الأرقام، ولكن هل تفي الوثائق بمثل هذه الدراسة؟ يذهب ياسين العمري في كتاب الدر المكنون في المآثر الماضية من القرون، وهو مؤلف موصلٍ من القرن الثامن عشر، إلى أنَّه كان في بغداد في زمن الغزو المغولي ٥٦ كنيسة وأنَّ ٤٣٠٠ رجل كانوا يدفعون الجزية فيها. ويعلّق الأب بطرس حداد الذي يورد النصّ في مقالة بـ«جَلَّة بين النهرين»^(٢٢) قائلاً: «ونحن نرى أنَّ في قوله عن عدد الكنائس مبالغة كبيرة». ويبدو أنَّ ثمة مبالغة أيضاً في عدد النصارى، إذ لو حسبنا متوسط الأسرة خمسة أشخاص لوجب أن يكون عدد النصارى أكثر من مئتي ألف؟ لقد حفلت أواخر جملة عمانوئيل الطويلة بجملة بلايا: «وباء في العام ٩٥٧/٣٤٦»^(٢٣) حروب بين أحياء بغداد وحرائق متبدلة سنة ٩٥٩/٣٤٨، وفي السنة عينها جفاف وجراد.^(٢٤)

مات الباحثيقي في صفر ٣٤٩ / نيسان ٩٦٠ عن جملة دامت أكثر من ٢٢ سنة. «كان شيخاً بهياً قديساً ولم يكن له إلا عيب واحد، وهو محبة المال وشدة الشح عليه». وقد ترك سبعة آلاف مثقال ذهبًا وست مئة ألف درهم. «وكان قد أعد لنفسه تابوتاً من خشب الجوز على مثال الذوات بغير مسمار ولا حديد». وكان

من آخر كراماته أو (علام طمعه؟) أن يده الميتة قبضت على «العكان» عندما وضع على جثته. وقد أوشك أبو عيسى أن ينشر الخبر إلا أن شاباً الكاتب منعه: كان لا بدًّ من إكمال مراسم الدفن التي شهدت تنازعًا على شرف قراءة فصل من رسائل القديسين بين أهل المدائن وأهل الحيرة... .

بالنسبة إلى المجاعة في الموصل سنة ٩٦١/٣٥٠، يطلعنا ابن العربي^(٢٥) على إحدى نتائج هذه الكوارث المستوطنة: هجرة السكان، ولا سيما النصارى منهم، بحيث تحولوا تدريجيًّا إلى أقلية بدار الإسلام. في تلك السنة ذهب اليعاقة حتى ساحل البحر المتوسط. وهكذا بنيت بطرابلس الشام كنيسة باسم «الشهيد المجيد مار بهنام» الذي لا يزال موضع استشهاده معظًّا بالقرب من الموصل. أما الكنيسة التي بطرابلس فتجهل حتى موقعها.

وفي هذه السنة ذاتها، ومع استمرار الغلاء واتصال الفتنة في شطري بغداد،^(٢٦) مات أبو إسحاق بن ثوابة النصراوي كاتب الخليفة ومعز الدولة. وقد أنيط الإنشاء من بعده بإبراهيم بن هلال الصابيء المعروف. ويشير H. BUSSE، في هذا الشأن، إلى أن خدمات الخليفة وأمير الأمراء كانت توكل آنئذ إلى نفس الكتاب. وفي هذه الحالة المخصوصة كان لبني ثوابة عدد من الرجال، بعضهم نصارى وبعضهم مسلمون في دواعين الخلفاء منذ أيام العتيد.^(٢٧)

وفي العام ٩٦١-٩٦٢، وصل أبو الحسن سعيد بن عمرو بن سنجلا إلى قمة مراتبه. فصار كاتب الخليفة الخاص، وينذهب H. BUSSE إلى حد اعتباره بعثابة وزير.^(٢٨)

خلف عمانوئيل

كانت الاستعدادات جارية لانتخاب خلف لعمانوئيل. وكانت القضية في يد العلمانيين: اتفق أول الأمر كلُّ من أبي عمر بن عديٍّ كاتب سبكتكين الحاجب^(٢٩) وأبي علي الحازن على انتخاب مطران جنديسابور، وكان الآباء المسيمون على نية الموافقة لماً غير أبو علي رأيه

XVII واختار إسرائيل أسقف كسكي، العجوز الذي طوى تسعين حولاً. رفض الآباء وأبو عمر بن عدي هذا الحال. ولا تظاهر أبو علي بفرضه من قبل الخليفة ومعزٌ الدولة لاذ بعض الأساقفة بالفرار لكي لا يتخروا إسرائيل.^(٣٠)

لماذا تمسك الخازن بهذا المرشح؟ ذلك لأنّ إسرائيل أيضًا كان «يُخبر بالغيب»... ففي العام ٩٤٧/٣٣٦، لما خرج الخليفة وأمير الأمراء لحاربة أبي الحسين البريدي^(٣١) بالبصرة، توافقاً بواسطه (كسكي) حيث كان إسرائيل أسقفاً. ففتح إسرائيل لل الخليفة (لا للأمير!) بباب المذبح، حيث لا يجوز الدخول إلا للقس الصائم.^(٣٢) فسأله أبو علي الخازن الذي كان في صحبة الخليفة: «هل يظفران؟»، فتبئر الأسفف بأنّهما يطردان البريدي من البصرة.

والآن بعد أربع عشرة سنة من تلك النبوءة أراد الخازن مكافأة صاحب الرؤى. أما أبو الحسن بن سنجلا فلم يشترك في عملية الانتخاب لأنّه رأى ما جرى في غيرها من قبل، بل إنّه لما رأى جيورجيس مطران الموصل الشاب يطعم في الكرسيّ، قال له ببساطة: «الدور الآخر».

دبر الخازن كلّ شيء الرّسامة والراكب لنقل الجاثليق الجديد إلى بغداد، الخ. وكان ذلك يوم الخميس ١١ ربيع الآخر ٣٥٠/١٩٦١ أيار. وقد بقي إسرائيل في السّنة مئة وعشرة أيام، ومات يوم الثلاثاء الثالث من شعبان / ١٧ أيلول. ثم تبعه الخازن إلى القبر بعد ستة أيام: فرأى الناس في موته عقاباً من الله. عندئذٍ خرج الأساقفة الماربون من مخايمهم، فقد صار في وسعهم اجراء انتخابات جديدة من دون الخازن.

انتخاب عبد ايشوع الأول

XVIII كان انتخاب عبد ايشوع^(٣٣) من أكثر الانتخابات تعقيداً (وقد رأينا شيئاً من غرائب ذلك) في سلسلة خلفاء مار ماري على كرسى المائذن. كان عبد ايشوع ابن بعض اللاجئين من كرمانجستان بالموصل، وقد تعلم المنطق على ابن نصيحة الذي أخذ عن موسى بن كيفا. كان عبد ايشوع أسقفاً على مَعْلَثَا وبانوهدراء

إلى الشمال من الموصل لما اتفق «الآباء والمؤمنون» على اسمه. كان أهل بغداد قد بدأوا باستئجار المراكب لينحدروا بها إلى المدائن ويخضرروا رسامة الجاثليق بكنيسة كونхи، وكان هارون بن حنون كاتب سبكتكين الحاجب قد اشتري كلّ ما يلزم للرسامة وإذا بالجحيم يُصدّمون باعتراف المطبع^(٣٤) من قبل معز الدولة. ذلك لأنّ طبيّاً قسّاً من دار الروم، اسمه فثيون، كان قد اشتري المنصب^(٣٥) في تلك الأثناء. فقد دفع هذا القسّ «الذى كان حسن الحال» مبلغ ٣٠٠,٠٠٠ درهم ليكسب الأصدقاء، ومنهم اسکورج الديلمي.

حاول «المرشح» أن يضع يده على الكنائس إلاّ أنّ الأساقفة تهاربو منه: عاد مطران الموصل إلى بلده مع «العرب» (الحمدانيين) واختباً الآخرون. وسارع الوزير المهلي^(٣٦) إلى وضع القلية تحت الحراسة.

بعد بعض محاولات حلّ الأزمة دعا الوزير بأعيان النصارى وقال لهم بلا مواربة: إذا أردتم غير فثيون فاعطوني عوض ما بذله فثيون، وبعث الأمير معز الدولة أبا مخلد عبدالله بن يحيى، نائب ركن الدولة، إلى القلية ليفتّشها. كان أبو مخلد هذا نصراً من قبل وكان يترفّق في معاملة أبناء ملته الأولى. فاتفق معهم على أن «يضبط» هناك مبلغاً زهيداً (١٢٠٠٠ درهم) ويوقف التفتيش. ولما قدم المبلغ إلى معز الدولة تلطّف في إظهاره وكأنّه «من صدقات النصارى على الضعفاء والأيتام». فتحرّج الأمير من قبض المال وأمر برفع الحراسة عن مقرّ الجاثليقة، ومنعهم من التعرّض لرجال الكنيسة بها.

كانت تسعه عشر شهراً قد انقضت في تدبّر القضية لما دعا الوزير بالأعيان مجدّداً من أجل مصالحة تتبع الانتخاب. عندها وقعت مشادة بين المهلي وابن سنجلا، حامية إلى حدّ أن قلب الكاتب العجوز لم يحتملها، فهات، وكان ذلك سنة ٩٦٣.

أخيراً تُوصل إلى حلّ وسط: يدفع النصارى مئة ألف درهم، وثلاثين ألفاً للوزير. ومن أجل جمع المبلغ، بيعت الأواني النفيسة التي بالكنائس، وأكمل المبلغ من تركة عمانوئيل، وبذلك جاءت أموال العجوز البخيل في محلها.

أعيدت عندئذٍ الانتخابات. نلاحظ عابرين اعتراض بعضهم على أحد المرشحين: لأنّ أخاه كان قد أسلم. أخذ بالاعتراض وسحب اسم المرشح. وذكر المعجمي المعروف أبو الحسن بن البهلوان اسم أسقف مَعَلَّثا الذي نسيه القوم. فخرج هذا الاسم بالذات ثلاَث مَرَّات عندما أُقيمت القرعة^(٣٧) على الأسماء.

وكما جرى مع عمانوئيل اضطرّ الآباء إلى مطاردة الجاثليق المنتخب الذي لم يكن حاضراً. ولما كانت أبرشيته تلحق بـ الموصـل كتب معزّ الدولة إلى ناصر الدولة الحمداني، وكتب المـهـلـيـ إلى دنـحاـ الـوزـيرـ الـنـصـارـانيـ عـنـ الـحـمـدـانـيـ، وـكـتـبـ رـؤـسـاءـ الـنـصـارـايـ إلى مـطـرانـ الـمـوـصـلـ بـإـرـسـالـ الـمـنـتـخـبـ فيـ أـقـرـبـ وـقـتـ. وـطـلـبـ الـكـاتـبـ الـنـصـارـانـيـ أـبـوـ العـلـاءـ صـاعـدـ^(٣٨) إـلـىـ اـبـنـ بـهـلـوـلـ أـنـ يـنـشـيـ الرـسـائـلـ.

سار البريد وأسرع، وقطع ما يقارب ٤٠٠ كلم في أربعة أيام. وكان لا بدً من إكراه عبد ايشوع على الركوب إلى بغداد، لأنّه كان قد استقال لتوه، حتى من أعيانه الأسقفية. ولما حصل بـ بـغـدـادـ نـزـلـ هوـ وـصـحـبـ الـمـوـصـلـيـونـ فيـ ضـيـافـةـ أـعـيـانـ الـبـلـدـ. وـمـنـ هـؤـلـاءـ الـأـعـيـانـ يـذـكـرـ اـبـنـ زـهـمـانـ،^(٣٩) الـذـيـ كـانـ دـارـهـ بـحـيـ الـعـيـقـةـ بـضـاحـيـةـ بـغـدـادـ الـغـرـبـيـةـ. ثـمـ اـنـتـقـلـ الـجـاثـلـيـقـ الـمـنـتـخـبـ إـلـىـ مـنـزـلـ طـازـاـذـ بـالـجـانـبـ الـشـرـقـيـ منـ بـغـدـادـ، وـمـنـهـ إـلـىـ مـنـزـلـ أـبـيـ الـعـلـاءـ صـاعـدـ. وـمـنـ هـنـاكـ هـرـبـ الـجـاثـلـيـقـ الـمـرـغمـ فـأـدـرـكـوهـ، وـكـانـ رـسـامـتـهـ فـيـ ٢٤ـ رـبـيعـ الـأـوـلـ سـنـةـ ٢٢ـ/ـ٣٥٢ـ نـيـسانـ ٩٦٣ـ.

كان سيء التدبير إلى الغاية، فترك أموال الكنيسة نهباً لـ تلاميذه وـ صـحـبـهـ حتى ثارت عليه رعيته. فهرب عندئذٍ من دار الروم إلى دير مار فـثـيـونـ بـالـجـانـبـ الـآـخـرـ منـ دـجـلـةـ، فـلـمـ لـقـعـ بـهـ الـمـتـمـرـدـونـ اـعـتـذـرـواـ مـنـهـ وـغـفـرـواـ لـهـ مـاـ فـعـلـ مـنـ أـجـلـ تـقوـاهـ.

ما كانت حال النصارى خلال سني جثلقة الثلاث والعشرين؟

الخبر الأول الذي نصادفه سنة ٩٦٣/٣٥٢ حادث عابر يلفت انتباها إلى الأدوار المتـنوـعةـ الـتيـ رـبـيـاـ قـامـ بـهـ الـنـصـارـايـ لـدـىـ الـأـمـرـاءـ...ـ جـرـىـ الـحـادـثـ بـحـلـبـ عـنـ الـحـمـدـانـيـينـ: فـقـدـ طـعنـ هـبـةـ اللهـ اـبـنـ نـاـصـرـ الدـوـلـةـ بـحـرـبـتـهـ كـاتـبـاـ نـصـارـانـيـ يـدـعـيـ أـبـوـ الـحـسـينـ بـنـ دـنـحاـ،^(٤٠) الـذـيـ «ـكـانـ خـصـيـصـاـ بـسـيفـ الـدـوـلـةـ». وـكـانـ الـكـاتـبـ «ـيـتـعـرـضـ» لـأـحـدـ غـلـيـانـ هـبـةـ اللهـ، «ـفـغـارـ لـذـلـكـ».^(٤١)

صادفنا من قبل مراراً أبو العلاء صاعداً بن ثابت الكاتب النصراوي، لدى انتخاب الجحشة. فبعدما كان رجل المهلي الثقة، وحتى نائبه، وحبس ثم أطلق عدّة مرات، نراه في العام ٩٦٤/٣٥٣ يرافق معزّ الدولة في رحلته الثالثة إلى الموصل. وقد صار أبو العلاء أيضاً وزيراً بلا لقب وذلك في تموز/ آب ٩٧٧، لما خرج من الحبس بعد سقوط ابن بقيه. ^(٤٢)

كان الجوّ العام ببغداد آئذن جوّ توتر بين السنة وبين الشيعة يدعمهم الأمير. وفي العاشر من المحرم سنة ٩٦٤/٣٥٣ كانون الثاني، وقعت فتنة بين الفريقين سقط من جرائها الجرحى وتُهْبَت الدور. ^(٤٣)

ونشير أيضاً، قبل غياب معزّ الدولة إلى طبيب نصراوي من أطبائه، اسمه دانيال، ضربه الأمير فهات منها. ^(٤٤) في الوقت ذاته اتّخذ المطبع أطباء من صابة حران وكان له طبيب نصراوي معروف هو إسحق بن شليطا، الذي سبق مولاه إلى القبر. ^(٤٥)

في العام ٩٦٧/٣٥٦، مات أخيراً أول من دخل بغداد من البوهين، أمير الأمراء معزّ الدولة. ^(٤٦) ويخصّه ماري بتعليق موجز بلغ: «كان يجب النصارى»، ويدرك الخبر التالي دليلاً على هذه المحبة: لما أراد الأمير، في العام ٩٦١/٣٥٠ - ٩٦٢ ^(٤٧) بناء قصره المطل على دجلة بالدور، إلى الغرب من الشهاسية، احتاج إلى تهديم بعض مصلّيات المسلمين بتلك المحلة، إلا أنه لم يتعرّض لكنيسة مار اسطفانوس التي كانت تعرف أيضاً ببيعة الدور. ويجب أن نشير إلى أنّ شجاع مار اسطفانوس قد تراءى للأمير وتوعدّه، ولا أحد يزاح مع الأشباح. ولئن تذكّرنا مواهب الجاثليقين عمانوئيل وإسرائيل في التنبؤ، فهمّنا لمّا كان معزّ الدولة «يحب» النصارى. ^(٤٨)

على أيّة حال يجب أن توضع قضيّة النصارى في الإطار العام لذلك العهد. فكما يكتب هنري لاوست: ^(٤٩) «لقد انفجرت ببغداد، منذ أيام معزّ الدولة، فتن خطيرة الشأن كان من جرائها تصادم السنة والشيعة تصادماً دموياً أحياناً كثيرة من بعد، وذلك لدى إقامة شعائر عاشوراء في العاشر من المحرم، ويوم غدير خم في الثامن من ذي الحجة... يوم ولّ النبي محمد الإمام علياً خلفاً شرعياً له».

عز الدولة

خلف معز الدولة ابنه عز الدولة بختيار، الذي يطرب ابن الأثير في ذكر سوء سيرته^(٥٠) يبدو أن طبيبه فنون^(٥١) كان نصراياً وقيل إنه كان يشغل في السفارة بين الأمير وال الخليفة، ولا يعرف له دور سياسي آخر.

في العام ٩٦٨/٣٥٧ وُجدت في حوزة أحد صيارة بغداد ٣٥٠٠٠ زوري و١٢٠٠ دن خمر^(؟)، لأبي العلاء سليمان بن وهب النصراوي فصودر الصيرفي على ١٤٠٠٠ زوري وترك شأنه . . .

ويطلعنا خبر آخر على حال أهل الذمة المعرضين لشئون ألوان الضرائب غير الشرعية حيث كانوا بلا سند ولا ظهير من أبناء ملتهم من ذوي المناصب: وجدت جثثان لاثنين من الأعراب على مقربة من دير بظاهر الموصل. فاغتنم أبو تغلب، ابن ناصر الدولة الفرصة ليفرض على النصارى ١٢٠٠٠ زوري^(٥٢) وقد قدم، في أثناء المحاكمة التي آلت إلى هذه العقوبة، كل من رئيس الدير ماري بن طوبا (الذي صار جائلاً من بعد) ورجل يدعى ابن سلامة (الكاتب؟) نفسهما رهيتين وصبرا على «ضرب السياط والقيد والأغلال».^(٥٣)

ولكن يجب أن نذكر أيضاً أنَّ الذميين كانوا يتحلون «حقوقاً» لم يكن إلا المسلمين (ولا سيما أصحاب النفوذ منهم) يجرون على ممارستها من دون خاطرة جسيمة، ومن ذلك الهجاء، فقد ذكر أنَّ كاتباً بعاديًّا من اليعاقبة يدعى بشر بن هارون بن جملاً أنسد التنوخي^(٥٤) في شعبان ٣٥٩ / حزيران - تموز ٩٧٠ أبياتاً يهجو فيها وزيرين تعاقباً في تلك الفترة^(٥٥) (هما الشيرازي ثم أبو الفرج):

مضى من كان يعطيانا قليلاً ووافي من يشح على القليل
وأحسب أن سيملكنا مكداً متى اطْرَدَ القياس على الدليل^(٥٦)

وقد كان على الذميين أن يدفعوا ثمن هذه السفاهة لما عاد أبو الفضل العباس الشيرازي^(٥٧) إلى الوزارة في ٢٦ أيار ٩٧١، ففرض مكتوباً على النصارى، ولا سيما على الجاثيلق الذي اضطر إلى أن يدفع مئتي ألف درهم في المرة الأولى ثم مئة ألف في المرة الثانية.^(٥٨) ويؤكّد هذا الخبر ابن مسكونيه^(٥٩) الذي يقول إنَّ أبو الفضل

وزير البوهيمين تفتَّن في ضرب الضرائب على الناس فبدأ بأهل الذمة سنة ٩٧١/٣٦١ - ٩٧٢، «ثم ترقى إلى أهل الله.. وكثر الدُّعاء عليه في المساجد الجامعية وفي الكنائس والبيع...».

وكان من أعظم مخاوف النصارى ببغداد ورود الخبر إليها عن توغل قيصر الروم، يوحنا بن الشمشيق، في بلاد الشام. وقد أدى دخوله نصيبين، في المحرم من العام ٣٦٢ / تشرين الأول ٩٧٢، إلى فتنة عظيمة ببغداد، فاحتلت العامة قصر السلطان عز الدولة بختيار، ثم انتهى هياجها إلى تقاتل السنة والشيعة بالعاصمة. أما النصارى فلم يتعرض لهم أحد بشكل خاص لأنه «من لطف الله (وهذا قول ماري) أن الروم نهوا الأعمار والبيع» بنصيبين مثلما نهوا المساجد وعاملوا نصارى المدينة معاملة الأعداء لا لأنهم عرب (فهم آراميون سريان) بل لأنهم من أصحاب البدع (هرطقة)، نساطرة ويعاقبة، في نظر « أصحاب السنة القوية» (الأرثوذكس) الروم. وقد فاوض الأمير الحمداني أبو تغلب (فضل الله العضنفر، الملقب بعدة الدولة) بن ناصر الدولة الروم على الانسحاب من الشام.^(٦٠)

وقد ثبتت في غيابه دار السلطان ولذلك نفهم لم سخط السلطان على نائبه الذي يمثله بالمدينة. ولذلك نرى عز الدولة يرد في عنف بعد بضعة أشهر، عندما انفجرت الفتنة في الجانب الغربي من دجلة وقتل أحد معاوني صاحب الشرطة. فقد وضع الوزير الشيرازي النار بالشطر الغربي من المدينة، «من النحاسين إلى السماكين»^(٦١) (رمضان ٣٦٢ / تموز ٩٧٣) فهلك خلق كثير، وهرب الناس إلى الجانب الشرقي من دجلة.^(٦٢) ويبدو أن أحياء النصارى بالشطر الغربي، كاليعاقبة بباب المحول (إلى الجنوب الغربي) والنساطرة بحري العتيقة (إلى الجنوب الشرقي)، لم تتصل بها النيران.

كان من شأن هذه الاضطرابات كلها أن تؤدي إلى اختلال مالية المملكة، فراح عز الدولة يبحث عن المال. ولا لم يعد في حوزة الخليفة أيضًا ما يكفي من المال^(٦٣) فرضت فرائض باهظة على الكتاب والأسراف والصيارة، الخ.، وعلى النصارى واليهود من حيث هم كذلك، هذا إذا لم يدخلوا في آية من الفئات المذكورة.^(٦٤) لا نملك تاريحاً لهذا التدبير إلا أن عليه بصمات أبي الفضل الشيرازي

الوزير، ويأتي ذكره في تاريخ يحيى قبل ذكر تعيين أبي طاهر محمد بن بقية وزيراً، خلفاً للشيرازي،^(٦٥) في ذي الحجة ٣٦٢ / أيلول ٩٧٣. وقد خلع على الوزير في هذه المناسبة لقب الناصح، ثم لقب فيها بعد، سنة ٩٧٥/٣٦٤، بنصر الدولة.^(٦٦) كان العام ٩٧٤/٣٦٣ عام شؤم على الخليفة المطیع الذي نسنه بعض الشيء.^(٦٧) فقد اندلعت الحرب ببغداد مرة أخرى بين الشيعة المدعومين بحمية عزّ الدولة^(٦٨) وبين السنة المستندين إلى الترك، أصحاب سبكتكين الحاجب. ولما غالب هؤلاء نهوا حي الكرخ الغربي وأحرقوه مرة أخرى،^(٦٩) ثم أكرهوا الخليفة الهرم الضعيف على التنازل وتولية ابنه الذي تلقب بالطائع (في ١٣ ذي القعدة ٥/٣٦٣ آب ٩٧٤). ولم يلبث الخليفة المخلوع أن مات بعدها بدير العاقول.

الحواشي

- (١) البداية، ج ١١، ص ٢٦٢ - ٢٦٣، أو الاستعاضة عن العباسين بالزيديين.. p. 172
- (٢) ابتداءً من هنا يُرجع إلى دراستي DONOHUE و BUSSE العامتين، وإلى المراجع عند فاروق عمر.
- (٣) مروج، الفقرة ٣٥٧٢، وقد ثبّتَه محمد أركون إلى ما تتطوّي عليه هذه الألقاب من «التباس فظيع» في MISKAWAYH, p. 172
- (٤) يحيى، ص ٧٦٤، تاريخ الزمان، ص ٥٨.
- (٥) الذهبي، دول الإسلام، ج ١، ص ١٥٣.
- (٦) الكامل، ج ٨، ص ٤٦٥، ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ٥٩. فتن من العام ٣٣٨ إلى ٣٨٧، الخاشية رقم ٢١٣، ص XCI في كتاب LAOUST عن ابن بطة.
- (٧) تاريخ الزمان، ص ٥٩.
- (٨) الكامل، ج ٨، ص ٤٩٩.
- (٩) المصدر نفسه، ص ٥٠٥.
- (١٠) وهذا ضروري في شمال العراق الحالي كلّ مئة سنة. أمّا في الجنوب وبغداد حيث لا حجارة وحيث الأرض أقرب إلى المنشآة فالأجر أقلّ مقاومة والمباني أقصر عمراً.
- (١١) مسکویه، ج ١، ص ٢٩٩، كتاب العيون، ص ٢٨٦، ٢٩١، ٢٩٨، المتظم، ج ٦، ص ٣٦٥، الخ.

(١٢) لم يكن الذين قدموا على بغداد من شيراز نساطرة فحسب، فقد كان فيهم قوم من الملوكية منهم نظيف بن مين الطبيب والمتجم واللاهوتي الذي عمل في البيمارستان العضدي، راجع

J. NASRALLAH, Nazif, op. cit.

(١٣) الكامل، ج ٨، ص ٤٨٩ - ٤٩٠. تجرب، ج ٢، ص ١١٤، BUSSE, p. 35, 143, 334, 340, 373

(١٤) يذكر ماري في سيرة أنوش (٨٧٧ - ٨٨٤) مجمعًا عقد «في أيامه». إن هذه الإشارة إلى بعض العلمانيين لا إلى الجاثليق تستحق الالتفات. وقد مات هذا الخازن، بعد حياة ملأى بالأحداث (الحاشية رقم ١، من تحقيق الشابلي، الفرج بعد الشدة، ج ١، ص ٩٦)، في الحبس بعد أن لدغته حية سنة ٣٥٠/٩٦١. ويروى أن المهني الوزير، الذي أراد أن يصادر أمواله، وجد في تركته أكثر من مئتي ألف دينار. وقد عُرف ابن أخيه عبدوس أيضًا (التُّوخي، المصدر نفسه).

(١٥) يكرر ماري الخبر مررتين ص ٩٦ و ٩٨. عن وظيفة الخازن أنظر: e.i.², IV, p. 1214-1215 par C.E. BOSWORTH

(١٦) استناداً إلى عدد الحمامات مثلًا.

(١٧) نشار، ج ١، ص ١١٨.

(١٨) Les marchés de Bagdad, p. 149

(١٩) المقدس، ص ١٢٠: «يخشى (هذا المؤرخ) أن تعود بغداد كسامراء مع كثرة الفساد والجهل والفسق وجور السلطان».

(٢٠) يرى E. ASHTOR في Essai sur les prix et les salaires de l'empire califien, R.S.O, XXXVI, p. 19-69 أن الدرهم (العملة الفضية) قد فقد من قيمته بالقياس إلى الدينار (العملة الذهبية). إذ بينما كان يساوي ١٠/١ أو ١٢/١ في منتصف القرن الثامن للميلاد لم يعد يساوي أكثر من ٢٥/١ من الدينار في منتصف القرن التاسع للميلاد.

(٢١) ص ٨٤، ويستشهد بابن خردابه، ص ١٢٠، وقدامة بن جعفر، ص ٢٥١. ويقول الأخير إن جزية أهل الذمة بلغت مئتي ألف درهم سنة ٢٠٤/٨١٩. لم يجد حبيب الزيات في «الجزية»، ص ٦٣ - ٦٤، إحصائيات، والأمثلة التي يوردها تتعلق بأماكن بعيدة عن مجال دراستنا.

(٢٢) ٨، ٣١ (١٩٨٠)، ص ٢١١.

(٢٣) الكامل، ج ٨، ص ٥٢٠.

(٢٤) الكامل، ج ٨، ص ٥٢٧ - ٥٢٨، في هذه الحقبة يكتب المقدس (B.G.A. III, p. 119-120) في الثناء على بغداد: «بغداد مصر الإسلام، وبها مدينة السلام وطم الخصائص والظرافة والقرائح واللطافة هواء رقيق وعلم دقيق، كل جيد بها وكل حسن فيها، وكل حاذق منها وكل ظرف لها» ثم يضيف في شيء من الكتبة، «وكل قلب إليها وكل حرب عليها».

(٢٥) تاريخ الزمان، ص ٦١.
(٢٦) الكامل، ج ٨، ص ٥٣٣.

(٢٧) دائرة المعارف، ج ٢، ص ٣٩٣ - ٣٩٦ BUSSE, p. 302 et no. 3.

(٢٨) BUSSE, p. 248, no. 5 et p. 463 avec réf. حتى العام ٩٧٤/٣٦٣. والحقيقة أنه مات قبل رسامة عبد ايشوع الأول، أي قبل نيسان ٩٦٣، ماري، ص ١٠٠.

(٢٩) إشارات مختلفة في الكامل، ج ٨، ابتداءً من ٣٣٧/٩٤٨، ص ٤٧٩. نرى مثلاً في الصفحة ٥١٤ أن معز الدولة «كان يثق به».

(٣٠) ماري، ص ٩٨ - ٩٩، صليبا، ص ٩١ - ٩٣. ابن العبري، ج ٢، العمود ٢٤٨ - ٢٥٠. إيليا النصيبي، تحت العام ٣٥٠، والخاشية العربية ص ٧٥.

(٣١) يستعمل ماري هنا اسم «المزيدي» بدلاً من البريدي، أسوة بغيره من المؤرخين العرب.

(٣٢) ولما سئل إسرائيل عن هذا الامتياز، قال: «هذا مالك الأرض والإمام».

(٣٣) ماري، ص ٩٤ - ١٠٤. صليبا، ص ٩٣ - ٩٤. ابن العبري، ج ٢، العمود ٢٥٠ - ٢٥٦. إيليا النصيبي، تحت العام ٣٥٢ و ٣٧٦ والخاشية العربية ص ٧٥ - ٧٦ (حيث سقطت ٧٠ من التاريخ). (١٢٧٤).

(٣٤) يصحح تحقيق جيسموندي ماري، ص ١٠٠، س ٢، حيث نجد «المهدي».

(٣٥) هل هو نفس فتيون بن أبيوب اللاهوتي والمترجم المذكور في الفهرست ص ١٨٠ ؟ انظر GRAF, GCAL, II, p. 120-121 et BUSSE, p. 442, no. 5

(٣٦) أبو محمد الحسن بن محمد بن هارون، راجع ٣، BUSSE, p. 238, no. 3. حبيب الزيات رفض القضاة والوزراء والأمراء وملوهم في مجالسهم وخلواتهم، الخزانة الشرقية، ج ١، ص ٦٥ - ٧٣ مستل من مجلة الشرق، ج ٤٢ (١٩٤٨)، ص ٥٠٣ - ٥١١. يحكم محمد أركون في كتابه عن مسكونيه، ص ٦٢ - ٦٥، حكمًا قاسياً على هذا الوزير الذي أحسن إلى مسكونيه ويتحدث عن «الوجه النهاري» و«الوجه الليلي» طلاء المترفين. إلا أن التتوخي يروي في نشوار، ج ١، ص ٦٩ - ٧١ (و ج ٧، ص ١٢٢، والخاشية رقم ١) خبراً عن «مشهد سخاء أليق ما يكون ببعض البرامكة» إذ غمر بانعامه أبناء أبي الحسين عبد العزيز بن إبراهيم (ابن حاجب النعسان) بعدما وقع هذا من الشرفة فمات في رمضان ٣٥١ / تشرين الأول ٩٦٢.

Vie de Rabban Yusif Busnaya, R.O.C., III (1898), p. 84-85 (٣٧)

(٣٨) ابن ثابت، وقد صار وزيرًا بلا لقب في العام ٩٧٧/٣٦٦ DONOHUE, p. 349, BUSSE, p. 239, no. 8

(٣٩) نجد في العام ٣٨٩/٩٩٨، أي بعد خمس وعشرين سنة، رجلاً يدعى زهمان بن هندي،

أخذ غيلة وقتل مع أبنائه الثلاثة على يد محمد بن عناز، هلال، ذيل تجارب الأمم، ج ٤،
ص ٣٣٨.

(٤٠) ابن وزير ناصر الدولة؟

(٤١) الكامل، ج ٨، ص ٥٤٧ - ٥٤٨. CANARD, *Hamdanides*, I, p. 637-638. - كان الولع
بالغمان بادياً في أغلب الأحيان بالقصور، فمن ذلك أن الشاعي يورد من بين ما يورد من
قوائم، في لطائف المعارف، قائمة يأشهر من اشتهر من اللواطين والمبوبين، ص ٩٨ -
٩٩.

(٤٢) M.S. KHAN سيرته العملية (وإن لم
يطلق عليه لقب الوزير) منذ أن كان جهيناً بالبصرة سنة ٩٣٦/٣٢٥ حتى ربطه الصداقة
الحميمة بالمهلبي. وهو أحد شهود العيان الذين يستند إليهم مسكونيه المصدر المذكور،
ج ٢، ص ٢٩٧ - ٢٩٨. التتوخي، الفرج، ج ٤، ص ٣٠٩ - ٣١٥، والخاشية رقم ١.

(٤٣) الكامل، ج ٨، ص ٥٥٨. في السنة التالية، ٣٥٤ / أيلول ٩٦٥ هجم قطاع الطرق على
الشنبى بالقرب من دير قنى وقتلوه، الكامل ج ٨، ص ٥٥٨
Assyrie chrétienne, III, p. ١٩٢. وقد نظم كاتب (سنلتقي به من بعد) يدعى أبو نصر ثابت بن هارون الرقى، قصيدة
في رثاء أبي الطيب، شيخو، شعراء، ص ٢٦٠ - ٢٦٢، استناداً إلى كتاب الباخري، دمية
القصر وعصرة أهل العصر، ج ٢، الشاعر الرابع. وتجد النص في أطروحة مطبوعة على الآلة
الكتابية لمحمد التونسي (جامعة القديس يوسف، بيروت)، ج ١، ص ٧٥ - ٧٧.

(٤٤) ابن أبي أصيبيعة، ص ٣٢٠.

(٤٥) المصدر نفسه، ص ٣٢١.

(٤٦) الكامل، ج ٨، ص ٥٧٥، BUSSE, p. 38-39

(٤٧) السيوطي، ص ٤١٩.

(٤٨) في حالات ابتزاز الأموال، حق التي كانت ترتكب باسمه، لا يذكر أنه نال حصته منها وقد
رأيناه يتحرج من مسئّ أموال «الضعفاء والأيتام».

(٤٩) الماوردي، ص ٤٤.

(٥٠) الكامل، ج ٨، ص ٥٧٥ - ٥٧٦.

(٥١) ابن أبي أصيبيعة، ص ٣٢١، ولعله اسمه فثيون (٩).

(٥٢) المصدر نفسه، ص ٦٧، سنة ٩٧٠/٣٦٠ - ٩٧١.

(٥٣) ماري، ص ١٠٤ - ١٠٥.

(٥٤) نشور المحاضرة، ج ١، ص ٩٣ - ٩٤.

(٥٥) في ذلك العهد لم تكن الوزارة تدوم على الوزراء طويلاً ولم يكن المنصب مما يحسد عليه
الماء. ويروي التتوخي (المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٣٢) خبر القرد الذي كان بشارع الخلد

بغداد، والذي يومئـ موافقاً كلـ عرض عليه القراد ممارسة مهنة من المهن، حتى إذا صار إلى مهنة الوزارة، رفض وهرب صائحاً من ذعره.

(٥٦) وقد هجا قاضياً بقوله:

قضى شعري على القاضي بحكمِ
أجاب إليه مصنوعاً مذلاً
ولو لم يستجب لنتفـ منه
سبـالـاـ إن وجـدـتـ له سـبـالـاـ
ونـتفـ سـبـالـهـ شيءـ محـالـ
لـأنـ الـخـلـقـ صـيـرـهـ محـالـ

(٥٧) BUSSE, p. 238 (no. 4 et 6) مع المصادر.

(٥٨) ماري، ص ١٠٢، س ١٥، اقترح قراءة «دفعـة» بدلاً من «رفـعة».

(٥٩) تجارب الأمم، ج ٢، ص ٣٠٨.

(٦٠) مصادر في ٩٠ CANARD, Hamdanides, p. 841; Nisibe, p. 357. أخذ الروم منهم جثمان مار يعقوب التصيبيني وكان الناس يعتقدون في ذلك الوقت أنهم كلـما حازوا ذخـائـرـ مقدـسـةـ كانـ مذهبـهمـ أقربـ إـلـىـ الصـراـطـ المـسـتـقـيمـ.

(٦١) السيوطي، ص ٤٠٢.

(٦٢) يحيـيـ، ص ٣٥٦ - ٣٥٧ (P.O. XXIII).

(٦٣) وقد أرجـفـ بأنـ الخليـفةـ نفسهـ قدـ صـودـرـ عـلـىـ أـرـيـعـ مـئـةـ أـلـفـ درـهـمـ، طـلـبـهاـ منهـ عـزـ الدـوـلـةـ، فـاحـتـاجـ إـلـىـ بـيـعـ ثـيـابـهـ وـبعـضـ أـنـفـاصـ دـارـهـ، الكـامـلـ، جـ ٨ـ، صـ ٦٢٠ـ.

(٦٤) يحيـيـ، ص ٣٥٧ (P.O. XXIII).

(٦٥) BUSSE, p. 238, 239, 250.

(٦٦) يحيـيـ، المصدر المـذـكـورـ، ص ٣٦٧ـ. وهو يـسـمـيـ النـاصـحـ تـارـةـ وـتـارـةـ أـخـرىـ النـاصـحـ وـيـظـهـرـ فيـ المصـادـرـ الـنـصـارـانـيـةـ، فـيـ الـعـامـ ١٠١٢ـ - ١٠١٣ـ، رـجـلـ آخرـ يـلـقـبـ بالـلـقـبـ نـفـسـهـ.

(٦٧) تـيـئـنـ رسـالـةـ مـنـ الطـائـعـ إـلـىـ عـضـ الدـوـلـةـ مـؤـرـخـةـ فـيـ الـعـامـ ٩٧٧ـ / ٣٦٦ـ (رسـومـ دـارـ الـخـلـفـةـ مـلـلـالـ، صـ ١١٣ـ - ١٢١ـ) أـنـ الخليـفةـ المـطـيعـ تـنـازـلـ لـعـزـ الدـوـلـةـ تـامـاًـ عـنـ مـهـاـتـ الدـوـلـةـ مـنـ بـعـدـ كـبـرـ وـعـجزـ. ويـوضـحـ الذـهـبـيـ فـيـ دـوـلـ الإـسـلـامـ، جـ ١ـ، صـ ١٦٣ـ، أـنـ الخليـفةـ كانـ قدـ بـطـلـ نـصـفـهـ بـالـفـالـجـ مـنـدـ الـعـامـ ٩٧٠ـ / ٣٦٠ـ.

(٦٨) الـبـداـيـةـ، جـ ١١ـ، صـ ٢٩١ـ - ٢٩٢ـ.

(٦٩) يـحـيـيـ، ص ٣٦١ـ - ٣٦٢ـ.

٢٤ - الطائع (٣٦٣ - ٩٧٤ / ٣٨١ - ٩٩١)

لم يكن لأبي الفضل عبد الكرييم الطائع لله «من السلطان ما يكفي لكي يرتبط اسمه بهمة ذات خطر وشأن». ^(١) ولم يكن له شيء، طوال خلافة دامت ثمان عشرة سنة، إلا دور صوري، كالخطبة باسمه في المساجد، بينما ظل زمام السلطة في يد البوهين. يَبْدِيُّ أن سيادة هؤلاء وخلفائهم الشيعة المحليون والديلم قد اهتَرَتْ، في أوائل خلافته على الأقل، على أيدي سُنَّة بغداد^(٢) والترك أصحاب سبكتكين الحاجب، الذي أخذ قصر الخلافة وغير الخليفة. فلما جاء بالطائع، خلع عليه الخليفة الجديد لقب ناصر الدولة عرفاناً بفضله، وجعله أميراً للأمراء.

ولما مات سبكتكين بدير العاقول أيضاً بعيد موت المطيع، حل محله قائد من الترك اسمه أفتكتين الشرابي. إلا أن هذا سرعان ما اضطر إلى مواجهة بوهبي آخر هو عضد الدولة فناخسرو، الذي كان حتى الآن يحكم فارس وكرمان والذي دخل بغداد في ٣٠ كانون الثاني ٩٧٥. لا تدخل وقائع القتال بين عز الدولة بختيار وعاصد الدولة البوهين في إطار الدراسة الحاضرة، ويكفي أن نذكر أن الأول أسلم، خلال النزاع، وزيره ابن بقية بعد أن سمل عينيه. فُطِّرَّحَ الوزير بين أرجل الفيلة ثم صُلب على صفة دجلة، ولم يأسف عليه أحد ببغداد. فلما تم الظفر لعاصد الدولة دخل بغداد مجدداً^(٣) فخلع عليه الخليفة لقب تاج الله. ولم يتنه صراع الأشقاء حقاً إلا في شوال ٣٦٧ / أيار ٩٧٨، لما قُتل بختيار في موقعة أخيرة بالقرب من قصر الجصّ بسامراء، عن ستة وثلاثين عاماً. وكانت مدة حكمه، على تقليباته، أكثر من أحد عشر عاماً، في ما ذكره ابن الأثير.

وبهذا ترامت مملكة عضد الدولة البوهيمي من فارس إلى العراق فالموصل فديار بكر.^(٤)

ماذا حل بالنصارى إبان معارك الترك والإيرانيين، ثم تقاتل البوهيميين في ما بينهم؟ من الصعب معرفة ذلك، لأنَّه لا وقت للحديث عن عامة الناس أو حتى عن الموظفين عندما يتقاتل الأمراء.

ومع ذلك نجد أنَّ الخليفة الطائع عهد، سنة ٣٦٦ / كانون الثاني ٩٧٧، إلى فخر الدولة بن ركن الدولة البوهيمي بجباية الضرائب ومنها جزية الجوالى^(٥) في المحرم من العام ٣٦٧.

أمَّا في الأعمال التي تلي ما يعرف بالعراق اليوم، وفي نواحي العادىة، فتلحظ سيرة حياة راهب تقيٍّ، هو ربن يوسف بوسنابا^(٦) أنه «لما قدم الملك (فناخسو) إلى هذه البلاد في آخر سنة ٣٦٧ للعرب (أي ٩٧٨) اندرأت العواصف والمصائب على الناس». وقد كان الناسك التقيٍّ يتنبأً منذ أربع سنوات «وكان ينوح ويصرخ قائلاً: المجد لله! ماذا سيحل بالناس والأديرة والقرى والمدن؟» لم تقع الكارثة إلاً بعد موت صاحب الرؤى، في ٢٩ تموز ٩٧٩: عندئٍ كانت السلطة المركزية قد ضعفت حتى انعدمت «فاستولى الأكراد الكرتوية والتعالية على هذه النواحي واجتاحتوا الأديرة والأعمار والقرى».

على درب هذه السنين يبرز قبر كان في كنيسة القديس توما بقطيعة الدقيق ببغداد، للفيلسوف اليعقوبي المعروف يحيى بن عديٍّ.^(٧) إنَّ صفاء البيتين اللذين جعلهما على شاهد قبره بتاريخ ١٣ آب ٩٧٤، يوحى لنا بأ زمنة أقل اضطراباً، يقول:^(٨)

رُبَّ مِيتٍ قد صار بالعلم حِيَا
وَمُبْقَى قد مات جهلاً وعِيَا
لَا تَعْدُوا الْحَيَاةَ فِي الْجَهَلِ شَيْا
فَاقْتُلُوا الْعِلْمَ كَيْ تَنالُوا خَلْوَدًا

عضد الدولة

قدم رهط عديد من النصارى بقدوم عضد الدولة إلى بغداد. وأوثقهم أبو

منصور نصر بن هارون^(٩) الذي تلقّب بالوزير في ما قيل. وربما لم يكن له إلا لقب وزارة التنفيذ^(١٠) مع إبقاء اللقب الفخرى الأرفع لرجل مسلم يذكر معه، إلا أنه من المؤكد أن أبيا منصور كان موضع ثقة عضد الدولة^(١١) الذي جعله نائبه بشيراز، لما رجع إلى بغداد بنفسه للمرة الثانية. وقد حصل «الوزير» من مولاه، سنة ٣٦٨/٩٧٨، على الإذن بإعادة عمارة ما تهدم من البيع.^(١٢)

في هذه الظروف شغّل كرسيّ مطرانية فارس للمشارقة من السريان.^(١٣) فاختار نصر بن هارون للمنصب ماري بن طوبا، الذي صار جاثليقاً من بعد وكان حيثيث رئيس دير مار ميخائيل بالموصى، ورسمه الجاثليق عبد ايشوع ببغداد. وفي هذه المناسبة أولم الشيرازيون ببغداد وليمة لنصارى المدينة تكريماً لطرانهم الجديد، وأنخرج كاتب نسطوري يدعى أبو علي ابن مكيخا من خزانة عضد الدولة، وبإذنه، «خلعة بيرون ومغفراً وثياب صوف مصرية».^(١٤)

ومن بين النصارى الذين كانوا في خدمة عضد الدولة نصادف أيضاً الطبيب الشاعر أبي الحسن (أو الحسين) بن غسان البصري^(١٥) الذي غرق نفسه في كرداب كلواذى «لأسباب اجتماعية عليه من صفر اليد وسوء الحال... وعشق حرق قلبه على غلام الأمدي الحلاوي بباب الطاق».^(١٦)

ولا ننسى أنّ كثيراً من الأطباء النصارى كانوا يعملون، في زمن عضد الدولة أو من بعده، في البيمارستان الذي بناه ببغداد سنة ٣٧٠/٩٨٠^(١٧) وسمّاه بالغضدي^(١٨) ولكنّ لما كنا نفتقر إلى تاريخ دقيق لهؤلاء الأطباء نجد أنفسنا مضطرين إلى سرد أسمائهم، مع الإشارة إلى أنّ تمثيل النصارى في هذه المهنة لم يزل جيداً:

- أبو الحسين بن كشكريايا، نسطوري من ك Skinner انتقل من خدمة سيف الدولة الحمداني إلى خدمة عضد الدولة البوهي.^(١٩) كان من تلامذة سنان بن ثابت،^(٢٠) وله كتب في الطب وأخ راهب. «وكان كثير الكلام»...

- أبو يعقوب الأهوazi، فارسي، صنّف في الطب.^(٢١)

- إبراهيم بن بكس، مؤلف ومتّرجم، كُفَّ بصره في أواخر عمره.^(٢٢)

- عليّ بن إبراهيم بن بكس (ابن الذي قبله) طبيب ومتجم .^(٢٣)

- عليّ بن عباس الذي صُنف كتاب «الملكي».^(٢٤)

- وفي خراسان، أبو سهل عيسى المسيحي بن يحيى الجرجاني، الطبيب الممتاز، صاحب التصانيف الكثيرة.^(٢٥)

- وجبرائيل (بن عبدالله) بن بختيشوع^(٢٦) تلمذ على هرمزد وابن يوسف الواسطي وألف كتباً جمة، وألحقه عضد الدولة أيضاً بالبيهارستان الذي أنشأه ببغداد.

نشير، في شأن هذا الطبيب، إلى عادة درجت كثيراً في تلك الأيام: كان الأمراء الذين يودون مجاملة غيرهم من الأمراء يتبدلون أطباءهم المقدمين. فمن ذلك أن جبرائيل هذا بعثه عضد الدولة إلى وزير الري الصاحب بن عباد، ثم إلى أمير الدليم خسروشاه وإلى العزيز بالله، الخليفة الفاطمي بمصر (إذن قبل سنة ٩٩٦). وبعدما بلغ الثمانين من عمره وقام بعده رحلات أخرى، طلبه مهند الدولة سعيد بن مروان أمير الدولة дستكية ببابلارقين، فمات هناك بعد ستين (١٠٠٢/٣٩٣).^(٢٧) ولا حاجة بنا إلى القول إن هؤلاء الأمراء كلهم لم يدخلوا عليه بالمال ولا بالتكريم.

سنلتقي بأطباء نصارى آخرين حتى نهاية دراستنا على الأقل.^(٢٨) كان تركيز النصارى بكثافة في ميدان الطب من عوامل بقاء جماعتهم، بالرغم من شتى الضغوط الاجتماعية الدينية التي تعرضت لها هذه الجماعات. وإن التأمل ليجد نصارى البلاد الإسلامية في العصور الحديثة يتسمون في المهن الحرة الاستقلال الذي ما زالوا قادرين على التمتع به. ولذلك تراهم يمتهدون في استغلال الحال التي يجدون أنفسهم فيها منذ أن فقدوا كل مساهمة حقيقة، مباشرة أو غير مباشرة، في ممارسة صناعة القرار في المجتمع.^(٢٩)

ونجد في الحقبة التي بلغناها من إمارة عضد الدولة، قبساً من جوّ الانفتاح الفكريّ الذي عرفته بغداد في عهود البعض من أوائل خلفاء بنى العباس.^(٣٠) كان الأمير نفسه لا يفارق كتاب الأغانى^(٣١) إذا سافر. وكانت النخبة المترفة تعرف كيف

تخصّص وقّتاً بجلسات الماظرة العلميّة فضلاً عما تفقه في ليالي الخلاعة والمجون. ^(٣٢)

كان روّاد هذه «المجالس» كمجلس ابن العارض بن سعدان وزير صمّاصم الدولة من ٩٨٣ إلى ٩٨٥، يتناظرون، على ما رواه أبو حيّان التوسيدي^(٣٣) في فضل الفلاسفة. ونجد في هؤلاء عدداً من النصارى: أبو الحسن الحسن بن سوار، المعروف بابن الخطّار، يحيى بن عديّ، عيسى بن زرعة، نظيف بن مين، إلخ. ^(٣٤)

في العام ٩٨٣/٣٧٢ مات عضد الدولة، أكبر «ملك ملوك» في البوهيمين. ^(٣٥) لم يستبق مسكويه^(٣٦) إلاّ اسمه واسم ابن العميد، اسمين بارزين من بين الأمراء والوزراء الذين توالتوا إلى زمانه، حتى إنّ سياسته المتّشيعّة، لم تكن موضع نقد المؤرّخين. ^(٣٧) وربما كانت أيامه آخر عهد النصارى بالمشاركة في السلطة عن كثب. فالسنوات التي أعقبته شهدت انحطاط دور البوهيمين السياسي^(٣٨) وتزايد الاضطرابات.

عندما مات عبد يشوع الأول عن جملقة طويلة (أكثر من ٢٣ عاماً) كان أولاد عضد الدولة يتنازعون الملك. فقد قاتل البكر منهم، وهو شرف الدولة (أبو الفوارس، شيردل، زين الملك، الخ.). أخاه صمّاصم الدولة وبقبض بشيراز على «الوزير» النصراوي أبي منصور نصر بن هارون^(٣٩) الذي، لما لم يعلم بموت سيده عضد الدولة، حاول منع شرف الدولة من دخول شيراز.

عندئذ وقعت في شيراز أحداث كثيرة (أدّت إلى قتل نصر بن هارون بعد نهب الدليل دور جميع النصارى وبقبض الأوقاف. فتجرّد المطران (ماري بن طوبا) في ارجاع المأخوذ من البيع والوقف واستأذن عبد يشوع (الجاثليق) في العودة إلى بلده (الموصل)» على قول ماري. ^(٤٠)

وتروي الرسالة التي بعثها المطران إلى الجاثليق أحداث شيراز المأساوية وتصف قلق النصارى وارتباكيهم بعد فقدان حاميهم نصر بن هارون وكيف «قتل الضعيفُ القويُّ والصبيُّ الرجل». ولما لم يقبل الجاثليق طلب الاستقالة، قرر المطران الذي كان، في ما يبدو، على صلة طيبة بشرف الدولة، الذهاب بنفسه إلى بغداد ليدافع

عن قضيته، فالتتحقق بطلائع الجيش السائر لمحاربة صمصاص الدولة.

مرّ بارجان وصولاً إلى خوزستان (الأهوان). هناك كان المطران ديلم أيضًا في الغاية من القلق: فقد نُهيت كنيسته بجنديسابور. مكتّب ماري بن طوبا مدة في المدينة يعاون المطران الذي توصل إلى استرداد قسم مما انتهب، لأنّ المدينة كانت قد انحازت إلى شرف الدولة قبل وصوله إليها.

عندئذٍ استأذن المطران في ركوب السفينة إلى البصرة (التي كانت قد دخلت في طاعة شرف الدولة) وذلك حتى يصعد منها إلى بغداد عندما تقع العاصمة في قبضة الأمير، واصطحب ماري سرًا ديلم مطران جنديسابور وحجبه عن أنظار «المستخرج». كان مطران شيراز بالبصرة لما كتب الجوايس، من بغداد، إلى شرف الدولة بـ«موت مار عبد يشوع»^(٤) الجاثليق. ولم يكن أحد قد علم بالنبأ لأنّ الاتصالات كانت مقطوعة.

«لَمْ لَا يجلس المطران الذي معنا؟»

فدعـا الأمـير شـرف الدـولـة بـنـديـيـه النـصـرـائـينـ، أـبـي الفـرجـ المـسـيـحـيـ وـعـبـدـالـلهـ
أـخـيـ طـازـادـ، وـسـأـلـهـماـ: «لـمـ لـا يـجـلسـ المـطـرانـ الـذـيـ مـعـنـاـ جـاثـيـقـ؟ـ» فـقـبـلـ الرـجـلـانـ
الـنـصـرـائـيـانـ الـأـرـضـ

XIX وكتبا (باسم من؟) عهد الجشقة ماري بن طوبا.^(٤٢) فأصعد الجاثليق إلى بغداد «مع الخزائن في الماء».

بعد معركة قتل فيها خمسة آلاف من الدليم انتصر شرف الدولة على صمصام الدولة ودخل بغداد، وعقد الصلح بين الأخوين، احتفظ صمصام الدولة ببغداد وصار يجلس عن يمين عرش الخليفة، «ثم أقبل الشعرا وجعلوا يمدحون صمصام الدولة بقصائدهم ويفضلونه على الأقطاب». أما شرف الدولة فكان يخطب له أولاً في المساجد وصلّى اسمه على النقود.^(٤٣) ولكن سرعان ما أزاح شرف الدولة أخيه الأصغر وسمّل عينيه.^(٤٤)

ييفي انتخاب الجاثليق، ذلك الانتخاب الذي تخرج وقائمه الكنسية البحث

عن إطار بحثنا. إننقل ماري من دير مار فتيون حيث كان قد نزل، إلى دار الروم حيث كان أربعة وعشرون أسفقاً ومطراناً يعقدون مجتمعهم.

والواقع أن الآباء جعلوا قرارهم إلى شرف الدولة فأشعراهم برضاه الذي جاء موافقاً لرغبة الأكثرين منهم، رغبة خلفها فيهم «ضرب العصي» على قول ابن العربي. كُلِّف أبو بكر البازيار بأخذ خطوط المجتمعين والموافقين ورسم ماري بن طوبا جاثليقاً في ٨ ذي الحجة ٣٧٦ / ١٠ نيسان ٩٨٧.

لندگر بأصل ماري الجاثليق قبل متابعة مراحل جثليته: كان ماري كاتباً لفاطمة الكردية بنت أحمد، زوجة ناصر الدولة الحمداني وأم أبي تغلب. «وكانت مالكة أمر ناصر الدولة، فافتقت مع ابنها أبي تغلب، وقضوا على ناصر الدولة» وحسبوه.^(٤٥) ويبدو أن ماري لما رأى ضعفة هذا العالم وأحزانه تردد.

ماري بن طوبا الجاثليق

بعد الرسامة والزيارات التقليدية للأديرة والكنائس، استقبل الجاثليق المنتخب في حضرة الخليفة الطائع. وفي هذه المناسبة يذكر ابن العربي^(٤٦) أنه «لم يبق للخلافاء في تلك الآونة سوى الاسم والمناداة بخلافتهم. وأصبحت جميع الأوامر والجنود والخزائن بقبضة الأعاجم».

كتب له منشور لتشييت جثليته. وسنطلع في ما بعد على نصوص «عهود» من شأنها أن تعينا على تحديد مكانة الجاثليقة النسطوريين في دولة بنى العباس. ولا يمكننا القول هل ثمة فرق بين المشور والعهد اللذين كانوا يكتبهان للجاثليقة.^(٤٧) وبعد صفة أخلاق الجاثليق الجديد (حيث نلحظ حبه للهال والأثاث)، ينتقل ماري إلى قول، غير مؤرخ، لسوء الحظ، كالكثير من الإشارات الصغيرة في تاريخه: «وفي أيامه . . .».

«وفي أيامه»، إذن، لحقت بالبيعة جملة مصائب والحق أن هذه المصائب قد وقعت في النصف الثاني من جثليقة ماري بن طوبا في خلافة القادر، وسرارها في حينه.

في السنة التي أعقبت رسمة ماري بن طوبا، ٩٨٨/٣٧٧، كتب النديم كتاب الفهرست. وهو يذكر فيه^(٤٨) أبا الحير الحسن بن سوار بن بابا بن بهرام المنطقي النصراوي^(٤٩) المعروف بابن الخطّار، «وكان في نهاية الذكاء والفطنة والاضطلاع بعلوم أصحابه»، وصنف التصانيف التي ترجم بعضها من السريانية إلى العربية. وكان النديم قد التقاه^(٥٠) عند أبي القاسم بن عيسى بن علي وزيربني الجراح.^(٥١)

وكان مِنْ عاصر النديم أبو الحسين إسحاق بن يحيى بن سريح النصراوي «وله من الكتب كتاب الخراج، كتاب تحويل سنى المواليد، كتاب جمل التاريخ»، الخ.^(٥٢)

ومات قبل أشهر قليلة من تصنيف الفهرست الطبيب الكاتب الفيلسوف النصراوي، أبو الحسن علي بن نصر بن علي (أو بن بشر) الملقب بابن الطبيب. كان جدّه علي طبيباً أيضاً وقد شفى أبا عبدالله الزنجي بأن جعل في فيه اهليجة من ذهب.^(٥٣)

وكان شرف الدولة راعياً للعلماء، ففي العام ٩٨٨/٣٧٨ جمع «الفلاسفة» الذين ببلاد العرب وبني مرصدًا فيه آلات كذلك التي كانت في مرصد المأمون. وكان رئيسه أبو سهل يحيى بن رستم الطوراني.^(٥٤)

ولكن مما يؤسف له أن الأحوال التي كانت سيئةً منذ وفاة عضد الدولة، قد ساءت أكثر بعد موته شرف الدولة سنة ٩٨٩/٣٧٩، فقد استولى أخوه بهاء الدولة على الحكم.

بهاء الدولة (٣٧٩ - ٤٠٣ - ٩٨٩ - ١٠١٢ - ١٠١٣)

لم يُطل الوقت بالحكم الجديد حتى بدأ آثاره على الناس. فمنذ العام ٩٩٠/٣٨٠، اضطرّ الأثرياء من سكان تكريت (اليعاقبة) إلى النزوح.^(٥٥) هل كان ذلك بسبب الضرائب التي فرضها عمال ظلمة، على قول ميخائيل السرياني، أم كان بسبب تغييرات ملكية الأراضي التي وقعت في تلك الحقبة؟^(٥٦) لا نعلم. إنّ ما يشير إليه المؤرخون، على أيّة حال، هو ثراء هؤلاء المهاجرين، ذلك الثراء العريض الذي

أتاح لهم بناء الكنائس وتجميل المياكل في أماكن إقامتهم الجديدة. ومثال ذلك ما فعله أولاد أبي عمران الذين نزلوا ملطية^(٥٧) والذين توصلوا إلى أن يصيروا صيارة قيسر الروم. وقد أخذ الترك أخاهم الأكبر أبا سليم القادم من الدّيرا. فافتدى نفسه وصحبه كلّهم من الأسر، وعددهم خمسة عشر ألفاً، ودفع خمسة دنانير عن كلّ رأس.

إلاً أنَّ ما يلفت انتباهنا هو اختلاف رؤية هذه الأحداث من قبل مؤرخين من مغاربة السريان هما ميخائيل السرياني وابن العبري. يقول الأول، وكان يكتب في أواخر القرن الثاني عشر للميلاد: «وقد سُقنا طرفاً مَا يذكر عنهم من الأشياء الكثيرة لكيما يمجّد الله الذي أنعم عليهم كلَّ مَن يقرأ هذه السطور»، بينما يذكر ذلك ابن العبري، الذي كتب بعد أقلَّ من مئة عام، «ليعرف مبلغ ما كان عليه شعبنا من رغد العيش» وذلك ليلقى مزيداً من الضوء على حال النصارى في عصره: «وما آل إليه أمرهم من شظف العيش».

كان ابن العبري، الذي لا ينظر هنا إلاً إلى الازدهار المادي للنصارى، يعدُّ زمن البوهين الأوائل زمن البقرات السهان، ويكتننا أن نقول الشيء نفسه عن الحرية الروحية الازدهار الثقافي.

ونجد الحنين إلى الماضي الذهبي (نهاية القرن العاشر) بعد صفحات قلائل في تاريخ الزمان لابن العبري،^(٥٨) أي عندما يتناول الوزراء النصارى بمصر، (٥٩) حوالي العام ٩٩٦/٣٨٦، فيكتب: «وكان المسيحيون يومئذ متولين شؤون الوزارة في الدولة العربية المصرية دون أن يضطّرّهم أحد إلى جحود دينهم بخلاف ما يجري في عصرنا (القرن ١٣ ميلادي) إذ أنَّ العرب لا ينطّون الوزارة إلاً مَن ينضمُّ إلى الإسلام».

جاء مع بباء الدولة أشخاص تصوّرهم التواريخ النصرانية بطريقة قاسية. ومنهم رجل يدعى الكوكبي،^(٦٠) كان مؤدِّياً لبباء الدولة، وقد تولَّ هذا الرجل أمر الجزية وكان حريصاً على أن يستوفى من النصارى ما هو مستحق عليهم. وقد اتفق أن نشب خلاف بينه وبين الجاثليق فحبسه، ثم بَثَ شرطه في البلاد فتفرق

المكثفون، فأخذ الأساقفة والمطارنة... «وَعَادَ النَّاسُ إِلَى اللَّهِ» على قول ماري، أي أنهم ابتهلوا إلى الله ليخلصهم منه. وقد حاول الترك أيضاً القضاء على الكوكبي، وكانوا ساخطين عليه، إلا أن بهاء الدولة حمّاه منهم. ولكن الأمير اضطر إلى التخلّي عن الرجل لما تفاقمت الأحوال. فسقى الكوكبي السمّ فلم يعمّل فيه، ثم حاولوا خنقه فلم يمت حتى ضربت هامته بالسيف. «وَكُفِيَ النَّصَارَى شَرَهُ بِتَفْضُلِ اللَّهِ وَحَوْلِ مَارِ مَارِيِ السَّلِيمِ».

وقد أُلقي القبض أيضاً على ابن البقال، وكان من المعصّبين للكوكبي ومن اضطهدوا رهبان دير قنّي، فقتل وطُرحت جثّته في دجلة. وقد نسب النصارى خلاصهم إلى تدخل مار ماري شخصياً ليعمي بيته، وذلك إثر حلم رأه أبو بشر ماري بن جابر، كاتب الحسن بن نصر صاحب البريد. والأغلب أنّ مار ماري قد استعان ببعض الوسطاء على الأرض.

ولكن كان على الجاثليق أن يواجه من التواب(٦١) ما اضطربه، على الرغم من كراماته(٦٢) إلى أن يترك مقرّ الخلقة، مرّتين خلال أربعة عشر عاماً، ويتنقل إلى دير الأنبار البعيد عن بغداد، ليدبّر شؤون الرعية من هناك.

إنّ الوثائق الجزئية التي وصلتنا تتيح لنا مع ذلك أن نلمح آثار هزائم الحرب مع البيزنطيين في حياة النصارى المقيمين حتى في النواحي الهامشية القصصية. من ذلك أن مرو، بخراسان، قد شهدت أعمال شغب ضدّ النصارى لما اتصّل بالمسلمين هناك بـنـا دخول الروم أرض الإسلام. فأخرج تابوت مار إيليا المطران النسطوري، من ضريحه وحاولت العامة إحرقه أو كسره لها أفلحوا، وأعيد التابوت إلى مكانه، وظلّ أحد أعمدة الكنيسة مدة يقطّر مادة زكيّة الرايحة.

قلنا من قبل إن تاريخ هذه السنوات عسير على التحدّيد. ففي العام /٣٨١/ تشرين الأول ٩١٩، أكره بهاء الدولة الخليفة الطائع على أن يخلع نفسه، وأحلّ مكانه القادر، وذلك أمّا لأنّه «مَدْعُونَ إِلَى مَالِ جَمِيعِهِ» الخليفة(٦٣) وأمّا لأنّه وجد، بعد مشاورة الدليل، أنّ الخليفة قد شانح.(٦٤) والأرجح أنّ كثيراً من الأخبار التي مررنا بها في الصفحات السابقة قد وقعت في خلافة القادر. ولكن ما يهم هنا ليس هو الخليفة بل الأمير البوهي المتملّك في ذلك الوقت، وهو بهاء الدولة.

الحواشي

K.V. ZETTERSTEEN, dans E.I.¹, IV, p. 651, S.V. (١)

(٢) ابن العبرى، تاريخ الزمان، ص ٦٣.

(٣) وكان من نتائج ذلك حبس إبراهيم بن هلال الصابىء الكاتب مدة أربع سنوات وبضعة أشهر لأنه كتب سنة ٩٧٧/٣٦٦ رسالة الطائع فى تفضيل عز الدولة بختار على عضد الدولة، هلال، رسوم، ص ١٢١.

(٤) يحيى، ص ٣٦٢ - ٤٠٨، (P.O., XXIII) : الكامل، ج ٨، ص ٦٦٩ - ٦٩١. ونلمح في سيرة رئيْس يوسف بوسنايا (R.O.C., III, 1898) بعض الكتاب التصارى كأبي زكريا «الكاتب الكبير المشهور في عصره» الذي مات قبل رئيْس يوسف وأخيه عبد المسيح الكاتب أيضاً الذي شفى القديس يده اليابسة (١١٧ - ١١٨)، كما نلمح كاتباً نصراوياً آخر في مدينة بلد بالقرب من الموصل، لا نعرف اسمه (ص ٣١١).

(٥) القلقشندى، صبح الأعشى، ج ١٠، ص ٢٨. والكلمة توازي أهل الذمة. كان لفخر الدولة (أخى عضد الدولة) كاتب (نصرانى؟) اسمه أبو عمرو، التوحيدى، مثالب، ص ١٤٢ - . وكان لأخيه الآخر، أبي المنصور مؤيد الدولة، نديم نصراوى هو أبو الطيب، الذى يستجوشه أبو حيان التوحيدى (ص ٧٨ - ٨٠) عن الصاحب بن عباد الوزير، ويذكر المؤلف نفسه الكاتب النصراوى أبي عبيد، ويتحدا (ص ٩٣) مزاياه الأدبية.

(٦) ٨٣ p. في معركة سامراء في ٢٤ أيار ٩٧٨، كان أحد أخوة المؤلف يوحنا بن كلدون «بين يدي ملك الموصل» أبي تغلب الحمدانى الذي خرج مهزوماً. وقد رأى الرئيْس يوسف رؤيا سمح لها أن يطمئن يوحنا على مصير أخيه الذي جُرح وترك على أنه ميت، المصدر نفسه، ص ٨٩ - ٩٠.

(٧) راجع : GERHARD ENDRESS, The Works of Yahya ibn 'Adi, WIESBADEN, 1977
وسمير خليل في مجلة المسرة، ٦٥ (١٩٧٩)، ص ٤٠٣ - ٤١٩.

(٨) حسب الرواية التي ينقلها ابن أبي أصيبيعة عن تلميذه المفضل أبي علي بن إسحق بن زرعة، وتجدد البيتين في شعراء الصرانية لشيخو، ص ٢٥٤ - ٢٥٦.

(٩) يحيى، ص ٤٠٩ (٤٠٩) BUSSE, p. 239, no 10; DONOHUE, p. 350; (P.O. XXIII)
(١٠) متر، الحضارة الإسلامية، ج ١، ص ١٠٨.

(١١) والجلد بالإشارة هنا أن الأمير كان يرتاد من الأشخاص الذين تقوى داللهم عليه. وكانت هذه حال إحدى سراريته معه فطرحها في دجلة ليغرقها، ابن الطقطقى، ص ٣٤.

(١٢) روضة الصفا، ص IV (المجلد الأول من طبعة طهران غير المرقمة، ١٢٧٢ هـ). مذكور في R. LEVY, Baghdad Chronicle, p. 163

(١٣) يجعل ٣٥٠ DONOHUE, p. 350 الحادث حوالي سنة ٩٨٠ / ٣٥٠ - ٩٨١.

- (١٤) ماري، ص ١٠٥ . - يقسّو التوحيدى كثيراً على الخازن عندما يذكر صفتة في الامتاع ج ١ ، ص ٤٤ - ٤٥ «وأما ابن مكيخا، فرجل نصراني أرعن خسيس، ما جاء يوماً بغير قط لا في رأي ولا في عمل ولا في توسط، وأصحابنا يلقبونه بقفا وهو منهمك بين اللذاذن همه أن يتّحشى دن الشراب في نفس أو نفسين ثم يسقط كالجذع اليابس لا لسان ولا إنسان».
- (١٥) ابن القسطي، ص ٢٦٣ ، شيخو، شعراء، ص ٢٥٣ - ٢٥٤ يعتبر أنه نفس أبو علي بن غسان كاتب ركن الدولة الذي صادفناه في تاريخ ماري لسنة ٩٥٣/٣٤٣ في مسألة إعادة عمارنة الكنائس.
- (١٦) محمد بن أحمد أبو المظفر الأزدي، حكاية أبي القاسم البغدادي، تحقيق آدم متز، هيدلبرج، ١٩٠٢ ، ص ٨٣ .
- INAYATULLAH, p.7 (١٧)
- (١٨) بني هذا البيمارستان المشهور محل قصر الخلد الذي بناه الرشيد سنة ٧٨٦/١٧٠ ، والذي كان على دجلة، إلى الشرق من المدينة المدورة. وبروي المقدس (ص ١١٩ - ١٢١) أنه كان على مقربة من الجسر، الوحيد آنذاك. - وقد أحصى أحمد عيسى في- *Histoire des bimaris* , tans, p. 90-93
- (١٩) ابن أبي أصيحة، ص ٣٢١ - ٣٢٢ .
- (٢٠) المتوفى في ٧ تموز ٩٤٣ ، الصولي، ص ٨١ ، BUSSE, p. 518 .
- (٢١) ابن أبي أصيحة، ص ٣٢٢ .
- (٢٢) المصدر نفسه، ص ٣٢٩ . وقد كان لأبي إسحق إبراهيم بن بكش مناظرة فلسفية مع أبي ذكري يا يحيى بن عدی يوردها ابن الحمار. السنديوي، في الحاشية ١٦٠ على طبعته للمقابلات. - مات سنة ١٠٠٣/٣٩٣ .
- (٢٣) ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ٦٩ .
- (٢٤) دائرة المعارف، ج ٤ ، ص ٣٧٢ .
- (٢٥) عبد الرقيب يوسف، مستشفيات وأطباء في عهد الدولة الدوستكية، في مجلة بين النهرين، ١٩٧٨) ص ٩ - ١١ .
- (٢٦) يجعل دومينيك سورديل موته في ٨ رمضان ٣٩٦ / ٢٩ حزيران ١٠٠٦ ، 'Bukhtishu' E.I.² , CY- RIL ELGOOD, A Medical History of Persia and the Eastern Caliphate
- (٢٧) ثمة جدول عام للطب في العصر العباسي في الفصول ٣ إلى ٥ (ص ٥٨ - ٣٠١) في
- (٢٨) جداً عن الطب في العصر العباسي بقلم سهيل قاشا، المسرة، ٦٠ (١٩٧٤) ص ٧٥٤ - ٧٦٣ ، ٨١٨ - ٨٢٣ ، الخ.
- (٢٩) يميز GELLARD (٨٢) أنواعاً عدّة من المشاركة يستبعد منها الهاشميون: المشاركة السلبية وهي الامتثال بالنهاج السائد، والمشاركة النشطة. ولشن أقصى النصارى عن الأولى في

المجتمع الإسلامي، فقد ظلوا طويلاً مدينين لكتفاهم التي مهدت لهم سبل ممارسة الثانية، في المهن الحرة على الأقل.

(٣٠) يعدد محمد أركون مقارنة بين ما اعتمدته عضد الدولة من «وجهة نظر الحكم المتسامحة الواسعة الأفق المتغلبة على الخيار الديني الضيق الأفق» وبين الخيار المتشدد الذي اعتمدته المؤمنون من قبل.

M. Kabir, p. 31 (٣١)

(٣٢) يصف محمد أركون MISKAWAYH.p. 63 ليلة من ليالي الوزير المهلي استناداً إلى التوثيقي (الغالبي، يتيمة الدهر، ج ٢، ص ٣٣٥ - ٣٣٦) وبين (ص ١٧٥) استناداً إلى التوحيدية أن فساد الأخلاق كان قد تفتقى حتى أصحاب العامة (التجار) والخاصة: العسكر والكتاب، والبناء وحتى أهل الخير والعلم (الامتناع والمؤانسة ج ٣، ص ٦٢ - ٦٣).

(٣٣) في الامتناع والمؤانسة، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٦٣، ج ١، ص ٣٢، BUSSE, p. 510. أركون MISKAWAYH ص ٣٩. وفي مجلس آخر عن الأخلاق، عند الوزير عينه، نجد من حول عيسى بن ثيف الرومي، المعروف بأبي السمع «غير هؤلاء من مشايخ النصارى» المتيحررين بالفلسفة، المقابلات، ص ١٣٩ - ١٤١. التوثيقي، نشوار، ج ٣، ص ١٧٢، يذكر في جلة معاصريه الكاتب النصراني إبراهيم بن عيسى بن نصر السوسي، أي أنه جاء مع الأسياح الجدد؟

(٣٤) يصف التوحيدية في الامتناع والمؤانسة، ج ١، ص ٣٣ - ٣٤، ابن زرعه وبين الخيار يقوله: «أما ابن زرعة فهو حسن الترجمة، صحيح النقل كثير الرجوع إلى الكتب. محمود النقل إلى العربية، جيد الوفاء بكل ما جل من الفلسفة، ليس له في دقيقها منفذ، ولا له من لغزها مأخذ، ولو لا توّزع فكره في التجارة، ومحبته في الربح، وحرصه على الجموع، وشدته إلى المتع لكان قريحته تستجيب له وغائمه تدرّ عليه، ولكنه ميتد مندد، وحبُ الدنيا يعمي ويصمّ. وأما ابن الخيار فقصيّح، سبط الكلام مديد النفس، طويل العنان مرضيُ النقل، كثير التدقّيق، لكنه يخلط الدرة بالبرة ويفسد السمين بالغث، ويرفع الجديد بالرث، ويشنين جميع ذلك بالزهو والصلف، ويزيد في الرقم والسوء فما يجيده من الفضل يرتبّعه بالنقص، وما يعطيه باللطف يسترّه بالعنف، وما يصفيه بالصواب يكتّره بالاعجاب. ومع هذا يُصرّع في كل شهر مرّة أو مرّتين».

(٣٥) انظر مدحه في الكامل، ج ٩، ص ١٨ - ٢٢. يلاحظ السيوطي، ص ٤٢٨، أن الخليفة لم يكن يوماً أضعف مما كان في عهده.

(٣٦) يذكره محمد أركون في الصفحة ١٧٣.

(٣٧) البداية، ج ١١، ص ٢٩٥ - ٣٠١.

(٣٨) الذهبي، كتاب دول الإسلام، ج ١، ص ١٦٨.

(٣٩) يحيى، ج ٢٣، ص ٤١٠، DONOHUE, P. 350; BUSSE, p. 239, no. 10 يرى محمد

- التونجي (في أطروحته، ج ١، ص ١٨٩، الماشية رقم ٤) أنّ هذا هو نفس أبو نصر بن هارون «الكاتب النصرياني» المذكور في دمية القصر، ج ٣، الشاعر رقم ٩٢٨ (٤٠) ماري، ص ١٠٥.
- (٤١) لعلّ اسم الجاثليق سقط سهواً من آخر الصفحة ١٠٥ من طبعة ماري العربية.
- (٤٢) ماري، ص ١٠٤ - ١١٠، صلبيا، ص ٩٤ - ٩٥، ابن العربي، ج ٢، العمود ٢٥٦، ٢٦٢. إيليا التصيبيني، تحت العام ٣٩١ والماشية العربية، ص ٧٦.
- (٤٣) يحيى، ص ٤١٠ - ٤١١، ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ٦٩ - ٧٠.
- (٤٤) يحيى، ص ٤٣١ - ٤٣٢.
- (٤٥) الكامل، ج ٨، ص ٥٩٣، CANARD, Hamdanides, I, p. 537-538 كانت فاطمة هذه أم جهيلة ذات المصير المأساوي.
- (٤٦) ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ٧٠.
- (٤٧) يقول ابن فضيل الله العمري (الفرن الرابع عشر) في كتاب التعريف إن «العهد» كان يكتبه الخلفاء للملوك (ص ٨٤)، «المنشور» يعني إقطاعات الأمراء وأصحاب الجناد (ص ٨٠).
- (٤٨) أمّا الآخرون، وفيهم البطاركة الملکانيون (ص ١٤٤ - ١٤٥) واليعقوبيون (ص ١٤٦) فكانوا يتسلّمون «وصبة»، ولكن رُبّما كانت دلالات الأنفاظ قد تغيّرت على مرّ العهود.
- (٤٩) ص ٢٦٥ و ٢٤٥.
- (٥٠) إذا جاز لنا أن نقرأ الاسم الأخير «بنام» كما نجده في مقابسات التوحيد، ص ٦٠، فقد يكون الرجل من مغاربة السريان، وربّما من أسرة برخورو التي أعطت كنيستها بطريركاً.
- (٥١) هل أسلم ابن الحمار؟ Islamochritiana, I, 1975, p. 169 ؛ تعليق السنديو، ص ١٥٠، BEO, XVIII (1963-1964) p. 165, note 1 et 2.
- (٥٢) الصفدي، الوفي، ج ١٢، ص ٤١ - ٤٢، رقم ٣٥.
- (٥٣) وكان قد صادف بدار الروم أيضًا راهبًا من نجران (العراق) مرسلاً إلى الصين، فهرست، ص ٣٤٩. - وهل يكفي هذا لأن يرى فيه Le Strange, Baghdad, p. 213 Le Strange يظهر أنّ النصارى كانوا يعيشون مع المسلمين على مستوى واحد من التساوي في ظلّ الخلافة العباسية؟
- (٥٤) BUSSE, p. 462.
- (٥٥) الفهرست، ص ١٣٦، إرشاد، ج ٢، ص ٢٣٨ - ٢٣٩؛ الصفدي، BUSSE, p. 462.
- (٥٦) الفهرست، ص ١٣٦، إرشاد، ج ٢، ص ٢٣٨ - ٢٣٩؛ الصفدي، BUSSE, p. 462.
- (٥٧) التئوخي، الفرج، ج ١، ص ١٦١، ١٦٣، ج ٣، ص ٩٨، ياقوت، إرشاد، ج ٥، ص ٤٣٨، ص ٤٣٨.
- (٥٨) الفهرست، ص ١٣١.
- (٥٩) ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ٧٠. أنظر: في SULAYMAN NADVI, Muslim obser- vatories, Islamic Culture, XX (1946), p. 267-281.

(٩٨٨/٣٧٨)، يكتب المقدسي في أحسن التقاسيم، ص ١٧٣ : «واعلم أنَّ بغداد كانت جليلة في القديم وقد تداعت الأن إلى الخراب واختلت وذهب بها وزهبت ولم تستطعها ولا أعجبت بها، وإن مدحناها فللتعارف».

(٥٥) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ١٤٥ - ١٤٦، ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ٧٠.

(٥٦) يتكلم مسكونيه كثيراً عن الآثار المدمرة التي خلفتها اقطاع رؤساء الجنادق قطائع من الأرض

يجبون خراجها لأنفسهم انظر ARKOUN, Miskawayh, p. 347

G. DAGRON, Minorités ethniques et religieuses de l'Orient byzantin à la fin du (٥٧)

Xème et au XIème siècle: l'immigration syrienne (Jacobite): dans Travaux et mé-

moires, 6 (1976), p. 177-216, ici p. 197

بين العامين ١١٠١ و ١١٣٠ استقر تاجر تكريتي

بمصر. إنه جد عبدالله المكين ابن العميد، الصندي، ج ١٧، ص ٦٦٦ - ٦٦٧، الرقم

٥٦٤.

(٥٨) ص ٧٣.

(٥٩) عيسى بن نسطورس وأبو العلاء فهد بن إبراهيم. يروي ابن الأثير في الكامل، ج ٩، ص

١١٧، أبياتاً في هجاء يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله الفاطمي (ت ٩٩٦/٣٨٦) :

تنصر فالتنصر دين حق عليه زماننا هذا يدل

وقُل بثلاثة غزوا وجلوأ وعطل ما سواهم فهو عطل

في عقوب الوزير أب وهذا الوزير ابن، وروح القدس فضل

إلا أنَّ الزركلي يقول، ج ٩، ص ٢٦٧، إنَّ هذا الوزير كان يهودياً وأسلم سنة ٩٩٦٧/٣٥٦

(٦٠) ربما كان من أقرباء نقيب العلميين الذي يذكره BUSSE, p. 295 قبل بضع سنوات.

(٦١) يلمح ماري وابن العربي إليها من دون تعين.

(٦٢) فقد شفى أبو الحسن بن مالك بوساطة غسل طقسي. وأدان راهباً سارقاً فشلت يده

لساعته . . .

(٦٣) يحيى، ص ٤٣٦ ، (P.O. XXIII).

(٦٤) ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ٧١.

٢٥ - القادر (٣٨١ - ٩٩١ / ٤٢٢ - ١٠٣١)

استمر تفكك المملكة على مدى خلافة أبي العباس أحمد القادر بالله الطويلة. فقد راح الأمراء المحليون في كل مكان، المروانيون بديار بكر، العقيليون بالموصل، المراديون بحلب، الخ، يؤسسون أسرًا حاكمة جديدة قيّض لها أن تبقى حتى وصول السلجوقية. من جهة ثانية، انهارت بعض الإمارات الأخرى ومنها إمارة الحمدانيين بالموصى والسامانيين في التغر الشمالي الشرقي المواجه للأتراك.

ظل القادر الخليفة الأصولي، على عرش الخلافة حتى الشهرين ثم مات من الكبار. ولكنه «لم يُقدم على الاستقلال برأيه إلا مرّة واحدة»^(١) وذلك لما أصرَّ على أن يظل قاضي القضاة ببغداد سنتيًّا. ولنا عودة إلى هذا الشأن عندما نقف على أوائل علامات الصحوة السنية ضد تشييع البوهيميين.

حتى هذا الوقت كان بهاء الدولة لا يزال يحكم قبضته على الخلافة. وليس من المستغرب أن نشهد قيام دار العلم،^(٢) سنة ٩٩٣/٣٨٣، بالكرخ في الجانب الغربي من بغداد، وهي مدرسة لدعاة الشيعة، وقد بناها الوزير سابور بن أردشير^(٣) وجهزها بمكتبة.^(٤)

في العام ٩٩٥/٣٨٥، على قول ابن تغري بردي،^(٥) أو في العام ١٠٠٩/٤٠٠ على قول ابن العربي^(٦) مات الكاتب اليعقوبي المُجَاه أبو نصر بشر بن هارون بن جحلا صاحب الآيات المعروفة في هجاء سابور بن أردشير، والمُهليبي وإبراهيم الصابي وأبي رفاعة بن كامل أحد زواب قاضي بغداد على السواد. وقد رأينا من قبل إحدى قطعه المؤرخة بسنة ٩٧٠/٣٥٩.

نلحظ في هذه الحقبة تزايد مشاعر العداء للنصارى في صفوف سكان بغداد. لا شك أنّ لكلّ حادثة أسبابها المباشرة القريبة، ولكن قابلية الاشتعال كانت قد ازدادت أيضًا.

الخبر الأول مذكور في المصادر كلّها،^(٧) ومؤرخ بدقة في سنة ٣٨٧ / آذار - نيسان ٩٩٧. كان كاتبان نصريان من بنى باطا^(٨) يتحمّل بلدة داقوق التي كانت آئذ قصبة شهرزور - باجرمي. وكانتا يظلمان الناس، من نصارى ومسلمين، «أكثر من الروم لو احتلوا البلد». واتفق أن اجتاز بالبلدة «جبرائيل بن محمد في عسركه ي يريد غزو الروم» فاجتمع إليه جماعة من أهل البلد واشتراكوا ودعوه لأن يملك عليهم. فقبض القائد على الظاللين وأمر بهما فقتلا. وملك البلد وأخذ (أو أخذ) لقب دبُوس الدولة.

يبدو أنّ ماري يعزّو تهديم بعض الكنائس خلال هذه السنوات إلى سخط مسلمي بغداد واستنكارهم لما أنزله هذان الكاتبان الظالمان من حيف بالمسلمين في بلدة الداقوق. أمّا ابن العربي فيربط هذه الأحداث غير المؤرخة بخبر السّيّرات الممّيّزة التي فرضها «رجلان مجرمان من العرب (?). فقد قُبض، فيما روي، على منجم نصريّ وصُرِب وأهين لأنه لم يكن يلبس الغيار. فاشتُكى المنجم إلى سيده (المسلم) الذي أمر «بالرجلين» فطرحا في السجن. أحبّ النّبأ عامة بغداد فاندرأوا على كنيستين للنّساطرة هما: كنيسة السيدة في سوق الثلاثاء ودير مار سبّريشوع الجاثليق (أي دير كليليشوع)، فنهبواهما. وقد كادوا أن يفعلوا الشيء نفسه بدير الروم، مقرّ الجاثليق، وبغيره من الكنائس لولا أن هدأهم مار ماري الجاثليق بشيء من المال بذلك لهم. ولم يعد النصارى يجرؤون بعد هذه الفورة، على الظهور نهاراً ببغداد.^(٩)

وفي زمن ماري بن طوبا نسمع عن الداقوق أيضًا. فقد رمى أحد المغرضين رأس خنزير في بعض المساجد، فاتهم النصارى بذلك كما هو متوقع. ولكن بدلاً من تحريض العامة رفعت هذه المرأة ظلامنة رسميّة إلى بغداد. وكان من حسن حظّ النصارى أن عامل الداقوق أدين بالخروج على الطّاعة فقبض عليه وُطُرِح في السجن حتى مات جوغاً هناك، وُسُي أمر النصارى.

نصل الآن إلى العام ١٩٩٩/٣٨٩. يذكر إيليا النصيبي^(١٠) في هذا التاريخ قتل أبي سعيد الكاتب من غير ذكر ظروف القتل ولا مكانه. يضاف إلى هذا أنَّ التسلسل التاريخي لهذه السنوات يكتنفه الغموض بحيث يستعصي علينا ربط هذا الحادث، في صورة يقينية، بهذه الفورة أو تلك من الفورات التي رأيناها أعلاه.

ثمة خبر آخر، غير مؤرخ أيضًا، وهو رفض الشمامسة المتقدرين من المدائن (والنازلين ببغداد) رئيسهم أبا الفرج بن يعقوب. إنَّ هذا الخبر لم يكن ليستحق متنًا التوقف عنده لو لم تستعن أسرة الرئيس المرفوض بنقيب الهاشمين،^(١١) وهذا أمر له دلالته. كان اللجوء إلى السلطة الرمنية، حلَّ المشكلات التي لا تعني إلَّا المراجع الكنسية، من أهم أسباب ضعف طوائف النصارى على مر العصور. وفي الحالة التي بين أيدينا، انحاز الجاثليق إلى صفتَ رئيس الشمامسة أي أنه وافق النقيب.^(١٢)

في العام ١٩٩٩/٣٨٩، كاد ماري بن طوبا الجاثليق أن يقع في مصاعب جديدة. فقد أحضر إلى دار الخليفة «بعد الشعانيين»، وُعذِّل على عدَّة «أبواب كبيرة (كذا) منها: علوَّ أصوات النصارى في الصلوات، وجلوس أصحاب الطوف والملاح والملاحين والطواوفين على أبواب البيع» الخ... ومن حسن التوفيق أنَّ الجاثليق استطاع التبرُّء من التهم كلَّها. ولما كان الوقت ليلاً عندما أطلقوه رافقه حملة المشاعل من قِبَل «ال الخليفة». وقد اصططفَ النصارى على جانبي الطريق، وانفرج الكرب الذي نزل بهم لِمَا سمعوا بِنَاء القبض على رئيسهم.

من كان وراء هذا الكيد؟ الأشبه أن يكون الوزير أبو نصر سابور بن أردشير، الذي كان الكلَّ يتشكَّى منه، والذي أعيد إلى الوزارة، مع ذلك، خمس مرات من قِبَل السلطان. ويروي ماري أنَّ هذا الوزير فرض على الناس العشر في البيع والشراء، حتى صارت بغداد منه في غليان. ولما كان عيد الشعانيين (الذي كان عيَّداً شعبياً عظيماً للكلَّ) لم يحرُّ الموكب التقليدي على الخروج من الكنيسة البطريركية. فقد «اجتمع الناس تحت دار الخليفة المسلمين بالقرآن وألزموا النصارى بإحضار الإنجيل وأخرج الإنجيل على صدر القسِّ والنصارى خلفه يسبِّحون وحصلوا في جامع الرصافة والشارع الأعظم إلى تحت التاج والمسلمون يذِبون عنهم... وأحرقت دار الجانب الغربي لأنَّها كانت معدن البلايا والمصادرات».^(١٣)

ويبدو أن هذه الأحداث تواافق وزارة سابور الرابعة، سنة ٩٩٦/٣٨٦ - ٩٩٧،^(١٤)
والتي لم تدم إلا شهرين اضطرّ في آخرها الوزير إلى المرب.

كان المناخ يميل إلى الفتن، بسبب سابور أيضًا، عندما توقي الجاثيلق. وقد ثار الترك مرة أخرى. وفي يوم وفاة ماري، هرب الوزير من الترك الذين عبروا جميعهم (بتدبير العناية الإلهية، على حد قول ماري المؤرخ) إلى الجانب الغربي في طلبه. وقد قاوم أهل الكرخ (ومعظمهم من الشيعة) الأتراك، ولذلك خفت السُّنة من شرقى بغداد لنجدته الترك.^(١٥) وفي هذه الأثناء أقيمت الصلوات القانونية بعد جنازة الجاثيلق، ولكنها اختُصرت نظرًا إلى الظروف. ثم اتفق أعيان السنة والشيعة على تهدئة الناس، وكان ذلك في المحرّم من العام ٣٩١ / آخر كانون الأول سنة . ١٠٠

مات في جثلقة ماري (٩٨٧ - ١٠٠) الطبيب والكاتب المشهور أبو سهل عيسى المسيحي المتخلّد من أسرة خراسانية الأصل، وقد صادفناه في خدمة عضد الدولة^(١٦) من قبل.

شهد العام ٣٩٠ / ١٠٠، الذي سبق موته الجاثيلق، بداية تكون حركة تحرّر السنة الذين أحبّطوا منذ أكثر من خمسين عاماً،^(١٧) أي منذ وصول البوهيميين سنة ٩٤٥. على أنّ هذه الحركة لم تفلح بفردها، بل احتاجت لذلك إلى نجدة السلّاجقة، الذين توّلوا السلطة سنة ٤٤٧ / ١٠٥٥. ولكن الانتفاضة السنّية الأولى التي تُرجمت إلى إنجاز عمليّ كانت رفض الخليفة (ولم يعد هذا الأمر مألوفاً) تعيين قاضي قضاة شيعياً بدلاً من القاضي السنّي. وفي الوقت نفسه وضع الفقهاء من أمثال الماوردي^(١٨) وأبن الفراء^(١٩) أقاليمهم في خدمة الخلافة السنّية^(٢٠) عندما أُلف كلّ منها كتاباً في الأحكام السلطانية.

يوانيس بن عيسى

XX بدا الجاثيلق الجديد يوانيس، من أول أمره، صناعة من صنائع السلطة. ويتحدّث ماري عن تنافس ما نسميه «مجموعات الضغط» البغدادية والشيرازية وعن

خيارات تملّيها الرغبة في رفض مرشح الآخرين أكثر مما تملّيها الرغبة في تأييد مرشح آخر. لم يعد أحد يتكلّم عن انتخابات: فالقصر هو صاحب القرار. وإن ابن العيري ليقوّها بفجاجة: ذهب يوانيس إلى شيراز قاصداً بهاء الدولة^(٢١) الذي أمر بتصييره جاثيلقاً. أمّا رؤساء الطائفة ببغداد^(٢٢) (لا كلام حتى عن أساقفة) فقد وجدوا القرار مراً، ولكنهم ما استطاعوا إلّا الانحناء أمامه. (٢٣) هرب بعض الآباء ولكن رسامة يوانيس جرت في ٥ ذي الحجّة/ ٢٦ تشرين الأول سنة ١٩٠١. وإذا وصل مطران الموصل (إرادياً؟) بعد الرسامة فقد حكم عليه بالبقاء على باب القلية لابساً المسوح غالساً في الرّماد. ولما رضي الجاثيلق باستقباله، أخضعه لمزيد من الإذلال وغُرّمه مئة دينار... وقد كانت جثلقة ملأى بأعمال من هذا القبيل.

كان من البديهي أن يستقبل الجاثيلق المنتخب بما يستحق من تكريم في قصر الخلافة وأن يكتب له العهد المألف.

ولكن الرياح لم تعد مؤاتية للنصارى. فقد تحمّس السنة لدى ساعدهم الأنبياء عن أوائل فتوح السلطان محمود بن سبكتكين في الهند، تلك الفتوح التي اعتُبرت انتصارات للسنة. وفي انتظار التمكّن من البوهين حمّة الشيعة، كانت العامة تتقدّر فرصة للإيقاع بالمستفيدين من النظام، من بين نصارى ويهود.

إلى هذا السبب العام انضاف الدوافع الشخصية كذلك التي كانت تحرك رجالاً من الخانابة كان يشهي الاستيلاء على أرضٍ بالقرب من كنيسة مار توما لليعاقبة بقطيعة الدقيق، من دون أن يتوصّل إلى ذلك، بسبب الحمّة القوية التي كان يبسطها عليها نصرانيًّا اسمه باسيليوس بِزَازا ابن طاهر.

ولما كان هدف الهجوم محدّداً بوضوح، سُنحت الفرصة المتظرة سنة ١٩٠٢/٣٩٢، عندما زنا كاتب نصراني يدعى أبو منصور الدرّاجي بأمرأة خباز عربي، ثم وُجدَ الخباز مقتولاً بعد ذلك بمنتهى يسيرة. ما هُمْ أن يكون الكاتب نسطوريًا؟ لقد اغتنم الخنبل الحادثة ليتهم يعاقبة الحيّ بما جرى، وكان ذلك كافياً لأن ينقضَّ العامة على كنيسة مار توما. انتزعت الزخارف وأعمدة الخشب النفيسة. وبينما النّهاب مشغلون بالتهب إذ اتصلت النار من مكنسة مشتعلة كان يهُول بها

بعضهم على النهاب فالتهب المبنى كله وتهافت سقفه فوق عاليهم، فهلك في الحادث خمسون شخصاً من بين رجل وامرأة وولد، منهم بعض النصارى القلائل. وكان من أمر بعض فرسان البدو (من بي معدان) الذين اجتذبهم التهب أن هربوا من الحريق فداست سبابكم ثلاث نساء عربيات أيضاً. وفي الوقت نفسه نهيت كنائس أخرى: منها كنيسة للنساطرة بالقرب من الدور (كنيسة مار اسطفانوس) وكنيسة أهل كسرك النسطورية ودير الرواهب اليعقوبيات. وقد صان تدخل السلطة الحازم بقية أماكن العبادة.

ولكن أغرب ما في الأمر أن قد وجد في كنيسة اليعاقبة المحروقة إنجيل سالم من النار إلا جلدته. أمام هذه «المعجزة» اتخذ كل فريق موقفاً حسب معتقده. بالنسبة إلى اليعاقبة، أصحاب الكنيسة (وابن العربي، الذي يروي الخبر، منهم) كانت المعجزة برهاناً قاطعاً على أن عقيدتهم وحدها هي الحق. أما النساطرة فانقسموا: فقسم زُزع إيمانهم ولم يبعدوا كثيراً عن الاعتراف بأنّ عقيدة اليعاقبة هي الأصح، وقسم قال: «نعم. ولكن النار ما مسَّت كنائسنا» وأما علماء المسلمين فكان تفسيرهم للناس أنّ ما حدث لم يحدث لأنّ النصارى على الدين الحق، بل بفضل العهد الذي كتبه الرسول بـالـأـيـادـيـةـ يـتـعـرـضـ لأـهـلـ الـنـصـارـىـ بشـرـ. على آية حال يختتم المؤرخ قائلاً: «ولكن العرب حاولوا، كالنساطرة، وضع السراح تحت المكial». (٢٤)

وقد استفتي، من جراء الحادث، ثلاثة فقهاء مسلمين في جواز هدم الكنائس. وأما الثلاثة العلماء فهم: أبو أحمد عبد الرحيم بن علي المرزبان الأصفهاني (ت ١٠٠٥/٣٩٦ - ١٠٠٦)،^(٢٥) وأبو بكر محمد بن موسى الخوارزمي (ت ٤٠٣/١٠١٢) من أعيان الحنفية،^(٢٦) والبيضاوي (؟). وقد أفتى الثلاثة بتحريم هدم الكنائس.

من المهم أن نعرف هل صدرت الفتوى قبل وصول الأمر من قصر الخلافة باستئثار ما حدث وتحريم التعرض لأهل الذمة. وإنّ المرء ليطمع أيضاً في معرفة من استحصل على هذا الأمر، عدا عن البواعيث والمسوح ورماد الجاثيق والنصارى.

في مقابل هذا التسامح الإسلامي نتبين في تلك السنوات شخصاً، «كاتباً»، اسمه أبو الحسن بن إسحق،^(٢٨) يرجح أنه نصراوي وأنه كان ذا نفوذ، إذ أنه ما اكتفى بانتزاع الغرامات من التجار حتى أساء معاملة جاثليقه. ثم بلغ بعد ذلك من الظلم والعنف في سلوكه بيغداد، ما استحق به أن يُنفذ الوزير فخر الملك من الرطّ من يغتاله على طريق كرمان.

مناوشات بين النساطرة واليعاقبة

بعد عامين من حادثة الكنائس، في العام ١٠٠٤/٣٩٤، جاء رئيس أساقفة العيادة بتكريرت،^(٢٩) أغناطيوس برقيقي، إلى بغداد ليعيد عماره الكنيسة المحترقة. وقد لقي استقبالاً حسناً من قبل الجميع مسلمين ونساطرة، وحملت إليه هدايا كثيرة وذلك «لأجل المعجزة [الإنجيل الذي سلم من النار] وعقيدة الخبر وعلمه، ولأجل عمه توما بزارا ابن بطرس برقيقي الكاتب «بين يدي الملك»،^(٣٠) على حد قول ميخائيل السرياني الذي ينظر إلى الأمور نظرة واقعية. إلا أن جاثليق النساطرة يوانيس انزعج من ذلك، ولا سيما إذ رأى الكتاب النساطرة أنفسهم يذهبون لزيارة برقيقي ويصلونه بالهدايا، فمنهم الجاثليق من ذلك، «وقد ظهر في يوانيس كبر وعجب.. وتجوز بأخذ الرشى» على حد قول ماري المؤرخ النسطوري.

بدأت لعبة شدّ الحبال إذن، بين الطائفتين السريانيتين النساطرة واليعاقبة. أرسل العيادة الأعيان منهم لمقابلة وزير الخليفة القادر، أبي الحسن علي بن عبد العزيز، ابن حاجب النعيم.^(٣١) فذهب هؤلاء إلى حدّ مطالبة الوزير بمنشور يأمر الجاثليق باستقبال «المفريان».

كانت «عرضة» الجاثليق (بتوصيت الكتاب النساطرة) كلاسيكية: «المفريان» نائب بطريق ينزل في بلاد الروم، أداء العرب، وهو لا يصلّي إلا من أجل نصرة الروم وذلة العرب، الخ... . كان الخليفة قد اعتاد هذه المعروفة فلم يلتقط إليها أكثر مما فعل أسلافه. ثم أحيل الخلاف إلى الفقهاء فانقسمت آراؤهم. ولا عجب في ذلك لأننا نعلم أن مذاهب الفقه السنة كانت تختلف في شأن معاملة أهل الذمة. كانت الوثيقة القانونية الوحيدة، المنظمة لعلاقات الطائفين النصارى فيما

بينها، هي العهد الذي كتبه المقتدر سنة ٩١٣ للجاثيلق إبراهيم الثالث، عندما أراد الملكانيون إقامة أسقفية لهم ببغداد. كان الجواب واضحاً: لا يحق إلاً لجاثيلق النساطرة بالإقامة الدائمة في بغداد. فأفهم «المفريان»، إذن، أنَّ له الحق في التردد إلى العاصمة كلما استلزمت ذلك مسؤولياته الكنسية، ولكن لا يجوز له الإقامة الدائمة فيها. وقد أوضح أيضاً في المنشور نفسه أنَّه لا يجوز للمفريان «إظهار شعائر رياضة الكنائس» خارج كنائسه.^(٣٢)

ووُقعت بين يوانيس وبين اليعاقبة مناوشة أخرى في تاريخ غير محدد. فقد حاول الجاثيلق أن يضع يده على كنيستهم بالكرخ (مار توما؟) ولكنه لم يفلح، ونجهل بقية التفاصيل.

ويذكر أنَّ طائفه يوانيس نفسها صارت تتأمَّر أكثر فأكثر من قسوته ومن «انهاك تلاميذه في القبائح وارتكاب المحظورات» حتى أنَّ الرعية اتهمته «بصبي كان يقيم معه في القلية». وباختصار، ثارت به الطائفة فاضطرَّ إلى الهرب من دار الروم إلى الجانب الغربي من دجلة. ولم يمكنه أن يعود إلى مقره إلاً من بعدهما قطع على نفسه عهوداً للرعاية بالرجوع عنها كانوا ينقمون عليه. ولكن ذلك لم يمنع بعض هؤلاء من ترك الطائفة النسطورية والانضمام إلى غيرها من الطوائف النصرانية: ويذكر هنا الطبيب علي بن عيسى^(٣٣) تلميد ابن الطيب «أشهر كحالى العرب» وصاحب الرسالة في طب العيون. اسمأز هذا الطبيب من تصرفات جاثيلقه فانضمَّ إلى الملكانية وظلَّ ينتقد يوانيس في رقاع كان يعيشها مع صبيان الملكانية ليطرحوها في كنائس النساطرة. ويُقال إنَّ الجاثيلق بكى من ذلك أمام الناس.

مررنا الآن باسم أبي الفرج عبدالله بن الطيب الطبيب، الفيلسوف، اللاهوتي، المفسِّر، الخ،^(٣٤) الذي نجده من بعد كاتباً للجاثيلق يوحنا بن نازوك. ويذكر ابن العربي في هذه الفترة أبو علي حسن بن سهل صاحب بعض التعليقات على كتب كنسية ومنطقية.^(٣٥) وفي الفترة ذاتها كان يعيش أبو علي عيسى بن زرعة^(٣٦) تلميد يحيى بن عدي وخليفته. وكان أبو علي مترجماً وفيلسوفاً وجديلاً^(٣٧) ومات سنة ١٠٠٧/٣٩٨.

هذه الأسماء كلها تذكَّرنا بأنَّ الجدال الإسلامي النصراني كان مستمراً كسابق

عهده في القرون التي مضت.^(٣٨) وربما تمكّن المرء من أن يلمس فيه شيئاً من التصلب في الموقف، كما يتبيّن بوضوح من الموقف الشعبي، ولكن هذا الموضوع يخرج عن إطار بحثنا. وقد سبق لنا أن قلنا إنَّ تراخي الدعاوة الشيعية في ظلِّ البوهين والصحوة السنّية مع الآمال التي ولدتها الانتصارات التركية في الشرق تُفسِّر تسامي ذلك التصلب والعداونية. ويجب أن نأخذ في الحسبان أيضاً تزايد الاحباطات الناتجة عن النكبات المزمنة: الغلاء، المجاعات، الخ.^(٣٩) على أيّة حال لم يكن المأخذ على النصارى وحدهم، إذ أنَّ الفتنة بين السنة والشيعة قد تكرّرت، ببغداد مثلاً، سنة ١٠٠٧/٣٩٨ - ١٠٠٨ .^(٤٠)

ويبيّن لنا الخبر التالي عن التناحر على السلطة بين أمراء المسلمين نفوذ الكتاب النصارى وهشاشة وضعهم في الوقت نفسه: في العام ٤٠٢/١٠١١ ، وفي أمارة فخر الدولة كان الوزير أبو غالب الحسن بن منصور الملقب ببني السعادتين على خلاف مع بني خفاجة. فأشار كاتب نصراني من دوقوا (نسطوري إذن) على سيده سلطان بن الحسين بن ثمال الخفاجي بالقبض على ذي السعادتين فثمَّي الخبر إلى الوزير، فأفسد تدبیر الخفاجي وقبض عليه وعلى كاتبه النصارى.^(٤١)

في الثامن من كانون الثاني ١٠١٢ / ٤٠٢ مات يوانيس الجاثليق عن جملة دامت عشر سنوات ونيف. لا تذكر المصادر أنه قد أسف عليه أحد. ويكتب ابن العربي أنَّ «الكثيرين شمتوا بموته». فمَّا كان يؤخذ عليه تعجرفه وتسرُّعه في إلقاء الحرث على من خالفوه في الرأي (وأنَّ كان يغفو عنهم بعيد ذلك بقليل ويخلُّهم من الحرث)، وكان أكثر شيء يؤخذ عليه الفضائح التي ارتكبها تلاميذه. ويكتفي المؤرخ النسطوري ماري بالقول وبعد موته «اعتقل سابور تلميذه»، أمّا ابن العربي اليعقوبي فيضع النقاط على الحروف: كان سابور هذا يرتكب الفواحش في العلن وكان الجاثليق يغضُّ الطرف عنه بينما عَزل أسقفين للسبب نفسه. ولأجل هذا كان يوانيس «مقوًّا من الجميع» . . .

ومع ذلك تنسب إليه معجزات في العقوبة هي مَا ينسبه العامة إلى الأساقفة عادة، بعد مشاجرة معه رفض سبعة أشخاص مصالحته: فكسرت ساق أحدهم وفلج آخر، «فقيل هذا بدعائه».

وبعد حوالي عام من وفاة يوانيس مات بهاء الدولة^(٤٢) في الخامس من جمادى الآخرة سنة ٢٢/٤٠٣ كانون الأول ١٠١٢. وقد ملك ٢٤ سنة مع أنه مات في الثانية والأربعين من عمره. وقد خلفه ابنه سلطان الدولة أبو شجاع.

يوحنا بن نازوك

XXI جرى انتخاب خلف^(٤٣) ليوانيس الجاثليق قبل حوالي شهر. وهذه المرأة لم يكن تدخل العلمانيين ظاهراً. فقد أجريت جولة أولى ثم ألغيت بعد مراجعة أبي علي الدورقي^(؟) لأن البعض ارتباً من حصول تزوير. ولكن لما سحب من الكأس اسم أبي عيسى يوحنا بن إبراهيم بن نازوك، على يد أسقف هرم أعشى، رضي الجميع بذلك. فذهب الجاثليق المنتخب إلى القصر وأخذ عهد^(٤٤) تولية يسمح بسيامته، ثم سيم جاثليقاً يوم الأربعاء في الثاني من جمادى الأولى ١٩/٤٠٣ تشرين الثاني ١٠١٢.

جنازة أخرى

كان سبب واحدة من كبرى المشكلات في جثلقة ابن نازوك، جنازة. ويصعب تاريخ الحدث: فهو في العام ١٠١٢/٤٠٣ على قول جورج مقدسي،^(٤٥) أو في العام ١٠١٣/٤٠٤ على قول حبيب الزيات،^(٤٦) أو في العام ١٠١٧/٤٠٨ على قول تاريخ الزمان لابن العربي.^(٤٧)

أما الشخصية الرئيسية في المأساة فهي الفقيدة، وهي بنت أبي نوح الأهوazi من أعيان النساطرة، وزوجة أبي نصر بن إسرائيل كاتب الناصح^(٤٨). أبي الهيجاء الجرجاني. وقد سارت الجنازة نهاراً من بيت المأتم الكائن بالرّصافة على الأرجح، (في الجنوب الغربي من حي الشهاسية بالجانب الشرقي من دجلة) متوجهة صوب دار الروم. وقد أحاط بموكب الجنازة غلمان الناصح من الترك، وضمت فيما ضمت جوقة صاحبة تُقرع فيها الطبول وتُنفخ الزمور، ويرتّل فيها (إن لم نقل يزعق فيها) رهبان يرمحون بالشمع والصلبان، وكلّها أشياء قبح في أعين المسلمين ويكرهونها. ولما مرّ الموكب بالقرب من مشهد أبي حنيفة لم يتهملك صاحب دكّان هناك نفسه،

فبصق على النعش. ثم انضمَّت إليه العامة، فرموا الموكب بالحجارة والشتائم، وتعرَّضوا بالأذى لغلمان الناصح. فهرب النصارى بِالميَّة إلى كنيسة دار الروم، فلحقت بهم العامة إلى الكنيسة والقلية وأعمل السُّلْب والنُّهُب فيها وفي المنازل المجاورة.

أما الأرمل فقد تَمَكَّن من إدراك داره عدواً ثم لحق بقصر حاميِّه، فتبَعَه جمع العامة ونشَب قتال بينهم وبين الحرَّاس. وأرجف بأن بعض النصارى قُتل رجلاً مسلماً، فحملت جثةَ المُسْلِم وطيف بها في أحياء بغداد. وأغلقت الأسواق والمساجد ولم تُقْمِ صلاة الجمعة ورفعت العامة المصاحف على رؤوس القنا وحملت «شهيدها» إلى دار الخلافة مطالبة بالقصاص. وفي هذه الأثناء ثُبِّتَ كنائس عدَّة.

ومن أجل تهدئة الخواطر طلب الخليفة تسليمه الأرمل المُسْكين الذي صار معتدىًّا رغماً منه. فحبسه ليضعه في مأْمَنٍ من الأذى ثم أطلقه من بعدها هدأت الفتنة. وقد عرض عليه أن يسلم قياماً بواجب النصيحة، فرفض.

وكان من أسباب عودة الهدوء أن الخليفة أعلَنَ إعادة تطبيق «الشروط العُمرية»: لبس الغيار وحظر ركوب الخيل وصرف الخدم والإماء من منازل النصارى... فاستدعي الجاثليق إلى القصر وتعهَّد، نيابة عن رعيته، باحترام الأوامر، وقرئت التعليمات في هذا الشأن من على «البيم» بالكنائس.

فخر الملك

كان فخر الملك،^(٤٩) أبو غالب محمد بن علي بن خَلَف، وزير سلطان الدولة، ممن عملوا على إعادة فرض «الشروط العُمرية». ويذهب ماري إلى أنَّ ميلوز الوزير لمعاداة الذمة كانت أشدَّ، نظراً إلى تحدُّره من أسرة جهابذة يهود، وإلى أنه تربَّى، قبل اعتناقه الإسلام، بواسطه «بلدة الحجاج ومدينة النبط».^(٥٠)

وقد اجتاز فخر الملك هذا بدير ماري بدور قرئي سنة ٤٠٢/١٠١٢. واتفق أن كان الناس صيام في رمضان فقدم له أفطار فاخر. «وأغرى الشيطان

بعض الناس المتأهّلين النصارى وحسدهم لحسن وجوههم وبشرتهم فتعصّب في المطالبة بلبس الغيار).

وكان ابن جابر، من أقارب^(٥١) فخر الملك، قد عيّن عاملًا على ناحية النهروانات، التي يقع الدير في نطاقها. فقصد هذا العامل «الأسكول والأسقف» وأدّعى عليه مالًا جزيلاً وديعة لفخر الملك، فصادر الناس وكس الأسكول». قاسي النصارى أيامًا عسيرة. وتعرّض الرهبان والقساوسة للرجم والإهانات وشّى أعمال الكيد، ونبّعت الجنائز من الخروج نهاراً، ونبّب أهل سوق الثلاثاء، «وأسلم من لا دين له» على قول ماري.

الصحوة السنّية

كانت الحال العامة، فضلاً عن هذا، مضطربة أيضًا. وكانت السنوات ما بين ٤٠٦ و٤٠٨ / ١٠١٧ و١٠١٥، سنوات عودة السنة إلى السيطرة على بغداد. بدأ السنة بأن منعوا الشيعة من احياء ذكرى عاشوراء،^(٥٢) وثُثوا بحرائق أشعلوها ببغداد وكربلاء وسامراء. وبلغ التحرُّك المناوي للشيعة ذروته سنة ٤٠٨ / ١٠١٧. يطلق المؤرّخون السنة على هذا العام اسم عام الفتنة، وهذا يقابل تقدّم محمود بن سبيكتكين الذي فتح خوارزم^(٥٣) في ذلك العام.

كان من الطبيعي أن يولّد الغليان العام تيارات هامشية تذهب ضحيتها الأقلّيات. وفي هذه المياه العكرة، كانت تسبح شتى أنواع الحيتان التي كانت تجد في النصارى فرائس سهلة المنال.

لم تكن السلطات الرسمية تقبل بهذه التعديات أو تُقرّها. من ذلك أنه لما شبّ حريق خلف مسجد الرصافة وأرجف بأنّ النصارى وراء الحادث تدخل الخليفة القادر وأمر بتكميم النّبا وحال بذلك دون سحق النصارى نهائياً.

وقد ساءت الأحوال أكثر في مصر والشام: هناك لم تهدم الكنائس فحسب، بل فرض على النصارى أن يجعلوا في أعناقهم صلباناً من خشب زنة الواحد منها خمسة أرطال، وعلى اليهود أن يجعلوا في أعناقهم رأس عجل «عظيم المقدار» هناك أيضًا ترك الكثيرون أديانهم وأسلموا.

كان من الطبيعي أن تطرح هذه التكبات (كما طرحت سرعة الفتح العربي من قبل) أسئلة على نصارى ذلك العصر، ولا سيما على المناهين عن العقيدة الذين رأوا في تلك النوايب عقوبة إلهية. لذلك يقول ماري: «وكان أصل ذلك تجوز الناس في أدیانهم وقبح سيرة الكهنة في المذبح والبيع والبيوت المقدسة». وقد يكتن أن يضيف: وحتى في مقرّ الجحليّة الذي كان ثُبْه لأقارب الجحليّة. فمن ذلك أن أسقف مصر لما جاء إلى الجحليّة ليشكو إليه تخريب حوالي أربعين ألف كنيسة ودير بالغرب وأن لم يبقَ إلّا عدد ضئيل من المؤمنين، أحاله الجحليّة إلى مطرانية فارس، ولكن من بعد ما أخذ منه رشوة.

وقد حصل الانفراج سنة ٤٠٧ / كانون الثاني ١٠١٧^(٥٥) عندما قبض على فخر الملك وأعدم بشيراز بعد وزارة دامت أكثر من خمس سنوات. ويدهب ماري إلى حد القول إنّ «الوحوش والطير أكلت جثته» أمّا ابن الأثير، الذي يثنى على الوزير، فيعترف بأنه جمع بالنهب ألف ألف دينار.

وقد خلفه أبو محمد الحسن بن الفضل بن سهلان الذي لُقب بعميد أصحاب الجيوش^(٥٦) والذي «استقبله الجحليّة وخدمه وسرّ به وأنكر التبّسط على أهل الذمة والغيار».

برقيقي ثانية

وفي أثناء سنوات الاضطراب هذه عاد إلى بغداد، قبل العام ٣٩٨/١٠٠٧^(٥٧) أغناطيوس مرقص برقيقي «مفريان» تكريت لليعاقبة وصاحب المكائد. وقد ثارت به رعيته لما رأته يستولي على أموال كنائس تكريت وبغداد وما والاهما من القرى، وينتزع كلّ ما فيها من نفائس. «واستعان عليه» أحد أعيان اليعاقبة (وهو ابن زرعة الفيلسوف) بالناصح، فمضى برقيقي إلى دار السعيد (؟) وأسلم على يديه، «وأكل اللحم» (وهذا ما لم يكن يفعله الأساقفة الذين كانوا رهباً). ثم مثل بين يدي الخليفة «وقطع زناه» علامه على خروجه من حال الذمة، وتكتئي بأبي مسلم «وأخذ عدّة نساء» على قول إيليا النصيبي. ولا شك في أنه تعرّض لأبناء ملته السابقة «وأدعى عليهم كل دعوى».

وكما كانت الحال غالباً مع أمثاله من مسلمي المصلحة، لم يطل به الوقت حتى انكشف وجهه الحقيقي «وافتضح عند المسلمين والنصارى».

وقد وقعت ليوجنا الجاثيلق يوماً مفاجأة مزعجة لما التقى برقيقي هذا في دار أبي الحسن بن عبد العزيز، ابن حاجب النعمن. (٥٨) فبدا «لأبي مسلم» الجديد أن من واجبه أن يدعو الجاثيلق إلى الإسلام قياماً بواجب النصيحة. فأنكر الحاضرون من فقهاء ومتكلمين فعلته الممضة كما أنكرها سيد الدار الذي شيع الجاثيلق الضيف بما يليق من تكريم.

ويروي ميخائيل السرياني أيضاً (٥٩) أن الخليفة استقبل برقيقي كما يستقبل أي مسلم آخر، من غير أن يدي له نفس الاعتبار الذي كان يديه له لما كان مطراناً. ويضيف ميخائيل السرياني أنَّ «النصارى رفعوا رأسهم» (٦٠) وينهض هذا المؤرخ إلى أنَّ المطران السابق عاش فقيراً يستعطي الناس. وقيل إنَّه تاب من بعد ذلك، وقد بقيت منه أشعار في هذا المعنى. (٦١) أما يوحنا بن نازوك فقد توفي في ٢٨ ربيع الأول ٤١١ / ٢١ تموز ١٠٢٠ عن جثلقة دامت حوالي ثمان سنوات وشهدت واحدة من أقسى النكبات التي مررتنا بها حتى الآن. وقد تُبَهِّنا في حينه إلى ما انجرَّ عنها من ترك رهط غير قليل من النصارى دينهم ودخولهم الإسلام.

نسوق فيما يلي هذا الحادث العابر، الذي وقع خارج بغداد في العام ٤١٥ / ١٠٢٤ أو في ٤١٦ / ١٠٢٥، لدلالة على ذهنية ذلك العصر. (٦٢) ذلك أنَّ الترك لما سخطوا على صاحب حلب وثاروا به، لم يكتفوا بلعن الظاهر الخليفة الفاطمي والداعي لقيصر الروم، بل رفعوا الصليبان على أسوار المدينة وأمرروا بالنواقيس فدُقَّت. يبيَّن لنا هذا إلى أي مدى صارت رموز النصرانية مثل شعار يتعارفه كلُّ أولئك الخارجين، لا على الإسلام، بل على شطط بعض مثيليه الرسميين. وسوف تناح لنا فرص أخرى للوقوف على هذه العادلة المفرطة في التبسيط؛ نصارى = أعداء الإسلام.

ايشعى يهوب بن حرقين

انتُخب ايشعى يهوب بن حرقين، (٦٣) أسقف القصر والنهر وانات، XXII

خلفاً ليوحنا بن نازوك بعد سبعة أشهر من وفاة الجاثليق. إنَّ اسم أبرشية ايشع
يُهْب يذكُرنا بمصاعب الجثلقة السابقة. والأرجح أن يكون هو قد هرب إبان
اضطهاد فخر الملك وابن جابر للنصارى، وأن يكون قاسى المصادر.

ولما اقترب الانتخاب فرق ايشع يهُب رشاوى (بلغت خمسة آلاف دينار، على
قول ابن العبرى) على أصحاب النفوذ، وخصوصاً أبي غالب الحسن بن منصور،
ذى السعادتين.^(٦٤) وقيل إنَّ ذا السعادتين أمر بإغراق كلَّ من لا يؤيده. وهكذا
إذن «انتخب» ايشع يهُب، إلا أنَّ عدداً من الأساقفة فضلوا المُهرب ولم يقرأوا اسمه
في سفر الأحياء.^(٦٥) وقد اتسمت جثلقة التي لم تدم أكثر من أربع سنوات ونصف
« بما يصبح ذكره ولا يحسن شرحه» على قول ماري، والأغلب أنه كان يشير إلى
المنافسات الداخلية في الكنيسة.

أما بالنسبة إلى الأمور الخارجية، فيبدو أنَّ الحال ظلت متوترة لأنَّ ايشع يهُب
لما مات في ١٣ ربيع الأول سنة ٤١٦/١٤ أيار ١٠٢٥، احتاج إلى إخراج جنازته
ليلاً. وفي تلك السنة بالذات « ظهر أمر العيارين ببغداد، وعظم شرُّهم »، حتى إنهم
أحرقوا الكرخ،^(٦٦) أي الجانب الغربى من العاصمة.

ظلَّ كرسى الجثلقة شاغراً مدة ثلاثة سنوات، من ١٠٢٥ إلى ١٢٠٨، بسبب
الخلافات والفتنة المتصلة بالبلاد. « في تلك الأيام » نهيت قلية دار الروم،^(٦٧) ولا
يسبعد الوقع على ذكر الفتنة وأعمال النهب في هذه السنوات. والخبر الذي ينفرد
بذكره صليباً يقع في فترة أعمال الشغب والنهب العامة التي وقعت ببغداد سنة
٤١٧/١٠٢٦،^(٦٨) عندما وقعت الفتنة بين الترك وبين العامة في أحياء بغداد
ودروها.

وقد انصلحت الحال قليلاً لدى دخول جلال الدولة^(٦٩) أبي طاهر، ابن بهاء
الدولة^(٧٠) إلى بغداد في ٣ رمضان ٤١٨/٧ تشرين الأول ١٠٢٧.

عندئِل استطاع الآباء المسيمون أن يجتمعوا. وللمّرة الأولى منذ مدة طويلة
جرى الانتخاب، فيما يبدو، حسب القواعد القانونية: « وكانت لهم اجتماعات كثيرة
مع المؤمنين » بلا ضغوط مفرطة من هذه الجماعة أو تلك وإن كان الجاثليق الذي

انتخب من موالي بني الجمل الذين صادفناهم من قبل. وقع الاتفاق إذن على قائمة من ثلاثة أسماء، وأقيمت صلوات بالباعوث ثلاثة أيام، ثم أُقيمت القرعة على ما جرى به العرف، فخرج اسم إيليا، أسقف الطيرهان من الكأس.

إيليا الأول

XXIII كان الجاثليق الجديد، الذي سيم في ١٦ حزيران (١٠٢٨)^(٧١) معروفاً بعلمه مشهوراً بفضله وسداده، بجماع جميع المصادر. وقد اتسمت جملته المديدة بالتصانيف التي صنفها،^(٧٢) وبإصلاحه الطقوس، وبالملجم الذي عقده وأقرّ فيه بعض القوانين الكنسية. كان إيليا الأول موضع ثقة الجميع وعمل من أجل المصالحة.

ولكن بغداد ظلت فريسة الفتن والاضطرابات في العام ٤٢٠ / ١٠٢٩^(٧٤) على الرغم من وجود جلال الدولة بها. فاللصوص ما عادوا يستترون بل صاروا يفرضون الاتاوات على الناس علانية. وفي هذه السنة مات أبو سهل سعيد بن عبد العزيز النيلي، الطبيب الأديب الشاعر، المختلف في أصل نسبه: إلى أسرة تتجر بالنيل^(٧٥) أم إلى مدينة النيل بالعراق،^(٧٦) والثاني هو الأرجح.

في السنة التالية، ٤٢١ / ١٠٣٠، ظلل اللصوص يعيشون، حتى إنَّ الأكراد «كانوا يسرقون دواب الأتراك، فنقل الأتراك خيلهم إلى دورهم، ونقل جلال الدولة دوابه إلى بيت في دار المملكة».^(٧٧) وفي العام ٤٢٢ / ١٠٣٠، مات الخليفة عن ٨٧ سنة. وتشير هذه السنن العالية إلى أن حظوظ الخلفاء في الحياة كانت تتناسب تناسباً عكسياً مع سلطتهم الفعلية. هل أعاد القادر جدة الخلافة، «وجدَّد ناموسها» على ما ذكر ابن الأثير؟^(٧٨) يبدو ابن العربي أقرب إلى الواقع عندما يكتب أن الخليفة كان «متمازاً بعفافه وفضله خلافاً لأسلافه».^(٧٩) كان القادر، باختصار، مثال الخليفة الرسمي الذي في وسعه أن يمارس شيئاً من النفوذ، بشرط ألا يحس أحد بذلك فيستاء.

الحواشي

- E.I.², VI, p. 394-395, par E.I.¹, II, p. 647, K.V. ZETTERSTEN, Kâdir (1) ، أنظر الآن D. SOURDEL ، الصفدي، ج ٦، ص ٢٣٩ - ٢٤١ ، رقم ٢٧١٧ . عن سياسة الدينية، H. LAOUST, Al-Mawardi, p. 52, 63, 75 .
(٢) البداية، ج ١١، ص ٣١٢ ، كتاب دول الإسلام، ج ١ ، ص ١٧٠ - ١٧١ . الكامل، ج ٩ ، ص ١٠١ .
(٣) وقد عُدّت دار العلم أول جامعة كبرى في الإسلام وقد بنيت الناظمية أيضًا ببغداد سنة ٤٥٩/٤٥٧ .
(٤) يعتبر هنري لاوست في كتابه عن الماوردي، ص ٤٥ ، الحاشية رقم ٤ ، أن فهرست التدريم ربما كان فهرست هذه المكتبة .
(٥) مذكور في شعراء، شيخوخ، ص ٢٦٢ - ٢٦٣ - ٣٩١ - ٣٩٢ . ويتخلط الألب شيخوخ بين هذا الشاعر وبين سميه المعاصر للمتوكل .
(٦) تاريخ الزمان، ص ٧٧ ، ثمة مصادر عنه في طبعة الشالجي للرسالة البغدادية للتوجيدي، ص ٤٥ .
(٧) ماري، ص ١٠٧ ، ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ٧٤ . الكامل، ج ٩ ، ص ١٣٦ .
(٨) استناداً إلى ماري الذي يؤرخ الخبر «في السنة الرابعة» ولكنه ينسى أن يقول من جملة من .
(٩) ماري، وابن العربي، العمود ٢٥٨ - ٢٦٢ . - ينسب ماري إعادة فرض السمات المميزة إلى «السنة الثانية» من جملة ماري، أي ٩٨٨/٣٧٧ . لم يتوصل المحقق إلى قراءة أسماء أصحاب هذا التدبير أو ألقابهم . ويقود اقتراحه قراءة «الأتابكة» إلى مفارقة تاريخية . هل هم «الحنابلة»؟
(١٠) تحت لعام ٣٨٩ هـ .
(١١) لا سبيل إلى معرفة اسم هذا النقيب بالرغم من القوائم التي يثبتها BUSSE, p. 297 لأن الحادث غير مؤرخ .
(١٢) عن وزارات سابور، أنظر BUSSE, p.240-241
(١٣) الكامل، ج ٩ ، ص ١٢٨ .
(١٤) المصدر نفسه، ص ١٦٨ .
(١٥) صليباً الموضع المذكور، ولا شك أن ابن العربي قد غلط في الصفحة ٦٩ من تاريخ الزمان إذ كتب تحت العام ٩٨٢/٣٧٢ : «ومات في سن الأربعين» لأنه يكمل بعد ذلك قائلاً: «وخلقه صمصم الدولة أخيه». ليس الطبيب إذن هو الذي مات عن أربعين سنة... بل هو عضد الدولة الذي لم يكن له من العمر ٥٠ عاماً لما مات. يجب أن يصحح معجم المؤلفين لعمر رضا. كحالة، ج ٨، ص ٣٥ ، في هذا الصدد أيضًا .
(١٦) عن تطور السنة في خلافة القادر، أنظر: A. LAOUST, Mawardi, p. 53-54 et p. 77-92

(١٧) أنظر *قوانين الوزارة وسياسة الملك للهوردي*، تحقيق د. رضوان السيد، بيروت، ١٩٧٩، ص ١١٤ - ٥.

(١٨) A New Look at the Ahkam al-Sultaniya, par DONALD P. LITTLE, dans *The Muslim World*, LXIV (1974), p. 1-15, et E.I.², III, p. 788-790 s.v. Ibn al-Farra, par H.

LAOUST.

LAOUST, Mawardi, p. 13. (١٩)

(٢٠) وقد أثر عن هذا الأمير أنه كان بخيلاً طماعاً، البداية، ج ١١، ص ٣٤٩ - ٣٥٠. حتى ابن العربي لا يذكر ما قدّمه له يوانيس لما قصده.

(٢١) يذكر منهم ابن الجمال، أبي الكاتب أبو نصر بشر بن هارون بن جملة الذي مات سنة ٤٠٠ / ١٠٠٩، ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ٧٧.

(٢٢) يقول ميخائيل السرياني، ج ٣، الملحق السادس، ص ٥٢٠ - ٥٢٤ رقم ٤٠: إنه انتخب من قبل أهل بغداد (؟).

(٢٣) ثمة وثائق كثيرة عن هذه الحادثة، ساري، ص ١١١ - ١١٢. صليبا، ص ٩٦. ابن العربي، العمود ٢٦٢. تاريخ الزمان، ص ٧٥. البداية، ج ١١، ص ٣٣٠. الوزراء، ص ٤٤٣. تجارب الأمم، ج ٤، ص ٤١٨. المتظم، ج ٧، ص ٢١٩، الخ.

(٢٤) BUSSE, p. 532

(٢٥) المرجع نفسه، ص ٥٢٦ والخاصة رقم ٥ و ٦.

(٢٦) الذي ربّا وجدنا ولده سنة ٤٦١ / ١٠٦٩. الصفدي، الوافي، ج ١٠، ص ٣٦٥، ج ١، ص ٢٧٩ رقم ١٨١.

(٢٧) الذي أرسله الوزير أبو نصر سابور من قبل مع أبي القاسم بن تما الديلمي للقبض على علوى فرّ منها فما تمكنا منه. هلال الصابي في ذيل تجارب الأمم، ج ٤، ص ٤١٨، وقد كان ظهر اسم ابن إسحق في تاريخ ماري لدى تعين الجنائذ.

(٢٨) يستعمل ابن العربي هنا لقب «مفريان» الذي لم يتلّق به هذا الخبر إلا لاحقاً.

(٢٩) ميخائيل السرياني، ص ١٣٤.

(٣٠) كان لا يزال حبيط في وزارته الثالثة التي بدأها في كانون الأول ١٩٩٨، ٢٤٨-٢٤٩ مع مصادر، الصفدي، ج ٣، ص ٢٥٩، الرقم ١٢٨٧.

(٣١) وقد استمرّ هذا الوضع على حاله حتى زمن صليبا في أوائل القرن الرابع عشر.

(٣٢) Jesus E.I.², I, p. 399, s.v. par E. MITTWOCH Haly, M. MEYERHOF, in *The legacy of Islam*, 1ère ed. Oxford V. Press, 1931, p. 332, BUSSE, p. 478, no. 2.

(٣٣) مصادر عنه في Islamochristiana, 2, (1976) p. 203-208, par Samir KHALIL ، ابن أبي أصبيعة، ص ٣٢٣ - ٣٢٥.

- (٣٤) إن محقق Chronique Ecclésiastique ياهونه بأبي سهل المسيحي، الذي رأيناه من قبل (مع ذكر الجملة نفسها): «ومات عن أربعين عاماً...؟»
- (٣٥) ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ٧٦.
- (٣٦) Islamochristiana, 1, (1975), p. 168.
- (٣٧) يذكر أبو حيان التوحيدي (ت ٤٠٠ / ١٠١٠) في الصدقة والصديق، بعض أقوال المسيح التي أطلعه عليها الكاتب النصراوي ابن الحمل: MAX BERGÉ, dans B.E.O. (Damas) XVI, (1958-1960), p. 45-49.
- (٣٨) أنظر قائمة عنها في BUSSE, p. 386-392 ؛ الكامل، ج ٩، ص ٢٠٤.
- (٣٩) الكامل، ج ٩، ص ٢٠٨. وفي هذه السنة أمر الحاكم بأمر الله، صاحب مصر بهدم كنيسة القيامة بالقدس.
- (٤٠) الكامل، ج ٩، ص ٢٣٥.
- (٤١) الكامل، ج ٩، ص ٢٤١.
- (٤٢) ماري، ص ١١٣ - ١١٦. صليبا، ص ٩٦ - ٩٧. ابن العربي، ج ٢، العمود ٢٨٤ - ٢٨٦. إيليا التصيبياني، تحت العام ٤٠٣ هـ. وحاشيته العربية، ص ٧٦ - ٧٧. يتبع تاريخ إيليا التصيبياني في العام ١٣٣٠ يونانية وهو تاريخ كتابته، أي قبل وفاة الجاثلين.
- (٤٣) يستعمل ماري هنا، للمرة الأولى، الكلمة «عهد» بدلاً من منشور التي استعملها سابقاً.
- (٤٤) Ibn Akil , p. 155-156 ، مستشهدًا بالتنظيم، ج ٧، ص ٢٦٢ ، البداية، ج ١١ ، ص ٤٩ . ٣٤٨
- (٤٥) السمات المميزة، ص ٢٤ ، مستشهدًا بمرآة الزمان.
- (٤٦) ص ١٨٥ - وأنا أميل إلى واحد من التواريخ الأولى.
- (٤٧) لقب لقب به عدّة رجالات، منهم صاحب شرطة بغداد سنة ١٠٣٠، ابن الجوزي، ج ٨، ص ٤٩.
- (٤٨) الكامل، ج ٩، ص ٢٦٠ - ٢٦٣ ، البداية، ج ١٢ ، ص ٥ - ٦ . BUSSE, p. 242-243 no. 28 وقيل إنه كان يتشيّع.
- (٤٩) إن رصف ماري النعدين الواحد تلو الآخر يدعو إلى التعجب، ذلك لأن الحاجاج لما أنشأها حظر على «النبيط»، أي السريان (واليهود/ الأراميين) أن يبيتوا بها ليلاً. كان عليهم المكوث في كسرى، أي المدينة القديمة على الجانب الآخر من دجلة. ويبدو أن الحظر كان قد تراخى مع مر الأيام.
- (٥٠) ويحتوي نصّ ماري المطبوع. ص ١١٦ ، س ١٦ ، على الجملة المعرضة التالية: «وكان الوزير ابن قيه» (كذا).
- (٥١) البداية، ج ١٢ ، ص ٢ .
- (٥٢) المصدر نفسه، ص ٤ .

- (٥٣) المصدر نفسه، ص ٨. - عن سياسته أنظر 214 LAOUST, Ibn Batta, note 214
- (٥٤) في العام ١٠١٨/٤٠٩ على قول ماري، في العام ١٠١٦/٤٠٧ على قول BUSSE
- (٥٥) BUSSE, p. 243, no. 29
- (٥٦) إيليا النصيبي، تحت العام ٤٠٧ هـ، ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ١٢٤.
- (٥٧) BUSSE, p. 249, no. 13
- (٥٨) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ١٣٤.
- (٥٩) تلحظ العبارة الدارجة على أقلام المؤرخين النصارى الذين يشيرون دائمًا إلى دُولَتِي الذل والفرج أو حتى الرفاه.
- (٦٠) المؤلوق المنشور، ط ٢، ص ٤٥٣ - ٤٥٤، رقم ١٨٩.
- (٦١) يحيى، ص ٢٤٧. زبدة الخلب في تاريخ حلب لابن العديم، تحقيق سامي الدهان المعهد الفرنسي بدمشق، ج ١ (١٩٥١)، ص ٢٨٨ - ٢٢٩. حبيب الزبيات، الصليب في الإسلام، ص ٤٩.
- (٦٢) ماري، ص ١١٧ - ١١٨. صليبا، ص ٩٧. ابن العربي، ج ٢، العمود ٢٨٦.
- (٦٣) وزير لسلطان الدولة منذ العام ٤٠٩/١٠١٩. الكامل، ج ٩، ص ٣١٠. BUSSE, p. 243, no. 31.
- (٦٤) وقد وصلتنا رسالة احتجاج إيليا بر شينايا، مطران نصيبيين، في هذه المناسبة، Oriens Christianus, II, III (1913), p. 59-81, 236-262.
- (٦٥) الكامل، ج ٩، ص ٣٤٩.
- (٦٦) يجعل صليبا الخبر في العام ١٠٣٢/٤٢٣، وهذا يعني وقوع الحادث بعد الانتخاب.
- (٦٧) الكامل، ج ٩، ص ٣٥٣.
- (٦٨) الذي يسميه صليبا جلال الدين.
- (٦٩) BUSSE, table B. et réf. p. 580.
- (٧٠) الكامل، ج ٩، ص ٣٦١.
- (٧١) لا ذكر لعهد الخليفة ولكن الاستغناء عنه كان مت喧عاً.
- (٧٢) ماري، ص ١١٨ - ١١٩. صليبا، ص ٩٧ - ٩٩. ابن العربي، ج ٢، العمود ٢٨٦ - ٢٨٨.
- (٧٣) ويشّك بعض الدارسين في صحة نسبتها إليه.
- (٧٤) الكامل، ج ٩، ص ٣٩٣.
- (٧٥) الزركلي، ج ٣، ص ١٥٠، مع مصادر.
- (٧٦) شعراء النصرانية لشيوخو ص ٣٤١ - ٣٤٢. - تقع التيل في منتصف الطريق بين الحلة والنعنائية إلى الجنوب من بغداد، وكانت أسقفية نسطورية، أئشور النصرانية، Assyrie Chrétienne، ج ٣، ص ٢٥٠ - ٢٥٢.

(٧٧) الكامل، ج ٩، ص ٤١٠.

(٧٨) المصدر نفسه، ص ٤١٤ - ٤١٥.

(٧٩) تاريخ الزمان، ص ٨٤.

٢٦ - القائم (٤٢٢ - ٤٦٧ - ١٠٣١)

ورث أبو جعفر عبدالله القائم بأمر الله عن سلفه وأبيه القادر عاصمة في حال الفوضى الفصوى فضلاً عن بيت المال الفارغ، والعائدات التي تذهب جميعها إلى خزائن الأمراء الفرس. وقد احتاج إلى بيع بعض الأثاث والقصور والحدائق ليتمكن من تقديم حلوان ارتقائه العرش إلى المرتقة الترك.^(١)

أما ما كان يفترض أنها عاصمته فقد شهدت، سنة توليه بالذات، صراعات مسلحة بين السنة والشيعة: فأحرقت أسواق الكرخ مرة أخرى، ووقعت معارك بالطرق وبخاصة في سوق الثلاثاء، حيث كان يقيم بعض النصارى. وزاد الطين بلة أن العيارين زادوا وكثروا في المدينة وفرضوا الإتاوات على الناس.^(٢)

لنلحظ مع ذلك أنه إذا كانت حال النصارى، كحال غيرهم من السكان، قلقة مهددة في بغداد، فإن حال الأمن في غيرها من المدن كانت تتبع قوة الأسر المحليّة المتغلبة. ولم تكن الحال العامة شديدة السوء، في المدن على الأقل لأننا نشهد في العام ١٠٣١ بعض يعاقبة الرّهـا يغادرون المدينة مع غيرهم من «العرب»، لما ملكها الروم، وذلك لأنهم على قول ميخائيل السرياني، «كانوا قد اعتادوا على العرب في اللغة والكتابة»^(٣) وانتشروا في البلدات التي وجدوا فيها أبناء ملتهم، حتى وصلوا إلى تكريت وخاصة (وهذا عكس ما كان قد حصل في العام ٩٩٠/٣٨٠ عندما نزح أثرياء النصارى من تكريت وهجروها إلى ملطية).

شهد العام ١٠٣٧/٤٢٩ إعادة العمل «بالشروط العمرية». عُقد مجلس رسمي بحضور رئيسي أهل الذمة الجاثليق إيليا الأول ورأس الجالوت اليهودي،

وتعهد هذان باحترام الاجراءات التميّزية وعدم مساواة أنفسهم بال المسلمين،^(٤) والامتناع عن إعلاء دورهم على دور جيرانهم المسلمين،^(٥) الخ. وقد ظلت القاعدة الأخيرة معمولاً بها ضمنياً حتى أيامنا هذه،^(٦) وذلك فيها يتعلّق مثلاً بباب الناقص بالقياس إلى الماذن.

لم يعد للتاريخ وقت للكلام عن النصارى في السنوات التي أعقبت ذلك، بل نجد فيها تناوب الكوارث الطبيعية وروایات التهـب والسطو والسرقات، والغلاء على الجميع:

- في العام ٤٢٣ - ١٠٣١ : غلاء ووباء وجدرى مات منه بالموصل أربعة آلاف صبي وأصيب به الخليفة نفسه وسلم.^(٧) واشتدّت المجائحة ببغداد والبادية حتى إن البدو أكلوا أولادهم.^(٨).

- في العام ٤٢٤ - ١٠٣٢ : «ثار العيارون ببغداد وأخذوا أموال الناس ظاهراً».^(٩)

- في العام ٤٢٥ - ١٠٣٣ : «كثير الموت بالخوانيق في كثير من بلاد العراق والشام والموصل وغيرها».^(١٠)

- في العام ٤٢٦ - ١٠٣٤ : عُمّ التهـب البلاد كلها وكان من أبرز أبطاله الأكراد، «حتى إن بعض الجنـد خرجوا إلى قرية يحيى فلقـيـهم أكراد فأخذـوا دواـبـهم ولم يقدر الخليفة ولا جلال الدولة على ردـهم».^(١١) ومع ذلك كان البسـاسـيـري قد استـخلـفـ على حـماـيـةـ الجـانـبـ الغـرـبـيـ بـبغـدـادـ فيـ السـنـةـ السـابـقـةـ^(١٢)... وزـارـاءـ يـتـعـاقـبـونـ^(١٣)....

- في العام ٤٢٧ - ١٠٣٦ : احتاج جلال الدولة نفسه إلى الهرب متخفياً من الجنـدـ الأـتـراكـ المـتـمـرـدينـ، فـهـبـتـ دـارـهـ.^(١٤)

إن مسرد المصائب هذا ليعطينا فكرة عن تفكـكـ الملكـةـ فيـ السـنـاتـ الأخيرةـ منـ دـولـةـ الـبـوهـيـنـ. إلىـ حـوـالـيـ هـذـهـ الفـتـرـةـ يـعـزـزـ المؤـرـخـونـ، عـلـىـ اختـلافـهـمـ، ماـ يـسـمـونـهـ «ابـتـداءـ أـمـرـ السـلاـجـقةـ». فيـجـعـلـ ابنـ العـبـريـ^(١٥) ذـلـكـ فيـ الـعـامـ ١٠٣٦ـ، أمـاـ

ابن الأثير^(١٦) فيجعله في العام ٤٣٢ / ١٠٤٠ - ١٠٤١ . وإنما يتعلّق هذا التاريخ ببداية فتوحهم . ولكن ، كان لا بدًّ من الانتظار حتى العام ٤٤٧ / ١٠٥٥ ، أي خمس عشرة سنة طوالاً ليدخلوا بغداد ويسيطروا على الأمن والسلام فيها . حتى ذلك الحين استمرَّ مسلسل الفتنة ببغداد وما والاها من البلاد .

في هذه الأثناء لا يذكر النصاري إلَّا في تواريخ تظهر وفيات بعض أهل الفضل منهم من أمثل :

- الفيلسوف والكحال النسطوري ، أبو الحسين البصري ، تلميذ ابن الطِّبِّ الذي مات في أيلول ١٠٣٨^(١٧) أي قبل وفاته معلمه .

- الفلكي الرياضي أبو الحسين بن سريشوع المتوفى سنة ٤٣٤ / ١٠٤٢ -
^(١٨) ١٠٤٣ .

- الفيلسوف الأرسطوطياليسي ، «نظير ، ابن سينا» ، واللاهوقي القانوني ومفسّر الكتاب المقدس أبو الفرج عبدالله بن الطِّبِّ الذي مات سنة ٤٣٤ / ١٠٤٣ .^(١٩) يشير ابن العربي إلى أنه «تطرّف إلى ذم جاثلة النساطرة بسبب تغاضيهم عن العلوم البيعية وغيرها». ويضيف ابن العربي : «غير أنه فيها أظن لم يكن متضلعًا من السريانية إذ عثرت في بعض شروحه على أغلاط»^(٢٠) منها سوء قراءته لكلمات من سفر أيوب .

في المحرّم من العام ٤٣٤ / آب ١٠٤٢ اغتصب جلال الدولة بن بهاء الدولة ، ملك العراق ، ما تحصل من مال الجاوي (الجزية) ومنعه من الخليفة القائم . فعظم الأمر على الخليفة وهدّ بمعادره بغداد في جماعة الماشميين والقضاء . ثم اصطلحا على أن يترك البوهي نواب الخليفة يحصلون الجزية في السنة الآتية ،
^(٢١) ١٠٤٣ / ٤٣٥

في السنة عينها أسدى الروم (عن غير قصد) خدمة جديدة إلى نصارى الخلافة العباسية ، مثلما كانوا قد فعلوا من قبل لما نهبو أهل نصيبين السريان والمسلمين . ففي هذه السنة ثارت في القدسية فتنة ألقى أهل البلد تبعتها على «الغرباء» وأشاروا بإبعادهم . فصدر الأمر «فنودي أن لا يقيم أحد ورد البلد منذ

ثلاثين سنة، فمن أقام بعد ثلاثة أيام كحل، فخرج منها أكثر من مئة ألف إنسان ولم يبق بها أكثر من اثني عشر نفساً، ضمنهم الروم». كان لهذا الخبر الذي عرفه المؤرخون المسلمين^(٢٢) أثر طيب في العلاقات بين المسلمين والسريان، وصار هؤلاء منذئذٍ متميّزين عن الروم الذين طردوهم من بينهم. ومنذئذٍ صار الاتهام الذي يطلقه بعض السريان ضد بعضهم، بالتعاون مع العدو التقليدي، يلقى قدرًا أقل من الاكتراث له لدى السلطات المسلمة.

وفي هذه السنة عينها مات السلطان جلال الدولة البوهي في السادس من شعبان ٤٣٥ / ٢٥ أيلول ١٠٤٤^(٢٣). وكان رجلاً شيعياً تقىاً، «وزار مرأة مشهد علي والحسين، عليهما السلام، وكان يمشي حافياً قبل أن يصل إلى مشهد كل منها، نحو فرسخ، يفعل ذلك تديناً». وقد خلفه على العراق محي الدين أبو كاليجار^(٢٤) الذي كان يملّك فارس وكرمان.

ولتوكييد تضامن النساطرة مع المسلمين، نرى الجاثليق يبني إلى قصر الخليفة في العام ١٠٤٥، كتاباً بلغه من مطران سمرقند ينذر به بغزوة وصلوا إلى كاشغر يقودهم سبعة ملوك مع كل منهم سبعمائة ألف فارس. وقد وصف المطران الغزاة بأنّهم «رحماء عادلون». لا تذكر المصادر ما كانت ردّة فعل القصر، و يبدو أنّهم لم يكونوا يشعرون بأنّ الخطر وشيك، لأنّهم راحوا يتناظرون في العبارة الأخيرة من الكتاب: «وخيّلهم تأكل اللحم». ويقدّم ابن العربي الذي يورد الخبر تفسيراً «علمياً» لذلك.^(٢٥)

من ١٠٤٤ إلى ١٠٤٨، كان أمير الأمراء أبو كاليجار يدافع توسيع السلاجقة بالحرب أو بالتحالفات التي يعقدها. وكانت المجاعة والوباء والغلاء تشكل لحمة الحياة وسدادها ببغداد والموصل،^(٢٦) وهذا ما جعل المؤرخين في شغل شاغل عن النصارى وأخبارهم.

وفي هذه الحقبة، في ١٨ تموز ١٠٤٦ تحديداً، مات مطران نصبيين، إيليا برشنيايا، صاحب التصانيف المشهورة.^(٢٧) أمّا علاقاته بال المسلمين، فإن مناظراته بنصبيين مع الوزير أبي القاسم المغربي،^(٢٨) سنة ١٠٢٦، تظهر جوّ الاحترام المتبادل

الذي كان يسود بين النخبة النصرانية والنخبة المُثقَّفة المسلمة، وإن كان ثمة «ثقافتان تتواجهان».^(٢٩) وقد استجرأ المطران في كثير من الحذق والدبلوماسية، على أن يقول للوزير أشياء عَدَّة. إذ لما سُأله الوزير إيليا «أَلْكُم مِنَ الْعِلْمِ مِثْلَ مَا لِلْمُسْلِمِينَ؟» أَجَابَهُ: «نَعَمْ وَزِيَادَةً وَافْرَةً». قال الوزير: «وَمَا الدَّلِيلُ عَلَيْهِ؟» قال إيليا: «إِنْ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ عِلْمًا كَثِيرًا مُنْقَوْلَةً مِنَ السَّرِيَانَ وَلَيْسَ عِنْدَ السَّرِيَانَ عِلْمٌ مُنْقَوْلَ مِنْ عِنْدِ الْعَرَبِ».

بموت أبي كاليجار، الذي كان في طريقه لمنازعة السلاجقة على أرض كرمان، بدأ في جمادى الأولى ٤٤٠ / شرين الأول ١٠٤٨، حكم آخر أمير أمراء بوهيميا، هو الملك الرحيم، يُذكر أبو كاليجار.

في السنة عينها غادر بغداد في رمضان ٤٤٠ / آذار ١٠٤٩، الطيب، المنطقي، صاحب التصانيف الكثيرة^(٣٠) (الراهب؟) أبو الحسن المختار، المعروف بابن بطلان.^(٣١) وكان قد درس على علماء النصارى بالكرخ^(٣٢) وبخاصة على ابن الطِّبِّ الذي كان يَعْدُهُ أَحْسَنُ تلاميذه. إن رواية رحلته التي أرسلها إلى هلال الصابي^(٣٣) تعطي تقريراً ملفوطاً للانتباه عن المدن التي اجتاز بها: الرحبة، حلب، أنطاكية، اللاذقية، الخ. وكان شاعراً أيضاً^(٣٤) ونظم كتاباً بعنوان دعوة القوسوس. يفترض مع الأسف أنه مفقود، ولو وصلنا وكان على شاكلة كتابه دعوة الأطباء لكان فيه هجاء للقوسوس وأخلاقهم وكان من شأنه أن يطلعنا على معلومات مفيدة.^(٣٥)

إن شكوكه الخمسة التي وجهها إلى إيليا النصيبي تكشف عن «عقل متتحرّر ونقدّي جدّاً» إلا أن لا يتعدى ذلك «اللهو العقلي المجرد».^(٣٦) وقد مات ابن بطلان في دير بأنطاكية سنة ٤٤٤ / ١٠٥٢، ويُقال إنَّ السُّرُجَ التي أشعلت على قبره كانت تنطفئ دائماً... .

نجد في أصدقاء ابن بطلان واحداً من أواخر آل بختيشون هو أبو سعيد عبيد الله^(٣٧) الذي يبدو أنه صحب أباء جبرائيل بن عبد الله لما قدم إلى ميافارقين سنة ٣٩٠ / ١٠٠٠. وكان طيباً هو أيضاً، ولهم تصانيف عديدة، وقد توفي سنة ٤٥٠ / ١٠٥٨. ويبدو أنه لا بدّ من الفرق بينه وبين الكاتب «الكبير» أبو سعيد

الحارث بن بختشوع الخازن، الذي عُهدَ إليه بعمارة بيمارستان مِيافارقين ومسجدها في العام ٤١٤/٢٣٠.

ويعد أيام قلائل من مغادرة ابن بطلان بغداد مات الجاثليق، إيليا الأول في ذي القعدة ٤٤٠/٦ أيار ١٠٤٩، وكان قد فُلح وأُعِيدَ في آخريات حياته. وكانت مدة جملته ٢١ سنة، وكان القائم خليفة منذ ٣١٠ وظل كذلك حتى ١٠٧٥.

يوحنا بن الطرغال

XXIV انتُخب الجاثليق الجديد بعد خلو الكرسي مدة سبعة أشهر، ولا علم لنا بتفاصيل المفاوضات التي سبقت الانتخاب. كان يوحنا كاتباً بغدادياً على ناحية التهروانات وكانت «له معرفة تامة بصناعة الكتابة». وكان قد ترَهَبَ وعُيِّنَ أستقفاً منذ واحد وعشرين عاماً على ناحية القصر والتهروانات. وبُطَّهر انتخابه رغبة الكنيسة، متى خلَّيت وما تختار، بأن يدبرها أهل الاختصاص، أي أناس يعرفون موالج الآلة الإدارية ومحارجها، وبخاصة ما يتعلق بالضرائب والرسوم، ويتمتعون برصيد من العلاقات الطيبة بأهل الدواوين التي نشأوا فيها.

تمكَّن يوحنا بن الطرغال^(٣٨) من القيام بقسم من الزيارات الرسمية بعد سيامته في رجب ٤٤١/١٧ كانون الأول ١٠٤٩، ولكنه اضطُرَ إلى الانتظار ستة أشهر ليتمكن من الجلوس على الكرسي في دير مار فتيون، إلى الجنوب الشرقي من الجانب الغربي ببغداد. ذلك لأن التاريخ يخبرنا بوقوع المزيد من الفتن بين السنة والشيعة في ذلك العام.^(٣٩)

استمرَ صعود السلاجقة الذي كان من شأنه تشجيع السنة، وتواتت الفتن بين السنة والشيعة ببغداد، وكان من ضحاياها بعض النصارى أحياناً. في المحرم من العام ٤٤٦ / نيسان - أيار ١٠٥٤، ثار المرتزقة الترك لأنهم لم يقبضوا أرزاقهم وراحوا ينهبون المدينة بأسرها. وقد هجمت جماعة منهم، مع من انضم إليهم من الأكراد والبدو، على حارة دار الروم حيث نهبوا وأحرقوا قلية الجاثليق وكنيستها^(٤٠) فضلاً عن دار أبي الحسن سعيد بن عبيد الله^(٤١) وزير البسيسيي التركي. ويجدر بنا

أن ننئ هنا إلى أنَّ الاقتصار على قراءة تاريخ ماري ربما ساقنا إلى الاعتقاد بأن الفتنة كانت موجَّهة ضدَ النصارى على التخصيص لأئمَّهم الوحيدون المذكورون من الضحايا. بينما تبيَّن إعادة وضع الأحداث في سياقها أثنا أمام حال عامَّة. وقد تكفل أبو الحسن بإعادة عمارة القلية على نفقته الخاصة وبإشراف قهرمانه أبي الفضل بن بهانش وغيره من أعيان الحيِّ.^(٤٢)

في رمضان ٤٤٧ / كانون الأول ١٠٥٥، أي بعد سنة ونصف، تعرَّضت الأبنية، التي رُمِّت بمنفقات عظيمة، إلى هجوم جديد لدى وصول العسكر الخراساني (ويسُمِّيهُم ابن العربي الغُزْنِي^(٤٣)) الذي رافق دخول طغرل بك، أول السلاجقة إلى بغداد. وبينما ضرب الأمير السلاجقى مضارب عسكره بالقرب من حيِّ النصارى بباب الشهاسية، ثار الترك والديلم الموالون للبيهقيين على البساسيرى ونبوا قصره. كانت الأحياء الشرقية السنِّية في حالة غليان.^(٤٤) وقد نهبت القلية وكرسى الجاثيلق مرة أخرى، فهرب يوحنا بن الطرغال إلى دير مار ماري بدور قَتَّى ثم اضطرَّ إلى مفارقه لما صودر الأسكندروبل.

ثُمَّة خبر هامشى عن الصراع مع البساسيرى، وقع لما كان هذا الأمير مختبئاً بواسط في ربيع الآخر/ تموز ١٠٥٥، وذلك لما أرسل نصراوَى من بغداد، يدعى أبو سعد، بالسفينة شحنة من ٦٠٠ جرة حُمْرَاء، فاعترض المركب وحُجز وكُسرت الجرار.^(٤٥) قد أدى الحادث إلى «تجدد الوحشة» بين البساسيرى وبين أبي القاسم علي بن الحسن بن مسلمة الملقب برئيس الرؤساء. وقد قبضه البساسيرى وعذبه في العام ٤٥٠ / شباط ١٠٥٩.^(٤٦)

في ٢٥ كانون الأول ١٠٥٥، دخل طغرل بك بغداد بيفيلته. ولئن كان هذا التاريخ يُعدُّ بداية لحكم السلاجقة فهذا لا يعني أنَّ سيادتهم قد استقرَّت مذاك بلا معارضة. صحيح أنه قد اعترف بالأمير التركي «سلطانًا» سة ٤٤٩ / ١٠٥٨، وأنَّ الخليفة (الذي كان بين يديه كتاب لا حول له ولا قوَّة)^(٤٧) قد خلع عليه لقب «ملك المشرق والمغرب». ولكن البساسيرى، الأمير التركي الآخر، استعاد السيطرة على بغداد سنة ٤٥٠ / كانون الأول ١٠٥٨، وأجلأ الخليفة إلى قريش بن بدران أمير

بني عقيل بالموصل، وفي الأول من كانون الثاني ١٠٥٩، خطب بغداد للمتصر، الخليفة الفاطمي بمصر. ولم يتمكن القائم من الرجوع إلى العاصمة إلا سنة ١٠٦٠ - ١٠٥٩، ولكن كادا في أيدي السلاجقة.^(٤٨)

لم يتمكن السلاجقة من بسط سيادتهم من غير آلام عظيمة عانت منها المدن والقرى ومن باب أول الأديرة النائية. ففي دير كامول مثلاً، بالقرب من جزيرة ابن عمر، قتل الغز ١٢٠ راهباً من أصل أربع مئة كانوا بالدير. وفي سنجار خرب قصر أمير البلد وأحرق الجامع وذبح أربعة آلاف من أهلها، الخ. وقد شهد تل أعفر ثم الموصل حروبياً بين عرب البسييري (المصريين) وترك السلاجقة (الغز). وفي العام ٤٥٠ / ١٠٥٨، خربت الموصل^(٤٩)... كل هذا لم يمنع ابن العبري من أن يكتب «أنَّ السلطان كان رجلاً عادلاً»، وهو أمر تحلى خصوصاً في تخفيف الضرائب.

في جملة يوحنا بن الطرغال حاول المحتسب، مرّة أخرى، «وبأمر من الخليفة» القائم أن ينقد «الشروط العمرية» سنة ٤٤٨ / ١٠٥٦ (أي بعد سنة من دخول السلاجقة)، ففرض السمات المميزة: الزئار، العهائم المصبوغة، الخ.

ولكن لما كان للخاتون، زوجة طغل بك، كاتب يهودي، هو أبو علي بن فضلان، فقد حالت دون تفزيذ هذه الاجراءات.^(٥٠)

في هذا الصدد، يقدم جورج مقدس^(٥١) تقويمًا صائبًا لطبيعة العلاقات بين أصحاب السلطة أنفسهم (من خلفاء وسلاميين ووزراء، الخ) الذين يحتاجون إلى مهارات الذميين، ولا يتخلون، وبالتالي، اجراءات ضدّهم إلاّ متى اضطُرّهم إلى ذلك ضغط الرأي العام، أو ضغط العلماء (من فقهاء، ومحاسبين وقصاص...) الذين يقودون الشعب ويوجهون الرأي العام.^(٥٢) في بينما يميل المسؤولون إلى حماية الذميين لحاجتهم إليهم، يجد العلماء أنفسهم أحرازاً في إبداء النقد، لأنّهم لا يخسرون شيئاً إذا حاولوا تأكيد سلطتهم بالضغط على الحكم. كان الموقف من طرف ثالث [أهل الذمة هنا] تحت ستار المبادئ الشرعية، اختباراً ممتازاً ليروا إلى أي مدى يستطيعون الذهاب في ممارسة الضغط.

إنَّ ما كان يجميَ الْذَّمِينَ إِجْمَالًا مَا كانَ المُتَعَصِّبُونَ يَطْالُبُونَ بِفِرْضِهِ عَلَيْهِمْ هُوَ دَائِئِيَّا المَكَانَةِ الَّتِي كَانَ يَنْعَمُ بِهَا بَعْضُهُمْ لَدِيِ الْحَكَامِ وَحَاجَةٌ هُؤُلَاءِ إِلَيْهِمْ. وَقَدْ رأَيْنَا الدُورَ الَّذِي قَامَ بِهِ الْكِتَابُ وَالْأَطْبَاءُ وَلَا يَسْعَنَا أَنْ نَهْمِلَ الدُورَ الَّذِي قَامَ بِهِ أَيْضًا النَّجَمُونَ الَّذِينَ يَعْدُهُمْ نَظَامِي عِروْضِي^(٥٣) «مِنْ رَكَائِزِ الْعَرْشِ الْأَرْبَعَةِ، وَمِنْ خَواصِّ الْمَلْكِ وَلَا غُنْيٌ لِلْمَلْكِ عَنْهُمْ». أَمَّا النَّجَمُونَ فَبِهِمْ «نَظَامُ الْأَمْرِ» فِي رَأْيِهِ.

لَمْ يَشْتَهِرْ إِلَّا عَدْدٌ قَلِيلٌ، نَسْبِيًّا، مِنَ النَّجَمِينَ النَّصَارَى.^(٥٤) وَنَجَدْ مِنْهُمْ وَاحِدًا فِي هَذَا التَّارِيخِ يَوْرِدُ عَنْهُ هَلَالُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الصَّابِيِّ (ت ١٠٥٦ / ٤٤٨) أَخْبَارًا كَثِيرَةً، أَنَّهُ أَبُو بَشَرَ يَحْسَنَ بْنُ سَهْلِ السَّدِيدِ، الْمُنْجَمُ الْيَعْقُوبِيُّ التَّكْرِيْتِيُّ الَّذِي كَانَ «كَثِيرُ الرَّحْلَةِ إِلَى بَغْدَادِ وَالْإِجْتِمَاعِ بِرَؤُسَهَا وَمُقَدَّمِي أَهْلِ الدُّولَةِ».^(٥٥) وَلَا يَكُنُّنَا التَّقْلِيلَ مِنْ دُورِهِ فِي حَمَايَةِ أَبْنَاءِ مَلِّتِهِ.

إِلَى جَانِبِ الْكِتَابِ وَالْأَطْبَاءِ وَالنَّجَمِينَ، كَانَ ثَمَّةُ فَرِيقٍ رَابِعٍ يَشَارِكُ فِي تَدْبِيرِ الْأَمْرِ: إِنَّهُمُ الشُّعَرَاءُ الَّذِينَ كَانُوا يَخْلُدُونَ أَسْمَاءَ الْمَدْوِحِينَ. فَلَا بُدَّ لِلْمَلْكِ مِنْ شَاعِرٍ جَيِّدٍ يَخْلُدُ ذَكْرَهُ وَيَرْوِي مَآثِرَهُ فِي دُواوِينِ الشِّعْرِ وَالْكِتَابِ الْأَخْرَى.^(٥٦) وَيَوْرِدُ نَظَامِي عِروْضِي لِوَائِحَةِ شُعَرَاءِ كُلِّ أَسْرَةِ حَاكِمَةٍ وَلَا سِيَّمَا الْبَوَّبِينَ وَالسَّلاجِقَةِ.^(٥٧) وَيَبْدُو أَنَّ لَا ذَكْرٌ لِأَحَدٍ مِنَ النَّصَارَى فِي هَذِهِ الْلَّوَائِحِ.

وَلَكِنْ لَا بُدَّ لِلْمُؤْرِخِ مِنْ سِيرِ الْمَصَادِرِ الْأَدِيَّةِ الْبَحْثَ وَإِنْ جَاءَ هَذَا السِّيرُ بِخَيْبَاتِ الْأَمْلِ فِي مَعْظَمِ الْأَحْيَانِ.^(٥٨) مِنْ ذَلِكَ أَنَّ بَعْضَ الْقَصَائِدِ تَحْتَوِي عَلَى إِشَارَاتٍ إِلَى عَصْرِهَا، كَالْحَرْبَ بَيْنَ الرُّومِ وَالْعَرَبِ فِي شِعْرِ الْمَنْتَبِيِّ^(٥٩) وَأَبِي تَمَّامٍ^(٦٠) وَالْبَحْتَرِيِّ^(٦١) وَأَبِي فَرَاسِ.^(٦٢) وَإِنْ دَرَاسَاتُ M. CANARD^(٦٣) حَوْلَ الْأَهْمَيَّةِ التَّارِيْخِيَّةِ لِهَذِهِ الْقَصَائِدِ لَجَدِيرَةٌ بِأَنْ يُقْتَدِيَ بِهَا فِي دراسَةِ شُعَرَاءِ آخَرِينَ. وَرَبِّيَا لَمْ يَصِلُّنَا اسْمُ بَعْضِ الْأَمْرَاءِ إِلَّا عَنْ طَرِيقِ قَصِيْدَةِ مَدْحُونَ نَظَمُهَا فِيهِ أَحَدُ الشُّعَرَاءِ.^(٦٤)

لَمْ يَبْقَ لَنَا مِنْ أَسْمَاءِ شُعَرَاءِ النَّصَارَى فِي تَلْكَ الْحَقْبَةِ إِلَّا اسْمُ شَاعِرٍ وَاحِدٍ، فِيهَا يَبْدُو، هُوَ عَوْنُ الرَّاهِبِ،^(٦٤) الْمُذَكُورُ قَبْلَ الْعَامِ ١٠٦١ / ٤٥٣.

أَخْيَرًا تَمَّنَّ الْجَاهِلِيَّ يَوْحَنَّا بْنُ الطَّرْغَالِ مِنَ الْعُودَةِ إِلَى بَغْدَادِ وَالْإِقْلِامَةِ بِدارِ الرُّومِ مِنْ بَعْدِمَا جَدَّدَتْ عَمَارَتَهَا. إِلَّا أَنَّهُ اُعْتَلَّ بَعْدَ سَتِينَ مِنْ عُودَتِهِ وَمَاتَ يَوْمَ

الأحد السادس من صيف ٤٤٩ / ١٠٥٧. عندئذٍ بدأت فترة من خلو الكرسي طويلاً. وفي تلك الفترة، أي سنة ٤٥٠ / ١٠٥٨، جرت محاولة جديدة لفرض القيود على الذميين. هذه المرة، كان السبب (أو الذريعة) معروفاً: وهو أنهم كانوا يشتبّهون في سلوكهم العلني بشكل يثير حفيظة المسلمين التشدّدين. ذلك لأنّ جماعة من هؤلاء، هم الهاشميون المعروفون «بأصحاب عبد الصمد»،^(٦٥) وقد صادفناهم من قبل، انتدباً مثلاً لهم هو ابن السّكّرة ليذكّر ابن مسلم، وزير الخليفة القائم، بالتزاماته «الشرعية» في هذا الشأن. فما كان من الوزير، الذي ساءه الطلب، إلّا أن نصح لرئيسِي ديوانه أبي علي بن فضلان اليهودي، الذي عرفناه، وابن الوصليا النصراوي (الذي ستكلّم عنه من بعد طويلاً بأن لا يحضر إلى الديوان، وأن يلزما داريهما، وبأن يعلمَا من والاهما من النصارى واليهود، من تجارة وصيارة وصناع بالإضراب عن العمل، إلّا أن الخليفة تدخلَ بعد مدة وأمر وزيره باستدعاء الذميين إلى العمل)،^(٦٦) ولم تستبق القبود، كما لاحظ جورج مقدسي، نظراً إلى قلة اهتمام الخليفة والسلطان وأعوانها بها.

أسلم بعض النصارى في خلافة القائم أيضًا. وقد عبر أبو العلاء المعري (ت ٤٤٩ / ١٠٥٧) معاصر القائم، عن أسباب إسلام هؤلاء.^(٦٧) وهكذا ما يقول فيهم:^(٦٨)

وليس ذلك من حبٌ لإسلامٍ
أو خاف ضربةٍ ماضيٍ الحَدُّ قلامٍ
للناظرين بأسوارٍ وغُلامٍ
قد أسلم الرجلُ النصارآن مرغبًا
وإنما رام عزًا في معيشته
أوشأه تزويجَ مثلَ الظبيِّ، مُعلمةٍ

لللحظة إشارة الشاعر إلى الخوف من السيف، فضلاً عن إشارته إلى المزايا الاجتماعية (المكانة وتزوج مسلمة حسناء). ربما كانت الاضطهادات الدامية قليلة، إلّا أنّ الشاعر لا يستبعد ذلك الاحتمال.

سبريشو زنبور

XXV تأثر انتخاب خلف ليونا بن الطرغال (ت. صيف ١٠٥٧) بسبب

صعود السلاجقة، أسياد الوقت الجدد. كان أبو العلاء أوجين أسقف النعيمانية ناطر كرسي الجثالة قد اختفى بعد ثلاث سنوات من النطارة، وذلك لدى دخول عسكر الخراسانية بغداد مع طغرل بك، ثم وجد بعد ذلك عارياً جريحاً. ثم كان هرب الخليفة إلى عانة والخطبة للفاطميين ببغداد. ولما استطاع ماري أسقف نفر والتيل، المجيء إلى القلية، كان أبناء الرعية قد شرعوا في تجديد عمارة الكنيسة، أمّا مقرّ الجاثليق فكان قد أفرغ مما كان فيه من آثار وخلافه.

توصّل العلمانيون من أصحاب الفنون آنذاك (سُنْرَى عن قليل من هم) إلى الحصول، من غير انتخاب، على توقيع الخليفة بتعيين سبريشوع زنبر،^(٧٠) مطران جنديسابور، جاثليقاً.

ولما عاد الخليفة القائم إلى بغداد، كان الجاثليق المعين في صحبته وأعيان النصارى. وقد امتنع الآباء المسيّمون عن الاعتراف بشرعية هذا الجاثليق الذي لم يتّخِب بحسب أصول القانون الكنسي، فأمرّهم السلطان بالامتثال. فامثلوا إذن، وتسّلّموا من الوزير أبي الفضل منصور بن أحمد بن دارست^(٧١) الإذن ب مباشرة السيامة، فسيّم الجاثليق في ٣ آب سنة ١٠٦١.

إن فصول تعيين سبريشوع، الجاثليق المفروض، بين سنتي ١٠٥٨ و ١٠٦١، لتسّيّح لنا التبّصر في الرصيد الذي لم يزل للعلمانيين النصارى لدى أصحاب السلطة في ذلك الوقت. كان أبرز هؤلاء النصارى يتحدرّون من أسر أصفهانية الأصل: وأوّلهم الطيب رجاء، وثانيهم أبو سعيد، الذي كان في رتبة عميد^(٧٢) والذي كانت داره على نهر المعّل، وثالثهم أبو علي منصور بن عيسى بن مار سرجيس، الذي نجده يقوم بالوساطات للجاثليق أو يصحّبه في زيارة الأكابر... من غير أن نستطيع (مع الأسف) أن نذكر المزيد عنهم.

لا يعرف الكثير عن جثالة سبريشوع التي دامت عشر سنوات وبضعة أشهر (١٠٦١ - ١٠٧٢). «... وعمّرت القلية في أيامه بالرّحل والآلة وقادت هيبة الجثالة بينها (?) على المطارنة والأساقفة والشعب».

وقد اختلف الجاثليق يوماً مع رعيته بسبب رئيس الشمامسة، ثم لّما تمكّن،

بعد ستين من الاستغناء عن خدماته استعراض عنه بكترين، كاتب للرسائل السريانية وكاتب للعربية. إلا أنَّ صاحب المتظم (٧٣) يذكر، في العام ٤٥٩/١٠٦٧، وب المناسبة بناء قبة جديدة على قبر أبي حنيفة ببغداد، أنَّ «ساجه وأبوابه غصب من بعض بيع سامراء». وإنَّ هذا لم يلفت الانتباه، لأنَّه من الإشارات المباشرة القليلة إلى وجود عدة كنائس بسامراء (حسب العبارة المستعملة هنا). وليس في هذا الأمر ما يدهش لأنَّنا قد نبهنا لدى الكلام عن عصر المتوكل إلى وجود قساوسة وشمامسة بالمدينة فضلاً عن إقامة الجاثليق فيها فترة من الزمن، ولا نعلم باسم أي القديسين كانت هذه الكنائس، كما لا نعلم هل كان بالمدينة طوائف أخرى غير الساطرة أم لا.

العلاقات بين الطوائف النصرانية

وَقَعَتْ فِي رَبِيعِ الْآخِرِ ٤٦١ / شَبَاتِ ١٠٦٩، بَيْنَ جَاثِلِيقِ النَّسَاطِرَةِ وَبَيْنَ يَعَاكِبَةِ بَغْدَادِ خَصْوَمَةِ كَانَ لَهَا مَا بَعْدُهَا فِي الْمَدِينَةِ، عَلَى مَا يَظْهُرُ، بَدْلِيلٌ أَنَّ رَجُلًا مُسْلِمًا اسْمُهُ أَبُو عَلِيِّ إِبْنِ الْبَنَى (ت ٤٧١ - ١٠٧٨ - ١٠٧٩) يَأْتِي عَلَى ذِكْرِهِ فِي «يَوْمَيَّاتِهِ».^(٧٤)

أما سبب الخصومة فهو أن طبيباً نسطوريًا، يدعى أبو غالب، زوج ابنته من ابن رجل من العيادة يدعى أبو طاهر البلدي، (من بلد إلى الغرب من الموصل) وذلك خلافاً لتقاليد العيادة في علاقتهم بالنساطرة.

إن الخطة التي اتبّعها كُلّ من الفريقين في هذه القضية بالذات جديرة بالاهتمام. لما استدعي القس (٧٥) هبة توما المسؤول عن الطائفة اليعقوبية ليحاسب أمام الجاثليق عن هذه المخالفة قال: «نحن رئيسان لشعبين وبيعتين» أي أنّ كُلّ واحد ممّا سيدّ على جماعته. ثمّ لما أقرّ بأنّه ربّما بدرت منه مخالفة أضاف أنه «إذا كان متعدّياً في ذلك، وأخذ ما ليس له بحق فالذي حمله على ذلك جهله وسوء طباعه، لأنّه كان رجلاً فظّاً تكريبياً وأصيغى [لرجل] قورلي المذهب» أي ملكاني في أرجح الظنّ. إلاّ أنّ سبب الشوّع لم يبرّض عن الحجّة بل أراد اعتذاراً رسمياً علينا. ومن أجل التوصّل إلى ما أراد دعا أبناء رعيته إلى الإضراب العام: فلم يذهب الكتاب

إلى الدواوين ولا الأطباء إلى البيمارستانات ولا التجار إلى المتاجر، الخ، وذلك ليستدرج السلطات الإسلامية إلى التدخل.

أما الطبيب أبو غالب السطوري والد الفتاة، فقد حرمه الجاثليق وأحل سلطان المسلمين مصادرة أمواله.

انهمكت الدواوين المختصة، فاستخرجت المنشير التي كتبها المقندر لإبراهيم الثالث سنة ٩١٣، والقادر ليوانيس سنة ١٠٠٣ - ١٠٠٤، وأخرج توقيع مماثل لها إلى سريشوع «يضمن دخول زعيم اليعاقبة والملكانية في طاعته والاتجار له».

أما المحرّض على المخالف، الرجل الملکاني «الجاهل المُرطِّيق المتعدي طوره» فقد أمر بالمثل بين يدي الجاثليق، مصحوبًا بزوجته ورفاقه اليعاقبة، لتقديم الاعتذار. وجرى الاعتذار العلني في بعض أيام الصوم الكبير: اجتمع زعماء النساطرة جميعاً ومعهم «المشايخ المؤمنون» في مقرّ الجثالة ومثل الجنابة في حضرة الحبر، فألقى عليهم سريشوع عظةً أعاد فيها الأمور إلى نصابها.

أما هبة القسّ العقوبى المسكين الذي عقد القرآن، فقد أمضى الليل تحت الحراسة في بيت مار ماري بدار الروم من بعدما جاؤوا له بشمعة وطعم، فلم يأكل بل قال بتواضع: «لا طريق إلىأخذ الغذاء دون أن يقع الرضا عنّي». وفي الغد من ذلك اليوم أدخل إلى حضرة الجاثليق واعتذر فقبل منه العذر وأذن له بالغادرة.

ولما خرج من قلية الجاثليق قاصداً كنيسته التي كانت، كما هو معلوم، على مقرّبة من ذلك الموضع قبض عليه رجال الأمير ايتکين السليماني.^(٧٦) ففضل الجاثليق سريشوع وقصد دار هذا الأمير وحصل منه على أمر بالإفراج عن القسّ المذلول.^(٧٧)

ويلوح أنّ ماري المؤرّخ يجد علاقة سببية بين انزعاج الجاثليق من هذه القضية وبين الفالج الذي ألم به بُعيد ذلك. والحقيقة أنّ الحبر قد تعرض لصدمة أخرى مؤرّخة بدقة في ١٠ رجب ٤٦١ / ٥ أيار ١٠٦٩، نجد خبراً في يوميات ابن البنا.^(٧٨) ذلك أنّه بينما كان يجتاز بموضع يعرف بالتوثة هوجم، من دون أن يذكر مهاجموه، وألقى عن بغلته وأوشك أن يُقتل. إلا أنّ الحاجب أنفذ الأمر «بالكفّ

عنه»، وهذا يوحى بأنه كان محتجزاً في موضع ما قبل أن يُقتل. وقد نُهيت بعض دور النصارى في عملية السطو هذه.

ظل سبرسحور زنبور مدة شهرين يعاني من الفالج النصفي ثم ظل شهرین آخرين «باطلاً» إلا أنه يحس ولا يمكنه الكلام إلى أن توفي في رجب ٤٦٤ / ١٧ نيسان ١٠٧٢، ثم انقضى عامان وسبعة أشهر قبل سيامة خلفه.

عبد ايشوع بن العارض

كان أبو الفضل عبد ايشوع بن العارض الموصلي،^(٧٨) مطران نصبيين، غائباً لما انتخبه أربعة أساقفة والتمسوا من الخليفة الإذن بسيامته. تأخر الجواب عن هذا الالتماس كما أنّ الحايثيق المتتخب لم يتمكّن من الحضور لأنّه كان ببيافارقين وكانت المدينة تحت حصار الأتراك.

وفي الفترة التي انقضت بين الانتخاب والرسامة، زادت دجلة زيادة عظيمة في شباط ١٠٧٤، فانخرقت إحدى حافتي نهر القرج بباب الشهاسية فوق دار الروم. وانضافت إلى ذلك أمطار جارفة حتى « جاء الماء إلى المنازل من فوق» وصعد، على ما ترويه الأخبار، من أبواب الدور والأبار والبلاليع. فهلك خلق كثير وانهدت دور كثيرة. « ومن عجيب ما يحكي أن الناس، في العام الماضي، كانوا قد أنكروا كثرة المغنيات والخمور» التي تلكلأت السلطات في قطع أسبابها على الرغم من شكوى الصالحين الذين لازموا الدُّعاء إلى الله بكشف البلاء فأجابهم بإغراق الم Harmatations.

وقد أكثر النساطرة من الابتهالات والسهير في طلب شفاعة السيدة مريم العذراء، شفيعة كنيستهم. أمّا الخليفة الذي رأى الماء يصعد تحت سريره، والذي اضطرّ إلى مغادرة مخدعه على ظهر بعض الخدم فقد قام « يتضرّع ويصلّي»، وعليه البردة وبيده القضيب». وأمّا قلية الحايثيق فلم تستحق، فيما يبدو، العقوبة السماوية لأنّ الماء توقف على بُعد متى ذراع منها.^(٧٩) جمع البلاء الأسد والثور كأخوين في الجزيارات الناجية، على قول ابن العربي. ويجوز لنا الظنّ أنّ طوائف بغداد المتخالفة والمتحاربة عادة قد تهادنت لمدافعة البلاء.

أما الجاثليق المستحب فقد «خرج الإذن الشريف بيديّ محمد بن علي المكّي أبي الفضل إلى العزيز أبي نصر محمد بن جُهير الملقب بـ«فخر الدولة»، بأن يتوجّه إلى المدائن للرسامة. وفي الوقت نفسه، أمر العلاء بن الحسن بن موصلايا بإنشاء عهد الجاثليق، ففعل في ٢٨ ربيع الأول ٤٦٧ / ٢١ تشرين الثاني ١٠٧٤. وسوف تتفحّص عن قليل مضمون أمثال هذا العهد.

بعد الرسامة، وفي كانون الثاني ١٠٧٥، فيها ييدو، أصعد عبديشوع إلى بغداد في موكب شرف يقوده سعد الله جوهر، ابن والي بغداد.

وبعد ثلاثة أشهر من رسامة الجاثليق، على قول ماري، أبي في شعبان ٤٦٧ / ١٠٧٥ (٨١) توفّي الخليفة القائم عن ٧٥ سنة. وقد اختصر ابن العربي تأبيه بجملة واحدة إذ قال إنه «كان أصفر اللون بسبب إكثاره من أكل الباليون». (٨٢)

عهد الجاثليق

كان زعماء ملة النصارى يدعون أنه لم يزل في أيديهم عهود ذمة (٨٣) منذ أوائل الإسلام. وقد رأينا سابقاً أنَّ العهد (٨٤) الذي كتب لإبراهيم الثالث سنة ٩١٣ يحدّد علاقة تراتبية جديدة فيها ييدو، بين طوائف النصرانية: ففي نصه أنَّ جاثليق الساطرة مقدّم على غيره من الملكانية واليعاقبة في دار الإسلام.

لا أود العودة إلى ما أُقرَ للجاثليق من حقوق على طائفته. فكل مرّة تقتطف نصوص من هذه العهود ويستشهد بها نجد أن المقتطفات «اللائقة» هي التي يُلفت إليها الانتباه (٨٥) عادة. ولكن هل تعبر هذه الجمل المتنزعّة من سياقها (والتي يستعملها النصارى المحدثون ليشعروا بالأمان في علاقتهم بال المسلمين، ويذكّروا هؤلاء بلطف أجدادهم) عن معنى الوثيقة كلّها بدقة؟

لنفحص النموذج الذي وضعه القلقشندى بين يديّ كتاب المستقبل. (٨٦) إنه النصّ عينه الذي كتبه عبديشوع بن العارض الكاتب النصراني العلاء بن موصلايا بأمر من الخليفة القائم في ٢٨ ربيع الأول ٤٦٧ / ٢١ تشرين الثاني ١٠٧٤.

يهُد للنصّ بثلاث فقرات من النثر المسجّع تبدأ كلّ منها بالحمدلة. يحمد الله

أولاً لذاته ثم يحمد على الإسلام الذي «اختاره دينًا وارتضاه، وعلى إرساله رسوله محمدًا بالحق» وأخيراً على الخليفة الذي استخلصه أميرًا للمؤمنين وأعزه بالإمامية على العالمين.

ويلاحظ في تضاعيف النص أيضًا تحمل الجاثليق المسؤولية عن مراعاة أهل ملته «الشروط المعتادة» والرسوم الشرعية عملاً بما سنه «الأئمة الماضون والخلفاء الراشدون.. مع [أمثاله] من الجثالقة الذين سبقوا... وإذا لم يشا هؤلاء القيام بهذه المهام فمامهم خيار آخر: إنه اعتناق الإسلام.

بعد ذلك يذكر الجاثليق بوجوب تسديد الجزية مرة كل سنة. إنه إذن شرعة تكافء الواجبات فيها الحقوق وتتفوّف عليها. إنه وثيقة تسامح، إلى أن تكون تشبيتاً لوضع التبعية هي أقرب منها إلى الاعتراف الرسمي.^(٨٧) ومع تزايد الميل إلى التشدد في المجتمع الإسلامي، تزايد يروز هذه السمة. فمن ذلك أن القلقشندى يوضح، قبل إبراد هذا النموذج، المرامي التي كان يرمي إليها النص في أوائل القرن الخامس عشر وبخاصة الفقرات التمهيدية منه: «ثم يُقال أما بعد فالحمد لله ويُؤتى فيه بتحميده أو ثلات تحميدات أن قصد المبالغة في قهر أهل الذمة بدخولهم تحت ذمة الإسلام وانقيادهم إليه».

بقية النص معروفة وتقسم إلى ثلاثة رؤوس: اختصاص أمير المؤمنين رعياه، ومنهم أهل ذمته، بالعناية والحماية، ثم كيف أنهى إلى الخليفة طلب الإذن بترتيب فلان جاثليقاً، وأخيراً تأيي الصانع بالمواظبة على الطاعة وتجنب التقصير.

في «المؤلفين الذميين»

على هامش نهاية حكم القائم، نشير إلى خبر قاتمٍ يرد من أطراف المملكة سنة ١٠٧٥. ففي الجواب على رسالة اخرسطودولو بطريق الإسكندرية، يردد يوحنا بن شوشان بطريق اليعاقبة أصداء شكوى مكتبه قائلاً: «أصابنا الغمُّ الكثير من كثرة ضيق التجارب. وكل ذلك من كثرة خطيانا، تسلط العدو علينا وصار يحاربنا بأقوى المحاربة. وقولكم على ما أصاب رعيتكم الأبوية كذلك رعيتنا

المسيحية. طردونا وإياكم عن المساكن الأرضية. فنقول عرايا خلقنا في البرية كذلك نخرج منها كالكلمة النبوية والبشرة الإنجيلية الرسولية، لأن ماذا هو ربحنا بهذا العالم نحن متعلّقون بالحقيقة... من الآن ليس همنا على الغنيات بل على غلق الكنائس المضيئات. فآه لو خرجنا كما عبرنا فكان يحيط علومكم الأبوية أن ضرباتنا كلّها سوّيّة. والمؤمنون في كلّ النواحي انتهوا وقتلوا وأسروا كلّ هذا من كثرة ذنوبنا».^(٨٨)

هل يجب اتهام البطريرك وغيره من «المؤلفين الذميين» بالليل عادة «إلى التعبير على نحو لا يخلو من المبالغة عن آلام وأمال بني ملتهم؟» هل يجب لذلك اتهامهم «بالانحياز؟»^(٨٩) من الجليّ، كما يلاحظ فاروق عمر،^(٩٠) أنّ هؤلاء المؤلفين لم يكن في مقدورهم أن ينظروا إلى تاريخ دولة الإسلام إلاً من وجهة مبادلة لتلك التي كان يتظر منها المؤلفون المسلمين». ولكن هل يجب لذلك أن نحطّ، بصورة آلية، من قيمة شهاداتهم، علمًا بأن ذلك التاريخ كان حياتهم؟

على أيّة حال لا أستطيع أن أقبل من J.B. Segal حكمه القطعي إذ يقول: «لا يمكننا الاعتماد على رواية هؤلاء المؤرّخين (السريان) لأحداث عصرهم الجليّ في الحقبة الإسلامية. فقد كانوا يعيشون الحياة المنعزلة التي تعيشها طائفة أقلّية يمحجها عن قصور الملوك والأمراء شعور بالدونية السياسية، حياة جمهور مشاهدين متشلّ وغير مهمّ بمجرى الأحداث (بل خائب الرجاء منها)...»^(٩١) إن كلّ ما سقناه عن الكتاب والأطباء النصارى في قصور الكبار، وعن لقاءات أحبار النصارى «الملوك والأمراء» يدحض هذا الزعم.^(٩٢)

الحواشي

(١) تاريخ الزمان، ص ٨٤.

(٢) الكامل، ج ٩، ص ٤١٨ - ٤٢١ . - يعتبر هنري لاوست في مقالته Les agitations

الفترة المتداة من بداية خلافة القادر ٩٩١/٣٨١ حتى موت ملکشاه religieuses

(٣) «فترة انتقالية سواء على الصعيد الديني أو السياسي». انظر للكاتب تاريخاً

محتصراً للفتن في كتابه عن ابن بطّة العكبري، الحاشية ٢١٣.

- (٣) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٢٨٠.
- (٤) ابن الجوزي، المنتظم، ج ٨، ص ٩٦ - ٩٧.
- (٥) الماوردي، تحقيق ENGER، ص ٤٢٨ . - يلفت متى النظر، ج ١، ص ١٠٤ ، إلى أن البابا أينوسنت الثالث وقف في العام ١٢٠٥ موقفاً مشابهاً في شأن حفل لليهود بمدينة سانس كان يعلو على كنيسة مجاورة.
- (٦) عن استمرار القوانين المتعلقة ببناء الكنائس في عهد العثمانيين وفي القانون الإداري المصري، انظر (Le lien (Le Caire) XVII (1952) et XVIII (1953) par Joseph CASSIS).
- (٧) الكامل، ج ٩، ص ٤٢٦.
- (٨) ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ٨٥.
- (٩) الكامل، ج ٩، ص ٤٣٢.
- (١٠) المصدر نفسه، ص ٤٣٩ . - في هذه السنة عينها قدم البطريرك السرياني، ديونيسيوس، هارياً من بلاد «المراطقة» أي الملوكانيين البيزنطيين ليسكن «بلاد المسلمين» في آمد (ديار بكر) أولاً ثم في دير مار حنانيا بماردين، الرهاوي المجهول، ص ٢٦.
- (١١) الكامل، ج ٩، ص ٤٤٠.
- (١٢) المصدر نفسه، ص ٤٣٧.
- (١٣) المصدر نفسه، ص ٤٤٣.
- (١٤) المصدر نفسه، ص ٤٤٦.
- (١٥) ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ٨٦.
- (١٦) الكامل، ج ٩، ص ٤٧٣.

Islamochristiana, 2, (1976), p. 202-203. Edition de M. HAYEK, Ammar al-Basri, (١٧)

Apologie et controverses, Coll. Recherches, Beyrouth, 1978.

- (١٨) ابن الجوزي، ج ٨، ص ١٦.
- (١٩) *Islamochristiana*, 2, (1976), p. 203-208. (٢٠) ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ٩٤.
- (٢١) الكامل، ج ٩، ص ٥١١.
- (٢٢) المصدر نفسه، ج ٩، ص ٥١٥.
- (٢٣) المصدر نفسه، ج ٩، ص ٥١٦.
- (٢٤) E.I.², I, p. 135-136, par H. BOWEN, s.v.
- (٢٥) ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ٩٥ - ٩٦.
- (٢٦) الكامل، ج ٩، ص ٥٤١ - ٥٤٢، ٥٥٢. ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ٩٦.
- (٢٧) *Islamochristiana*, 3 (1977), p. 257-284 ، يسميه صليباً، ص ٩٩ : «القديس».
- (٢٨) عن الناحية اللاهوتية انظر دراسة المطران عمانوئيل كريم دلي في فهرس المراجع.

- (٢٩) سمير خليل في، Mélanges de l'Université Saint Joseph (Beyrouth) XLIX (1975-1976)، Mélanges offerts au P. Henri Fleisch, vol II, p. 617-650، ج ٢٠، ١٩٢٢)، ص ٣٦٦.
- (٣٠) أنظر نصائحه لمعرفة شراء العبيد في رسالته في شراء الرقيق وتقليل العبيد»، تحقيق عبد السلام هارون في نوادر المخطوطات، ج ٤، القاهرة، ١٩٥٤ . - يذكر أسماء بن منقد (١٠٩٦ - ١١٨٨) في كتاب الاعتبار (تحقيق فيليب حبي، برمنتون، ١٩٣٠) ص ١٨٣ - ١٨٥ ، بعضًا من «عجائبه» بحلب.
- (٣١) GICAL, II, p. 191-194 ، ابن القسطي، ص ١٩٢ - ٢٠٨ ، ابن أبي أصيحة، ص ٣٢٥ - ٣٢٨.
- (٣٢) ونجد رجلاً رومياً، هو ابن اسطفانوس، يأتي إلى العراق ليدرس الأدب والفلسفة، شيخو، شعراء، ص ٣٤٢ - ٣٤٣ .
- (٣٣) ابن القسطي، ص ١٩٣ - ١٩٥ ، ويدرك سعيد بن شهاب هذه الرحلة، شيخو، شعراء، ص ٢٧٨ .
- (٣٤) المرجع نفسه، ص ٢٦٦ - ٢٧٧ و ٣٩٢ .
- J. SCHACHT, dans E.I.², II, p. 371, s.v. (٣٥)
- (٣٦) سمير خليل في Islamochristiana, 3, (1977), no. 15, p. 276-277
- (٣٧) عبد الرقيب يوسف، المرجع المذكور، ص ١١ - ١٤ . وللكاتب نفسه: عبد الله بن بختشوع وكتابه «منافع الحيوان» مجلة مجمع اللغة السريانية، ج ٣ (١٩٧٧) ص ٣٣١ - ٣٤٩ .
- (٣٨) ماري، ص ١١٩ - ١٢١ ، صليباً، ص ٩٩ - ١٠٠ ، ابن العربي، ج ٢ ، العمود ٣٠٠ .
- (٣٩) الكامل، ج ٩ ، ص ٥٦١ .
- (٤٠) المصدر نفسه، ص ٥٩٧ - ٥٩٨ .
- (٤١) الذي نراه، في ماري، يناصر رئيس شهامة من المدانيين ضدّ نصارى آخرين من العباديين .
- (٤٢) وقد أسلم في رمضان ٤٤٦ / ١٠٥٤ هـ بأمر الوزير ابن المسلم . ولكنه عذّب مع ذلك في الشهر التالي بأمر من الكندي ووزير طغل بك، مرآة الزمان، الورقة ١٤ ب - ١٧ ب. المتظم، ج ٨، ص ١٧٣ ، مذكور في G. MAKDISI, Ibn'Aqil p.95
- (٤٣) تاريخ الزمان، ص ٩٩ .
- (٤٤) ماري، في الموضع المذكور، الكامل، ج ٩ ، ص ٦٠٧ - ٦٠٨ .
- (٤٥) الكامل، الموضع نفسه . - وقد قاد العملية الشريف أبو علي بن سكرة، أحد أقرباء الخليفة وأحد أشهر أنصار الحنابلة ببغداد . وقد آزره على ذلك أتباع الداعية السنّي المعروف عبد الصمد المتوفّ سنة ٣٩٧ ؛ Henri LAOUST, Mawardi, p. 88

(٤٦) الكامل، ج ٩، ص ١٤٤، كان نائب وزير الخليفة منذ سنة ٤٣٧. المصدر نفسه، ص ٥٣٠.

CAHEN, *Baghdad au temps de ses derniers califes*, p. 293. (٤٧)
E.I.¹, II, p. 683, par K.V. ZETTERSTEN, s.v. al-Ka'īm (٤٨)

(٤٩) ابن العربي، *تاريخ الزمان*، ص ١٠٣.

(٥٠) المتظم، ج ٨، ص ١٧١. البداية، ج ١٢، ص ٦٩. يؤكد نظام الملك، ص ٣٧١، أنه لم يكن في عهود العمال التي كتبها طغل بك وخليفة آل أرسلان، أي حتى ٤٦٣/١٠٧٢، أو سهام نصاري، ولا في عهود ملوك غزنة محمود ومسعود، أي للفترة ٣٨٨ - ٤٣٢ - ٩٩٨. ١٠٤٠

Ibn 'Aqil, p. 154-157 (٥١)

(٥٢) يلحظ P. RONDOT، ص ١٣٣ «أن الرأي العام الذي غالباً ما يُظن أنه معادٌ للإسلام، كان يميل، أحياناً، ما يريد على السلطة التي كان جشعها أو أنانيتها ينسجهان تماماً مع استخدام النصارى».

(٥٣) المصدر المذكور، ص ٣٣.

(٥٤) لا نستطيع التاريخ للكاتب النصري علي بن علي الذي يتعرض البيروني على نظرياته الفلكية (الأثار، ص ٢٦٩)، أي قبل العام ١٠٠٠ - عن الفلكيين النصارى، انظر -

Bulletin d'a-
rabe chrétien (Louvain) V. 1-3 (1981), p. 39, 182-186

(٥٥) ابن القسطنطيني، ص ٢٣٩، وقد قتله علي بن منيع قرواش العقيلي أمير الموصل، أي قبل سنة ١٠٥٢.

(٥٦) نظامي عروضي، ص ٣٥.

(٥٧) المصدر نفسه، ص ٣٦.

(٥٨) انظر أطروحة نشأت الخطيب: Etude historique de l'époque abbaside à travers le Kitab
al-Aghani, Paris — Sorbonne, 1975.

(٥٩) في: Byzance et les Arabes, II, Bruxelles, 1950, p. 304-348

(٦٠) ABDUL-HAQ, Abu Tamam, p. 26-41, et Historical Poems, cil

(٦١) Byzance et les Arabes, I, 1935, Appendix I, p. 397-408.

(٦٢) المرجع نفسه، ج ٢، ص ٣٤٩ - ٣٧٠.

(٦٣) انظر مثال ذلك في نظامي عروضي، ص ٨٩. وإن الوهم ليذهب إلى حكاية الغراب والشعلب عندما نقرأ الصيغة المتكلفة التي كانت تستعمل في مدح أمراء أجلاف لا يفهمنون نصف ما يقال لهم، في أغلبظن. فمن ذلك أن أميراً تركياً من أمراء الموصل اسمه زين الدين أجاب، حوالي العام ١١٥٠، شواعراً امتدحه، فقال: «إني لم أفهم ما قلت ولكني عرفت أنك تطلب شيئاً ثم أمر له بصلة»، ابن العربي، *تاريخ الزمان*، ص ١٨٠. يقارن

(٦٤) في كتابه G.WIET *Soieries Persanes* ، ص ٢٠٢ ، دور الشعراء المذاهين بدور الصحافة اليوم.

(٦٥) شيخو، شعراء، ص ٢٧٨ - ٢٧٩، ٣٩٣.

(٦٦) المتظم، ج ٨، ص ٢٧٢.

(٦٧) المتظم، ج ٨، ص ١٩٠.

(٦٨) وهو يتكلّم عن مشاهداته في ناحية معرة النعسان بالشام (بين حلب وحماء) في ظلّ بيـن مرداـس حـكـام الـوقـتـ، ويـلوـحـ لـيـ أـنـ لـيـسـ فـيـ تـعـيمـ حـكـمـهـ تعـسـفـاـ. ولاـ بـدـ لـنـاـ مـنـ أـنـ تـذـكـرـ أـنـ أـعـمـىـ الـمـعـرـةـ كـانـ يـزـدـرـيـ تـفـاقـ أـهـلـ مـلـتـهـ أـيـضاـ. عنـ النـصـرـاتـيـ وـالـنـصـارـيـ فـيـ أـعـمـالـ الـمـعـرـىـ، أـنـظـرـ الجـنـديـ، صـ ١٩٧ـ، ١٤١٠ـ، ١٤١٦ـ. عنـ لـقـاءـ الـمـعـرـىـ رـاهـبـاـ بـدـيرـ الـفـارـوسـ بـالـقـرـبـ مـنـ الـلـادـقـيـةـ، اـنـظـرـ *Bibliographic critique* بـقـلـمـ مـصـطـفـيـ سـالـمـ فـيـ B.E.O. XXII (1969), p. 133-204, et XXIII (1970), p. 197-279, no. 53, 88, 489 والـرـقـمـ ١٥٩ـ، عنـ مـوـقـفـ الـمـعـرـىـ مـنـ الـأـدـيـانـ كـلـهـاـ. وـنـجـدـ عـلـىـ عـكـسـ مـنـ ذـلـكـ رـجـلـ مـسـلـمـ يـتـنـصـرـ مـنـ أـجـلـ فـتـاةـ روـمـيـةـ بـصـقـتـ فـيـ وـجـهـهـ، الـقـلـوـيـ، كـتـابـ حـكـاـيـاتـ وـغـرـائـبـ تـحـقـيقـ LEESـ، كـلـكـتاـ، ١٨٥٦ـ، الـحـكاـيـةـ رقمـ ٢٠٥ـ، صـ ٢٠٥ـ.

(٦٩) اللزوميات، دار صادر، بيـرـوـتـ، ١٩٦١ـ، جـ ٢ـ، صـ ٤٥٧ـ.

(٧٠) وإنـاـ لـذـكـرـ أـسـبـابـ اـعـتـنـاقـ الـإـسـلـامـ الـيـ عـدـهـاـ حـنـينـ بـنـ إـسـحـقـ، وـلـكـنـ الشـاعـرـ هـنـاـ مـسـلـمـ كـعـلـيـ بـنـ رـبـيـ الـذـيـ أـسـلـمـ وـأـلـحـ، هوـ أـيـضاـ، إـلـىـ أـسـبـابـ مـائـلـةـ.

(٧١) ماريـ، صـ ١٢١ـ - ١٢٦ـ. صـلـيـاـ، صـ ١٠٠ـ - ١٠١ـ. ابنـ العـبـريـ، جـ ٢ـ، العـمـودـ ٣٠٢ـ.

(٧٢) يـصـحـحـ الـاسـمـ فـيـ مـارـيـ، بـتـحـقـيقـ جـيـسـمـونـدـيـ، الـذـيـ يـضـعـ كـارـسـتـ. كـانـ دـارـسـتـ قـدـ وـرـ زـرـ مـنـ سـنـةـ ٤٥٣ـ / ١٠٦١ـ حـتـىـ وـفـاتـهـ سـنـةـ ٤٦٨ـ / ١٠٧٥ـ - ١٠٧٦ـ، الـكـامـلـ، جـ ١٠ـ، صـ ١٤ـ، ١٠١ـ C.E. BOSWORTH E.I.², Supplément p. 384 بـقـلـمـ يـحـبـ أـنـ يـقـرـأـ الـقـيـفـيـ بـدـلـاـ مـنـ الـقـانـيـ فـيـ مـارـيـ صـ ١٢٣ـ، سـ ٣ـ وـذـلـكـ حـسـبـ الـكـامـلـ، جـ ١٠ـ، صـ ٢٧ـ، ٢٥ـ.

(٧٣) راجـعـ CAHENـ، E.I.²ـ، Iـ، Pـ. 446ـ، السـلـجوـقـيـ، مجلـةـ سـوـمـرـ، (بغـدـادـ) ٢٠ـ (١٩٦٤ـ)، صـ ٢٠٩ـ - ٢٢٦ـ.

(٧٤) جـ ٨ـ، صـ ٢٤٥ـ - ٢٤٦ـ. وـيـتـقـدـ ابنـ عـقـيلـ بـنـ الـقـبـةـ لـاـ عـلـىـ ظـلـمـهـمـ فـحـسـبـ بلـ عـلـىـ نـفـاقـهـمـ وـرـيـاثـهـمـ: «ـفـيـ عـنـدـ هـؤـلـاءـ مـنـ الـدـيـنـ خـبـرـ»ـ، عـلـىـ قـوـلـهـ.

(٧٥) جـورـجـ المـقـدـسـيـ، ابنـ الـبـنـاـ، جـ ١٩ـ، صـ ٤٣ـ.

(٧٦) لمـ يـكـنـ قـدـ صـارـ أـسـقـفـاـ بـعـدـ. وـيـسـمـيـهـ مـارـيـ زـعـيـماـ. وـالـأـغـلـبـ أـنـ يـسـمـيـ رـئـيـسـاـ لـوـ كـانـ مـنـ أـعـيـانـ الـعـلـمـانـيـنـ.

(٧٧) عـاملـ بـغـدـادـ مـنـ قـبـلـ أـلـبـ أـرـسـلـانـ وـبـنـتـ الـخـلـيـفـةـ مـنـ ٤٥٦ـ / ١٠٦٤ـ إـلـىـ رـبـيعـ الـأـوـلـ سـنـةـ ٤٦٤ـ / آـخـرـ ١٠٧١ـ. الـكـامـلـ، جـ ١٠ـ، صـ ٣٥ـ، ٧٠ـ، إـلـخـ. يـصـحـحـ الـاسـمـ فـيـ مـارـيـ صـ ١٢٦ـ سـ ٩ـ بـتـحـقـيقـ جـيـسـمـونـدـيـ الـذـيـ يـضـعـ السـلـمـانـيـ. وـكـذـلـكـ فـقـدـ كـانـتـ وـظـيـفـةـ هـذـاـ الـأـمـيرـ تـسـمـيـ الشـحـنةـ لـاـ الشـحـفةـ.

(٧٧) ص ٢٨٩.

(٧٨) ماري، ص ١٢٦ - ١٢٧ ، صليبا، ص ١٠١ ، ابن العربي، ج ٢ ، العمود ٣٠٢ - ٣١٠ .

(٧٩) الكامل، ج ١٠ ، ص ٩١ .

(٨٠) ماري، ص ١٢٧ - ١٢٨ ، صليبا، ص ١٠١ . ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ١١٤ .

(٨١) الكامل، ج ١٠ ، ص ٩٠ - ٩١ ؛ أحمد سوسة، فيضانات بغداد، ج ١ ، ص ٢٩٩ - ٣٠٠ .

عن نهر الفرج، المصدر نفسه، ص ٢٩٩ ، الحاشية رقم ٢ .

(٨٢) الكامل، ج ١٠ ، ص ٩٥ .

(٨٣) تاريخ الزمان، ص ١١٤ - ١١٥ ، وبين فيها أحكام النجوم للليلة موته .

(٨٤) مراجعة نقدية بقلم الأب لويس شيخو في مجلة الشرق، ١٢ (١٩٥٩)، ص ٦٠٩ - ٦١٨ .

A.S. TRITTON, *The Caliphs*, cit; A. FATTAL, *Le statut légal*, cit.; AS- ٦٧٤ - ٦٨٢

SEMANI, *Bibliotheca Orientalis*, III, II, p. 95.

(٨٤) إلى متى يرقى أول عهد من هذا القبيل؟ أنظر مقالتي Rüm à l'Est de l'Euphrate ص ٣٨٩ - ٣٩٠ مع مصادر.

(٨٥) الأب شيخو مثلاً في شعراء، ص ٢٨٧ - ٢٨٨ ، يستشهد «بابن ماري» (كذا). مقطفات من عهد عبد يشوع الثالث في Baghdad Observer, July 19th, 1972

(٨٦) صبح الأعشى، ج ١٠ ، ص ٢٩٤ - ٢٩٩ ، الذي يتباح تصحيف تحقيق جيسموندي لكتاب ماري ص ١٣٣ - ١٣٧ . وانظر تصحيحات نيفيتوس أدلي: P.O.C. I (1951) p. 206-208

(٨٧) يروي ابن عبد الحكم (أبو محمد عبدالله) في كتاب فتوح مصر وأخبارها، المذكور في كتاب جاك تاجر، ص ٥٠ ، رد المقوص (البطريقي قورش؟) على مواطنيه المصريين «نعم تكونون عبيداً مسلطين في بلادكم آمنين على أنفسكم وأموالكم وذراريكم».

(٨٨) رسالة البطريقي أنسا يوحنا بن شوشان، النص العربي والترجمة الفرنسية، لأنطوان خاطر في

Bulletin de la société d'archéologie Copte, XXII, (1974-75), p. 46.

(٨٩) يلاحظ أن النص المذكور هنا هو نص رسالة غير معدة للنشر.

(٩٠) The Abbassid Caliphate, p. 48-49

(٩١) Syriac Chronicles, p. 251

(٩٢) ومن بين المآخذ التي يأخذها فاروق عمر على «المؤلفين الذميين» ما يسميه «بغموض الأحداث»، ولكن هل هذا الغموض مقتصر عليهم؟ كم من الروايات المتباينة للواقعة نفسها نجد اليوم بصرف النظر عن ديانة المؤذخين؟ وأنا بعد هذا أتفق فاروق عمر كل المواجهة على «تحريف الأسماء» وأرى أن ذلك التحريف يعزى إلى قواعد الإملاء السريانية أو المتحدرة من أصل سرياني. ويجدر بنا أن نتوقف أمام خاتمة هذه الفقرة للمؤلف نفسه إذ يقول «إن روایاتهم تستحق الاعتبار إما من حيث هي مكملة لغيرها أو من حيث تتيح لنا معلومات جديدة عن بلداتهم بخاصة أو عن طائفتهم».

٢٧ - المقتدي (٤٦٧ - ٤٨٧ / ١٠٧٥ - ١٠٩٤)

لم يحكم عبدالله المقتدي بأمر الله^(١)، حفيد القائم، حكمًا فعلياً أكثر من أسلافه. فالسيد الحقيقي المطاع كان السلطان السلاجوقى التركى ملکشاه (ت ٤٨٥ / تشرين الثاني ١٠٩٢)، الذى أخذ لقب «مولى العرب والعجم»،^(٢) ثم بركيارق ابنه.

إلى جانب الخليفة نجد الطبيب النصراني أبي الحسن سعيد بن هبة الله بن الحسين^(٣) الذى خدم في البيهارستان العضدي وصنف كتاباً في الطب. وقد طبّ الخليفة التالي المستظاهر بالله، ومات سنة ٤٩٥ / ١١٠١.

ويذكر أطباء نصارى مشاهير آخرون في الفترة نفسها في بقاع أخرى، منهم الأخوان التكريتيان اليعقوبيان ابنوا جرير المذكوران سنة ٤٧٢ / ١٠٧٩ : الفضل طبيب ناصر الدولة ببابلارقين^(٤) وأبو نصر يحيى، الذي كتب رسالة في فائدة رياضة البدن^(٥) إلى محمد بن محمد بن جهير.

تبدو أحداث هذه الخلافة في صورة مفجّكة لا تمكن من رؤية موالح الأمور ومخارجها بوضوح كافٍ. فمن ذلك أنّ أهل سوق المدرسة اشتبكوا سنة ٤٧٠ / ١٠٧٧ مع أهل سوق الثلاثاء، «بسبب الاعتقاد (?) فنهب بعضهم بعضًا، وكان مؤيد الملك بن نظام الملك ببغداد بالدار التي عند المدرسة، فأرسل إلى العميد والشحنة فحضرها ومعهما الجندي فضرموا الناس، فقتل بينهم جماعة وانفصلوا». ^(٦) الأرجح أن الفتنة قد وقعت بين أصحاب مذهبين من أهل السنة، وإنما ذكرناها لأنّا نعلم أنه كان في الحي الثاني قوم من النصارى.

عن العام ٤٧٧ - ١٠٨٤ ، يكتب ماري من غير تفسير: «بني مسجد بعمر واسط» أي دير مار سبريشو.^(٧) لذكر أيضًا وباء الطاعون سنة ٤٧٨ - ١٠٨٥ بالمحول إلى الجنوب الغربي من بغداد، أي بالقرب من حي اليعاقبة^(٨) وبذلك نصل إلى سيل من الأحداث التي تنبئ بفتنة سنة ٤٨٤ - ١٠٩١ الكبرى التي أخرجت رهطًا من النصارى عن دينهم.

يصيب جورج مقدسى^(٩) إذ يقول: «إن المطالبة بتطبيق القيود [على أهل الذمة] لم تزل تتكرر طيلة القرن الخامس / الحادى عشر، ذلك لأنها لم تطبق إلا لتهدة العامة التي أحفظها اختيال الأثرياء من الذميين، والحريات والامتيازات التي كانوا يتمتعون بها علينا، بسبب أهميتهم السياسية والاجتماعية. وهذا يفسر سلوك العامة من المسلمين الذين لما وجدوا أنفسهم بلا نصير يستظهرون به لدى الحاكم، أخذوا على عاتقهم مهمة الانتصاف فأحرقوا الكنائس ونبيوا المنازل وأشعلوا الفتنة الدامية أحيانًا».

في ربيع الأول ٤٧٨ - ١٠٨٥ تصاعدت أوائل الشكاوى على اليهود بسبب ما كانوا يتجرؤون عليه في العلن.^(١٠) وقد هدمت بعض منازل اليهود بأمر المقتدى في أواخر تلك السنة بحججة أنها كانت أعلى من منازل المسلمين المجاورة لها، وكان على اليهود أن يتعهدوا بعدم تلاوة التوراة إلا في منازلهم من غير جهر بالتلاوة، وأن يتعمّموا بعهائم من اللون المفروض عليهم. وفي العام ٤٨٠ - ١٠٨٧ امتد تطبيق هذه الإجراءات ليشمل شرق بغداد وجنوبها.^(١١) ويمكن أن نلمح في هذه الإجراءات أثر الشيخ أبي بكر أحمد بن علي بن بدران الحلوي. فبعد أن ساء هذا الشيخ ما ترقى إليه أهل الذمة من مناصب رفيعة لدى السلاطين، صنف قبيل ذلك العام كتاباً في القواعد التي يجب إلزام أهل الذمة بها سماه «الحصول الجامعية في ما يجب على أهل الذمة من أحکام أهل الملة». وقد أهدى الكتاب إلى المقتدي فأمر لصاحبه بجائزة سنوية. إلا أن هذا ردّها فائلاً ما معناه إن المدحية التي أطلبتها لنفسي وللمسلمين هي أن تحكم أهل الذمة حسب أحکام هذا الكتاب. ويشهد أحد تلامذة ابن بدران (وهو فقيه مجهول الاسم من طنجة أقام ببغداد من سنة ٤٨٨ - ١٠٩٥ إلى سنة ٤٩٤ - ١١٠١، على الأقل) بأنّه رأى هذه الأصول تراعي في العاصمة.^(١٢)

ويجدر بنا أن نشير هنا إلى أن الخليفة المقتدي لم يكن يستهدف اليهود فحسب، ومن ثم النصارى، بل كان يتهدج سياسة عامة يطغى عليها الميل الديني والأصولي. فقد أمر محتسبو الحال بأن يقتدوا بسيرة أصحاب عبد الصمد في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فكسرت جرار الخمر وآلات الملاهي وهدمت المواخير وأبراج الحمام التي كان أصحابها يطلقون منها على حرم الناس، وحضرت ألعاب القمار، «ومنع الناس أن يدخل أحد الحمام إلا بمئز...» ومنع الملائكون أن يحملوا الرجال والنساء مجتمعين...». كان من السهل على وزير ماهر أن يوجّه هذه الحملة الأصولية^(١٢) كلّها ضد غير المسلمين من يهود ونصارى. وقد كان هؤلاء متهمين منذ مدة طويلة، كما رأينا، بإفساد أخلاق المؤمنين في حماراتهم بحلة دار الروم مثلاً، وفي أديرتهم أيضاً.

نهاية طائفة نصرانية

كان من شأن الحمية التي ولدها لدى المسلمين فرض السمات المميزة على النصارى القضاء على طائفة نصرانية بتكريت شمالي بغداد.

كانت تكريت منذ سنة ٦٢٩، أي قبل الفتح الإسلامي، مركزاً لأحد الأقاليم الشرقية التابعة لبطريركيّة أنطاكيّة (أي الكنيسة السريانية المغربية اليعقوبية)، وهي ناحية كانت تقع في أراضي الكنيسة السريانية المشرقية النسطورية. وفي الفترة التي وصلنا إليها كان مطران هذا الإقليم، باسيليوس الرابع، قد بدأ يتلقّب بلقب مفريان.

من وجهة النظر الكنسية كانت أبرشية المفريان قد توسيّعت سنة ١٠٧٥ بعدما ضمّت إليها عدّة رعيات سريانية مغربية كانت من قبل تابعة للبطريركيّة مباشرة، ومنها نصيبيين، قلّث ودارا. وهذا يفسّر لنا حماسة أهل تكريت لما عاد مفريانيهم الذي تعظّم شأنه على هذا النحو إلى مدیتهم. ولكن هذا الاستقبال الاستعراضي أزعج بعض المسلمين الذين راحوا يرمون الموكب بالحجارة، فالتجأ المفريان وصحبه إلى كنيسة مار أخودم.

وبعدما أقام فترة ببغداد بدأ المفريان يبيع قطعاً من آلات الكنائس، ويختال باللبسة الفائقة ويولم الولائم الفاخرة ويدعو إليها أعيان المسلمين فكان من شأن ذلك أن كرهته رعيته.

من الصعب أن نؤرخ لفترة تكريت بدقة استناداً إلى المصادر المختلفة،^(١٤) لأن تواريخت السنوات المتاحة، للهجرة أو للإسكندر لا تلائم. ففي العام ١٠٨٩ (على ما يبدو) نُبِّهَت الكنيسة الكبرى، المعروفة بالكنيسة الخضراء، و«ما فيها من آلات بيعية فائقة وأموال ودور وحوانيت، ولم تجد ولا يم المفريان نفعاً» على قول ابن العربي. وقد أخذت كنيسة أخرى قرية من القلعة، هي كنيسة القديسين سرجيس وباخوس، من النصارى وأعطيت للمسلمين بدلاً عن المسجد الجامع الذي هدمه قيقباز بن هزارسب الديلمي الذي كان سيد المدينة في ذلك الوقت.

بعد ذلك (في العام ١٠٦٥/٥٠٠) أخذت الكنيسة الخضراء نفسها وأعطيت للعرب^(١٥). هل كان ذلك بسبب «اتصال الفتنة بين العرب والنصارى» على قول ميخائيل السرياني؟^(١٦) على أيّة حال، أرسل السلطان الكبير غيث الدين محمد بن ملكشاه عسكره إلى المدينة وبعد سبعة أشهر من الحصار، وقعت في تشرين الأول، في يد صدقة بن دبيس ملك الحلة العربي الملقب بسيف الدولة.

ويبدو أنَّ الاضطهاد كان عنيفاً، إذ إنَّ معظم اليهود وفيهم المفريان، غادروا تكريت وتفرقوا في المدن والقرى المجاورة. وذهب الخبر نفسه إلى الموصل ونزل بها.

تنشر أمامنا هنا على مدى سبعة عشر عاماً سلسلة من الأحداث الخطيرة الشأن التي أدت إلى القضاء شبه التام على طائفة نصرانية عريقة في القدم وناظمة بالعربية أيضاً. إلا أنَّ بغداد عرفت فترة من الهدوء قبل المأساة المنتظرة، وذلك لما استؤنفت في العام ٤٨٢/١٠٨٩، الفتنة الدامية^(١٧) داخل الإسلام، إذ عاد السنة والشيعة إلى التقاتل. بيد أنَّ نظرية العامة إلى النصرانية باعتبارها «عدوة الإسلام» قد ظهرت مرة أخرى من خلال الصليبان التي رفعها العوام على القنا وذلك مثلما فعل الترك العصابة من قبل. لم تهدأ الفتنة حتى تدخل بنو مزيد من عرب الحلة الذين استجاشهم الخليفة.^(١٨)

في الثاني من كانون الثاني ١٠٩٠، ووسط هذه الأحداث مات عبدىشوع بن العارض الذى لا نعلم عنه إلا القليل.^(١٨) من ذلك أنّ ماري الذى أثبتت في تاريخه نصّ عهد الجاثليق الذى كتب له، قد نسي خبر موته وتقويم جثلته. أمّا صليبا الذي كتب أقلّ من صفحة عن هذا الخبر (مقابل عشر صفحات ونصف عند ماري) فلا ينسى أن يقول عنه إنّه كان «شيخاً طاهراً عالماً خيراً صالح التدبرين». وقد تكلّم ماري في ما بعد عن جهله «بقوانين البيعة»^(١٩) ولكن هذا يخرج بنا عن موضوعنا. دامت جثلقة ابن العارض ١٦ عاماً ودام خلوّ كرسى الجملة مدة ستين ونصف.^(٢٠)

كتاب سياسة نامه

أمّا في ما يخصّ السلاجقة الكبار فقد نصب ملكشاه سلطاناً خلفاً لأب أرسلان سنة ١٠٧٢. ولما لم تكن سنّ الأمير إلا ١٨ سنة، سيطر عليه نظام الملك،^(٢١) الوزير الشهير، الذي كان أول من تلقّب بلقب أتابك. وقد كتب هذا الوصي بالفارسية «لواه (؟) سلطان العالم» كتاباً في سياسة الملك سمّاه «سياسة نامه» (أي كتاب السياسة)، وسمّاه مترجمه إلى العربية «سير الملوك».^(٢٢) وقد وضع جلّ الكتاب في العام ٤٨٤/١٠٩١، وصنفت الفصول الأحد عشر الأخيرة في العام الذي تلاه بحيث يحتوي الكتاب على حسين فصلاً.

بالنسبة إلى استخدام النصارى، يعبر الوزير عن النظرة التقليدية للإسلام والتي تقوم على الآية القرآنية المعروفة (الآية ٥١ من سورة المائدة)، ويستشهد على ذلك بما كان من عمر بن الخطاب في خبر أبي موسى الأشعري^(٢٣) وكاتبه، وفي خبر سعد بن أبي وقاص مع اليهودي.^(٢٤)

هذا من الوجهة النظرية. أمّا من الوجهة العملية، فيؤكّد الكاتب^(٢٥) «أنهم في كل العهود والأيام كانوا يعهدون بالأعمال إلى من كان على مذهبهم» أي إلى المسلمين. ثم ينتهز الفرصة ليثنى على كتاب خراسان (المسلمين) الشرفاء. ويؤكّد أنه لم يجد اسمًا لنصري أو ليهودي أو لمجوسي، إلخ «أمّا اليوم فقد ارتفع هذا التمييز، إذا توّلّ أعمال الترك ورئاستهم يهودي فإن الترك يسيغون ذلك... والآن

قد بلغ الحال مبلغ أنَّ الباب والديوان مليئان بهم... . وهم ساعون إلى أن لا يدعوا خراسانياً واحداً يمرُّ بالباب».

أمّا ما لا يقوله الوزير فهو كيف اتفق أن تم هذا التسلل الكثيف حتى الإشباع والتفرُّد مع وجوده هو في السلطة واستباده بالأمر منذ نهاية ما يعتبره العصر الذهبيّ عصر طغرل بك وألب أرسلان «السلطان الشهيد». ثمة جملة صغيرة،^(٢٦) مفادها أنَّ الوضع في قصر ملكشاه ليس كالوضع في العراق، يُفهم منها أنَّ ما يشكو منه الوزير هي الأحوال السائدة في دواوين الخلافة حيث كان النصارى كثُرًا، على خلاف ما هي الحال في الدواوين السلطانية، أي التابعة له.

ولكن الأمور تغيَّرت بعد ذلك في دواوين الخلافة أيضًا.

خلوّ كرسي البخلقة وصرف الدهر

لم يطل الوقت حتى عثر الخليفة على الوزير ذي الحمية الدينية^(٢٧) في شخص أبي شجاع ظهير الدين الروذراوري^(٢٨) الذي بدأ اضطهاد النصارى بأن استحصل في ١٤ صفر ٤٨٤/١٠٩١ على توقيع الخليفة بإلزام أهل الذمة بالسميات المميزة. منذئذ لم يعد يجوز لليهود والنصارى أن يخرجوا إلى شوارع بغداد من دون لبس الغيار وعقد الزنار وتقلُّد درهم رصاصي في عناقهم ضربت عليه كلمة ذمّي. وكان على النساء أن يتقلَّدن هذا الدرهم في الحمامات، وأن يلبسن، عند المشي في المدينة، أحذية ملوَّنة بلونين واحد أحمر وواحد أسود، وأن يجعلن في أرجلهن الخلاخيل.

نذكر أنَّ أم الخليفة أرجوان/ قرة العين كانت أرمنية، وأتها لم تفعل شيئاً، أو لم تقدر على عمل شيء لمنع تنفيذ هذه الإجراءات التمييزية.

وقد أسهם هذا القرار في خسارة أبي شجاع وزارته في الشهر التالي (أربع الأول/ ٢٣ نيسان - ٢٢ أيار ١٠٩١). «وكان سبب عزله أنَّ إنساناً يهودياً ببغداد يقال له أبو سعد بن سمحا^(٣٠) كان وكيل السلطان ونظام الملك» اتفق مع كوهرائين (وهو أمير يلقب بسعد الدولة) على الشكایة من أبي شجاع، واستغلّ

حادثة اعتداء تعرض لها ليوقع بالوزير. وقد عُزل هذا من وزارته ولكن أمر الخليفة بمخالفة أهل الذمة ظلّ ساري المفعول مدة أربعة عشر عاماً.

إسلام النصارى

كان من نتائج أمر الخليفة هذا أن « Herb النصارى كلّ مهرب » فأسلم بعض من كان منهم في منصب رفيع. وكان من أشهر من أسلم كتابان من بني الموصلايا.^(٣١) وقد صادفنا سابقاً واحداً من رجال هذه الأسرة بين العامين ١٠٥٧ و ١٠٦١، هو أبو الحسن سعيد بن منصور بن الموصلايا، الذي كان له ضلع في اختيار الجاثليق سبريشون الثالث، وكان من جملة أعيان النصارى الذين قصدوا الوزير ابن دارست مستاذين في رسامية الجاثليق. أمّا الكاتب الثاني، الذي صار من بعد أعظم شهرة، فهو أبو سعد العلاء بن الحسن بن الموصلايا^(٣٢) الذي أنشأ العهد الذي كتبه القائم لعبدشون الجاثليق في ٢٨ ربيع الأول ٤٦٧ / ٢١ تشرين الثاني ١٠٧٤.

إمتدّت السيرة العملية لهذا الكاتب الثالث، الأديب الشاعر الفاضل، على مدى خمس وستين سنة، وهي معروفة جيداً.^(٣٣) فقد بدأ العمل في خلافة القائم سنة ٤٣٢ / ١٠٤٠ - ١٠٤١. وأسلم على يدي الخليفة المستظره سنة ١٠٩١ آنذاك من لبس الغيار. كان في هذا الوقت كاتب الإنماء في ديوان الخليفة. وقد أجزلت مكافأاته على إسلامه إذ استُتبِّعَ على الوزارة بعد عزل أبي شجاع في السنة عينها، ثمّ خلّع عليه لقب أمين الدولة.^(٣٤)

وقد خضعت بقية حياته لصرف الحال السياسية المتقلبة لذلك الزمن. فاضطر إلى الامتناع عن الحضور إلى القصر لفترة احتياطاً سنة ١١٠١، وذلك لما ارتاب الوزير الأعزّ أبو المحاسن الدهستاني بأنه يُميلُ الخليفة إلى السلطان محمد ضد السلطان بركيارق. ولم يعد إلى منصبه إلاّ بعد أنُ أُعدم الوزير. وفي أواسط رجب ٤٩٦ / أواخر نيسان ١١٠٣ استُتبِّعَ أمين الدولة مرة ثانية على الوزارة لما قبض على سديد الملك أبي المعالي (المفضل بن عبد الرزاق الأصفهاني) وزير الخليفة. مات ابن الموصلايا ببغداد سنة ١١٠٣ - ٤٩٧ / ١١٠٤ من بعدهما كُفّ بصره، فأورث أمواله

لأعمال البر والإحسان الإسلامية لأن أسرته التي ظلت على النصرانية لم يكن لها الحق في أن ترثه. ^(٣٥)

وقد خلفه على رأس ديوان الإنشاء ابن أخيه، أبو نصر هبة الله، ^(٣٦) بن الحسن بن علي النصراني صاحب الخبر. أسلم أبو نصر، الملقب بناج الرؤساء، سنة ١٠٩١ هو وخاله أمين الدولة في الوقت نفسه. وكان هو قد صار صاحب الخبر عندما أنشأ في صفر ٤٨٥/١٢ آذار - ١٠ نيسان ١٠٩٢ العهد الذي كتبه المقتدي للجاثليق مكيخا. بعد ذلك أي في العام ١١٠١ - ١١٠٢، لم يكتفي مثل حاله بملازمة داره لما اتصل به صراع التنافس بين السلطانين. فقد هرب أبو نصر الذي كان أخْرَف من حاله أو أكثر عرضة لارتياح بركيارق والتتجأ إلى الأمير العربي سيف الدولة صدقة بن مزيد، سيد الحلة. ولما زال الخطر وعاد أمين الدولة إلى منصبه، عاد أبو نصر إلى عمله أيضاً. لذلك لا نعجب إذا رأينا الخليفة يبعث أباً نصر ليستجبيش سيف الدولة، لما احتاج إلى معونته.

خلف أبو نصر حاله، الذي مات سنة ١١٠٣ - ١١٠٤، في رئاسة ديوان الإنشاء إذَا، ولُقِّب بلقب نظام الحضرتين. ^(٣٧) ولم يمارس مهامات هذا المنصب إلا حوالي العام لأنَّه ما لبث أن توفي هو أيضاً عن سبعين عاماً في ١١ جمادى الأولى ٤٩٨/١٦ آب ١١٠٥، بعد مرض دام خمسة أيام، ولم يكن له ورثة شرعية لسبب الذي ذكرناه من قبل. وقد دُفن في مقبرة باب أبرز. ^(٣٨)

وثمة رجل رابع من هذه الأسرة يؤتى على ذكره في التوارييخ، إن أبو الحسين بن الموصلايا كاتب ديوان الزمام الذي توفي في ذي القعدة ٤٨٧/تشرين الثاني - كانون الأول سنة ١٠٩٤. ^(٣٩) ولا نعلم هل كان قد أسلم هو أيضاً أم لا، لأنَّ النصارى في ذلك الوقت كانوا يتسمون بالحسين ويتكتَّون به.

ويبدو أنَّ الاضطهاد الذي بدأ سنة ١٠٩١ ودام أربعة عشر عاماً قد أدى إلى إسلام الكثريين من النصارى غير مَن ذكرنا، ولم يحفظ التاريخ إلا أسماء المشاهير منهم. ويكتننا أن نضيف إلى أولئك الذين سقنا ذكرهم آنفًا، الآخرين أبي غالب وأبي طاهر عبيد الله ابني هبة الله الأصبغى. ^(٤٠) أما الأول، وقد أسلم قبل يوم من

إسلام الموصليا، فقد لُقب في ما بعد بتأج الرؤساء وتقلب في مناصب عدّة في ديوان الزمام. وكان حُسّاب العراق يكتبون الحساب على طريقته. وأمّا الثاني، وهو أبو طاهر، أخو الأول، فقد عمل في خدمة عفيف القائمي، وكان يلُقب أيضًا بالرئيس.^(٤١)

إلى جانب رغبة المسلمين الجدد في التخلص من الإذلال (الذي كان هدفه المعلن حل الذميين على الإسلام)، يجب أن تعزى بعض حالات اعتناق الإسلام إلى مواعظ المسلمين أنفسهم ونضائهم، مثل ذلك ابن جزلة المتطلب الذي أسلم في العام ٤٦٦/شباط ١٠٧٤، ومات سنة ٤٩٣/١٠٩٩ - ١١٠٠.^(٤٢)

كان أبو علي يحيى بن عيسى بن جزلة^(٤٣) قد درس الطب على «نصارى الكرخ»، ومنهم أبي الحسن سعيد بن هبة الله.^(٤٤) وأراد أن يدرس المنطق أيضًا وما لم يجد من يعلمه من النصارى قصد الشيخ أبو علي الوليد المغربي المعزلي. ولم يزل هذا يحسن له دخول الإسلام ويبين له أنَّ الاتحاد الأقومي على زعم النساطرة غير معقول^(٤٥). وقد أسلم ابن جزلة بين يدي قاضي القضاة أبي عبدالله الدامغاني، ثم عمل كاتبًا وكان يطبّب الناس مجانًا. ولما كان يمرض موته أوصى بكتبه لمشهد الإمام أبي حنيفة. وقد صنف في الطب تصانيف اشتهرت في زمانه، وكتب رسالة إلى إيليا القس، يبيّن فيها مسوّغات إسلامه، وهي رسالة يمكن أن تحلّ مع غيرها من المصنّفات السجالية في باب الرد على النصارى، لو لا أنها تعد مفقودة.^(٤٦)

ولكن بعض النصارى أسلم طمعًا في المال وكان هذا مما دعا أصحاب أبي جعفر بن أبي موسى الشريف الحنفي إلى القول: «هذا إسلام الرشا لا إسلام القناعة». ذلك أنَّ الذين كانوا ينظمون عمليات الإسلام «الإعلامية» هذه، ويتبعونها بعرضة تجوب شوارع المدينة، هم الأشاعرة، خصوم الحنابلة. وقد تميّز منهم (الأشاعرة) أبو نصر القشيري الخطيب بالمدرسة النظامية، الذي كان يُسلم على يديه يهودي أو نصراني بعد كل خطبة من صلاة الجمعة.^(٤٧)

هل أسلم من أهل النّمّة أحد بسبب كرامات بعض المسلمين؟ لم يرگّز الإسلام على معجزات الرسول خلافًا لتركيز النصرانية على معجزات المسيح. ولا

أذكر أني وقعت على وقائع تاريخية بهذا المعنى إلا ظهور النبي العربي في بعض الأحلام.^(٤٨) على أن ألف ليلة وليلة^(٤٩) تروي قصة معجزة إسلامية أدت إلى إسلام ديراني ورهاي الأربعين. وليس ثمة ما يخولنا القطع هل أن الخبر أساساً تاريخياً أم لا.^(٥٠)

مكيحًا

XXVII بعد اضطراب الأحوال إبان خلو كرسى الجثالة، وبعدما هدأت موجة الخروج من النصرانية، تمكّن السريان الساطرة أخيراً من انتخاب جاثليق لهم واستصدار إذن السلطات بتوليه، وجرى ذلك في ظل استمرار التدابير التمييزية خلال وزارة عميد الدولة أبي منصور بن جهير^(٥١) الذي وزر لل الخليفة المقتدي بأمر الله منذ العام ١٠٩١.

عند هذا التاريخ يظهر لأول مرة رجل سنسمع عنه كثيراً من بعد، إنه ابن الواسطي. إن اسمه يدل على أن أسرته تحدر من واسط،^(٥٢) إلا أنها كانت تنزل بغداد في حي العتيقة، إذ إننا سنرى لاحقاً أن أبواه قد دفن في كنيسة ذلك الحي التي كانت تسمى، في بعض المصادر، «كنسته».^(٥٣)

كان أبو الفرج سعيد بن إبراهيم الواسطي، القس الراهب، طبيب السلطان ألب أرسلان ملكشاه السلاجقى،^(٥٤) قد حل محل الكتاب من بني الموصلايا على رأس أعيان المغارقة من السريان. فهو الذي ساند بقوة ترشيح مكيحًا مطران الموصل وحزة (من أعمال أربيل) لكرسي الجثالة، يغضده في ذلك رجل يعرف بأبي الفرج بن التلميذ، وهو الذي حصل على الشلموث الحاوي إجماع الناخبين وخطوطيهم، وربما أيضاً على المشور الخليفي الذي أنشأه أبو نصر بن الموصلايا في صفر ٤٨٥، أي بين ١٣ آذار و ١٤ نيسان ١٠٩٢.^(٥٥)

ومن دواعي الأسف أنه كان يصعب على حماة البطاركة الجدد (سواء أكانوا من العلمائين أو من القسوس) أن يلزموا حدودهم من بعد فوز مرشحهم. فغالباً ما كان يحدث أن تنزع الشخصية صاحبة التفوذ إلى التحكم في من يدين لها بالخلوس

على الكرسي، وإن لم يقطع لها قبل الانتخاب أي وعد صريح بمشاورتها عند تولّي الأمر (كما فعل طيائوس وإبراهيم الثالث وغيرهم). وغالباً ما كان يحدث العكس أيضاً، إذ كان الجاثليق المنتخب يميل إلى التماض من هذه الوصاية التي كانت تصبح أقل فائدة كلما ازدادت سلطاً. من ذلك أنَّ الصراع بين مكيحًا وابن الواسطي قد بدأ بسبب خلاف على التدابير الواجب ترتيبها لإصلاح الفقْلَة، إذ لم يرد ابن الواسطي على دعوة الجاثليق للتفاوض في تبادل المواقف من هذا الشأن. ثم عقب ذلك وحشة بين الرجلين، لم يتلقيا من بعدهما أبداً.

إنَّ تاريخ مختلف وقائع النزاع بينهما عصيٌّ على التحقيق نظراً إلى أنَّ ماري المؤرخ لا يبيّن ترابط الواقع والأحداث ولا تواريخها الدقيقة.

يبقى أنَّ الأحداث الخارجية هي التي تبيّن معلم سيرة مكيحًا. وبعد ستين من انتخابه جاثليقاً أي في العام ٤٨٧ / شباط ١٠٩٤، مات الخليفة المقتدي فجأة عن ٣٨ سنة، وخلافة دامت حوالي عشرين سنة، إذ كان على مائدته يتغدى دجاجة مشوية. غشي عليه وتراءى له أنَّ أشخاصاً دخلوا عليه من غير استئذان، ثم ما لبث أنْ فارق. (٥٦) وقد أرجف بأنَّ بركيارق، ابن ملكشاه وحَلَفَهُ، قد سُمِّ الخليفة لأنَّه كان قد مال إلى الموافقة على تقليد أخيه محمود لقب السلطنة.

الحواشي

E.I.¹, III, p.768, par K.V.. KETTERSTEEN, s.v. (١)

(٢) نقش مؤرخ بسنة ٤٧٥ بدمشق، Répertoire, VII, no. 2735

(٣) ابن أبي أصبيعة، ص ٣٤٣. ثمة مصادر أخرى في الزركلي، ج ٣، ص ١٥٦ - ١٥٧ .

(٤) ابن أبي أصبيعة، ص ٣٢٨ .

(٥) المصدر نفسه، ص ٣٢٨ - ٣٢٩، Islamochristiana, 2, (1976), p.217-221

(٦) الكامل، ج ١٠، ص ١٠٧ .

(٧) ماري، ص ١٣٢ .

(٨) يذكر ذلك ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ١١٩ .

Ibn'Aqil, p.158-161 (٩)

(١٠) المتظم، ج ١١، ص ١٤.

(١١) المصدر نفسه، ص ٣٨.

(١٢) أنظر Consultations juridiques des faqih du Maghrib, dans Archives Marocaines, XII

(ص ٢٣١ - ٢٤٤) وقد انتزعت المقطفات المتعلقة بأهل الذمة (ص

(٢٤٤ - ٢٤٤) من «كتاب المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل أفريقيا والأندلس والمغرب». (١٢ مجلداً) الذي صنفه أحمد الوشريسي حوالي العام ١٤٥٩/٨٧٤.

(١٣) المتظم، ج ٩، ص ١٧. البداية، ج ١٢، ص ١٢٧، ١٤٦. الكامل، ج ١٠، ص ٢٣١.

(١٤) وذكر هنا أيضاً بعض التدابير لمنع تلوث مياه دجلة ببياه الخامات، كما شهدت خلافة المقidi نهضة عمرانية ببغداد.

(١٥) المذكورة في مقالتي Tagrit في Orient Syrien, 8, (1963), p.291-342 التي نُشرت في Chré-

Variorum Reprints, London, 1979, X. tientés syriaques en Iran et Iraq

(١٦) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٢١٥ - ٢١٥.

(١٧) التي لم تتوقف تماماً: فقد اصطدمت الأكراد الحنبلية (حزب بغداد والخلافية) بالشافعية

الأشعرية (حزب نظام الملك وزير السلطان وأهل نيسابور) ثلاثة مرات: مدة خمسة أشهر في العام ٤٦٩/١٠٧٧، في العام ٤٧٥/١٠٧٨ وفي العام ٤٧٥/١٠٨٣، انظر تفصيل ذلك

Simha SABARI, Mouvements populaires à Bagdad, à l'époque abbasside IXème-XIème siècles, Adrien Maisonneuve, Paris, 1981.

(١٨) أنظر مصادر عنها في الصليب في الإسلام لحبيب الزيات، ص ٥٠ وأني لأتردد في أن أرى في ذلك «ظواهر مهمة مؤيدة للنصارى»، الكامل، ج ١٠، ص ١٧٦ - ١٧٧.

(١٩) إن أخبار جثثته الطويلة في تاريخ ماري ملأى بالتفاصيل الشمية للتاريخ المدنى، ولكنها لا تطلعنا على أحوال النصارى في تلك الفترة.

(٢٠) ص ١٤٢.

(٢١) يذهب ابن العربي في تاريخه الكتبى، ج ٢، العمود ٣١٠ - ٣٠٩، إلى أن الكرسي ظلّ شاغراً مدة عشرين عاماً، ولا يذكر خلاائق الجاثلين.

E.I.^١, III, p.997-1000, par Harold BOWEN (٢٢)

(٢٢) أنظر فهرس المصادر والمراجع تحت نظام الملك.

(٢٣) سير الملوك، ص ٣٧٦. في هذه الرواية يصرف أبو موسى كاتبه.

(٢٤) المصدر نفسه، ص ٣٨٤ - ٣٨٥.

(٢٥) المصدر نفسه، ص ٣٧٠ - ٣٧١.

(٢٦) ص ٣٧١.

(٢٧) وتستعين مرارة هجته في انتقاده ملکشاه على فتح سمرقند وكأنها من مدن الروم والمرشكين، الكامل، ج ١٠، ص ١٨٧. كانت الإشارة إلى الروم روسيا: فقبل بضعة أعوام وبِّ

العميد بعض الترك على قتلهم رجالاً بباب الدير ببغداد قائلاً: «لو أن الروم ملكوا المسلمين ما فعلوا ما فعلتم، إذا رأوهم في مساجدهم وصلواتهم»، ابن البناء، ص ٢٢، الفقرة ٨٣.
(٢٨) انظر مقالة عنه في: K.V. ZETTERSTEEN. G. MAKDISSI. Ibn E.I^١, p1250. بقلم Aqil, pp 160-161. وانظر مدحه في البداية، ج ١٢ ص ص ١٥٠ - ١٥١، الصفدي، ج ٣، ص ص ٣ - ٤، رقم ٣٥٣.

(٢٩) إن هذا التاريخ الذي يذكره ابن الجوزي في المتنظم، ج ٩، ص ٥٥ (ومذكور في ص ٧٩ من مقال «السيارات» لحبيب الزبيات) يبدو أصح من ١٠٩٥/٤٨٨ الذي يورده ابن خلّكان في الوقائعات، رقم ٧٠٢، (وذلك لأنّ هذه الإجراءات قد دامت ١٤ عاماً وانتهت سنة ١١٥٥ على قول ماري، ص ١٤٣). يلاحظ أنّ ابن القيم لا يأتي على ذكر أمر المقدّر. ولكن يذكر أن آخر من نفذه كان ابن فضلان في العام ١٢٢٩ للميلاد.
(٣٠) الكامل، ج ١٠، ص ١٨٦. انظر مصادر أخرى في: G.MAKDISSI, Ibn Aqil, p.138.

139.

(٣١) «من أسماء النصارى» على قول ابن خلّكان، المصدر المذكور. إنني إذ أكتب «موصلايا» التزم بالكتاب المعتمدة في الطبعات كلها. أمّا قراءة «موصلايا» (بإضافة النسبة السريانية إلى اسم عربي) فتجعل معنى الاسم «الموصلي». ولكن أمّا كان الأولى في هذه الحال أن يقال آثوريaya، باعتبار أنّ آثرور هو اسم الموصلي بالسريانية (استناداً إلى Lexicon de Bar Bahlul Xème s.] éd. RUBENS DUVAL, I, col. 322 المرجعي، ترجمة BUDGE، ج ٢، ص ٣٨٨، قوله «مدينة الآثورياني».
(٣٢) صبح الأعشى، ج ١٠، ص ٢٩٤، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣١، نجد اسمه: «أبو سعيد... بن وهب...» الباحرزي، دمية القصر (أطروحة التونجي) ج ١، ص ٢٢٢ - ٢٣٣، يسميه: «أبا سعد الحسن بن العلاء (البغدادي) الموصلي، مع إحالة إلى أنساب الأشراف»، ص ٥٤٥.

(٣٣) الكامل، ج ١٠، ص ٣٥٠، ٣٦٢، ٣٧٧ - ٣٧٨، ٣٧٧ - ٥٣٤. البداية، ج ١٢، ص ١٦٤. ابن خلّكان، المصدر المذكور، يجعل إسلامها في العام ١٠٩٥/٤٨٨ (؟). مصادر أخرى في الزركلي، ج ٥، ص ٤٥. شيخو، شعراء، ص ٢٨٣ - ٢٨٨ و ٣٩٣. ويذكر القلقشندي (ج ٥، ص ٤٧٣ - ٥٠١، ج ٦، ص ٤٠٤، ٤١٥، ج ٨، ص ١٣٥)، (ج ١٠، ص ٣١، ٢٣٤، ٢٩٤، ج ١٣، ص ٢٧٣) عدداً من آرائه ويورد بعضًا من رسائله. ويروي الأصحابي عدداً من قصائده في الخريدة، ج ١، ص ١٢٣ - ١٣٢.

(٣٤) عن هذا النوع من الألقاب انظر مقالة H.BUSSE عن عز الدولة في: E.I^٢, IV, p.306 307 و يسميه القلقشندي في الصبح، ج ١٠، ص ٣١، أمين الدين بدلاً من أمين الدولة.

FATTAL, Statut légal, p. 137 (٣٥)

- (٣٦) الكامل، ج ١، ص ٣٣٥ - ٣٣٦، ٣٥١، ٣٥٧ - ٣٧٨، ٣٩٧ - ٣٩٨. ماري، ص ١٤٧ - ١٥٠. المتظم، ج ٩، ص ٥٥. البداية، ج ١٢، ص ١٣٧. خريدة العصر، ج ١، ص ١٣٢ - ١٣٤. شيخو، شراء، ص ٢٨٨ - ٢٩١.
- (٣٧) حضرة الخليفة (قصره) وحضره السلطان. أنظر I.GOLDZIEHER في مقالته Über Wiener Zeitschrift für die Kunde der Morgenlandes XIII (1899), p.329. Dualtitel
- (٣٨) إلى الجنوب من محطة قطارات بغداد الشالية اليوم.
- (٣٩) الكامل، ج ١٠، ص ٢٤٠.
- (٤٠) تجد أشعاره في الخريدة، ج ١، ص ١٣٥ - ١٤٠. شيخو، شراء، ص ٢٩١ - ٢٩٢ و ٣٩٤ - ٣٩٣.
- (٤١) عن دلالات هذه الكلمة، انظر: G.WIET, Soieries Persanes, p.38-39
- (٤٢) الكامل، ج ١٠، ص ٣٠٢. أفضل هذا التاريخ ١٠٧٣/٤٦٦ - ١٠٧٤ الذي يعطيه ابن أبي أصيبيعة في الصفحة ٣٤٣ من عيون الأنباء.
- (٤٣) ابن القسطي، ص ٢٣٩ - ٢٤٠. المتظم، ج ٩، ص ١١٩، البداية، ج ١٢، ص ٤٩٤. MAKDISI, Ibn 'Aqil, p. 407-409
- (٤٤) ابن أبي أصيبيعة، ص ٣٤٢ - ٣٤٣.
- (٤٥) يوضح ابن العربي في تاريخ الزمان، ص ١٢٥، أنَّ الشيخ أقنعه: «بأنَّ الاتحاد الحُمّي والأقنيمية على زعم النساطرة لا يتيَّسر تصوّره في الطبع الإلهي» وهذا أمر يوافق عليه ابن العربي طبعاً.
- (٤٦) إلا أن تكون هي الرسالة التي ينسبها STEINSCHNEIDER إلى «يوسف اللبناني» في: Islamo-christiana, 4, (1978), p.249-250, no. 31.3 النسطوري على يوسف إسلامه من أجل أسباب مادية. فرد عليه يوسف مظهراً فضل القرآن على الإنجيل لأسباب فلسفية ودينية. تمجد ملخصاً لرسالة ابن جلة، المكتوبة سنة ٤٨٥/١٠٩٣ في الوفيات، رقم ٨٢٢.
- (٤٧) Ibn Aqil, p. 356-357, 366, etc مع مصادر.
- (٤٨) وكان بعض «الوعاظ الكذبة» يرتب في مجلسه من يقوم ويُدعى أنه «رأى في المنام سيد المرسلين» وأنَّه أسلم من جراء ذلك. أنظر الجويزي، كشف الأسرار، ط ٢، ١٨٨٥/١٣٠، ص ٣٤ - ٣٥، والقصيدة الساسانية لأبي دلف الخزرجي (القرن ٩ - ١٠) تحقيق وترجمة The Medieval Islamic Underworld, The Banū Sāsān in Arabic C.E. BOSWORTH Society and Literature, 2 vol., Brill 1976, pp. 112, 196 (49) et (59), 296 (19).
- (٤٩) ELISSÉÉF, Thèmes, p. 145 لم يسمح للرهبان أن «يرفعوا» جنة صبية نصرانية أسلمت، بلا شهود، على قبر عاشقها المسلم ثم ماتت ل ساعتها، لأنَّ ذلك اعتبر من حق المسلمين.

- على درب عمورية أسلمت بلدة نصرانية بأسرها وكذلك عبد المسيح الراهب الديرياني الذي صار اسمه عبدالله الغريب، طبعة صبيح، القاهرة. د.ت. ج ٢، ص ٢٩٧ - ٣٠٠ .
- (٥٠) في كتاب التوابين لابن قدامة المقدسي (ت ١٢٢٣/٦٢٠) نجد في «ذكر جماعة من أسلم» ثلاثة نصارى الأوّل هو أبو إسماعيل الموصلي الذي هدته آية من القرآن الكريم والثاني شاب (يُدعى عبد المسيح؟) صاحب الحجاج إلى مكة والثالث طبيب نصريّ كوفي بالإسلام على ما تصدق به من إطعام فقير وصحبه الأربعين، كتاب التوابين، تحقيق جورج المقدسي، دمشق، ١٩٧١ ، ص ٢٨١ - ٢٩٢ .
- (٥١) من أسرة بني جهير القوية النفوذ، انظر مقالة كلود كاهن عنها في E.I.² II, p. 394-395 بعنوان Djahîr (Banū). وتضيّط طبعة بيروت للكاميل في التاريخ الاسم بفتح الهماء: جهير (؟) .
- (٥٢) في منتصف الطريق بين بغداد والبصرة.
- (٥٣) ماري، ص ١٤٢ .
- (٥٤) (١٠٧٢ - ١٠٩٢)، انظر E.I.², III, p.225-226, par M. Th. HOUTSMA
- (٥٥) سقط العدد «١٠» من «١٨» في نص ماري، ص ١٣٧ ، س ٢١ . ويلحظ في خلال حفل الرسامة سيامة الرئيس ابن الفتح سعد الله «بن نظام الملك»؟. عن مكيخا: ماري، ص ١٣٧ - ١٥٢ - ١٥٢ ، صلبيا، ص ١٠٢ ، ابن العربي، ج ٢ ، العمود ٣١٠ - ٣١٢ . توجد عناصر من الفصل الحاضر في مقالة لي بعنوان: Makkîha 1er et Ibn al-Wâsîtî Le Muséon, 91 (1978), p. 449-471.
- (٥٦) ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ١٢١ .

٢٨ - المستظاهر (٤٨٧ - ١٠٩٤ / ٥١٢)

كان أبو العباس أحمد المستظاهر بالله في السادسة عشرة من عمره لما خلف أبيه في ظل سلطنة بركيارق،^(١) وبدأ خلافة دامت أربع وعشرين سنة «لم يكدر يؤقى له في تاريخها السياسي على ذكر يُذكر»،^(٢) وقد وزر عزّ الملك بن نظام الملك للسلطان بركيارق. أمّا وزير الخليفة فكان، في بداية الخلافة، عميد الدولة أبو منصور بن جهير التغلبي الذي ورثه الخليفة الشاب عن أبيه المقتدي.

في العام نفسه، أي ٤٨٧ / ١٠٩٤، قتل طبيب مشهور يُدعى أبو نعيم (أو نعيم؟) بن ساوا الواسطي الذي يرجح أن يكون نصراً نظراً إلى اسم أبيه. ولا نعلم شيئاً عن ظروف مصرعه ولا هل كان ذلك قبل خلافة المستظاهر أم خلاها.^(٣)

في العام التالي هدم فيضان دجلة جدار قصر الخلافة من جهة الحرير، وقد أوقفت الحروب بين سلاطين السلاجقة أعمال الترميم، وكادت بغداد تصبح نوبة ليوسف بن آبق التركماني من أمراء تاج الدولة تشن^(٤) الذي اكتسح المنطقة المجاورة.

نزاعات داخل الكنيسة

لن أعيد هنا ما قلته في موضع آخر^(٥) عن السجال الكنسي الذي نشب بين مكيخا الجاثليق وابن الواسطي الراهب المتطلب، والذي انتهى (في العام ١٠٩٧) بحرمان ابن الواسطي ثمّ بما أنزله الجاثليق به من عقوبة العمى «معجزة»، وهي عقوبة تعدّ طفيفة إذا ما قيست بما أظهره مكيخا، في أحوال أخرى، من مقدرة رهيبة على تعجيل آجال أعدائه بالدعاء عليهم.

في الحالة التي بين أيدينا أراد الجاثليق الإبقاء على حياة الطبيب ويدو أن عما كان مؤقتاً. وقد حاول ذوو النفوذ من أصحابه التدخل للدفاع عنه، ذلك لأنَّه كان آنذاً طبيب الخليفة المستظہر، وكان عظيم المتزلة عنده. فمن ذلك أنَّ الطبيب لما عجز عن الوفاء بدين قدره ألف دينار اضطر إلى رهن كتبه لقاء نصف المبلغ فدفع الخليفة النصف الثاني. ^(٦)

في هذا الوقت، أي بعد الحرمان في ما ييدو، تدخل قصر الخلاقة لصالح الطبيب، فاستدعي الجاثليق رسميًا من دار الروم، ووضع تحت الحراسة بدار في محلّة باب العامّة ^(٧) كانت لرجل يُدعى بدران فهروز. وقد مكث مكيحا هناك، يصحبه واحد من تلاميذه فحسب ينام على الأرض مفترشًا شدّاً ^(٨) لا غير بانتظار المشول بين يدي الخليفة.

وعندما استحضره عميد الدولة بطلب من مولاه العظيم، دار بين الرجلين حوار التزم فيه الوزير العظيم النفوذ جانب الاعتدال الحصيف لما كان يعرفه من منازلته خصماً يستمدّ من المقدرة على صنع الكرامات هيبة مرهوبة. ^(٩)

سواء أكانت لهجة الوزير، لهجة تأبٍ أو اقتراح وديٌ إذ قال: «لا يجوز أن تختلف أمير المؤمنين وتغتصب طبيه» يعني ابن الواسطي. فقد جاء رد الجاثليق بلا مواربة ملتهباً: «لا يجوز أن يغضبني ويخلوفي في ما أفعل، وأنا أمري عليه». لم يكن عميد الدولة معتاداً على أن يخاطب بهذه اللهجة، لذلك هي غضبه وفتّ عن الوعيد إيجابته إذ قال: «إن لم تقبل منه، ما لك شغل في بلدنا». وكان ذلك يعني التفري إلى بلاد الروم المعادية. ولكن الجاثليق لم يهرب التهديد بل أجاب: «إنني إن مضيت من بلدكم فأمري ونهي وما أحلّ وأعقد، فهو على حاله ولا يحسب أنَّ هذا العهد الذي كتبتم لي أنا مولٍ به وإنما هو سنة وعهد وإلاً فأنا مولٍ من السماء» وإن كان أمركم ونبيكم مائتي فرسخ فأنا أمري من شرق الأرض إلى مغربها وأمّا هذا الطاغي يعني ابن الواسطي فلا يصح له صلاة إلاً بذكره».

ولعلَّ الوزير لم يزعج من هذه الجملة الأخيرة بل ربما وجد فيها مخرجاً لائتاً. على أيّة حال توقفت الماناظرة عند هذا الحدّ، ثمَّ رفع الوزير تقريراً خطياً إلى الخليفة

«وما أخلَّ بحرف واحد». ولما كان من غد ذلك اليوم ومثل ابن الواسطي بين يدي مولاه أحَبَ الخليفة أن يستثبت منه صحة زعم الجاثليق فسأله: «أنت إذا ما صلَّيت تذكر في صلاتك الجاثليق فقال نعم. وقال له: ما يصح أن تخلَّ بها؟ فقال ما يجوز...». فلما سمع الخليفة إقرار المذنب، أحس بأنه قد حشر نفسه في قفير النحل، فصرف الطبيب قائلاً: «إذا كان لا يجوز إلا أن تذكر اسمه في صلاتك فأيُّش يدخلنا نحن بينكم، ولا يجوز أن تخالفه؟» ثم وجَّه في الحال ورفع الحراسة عن الجاثليق، فأطلق سراحه فعاد إلى دار الروم «وطاب قلبه».

كان ابن الواسطي حتى ذلك التاريخ قد انزوى في كنيسته الأصلية بمحلة العتيقة، حيث استمرَّ في إقامة الصلوات وتوزيع القربان على جماعة من أصحابه مستهيرًا بأمر الحرمان.

وقد توسَّط الوزير في مصالحة الرجلين، فاستدعاهما إلى داره، وأمر ابن الواسطي بأن يقبل يد الجاثليق، فاكتفى الجاثليق بهذا القدر، ولم يطلب منه أكثر ليرفع الحرمان.

ولم يطل الوقت حتى حلَّ عيد كنيسة العتيقة^(١٠) «في منتصف الصوم الماراني»، فترأس الجاثليق الاحتفال واحتجب عنه ابن الواسطي. إلا أن القس الطبيب حضر يوماً مراسم دفن بعض أعيان النصارى حيث واجه الجاثليق فقبل يده حسب العادة، ولكنه لم يلبث أن غادر المكان. بعد ذلك نجده في كنيسة رعيته بسوق الثلاثاء.

ملك الفرنج بيت المقدس

في حوالى هذه الفترة، أي في العام ٤٩٢/١٠٩٩، استولى الصليبيون على بيت المقدس وأعملوا السيف والسيف في أهلها وركبوا شَتَّى صنوف الفظائع حتى في حرم المسجد الأقصى. ولما بلغ الخبر إلى بغداد بكى الناس بالمدينة كلها، وهبَّ خطباء المساجد كلَّهم يستهضرون المؤمنين إلى الجهاد^(١١). ولكن ثمة أمر حري بالانتباه: لا ذِكر لأية حادثة ضد النصارى لا في تواريخ المسلمين ولا النصارى. وهذا من الأمور التي لا بدَّ من ذكرها.^(١٢)

ويجدر بنا في هذا المجال أن نلاحظ مع E. SIVAN^(١٣) «أنَّ الجهاد لم يكن له، طوال القرن الثاني عشر، أيَّ تأثير في أحوال أهل الذمة إلَّا إِبَان حصار أنطاكية (١٠٩٨) وحصار حلب (١١٢٤)».

وقد تغير موقف عامة المسلمين في العهد الأيُّوبِي في مصر بخاصة، إِبَان فتنيَّة ١٢٤٢ و ١٢١٩. في الفتنة الأولى، يبدو أنَّ الملك الكامل كان يوافق على ما جرى من تعديات توقع منها أن تخلق جُواً مؤاتِّيا لجمع المتطوعين للقتال في دمياط، أمَّا في الثانية فقد عاقب صلاح الدين مثيري الفتنة. وقد اندلعت، في دمشق سنة ١٢٥٠، وبعد أيام من استسلام القديس لويس، «بَهْةً محدودة» أخرى من تلك الهبَّات التي تظهر في لحظات الهايج الشدِيد، فقد انقلبت الجماهير المسلمة النشوانة على النصارى المحليَّين الذين ربَّما كانوا قد سُودُوا وجوه أصنامهم في كنائسهم حزناً على هزيمة الفرنج.^(١٤) لذلك نفهم أن يكون المسلمون قد ردُّوا على ما اعتبروه استفزازاً.

في هذه الحالات كلُّها كانت الفتن تعبيراً عن ارتياح (ربَّما كان له ما يسوغه أحياناً) من تعاون النصارى مع العدو، أمَّا العامل الفعَّال فهو عامة المدن الكبرى يقودهم غالباً خطباء أو وعاظ متشددون، ولستنا، إذَا، أمام حملات اضطهاد تنظيمها السلطة. ويؤكُّد هذا الأمر ما يبدو من تأسُّف ابن القِيَّم (القرن ١٤) على تساهُل الملوك، إذ يقول: «لو علم ملوك الإسلام بخيانته النصارى الكتاب ومكاتبتهم الفرنج أعداء الإسلام، وتمَّنُوا أن يستأصلوا الإسلام وأهله وسعيهم في ذلك بجهد الإمكان لشاهِم ذلك عن تقربيهم وتقليلهم الأعمال». (١٥) ولكن الحقيقة أنَّ «ملوك الإسلام» كانوا على بيَّنة من واقع الحال وكانوا يعرفون أنَّ هذه الاتهامات كانت باطلة في معظم الأحيان.

لذلك لم يتغيَّر الموقف المبدئي لفقهاء ذاك العصر من جراء الحملات الصليبيَّة. فقد ظلُّوا يميِّزون بين الموقف من نصارى الداخل وبين الموقف من نصارى الخارج، حتى إنَّ رجلاً من أكثر الناس حمَيَّة للجهاد، مثل موقف الدين بن قدامة (ت ٦٢٠/١٢٢٣) قد أفتى بوجوب رعاية ذمة أهل الذمة.^(١٦) ولكن، لنعد إلى بغداد.

فتنة أخرى

إن تاريخ حرمان ابن الواسطي (١٠٩٧) ومثله ظروف هذا الحerman تجبرنا على تمييز قضيته هذه عن أزمة أخرى، أشد منها غموضاً، أدت إلى إبعاد الجاثليق عن مقره لفترة قصيرة.

كانت مدينة الحلة إمارة يحكمها الغساني سيف الدولة^(١٧) صدقة بن مزيد وكانت الملاذ العادي، في ذلك العصر، لكن تضطرب الظروف إلى الابتعاد عن بغداد كما رأينا من قبل عند الكلام عن بني المصلايا.^(١٨)

ولما سُجِّنَ على مكيحا الجاثليق أراد أن يستجير بأمير الحلة العربي الذي كان الخليفة يحتاج كثيراً إلى قوته ليصون هيبة الخلافة في وجه سلاطين التركمان وأمرائهم. بيد أنَّ رجلاً يُدعى ابن حبشي^(١٩) اعترض على ذلك وحمله على مغادرة الحلة. لا ريب أنَّ مكيحا قد استنزل الغضب الإلهي على غريمه، فانهدمت داره. ولكن الجاثليق اضطر إلى التفتيش عن ملاذ آخر.

هل اندفع عندهِ جنوباً حتى وصل إلى بلدة النيل؟^(٢٠) هذا ما لا نستطيع البُلْطُ فيه. وفي أثناء انتباذه من بغداد حاول الحزب المناوي له، في طائفته نفسها، أن يستقدموا يشوع يهود مطران نصبيين لينصبُوه جاثليقاً بدلاً منه. أما مكيحا الذي كان غادر بغداد لتوجه إلى الحلة، فقد كان بالمدائن، على بعد ٣٥ كلم، لما بلغه الخبر، فأقبل يصلي. ولما نهض من صلاته قال: «قضيت الحاجة ومات الرجل»، يعني المطران. وكان هذا قد توقف في طريقه من نصبيين إلى بغداد، عند دير مار ميخائيل قبل دخوله الموصل، أي على مسافة أربع مئة كلم ونِيَفَ من الموضع الذي كان فيه الجاثليق، فهات هناك.

أما مكيحا فقد رجع، بعد مدة من النيل إلى بغداد. ولن أعود هنا إلى كراماته «الانتقامية»^(٢١) (فتحمة ست جث مسجلة في ملفه) ولا إلى مصفاته المكتوبة، فقد درس هذان الأمران في مقالة Le Muséon المذكورة آنفاً.

عود إلى ابن الواسطي

هل كان لطبيب الخليفة ضلع في أزمة ١١٠٤ - ١١٠٥ الجديدة وإبعاد

الجاثليق مؤقتاً على أية حال حصل ابن الواسطي سنة ١١٥٥ (في ٢٩ آذار تحديداً) «لقربه من الخدمة الشريفة الإمامية المستظهرية^(٢٢) وخدمته للجوانب المحترمة وأفعاله المرضية الحسنة» على إعفاء النصارى ببغداد من لبس الغiar.

بهذا العمل كان الطبيب يحقق نبوءة مكيخا بأنه سيؤدي خدمات جليل للنصارى، ولكن توقيت هذه الخدمة يربكنا. لما كان أمر العفو لا يوافق تغيير الخليفة ولا تبديل الوزير (كان قوام الدولة في الوزارة منذ أيار - حزيران ١١٣٣) فقد يجوز لنا الظن أنّ الطبيب قد أحْجَل تدخله متعمداً (لأنّ لبس الغiar كان مفروضاً منذ ١٤ عاماً) ليبيّن نفوذه (؟) أو ربما اختار زمن السخط على الجاثليق ليبيّن أنه أقدر منه على التأثير في مصير جماعة النصارى؟ أية تكون الحال، فإنّ ماري المؤرّخ يخصّص ما يقارب الصفحة (وهذا نادر جداً) للثناء على مناقب القسّ المتطبّب «الذى كان أعيجوبة زمانه». وهو يذهب إلى حدّ امتداح إخلاصه في «العمل بالترتيبات البيعية» (؟) والدفاع عن العقيدة (النسطوريّة) القوية ضدّ «الفرق المبaitة» أي ضدّ اليعاقبة والموارنة،^(٢٣) تحديداً.

تدلّ إشارة من ابن الأثير^(٢٤) ترد تحت العام ١١٠٨/٥٠١ على أنّ مجد الدين أبا المعالي هبة الله بن المطلب^(٢٥) كان، في ما روي، يكثر من استعمال الذميين في دواوينه. ولما كانت عليه مأخذ أخرى طلب السلطان محمد بن ملكشاه السلاجوقى من الخليفة عزله. ثمّ لمّا عدل السلطان عن موقفه، لأسباب نجهلها، وسمح للخليفة باستعادة وزيره، شرط عليه شروطاً منها: «العدل وحسن السيرة وأن لا يستعمل أحداً من أهل الذمّة». ربما كان من المفيد أن نعرف من أين جاء الضغط لفرض الشرط الأخير. فمن المستبعد أن يعزى ذلك إلى قرار مباشر يصدر عن السلطان، لأنّه لم يكن له من العمر إلا ستة وعشرين عاماً ولأنّ الوزير عمل في خدمته هو من بعدهما عزل من منصبه.

موت مكيخا وخلافته

مات مكيخا من بعدما عاد إلى دار الروم يوم الأربعاء ١٢ شعبان ١٧/٥٠٢ آذار ١١٥٩. ولا تذكر المصادر شيئاً عن ظروف وفاته ولا عن سنّه يومئذٍ.

أاما ماري الذي لم يزل متنازعاً بين إعجابه بابن الواسطي وبين خشيته من هيبة مكيخا (تراه يتربّح على كلّ منها كلّما أتى على ذكر اسم أي منها) فيختصر سيرة حياة الحايثيق بكلمات قلائل: «وما عرف له أمر يكره لا في صيام ولا في رهبة».

وبعد وفاة مكيخا شعر كرسى الجملة مدة ستين من دون أن تذكر المصادر النصرانية سبباً لذلك. ولا سبيل إلى استقرائه من المصادر الإسلامية التي لا تتكلّم في تلك الفترة إلاّ عن وقائع الحرب مع الصليبيّين وتبدل الوزراء. ولا خبر أيضاً عن تفاصيل انتخاب خلفه.

كان إيليا بن المقلّى^(٢٦) مطران حزّة والموصى، ولم يبرز إلاّ يوم سيامته في ٥ شوال ١٤٥٠ نيسان ١١١١. وكان في مقدمة الأعيان النصارى الذين حضروا سيامته القسّ «الأجل» أمين الدولة موّفق الملك أبو الحسن هبة الله بن أبي العلاء صاعد بن إبراهيم الغياثي المعروف بابن التلميذ، ساعور البيمارستان العصدي،^(٢٧) ومعه زعماء الطائفة وجمهور النصارى.

نرى هنا واحدة من أشهر أسر الأطباء النصارى. وكان الذي صادفناه الآن يتتمي إلى بني غيث عن طريق أمّه، وكان يتقن السريانية واليونانية والفارسية والعربية، وصنّف تصانيف كثيرة في الطب^(٢٨) ونظم قصائد عدّة (وكان يكاتب مرضاه نظمه).^(٢٩) وكان له ابن، هو رضيّ الدولة أبو نصر، مات مخنوّقاً في بعض دهاليز داره. وقد عُمِّر أمين الدولة حتى أدرك جملة يشوع يهيب البلدي^(٣٠) سنة ١١٦٤، وكان آنئذ يناهز المئة عام.^(٣١)

إلى الأسرة نفسها كان ينتمي طبيب شاعر آخر مشهور هو معتمد الملك (أو معتمد الدولة) أبو الفرج يحيى بن صاعد بن يحيى بن التلميذ،^(٣٢) الذي عاش حتى آخر خلافة المستنصر (حوالى ١١١٨/٥١٢) وكان له تلاميذ كثر في الطب، وأقام فترة في أصفهان. وقد أسلم المجد بن الصاحب،^(٣٣) ابن أمين الدولة قبل وفاته أبيه، وهو الذي ورث أموال ابن عمّه المغدور وكتبه (حمل اثنى عشر جملة).

لا يجوز لنا الكلام عن هؤلاء الأطباء النصارى من غير أن نلمح إلى

المناسفات التي كانت تستشيري بين جماعات أو أسر الأطباء. من ذلك أنّ أمين الدولة هبة الله بن التلميذ كان عرضة لافتراءات طبيب يهودي يُدعى أبو البركات هبة الله بن عليّ بن ملكاً كان يشاطره خدمة الخليفة المستضيء. ولما بَيْن التحقيق الذي أمر الخليفة بإجرائه بطلان الافتراءات عُزلَ ابن ملكاً وأُبعد من الخدمة. وقد أسلم بعد مدة، ونجد في ما بعد في خدمة الخليفة المستتجد. (٣٤)

للحظ عابرين أنه نظرًا إلى الجو العام المؤاي الذي أوجده المستظهر، ونظرًا إلى الجو المحلي المتسامح في ظل ولاية خصيّ أرمنيّ الأصل هو مجاهد الدين، (٣٥) توصل المفريان ديونيسيوس موسى، بعد سنة ١١١٢، إلى أن يستحصل من الخليفة على الإذن بإعادة عبارة كنائس تكريت المهدّمة، أو على الأقل تلك التي ظلت في يد النصارى منها. والظاهر أن ذلك لم يحرّك دواعي العيّقة للعودة إلى المدينة التي هربوا منها، ولم يبق (ولأجل قصير) إلّا جماعة صغيرة من النصارى في ما كان يعده مركز القطاع الشرقي من الكنيسة السريانية المغربية. (٣٦)

مات الخليفة المستظهر سنة ٥١٢/آب ١١١٨، عن واحد وأربعين عاماً، ولي الخلافة فيها مدة أربعة وعشرين عاماً. (٣٧) ويثني ابن الأثير عليه بقوله: «وكانت أيامه أيام سرور للرعية، فكانها من حسنها أعياد». . . على آية حال ربّما كان هذا صحيحًا حتى بالنظر إلى النصارى، بعد أيام أبيه.

الحواشي

(١) E.I.², I, p. 1083-1084, s.v., par CL. CAHEN.

(٢) الصفدي، الواقي، ج ٧، ص ١١٥٧، الرقم ٣٠٤٣، E.I.¹ III, p.825-826, s.v. par K.V. ZETTERSTEEN.

(٣) الكامل، ج ١٠، ص ٣٧٨.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٤٤، ٢٥٥.

(٥) Le Muséon, 91 (1978), p.449-471.

(٦) هنا، مع الأسف، الخبر الوحيد الذي يرويه عنه ابن أبي أصبيعة. ولكننا نجد في مصادر أخرى أنّ أبي سعيد المعوج صاحب الديوان والمظفر بن الدوالي الحاجب، ورجل ثالث يُدعى الركابي يتكلّفون الذهاب لزيارة الطبيب في داره.

- (٧) ويذهب ماري (ص ١٥١) إلى أن هذه الدار «كانت مقطوعة الدرجة» (للتأكد من استحالة هرب السجين منها؟).
- (٨) يقول PAYNE SMITH في معجم Thesaurus ، ص ٥٢١ - ٥٢٢ ، مستشهاداً ببر علي، أن الشدّائية هي كالبرنس. وعلمون أن البرنس القديم كان أقصر من البرنس المعروف اليوم، إذ كان يقتصر على تخطية الرأس والكتفين.
- (٩) نذكر أن المتصور كان يعد صلاة الأخبار مستجابة وغير مأمونة العواقب.
- (١٠) لا ذكر لهذا العيد في قائمة أعياد أديرة بغداد التي يوردها الشابشتي في الديارات الطيبة الثانية، بغداد ١٩٦٦ ، ص ٤ - ٣ ، إلا أن يكون هذا هو دير الزريقية الذي لا يعرف عنه شيء، والذي كان عيده يقع يوم الأحد الثاني من صوم النصارى الكبير، حوالي سنة ١٠٠٠ للميلاد.
- (١١) البداية، ج ١٢ ، ص ١٥٦ ، على رواية ابن الجوزي. ربما دعانا هذا إلى التخفيف من حدة قول S. RUNCIMAN : «كان من شأن هذا التعبير عن التعصب المسيحي الدموي أن يولد ردة فعل الإسلام المتعصبة» في History of the Crusades , I, p. 287.
- (١٢) يلاحظ كلود كاهن بحق: «أن مصير النصارى المقيمين داخل مملكة السلاجقة قد ظلَّ من دون تغيير. فقد راعى السلاجقة، ورثة التقاليد الإسلامية السنية، عهد الذمة الشرعية الذي منحته دولة الإسلام لرعاياها غير المسلمين»، في An Introduction to the First Turcobyzantina et Oriens Christianus , Variorum Reprints, Crusade Londres, 1974, B. p. 9.
- L'Islam et la Croisade, p.180-181, Chrétiens sous les Ayyoubides, p.124, 129-30. (١٣)
- (١٤) أبو شامة، ذيل الروضتين، تحقيق الكوثري، القاهرة، ١٩٤٧ ، ص ١٨٤ ..
- (١٥) ص ٢٤٢ - ٢٤٣ .
- (١٦) ابن رجب، كتاب الذيل على طبقات الخنابلة، تحقيق الفقهي، ج ٢ ، ص ١٤٦ .
- (١٧) لقد بينَ جورج المقدسي في: Notes on Hilla, p.249-59 أن المدينة كانت قائمة قبل سيف الدولة الذي ربطها باسمه وزينها، وأن بداية السلالة يجب أن ترقى إلى الأعوام ٣٤٥ - ٣٥٠ (ص ٢٥٩ - ٢٦٢).
- (١٨) يقدم الكامل، ج ١٠ ، أمثلة عدّة منها: زعيم الرؤساء أبو القاسم بن جهير سنة ١١٠٣ قبل أن يصير وزيراً بلقب قوام الدولة (ص ٣٦٦). سعيد، الوزير المعزول سنة ١١٠٣ أيضاً (ص ٣٧٧). الوزير أبو القاسم، من جديد سنة ١١١٨ (ص ٤٣٨) إلخ. ويقول ابن الأثير هنا: «وكانت [دار سيف الدولة] ملجاً لكل ملهوف». وقد استمرَّ ديبس بن صدقه، وكان من أجود أهل الأرض، في القيام بالدور نفسه الذي كان يقوم به أبوه، حيال أبي الحسن أخي الخليفة المسترشد، مثلاً. انظر مناقب المدينة، في هذا الشأن في كتاب الفخرى لابن الطقطقي، ص ٣٠٢ .

- (١٩) نجد في الكامل، ج ١٠، ص ٤٣٠، بعد ستين من هذه الحادثة رجلاً يدعى حبشي بن جكرمش كان يملك على جزيرة بن عمر. هل الشخص المذكور هنا هو نفسه؟
- (٢٠) صليباً، ص ١٠٢، (أثر المسيحية) Assyrie Chrétienne, III, p.252. وكان سرجيس أسقف يُفْرَن والنيل والنهاية قد حضر سيامته.
- (٢١) واحدة فحسب من هذه الكرامات تتعلق برجل غير نصراني، بأمير تركي أقطع على ناحية السلامية بالحالف، فاستولى على بعض ضياع الجشلقة. فلما ضربه المرض اعتذر عَنْه بدر منه وردَ المال فشفاه الجاثليق.
- (٢٢) وفي هذا رد على سؤال جورج مقدسي الذي يقول (Ibn Aqil, p161): «إن المؤرخين في حيرة من تفسير سبب» عفو الخليفة . . . المتظم، ج ٩، ص ١٤٣. البداية، ج ١٢، ص ١٦٤.
- (٢٣) لا يذكر وجود هؤلاء في العراق إلاً نادراً. وعلى الضد من ذلك، لا كلام هنا عن المكاتبنة الذين نصادفهم كثيراً في مواضع علة.
- (٢٤) الكامل، ج ١٠، ص ٤٥٤.
- (٢٥) وزير من المحرّم ٥٠١/آب - أيلول ١١٠٧ حتى رجب ٥٠٢ أو ٥٠٣، الكامل، ج ١٠، ص ٤٣٨، ٤٧٠، ٤٧٨.
- (٢٦) ماري، ص ١٥٢ - ١٥٣، صليباً، ص ١٠٢ - ١٠٤.
- (٢٧) ابن أبي أصيحة، ص ٣٤٩ - ٣٧١. شيخو، شعراء، ص ٣١٥ - ٣٣٤ و ٣٩٤ مع مصادر. وكان باب داره بسوق العطر إلى جانب الباب الغربي لقصر الخلافة في الشارع الذي ينزل إلى شاطئ دجلة.
- (٢٨) له رسالة في الدفاع عن الإيمان المسيحي في خطوطه فريدة هي خطوطه: 193 Diarbékir (Catal. A. SCHER, dans J.A., Nov. Déc., 1907, p. 414-415) ولكنها ليست في جلة New Finds of Syriac Manuscripts in the Middle East, ZDMG, sup. I, vol. 2, 1969, p.480.
- (٢٩) ومن هؤلاء «المكاتبين» الكاتب النصراني جمال الرؤسأء أبو الفتح هبة الله بن الفضل بن صاعد البغدادي، شيخو، شعراء، ص ٢٩٨ - ٣١٠.
- (٣٠) صليباً، ص ١٠٦.
- (٣١) فقد كان يجلس مذ كان يزور الخليفة المقتدي، بسبب علوّ سنّه، ابن العربي، المختصر ص ٣٦٣ - ٣٦٤.
- (٣٢) شيخو، شعراء، ص ٣١٠ - ٣١٤ و ٣٩٤.
- (٣٣) المرجع نفسه، ص ٣١٨.
- (٣٤) ابن أبي أصيحة، ص ٣٧٤ - ٣٧٦.
- (٣٥) ابن العربي، ج ٢، العمود ٣١٨.

(٣٦) يميل المؤرخون من مغاربة السريان الذين يروي عنهم ميخائيل السرياني (ج ٣، ص ٢٥٦ - ٢٥٧) إلى التشاؤم في ما يتعلّق بهذه الحقبة: من ذلك أنَّ ديونيسيوس بن صليبي أسقف آمد يتحدث عن «أيام الاضطراب التي نعيشها»، ومنه ما يكتبه يوحنا أسقف كيسوم: «ال أيام منهكة، وقد ألمَّ بجيئنا وهن عظيم لأنَّ جماعتنا السريانية كلَّها قد هلكت وسُحقت ». (٣٧) الكامل، ج ١٠، ص ٥٣٤ - ٥٣٥. ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ١٣٧.

٢٩ - المسترشد (١١٣٥ - ١١١٨/٥٢٩)

بدأ أبو منصور الفضل المسترشد بالله^(١) بن المستظهر، سنة ١١١٨/٥١٢، خلافة دامت قرابة ثمانية عشر عاماً، استهُلت منذ بدايتها بشعار الإصلاح. فقد أمر بكسر جرار الخمر التي كانت لأبيه، وطرد المغنيات والمعنفات.^(٢) على إثر حلم تراءى له فيه أنّ أباً ينذره بالابتعاد عن قبره لئلا يجتذبه إليه، استولى على قصر أبي طاهر يوسف بن أحمد الحَزِيْرِ صاحب المخزن، من بعدما ألقى القبض عليه، فوُجِدَ فيه «كنيسة ومذبحاً وألتها» فلما سُئل صاحب المخزن عن ذلك حاول أن يتنصل من التهمة قائلاً: «لي امرأة نصرانية قد عملت ذلك من دون علمي».^(٣)

في العام ١١٢١/٥١٥ نشهد أمراً، صار مأموراً بعد ذلك، ألا وهو التهديد بفرض الضرائب المميزة من أجل ابتزاز أهل الذمة، واعتراض المال منهم.^(٤) أما صاحب هذه الفكرة الرائعة فكان السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه.^(٥) إقترب الذميين على السلطان صفقة مربحة من بعدهما هُنّدوا بلبس الغيار: فقد تقدّموا بدفع مبلغ من المال فقبل السلطان عشرين ألف دينار وخصص أربعة آلاف أخرى لل الخليفة.

يجدر جورج مقدسي من المبالغة في التبسيط التي ينطوي عليها القول إنّ الخليفة كان يقوم بدور «حامٍي الذمة في وجه السلطان»: إذ قد رأينا أنّ الخليفة نفسه قد أخذ حظه من المال الذي دفعوه.^(٦)

ويذهب الباحث نفسه إلى استنتاج عام^(٧) يبدو صحيحاً في معظمها، وإن كان لا بدّ لنا من التمييز بين السلاجقة أنفسهم وبين البعض من وزرائهم كنظام الملك،

الذي تعرّفنا إليه مثلاً. حاكم ما يقول جورج مقدسي: «لم يكن الحكم السلاجقة يتخلّون بالتسامح حيال الأقليات الدينية، بل بعدم الاكتراش». ^(٨)

«أما سوء المعاملة الذي كانت هذه الأقليات تتعرّض له أحياناً فيعزى إلى المكانة الاجتماعية الفعلية الرفيعة التي كان يتمتّع بها اليهود والنصارى بسبب دورهم الإداري أو المالي لدى الحكم. ولم يكن العلماء وهم لسان حال الشعب، يلاؤن من الحكم أذناً صاغية لدعواهم ضدّ الأقليات إلاً كلّما كان هؤلاء الحكماء يجدون مصلحتهم في الإصغاء. فمن ذلك أنه كلّما احتاج الحكم إلى المال لم يكن عليهم إلاً تهديد الأقليات بتطبيق القيود، فيحصلون على المال. على أيّة حال لم يكن الموظفون المسلمين أنفسهم ينجاة من مصادرات الحكماء. وقد عانى اليهود والنصارى من المصادرات نفسها بوساطة هذه الأساليب. كان بذلك الأموال يبطل فائدة تطبيق القيود التي كانت لا تُعيّز بين اليهود والنصارى. كان كلّ من يقدر على دفع الأموال يعني أكثر من غيره، سواء أكان من النصارى أم من اليهود، ولم يكن لاعتبارات الدينية أيّ مدخل في هذا الشأن. لم يكن اليهود يخضعون لهذه التهديدات من حيث هم يهود، بل من حيث هم يملكون المال، مثلهم في ذلك كمثل الوزراء والعمداء والشحّنات والتجار، وذلك كلّما احتاج الخليفة أو السلطان إلى المال».

الأغلب أنها كانا بحاجة إليه في العام ١١٣٠ / ٥٢٥، إذ إنه قد أعيد فرض القيود على الذمة مجدداً. ^(٩)

وفي نهاية العام ٥٢٥ / تشرين ١١٣١ مات الجاثليق إيليا الثاني بن المقلني عن جثثة دامت واحد وعشرين عاماً وسبعة أشهر. وكان هذا «الشيخ الفاضل العالم الماهر» الذي لا نعرف عنه إلا النذر اليسير، «قد حكم بالحق والنصفة بين القوي والضعف والغني والفقير».

إبن الواسطي جاثليق منتخب
لا نعرف شيئاً عما حل بالقسّ المتطلب بعد وفاة الخليفة المستظاهر سنة

١١١٨، ولا في أثناء جثلقة إيليا الثاني خلف مكيحا. فقد دامت المفاوضات في ما بين أعيان العلانيين والمطارنة المسيمين، بشأن اختيار خلف لإيليا، منذ وفاته في تشرين ١١٣١ حتى أوائل حزيران ١١٣٢. وعندها وقع الاتفاق على ابن الواسطي، فكتب له الشلموث وحمل إلى داره بسوق الثلاثاء. وبعد موعدة عَبر فيها (حسب الأعراف) عن عدم استحقاقه لهذه الرتبة الرفيعة خلص إلى القبول، فترك منصبه وتطبيبه واعتكف في كنيسة محلته بالعتيقية في غرب بغداد.

ولكن الأقدار ما شاءت أن يُسام ابن الواسطي جاثليقاً. فقد ألت به وعكة بعد ثلاثة أيام وانتابه الحمى، ثم أخذته بعد أسبوع، فمات يوم الاثنين ١٠ حزيران ١١٣٢، بعد ثلاثة وعشرين عاماً من وفاة خصمه مكيحا. وقد دُفن في كنيسة محلته خلف البيس، إلى جانب والده. ويقول ماري عنه كما قال عن مكيحا، قبل الترحم عليهما: «وما عرف له أمر يكره لا في صباح ولا في رهبنته».

برصوما الأول

XXIX جاء بعد إيليا بن المقلي برصوما أسقف «مرعيث» ثمانين حيث نزل نوح، في ما يروى، من السفينة ومعه صحبه الشهانون. وكان برصوما رجلاً زاهداً ورعاً تقياً مشهوداً له بحسن تدبير رعيته،^(١٠) كما كان معروفاً برؤاه الصادقة.

لا تفاصيل لدينا عن انتخابه إلاً منذ جاء لِيُسام جاثليقاً ببغداد حيث كان قد نزل بدار أبي الفضل بن داود الكاتب بالبادرية. وفي الثامن من شوال ٥٢٨ / الأول من آب ١١٣٤ استقبله شرف الدين عليّ بن طراد الزيبي، وزير الخليفة المسترشد منذ سنة ٥٢٢،^(١١) فخلع عليه طرحة^(١٢) ودفع إليه عهد الخليفة بإقراره جاثليقاً، ثم عاد برصوما في موكب من الحجاب وفرسان الأتراك إلى كنيسة سوق الثلاثاء. وبعد ثلاثة أيام، في ١١ شوال / ٤ آب، جرت رسامته بالمداين على ما جرت به العادة.

إنتهت جثلقة برصوما القصيرة (أقل من سنة ونصف) في خضم من الصعوبات. نهيت قلية دير الروم وكنيسته، وأخذت الكتب السريانية والعربية

والأئـاث كـله لأنـ الجـاثـيق لمـ يـكـنـ قـادـراـ عـلـىـ تـلـيـةـ الـمـطـالـبـ الـبـاهـظـةـ المـتـذـرـعـةـ بـأـنـفـهـ الأـسـبـابـ. تـراـكـتـ عـلـيـهـ الـدـيـرـونـ وـلـمـ يـكـنـ لـهـ مـالـ لـيـدـفـعـ، فـتـمـيـ الموـتـ وـحـنـ فيـ حـزـنـ إـلـىـ أـيـامـهـ فيـ نـصـيـبـينـ حـيـثـ كـانـ يـنـعـمـ بـالـهـدوـءـ وـالـاعـتـباـرـ. فـقـادـرـ دـارـ الـرـومـ وـلـاـذـ بـكـنيـسـةـ سـوقـ الـثـلـاثـاءـ مـخـبـئـاـ، ثـمـ مـاتـ هـنـاكـ فيـ رـبـيعـ الـآخـرـ ٥٣٠ـ /ـ كـانـونـ الثـانـيـ ١١٣٦ـ. (١٣)

قـبـلـ ذـلـكـ بـأـشـهـرـ قـلـائـلـ، فـيـ ذـيـ القـعـدـةـ ٥٢٩ـ /ـ آخـرـ أـيـولـ ١١٣٥ـ، قـتـلـ
الـخـلـيـفـةـ الـمـسـتـرـشـدـ (١٤) غـيـلةـ فـيـ حـبـسـ السـلـطـانـ مـسـعـودـ، وـمـثـلـ بـجـشـهـ وـكـانـ لـهـ مـنـ
الـعـمـرـ ٤٠ـ عـامـاـ وـوـليـ الـخـلـافـةـ أـقـلـ مـنـ ١٨ـ عـامـاـ. (١٥)

الحواشي

(١) الـبـداـيـةـ، جـ ١٢ـ، صـ ١٨٨ـ - ١٨٩ـ E.I.^١, III, p.824, par K.V. ZETTERSTEEN

(٢) نـقـرـاـ فـيـ تـارـيـخـ مـيـخـائـيلـ السـريـانـيـ، جـ ٣ـ، صـ ٢٢١ـ: «وـقـدـ وـقـعـتـ عـلـىـ الـعـربـ بـبـلـلـةـ وـاضـطـرـابـ حـتـىـ صـارـوـاـ يـقـولـونـ: هـؤـلـاءـ مـنـ نـصـبـهـمـ النـاسـ أـمـرـاءـ لـلـمـؤـمـنـينـ يـنـغـمـسـونـ فـيـ الـمـحـرـمـاتـ. وـلـاـ عـجـبـ بـعـدـ هـذـاـ أـنـ يـزـوـلـ الـمـلـكـ مـنـ يـدـ الـعـربـ».

(٣) الـكـاملـ، جـ ١٠ـ، صـ ٥٣٧ـ.

(٤) الـمـصـدـرـ نـفـسـهـ، صـ ٥٩٥ـ، الـمـنـظـمـ، جـ ٩ـ، صـ ٢٢٨ـ.

(٥) E.I.^١, III, p.138-139, par M. Th. HOUTSMA

(٦) Ibn'Aqil, p.147

(٧) الـمـرـجـعـ نـفـسـهـ، ١٦١ـ - ١٦٢ـ.

(٨) وـفـيـ وـسـعـنـاـ تـأـيـيدـ هـذـاـ إـذـاـ رـجـعـنـاـ إـلـىـ ماـ يـكـتبـهـ مـيـخـائـيلـ السـريـانـيـ، جـ ٣ـ، صـ ٢٢٢ـ: «إـنـ التـرـكـ...ـ الـذـينـ لـاـ يـفـقـهـونـ شـيـئـاـ مـنـ الـأـسـرـارـ الـمـقـدـسـةـ وـيـعـدـونـ الـنـصـرـانـيـ ضـلـالـةـ لـأـجـلـ ذـلـكـ،ـ لـمـ يـكـنـ مـنـ عـادـتـهـمـ الـاستـخـبـارـ عنـ الـعـقـائـدـ وـلـاـ اـضـطـهـادـ أـحـدـ بـسـبـبـ عـقـيـدـهـ كـمـ كـانـ يـفـعـلـ الـرـومـ الـأـشـرـارـ الـهـرـاطـيـقـ»ـ.ـ وـيـسـتـشـهـدـ O.TURANـ بـهـذـهـ الفـقـرـةـ لـيـبـرـزـ «ـالـفـهـمـ الـوـاسـعـ»ـ وـ«ـالـتـسـامـحـ»ـ الـذـيـ تـحـلـ بـهـ التـرـكـ «ـحـيـالـ الـأـعـرـاقـ وـالـأـدـيـانـ الـأـجـنبـيـةـ»ـ (صـ ٦٥ـ - ٦٦ـ).ـ وـبـرـىـ هـذـاـ الـمـؤـلـفـ أـنـ كـلـ «ـالـمـفـوـاتـ»ـ الـتـيـ قـدـ تـقـعـ عـلـيـهـاـ فـيـ ذـلـكـ الـعـصـرـ،ـ إـنـاـ كـانـتـ تـحـصلـ خـارـجـ بلـادـ الـأـنـاضـولـ،ـ أـيـ خـارـجـ قـلـبـ الـمـلـكـةـ الـسـلـجـوـقـيـةـ.

(٩) الـمـنـظـمـ، جـ ١٠ـ، صـ ٢٠ـ، p.161ـ Ibn'Aqil

(١٠) مـارـيـ، صـ ١٥٣ـ - ١٥٨ـ.ـ صـلـيـاـ، صـ ١٠٤ـ - ١٠٥ـ.ـ إـبـنـ الـعـبـرـيـ، جـ ٢ـ، صـ ٣٢٨ـ.

(١١) الـكـاملـ، جـ ١١ـ، صـ ٢٦ـ.

- (١٢) دوزي، المعجم المفصل، ص ٢١٢.
- (١٣) وقد مات بذات الرئة على قول ماري. أما ابن العربي فيروي في تاريخ الزمان، ص ١٤٧، تحت العام ٥٢٩ (؟) وفاة جائيلق النساطرة ويسميه «برجارة» (بدلاً من برصوما). وهو على هذه الرواية قد خرج إلى البستان ليلاً فوطئ حيّة فلدغته. وذكر بعضهم أنَّ الحية لم تلدغه لكنَّ الرعب قضى على حياته».
- (١٤) ثمة روايات أخرى عند ابن الطقطقي، ص ٢٤٣. ويقول هذا الكاتب إنَّه رأى قبر الخليفة في مراجعة سنة ٦٩٧/١٢٩٧ - ١٢٩٨.
- (١٥) الكامل، ج ١١، ص ٢٧ - ٢٨، ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ١٣٧.

٣٠ - الراشد (٥٢٩ - ١١٣٦ / ٥٣٠ - ١١٣٧)

كان أبو جعفر المنصور الراشد بالله، بن المسترشد صنيعة من صنائع الوزير شرف الدين عليّ بن طراد الزيني^(١)، وكان في الثانية عشرة من عمره لما أخذت له البيعة بالخلافة. وقد استمرّت في خلافته القصيرة المناوشات بين الأمراء، ولم يطرل الوقت بال الخليفة الصغير حتى فرّ من بغداد هرباً من السلطان مسعود.

وقد اجتهد في توجيه الفتاوى في خلعته، فكان من جملة ما نقم عليه: «أنه خرق حرمة جواري أبيه وشرب الخمر وترك الصلاة ولعب بالكعب وتمادي في الظلم والعدر وسفك الدماء الزكية»^(٢).

مضى الخليفة الصغير المخلوع إلى الموصل أولاً حيث أنزله عماد الدين زنكى في ضيافته إلا أنه ما لبث أن قُتل غيلة بظاهر أصفهان^(٣).

لا تأتي المصادر على ذكر النصارى الذين عانوا، كغيرهم، من جور العساكر المتخالفة، ومن انعدام الأمان بين معركتين، إذ كان العيارون ينطلقون ويعيشون في الأرض فساداً^(٤). لذلك نفهم لم عجز برسوماً الجاثليق عن دفع الإتاوات التي طلبت منه كلها، ولم يكن في وسع الأقلية النصرانية، خلال تلك الفترة الضطربة، إلا الاحتماء بعض زعماء العصابات من «فتوات» الحي وتلبية طلباته كلها.

الحواشي

- (١) الكامل، ج ١١، ص ٤٢ .
- (٢) الكامل، ج ١١، ص ٤٢ - ٤٣ ، ابن العري، تاريخ الرمان، ص ١٥١ - ١٥٢ .
- (٣) الكامل، ج ١١، ص ٦٢ - ٦٣ . يلاحظ ابن الأثير في هذا الشأن أنَّ كُلَّ سادس من الخلفاء كان يخلع وربما يقتل، ويورث قائمة بذلك.
- (٤) الكامل، ج ١١، ص ٤٥ . ويعدهم محمد أركون في كتابه عن مسكويه، ص ١٦٤ «من الطبقات الخطرة... المؤلفة من صغار الناس المستبعدين غالباً من الوظائف ومن كُل مشاركة منتظمة في مكاسب الحياة... [وهم] السند الاجتماعي الفعال للمحتاله والشيعة المناضلين».
- أما Herbert MASON فيقدّم في الصفحة ١٢٩ من *Two Statesmen of Medieval Islam*, La Haye- Paris, 1972 صورة مثالية عنهم ويشهدهم بروين هود في الفضل والانتصاف للفقراء من الأغنياء. الدراسات الأساسية في هذا الموضوع هي دراسات Cl. CAHEN في E.I.² بعنوان عيّارون، فتوة، حماعة وما يحيل إليه كاهن في ختام كُلِّ من هذه المقالات. نجد قائمة بالأبحاث المتصلة بالعيّارين ببغداد في *Mouvements populaires, Arabica, VI, (1959)*,

p.25-26.

٣١ - المقتفي (٥٣٠ - ١١٣٦ / ٥٥٥ - ١١٦٠)

أبو عبدالله محمد، أخو المسترشد^(١) وعم سلفه المخلوع، بويع له بالخلافة في العام ٥٣٠/أيلول ١١٣٦، ولقب بالمقتفي لأمر الله.^(٢) وكان الحسين بن عمرو كاتبه وعلى بن الراهبة طبيبه نصراين.^(٣)

بعد أحداث «يطول ذكرها» كان من جرائتهابقاء كرسى الجملقة شاغراً مدة ستين، اختير لخلافة برصوما الذي مات في كانون الثاني سنة ١١٣٦، مرشح نافسه على الجملقة من قبل، هو مطران باجرمي.

XXX عبد يشوع بن المقل^(٤) الموصلي. وكان الوزير شرف الدين بن طراد الزيتني^(٥) قد تدخل لترجيح كفته.

عندما صار من الممكن الشروع في مراسيم التولية من قبل الخليفة: خلع الطرحة (كما ذكرناه عند تولية برصوما)، العهد^(٦) وموكب التشيع بالحجاب والأتراء، بقيادة حسام الشرف (كذا) أبي الكرم بن محمد الهاشمي^(٧) صاحب الشرطة (كان هذا الموكب إذن أعلى رتبة من موكب برصوما).

جرت رسامة عبد يشوع الثالث في ٧ ربيع الأول ١٣/٥٣٣ تشنرين الثاني ١١٣٨.^(٨) في الشهر نفسه أزال السلطان مسعود، عند نزوله بيغداد، المكوس «وتقدم أن لا ينزل جندي في دار عami من أهل بغداد إلا ياذن، فكثر الدعاء له والثناء عليه وكان السبب في ذلك الكمال الخازن وزير السلطان».^(٩)

في هذه الفترة بدأ الخليفة يتحرّك للتحرّك من سيطرة السلجوقة مستغلًا انقساماتهم.^(١٠)

ثم استفحلت إتاوات العيارين وبلغت ذروتها حتى إن إعادة تولية شحنكية بغداد لرجل شديد حديد كمجاحد الدين بهروز في العام ١١٤١/٥٣٦ - ١١٤٢، لم تعد تكفي للقضاء عليهم. ذلك لأنَّ ولد الوزير شرف الدين ابن القاورت أخاً امرأة السلطان مسعود كانا يسطران حمايتها على العيارين ويقاسنهم المكاسب.^(١١)

كان لا بدَّ من انتظار العام ١١٤٣/٥٣٨ - ١١٤٤ لكي يأتي ملوك صارم اسمه إيلدرز كان نائباً على شحنكية بغداد فيحصل من السلطان على الإذن بضرب العيارين وكبس «عقيدهم» ابن القاورت وابن الوزير. فأخذ أخو زوجة السلطان وصلب وهرب ابن الوزير «وريئ ابن قاورت مصلوبًا فهرب أكثر العيارين وبعض على من أقام وكفي الناس شرّهم». ^(١٢)

في هذه الأثناء استمرَّت جثلقة ابن المقلبي، في ما يبدو، من دون أحداث تذكر. وقد تمكَّن من إعادة عمارة بعض المباني وبخاصة مباني دار الروم، وهذا يدلُّ على أنَّ تلك الفترة كانت هادئة. على آية حال، ثني مصادرنا على حسن تدبيره وتنتقد بخله وحبِّه لجمع المال. كان قليل التصدق على الفقراء والمساكين، وربما كان مردُ ذلك إلى خشيته من أن ترکبه الديون كما رکبت سلفه.

فلج عبدشوع وعجز عن الكلام ورأى نفسه يموت فبكى على اضطراره إلى مفارقة هذا العالم، ثم فارق في جمادى الثانية العام ٢٥/٥٤٢ تشرين الثاني ١١٤٧، عن جثلقة دامت أقلَّ من عشر سنوات.

أحوال النواحي الغربية من المملكة

لم نتحدث عن القسم الغربي من الكنيسة السريانية أكثر مما يتحدث مؤرخ من ذلك القسم (الباطريك ميخائيل) عن بغداد، وذلك لأنَّ مشكلات المغاربة من السريان تختلف كثيراً عن مشكلات المشارقة منهم. لقد كان يحكمهم أمراء مسلمون ملَّيون صغار، منقسمون بعضهم على بعضهم، مشتغلون بصراعات ضدَّ الصليبيين (أو معهم) إلخ.

وثمة حدث يحتلَّ مكاناً عظيماً في أخبار المغاربة من السريان، إنه فتح الراها

على يد زنكي سنة ١١٤٥ . إن الكلام عنه ليعدنا عن موضوعنا^(١٣) لولا أنّ مظهراً من مظاهر ردة فعل النصارى على تلك النكبة يكشف لنا عن مواقفهم من نكبات كهذه .

فقد نشأ عندئذ سجال عظيم بين النصارى : « هل تأتي التجارب وتنزل البلايا والكوراث بمشيئة الله أم لا؟ ». إنها على وجه الإجمال مشكلة الشرّ القدิمة التي انقسمت حولها آراء المفكّرين السريان في ذلك العصر^(١٤) (يذكر يوحنا المارديني، دينيسيوس بروصليبي، باسيليوس برشانا) .

ويطرّق ميخائيل السريان نفسه، غالباً، إلى هذه المسألة، وهو يختصر حاججه في ما يتعلّق بحادثة أهل حصن زياد الذين غرقوا لدى عبورهم الفرات للمجيء إلى عيد مار أغريبا (بلاد جوباس) في تشرين الأول ١١٥٢ ، إلى حجج ثلاثة :

- الحجّة الأولى : إنّه يجب الامتناع عن محاولة سبر حكمـة الله في خلقـه .
- الثانية : ربـما كان البلاء عقوبة ، لأنّ أعياد الأديرة كانت في معظم الأحيان مناسبات للهو أكثر مما كانت مناسبات للصلة .
- الثالثة : إنّ الضحايا لم يذهبوا سدى ، على أيّة حال ، فالوثنيون يهلكون ، أمّا المؤمنون فلا... ولكن لنعد إلى بغداد .

حدود التسامح

شهد العام ١١٤٩/٥٤٤ (أي خلال خلوّ كرسيّ الخليفة) وصول الوزير الحنبليّ أبو مظفر يحيى بن هبيرة^(١٥) الملقب بجلال الدين ثمّ بعون الدين . وكان من بين شيوخه الشيخ الفيلسوف أبو منصور الجواليقي (ت ١١٥٠/٥٤٥)، الذي تروي^(١٦) عنه وخرزة غير مباشرة وجّهها الخليفة المقتفي إلى أمين الدولة بن التلميذ الطبيب المشهور ذي الفضل والأدب الغزير : ذلك أنّ الشيخ لما استعمل في تحية الخليفة صيغة غير معهودة استجرأ الطبيب الصراطي على تنبيه إلى ذلك . فما كان من الجواليقي إلاّ أنّ توجّه بالكلام إلى الخليفة ، من غير التفات إلى ابن التلميذ ،

وقال: «يا أمير المؤمنين، سلامي هو ما جاءت به السنة النبوية» ثم استغل مزئنه على الطبيب فأضاف هذه الكلمات غير الودودة: «يا أمير المؤمنين، لو حلف حالف أنّ نصراًنياً أو يهودياً لم يصل إلى قلبه نوع من أنواع العلم على الوجه المرضي لما لزمه كفارة الحنث لأنّ الله تعالى ختم على قلوبهم ولن يفك ختم الله إلا الإيمان» فأثنى عليه الخليفة قائلاً: صدقت وأحسنت في ما فعلت! وكأنما ألقم ابن التلميذ حجرًا مع فضله وغزاره أدبها». نجد هنا مرة أخرى تطبيق مفهوم «حدود التسامح» التي لا يجوز للذمي تجاوزها من غير رادع.

وعلى العكس من هذا نجد الطبيب النصراني نفسه، أمين الدولة بن التلميذ يتطاول إلى ملامة السلطان مسعود على قلة اكتراثه له مستعملًا عبارات جريئة جدًا.

يظهر الخبر، كما يرد في كتاب الفخرى^(١٧)، السلطان مسعودًا في مظهر صياد كبير يزيّن كلابه بشباب من الحرير المطرّز والأساور، بينما لا يبالي إلا قليلاً بطبيبه ولذلك أنسد الطبيب قائلاً:

مَنْ كَانْ يُلِسْ كَلْبَهْ وَشِيَا وَيَقْنَعْ لِي بِجَلْدِي
فَالْكَلْبُ خَيْرٌ عَنْهُ مَيْ وَخَيْرٌ مِنْهُ عَنْدِي
وَلَا يَذْكُرْ صَاحِبُ الْفُخْرِيَّ أَنَّ السُّلْطَانَ قَدْ سُخْطَ هَذَا الْقَوْلِ.

وفي حوالي العام ١١٣٧ تذكر المصادر خبرًا عن واحدة من أتعس حالات المروق من الدين والارتداد المتكرر، وكأنه من علامات اضطراب ذلك الزمن: فقد عُيِّن راهب من مغاربة السريان، اسمه هارون السجستاني^(١٨) من دير مار متى، أسقفاً على الحدث من «بلاد الروم»، فأسلم في ظروف لا نعلم عنها شيئاً، ثم ارتد إلى النصرانية تائباً فلم يُقبل في أبرشيته. بعد ذلك لحق بالقدسية وصار على مذهب الخلقيدونيين (الملكانيين). وإذا عاد إلى كنيسته أذن له بطريركه بإقامة القذاص ولكن المفريان لام البطريرك على هذا الإذن. فلما علم هارون بذلك أسلم للمرة الثانية ثم عاد إلى مذهبه ومضى إلى القدس فرفضه مغاربة السريان، فأصعد إلى لبنان حيث قبل به الموارنة ومات هناك. ولا يبدو أنّ ارتداده مرّتين عن الإسلام قد أثار آية ردّة فعل لدى السلطات الإسلامية.

يشوع بب (الخامس) البلدي

XXXI كانت رسامة يشوع بب المسماة ابن الحائث^(٢٠) جاثليقاً يوم الأحد الثاني من تكريس البيعة سنة ١١٤٩.^(٢١) وينسب اختياره إلى «أبي منصور»^(؟) الطبيب المشهور بن الكاتب الحكيم^(؟).

بدأت جثلقة ابن الحائث بسنة خير وخصب، سنة ٥٤٥/١١٥٠، شوهد فيها أهل السواد يرجعون إلى ضياعهم.^(٢٢) ولكن السنة التالية جاءت بوباء اكتسح بغداد.^(٢٣)

شهدت السنوات اللاحقة استغلال الخليفة المقتفي صراعات السلجوقية في ما بينهم، في محاولته لتوسيع رقعة نفوذه. وقد حالفه النجاح فيحلة وواسط ولكنه أخفق مرّتين أمام تكريت.^(٢٤) «وهو أول من استبدل بالعراق منفرداً عن سلطان يكون معه... من حين تحكم الماليك على الخلفاء من عهد المستنصر إلى الآن» على قول ابن الأثير.^(٢٥) ولعل ذلك يعزى إلى شجاعة المقتفي الشخصية، وإلى إدارة ابن هبيرة الوزير، وإلى بسط يد صاحب الخبر، مثلما قد يعزى إلى الظروف: موت السلطان مسعود سنة ٥٤٧/١١٥٢، وهزيمة السلطان سنجر في السنة التي أعقبتها.^(٢٦) وقد كان ذلك علامة على زوال نفوذ السلجوقية في رأي جورج مقدسي.

يقوم G. WIET^(٢٧) العصر السلجوقي من حيث العلاقة بالنصارى على الوجه التالي: إن «السلاطين الإسلام»، فرسان المذهب السني الحنفي، قد اضطهدوا حتى الشوافع «الذين نظموا نظام عقائد كان موجهاً بلا شك لمناهضة البدع، ولكنه أدخل في الإيمان عنصراً عقائدياً... عَدَّ تطاولاً على عقيدة السلف الصالح». ولقد كان من المنطقى أن يضطهدوا النصارى كذلك (مثلاً فعل المتوكّل من قبل) لأنّهم كانوا هم أيضاً مسؤولين عن تلك «الانحرافات». إلا أن الأحوال كانت قد تغيرت، وكان النصارى في ذلك الوقت أضعف من أن يكونوا خطرين. ولئن لم يبق في تلك الحقبة إلا الأطباء وتناقض عدد الكتاب كثيراً فإنّ من كان منهم لا يزال في مناصب يمسد عليها، فهوّلاء كانوا قد تعلّموا كيف يظهرون بمظهر أكثر تواضعاً...

وإذا زلت قدم بعضهم فتعدى طوره، فقد كان ثمة من ينبهه: وقد مر معنا، منذ قليل، ما كان من أمر ابن التلميذ مع الشيخ الجواليفي.

الأطباء من بنى الأثردي

في خلافة المقتفي كان الطبيب النصراني أبو الغنائم سعيد بن هبة الله الأثردي^(٢٨) ساعور البيهارستان العضدي. وكان والده هبة الله بن علي بن الحسين، المكتنأ أيضًا بأبي الغنائم طبيباً وفيلسوفاً وكانت له مصنفات في الطب والفلسفة، ومات حوالي العام ١٠٨٠. وقد ألف أبو الحسن علي، أخوه سعيد وابن هبة الله كتاباً في الطب لزميل نصراوي له ستنترف إليه عما قليل.

وفي الجيل الثالث نصادف أبا علي الحسن بن علي المذكور، أما سعيد فقد خلف ابناً اسمه أبو الحسن علي كان لا يزال حياً سنة ١١٨٤.

أما الطبيب الذي المحنا إليه فهو أبو العلاء محفوظ بن المسيحي بن عيسى، المعروف بالنيلي نسبة إلى مسقط رأسه، أو بالواسطي نسبة إلى نزوله بواسطه: وكان أديباً شاعراً ومات سنة ١١٦٥/٥٦٠.^(٢٩)

ثمة خبر عن طائفة اليعاقبة ينم عن الاستقرار الذي خيم على بغداد سنة ١١٥٢: ففي تلك السنة رمم المفريان إغناطيوس لعاذر كنيسة مار توما ببغداد.

وعلى الضد من ذلك واجه هذا المفريان نفسه بعض المتابعين^(٣٠) سنة ١١٥٩، بسبب قسّ، يُدعى إبراهيم، أراد خلع زوجته المسنة ليتزوج امرأة شابة. ويذهب ميخائيل السرياني إلى أن هذا القس قد تسبب في قضية تل أعفر بالتواطؤ مع سلطات الموصل.

كانت هناك فتاة أحبت البقاء على نصرانيتها من بعدما أسلم أبوها. وقد وافق قساوسة تل أعفر على تكريس زواجهما النصراني من بعد مراجعة إغناطيوس لعاذر المفريان. ولكن السلطات المدنية تدخلت فور تلقّيها الخبر. فالقى المفريان المسؤول في السجن وأهين ثم افتدي بعد أربعين يوماً بثلاث مئة دينار. وقد ظلت الفتاة، التي ألقيت في السجن أيضاً، متمسكة بإيمانها الراسخ، ثم ترهبت ودخلت ديرًا

بالقدس من بعدهما أفرج عنها. وقد نظمت قصائد سريانية عدّة في قصة هذه الفتاة بحيث عوقب القس المفtri عليها عقوبة إلهية (طبعاً) ومات بعيد ذلك بقليل.^(٣١) حوصر الخليفة في عاصمته من العام ٥٥١ حتى ربيع الأول ٥٥٢ لأنّه رفض إعلان محمد بن محمود، حفيض ملكشاه سلطاناً. وقد أعاد العامة الخليفة واستعملوا النار الإغريقية في دفع المهاجمين. ثم آل الأمر إلى انسحاب السلطان من تلقاء نفسه لأنّه اضطر إلى محاربة أخيه الذي استولى على همدان.

بيد أنّ العاصمة التي خلصت من الحصار وقعت فريسة وباء وحرائق مدّة شهرين.^(٣٢) أمّا الخليفة فقد مرض سنة ٥٥٤ مرضًا شفي منه وزينت لشفائه بغداد^(٣٣) فرحًا، ثم توفي في السنة التي أعقبتها في ١٢ آذار ١١٦٠^(٣٤) مخلفاً ذكرى رجل عادل «فرح به المسلمين»^(٣٥) وذهب أبو طالب الهاشمي^(٣٦) إلى أن «أيام المقتفي كانت نبرة بالعدل، زاهرة بفعل الخيرات، وكان على قدم من العبادة قبل إفشاء الأمر إليه، وكان في أول أمره متشاغلاً بالدين ونسخ العلوم وقراءة القرآن، ولم يُر - مع سماته ولبن جانبه ورأفته - بعد المعتصم خليفة في شهامته وصرامةه وشجاعته مع ما خُصّ به من زهده وورعه وعبادته ولم تزل جيوشه منصورة حيث يَمْتَ». .

ونضيف مع ابن الجوزي أن بغداد وال伊拉克 قد لبأاً منذ ذلك الوقت في حوزة الخليفة.

الحواشي

(١) الكامل، ج ١١، ص ٤٢، يورد ابن الأثير قائمة بخلفاء كانوا أخوة، اثنين، ثلاثة، أربعة.

E.I.¹, III, p. 765, par K.V. ZETTERSTEEN

(٢) زيارات، أسماء، ص ٣، ولا يذكر مصادره.

(٤) ماري، ص ١٥٦ - ١٥٨ (وهذه آخر ترجمة عنده). صليبا، ص ١٠٥ - ١٠٦. ابن العربي، ج ٢، العمود ٣٢٨.

(٥) يصحح ماري، تحقيق جيسموندي، ص ١٥٨، س ٤، حيث نجد «ابن طازاد الريبي».

(٦) تجد نسخة من هذا العهد في ماري، ص ١٥٨، وتجد جزءاً من النص في، H.F. AME-

DROZ, The Tadhkira of Ibn Hamdun, in JRAS, 1908, p. 467-470.

- وثمة نسخة عن عهد جاثليق في مقالة *A Nestorian Diploma of Investiture from the Taqkira of Ibn Hamdun*: LAWRENCE I. CONRAD إلى إحسان عباس، الجامعة الأميركية في بيروت ١٩٨١، ص ٨٣ - ١٠٤.
- (٧) هل هو نفس الشريف أبو الكرم والي بغداد العام ٥٣٢؟ الكامل، ج ١١، ص ٦٣.
- (٨) في ذي الحجة/ آب - أيلول من السنة نفسها قتل واحد من أشهر عياري بغداد، هو ابن بكران، الكامل، ج ١١، ٦٣ - ٦٤.
- (٩) الكامل، ج ١١، ص ٧١. لعله نفس كمال الدين أبو الفتوح محمد بن علي بن طلحة الذي ابتنى المدرسة الكامالية العام ٥٣٥. وقد تصوّف العام ٥٣٦ بعد عوده من الحج، المصدر نفسه، ص ٨٠، ٨٩.
- (١٠) ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ١٥٥، في العام ١١٣٩/٥٣٤.
- (١١) الكامل، ج ١١، ص ٨٩.
- (١٢) المصدر نفسه، ص ٩٥.
- (١٣) ولكن لا بدّ من الإشارة مرة أخرى إلى حياد المؤرخ الراهاوي المجهول الذي يثني (ص ٩٩) على الأتابك عياد الدين زنكي (ت ١١٤٦) لأنّه قبل الإنجيل، فيما روي، عندما استقبل في المدينة.
- (١٤) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٢٦٥ - ٢٦٧.
- (١٥) أخذ الوزير دار القوارير من ابن التلميذ ثم أمر الخليفة بأن تؤدّيه إثر «تجاجن الطيب في حضرته» ياقوت، إرشاد، ج ٧، ص ٢٤٣ R. LEVY, A Baghdad Chronicle P.165, citant.
- tant.
- (١٦) ابن خلكان، وفيات، ج ٥، ص ٤٤٢ - ٤٤٣، السيوطي، ص ٤٤٢.
- (١٧) الفخرى، ص ٤٦.
- (١٨) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٢٩١ - ٢٩٢.
- (١٩) المصدر نفسه، ص ٣٠١. يلمع برصليبي إلى أنّ «الكثيرين تركوا دينهم قهراً... تحت نير الأثوريين» يعني إبان حكم الأتابك زنكي أمير الموصل (؟).
- (٢٠) حسب ناسخ أخبار ماري، ص ١٥٨، صليبيا، ص ١٠٦ - ١١٠. ابن العربي، ج ٢، ٣٣٠.
- (٢١) وهذا لا يوافق العام ٥٤٢ للهجرة، الذي يذكره ابن العربي.
- (٢٢) الكامل، ج ١١، ص ١٤٦.
- (٢٣) المصدر نفسه، ص ١٥٢.
- (٢٤) ابن العربي، تاريخ الزمان، ١٧٠.
- (٢٥) الكامل، ج ١١، ص ٢٥٦.
- (٢٦) مصادر ومراجع في ١٤٧، p. *Ibn Aqil* و الحواشي.

Soieries Persanes, p. 199 (٢٧)

G. TROUPEAU, *Recherches sur un médecin philosophe de Bagdad: Ibn Aṭrādī*, dans *Mémorial Mgr. G. Khouri-Sarkis*, Louvain, 1969, p. 259-262; S. KHALIL, dans *Islamochristiana*, 2 (1969),

p. 215-216.

(٢٩) شيخو، شراء، ص ٣٤١ - ٣٣٥.

(٣٠) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٣١٦ - ٣١٧. ابن العربي، ج ٢، ص ٣٤٨. مقال للمطران بولس بنهام في مجلة لسان المشرق الموصليّة، المجلد ١، ١٩٤٩، العددان ٦ و ٧ ص ٣٥.

(٣١) يكثُر ورود أمثل هذه «العدالة الفورية» تحت أقلام المؤرخين للنصارى، سواء لتشجيع أبناء ملئهم أو لردع من يقصدهم بالشرّ. وبعد صفحات من ذكر هذا الخبر يورد ميخائيل السرياني ما كان من أمر والٍ ظالم تولى أمر مارددين فجار على أهل المدن والقرى واغتصب فناء الكنيسة ليعطيه للمسلمين ولكنَّه وقع عن فرسه في اليوم التالي. ولما قرع سن الندم لم يستطع رد ما كان غصبه من خشية العرب (المصدر نفسه، ص ٣٣٧ - ٣٣٨). نلاحظ في هذا السياق أنَّ الاستيلاء على أفنية الكنائس لبناء المساجد فيها أمر شهد المصادر على تكراره، انظر مثلاً الكامل، ج ٧، ص ٧٨، حيث نجد بمحض جامعاً بزرق كنيسة وكذلك الصق مسجد بدير مار قرياقوس بالأأنبار، الشاشي، الديارات، ط ٢، ص ١٦٠ - ١٧٠.

لذلك نجد قدراً لا يأس به من السذاجة في قول O. TURAN، ص ٧١، إنَّ التفاهم

والانسجام اللذين خيَّا وقتلُوا (القرن الثاني عشر) على العلاقات بين المسلمين والنصارى،

كانا قد بلغا حدًا بعيدًا حتى إنَّ الكنائس والمساجد كانت متلاصقة بمدينة «دبيل» (دوين) . . .

(٣٢) البداية، ج ١٢، ص ٢٣٤. الكامل، ج ١١، ص ٢١٢ - ٢١٦.

(٣٣) البداية، ج ١٢، ص ٢٤٠. الكامل، ج ١١، ص ٢٥٢.

(٣٤) الكامل، ج ١١، ص ٢٥٦. تاريخ الزمان، ص ١٧٤.

(٣٥) البداية، ج ١٢، ص ٢٤١.

(٣٦) مذكور في السيوطي، ص ٤٤١.

٣٢ - المستجد (٥٥٥ - ١١٦٠ / ٥٦٦ - ١١٧٠)

نجا أبو المظفر يوسف، الملقب بالمستجد بالله، بن المقفي، من إحدى مؤامرات الحريم منذ أول أيام خلافته: فقد أرادت أم أخيه الأصغر أبي علي، وهي أمّ ولد تركيّة، قتلها وتولية الأمر لابتها.^(١)

إنّ صورة أحوال النصارى في خلافته جزئية، مثلها في ذلك مثل صورة أحوالهم في خلافة أسلافه الأقربين. ومن الجائز أن يكونوا قد استفادوا كغيرهم من المقهورين، من إزالة المكوس والضرائب.^(٢)

ويأتي الخبر الأول عنهم من الموصل حيث أرسل الأمير جمال الدين، الذي (امتاز، على قول ابن العربي، بعطفه وحسناه الوفرة)،^(٣) مفريان اليعاقبة إغناطيوس لعازار، سنة ١١٦١، إلى جورجي ملك الكرج ليقتدي منهم رهطاً من عرب الموصل أسرهم الصليبيون الكرج. وكانت عودة الأسرى محل احتفال عظيم بالموصل: وقد واكبت المفريان والأسرى فرقة من الفرسان الكرج جالت جولة العرضة في شوارع المدينة رافعة الصليبان على رؤوس الرماح.

لذلك نجد الحروب الصليبية تصبح أكثر «حضوراً» بالنسبة إلى نصارى القسم الشرقي من المملكة العباسية. وإننا لنلمس ما خلفه مشهد عرضة الصليبان (وهو أمر لم يكن ليعقل وقوعه بدار الإسلام في ذلك العصر) في أذهان نصارى الموصل من خلال نقش عمله بعض الرهبان من أعمال الموصل لماربئنام «الأمين» الذي استشهد في عصر الساسانيين. ولم يتزدّ النحات في أن يسبغ عليه درعاً دلاّساً، وأن يجعل على رأسه تاج نبلاء الصليبيين وفي رجليه ما يتعلمه هؤلاء من أحذية حديديّة مدبة الرأس، وفي أعلى رمحه صليبياً.^(٤)

في السنة عينها (٥٥٧/١١٦٢) تذكر المصادر شاعرًا نصرانيًا ولد ببغداد وعاش بواسط، هو الرئيس أبو غالب بن عيسى بن بابا^(٥).

ولأننا لنقترب من بغداد مع خبر يقع بتكريت ويتعلق بشركوه عمَّ صلاح الدين الكبير وبأبيه أيوب، الكرديين الدبليين، اللذين كانا يعملان في خدمة مجاهد الدين بهروز، أمير المدينة الذي صادفه ببغداد، والذي يقول عنه ابن العربي الآن إنه كان محبًا للنصارى.^(٦) في العام ٥٥٩/١١٦٣، قتل شركوه رجلاً نصرانيًا «عزيزًا على قلب الأمين». ثم هرب القاتل وأخوه من الموصل خوفًا من عقوبة الأمين، ومذاك بدأ يلمع نجم الأسرة.

لتذكر عابرين، في العام ١١٦٤ - ١١٦٥، وفاة طبيب كبير ببغداد هو أمين الدولة بن التلميد (الذي صادفاته سابقاً) عن تسعين سنة «وكان متضلعًا من مختلف العلوم ووحيد عصره في الطبِّ وخبيرًا راسخًا في الفصاحة ونحو العرب وشعرهم لا ينقص عنهم علىٰ وفضلاً وتقلب أيام حياته في خضرٍ من العيش والقرب من الملوك».^(٧)

ويبدو أنَّ ابن العربي الذي يكتب هذا الكلام ينسى قليلاً المضائق الصعبة التي قاسها هذا الطبيب وأبناء ملته. ذلك أنَّ هذا المؤرخ يميل، كما لاحظنا من قبل إلى الثناء على أحوال الماضي عندما يقيسها «بويالات» عصره، أي بعد قرن من الزمان، وربما أعطتنا هذه الملاحظة فكرة عن اتجاه الضغط الاجتماعي - الديني المتاممي الذي تعرض له النصارى. فقد كانبقاء على النصرانية ببغداد يزداد صعوبة يوماً بعد يوم، وكانت الطوائف النصرانية هناك تتقلص باستمرار.

ويقع الخبر التالي في الموصل. فقد أوكل قطب الدين مودود، أمير المدينة، القلعة والوزارة إلى أسير قديم من أنطاكيه هو الخصي النصراني عبد المسيح الملقب بفسخر الدين. وقد أبعد فخر الدين هذا لدى وفاة سيده، سنة ٥٦٥/١١٦٩، عماد الدين زنكي عن تولي الإمارة وجعل مكانه سيف الدين غازي، ولما أطاح نور الدين بعد المسيح سنة ٥٦٦/١١٧١، تسمى هذا بعبد الله وأظهر الإسلام، وهذا ما أتاح له أن يحمي عن النصارى.^(٨)

ولهذا السبب، «وَخَوْفًا مِنْ أَنْ يَصِيرَ عَضِيًّا لِلنَّصَارَى الْمُوصَلِ» الذين كان نور الدين قد فرض عليهم شروطه اصطحبه نور الدين معه إلى حلب «فَأَنْزَلَ ذَلِكَ بِالنَّصَارَى كَرِبًا عَظِيمًا».^(٩)

إِلَّا أَنَّ مَا لَا يُذَكِّرُهُ الْمُؤْلَفُونَ النَّصَارَى هُوَ أَنَّ نورَ الدِّينَ كَانَتْ لَهُ أَسْبَابٌ أُخْرَى لِإِزَاحَةِ فَخْرِ الدِّينِ، فَضْلًا عَنِ الْأَسْبَابِ السِّيَاسِيَّةِ. مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْوَزِيرَ الْمُخْصِيَّ كَانَ قَدْ أَشَارَ سُخْطَةً أَهْلِيَّ الْمُوَصَّلِ الْمُسْلِمِينَ بِمَا أَرْهَقُوهُمْ بِهِ مِنْ ضَرَائِبٍ وَمَكْوُسٍ. وَقَدْ حَطَّ نورُ الدِّينِ تَلْكَ الأَعْبَاءَ عَنِ كَوَافِلِهِمْ حَالَ وَصُولِهِ إِلَى الْمُوَصَّلِ، غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَقْدِمْ عَلَى التَّشَدُّدِ فِي الانتِقامِ مِنَ الْوَزِيرِ الَّذِي كَانَ يَحْظُى بِحُمَّاهِيَّةِ أَمْرَاءِ آخَرِينَ.^(١٠)

آخَرُ نَصَارَانِيَّ نَصَادِفُهُ فِي خَلَافَةِ الْمُسْتَنْجَدِ هُوَ طَبِيبُهُ أَبُو غَالِبِ بْنِ صَفِيَّةِ.^(١١) وَإِنَّ دُورَ هَذَا الطَّبِيبِ فِي اغْتِيَالِ الْخَلِيفَةِ لَا جَدَالُ فِيهِ، عَلَى مَا يَبْدُو. فَقَدْ كَانَ عَلَى عَلْمِ بَنِيَّةِ مَوْلَاهُ أَنْ يَقْبَضَ عَلَى قَطْبِ الدِّينِ أَسْتَاذِ الدَّارِ، فَفَضَّلَ أَنْ يَنْذِرْ قَطْبَ الدِّينِ. فَتَتَرَرَّ أَنَّ إِغْلَاقَ بَابِ الْحَسَامِ عَلَى الْخَلِيفَةِ الْمَرِيضِ مِنْ شَأنِهِ أَنْ يَعْجَلَ أَجَاهَهُ.^(١٢)

وَتَنْسَبُ رَوَايَةً أُخْرَى قَرَارُ الْأَغْتِيَالِ إِلَى امْرَأَةِ مِنْ نَسَاءِ الْخَلِيفَةِ كَانَتْ تَغَارِي مِنْ امْرَأَةِ أُخْرَى مِنْ نَسَائِهِ هِيَ بَنْسَجُ بْنَتُ عَبْدِ اللَّهِ الرُّومِيَّةِ.^(١٣) وَلَكِنَّ أَيَّةً تَكُنُ الْعَلَةُ فَالْمُنْفَذُ كَانَ وَاحِدًا. تَعْقِيَّاً عَلَى ذَلِكَ يَذَكُرُ أَبُو أَصْبِعَةُ كَلْمَةُ أَمِينِ الدُّولَةِ الطَّبِيبِ الْكَبِيرِ: «لَا يَبْنِيَ لِلْطَّبِيبِ أَنْ يَدْخُلَ الْمَلُوكَ فِي أَسْرَارِهِمْ».

إِنَّ الْكَلَامَ الَّذِي يَثْنِي بِهِ أَبُونِ الْأَثِيرِ عَلَى الْخَلِيفَةِ الْمَغْدُورِ يَفْسُرُ لَنَا لَمْ قُلْتُ الْأَخْبَارُ عَنِ النَّصَارَى فِي خَلَافَتِهِ الَّتِي دَامَتْ أَحَدَ عَشَرَ عَامًا، يَقُولُ: «كَانَ الْمُسْتَنْجَدُ بِاللَّهِ مِنْ أَحْسَنِ الْخَلِفاءِ سِيرَةً مَعَ الرَّعْيَةِ، عَادِلًا فِيهِمْ كَثِيرُ الرَّفِقِ بِهِمْ، وَأَطْلَقَ كَثِيرًا مِنَ الْمَكْوُسِ، وَلَمْ يَتَرَكْ بِالْعَرَقِ مِنْهَا شَيْئًا، وَكَانَ شَدِيدًا عَلَى أَهْلِ الْعَيْثِ وَالْفَسَادِ وَالسَّعَايَةِ بِالنَّاسِ.. وَرَدَ كَثِيرًا مِنَ الْأَمْوَالِ عَلَى أَصْحَابِهِ».^(١٤)

إِلَّا أَنَّ مِيخَائِيلَ السَّرِيَانِيَّ يَتَهَمُّمُ أَبْنَ الْبَلْدِيَّ، وَزَيْرَ الْمُسْتَنْجَدِ مِنْذِ

١١٦٧/٥٦٣ - ١١٦٨ ، بأنه كان يغضن النصارى وأنه قد حبس بعض العاقبة .
وسوف نتعرّف أكثر في عهد الخليفة التالي .

ربما نسب إلى هذه السنوات الأخيرة حادث يؤسف له وقع بغداد إبان جملة يشوع يهب الخامس أي بين العام ١١٤٩/٥٤٤ والعام ١١٧٥/٥٧٠ من دون تحديد دقيق : إنه إعدام عدد غير محدد من الأسرى الفرنج . صعق النساطرة لما رأوا ، وعدوا الفرنج شهداء وواروهم في فناء كنيسة سوق الثلاثاء أمام الرواق الصيفي للصلاة بين الكودين .^(١٥) وسوف نرى من بعد أمثلة أخرى أدى فيها شطط السلطات المدنية إلى تقريب نصارى المشرق ، وحتى النساطرة ، من أولئك الصليبيين البعيدين عنهم جداً في المكان القريبين منهم في الإيمان . وقد أسهם ذلك في تعميق الهوة بين الذميين وبين المسلمين .

على أية حال مات المستنجد مخنوقاً في التاسع من ربيع الآخر ٢٠/٥٦٦
كانون الأول ١١٧٠ .

الحواشي

- (١) الكامل ، ج ١١ ، ص ٢٥٧ . ابن العربي ، تاريخ الزمان ، ص ١٧٤ .
- (٢) ابن الطقطقي ، ص ٢٥٥ .
- (٣) ابن العربي ، ص ١٧٤ . ويقول ميخائيل السرياني ، ج ٣ ، ص ٣١٨ : «وكان في ذلك عزاء عظيم للنصارى وال المسلمين بسبب إطلاق الأسرى » .
- (٤) أنظر صورة النقش في كتاب أثر المسيحية ، ج ٢ اللوحة F . - الصليب في حلقة الأذن من اختراع الفنان .
- (٥) شيخو ، شراء ، ص ٢٩٢ - ٢٩٦ .
- (٦) تاريخ الزمان ، ص ١٧٦ - ١٧٧ .
- (٧) ميخائيل السرياني ، - ج ٣ ، ص ٣٢٧ . تاريخ الزمان ، ص ١٧٧ - ١٧٨ . دائرة المعارف (بيروت) ، ج ٢ ، ص ٣٨٥ - ٣٨٨ .
- (٨) وقد رأينا وضعنا متشابهاً لدى كتاب دور فتن . ونجد مثلاً متشابهاً في خبر ابن النحال الكاتب الذي أسلم عندما استولى الملك العادل على السلطة سنة ١١٨٣/٥٧٩ ، ثم اجتهد في حشر النصارى في مناصب عدّة . حتى قيل في هجائه :

فاق دين المسيح في دولة العا
ذا أمير واذا وزير واذا وا
لي واذا مشرف على الديوان
أبو شامة، كتاب الروضتين، ج ٢، ص ٥٢.

(٩) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٣٤٢ - ٣٤٣. ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ١٨٣، ١٨٤.

(١٠) ELISSEEFF, Nûr al-Dîn, p. 619-620, 657-661, 679
سنة ١١٧٣. وفي العام ١١٧٥/٥٧١ أسره صلاح الدين ثم أطلقه، ابن العربي، تاريخ
الزمان، ص ١٩٢. - انظر نصوصاً أخرى عنه في كتاب شيخو وحشيمه، وزراء النصرانية
وكتابها في الإسلام (٦٢٢ - ١٥١٧)، جونية - روما، ١٩٨٧، ص ١٨٩، الحاشية رقم
٣. - وقد ظهر هذا الكتاب بعد كتابي هذا واقتبس منه بوفرة. وقد أتاح لي ذلك استدراك
بعض الأخطاء وتصحيحها.

(١١) ابن أبي أصيبيعة، ص ٣٤٧ - ٣٤٩.

(١٢) الكامل، ج ١١، ص ٣٦٠.

(١٣) ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ١٨٦. نساء الخلفاء، ص ١١١ - ١١٥. مصطفى جواد،
سيدات البلاط، ص ١٦٣ - ١٧٢.

(١٤) الكامل، ج ١١، ص ٣٦٢. وكذلك يعتبر ابن كثير (البداية، ج ١٢، ص ٢٤١ - ٢٦٢)
من أفضل خلفاء بني العباس ومن أعدلهم في الرعية.

(١٥) صليبا، ص ١٠٦ - ١٠٧، والمفرد الكود: أي كرسى القراءة.

٣٣ - المستضيء (٥٦٦ - ١١٧٠ / ٥٧٥ - ١١٨٠)

نُصْبَه قَتَلَهُ أَيْهِهِ. وَكَانَ أَبُو مُحَمَّدُ الْحَسْنُ، الْمُسْتَضِيءُ بِأَمْرِ اللَّهِ حَلِيَّهَا.^(١) وَكَانَ الْأُولَى بِهِ أَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ، وَرَبِّيَا كَانَ مِبْدُراً.^(٢) وَقَدْ كَانَ مِنْ شَأنِ التَّزَاعَاتِ بَيْنَ الْأَمْرَاءِ وَالْوُزَرَاءِ^(٣) (وَحُوَصِرَ قَصْرُهُ فِي بَعْضِهَا) وَمُسْلِسُ النَّكَباتِ الطَّبِيعِيَّةِ (فِيْضَانَاتُ، حَرَائِقُ، زَلَازِلُ، أَوْبَثَةُ، غَلَاءُ، الخ.). أَنْ تَحُولَ دُونَ قِيَامِهِ بِدُورِ أَكْبَرِ مِنَ الدُّورِ الْمُتَوَاضِعِ الَّذِي قَامَ بِهِ، حَتَّى إِنَّهُ قَدْ خَطَبَ لِهِ بَصَرٌ، مِنْ حِيثِ لَا يَدْرِي، وَذَلِكَ بِفَضْلِ نُورِ الدِّينِ وَصَلَاحِ الدِّينِ^(٤) الَّذِي كَانَ سَيِّدَهَا الْمَطَاعَ.

مَعَ ذَلِكَ فَقَدْ أَقْدَمَ الْمُسْتَضِيءُ يَوْمَ وَليِ الْأَمْرِ عَلَى إِجْرَاءِ سُلْطُويٍّ: أَمْرٌ بِنَطْعَعِ رَأْسِ شَرْفِ الدِّينِ أَبِي جَعْفَرِ أَحْمَدِ بْنِ الْبَلْدِيِّ، وَزَيْرِ أَيْهِهِ الْمُسْتَجَدِ مِنْذِ الْعَامِ ١١٦٧/٥٦٣، لَأَنَّهُ حَاوَلَ مَنْعِهِ مِنْ خَلَافَةِ أَيْهِهِ.^(٥) وَيَذْهَبُ مِيَخَايِيلُ السَّرِيَانِيُّ^(٦) إِلَى «أَنَّهُ لَمَّا كَانَ الْوَزِيرُ الَّذِي أُعْدَمَ عَدُواً لِلنَّصَارَى، فَقَدْ أَحَبَّ الْخَلِيفَةَ الْجَدِيدَ النَّصَارَى مِنْ كُرْهَهِ لِلْوَزِيرِ». وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ أَطْلَقَ بْنَ تَوْمَا، أَوْلَئِكَ الْأَمْرَاءِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ كَانُوا مُحْبُوسِينَ وَرَدَّ عَلَيْهِمْ دُورَهُمْ وَكَنَاسِهِمْ».

وَسُوفَ نَصَادِفُ مَرَّةً ثَانِيَّةً (فِي خَلَافَةِ النَّاصِرِ) سَلِيلَ هَذِهِ الْأَسْرَةِ الْيَعْقُوبِيَّةِ الطَّبِيبِ أَمِينِ الدُّولَةِ صَاعِدِ بْنِ هَبَةِ اللَّهِ بْنِ تَوْمَا وَأَبْنَائِهِ الَّذِينَ كَانُوا كَنِيسَتَهُمْ، كَنِيسَةُ مَارِ تَوْمَا، بِالْقَرْبِ مِنْ بَابِ الْمَحْوَلِ.^(٧)

فِي الْعَامِ ١١٧٢، وَإِثْرَ تَسْلُمِ مَبْلَغٍ عَظِيمٍ مِنَ الْمَالِ، اَخْتَذَ الْخَلِيفَةَ الْجَدِيدَ، (أَوْ أَصْحَابَ دَوَوِيهِهِ عَلَى الْأَقْلَى) قَرَائِبَ لِصَالِحِ الْيَعْقُوبِيِّ ضَدَّ مُسْلِمِي جَزِيرَةِ ابْنِ عَمْرِ الْوَاقِعَةِ إِلَى الشَّمَالِ مِنَ الْمُوَصَّلِ. ذَلِكَ لِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا قَدْ وَضَعُوا الْيَدَ عَلَى دِيرِ

لليعقوبة كان بها وحبسو بالموصل مطرانهم باسيليوس الذي حاول أن يتدخل. فأعيد الدير إلى أصحابه وأطلق المطران.^(٨)

وينبغي لنا أن نذكر هنا أن يعاقبة جزيرة ابن عمر كانوا عرضة لتدابير كيدية دبرتها السلطات المحلية: ففي العام ١١٤٣ قبض عامل المدينة على مطرانهم ولم يفرج عنه إلا لأجل فدية بذلت له،^(٩) كما أن المطران الذي خلفه لم يفلح في الح Howell دون بناء مئذنة على مقربة من كنيسة طائفته لأنه أهمل حمل ما جرت العادة بحمله إلى «علماء العرب» على حد قول ابن العربي.^(١٠)

لقد سبب تشدد نور الدين الأتابك متاعب كثيرة للنصارى بدمشق وحلب والموصى وسواها.^(١١) فقد زاد المكوس وأعاد فرض الضرائب المميزة من قص الشعر وعقد الزنانير. كما أمر بنقض ما استحدث من كنائس، في نصيبيين مثلاً. وقد بيّنت في موضع آخر^(١٢) كيف أن قابلية الرشوة لدى بعض المؤرّوسين، كابن عزرون مثلاً، كانت عاملاً على تخفيف هذه الإجراءات أو على المبالغة فيها كلما عن للرؤساء فرض هذه الإجراءات.

«لقد صرف الخليفة المستضيء عن النصارى حمياً غضب نور الدين وحده»،^(١٣) إذ يروى أن هذا الأخير كتب إلى المستنجد قبل عام من وفاته رسالة يحرّضه فيها على توعد النصارى بالقتل إذا لم يسلموا، لأن: «هذا مكتوب في القرآن (كذا): يحكم المسلمون عام ٥٠٠ لا يسيئون فيها إلى النصارى. وهذه الأعوام قد انقضت». . . وكان أن رد عليه المستضيء، ولما كان الخليفة الجديد غير حريص على استقدام رجل أطاح حتى الآن بالخلافة الفاطمية بمصر وادعى «النبوة» (?) فوق ذلك، أرسل إليه رسالة تأنيب تقول: «ليس لك أن تسمى نفسك «نبياً». . . أنت لم تفهم حديث الرسول عن السنين، والله لا يأمر بقتل الناس من غير ذنب يستحق القتل». وينتقم ميخائيل السرياني بالقول معلقاً: «وقد أفاد النصارى من هذا أيضاً. . . أما نحن فيجب علينا أن نفهم أنه لئن أذن الله للعرب والأتراء أن يسودوا علينا بسبب خططيانا، فإنه من عظيم رحمته لنا لم يتركنا في أي وقت ولا بأية حال ولن يتخلى عنا، بل إنه في عنایته الإلهية يحفظنا ويخلصنا من أعدائنا، لأجل محبتنا لكتنيسته».

كانت وفاة نور الدين، سنة ٥٦٩/١١٧٤، بالرغم من عناية طبيبه التصرياني رحابايا،^(١٥) «خبرًا ساراً» للنصارى وال المسلمين على السواء.^(١٦) وقد أعلن ابن عمّه سيف الدين غازى الأفراح فشرب الجميع وسکروا.^(١٧) وسوف نرى من بعد العلاقات التي قامت بين البطريرك ميخائيل الأول وبين هذا الأمر.

أما جاثلقيق النساطرة يشوع يهبا الخامس البلدي فقد مات سنة ٢٥٥٧هـ أيار ١١٧٥، عن تسعين سنة وجعلقة دامت أكثر من ستة وعشرين عاماً. وقد أدلت الكرامات على قبره بكنيسة درب دينار بسوق الثلاثاء إلى اجتذاب الحجاج إلى الكنيسة. (١٨)

إيليا الثالث

XXXII بعد خلوّ كرسى الجلقة حوالي ثمانية أشهر لا نعلم عنها شيئاً، انتخب مطران نصيبيين الياس أبو حليم الملقب بالحديثى مع أنّ أصله من ميافارقين. وليس بين أيدينا أي خبر عن انتخابه، ولا ذكر في التراجم لأى علمائى نصرانىٰ كان أم غير نصرانىٰ.^(١٩) كلّ ما نعلمه هو أنّه «لم يكن فيهم من يماثله علمًا وحكماً وكرمًا وحسناتٍ وبلاعنة وفصاحة» الخ. وقد سيم سنة ٥٧١ / الأحد ٢٤ كانون الثاني ١١٧٦.

ولاذ عاد إلى دار الروم وجد القليلة خراباً، فجحدَّ عمارتها لينزل فيها، كما جحدَّ عمارَة كنيسة دير ماري بدور قفي وغيرها من الأديرة والكنائس، وهذا دليل على هدوء الأحوال واستقرارها.

إنَّ أَعْمَالَ إِيلِيَا التَّالِثَ الْأَدْبُرِيَّةَ مُعْرَفَةً جَيْدًا^(٢٠). أَمَّا مَا يَهْمِنَا هُنَّا فَهُوَ هَذِهِ
الْعِبَارَةُ الَّتِي يَذَكُّرُهَا صَلِيبِيَا فِي تَرْجِيْتِهِ: «وَكَانَ مَعَ أَوْصَافِهِ الْجَمِيلَةِ بِحَسْنِ الْخَلْقِ
وَالْخَلْقَةِ سَخِيًّا مُتَلَاقًّا لِلْمَهَالِ فِي عَمَلِ الْخَيْرِ مَعَ النَّاسِ الضَّبْعَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَمَعَ الْأَشْرَارِ
الَّذِينَ مِنْ غَيْرِ الدِّينِ وَمَعَ الْحَكَامِ الْمُتَوَلِّينَ لِأَجْلِ إِقَامَةِ جَاهِ النَّصَارَى».

وَمَا كَانَ صَلِيبِيَا قَدْ قَالَ سَابِقًا إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَنْعَمَ عَلَيْهِ وَأَجْرَى الْخَيْرَاتِ مِنْ بَينِ يَدِيهِ فَإِنَّا نَفْهَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْجَاثِيلِيقَ لَمْ يَكُنْ يَجِدْ صَعْوَدَاتٍ تَذَكَّرَ فِي إِرْضَاءِ حُمَّاهَةِ مِنْ رَسْمِيَّنِ وَغَيْرِ رَسْمِيَّنِ، وَأَنَّ النَّصَارَى قَدْ نَعْمَمُوا فِي أَيَّامِهِ بِالسَّلَامِ، فِي حَدُودِ مَا

كانت تسمح به ظروف ذلك الوقت، للاحظ مرة أخرى أن الحملات الصليبية المعاصرة له لم تولد، فيما يبدو، مشاعر عداء للنصارى ببغداد.

لذكر أيضًا أن الخليفة وإن صنفه بعض المؤرخين في مجلة «أصدقاء النصارى» فهذا لا يعني أن أصغر الأمراء في كل مدن المملكة وبلداتها كانوا يترسمون خطاه، ويقتدون به. ولئن أمكن أن يُقال عن أحدهم، مثلما قيل عن نجم الدين أمير ماردين (الذى مات سنة ١١٧٦ من بعدها حكم المدينة مدة اثنتين وعشرين سنة) إنه «عامل النصارى وكأنائهم وأديارهم خير معاملة»،^(٢١) فهذا لا يعني أن ولايته لم تشهد بعض التعديات التي ربما وقع بعضها من باب رد الفعل على ضحاياها أنفسهم.

فمن ذلك أن قساً راهبًا من رهبان دير بكره، بجبال ماردين، يدعى الحسن بن كليب ترك النصرانية وأسلم سنة ١١٧١، فكان من جراء ذلك أن وضع العرب يدهم على ديره ثم حوله الأكراد إلى مسجد. إلا أن الراهب ارتد إلى النصرانية ومضى إلى القدس. فما كان من صاحب ماردين إلا أن قبض على أخي المذنب وعذبه حتى الموت.

وفي العام التالي، أخذ بماردين أيضًا رجل من أعيان اليعاقبة، يُدعى برصوما، كان يزني بأمرأة عربية فعذب وأفلت من الموت وما كاد، وصودرت أمواله. ولما كان قد أعاد عمارة كنيسة مار توما على أيام حسام الدين، أخذت تلك الكنيسة ليعمل منها مسجدًا.^(٢٢)

نحن في الحالتين أمام رد فعل إسلامية على ما اعتبر استفزازًا. ولكن هل يجوز إدانة رد الفعل تلك حسب معايير ذلك العصر؟

ونحن نجد، على الصدق من ذلك، أن الولاة المسلمين كانوا يتصرفون، في معظم الأحيان، بكثير من الحلم وضبط النفس. فمن ذلك أنه في الفترة نفسها ظهرت بالرّبّها جماعة منشقة من الأرمن واتهمت سواها من الأرمن والمغاربة من السريان بمكتابة قيسر الروم ومؤامرتها على تسليم المدينة، فما كان من صاحب حلب إلا أن طرد المفترين.^(٢٣)

وفي خبر آخر اتهم البطريرك ميخائيل نفسه بذلك، وكان المتهם (بكسر الماء) أحد أسافته المدعو دنحا - يوانيس الرقّي،^(٢٤) فسيق ميخائيل إلى معسکر سيف الدين أمير الموصل. وإنَّ كلام البطريرك في الرد على مستجوبيه لذو دلالة على شجاعة زعماء النصارى إذا ما لمسوا التعاطف من ولاة الأمر المسلمين حين يمثلون أمامهم. فقد قال لهم البطريرك «إنَّ الله لم يأمر الملوك بتداريب شؤون الإيمان بالسيف. ومنذ أن ساق الله الملك إلى المسلمين لم يقدم أي ملك من الملوك العادلين على دوس شريعة الله بالأرجل، بل أطاعها والتزم حدودها. وقد فرض المسلمين على النصارى وبإذن الله تعالى، شتى صنوف الإذلال الجسدي، إلَّا أنَّهم لم يدعوا لأنفسهم أي سلطان على العقيدة...».

ولما رفعت القضية إلى الأمير لينظر فيها أنَّهم دنحا البطريرك «بأخذ العرب وتنصيرهم» فاضطرم غضب بعض الحاضرين لدى سماع هذه الكلمات وأرادوا رجم البطريرك. ولكن من حسن الاتفاق أن أتيح له الوقت ليتكلّم ويشتبَّث أنَّ القضية المشار إليها هي قضية ابن كلِّيْب وأمِّها تتعلّق براهُب لا براهُب عربي، فبرئت ساحة الحر وأخلَّ سيله فغادر معسکر الأمير. وقد حاول دنحا الإيقاع بمخائيل لدى الخليفة ولكنه طرد من الحضرة ولم يؤبه لافتراءاته.

هل كان من جملة ما اتهم به البطريرك ميخائيل أنَّه تلقَّى عهد توليه من أموري ملك بيت المقدس وأنَّ هذا العهد قد جدَّده بعذوبين الخامس والأبرص سنة ١١٧٩؟^(٢٥) ولكن كانت القضية قد أثيرت فيبدو أنَّه لم يلتفت إليها أحد، لأجل ما لم تزل عليه حال مغاربة السريان من الحرارة، لأنَّهم لم يزلُّ لهم أخوة في المذهب ببلاد ملكتين متحاربتين: روم وساسانيون ثمَّ روم ومسلمون والآن صليبيون ومسلمون، وذلك خلافاً حال مشارقة السريان.

في العام ٥٧٥ / آذار ١١٨٠، وفي جملة إيليا الثالث، انتهت خلافة المستضيء التي دامت ما يقارب العشر سنوات. ويشئي ابن الأثير على الخليفة بما يلي: «كان عادلاً حسن السيرة في الرعية... . وكان الناس معه في أمن عام وإحسان شامل وكان حليماً قليلاً المعاقبة على الذنب محبًّا للغفو والصفح عن المذنبين، فعاش حيداً ومات سعيداً».^(٢٦)

الحواشي

- (١) ابن العبرى، تاريخ الزمان، ص ١٨٦ .
(٢) الكامل، ج ١١، ص ٣٦١، ٤٥٩ .
(٣) E.I.^١, III, s.v., par K.V. ZETTERSTEEN .
(٤) ابن العبرى، تاريخ الزمان، ص ١٨٧ .
(٥) الكامل، ج ١١، ص ٣٦١. ابن الطقطقى، ص ٢٥٥ .
(٦) ج ٣، ص ٣٤٤ .
(٧) ابن العبرى، تاريخ الزمان، ص ٢٦٧ - ٢٦٨ .
(٨) ميخائيل السريانى، ج ٣، ص ٣٥٠ - ٣٥١ . ابن العبرى، ج ٢، العمود ٣٦٨ .
(٩) ميخائيل السريانى، ج ٣، ص ٢٥٥ .
(١٠) ابن العبرى، ج ٢، العمود ٣٤٦ . - بينما كان المفربان إغناطيوس لعاذر يعرف فيما مضى كيف يتذير أمر الحفاظ على صداقتهم والتوصل إلى بناء الكنائس ببغداد ويرطلي أو ترميم ما تهدم منها .
(١١) يشير الأسنوى (ص ١٤ - ١٨) إلى تأثير وزير الموصل أبي جعفر الجواد الأصفهانى (أنظر E.I.^٢ ص ٥٠١ - ٥٠٢ تحت عنوان Djawad). وقد أخذ نور الدين قرار بإبعاد النصارى عن الخدمة في الدواوين إثر الرجوع من الحجّ، وثمة دور لرؤيا النبي بالمنام . - يلاحظ KRENKOW في كتابه Tarikh Baghdad ص ٧٧، ٧٧ في هذا المجال أنَّ رؤى النبي «قد لعبت في العالم الإسلامي دوراً مشابهاً للدور الرسائل المطبطة من السماء في بلاد النصارى» .
(١٢) كتاب: Nisibe, p. 99-100
(١٣) ميخائيل السريانى، ج ٣، ص ٣٤٠، ٣٤٤ - ٣٤٥ . - لم يلتفت N. ELISSEEFF إلى هذا النص الذي يبدو كرواية قصصية للأحداث، ولم يهتم به .
(١٤) أو ٦٠٠ سنة تقضي في العام ١٢٠٣ - ١٢٠٤ م على قول وزير صاحب المغرب في رجب سنة ٧٠٠ هـ / ١٣٠١ م، القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٣، ص ٣٧٧ . - وقد أرجف بمثل هذا بحث اليهود في عصر الموحدين بالأندلس سنة ١١٤٦، أنظر F. LOVSKY في: L'antisémitisme chrétien, CERF, 1970, p. 206-207
(١٥) الذي أدرك ابن العبرى ابنيه في شيخوختهما، وكانا هما أيضاً من الأطباء المذكورين، تاريخ الزمان، ص ١٨٩ .
(١٦) ميخائيل السريانى، ج ٣، ص ٣٥٣ . يبقى الراهوبي المجهول على حياده المعهود، إذ يشي (ص ١٢٧) على فضائل الأمير . - ويشير E. SIVAN في ص ١٢٠ من كتابه Chrétiens sous les Ayyoubides إلى أنَّ موقف كلَّ من نور الدين وصلاح الدين حيال النصارى كان

جزءاً من «سياسة تميل إلى التشدد في مراعاة أحكام الشريعة» وهي سياسة كانت تأخذ بالشدة نفسها في التعامل مع المسلمين المتهاونين بالشرع، ومن ذلك فرجهم بموت الأمير.

- (١٧) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٣٦٢ - ٣٦١. الراوی المجهول، ص ١٢٩.
- (١٨) يلاحظ صليباً، ص ١٠٦، أنَّ طوائف ثلاثة فقدت رؤسها في هذه السنة عينها (٥٧٠): فالنصارى فقدوا الحايليق (يقرأ هكذا بدلاً من الخليفة)، والمسلمون فقدوا قاضي القضاة (روح بن أحد، البداية، ج ١٢، ص ٢٩١)، واليهود فقدوا دانياً، رأس الجالوت.
- (١٩) صليباً، ص ١١٠ - ١١٢. ابن العربي، ج ٢، العمود، ٣٣٠ - ٣٦٨.
- (٢٠) دائرة المعارف، بيروت، ج ٢، ص ٤٤٠ تحت عنوان ابن الحديسي . SAMIR KHALIL Islamochristiana, 2 (1976), P. 201-202
- في إثبات الإيمان والاعتقاد وصحة دين النصرانية».
- (٢١) ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ١٩٣.
- (٢٢) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٣٤٠، ٣٤٧، ٣٤٨ .
- (٢٣) المصدر نفسه، ص ٣٥١، ٣٥٢ .
- (٢٤) المصدر نفسه، ص ٣٥٨ - ٣٦٠ .
- (٢٥) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٣٧٣ .
- (٢٦) الكامل، ج ١١، ص ٤٥٩ - ٤٦٠. البداية، ج ١٢، ص ٣٠٤ .

٣٤ - الناصر (٥٧٥ - ١١٨٠ / ٦٢٢ - ١٢٢٥)

تلقب أبو العباس أحمد بن المستضيء بلقب الناصر لدين الله،^(١) يعني عزمه على نصرة دين الله. وفي خلافته اضطربت أحوال شرق المملكة من جراء تقلب التحالفات بين المغول وخوارزم شاه. أما في الغرب فقد استعاد صلاح الدين القدس، ولكن الخليفة لم يكن كثير الاهتمام بمدافعه الصليبيين. وسوف نرى من بعد ما كان تصوره للحكم، إلا أن نزوات هذا «الرجل الغريب»^(٢) تضفي كثيراً من التشويش على ما كان يدبره من تدابير.

بدأ الإصلاح الداخلي عندما نظم حاجب الباب حملة على المنكرات ببغداد سنة ١١٨١/٥٧٧. ^(٣) ثم في العام ١١٨٢/٥٧٨ - ١١٨٣/٥٧٩ أو في ذي الحجة / آذار - نيسان ١١٨٤^(٤) أمر الناصر بإقصاء النصارى من الدواوين. أما الدواعي إلى هذا الأمر^(٥) فمختلف فيها: فمنها فساد الكتاب النصارى وصلفهم، على قول، ومنها أن الخليفة قد صار يعد مجرّد وجودهم إذلاً للمسلمين، على قول آخر. وقد أدى الأمر الخليفي إلى صرف الكثريين من الخدمة، فكان ممن صرفوا بنو النظام وابن الأشقر من ديوان الأرض بالرغم من تدخل ابن البخاري، الوزير المفروض، للدفاع عنه. وقد دخل كتاب نصارى آخرون الإسلام ليحتفظوا بمناصبهم. ونجد فيهم أبي غالب بن زطينا (ت ٦٠١ - ١٢٠٤) وأحد أولاد ابن الأشقر الذي حصل فوراً على المنصب الذي شغر بعدما رفض أبوه الإسلام.^(٦)

ولنلحوظ عابرين في هذه السنوات شعبية الخليفة الناصر في صفوف تقاة

المسلمين الذين خالطهم ابن حمير لدى زيارته بغداد في صفر ٥٨٠ / أيار - حزيران ١١٨٤. فقد أتيح لهذا الراحل أن يشهد الخليفة مرتين كتب على أثراها:^(٨) «وَظَهُورُهُ عَلَى حَالَةِ اخْتِصَارِ تَعْمِيَةِ لَأْمَرِهِ عَلَى الْعَامَّةِ، فَلَا يَزَادُ أَمْرَهُ مَعَ تَلْكَ التَّعْمِيَةِ إِلَّا اشْتَهَارًا، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يَحْبُّ الظَّهُورَ لِلْعَامَّةِ، وَيُؤْثِرُ التَّحْبُّبَ إِلَيْهِمْ، وَهُوَ مَيْمُونَ النَّقِيَّةِ عِنْهُمْ قَدْ اسْتَسْعَدُوا بِأَيَّامِهِ رَخَاءً وَعَدْلًا وَطَيْبَ عِيشَ، فَالْكَبِيرُ وَالصَّغِيرُ مِنْهُمْ دَاعٍ لَهُ».

وقد كان الراحل وصف، قبل بضع صفحات من قوله هذا، ما آلت إليه العاصمة العباسية من حال تناقض، مناقضة مرّة، الصورة المثالية التي كانت آنذاك قد استقرّت في أذهان الناس، والتي كانوا يتناقلونها في أطراف دار الإسلام وأكثافها: «(فهي) قد ذهب أكثر رسمها ولم يبق منها إلا شهير اسمها. وهي بالإضافة إلى ما كانت عليه من قبل إنحاء الحوادث عليها والتفات أعين النواب إليها كالطلل الدارس والأثر الطامس، أو تمثال الخيال الشاخص».^(٩)

أطّباء نصارى

على الرغم من الأمر الرسمي بإبعادهم ظلّ الأطّباء النصارى يحيطون بال الخليفة. أما أشهرهم والمقدم عليهم عند الناصر فهو رئيس الشمامسة أبو الحسن^(١٠) ماري بن هبة الله عبد البقاء بن إبراهيم المؤمل منبني المسيحي، النيلي الأصل (أو الحظيري؟). كان أبوه قد أخذه منذ طفولته إلى ابن التلميذ (ت ١١٦٥) الذي علمه أولى مسائل حنين بن إسحق.

كان أبو الحسن قد طعن في السن وخدم الخليفة الناصر منذ سنين لما أصيب الخليفة سنة ٥٩٨ / ١٢٠١ - ١٢٠٢ ، بمرض بثانته. وقد ارتاب الناصر منه وكاد أن يأمر بقتله لما رأى عجزه عن مداواته بما يشفيه.

وقد مات هذا الطبيب عندما غازل المئة، سنة ٦٠٨ / ١٢١٢ وخلف كتاب الاقتضاب في الطب وختصره «انتخاب الاقتضاب» وأشعاراً بالسريانية. ويقال إنه ترك تركة عظيمة المقدار.

وكان أبو الحسن (أو الحسين) صaud،^(١١) أخو أبي الخير الأكبر، طبيباً أديباً فلسفياً منطقياً، ووضع كتاباً في الدفاع عن النصرانية فضلاً عن كتاب الصفو في الطب، ومات سنة ١١٩٥/٥٩١، وكان هو أيضاً محبياً إلى الناصر.

وقد صار أخوه الثالث الأصغر، سبريشوع، جاثليقاً سنة ١٢٢٦ وسوف نلتقيه من بعد.

كان الجيل التالي من بني المسيحي أقل شهراً وأسوأ سيرة. فقد ارتكب أبو علي^(١٢) ابن أبي الخير رئيس الشمامسة أخطاء مهنية عدّة وبدد ما خلفه له أبوه من ثروة في الفسق والمجون. وقد قُبض عليه وحُكم عليه بالقتل سنة ٦١٧ / أيار ١٢٢٠ ولكنَّه افتدى نفسه بستة آلاف دينار جمعها من بيع الكتب والنفائس التي كانت لأبيه.

وفي أسرة المسيحي عينها نجد، في خدمة الناصر أيضاً أبا الفرج المتطيّب الذي توفي سنة ٦٠٠ / آذار ١٢٠٤،^(١٣) وأخرجت جنازته ليلاً^(١٤) وحضرها حشد عظيم من النصارى في كثير من الشموع، ودفن في كنيسة الكافيين.

رأينا من قبل أن أبا الخير الكبير عجز عن شفاء الناصر سنة ٥٩٨ / ١٢٠١ - ١٢٠٢ . فاستدعي واحد من أفضل جراحي الكرخ هو ابن عكاشه. وبعد عدّة علاجات غير مجده توصل طبيب نصراوي آخر هو أبو نصر سعيد بن أبي الخير (غير الأول) بن عيسى^(١٥) إلى مداواته بالمرهم المحلل للحمى. فأغرق بالهدايا وأذن له الخليفة بأن يأخذ ما يقدر على حمله من بيت المال. زد على ذلك أن ابني الخليفة والوزير ابن المهدي وعدّة أمراء آخرين غمروه بالصلات وعلائم التشريف، كما أنَّ الناصر أجرى له رزقاً سنوياً يصل إليه حتى يواfine الأجل.

ومن اشتهر في ذلك العصر أيضاً أبو العباس يحيى بن سعيد بن ماري النصراوي الطبيب الشاعر، المتحدر من الطيب، المولود بالبصرة التي أقام بها حتى وفاته سنة ٥٨٩ / ١١٩٣،^(١٦) صاحب المقامات.^(١٧)

كان هؤلاء الأطباء يعالجون المرضى في البيمارستانات، ومنها البيمارستان العضدي الذي وصفه ابن جبير حين زار بغداد، سنة ٥٨٠ / ١١٨٤ ، بهذه العبارة:

«بين الشارع وحملة باب البصرة سوق المارستان، وهي مدينة صغيرة، فيها المارستان الشهير ببغداد، وهو على دجلة، وتتفقده الأطباء كل يوم اثنين وخمسين، ويطالعون أحوال المرضى به، ويرثبون لهم أخذ ما يحتاجون إليه، وبين أيديهم قومة يتناولون طبخ الأدوية والأغذية، وهو قصر كبير فيه المقاصير والبيوت، وجميع مراافق المساكن الملكية، والماء يدخل إليه من دجلة».^(١٨)

البطيريك ميخائيل والسلامجة

في القسم الغربي من الخلافة العباسية، أي بلاد سلاجمة الروم (آسيا الصغرى)، كان لميخائيل الأول بطيريك المغاربة من السريان (اليعقوبة) علاقات ودية جدًا بالسلطان قلج أرسلان الثاني (١١٥٥ - ١١٩٢) قاهر الامبراطورية البيزنطية في العام ١١٧٦. وقد جرت لقاءات الرجلين في العامين ١١٨١ - ١١٨٢^(١٩) وخاصة. لا يذكر ميخائيل كيف كان ابتداء أمر العلاقات، ولعلها انجرت عن زيارة تهنة وهدايا بمناسبة فتح السلطان ملطيه سنة ١١٧٧، على أية حال، يذكر ميخائيل أنَّ السلطان لما اجتاز بالمدينة سنة ١١٨١ «استخبر عن حقاري... وأرسل إلى رسالة موَّدة وعصا رعوية وعشرين ديناراً حمراً. فاندهش الجميع لذلك!».

في تموز من السنة التالية اجتاز السلطان ملطيه مرة ثانية فاستدعى البطيريك وأرسل لصاحبه موكب شرف ضم ثلاثة أمراء في «جمع من الفرسان». فتحير عقل ميخائيل: «دهشت لما رأيت أمراً خارجاً عن العادات... وانتابني الخوف وذهب وهي إلى أنه ربما قد دُسَ الحنظل في العسل».^(٢٠)

وكان السلطان قد رسم بأن يكون دخول البطيريك عليه «على ستة النصارى بالصلب والإنجيل... فاستكثر النصارى من الشموع وشكوا الصلبان في أطراف القنا وجهروا بترانيمهم في الصلاة». فلما حصل البطيريك بين يدي السلطان الراكب على فرسه، في ما يبدو، لم يدعه يتراجَّل عن مطيئه ولا تركه يقبل يده بل عانقه، ثم سار الموكب السلطاني إلى الكنيسة حيث تليت الصلوات والأدعية لنصرة السلطان.

وقد حَطَّ السلطان الجزية عن دير [مار برصوما] وأهداه «كُفَا من الذهب

الحرّ، مطعّماً بالجواهر واللآلئ، فيها ذخائر من القديس بطرس». (٢١) ولم ينزل السلطان يستقبل البطريرك في مجلسه طيلة الشهر الذي نزل فيه بالمدينة. وقد دارت الأحاديث حول موضوعات «المسيح والأنبياء والخوارقين الخ»، وهذا يدلّ على أنّ ذلك السلاجوقي على الأقلّ كان يهتمّ بالمسائل الدينية. وربّما حضر بعض المناظرات فيلسوف السلطان «وهو رجل فارسي بلغ العبرة يدعى كمال الدين». (٢٢) وجرياً على عادة الملوك الذين يصطحبون البطاركة في حلّهم وترحالهم، أمر السلطان ميخائيل بأن يصحّبه.

وفي ما بعد كتب قلج أرسلان، لدى انتزاعه اثنين وسبعين حصناً من الروم، رسائل عدّة إلى البطريرك، يقول في إحداها، على يد كاتب نصريّ في أغلب الظنّ: «من قلح أرسلان سلطان بلاد الروم والشام وأرمينية الأكبر إلى ميخائيل البطريرك صديق السلطنة والداعي لنا بالنصر. نذكر أنَّ الله أعزّ ملكتنا في هذه الأيام بدعائكم... ونذكر أنَّ الله أنعم علينا بهذه الأشياء كلّها استجابة لصلواتكم. نطلب إليك ألا تكف عن الصلاة لدوام ملكتنا. حفظك الله». (٢٣)

نقتصر من هذه الواقع على أنّ السلطان كان يُعدُّ صلة البطريرك مستجابة، وأنّه كان يجيء لأجل ذلك، ولا نعرف هل تغير هذا الموقف من بعدهما انقلب الزمان عليه في أواخر حياته. أمّا من جهة البطريرك فنلاحظ صيغة التعجب وعسر التصديق أمام لطف الكبار وحسن التفاهيم إليه: «وهذا أمر غير معهود»؛ كما نلاحظ خشيه من أن يُدسّ الحنظل بالعسل.

وأنا لو لم أخشى المبالغة في التبسيط لقلت إنَّ الاعتقاد الخرافي (بقوى الأحبار الغيبة) كانت له اليد الطولى في تشكيل الصلات بين أوائل السلاجقة وأخبار النصارى. إلا أنَّ الاعتقادات الخرافية كانت تقوم أحياناً بدور مناقض مثلما حدث سنة ١١٥٢ إذ ألقى في روع قره أرسلان أنه «حيثما تبني كنيسة جديدة يموت أمير البلد» فأمر بتهدم كنيسة للأ Armenians في ناحية حنزيط وصلب القدس. (٢٤)

ولنلاحظ في هذا المعنى أيضاً تعليق ميخائيل السرياني (٢٥) على ذكر وفاة أمير حصن كيما نور الدين محمد سنة ١١٨٥: «لقد حلّت عليه العقوبة لأنَّه كان قد

انتزع أعمدة المرمر من الكنيسة وأدخلها في جملة بناء داره فمات». كان النصارى يعتقدون هذا الاعتقاد لما فيه حاليتهم، وقد كان يشاطرهم اعتقادهم هذا بعض المسلمين. وقد أدركتُ أنا آغا كرديةًا، من نواحي العَقْر بشمال العراق، كان يقول لي إنه لا يعجب من أن داره تهار دائمًا لأنها قد بنيت على كنيسة قديمة».^(٢٦)

وقد شهد العام ١١٨٦ اشتراك النصارى وال المسلمين في خوف عظيم. فقد تبناً المنجمون بكارثة تجلبها الرياح في ١٤ أيلول من ذلك العام. فاحتفر الملوك وكل المقتدرین الأقبية والسراديب تحت الأرض أو ابتنوا الدور المتينة. ولما جاء ذلك اليوم توقف البيع والشراء في انتظار الكارثة. ولكن لما مر ذلك اليوم من دون أن يحصل شيء مما قيل «ازدرى الملوك المنجمين ونبذوهم لما يخدعون الناس بصناعتهم». ولئن كان ميخائيل السريان يقول: «إن النصارى والراسخين منهم في الإياع بخاصة لم تكن تغّرّهم هذه الأباطيل» فهو مع ذلك يضيف أنّهم «واظباوا على إقامة الصلوات والبواعيث، وعلى الصوم والصدقات». وبعد أن بين ما يُنسب إلى النجوم من حق ومن باطل، خلص البطريرك إلى أن التنجيم قد يفيد في معرفة الغيب ولكن الله قادر على تغيير مجرى الأحداث «لرأفته بالبشر».

فتح صلاح الدين بيت المقدس

كان احتلال الصليبيين قسماً من بلاد المسلمين قد أدى إلى نوع من التعايش القائم على توازن غير مستقر. فمن ذلك أنه لما أراد الفرنج، سنة ٥٧٨/١١٨٣، تخرّب مسجد داريَا إلى الجنوب من دمشق،^(٢٨) أندروا «بأنكم إذا خربتم الجامع جدّدنا عمارته، وخرّبنا كل بيعة لكم في بلادنا، ولا نمكّن أحداً من عمارتها» فتخلّى الفرنج عنها كانوا عزموا عليه. ولعل مساومات أخرى قد جرت بين الفريقين.^(٢٩)

إلا أن كفة المسلمين لم تزل تميل إلى الرجحان، حتى جاء العام ٥٨٣/١١٨٧ بحدث كان له وقع النكبة في العالم النصراوي بأسره شرقاً وغرباً: إنه فتح صلاح الدين القدس.

بكى النصارى السريان كلّهم سرّاً على سقوط المدينة المقدّسة في قبضة صلاح

الذين، مع أن المسلمين لم يتصرّفوا فيها بنفس الوحشية التي أظهرها الفرنج^(٣٠) لما ملكوها. وبعد سنة من ذلك نجد رِبَّنْ عزيز، وهو من يعاقبة برتلي القرية من الموصل، يؤرخ الفراغ من نسخ خطوطه «بالسنة الأولى بعد الفتح الرهيب لبيت المقدس»^(٣١). وبعد ستين سنة، أي سنة ١٢٤٧، كتب سبريسون الخامس جاثليق النساطرة إلى البابا إينوكتوس الرابع: «كان من الواجب على كنائس المسيح كلّها وعلى الأديرة وكلّ المؤمنين في الشرق والغرب أن يلبسوا المسوح ويجلسوا للأحزان ويكوا على بيت المقدس وعلى ما حلّ به في أيامنا»^(٣٢).

وقد أحسَّ السريان أنهم مسؤولون قليلاً عن هذه النكبة. فمن ذلك ما يكتبه البطريرك ميخائيل: «لقد خُذلَ الفرنج بسبب خططيانا نحن، ومنزقوا إرباً... وأنا أقول إنَّه لو لا خذلان الله لما حلَّ بهم هذه المزية». (٣٣)

إنَّ نصارى بغداد وإنْ ظلُّوا غير مبالين^(٣٤) بعرضة الأسرى من فرسان الفريج
«بدر وعهم ورایاتهم المنكوسة»، فإنَّ بوسع المرء أن يجزر غيظهم العاجز الكظيم لما
رأوا صلاح الدين قد بعث إلى الخليفة الصليبيot الذي كان قد نصب على قبة
الصخرة بالقدس (وهو صليب برونزٍ ملبيس بالذهب) «ليدفن تحت عتبة بوابة
بعداد المسئَّاة بباب التوبي الشريف ويستبقى منه جزءٌ مكشوفٌ بحيث يدوشه المأة
بالأرجل ويصقون عليه». ^(٣٥)

وقد أسهمت هذه الأحداث أيضاً في خلق فراغات جديدة في صفوف النصارى. لا غُلَم أسماء من أسلم منهم ببغداد في تلك السنوات. أما بدمشق فإن

طبيب صلاح الدين أبو نصر أسعد بن أبي الفتح الياس بن جورجيس الملاكمي المذهب والملقب بموفق الدين بن المطران^(٣٧) قد أسلم «جَبًا للدنيا الزائلة» على قول ابن العربي^(٣٨) الذي يضيف أنه «ما عتم أن مات وأضحم ذكره»، وذلك في ربيع الأول سنة ٥٨٥ / نيسان - أيار ١١٨٩.^(٣٩)

في السنة التالية، ١١٩٠ / نيسان، مات الجاثليق إيليا الثالث أبو حليم عن حوالي ستين سنة قضى منها أكثر من ١٤ سنة في كرسى الجاثلقة.^(٤٠) إن الترائم التي كتبها لأعياد الرب «بلغة مهدية رائعة» (?) معروفة جيداً، كما أن أرجازه البالغة الصنعة لم تزل تنشد في حفلات الزفاف والجنائز بالعراق.

لم يشغل كرسى الجاثلقة بعد موته إلا ثلاثة أشهر فيها يbedo. ذلك أنّ يابالاها بن قيوماً^(٤١) الموصلي، مطران نصبيين «لَا رأى أَنَّ لَا الأساقفة ولا البغداديين يريدونه»، وكان رجلاً جسوراً، دفع سبعة آلاف دينار لصاحب بغداد فأجبر الأساقفة على اختياره وسيامته. وهذه التفاصيل مذكورة في تاريخ ابن العربي اليعقوبي المذهب، الذي قلماً يلين قلبه على النساطرة.

وكانت سيامة يابالاها الثاني في أواخر صيف سنة ٥٨٦ / ١١٩٠.^(٤٢) XXXIII

هنا يظهر ابن فضلان

رأينا جورج مقدسي يقول لنا من قبل «إن الصبحوة السنية التي ميّزت القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد، لم تكن من صنع الخلفاء ولا السلاطين، بل كانت للعلماء فيها حصة الأسد». ^(٤٣) ومن الشواهد الدالة على دور هؤلاء العلماء ما جرى في خلافة الناصر إذ ذُكر أحد مدرسي المدرسة النظامية الخليفة بواجبه حيال أهل الذمة. أما هذا العالم فهو أبو عبدالله محبي الدين محمد بن محبي. وكان أبوه، أبو القاسم جمال الدين محبي فقيهاً شافعياً يدرس في النظامية. وقد كان ابن فضلان^(٤٤) قد درس على أبيه ثم في خراسان، ثم خلف أبوه في التدريس لما مات هذا سنة ١١٩٩. بعيد ذلك^(٤٥) أرسل إلى الخليفة رقعة طويلة^(٤٦) يقول فيها: «مذهب الشافعى... يقضي أن المأمور من أهل الذمة... في كل سنة أجرا

عن سكناتهم في دار السلم^(٤٧) والارتفاع بمرافقها لا يقدر في الشرع بمقدار معين في طرف الزيادة ويتقدّر في طرف النقصان بديناه». لأن «منهم من هو في خدمات الديوان وله المعيشة السنوية غير تركة يده المتداة إلى أموال السلطان والرعية من الرشا والبراطيل. ولعلَّ الواحد منهم ينفق في يومه القدر المأخوذ منه في السنة».

ثم ضرب هذا العالم أمثلة على الامتيازات المتأحة للذميين ومنها: «أن ابن حاجب القيصر^(٤٨) أقام ابن محرز الفقيه من طرف موضع كان به وأقعد مكانه ابن زطينا^(٤٩) كاتب المخزن»، ومنها أنَّ ابن ساوا^(٥٠) كاد يولي على واسط الخ... وبعدما ذكر بما استنهَّ الخلفاء الراشدون أمثال عمر وعليٍّ من سنَّة التشدُّد في معاملة الذمَّة قال: «ثم ليس لهم في بلد من الحرمة والجاه والمكانة ما لهم في مدينة السلام (بغداد)».

ثم ثقَّ هذا الفقيه بانتقاد كلِّ أولئك الذمَّة «من أصحاب المكاسب الجزيلة»^(٥١): فمنهم أطباء لا يحجبون عن الدخول على الأعيان «معما يحيطون في المعالجات... ويخرج الصبي منهم ولم يقرأ غير عشر مسائل من مسائل حنين وخمس قوائم من تذكرة الكحالين... ومنهم أرباب المعاش من العطارين والمخلطين والكسارين أصحاب المكاسب الظاهرة والارتفاعات الكثيرة بأموال التجار المسلمين... و منهم أصحاب الحرف والصناعات من الصياغة وغيرهم» الذين يتلاعبون في الذهب والفضة، و منهم الجهابذة والصيارة الذي يستغلُّون مكاسبهم غير المشروع لإغواء نساء المسلمين وصبيانهم «ويذل جزيل المال في تحصيل أغراضهم في الفساد ورفاهية العيش والتلذُّذ في المأكل والمشاب. ثم ما زالوا على اختلاف الزمان يؤخذون بالصغار ولبس الغيار الذي أوجبه الشرع عليهم». ثم ذكر ابن فضلان «بالشروط» (التي ينسبها إلى عمر بن الخطاب) وبين أنَّ هذا «ما جرت به العادة» أيام المتكَّل وأنَّ المقتدي كان آخر من فرضها. فاطَّلخ الخليفة على الرقة ولم يردَّ على الفقيه. وسوف نلتقي هذا الفقيه عينه في خلافة المستنصر ولكن في موقع يكُنْه هذه المرة من تنفيذ آرائه المتشددة.

يفهم من هذا إذن أنَّ كثيرين من النصارى كانوا يحتلُّون مناصب مهمة في السنوات الأولى من خلافة الناصر. ونجد من بين الذين احتاجَ ابن فضلان على

توليتهم أمور الناس رجلاً كثر الحديث عنه: إنه أبو الغنائم نصر بن ساوا (واسمه الأصلي عبديشوع^(٥٢)) الذي خلف الأمير علاء الدين تامش الناصري على الدجبل والداهوق من بعدهما مُنْعَنْ من تولي النظر بواسط. إلا أنه ما لبث أن اتّهم في العام ٦٠٤ / كانون الأول ١٢٠٧ بتدير موت سلفه بالسم، ثم أدين. وكان قد أخرج ١٠٠٠ دينار ليفتدي نفسه بها، فما دفع عنه ماله. فقطعت يداه ورجلاه ثم صُلب أمام دار الأمير. ويعتبره صليبياً «شهيداً».

مِهْمَا يَكْنَى مِنَ الْأَمْرِ، فَالظَّاهِرُ أَنَّهُ لَمْ يَقُعْ اضطهادُهُ عَامَ فِي تِلْكَ الْفَتْرَةِ، لَأَنَّ صَلِيبِيَا نَفْسَهُ يَخْتَمُ تَرْجِهَ يَابْلَاهَا الْجَاثِلِيقَ قَائِلًا: «وَفِي أَيَّامِهِ كَانَ النَّصَارَى آمِنِينَ فِي عِيشِ هَنِيءٍ».

وَالْحَقُّ أَنَّ طَائِفَةَ النَّصَارَى لَمْ تَعْدْ تَخْيِفْ أَحَدًا، بِاسْتِشَاءِ بَعْضِ الْمُتَعَصِّبِينَ الَّذِينَ يَوْدُونَ إِذْلَالَ «الْقَلْةِ الْبَاقِيَةِ»، أَوْ أَصَاغَرَ طَغَةَ الْأَرِيافِ الَّذِينَ يَوْدُونَ أَنْ يَعْتَصِرُوا مِنْهُمْ آخَرَ دِينَارَ يَمْتَلَكُونَهُ. مِنْ هَذَا الْمُنْظَرِ يَكْتُبُ R. ARNALDEZ عَنْ فَخْرِ الدِّينِ الرَّازِيِّ (ت ٦٠٦ / ١٢٠٩) فَيَقُولُ إِنَّ كِتَابَاتَ هَذَا الْمُتَكَلِّمِ الْمُسْلِمِ «تَوْحِيَ فِي قُوَّةٍ بِأَنَّ الْأَمْرَ كَانَ قَدْ حَسِمَ فِي عَصْرِهِ وَفِي بَيْتِهِ» (فِي الْأَزْمَاتِ الْلَّاحِقَةِ قَدْ جَاءَتْ مِنْ بَيْنَاتِ أُخْرَى): فَقَدْ صَارَ فِي حُوزَةِ الْإِسْلَامِ نَظَامٌ دَفَاعِيٌّ لَا يَخْتَرُقُ، وَعِلْمٌ كَلامٌ وَطِيدٌ أَرْكَانٌ وَلَمْ تَعْدِ النَّصَارَى، مِنْ حِيثِ هِيَ نَظَامٌ حَيَا وَتَفَكَّرَ، مُتَّلِّ خَطَرًا عَلَى الْعِقِيلَةِ وَالْأَخْلَاقِ أَكْبَرُ مَا كَانَ نَصَارَى دَارِ الْإِسْلَامِ يَشَكَّلُونَ، مِنَ الْوِجْهَةِ السِّيَاسِيَّةِ، خَطَرًا عَلَى السُّلْطَةِ الزَّمِينِيَّةِ لِلْمُسْلِمِينَ».^(٥٣)

أَمَّا عَنِ الْأَحْوَالِ الْعَامَّةِ فَقَدْ كَانَ مِنْ شَأنِ أَمْرِ الْخَلِيفَةِ النَّاصِرِ، سَنَةُ ٦٠٤ / ١٢٠٧، بِإِلْغَاءِ الْمَكْوَسِ عَلَى الْمِبَعَاتِ وَبِنَاءِ «دُورِ ضِيَافَةٍ» لِيَفْسُطِرَ فِيهَا الْفَقَرَاءَ^(٥٤) فِي رَمَضَانَ، كَانَ مِنْ شَأنِ ذَلِكَ الْأَمْرِ أَنْ يَبْهَجَنَا لَوْلَمْ نَعْلَمْ أَنَّ هَذَا الْخَلِيفَةَ الْمُتَقْلِبَ الْمَرَاجِ قدْ أَمْرَ بِعَدِ قَلِيلٍ بِخَلْفِ ذَلِكَ: أَغْيَتْ دُورَ الضِّيَافَةِ وَأَعْيَدَتْ الْمَكْوَسَ. وَقَدْ وَقَعَ فِي السَّنَةِ عِنْهَا فِيَضَانٌ مِنْ نَاحِيَةِ بَابِ كَلْوَانِيِّ رَبِّيَا أَصَابَ نَصَارَى سُوقِ الْثَّلَاثَاءِ الْمَجاوِرِينَ هَذَا الْبَابِ، وَفِيهِمُ الْجَاثِلِيقُ الَّذِي كَانَ يَنْزَلُ هَنَاكَ.

تَذَكَّرُ هُنَا وَفَاتَ طَبِيبُ نَصَارَى آخرَ مِنْ بَغْدَادِ، إِنَّهُ الْمَهْذَبُ بْنُ هُبَّلَ مِنْ تَلَامِيذِ

أبي البركات الطبيب اليهودي. وكان قد مارس المهنة في مدينة خلاط بأرمينية ثم رجع إلى الموصل وبها مات سنة ١٢١٣/٦٠١ عن حسن وسعين سنة. وله من الكتب كتاب المختار الذي لم يزل مستعملًا حتى أيام ابن العري.^(٥٥)

ثم تمرّ عشر سنوات ينعم فيها النصارى بهدوء البال ويروي الأجل يابالها الثاني بعد واحد وثلاثين عاماً ويف. سنة ٦١٨ / آخر كانون الثاني ١٢٢٢ ، فيدفن بالعتيقه في كنيسة السيدة مارة مريم^(٥٦) المعروفة بكنيسة العتيقة، أي بالحي الجنوبي الغربي من بغداد. وكان يابالها طاهراً ذكياً خيراً بالمداراة واجتذاب قلوب الناس متقدماً عند الملوك.

سبريسوع بن قيوما

XXXIV بعد موت الجاثليق يابالها الثاني، اجتمع أساقفة المشارقة من السريان «وطلب كل واحد منهم الرئاسة لنفسه»، على قول صليبا. ربما كانت هذه عادة طيبة: كان المنصب مرغوباً فيه لا عنه! انقسم العلمانيون إلى حزبين: منهم أفلية ترشح الأسقف سبريسوع بن المسيحي الذي كان، فضلاً عن علمه وفضله وتقواه، من أخوة الأطباء المشهورين من بني المسيحي، وهذا مما لا بأس فيه. وأماماً الأكثرية من العلمانيين فكانت تفضل أن يتُخَبَّط الأساقفة سبريسوع بن قيوما،^(٥٧) الذي كان، على قول صليبا، ابن أخي الجاثليق السابق، فتعلم عليه فن السياسة «والعلاقات العامة»، وكان مثل عمّه: «يكاتب الشعب ويستميل قلوبهم».

ويروي ابن العري، الذي لا يبني لسانه عن القدر بالنساطرة، نفس قصة الرشوة المدفوعة إلى الوالي، ويدرك المبلغ نفسه أيضاً (٧٠٠٠ دينار)... أما الوسيط فكان الطبيب اليعقوبي الواسع النفوذ، أمين الدولة، الذي ستكلّم عنه فيما يلي. وافق الخليفة الناصر على الانتخاب والباقي معروف: سيامة، زيارات رسمية، الخ. لنعد إلى الوسيط. كان أمين الدولة أبو الكرم صاعد بن توما،^(٥٨) المعروف بفضائله، طبيباً وكاتباً وزيراً لنجم الدولة أبي اليمن نجاح الشرابي ثم صار من خواص الخليفة الناصر «حتى أوكل إليه تدبير سائر أمور المملكة وتدبير شؤون أبنائه وبناته^(٥٩) ونسائه» وكذلك تدبير دواوين عدة وجعله بمنزلة وزير.

إلا أن سيرة هذا الطيب اللامع آلت إلى نهاية مأساوية إذ قُتل غيلة سنة ١٢٢٣/٦٢٠. لأي سبب؟ لا نعرف شيئاً مؤكداً غير عدد القتلة. يقول ابن أبي أصبيعة إنه خاطب «رجلين من الجن، بما فيه بعض المكروه» فتعقباه وطعناه بالسکاكين فأعدما. إلا أن رواية ابن العربي أدق تفصيلاً، وتبدو بدسائس قصور بغداد أشبه.

يقول ابن العربي إن الخليفة الناصر عثي وصار شبه أعمى وكان يخفي ذلك لئلا يعزل. وكانت مكاتباته مع الوزير تكتبهما امرأة خطّها يشبه خطّه، هي المست نسيم صاحبة تاج الدين رشيق الخصي. ولكن الوقت لم يطل بالوزير مؤيد الدين القمي حتى استраб من الأمر، فاستفسر من الطيب، فأطّلعله على علم الخليفة، فجئ على نفسه، وساعته عاقبة أمره. إذ أمر الخليفة ابني قمر الدين بقتله ثم صلبهما فوراً لأنهما ربما شهدا بما علميا، وأرجف بأن تجافيه مع الجنديين كان السبب في اغتياله.

وما يوحى بأن رواية ابن العربي صحيحة في معظمها هو ما عقب قتل الطيب من مصادرة الخليفة ما خلفه القتيل من نقد (٨٠٠ و ١٣٠٠ دينار) والكافر عما سوى ذلك من متاع (قيمتها مليون دينار) وتخليته لأولاده الثلاثة، شمس الدولة وفخر الدولة وناتج الدولة^(٦٠) الذين كانوا من أصحاب الجاه والشهرة.

موت الخليفة والجاثلية

دامت جثلقة سبريسوع بن قيوما أقل من ثلاثة سنوات، ومات سنة ١٢٢٥/١١ حزيران، بعدما ذُبِرَ الرعية تدبّراً حسناً، ودفن بالقرب من عمّه.

ومات الخليفة الناصر في السنة نفسها في ٦ تشرين الأول. «وكان قيبح السيرة في رعيته، ظلماً، فخرّب في أيامه العراق وتفرق أهله في البلاد وأخذ أملاكهم وأموالهم» على قول ابن الأثير.^(٦١) أما ابن العربي^(٦٢) فقد حفظ لنا ذكرى جولاته متذكراً في أسواق بغداد، مؤكداً أنه كان يقتل كل من كان يتعرّفه (؟). كان الناس يتهارون من أمامه «وكان الرجل إذا سار مع امرأته ليلاً خاف أن يحدّثها حديثاً

كيفما كان إذ كانا يخافان أن يكون الخليفة معها في البيت أو في النافذة أو على السطح». ^(٦٣)

لنتظر، بعد هذا الفولكلور، إلى تقويم جدي لسياسة في الحكم قدمته إنجليكا هارتمان: ^(٦٤) كان هو نفسه شيخاً ^(٦٥) من شيوخ الخانبلة، واستعان باليول الدينية القائمة ليعيد السلطة إلى الخليفة ويتخلص نهائياً من نفوذ السلاغقة. وللتوصيل إلى هذا المهدف لم يعد هذا الخليفة مجرد «تأييد مطالب أولئك العلماء الذين كان يحتاج إليهم للتقارب من العامة». ^(٦٦)

ولئن كان لم يستعمل هذا الأسلوب، كما أظن، في التعامل مع مطالب ابن فضلان، فإن ذلك يعود إلى سببين: أولهما أن النصارى والأطباء منهم بخاصة (مثل أمين الدولة الذي بقي حتى العام ١٢٢٣) كانوا لا يزالون يتمتعون بنفوذ كافي ليحولوا دون إصغاء الخليفة إلى مقالة الفقيه ابن فضلان. ^(٦٧) وثانيهما أن الأمر لم يعد يستحق الاهتمام، لأن عدد النصارى قد أصبح ضئيلاً وإن كانوا يتمتعون بمكانة اجتماعية مرموقة.

الحواشي

(١) الكامل، ج ١١، ص ٤٥٩. وهو أحد الرجلين اللذين يصفهما هربرت ماسون في كتابه Two Statesmen of Medieval Islam أما الثاني فهو ابن هيبة الوزير، وكذا تسمى لو أن لهذا الكتاب فهرساً. انظر E.I¹, III, p. 920-921 par F. TAESCHNER. والآن HARTMANN, An Nasir Li Din Allah, cit.

CAHEN, Bagdad au temps de ses derniers califes, p. 300-301. (٢)

(٣) الكامل، ج ١١، ص ٤٧٦.

(٤) استناداً إلى مضمار الحقائق وسر الخلافة للملك المنصور، مذكور في كتاب HARTMANN عن الناصر، ص ٢٩٧، رقم ١٣.

(٥) استناداً إلى سبط ابن الجوزي، مرآة، ص ٣٧٨.

(٦) المصدر نفسه، ص ٢٩٧ - ٢٩٨. يلاحظ الأستوبي، ص ١٩ - ٢٣ (من غير ذكر التاريخ) أنَّ صلاح الدين أصدر أمراً ماللاً بتحريض من قاضي دمشق محى الدين بن الركي الذي نراه يدبح صلاح الدين سنة ١١٨٣/٥٧٩ ويصلّي معه في قبة الصخرة سنة ١١٨٧/٥٨٣؛

الكامل، ج ١١، ص ٤٩٧ - ٥٥١. أمّا الحجج التي ساقها القاضي فهي: اختلاسات الكتاب النصاري من مختلف الرتب، ورذائلهم: السكر والزنا حتى بالنساء المسلمات، وتسلّلهم حتى إلى داخل قصور الأمير. وهو يورد على ذلك مثال رجل مسلم اضطُرَّ إلى تقبيل يد كاتب نصري، عظيم الفوز عند الأمير، ليتمكن من بلوغ حاجته. - وينهُب الأنسوي (ص ١٠ - ١١) إلى أنَّ حيل الكتاب النصاري واختلاساتهم كانت تحكم من تشيد الكنائس والأديرة أو تجديد عمارتها بينما مساجد المسلمين تتداعى إلى الحراب. - ولن يتهم النصاري بحرق مساجد المسلمين بمصر ودمشق إلاً في القرن الرابع عشر (المصدر نفسه، ص ١٣ - ١٤). - عن هذه النقطة الأخيرة أنظر صلاح الدين المنجد حريق الجامع الأموي بدمشق، ١٣٣٩/٧٤٠ في مجلة المجتمع العلمي بدمشق، ٣١ (١٩٥٦) ص ٣٥ - ٤٧. وينتقد D.R. MACDONALD في كتابه *The Religions Attitude and Life in Islam* (١٩٥٦)، ص ٣٤ - ٣٣، المنجد لأنَّه «اعترافات» المتهمن «على ظاهرها».

- (٧) محمد بن تقى الدين الأيوبي، مضمار الحقائق، ص ٧٤.
- (٨) رحلة ابن جبير، ص ٢٠٣.
- (٩) المصدر نفسه، ص ١٩٣. وهو يقابل الواقع المحزن باستعلاء العبداديين وافتخارهم ببغداد: «قد تصوَّر كلَّ منهم في معتقده وخليه أنَّ الوجود كله يصغر بالإضافة إلى بلده».
- (١٠) ابن العبري، المختصر، ص ٤١٦. ابن أبي أصيحة، ص ٤٠٣ - ٤٠٥: ابن القسطي، ص ٢١٨ HARTMANN, P. 306.
- (١١) ابن القسطي، ص ١٤٤ - ١٤٥. ابن أبي أصيحة، ص ٤٠٦. GCAL, II, p. 200. دائرة المعارف، ج ٤، ص ٤٠؛ HARTMANN, P. 299; Islamochristiana, 2, p. 225 (no. 22.17) avec réf.
- (١٢) ابن القسطي، ص ٢٦٨. الحوادث الجامدة، ص ١٣.
- (١٣) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج ٩، ص ١٣٢.
- (١٤) هل كان ذلك إيتان فترة كان يحظر على النصارى فيها إخراج جنائزهم نهاراً؟
- (١٥) ينسب إليه ابن أبي أصيحة كتاب الاقتضاب، ص ٢٩٨ - ٣٠١؛ دائرة المعارف، ج ٤، ص ٤٠. HARTMANN, P. 298
- (١٦) ياقوت، إرشاد، ج ٧، ص ٢٩٧؛ ابن القسطي، ص ٢٣٦؛ شيخو، شعراء، ص ٣٤٧ - ٣٥١.
- (١٧) التي حقَّى القسم الأول منها الأب أنسطاس الكرملي، ونشرها في مجلة المشرق، ٣ (١٩١٠)، ص ٥٩١ - ٥٩٨.
- (١٨) رحلة، ص ٢٠١.
- (١٩) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٣٩٠ - ٣٩٤، ٣٩١ - ٣٩٥.

- (٢٠) إنَّ O. TURAN الذي يصوِّر العلاقات بين سلاطين السلاجقة وبين النصارى بصورة مثالية، يغفل هذه الجمل المترضة، انظر كتابه، ص ٧٦ - ٧٨ .
- (٢١) حبذا لو كنَّا نعرف مصدر هذه اللذخائر.
- (٢٢) الفقيه الشافعي كمال الدين بن يونس، أنظر ابن خلkan، وفيات، ج ٥، ص ٣١٢ - ٣١٣ . وقد درَّس لاحقاً بالموصل حيث «كان أهل الذمة يقرؤون عليه التوراة والإنجيل ويشرح طم هذين الكتابين شرحاً يعترفون أنَّهم لا يجدون من يوضحها لهم مثله»، على قول ابن خلkan. وانظر أيضاً كتاب أسامة عانوي *كتوز الفكر العربي*، بيروت ١٩٨١ ، ص ٦٧ .
- (٢٣) ثُنَّة مثال على هذه الصلوات الطقسية في المخطوط العربي والكلداني، رحاني - شرقية رقم ٦٤٩ (فهرست بهنام سوفي، الورقة ٣١ - ٣٢) . - وانظر أيضاً التراجم السنية لإيليا أبو حليم، تحقيق يعقوب نعمو، الموصلي، ١٨٧٣ ، ص ٣٠٦ - ٣١٠ .
- (٢٤) ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٣٠٧ . - إنَّ O. TURAN الذي يورد الخبر (ص ٩٣) ينسبه إلى أسباب منها «القرب من ديار المسلمين»، لأنَّ العرب عنده أشدَّ تعصباً من الترك.
- (٢٥) ج ٣، ص ٣٩٦ .
- (٢٦) عن الاعتقاد بالمسايب التي تحُلُّ بالذين يغتصبون الكنائس، انظر F.W. HASLUCK, Christianity and Islam Under the Sultans, Oxford (1929), I, p. 21-22.
- (٢٧) ج ٣، ص ٣٩٧ . - وقد كان أورد نبوءة كاذبة أخرى من نبوءات المنجمين في المصدر نفسه، ص ٣٥٢ .
- (٢٨) الكامل، ج ١١، ص ٤٨٤ . - ويقال إنَّ بلاً، مؤذن الرسول، أقام فيه.
- (٢٩) بعدما أخذ الصليبيون عكا، أراد صلاح الدين تهديم كنيسة القيامة بالقدس، إلاَّ أنه عدل عن قصده خشية أن يتقموا من المساجد ببلاد النصارى، Claude CAHEN, Indigènes et Croisés, Syria, XV (1934), p. 355, note على تكليفه بالنصارى تنكيلاً يخشى معه الانتقام من تجار المسلمين في أراضي الروم. مذكور في: PERLMANN, Asnawi, p. 202
- (٣٠) ولكن علينا ألا نغفل أيضاً عن رواية شاهد عيان هو الراوي المجهول (ج ٢، ص ١٥٠) الذي يتميَّز عادة بالحياد التام، ولا عن رثاء البطريرك الأرمني غريغوريوس دغا، في Recueil des historiens des Croisades. Documents arméniens, t.I, p. 279-280 أبي أصيبيعة: «ولم يسلم من البيت المقدس من الأسر والقتل وزن القطعة سوى بيت هذا الحكيم المذكور (أبو سليمان داود بن أبي المني بن أبي فانه) وكتب له كتاباً إلى سائر مالكه برأ وبحرًا يمساهم بهم جميع الحقوق الالازمة للنصارى فأعفوا منها إلى الآن»، ص ٥٨٧ - ٥٨٩ . ويدهب كلود كاهن الذي يورد هذه الجملة في: Indigènes et Croisés, p. 351-360 إلى أنها تتطوَّي على مبالغة. وعلى الرغم من التعديلات

التي ارتكبها عسکر صلاح الدين فإنَّ الرجل كان يتحلُّ مثناقب «الفارس» الأصيل كما تشهد به قرائن عدَّة. وإنَّ الرأي الذي يرويه عنه جوانفلي، مؤرخ الحروب الصليبية، فيمن يرقون من دينهم ليستحق أن يورد هنا: «لم يُرَقَّ نصرانِي صالحاً حُسْن إسلامه ولا مسلماً صالحاً حُسْن نصرانِي»، Saint Louis, Paris, 1963, p. 84.

(٣١) WRIGHT, P. 257-258 . المخطوطة السريانية، رقم ٣١٨ بالمتحف البريطاني.

S. GIAMIL, *Genuinae relationes inter Sedem Apostolicam et Assyriorum Orientalium* (٣٢)
seu *Chaldeorum Ecclesiam*, Rome, 1902, p. 2

(٣٣) ج ٣، ص ٤٠٤ .

(٣٤) يقول E. SINAN: «أبدى نصارى المشرق لا مبالغة تامة حيال الصليبيين، محَرِّرِهم المزعومين» في الصفحة ١٢١ من كتابه: *Chrétiens sous les Ayyoubides* . - ليس هذا ما يتراءى لقارئ ميخائيل السرياني أو تاريخ الراهوي المجهول.
أنظر مقالاً:

Chrétiens syriaques entre Croisés et Mongols. Symposium Syriacum, Rome 1972; in

Orientalia Christiana Analecta no. 197 (1974), p. 327-341.

(٣٥) وترى مصادر أخرى (حبيب الزيات، السمات المميزة، ص ١٥ ، الصليب في الإسلام من ١٠) فيه صليبياً من صلبان الصليبيوت، أي صلبان الحرب لا «الصلب الحقيقي». - عنأخذ صليب الصليبيوت، في خطين سنة ١١٨٧ هـ. وقد أرسل صليب خطين إلى دمشق مع عدد القسي في الفتح القدسي، مصر ١٣٢١ هـ. وقد حمله مقلوبًا القاضي ابن أبي عصرون لدى دخوله الاحتقالي إلى المدينة، أنظر أحمد بن إبراهيم الخنبل، شفاء القلوب في مناقببني آلة آيب، تحقيق ناظم رشيد، بغداد، ١٩٧٨ ، ص ١٢١ .

(٣٦) ينتهي تاريخه إلى العام ١١٩٥ ، وقد مات هو سنة ١١٩٩ .

. J. NASRALLAH dans Abu'l-Farağ al-Yabrûdi, dans *Arabica* XXIII (1976) p. 20-22
(٣٧) الصفدي، ج ١١ ، ص ٤٠ - ٤٣ ، رقم ٣٩٤٦؛ ابن أبي أصبيعة، ص ٦٥١ - ٦٥٩ .

(٣٨) ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ٢١٤ .

(٣٩) البداية، ج ١٢ ، ص ٣٤٧ - يذكر في العام ١١٩٥ ، حظر قرع النواقيس بالرها، وقد نزل من جراء هذا الحظر «كرب عظيم بالنصارى»، ميخائيل السرياني، ج ٣ ، ص ٤١٣ . وكان الحظر بأمر من الملك العادل، أي أنه كان محلياً لا شاملاً.

(٤٠) وكان من ضيوفه في القلية أبو سعيد الحسن بن خليل بن المبارك بن المحضار المارديني. وكان قد برع في العلوم ثم اختار حياة العزلة، وقد توصل أحد زملائه القدامى في الدراسة وهو قطب الدين إيلغازي الثاني الأرنقي إلى إقناعه بالدخول في خدمته من بعدها ملك على ديار بكر سنة ٥٧٢/١١٧٧ - ١١٧٧ ، وأحاطه بالعناية والاحترام. وقد رفض دعوة يروق شاه

بن قلچ أرسلان الذي أراد أن يجعله وزيره، ورئاً جاء إلى بغداد بعد وفاة قطب الدين سنة ١١٨٤/٥٨٠، حيث نزل بجوار إيليا الثالث أبو حليم (١١٧٦ - ١١٩٠). أخيراً عاد إلى بلاده ماردين حيث مات سنة ٦٠٣/١٢٠٣. وقد أثرت عنه قصائد تجدوها في الجامع المختصر، ص ١٤١ - ١٤٢.

(٤١) صليبا، ص ١١٥؛ ابن العربي، ج ٢، العمود ٣٧٠ - ٣٧٢.

(٤٢) أمّا من جهة سلاطين سلاجقة الروم فقد تغيرت الأحوال عنّا كانت عليه أيام العلاقات الطيبة بين البطريرك ميخائيل وقلچ أرسلان. ففي أيام غياث الدين (١١٩٢/٥٨٨) كان على نصارى أرزنجان أن يدفعوا ٣٠٠٠ درهم للحصول على الإذن بالخروج في موكب حتى الفرات يوم عيد معمودية المسيح (الغطاس). وقد استمرّ هذا العرف حتى أيام ركن الدين، راجع زيادة الفكرة في تاريخ الهجرة، مخطوطة المتحف البريطاني العربية ٢٣٣٢٥، الورقة ٥٢ (أ) مذكورة في كتاب الصليب في الإسلام لحبيب الزيات، ص ٨٨ - ٨٩. ونجد في هذا النص ذكر جاثليق (أ) يدعى مار حسيا. والحق أنّ هذا اللقب الذي يعني «السيد الطاهر» كان يطلق على المطارنة كلّهم.

(٤٣) أنظر أعلاه ص (٢٨١). وقد رأينا ابن عزرون لدى نور الدين، ومحبي الدين الراكي لدى صلاح الدين وابن بدران لدى المقتدي، الخ.

(٤٤) الجامع المختصر، ص ١١ - ١٣؛ دائرة المعارف، ج ٣، ص ٤٣٣؛ أنظر مختصر عمله في Bishr FARES, *Vision chrétienne et signes musulmans* (Mém. Inst. Eg. 56, 1961), p. 25-26.

(٤٥) قبل العام ١٢٠٧، لأنّ ابن ساوا مذكور في الرقة التي ستتكلّم عنها.

(٤٦) في الحوادث الجامعية، ص ٩٣؛ مقتطفات منها في شدرات تاريخية، المشرق ١٨ (١٩٢٠)، ص ٥٩٦ - ٥٩٩، الخزانة التيمورية، ص ٣ - ٤، ٤٣ - ٤٧.

(٤٧) أي دار الإسلام، وهي خلاف دار الحرب.

(٤٨) يذكر هذا الحاجب في العام ٥٩٥/١١٩٩، ابن الساعي، جامع، ص ١٦.

(٤٩) أسلم أبو الفضل جبيل بن زطينا قبل وفاته سنة ٦٢٦/١٢٢٨، شيخو، المشرق ١٨ (١٩٢٠)، ص ٥٩٦ - ٦٠٧.

(٥٠) هو أبو الغنائم نصر بن ساوا الذي سنلقيه سنة ١٢٠٧/٦٠٤.

(٥١) يدلّنا هذا النص على بنية الطائفتين النصرانية واليهودية في ذلك العصر.

(٥٢) ابن الساعي، جامع، ص ٢١٩ - ٢٢٠. صليبا، ص ١١٥. ابن العياد، شدرات، ج ٥، ص ٩. - كانت داره بدرب القيار حيث كانت أيضاً مدرسة لفقهاء الحنابلة. هل كان ليجازنه ضلوع في اتهامه؟ - وقد صارت داره، دار ابن ساوا، إلى غيره سنة ٦٠٦، جامع، ص ١٤، ٢٨٩.

Les chrétiens selon le commentaire coranique de Rāzi, dans *Mélanges Islamologiques*, (٥٣)

- لفت الأنظار إلى الفقرة التي يتكلّم فيها ابن العربي في تاريخ الزمان، ص ٢٤٩ ، عن وفاة فخر الدين الرازي عن ثلاث وستين سنة هجرية.. «وكان من أفضّل فقهاء زمانه وقد استثار العرب وما برحوا يستثيرون بتصانيفه الكثيرة. ضارع أوريجانيس الذي بعدما استفاد علماء الكنيسة بتاليّه، عادوا فأعتبروه هرطوقياً وكذلك الرازي فقد اعتبره العرب كافراً مجازياً أريسطو في آرائه». نُودُّ Volume à la mémoire d'ARMAND ABEL, éd. par P. SALMON Brill, 1974, p. 57
- (٥٤) الكامل، ج ١٢ ، ص ٢٧٨ .
- (٥٥) تاريخ الزمان، ص ٢٥٠ .
- (٥٦) يجعلها ابن العربي برعاية والدة الله، وهذا قول لا يتفق وعقيدة النساطرة.
- (٥٧) صليباً، ص ١١٥ - ١١٧ . ابن العربي، ج ٢ ، المعمود ٣٧٢ .
- (٥٨) أتى هنا الأسماء والتاريخ الوارد في تاريخ ابن العربي الذي يفترض أن يكون أخّير به لأنّه من طائفته. أمّا ابن أبي أصيبيعة فيسمّيه أبو الفرج صاعد بن هبة الله بن توما، وترجمته مشابهة لترجمة ابن العربي. دائرة المعارف، ج ٢ ، ص ٣٨٨ .
- (٥٩) قد صار في العام ١٢٠٣ / ٦٠٠ وكيلاً لدى خاتون، بنت الملوك سقر الطويل، ابن الساعي، جامع، ج ٩ ، ص ١٢١ . الصفدي، الوفي، ج ١٦ ، ص ٢٣٩ - ٢٤٠ . ابن أبي أصيبيعة، ص ٤٠٥ - ٤٠٦ .
- (٦٠) وقد رأينا من قبل المستضيء يطلق أجدادهم سنة ١١٧٠ / ٥٦٦ . - ثمة قصيدةتان بالسريانية في مدح الاثنين الآخرين نظمهما سويريوس يعقوب البرطلي مطران مار متى سنة ١٢٢٣ ، تجدهما في نهاية إحدى خطوطات مطرانة السريان الأرثوذكس بالموصل. انظر فهراس المخطوطات السريانية في العراق، ج ٢ (بغداد، ١٩٨١) ص ١٦٤ ، رقم ١/٣٤ حيث يسمّيان فخر الدولة ماري وتاج الدولة أبو طاهر. وانظر MINGANA خطوطه سريانية رقم ١٠٠ Catalogue I, col. 247-248) وفي فهرسه (المعمود ١٢٢٣) يظنّ منغاناً أنّ ماري كان راهباً .
- (٦١) الكامل، ج ١٢ ، ص ٤٤٠ . - بيد أنّ ابن الطقطقي يطبّب في سرد مناقبه ويعده من أفضّل الخلفاء وأنبئهم ذكرًا، الفخرى، ص ٢٥٧ .
- (٦٢) تاريخ الزمان، ص ٢٦٩ .
- (٦٣) كان عيون الناصر في دور السلاطين والأسوق على ما يذكره ابن الطقطقي، ص ٢٣ و ٢٥٧ .
- Dans: *Orientalia Suecana XXII* (1973) p. 52-61 (٦٤)
- Une liste d'autorité du calife al Nāṣir, *Arabica* 6 (٦٥) يعطي Georges VAJDA في مقاله 6 Georgette VAJDA في مقاله 6
- (٦٦) (1959), p. 173-177 أسماء المحدثين الخبالة.

(٦٦) يذهب H. LAOUST في مقاله: Le précis de droit d'Ibn Qudāma , Inst. Fr. Damas, 1950, P. XX إلى أنَّ الناصر كان ينوي إعادة بناء وحدة الإسلام الأولى بمحاولته مصالحة السنة والشيعة.

(٦٧) ورُبما كان الخليفة أميل إلى الخاتمة، المتشدّدين عادة، ولذلك لم يستحسن أن ينبعه على الصواب مدرس شافعي شاب. - عن سياسة الناصر الدينية، أنظر أيضًا LAOUST, Ibn

Batta, p. CXXV

٣٥ - الظاهر (١٢٢٦ - ١٢٢٥ / ٦٢٣ - ٦٢٤)

كان أبو نصر محمد الظاهر بأمر الله ابن سلفه الناصر، ولكنه كان يختلف عنه اختلافاً بيناً، وكانت خلافته القصيرة (أقل من عشرة أشهر) مثل الربيع لشعبه بالرغم من المجاعة والوباء اللذين ضرباً البلاد سنة توليه الخلافة.

فقد ألغى الزيادات في المكوس التي أحدها والده، والفرق في زنة الذهب والدنانير، والمطالعات اليومية التي كان يكتبها حراس الدروب عن اجتماع الناس بعضهم بعض، ورخص الأسعار، وأخرج كل من كان في السجون، وأمر بإعادة ما أخذ منهم وعدل^(١) في الناس وأحسن إلى الجميع. فلما «قيل له في الذي يخرجه ويطلقه من الأموال، قال لهم: أنا فتحت الدّكّان بعد العصر، فاتركوني أفعل الخير، فكم أعيش؟».^(٢)

فكان ما خيف أن يكون في الرابع عشر من رجب من العام ٦٢٣. ويختتم ابن الأثير صفحات عدّة في الثناء على هذا الخليفة قائلاً: «ولم أزل، علم الله سبحانه، مذولي الخلافة أخاف عليه قصر المدة لثبات الزمان وفساد أهله وأقول لكثير من أصدقائنا: وما أخواني أن تنصر مدة خلافته، لأنّ زماننا وأهله لا يستحقون خلافته». ^(٣)

ويضيف ابن العربي خبراً مهماً عنه: فقد أمر ببناء جسر ثانٍ على دجلة لأنّ بغداد ظلت مئتي سنة بجسر واحد. ^(٤)

سبريسوع بن المسيحي

أما خلف سبريسوع بن قيوماً فكان مطران باجرمي، أبو الفضل بن

XXXV

أي الخير، سبريسنوس بن المسيحي^(٥) من أسرة أولئك الأطباء البغداديين الذين صادفناهم من قبل. وقد انتخب بالإجماع بعد خلو الكرسي ما يقارب السنة. ويتهمه ابن العربي كالعادة، بأنه حصل على المنصب «بالذهب»^(٦) سواء من ماله أو من مال أخوته «الرجالات الأخيار والأطباء المشاهين». وقد منحه الخليفة الظاهر عهد التولية مع إعفائه من الرسوم.

دامـت جـثـلـقـةـ اـبـنـ المـسـيـحـيـ وـاحـدـاـ وـثـلـاثـيـنـ عـامـاـ، فـيـ خـلـافـةـ الـظـاهـرـ وـالـمـسـتـنـصـرـ وـالـمـسـتـعـصـمـ. يـثـنيـ الـجـمـيعـ عـلـىـ حـسـنـ تـدـبـرـهـ أـمـرـ الرـعـيـةـ، وـلـكـنـتـ لـاـ نـجـدـ شـيـئـاـ فـيـ التـرـاجـمـ المـخـصـصـةـ لـهـ عـنـ أـحـوـالـ النـصـارـىـ فـيـ عـصـرـهـ، أـيـ أـواـخـرـ أـيـامـ بـنـيـ الـعـبـاسـ.

من الجائز أن تكون علاقات أسرة الجاثليق بأهل الطب، وبالتالي بأهل البلاط قد سهلت خلق جوًّا وتي في التعامل مع النصارى على وجه الإجمال. كانت هذه الظروف مؤاتية جدًا، وهذا ما حدا بأبي صاعد عبد الرحمن بن محمد بن دواست لأن ينشد قبل ذلك بحوالي القرن:

لما رأيتُ الجسمَ ذَا اعتلالِ ودبَّتِ الآلامُ في أوصالي
دعوتُ شيخًا من بني الجاوي بطريقَ عمِّ جاثليقَ خالٍ^(٧)

ويروى أن حادثة يوسف لها قد وقعت في أيام الظاهر، أي في العام ١٢٢٥ - ١٢٢٦ (من غير أن يعرف شيء عن مداخلها وخارجها) للمفريان اليعقوبي إغناطيوس داود لما أراد أن يرى مدينة تكريت «التي كان يقيم فيها المطرانة فيها غرب من السنين». ولكن، ساء ما فعل، إذ ما كادت رعيته الصغيرة تفرغ من استقباله حتى اتهم لدى الخليفة بتهمة غير معروفة. فأمر الخليفة^(٨) بنبب دور النصارى: وفرضت سلطات تكريت المحلية على المفريان وعلى أعيان النصارى غرامات قدرها ٢٠٠٠ زوري وسجنتهم. ولم يطلقوا إلا بعدما تدخل الآتابك لؤلؤ^(٩) الذي كان يهب لنجدته من يدفع له أكثر، وسوف نلتقيه من بعد.

الحواشـي

(١) يقول ابن الأثير: «فلو قيل إنَّه لم يلِ الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز مثله لكان القائل

صادقاً» وهو الذي صرف ابن فضلان ووكله بالنظر في شؤون البيارستان، وذلك بعد شهرين من توليه الخلافة (أي في كانون الأول ١٢٢٥)، الصفدي، ج ٥، ص ٢٠٠ - ٢٠١، الرقم ٢٢٦٠.

(٢) يعني أنه جاء متأخراً، إشارة إلى المثل القائل: يا فاتح دكانه بعد العصر ماذا تبيع وماذا تشتري؟

(٣) الكامل، ج ١٢، ص ٤٤١ - ٤٥٧، ونجد ثناءً مماثلاً في تاريخ الخلفاء للسيوطى، ص ٤٨٥.

(٤) تاريخ الزمان، ص ٢٧٠، وكذلك ابن الطقطقى (ص ٢٦٣) الذي يشير إلى السير في المواجه واحد على كل من الجسرتين المتوازيتين (كما كان من قبل بين طيسفون وبهاسين).

(٥) صلبيا، ص ١١٧ - ١١٩. ابن العبرى، العمود: ٣٧٢ - ٤٠٠ - ٤٠٢.

(٦) الثعالبى، يتيمة الدهر، ج ٤، ص ٤٢٧؛ عن الشاعر أنظر دائرة المعارف، ج ٣، ص ٥٨.

(٧) ابن العبرى، ج ٣، العمود: ٣٩٠.

٣٦ - المستنصر (١٢٤٢ - ٦٤٠ / ٦٢٣ - ١٢٢٦)

سلك أبو جعفر المنصور، الملقب بالمستنصر بالله^(١) سيرة أبيه الظاهر في الخير والإحسان إلى الناس^(٢). وقد بقي اسمه مرتبًا بالمدرسة المنسوبة إليه ببغداد، المستنصرية «التي لم يعمر في الدنيا مثلها» على قول ابن العربي^(٣) والتي «رتب فيها أربعة مدرسين لكل مذهب من المذاهب الأربعة مدرسًا، وأضاف إليهم ثلاثة فقيه» كان يجري عليهم الأرزاق، وشيد فيها حماماً خاصاً لا يدخله غيرهم وأقام لهم طبيباً خاصاً يعالج مرضاهم، الخ. والحق أن تلك كانت المرة الأولى التي أذن فيها للمذاهب السنية الأربعة بالتدريس في وقت واحد.^(٤)

ولكن ثمة إشارة صغيرة حزينة نجدها في تاريخ ابن العربي، إذ يتحدث في العام ١٢٢٥/٦٢٥، عن طبيب رهاوي يدعى حسنون انتهى مهملاً في حلب لأنه نصرافي، مع أنه كان بارعاً.^(٥) وهكذا جاء الزمن الذي حلم به الجاحظ في خلافة المتوكّل، الزمن الذي حلّ فيه الأطباء المسلمين محلّ الأطباء النصارى، وصاروا مقبولين لدى الجميع.

ابن فضلان مرّة ثانية

انتقل هذا الفقيه الشديد الحماسة إلى المدرسة المستنصرية، منذ تأسيسها، من بعدهما درس في النظامية ثم بمدرسة أم الناصر. وقد عهد إليه في العام ١٢٢٩ - ٦٢٦ بديوان المالي والرسوم والأوقاف، الخ.، ثم صار محتسب دار الإسلام كلها.^(٦)

عندئِـن تَكُنْ منْ أَنْ يَفْرُضْ عَلَى أَهْلَ الذَّمَةِ مِبَادِئِ الصَّارِمَةِ وَيَذَلِّ حَتَّى
أَصْحَابِ الْمَرَاتِبِ الْعَالِيَّةِ مِنْهُمْ. وَاسْتَنادًا إِلَى تَقْسِيرِ حَرْفِ الْلَّاِيْهَةِ ٢٩ مِنْ سُورَةِ التَّوْبَةِ
أَصْرَّ فِي الْعَامِ ٦٢٧/١٢٣٠ عَلَى أَنْ يَأْتِي كُلُّ ذَمَّيِّ بِنْفَسِهِ نَهَارًا وَيُؤَدِّيِّ الْجَزِيَّةَ «عَنْ
يَدِ»^(٧) وَاقْفًا طَوْلَ مَدَّةِ الْعَمْلِيَّةِ.

فَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ أَجْبَرَ أَبَا عَلَيَّ بْنَ الْمَسِحِيِّ سَاعُورَ الْبَيْارِسْتَانَ عَلَى الْخُضُورِ لِأَدَاءِ
الْجَزِيَّةِ (مَعَ أَنَّهُ كَانَ يَخْتَلِفُ إِلَى قَصْرِ الْخَلِيفَةِ) وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ تَمَنَّعَ وَتَمَارِضَ وَأَرَادَ أَنْ
يَدْفَعَ بِوَسَاطَةِ ابْنِهِ . . . وَمُثْلِهِ أَحَدُ رُؤْسَاءِ الْيَهُودِ، الَّذِي أَرَادَ الْمَجِيءَ بَعْدَ الْمَغْرِبِ . . .
كَانَ عَلَى الْجَمِيعِ أَنْ يَخْضُعُوا، بِلَا إِسْتِثنَاءٍ، لِهَذِهِ الْإِجْرَاءَتِ الْمَذَلَّةِ.^(٨) كَانَ فِي وَسْعِ
ابْنِ فَضْلَانَ أَنْ يَتَهَجَّ بَعْدَمَا تَمَكَّنَ مِنْ أَنْ يَبْثِتَ لِكُلِّ ذَمَّيِّ وَجْهَ خَضُوعِهِ لِلْإِسْلَامِ
وَكَوْنِهِ، بِعِبَارَةِ أُخْرَى، عَضُّوًا فِي طَبَقَةِ اِجْتِمَاعِيَّةِ أَدْنَى. وَلَا تَذَكَّرُ الْمَصَادِرُ هُلْ فَضْلَانُ
بعْضُ الْنَّصَارَى دَخُولُ الْإِسْلَامِ عَلَى الْخَضُوعِ لِهَذِهِ الْمَذَلَّةِ، وَلَا هُلْ كَرَّابُ ابنِ فَضْلَانَ
هَذِهِ الْإِجْرَاءَتِ عَلَى تَوْالِيِ السَّنَينِ. عَلَى أَيَّهُ حَالٌ، تَوَفَّ الرَّجُلُ بَعْدَ ذَلِكَ بِأَرْبَعِ
سَنَوَاتٍ فِي الْعَامِ ٦٣١/١٢٣٣.

وَثَمَّةُ مَثَلٌ آخَرُ عَلَى التَّعَصُّبِ نَجْدَهُ، فِي الْعَامِ ٦٣٠/١٢٣٢، بِدِمْشِقِ مَتَمَّلًّا
فِي شَخْصِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَلَيَّ الْمَهْذَبِ الطَّبِيبِ الْمَلَقَبِ بِذِخْوارِ.^(٩) وَكَانَ هَذَا الطَّبِيبُ
قَدْ أَسَاءَ إِيَّاهُ خَدِيمَتِهِ الْأَيُوبِيَّينَ إِلَى الْعَدِيدِ مِنْ زَمَلَائِهِ الْأَطْبَاءِ. «وَكَانَ مَكَارًا شَتَّانًا
شَرَّهَا نَهَّا» عَلَى قَوْلِ ابْنِ الْعَبْرِيِّ. وَلَمَّا مَاتَ فِي هَذِهِ السَّنَةِ عِنْهَا، وَقَفَ مَنْزِلَهُ مَدْرَسَةً
لِلْلَّطَبِ عَلَى أَنْ لَا يَطَهِّرَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا. وَقَدْ كَانَ هَذَا الشَّرْطُ لَا يَزَالُ نَافِذًا
الْمَفْعُولُ حَتَّى أَيَّامِ ابْنِ الْعَبْرِيِّ.^(١٠)

بِيدِ أَنَّ هَذِهِ الصِّغَائِرِ تَهُونُ إِذَا مَا عَلِمْنَا بِالْأَحْدَاثِ الْعَظَامِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ بِهَا حِيلَى
الْأَيَّامِ الْآتِيَّةِ. إِنَّ تَارِيخَ ابْنِ الْأَثِيرِ الَّذِي يَصِلُّ حَتَّىِ الْعَامِ ٦٢٨/١٢٣٠ - ٦٣١
يُشَيرُ إِلَى الْخَطَرِ الدَّاهِمِ. فَفِي هَذَا التَّارِيخِ شَنَّ الْتَّرَغَرَةُ فِي الْعُمَقِ وَصَلَوَهَا إِلَى
الْكَرْخِيَّيِّ (كَرْكُوك)، عَلَى بَعْدِ يَقْلَلٍ عَنْ مَثْنَيِّ كَلْمِ مِنْ بَغْدَادِ.^(١١)

وَمَعَ ذَلِكَ، اسْتَمْرَرَتِ الْحَيَاةُ عَلَى مُنْوَاهَا، فَقَدْ نَقْلَ طَبِيبَ يَعْقُوبِيَّ مِنْ الْمَوْضِلِ،
يَدْعُى أَبُو يُوسُفَ بَهْنَامَ بْنَ مُوسَى بْنَ يُوسُفَ، فِي ٢٧ صَفَرِ ٦٢٦/٢٢ كَانُونِ الثَّانِي

١٢٢٩، كتاباً في الطب إلى العربية وزينه بصورة للمؤلف ديوسكوريد.^(١٢) ولا زال بعض النصارى يحصلون على بعض المناصب المهمة: ففي العام ١٢٣٢/٦٣١ وبوساطة ابن حاچب القيصر،^(١٣) صار هبة الله بن زطينا النصراوي (الذي لم يتعين والده جبريل في الإسلام) خلفاً لابن الحاچب المذكور في رئاسة الديوان ثم عين كتاباً للمسكّة.^(١٤)

وفي العام ١٢٣٤/٦٣٤ أيضاً، عين مجاهد الدين أيك أحد العلوّين خواجاً له، وأحد النصارى، ويدعى تاج الدولة ماري بن صاعد، وكيلاً.^(١٥) وعلى الضدّ من هذا نجد غلاماً يقتل سيده النصراوي سنة ١٢٣٤/٦٣٢، ويطلق، لأنّه مسلم شافعي.^(١٦)

ليس من الممكن إذن أن نرسم خطوط سياسة ثابتة. فقد كان استعمال الجزرة أو العصا مع النصارى يتناوب حسب الأشخاص والظروف. أمّا الشيء الوحيد الثابت فكان تقلّب الغد على النصارى.

في العام ١٢٤٢/٦٤٠ مات الخليفة المستنصر^(١٧) عن خلافة دامت سبعة عشر عاماً. كان تقىاً عادلاً، أحبه الجميع ولم يؤثر عنه قرار سياسي مهمٌ ولا علاقات خاصة بالنصارى.

الحواشي

(١) E.I.¹, III, p. 820 par K.V. ZETTERSTEEN

(٢) الكامل، ج ١٢، ص ٤٥٨. الذهبي، تاريخ دول الإسلام، ج ٢، ص ١١٠. البداية ج ١٣، ص ١٥٩.

(٣) تاريخ الزمان، ص ٢٧١.

(٤) LAOUST, Ibn Qudama, p. XLV. البداية، ج ١٣، ص ١٣٩ - ١٤٠. - يصحّح F. KRENKOW وصاحبة كتاب The Librariés (O. PINTO) عندما تقول في الحاشية الأولى من الصفحة ٢٢٣ إنّ مكتبة هذه المدرسة قد خربها هولاكو. والحقّ أنها كانت لا تزال قائمة بعد ذلك بأكثر من قرن.

(٥) تاريخ الزمان، ص ٢٧٣.

(٦) ويدرك أنه قد أرسل في سفارة إلى الروم، الصندي، ج ٥، ص ٢٠١ و ٢٠٣ ، رقم ٢٢٦٠.

(٧) لهذا عدّت الجزية إجراء انتقامياً، ويمكن أن تكون فكرة عن تفسير الكلمة «صاغرون» من منهاج الطالبين لحي الدين التوسي الشامي الدار الشافعي المذهب (١٢٣٣ - ١٢٧٨): «وتؤخذ [الجزية] بإهانة فيجلس الأخذ ويقوم الذيّ ويطأطىء رأسه ويضعها في الميزان ويقبض الأخذ لحيته ويضرب لهرمته، وكله مستحبّ وقيل واجب. فعل الأولى، له توكل مسلم بالأداء وحالة عليه وأن يضمنها. قلتُ هذه الهيئة باطلة ودعوى استجابتها أشدّ خطأ والله أعلم»

(طبعة د.ت. ص ١٣٩).

(٨) شذرات تاريخية، ص ٥٩٦.

(٩) ابن أبي أصيحة، ص ٧٣٦ - ٧٢٨. وفي دمشق بستان معروف «بستان ذخوار» أنظر ELI-SEEFF, La description de Damas d'Ibn Asakir, Inst. Fr. Damas, 1959, p. 153 et 156

notes.

(١٠) تاريخ الزمان، ص ٢٧٩ - ٢٨٠ .

(١١) الكامل، ج ١٢ ، ص ٤٩٧ - ٤٩٣ .

Bishr FARES, Philosophie et jurisprudence illustrés par les Arabes, dans Mélanges L. Massignon, t.II (PIFD, 1957, pp 95-96).

(١٢) يذكر هنا نصريانيان آخران: ابن كاتب القيصر (إبراهيم بن أبي الثناء علم الملك) وأخوه الشاعر تاج الملك إسحق، الصندي، ج ٥، ص ٣٤٠ ، رقم ٢٤٠٩.

(١٤) شيخو، المشرق، ص ٥٩٦ - ٦٠٧ .

(١٥) شذرات تاريخية، ص ٦٠٠ .

(١٦) المصدر نفسه، ص ٥٩٩ - ٦٠٠ .

(١٧) ابن العربي، تاريخ الزمان، ص ٢٨٨ - ٢٨٩ . - وبروي المفضل بن الفضائل (ت. قبل ١٣٨١/٧٨٣ - ١٣٨٢) في النهج السديد، أنَّ الخليفة لم يمت بل كان محبوساً ببغداد. وقد

عاش مع التتر في غرب العراق، من بعدهما أطلقوا عليه سنة ١٢٥٨، ثم ذهب إلى مصر واستقبله بالقاهرة السلطان الملك الظاهر يوم الخميس الثاني من رمضان سنة ١١/٦٥٨ آب ١٢٦٠ .

ويذكر من بين الذين حضروا استقباله النصارى حاملين الإنجيل. وقد اخفي في

أنباء معركة لاسترجاع بغداد من قراغغا سنة ١٢٦١ أو ١٢٦٢ (٩) .

P.O. XII, 423-432 .

٣٧ - المستعصم (١٢٥٨ - ٦٤٢ / ٦٥٦)

امتدّت جثلقة سبريشوع بن المسيحي أربعة عشر عاماً في ظلّ خلافة أبي أحمد عبد الله المستعصم بالله بن المستنصر. إنّ هذا الرجل الذي كان آخر خلفاء بني العباس، لم يكن أبداً في مستوى الظروف الحرجة التي اضطرّ إلى مواجهتها. فقد كان «رجالاً خيراً متديناً لين الجانب سهل العريكة عفيف اللسان، حمل كتاب الله تعالى وكتب خططاً مليحة... إلا أنه كان مستضعف الرأي ضعيف البطش قليل الخبرة بأمور المملكة. وكان زمانه ينضي أكثره بسماع الأغاني... وفي بعض الأوقات يجلس بخزانة الكتب^(١) جلوساً ليس فيه كبير فائدة»^(٢) وكان عقله «عقل الصبيان لا يميز الخير من الشرّ، أنفق زمانه بلعب الحمام والإلتهام بالطيوور»،^(٣) ولم تكن لديه «الفطنة ولا القوة الكافية لدرء الخطر المغولي»^(٤) الذي كان على وشك الإطاحة به وبخلافته.

إنّ حال النصارى في أواخر أيام الخلافة هذه^(٥) تأتي، أكثر من أيّ وقت مضى، متأخرة في الأهمية عن الأحداث الجسام.^(٦)

لا نكاد نشعر، لدى وفاة الجاثليق سبريشوع (٤٠ أيار ١٢٥٦)، أيّ قبل ستين من سقوط بغداد، ولدى إقامة عملاء هولاكو اتصالات بالوزير مؤيد الدين بن العلقمي،^(٧) لا نكاد نشعر بأصاغر العمال الذين ما زالوا يمارسون تدابيرهم التهوية لاعتصار ما يقدرون عليه من الناس المغلوبين على أمرهم، والذين نجد في صورفهم أهل الذمة، في أغلب الأحيان.

فمن ذلك أنَّ ابن الصليحية «ناظر ديوان التركات ختم على جميع ما في

القلالية» عقب وفاة الجاثيقي. «في اليوم الثالث جاء والي بيت مال المسلمين وعمل باليد القوية غير الواجب وفتح الختم وأخذ جميع ما وجد في القلالية والكتب والبيرونات^(٨) وأحضرها قدام الخليفة^(؟) وردد الكتب ووهب البيرونات لابن وحيد^(؟) واشترى منه من مال الوقف وأعيدت «من أجل خلف الجاثيقي»، على قول صليبا.

أما عن اختيار هذا الخلف فإنَّ السيناريyo الذي جرت به عادة القوم، مع الأسف، قد صار «طبعياً» إلى حدَّ أنه يبدو غير معقول إذا ما نظر إليه في سياقه التاريخي: ففي هذه السنة نفسها (١٢٥٦) خلقت إيلخانة «بلاد المغرب» التي ولأها مونكا، الخان المغولي الكبير، إلى هولاكو أوغل وأمره بأخذ بغداد وإبطال الخلافة. وفي حال قد تبدو لنا اليوم أشبه بحال اللاوعي، انطلق الأساقفة المسيمون في مكائد़هم التقليدية «وطلب كل واحد الرياسة لنفسه». ^(٩) واستمرّت المحاكمات أكثر من عشرة أشهر، وتراجحت الآراء بين أربعة مرشحين.

مرة أخرى، نجد ابن العربي اليعقوبي يقدم لنا التفاصيل: وضعت السلطات المدنية الجثالة في المزاد عملياً. ووصلت المزايدة إلى أربعين ألف دينار ذهباً، وقد كاد دنحا، مطران إربيل الذي دفع عربوناً قدره ٤٠٠٠ دينار، أن يجمع بقية المبلغ لولا أن حاول بعضهم أن يسدّ عليه الطريق إذ اتهمه لدى السلطات الإسلامية بمكابة... ملك التتر، فمن علائم هذا الزمن نسيان الروم، لقد تغيّر اسم العدو! أمّا النصارى الذين فرق دنحا فيهم الرشا فقد أندروا «بأنَّ كلَّ ما يصلكم منه اليوم سيطلب منكم أضعافه غالباً». ^(١٠)

أصغى خواص الخليفة إلى ما اتهم به دنحا، واستدعي الخليفة^(؟) المرشحين، ففضل «كهل نصيين»، المطران مكيحا، على «فتى إربيل»، دنحا، الذي كان عليه أن يتظاهر دوره.

مكيحا

سلَّمَ مكيحا، إِذَا، العهد والطريحة وعاد إلى كنيسته بسوق الثلاثاء XXXVI

على بغلة مزينة، يواكبه اثنان من أكابر الأمراء يرفعان فوق رأسه عهد الخليفة. بعد ذلك جاءت مراسم السيامة والزيارات التقليدية على ما جرت به العادة. وكان ذلك في ربيع العام ١٢٥٦.

لا نسمع بعد ذلك ذكرًا للجاثيلق حتى إحكام الطوق المغولي على بغداد. إذ لما رأى الخليفة أن لاأمل يرجى، أله وفداً ضمَّ الوزير العلجمي ونجم الدين عبد الغني بن دريوس^(١١) والجاثيلق مار مكيخا. وأمرهم «أن يأخذوا ذهباً كثيراً ونفائس ملكية وخيلاً عربية» وأن يطلقوا من السجن السفراء الذين بعثهم التتر من قبل وأن يخلعوا عليهم الخلع السنّية ويلبسوهم الشياط الفاقهة وأن يصحبوهم إلى لدن ملك الملوك. كان على الوفد أن يطلب الأمان للخليفة وأولاده وأهله وأن يعتذر بأن ما بدر من تأخير في تسليم المدينة وقبح معاملة المؤذين المغول، إنما يعزى إلى سوء مشورة بعض الخونة من أصحاب الخليفة. فإن رأى ملك الملوك أن ينْ عليهم بالحياة صاروا جميعهم عبيده ورعايه ودفعوا الجزية.^(١٢)

استقبل هولاكو الوفد، إلا أنه استيقاهم في عسكره ومضى في الحصار. معلوم ما عقب ذلك من المأسى: سقوط بغداد والمذايق التي تعرض لها أهلها على أيدي الكُرُج النصاري، حلفاء المغول، وقتل الخليفة^(١٣)... أمّا نصارى بغداد فإنَّ الجاثيلق جمعهم في الكنائس من بعدهما رجع بالأمان لهم من عسكر المغول. وقد بقي هو في كنيسة سوق الثلاثاء، ولم يصب أحد من طائفته بمكره، وذلك بأمر صريح من دوقور خاتون زوجة الأيلخان الأول النسطورية.^(١٤)

أمّا وقد وصلنا إلى النهاية فما علينا أن ننظر إلى الإمام، فقد كفانا مؤونة ذلك كتابي «النصارى السريان في عصر المغول Chrétiens Syriaques sous les Mongols». إنَّ ما يهمنا هنا هو كيف نظر نصارى بغداد أنفسهم إلى الوراء، إلى جمل تلك الفترة التي كانوا فيها رعايا العرب.

لا مراء في أنَّ النصارى قد اعتبروا دخول المغول خلاصاً لهم، وابتھجوا لانتصار هؤلاء وعدُّوا ذلك علامة على سقوط «بابل الجديدة».

وكان من أشمت الناس ببغداد الخلفاء، رجل أرمني يدعى كيراكوس

الحزوي الذي كتب في هلاكها يقول:^(١٥) «كانت بغداد مدة حيازتها عصا الملك أشبه شيء بعلقة تصّ الدماء: ابتلعت العالم كلّه ثم قاءت عندئذٍ كلّ ما بلعت... ولما طفح كيل مظلّمها قدّام الرب^(١٦) عوقبت على ما أراقت من دماء وما عملت من شرور... وقد دامت سيادة الطاجيك العدائية القاسية ٦٤٧ سنة».^(١٧)

ولا سبيل إلى أن ننكر أيضًا مشاطرة النصارى، في معظمهم، رأى إسطfan أوربليان^(١٨) الذي عدّ هولاكو ودوغوز خاتون بمثابة «قسطنطين وهيلانة جديدين» وأداتين من أدوات الانتقام الإلهي من أعداء المسيح». ومن هذا القبيل أيضًا أنه لما أراد أحد المصوّرين من السريان اليعاقبة، في أيار ١٢٦٠، أن يعبر بالصورة عن انتصار الصليب (في المخطوطة السريانية رقم ٥٥٩ من مكتبة الفاتيكان)، استعاد تصور البيزنطيين لقسطنطين وهيلانة المسكون بالصلب، ولكنه أضفى على هذين ملامح هولاكو ودوغوز خاتون.^(١٩) ونجد خلاصة ذلك كله في شهادة أخيرة اقتبسها ماركو بولو من النصارى المحليين إذ كتب يقول: «وأظنّ أن ربّنا أراد الثأر لنصاراه الذين كان الخلفاء يكرهونهم أشدّ الكره» (كذا).^(٢٠)

الحواشي

- (١) ابن شاكر الكتبى، فوات الوفيات، ج ٢، ص ٤١١ - ٤١٢.
- (٢) ابن الطقطقى، ص ٢٦٦.
- (٣) البداية، ج ١٣، ص ١٥٩. تاريخ الزمان، ص ٢٨٩.
- (٤) E.I.^١, III, p. 825; par K.V. ZETTERSTEEN . - يروى ابن شاكر الكتبى أنه بينما كان هولاكو يطلب من حليفه بدر الدين لؤلؤ منجنيقات وآلات للحصار، كان المستعصم يكتب إلى الأمير نفسه ليبعث إليه... جماعة من المغنين. ويقال إنّ بدر الدين صالح برمًا: «انظروا إلى المطلوبين وابكونوا على الإسلام وأهله». فوات الوفيات، ج ١، ص ٢٤٦.
- (٥) إن الرسوم المالية التي كان لؤلؤ صاحب الموصى بفرضها على المفريان إغناطيوس صليبي الثالث سنة ١٢٥٣ لم تعد تمتّ بصلة إلى الخلافة العباسية، لأنّ صاحب الموصى هذا كان قد أصبح في هذا التاريخ حليقًا للمغول Assyrie Chrétienne, II, p. 422 وأيضا- Chrétiens Sy- riaques sous les Mongols, p. 12
- (٦) لم يكن الخبر التالي الذي جرى بمصر في ظلّ الملك الصالح الأيوبي (٦٣٨ - ١٢٤٠/٦٤٦ -

- (١٤٨) ليستوقفنا (لخروجه عن نطاق بحثنا) لو لم يتع لابن القِيَم، ص ٢٤١ - ٢٤٣ ، فرصة قول بعض الكلمات غير الودودة المعتبرة عن عقليّة المتعصّبين: مدار الكلام على كاتب نصراني يدعى أبو الفضل بن دخان الملقب بخاوص الدولة (؟) أو مخاضر الدولة (؟): «ولم يكن في المباشرين أمكن منه. وكان قذاء في عين الإسلام وبثة في وجه الدين. ومثالبه في الصحف مسطورة ومخازيه مخلدة مذكورة حتى بلغ من أمره أنه وقع لرجل نصراني أسلم برده إلى دين النصرانية» ثم آل أمره إلى الذبح. - ويروي غازي الواسطي الأحداث نفسها بزيادة من التفاصيل (ص ٤٠٠ - ٤٠٣) ولكنها يجعلها في ظل العايد (١١٦٠ - ١١٧١).
- (٧) المقريزي، السلوك، ج ٢، ص ٤٠٠.
- (٨) البيرون من علائيم الأحبار ويوازي في شكله البرنس المعروف في ذلك الزمن.
- (٩) صليبيا، ص ١١٩ - ١٢١. ابن العربي، ج ٢، العمود ٤٠٢ - ٤٢٤.
- (١٠) يُعرف ابن العربي نفسه، بأمانة، أنَّ دنحاً رَدَّ المال الذي افترضه لأنَّه لم يجد الوقت ليدفعه إلى أصحاب المناصب المسلمين من بعدهما وصل المخول.
- (١١) عن عبد الغني بن دريوس الراج الذي صار جليس الخليفة وصاحب مشورته، أنظر ابن الطقطقي، الفخرري، ص ٣١ - ٣٢.
- (١٢) تاريخ الزمان، ص ٣٠٧ - ٣٠٩.
- (١٣) انظر: P.O. XII, p. 334
- (١٤) تاريخ الزمان، ص ٢٩٨.
- (١٥) Journal Asiatique, 1858, p. 492
- (١٦) نجد نسمة مشابهة لدى مؤرخ مسلم، هو المقريзи في كتاب السلوك، ج ١، ص ٤٠٩: «فضحَ حديث حبيب ابن أبي ثابت، عن عبد الله بن عبد الله بن عتبة، أنَّ رسول الله قام فقال: «يا عشر قريش إنَّ هذا الأمر لا يزال فيكم، وأنتم ولاه حتى تحدثوا أعمالاً تخرجكم منه. فإذا فعلتم ذلك سلط الله عليكم شرَّ خلقه، فالتحوكم كما يلتزمون القضيب».
- (١٧) لا نرى كيف توصلَ هذا الكاتب إلى حسبان هذا العدد.
- (١٨) في: RUNCIMAN, III, p. 304, note 2 L'Histoire de Siounie
- (١٩) Le Muséon, 83 (1975), p. 59-64
- . La description du monde, tr. L. HAMBIS, Paris, 1955, p. 28 (٢٠)

خاتمة

إن شهادة النصارى السريان بزوال دولة بني العباس لا تترك شكًا في حقيقة مشاعرهم: كان ذلك بالنسبة إليهم يعني الخلاص من نظام حكم تميizi وظلم. أو هذا ما كانوا يعتقدونه على الأقل.

وأظن أن الصفحات السابقة قد أثبتت أن النصارى لم يتعرضوا للاضطهاد الحقيقي، إلا نادرًا جدًا في خلافة بني العباس. لقد عانوا، مثلهم في ذلك كمثل مواطنיהם المسلمين، من آثار الأحداث الداخلية كالاضطرابات السياسية وخاصة. أمّا من حيث هم نصارى فربما أصابتهم أحيانًا عقابيل العداوات والنزاعات الخارجية مع أمراء يُقال عنهم نصارى أي بزنطين أو صليبيين. وكان عليهم أن يدفعوا ثمن قلة تبصرهم كلما انساقوا إلى ما كان المسلمين يدعونه استفزازات: الجنائز الصالحة، قرع التواقيس، التي بالثراء، الخ. أمّا العوامل المؤدية إلى ضمور جماعة النصارى، وهي مما يصعب قياسه، فمن أهمّها مناخ متزايد التّقلّل من الضغط الاجتماعي والتّمييز الشرعي، أو حتى الإذلال: الضرائب الخاصة، وقوانين التمييز بالملابس التي كانت تفرض بين الفينة والفينية والتي كانت ترسّخ فيهم الشعور الجارح بعدم الانتفاء، أو حتى بالابتذال.^(١)

ولئن كان من قد بقي من نصارى المشرق يرفضون، إلى أن سقطت بغداد، العالم الذي ما زالوا يعيشون فيه منذ ستة قرون وتحفيف، فلا بدّ من الاعتراف بأنّ رفضهم إنما يعزى إلى كون هذا العالم نفسه قد تشدّد في أحدهم بقوانين لم تتح لهم فرصة سياسية متكافئة، ولم تعاملهم معاملة مواطنين متمتعين بحقوق المواطنة التامة، بل معاملة الهاشميين.^(٢)

لا بدّ لنا هنا من أن نستعيد الكثير مما قيل في المؤتمر الخامس الذي عقده مركز البحوث الاجتماعية البروتستانتي في استراسبورغ في تشرين الأول ١٩٧٦،^(٣) حول موضوع الهامشية والتهميش (أي النبذ إلى هامش الجماعة).

فمما يوسع له أنه حيالاً كان «ما هو ديني» وثيق التمازج «ما هو اجتماعي»، كان السبيل الوحيد إلى الاندماج هو الدخول في الديانة السائدة التي لا تثبت أن تصبح ديانة الأكثريّة.^(٤) فإذا رفض المتميّز إلى الأقلية الدخول، وقف المتميّز إلى الأكثريّة منه أحد موقفين: التسامح أو العداون.^(٥)

إن مسألة «هل الإسلام متسامح أم غير متسامح» لم تزل تناوش بالعقل تارة وبالهوى طوراً. ومثلها السؤال: «هل هو كذلك من حيث الماهية أم من حيث صيرورته على تعاقب القرون؟».

ومع أنَّ هذه المسألة قد استدعت أجوبة رائعة،^(٦) فإنني لأظنَّ أنَّ مجرد طرح القضية على هذه الصورة قد أدى، على مدى التاريخ الذي استعرضناه في هذا الكتاب، إلى تشويه العلاقات بين أناس من ديانات متباعدة. إذ ربما كان للتسامح وجه سلبيٍّ، كأن يشعر المتسامح مثلاً أنَّ الحق بيده دون الآخر، وأنَّه هو الأقوى وأنَّ بقدوره أن يرفق، وبالتالي، بنَّ هو أضعف منه. فالمفهوم اليوم من التسامح هو تنازل المتسامح عن بعض حقه وشعوره بذلك بأنَّه متفوق مع أنَّ دلالة «تسامح» (المؤلفة من مادة سمح وزن تفاعل) تفيد وقوع فعل التساهل والتلاين من طرفين لا من طرف واحد.

ولقد صنَّف مؤلف عربيٍّ معاصر^(٧) في «التسامح» كتاباً مقتطفات بعنوان: *La tolérance* ومن اللافت للنظر فيه أنَّ الكاتب لم يجد ما يمثل حضارة الإسلام، بعد نصوص القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وأحاديث الخلفاء الراشدين، إلا بعض نصوص المتصوفة، قبل الوصول إلى محاولة محمد عبد الإصلاحية. وهذا يدلُّ على التصلُّب الذي أدخله بعض الفقهاء والذي أدى إلى اضمحلال النصرانية بصورة شبه كليّة في دار الإسلام. كما أنه يفسِّر لنا قول هذا المؤلف ببرارة: «ماذا يمكن أن يكون مدلول لفظ «التسامح» كما تشكّل حتى الآن؟ إنَّه تصور ضيق الحدود

جدًا ضمن واقع لا يفتأٰ يتَوَسّع ويتجدد. إن استعمالات اللفظ نفسها تنم عن توازن مزيَّف، فيها اهتمام بصون الوضع الراهن (*Statu quo*) أكثر مما فيها دعوة إلى تضامن الإنسان مع الإنسان». ^(٨)

بدلاً من طرح مسألة «التسامح» ربما كان من الأولى أن ينظر إلى ما تتطوّي عليه البيانات من إمكانيات مُغفلة غالباً (مع الأسف) للانفتاح على الآخر.

إن في القرآن الكريم، طالما أنَّ الحديث عن الإسلام هنا، نصوصاً رائعة في هذا المعنى: «﴿ولو شاء الله بجعلكم أمة واحدة ولكن ليسلوكم في ما آتاكُم فاستبقوا الْخَيْرَاتِ إِلَى الله مرجعكم جمِيعاً فِينَبَثُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾». الآية ٤٨ من سورة المائدة.

﴿وَلَا تَجَادُلُوا أَهْلَ الْكِتَابَ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ، وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أَنْزَلْنَا وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾. الآية ٤٦ من سورة العنكبوت. **﴿وَلْتَجَدُنَّ أَقْرَبَهُمْ مُوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى، ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قَسِيسِينَ وَرَبِّيَّاً وَأَنَّهُمْ لَا يُسْتَكِبِرُونَ﴾.** الآية ٨٢ من سورة المائدة.

ومن سوء الطالع أنَّ الظروف التاريخية في الفترة التي درسناها قد شاءت، بعون الفقهاء المسيطرین أن يغلب الحرف على الروح (ولا يجدي استثناء المتصوفة من ذلك شيئاً لأنَّهم كانوا هم أنفسهم هامشين)، وأن يتعلق أهل الفروع بتفسيرات ضئيلة لآيات أخرى (تلك التي أوردها في المقدمة) وبمبادئه (اعتبرها هؤلاء) من الشرع.

إذ من اليَّن الجلي أنَّ مفهوم «أهل الذمة» الشرعي (غير القرآن) الذي أحلَّ محلَّ مفهوم «أهل الكتاب»، إنما هو مفهوم موروث من الساسانيَّين ومن المجتمع القديم كله. إنَّ المرء ليتمنَّ لو أنَّ هذا المفهوم لم يمثل إلَّا وضيًّا عابرًا لأنَّه وليد ظرف تاريخيٍّ محدد. ^(٩) إلَّا أنه استمرَّ على مدى قرون طويلة لأنَّه لم يكن في مقدور أحد آنئِيَّ أن يتصور العلاقات بين الجماعات البشرية إلَّا من حيث هي علاقات بين سيدٍ ومسود. وحربيٌّ بنا أن لا ندين تلك الذهنية لأنَّ الناس كلَّهم كانوا يفكرون

بهذه الطريقة في تلك الفترة. ومن السهل على المسلم في هذا الإطار أن يردد على النصراوي الغربي بحجج تستهدفه من حيث هو نصراوي غربي، منها المأخذ على محاكم التفتيش^(١٠) وما إلى ذلك. ربما كان التسامح في القرون الخواري موقعاً كريماً. ومع ذلك، فإن التاريخ إذ يربينا الشطط الذي أدى إليه ذلك التصلب يقدر أيضاً أن يرشدنا إلى الخطر الناجم عن اعتبار كل جماعة نفسها مركزاً وبنادها «الآخرين» إلى الهواش.

ونحن إن لم نتخلص من هذه النظرة (التقلدية التي لا يكاد ينجو منها أحد) ونضع أنفسنا بلا تردد في عالم اليوم التعدي، فإننا سنبطي قدماً فيها نفعله معظم الأحيان، سنبطي كلّ مثناً في نجواه الذاتية.^(١١)

كنا سنغلق هذا الكتاب على حزن عظيم، حزن لإخفاق تلك الأجيال كلّها في العيش سعداء سوية وإن اختلف بعضهم عن بعض، لو لم نكن نرجو أن يعلّمنا إخفاقهم البحث عن سبيل آخر، ولا أقول «تعلّمنا أخطاؤهم» إذ من يحقُّ له أن يحكم؟^(١٢)

الحواشي

(١) لا أرى في الطائفية بلبنان «سماً في جسد البلد» كما قيل، بل «جسمًا مضادًا» أفرز سابقاً من أجل المناعة. ولكنه أضحي اليوم قد تخطاه الزمن لأنّه من خلقات حال كانت واقعاً فيها مضى.

(٢) يقول P. RONDOT المرجع المذكور، ص ١٢٩، الشيء نفسه بطريقة مختلفة: «إنَّ علاقات الإسلام بالشعوب التي عُلّبت ولم تسلم، تقوم على مبدأ عام ذي وجهين: التسامح الديني، والتمييز الاجتماعي». - وهذه هي النتيجة نفسها التي يصل إليها E. STRAUSS, The Social Isolation of Ahl al-Dhimma, in P. Hirschler Memorial Book, Budapest, 1949, p. 73-94 ELIYAHU ASHTOR, The Medieval Near East, Variorum Re-prints, 1978, VII.

(٣) أنظر CERDIC في فهرس المصادر. وكذلك Jacques GELLARD, Marginalité de l'Eglise [Catholique] en France?, Etudes, janv. 1979, p. 81-100.

(٤) CERDIC ، ص ٢١٢ ، ٢١٣ (D. BENSIMON). إنَّ تناقص عدد الجماعة يضيف مؤسِّراً إضافياً على الاماشيَّة، ويسبِّب الاماشيَّة الإحصائيَّة. المرجع نفسه، ص ٦٩، (F.A.

. ISAMBERT

(٥) المرجع نفسه، ص ٦٨، (F.A. ISAMBERT)

(٦) كجواب كلود كاهن، L'Islam et les minorités confessionnelles

(٧) هو زغلول مُرسِي.

(٨) ص ٢٥٣.

(٩) لم يتوصَّل العالم المسيحي، جلة، إلاً مؤخراً إلى تفهُّم «أنَّه من غير الممكن الثبات على لحظة عابرة من التاريخ» على حد قول الأب Y. CONGAR في:

. Lefèvre, Le Cerf, 1976, p. 82

(١٠) إنَّ الموقف السجالي العقيم، المستشهد بمعاملة غير المسيحيين في أوروبا العصر الوسيط شائعاً جدًا، ومنه مقدمة محمد حميد الله لأحكام أهل الذمة، ص ٨٦ - ٨٩، لابن قيم الجوزية.

والحق أنَّ الماضي ليس أمراً يُدان أو يُدافع عنه، بل لا بدَّ من فهمه لإعداد المستقبل. ومع ذلك فإنَّ دراسة تاريخية مقارنة لهذه الظواهر في الشرق كما في الغرب ربياً أثمرت ثماراً طيبة إذا ما خلت من الأهواء: ولعلَّها تقوينا إلى اكتشاف عوامل مشتركة بين الذهنيات الدينية كلَّها. أنظر Paul VEYNE, Comment on écrit l'histoire, Seuil, 1971, p. 157-158 .

L'intransigeance chrétienne, jusqu'à mort d'homme, Claude GERSET, Dans

Lumière et Vie (Lyon), XXVIII (1979), no. 14 p. 17-33.

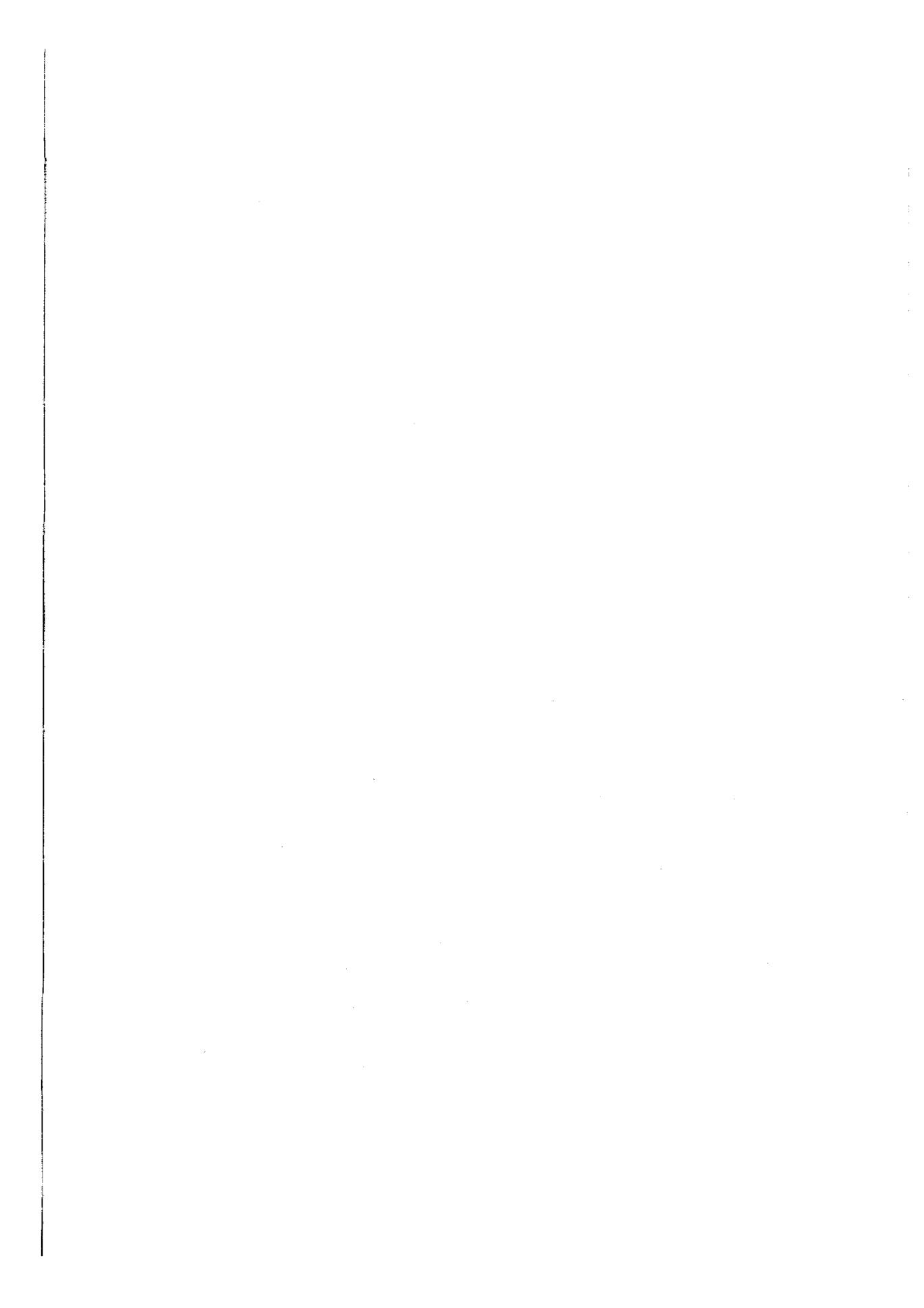
(١١) يجب أن لا يُستهان باللقاءات التي يصنفي فيها الفريقيان بعضهم إلى بعض باحترام وتقدير، وهذه بداية طيبة للحوار الحقيقي.

(١٢) علينا أن نذَّكر هنا أيضًا بـ Paul VEYNE الصفحات ٢١٩ - ٢٢٤ بخاصة حيث يعالج «الأحكام التقويمية في التاريخ» «Les jugements de valeur en histoire» فهو يشهد لي بأنَّ «ذكر الفرق بين قيم (بعض الناس) وقيمنا نحن ليس من الحكم عليها في شيء».

ملحق ألفيائي في التعريف بغيرب هذا الكتاب

الأسكول	: المدرسة الجثلقية، وكانت في سلوقية أولاً ثم بغداد.
الباعوث	: وجمعها بواعیث، صلاة تصرع «والباعوث للنصارى كالاستسقاء للمسلمين» (لسان العرب).
البراج	: صاحب أبراج الحمام.
البيرون	: رداء كايلرنس القديم الذي كان يغطي الأكتاف فحسب، وهو من علائم الأخبار.
البييم	: دُكَّة قليلة الارتفاع في وسط كنيسة النساطرة يقوم عليها الإكليروس لتلاؤه الصلوات باستثناء القدس.
تعديل	: ولاية قضاء السواد.
السواد	
التوقيع	: توقيع الرشيد مثلاً، أي قراره.
الجعفريات	: من أنواع السفن المستعملة بأنهر العراق في القرن الرابع للهجرة.
جوباس	: بُلْيِدَة كانت بالقرب من ملطية.
الحَبِ	: وجمعه الحَبَاب، إماء كالجرة.
حنزيط	: هي تلنزيت (Tilenzit) الحالية، بالقرب من «مرات سو» بتركيا اليوم.
الديراني	: صاحب الدير أو وكيل الدير.
زوزي	: دنانير أو دراهم.
الساعور	: رئيس أطباء البيمارستان.
السايوم	: الأسقف الذي يحقق له انتخاب الجاثليق.

السليع	: أحد الحواريين أو تابعهم.
السينكسار	: كتاب ترجمة القديسين وأعمالهم يقرأ في الكنائس يومياً.
الشاشة	: وجمعها شاشيات، عرقية أو طافية تلف على أنها العrama.
الشحنكية	: وظيفة الشحنكة.
الشهار	: لفظة سريانية بمعنى السهر، وهو من يتولى ترتيب صلاة الليل في الكنائس.
الصوم	: المنسوب إلى «مار» أي السيد، والمقصود صوم النصارى أربعين يوماً أسوة بالسيد المسيح.
الماراني	: السمك المملح.
الصبر	: وجمعه أحجار، الدير.
العمر	: البطركة أو الجاثلة.
الفطركة	: قانون الإيمان: يقابل الشهادتين في الإسلام.
المسيحي	
(Credo)	
القلالية	(أو: صومعة الراهب، أو مقر الجاثلية أو المطران.
(القلية)	
قورس	: مدينة بنواحي حلب (ياقوت).
الكود	: كرسي القراءة، وهو شبه حائط قليل الارتفاع يوضع عليه كتاب القراءات من العهد القديم أو من رسائل الحواريين.
المستخرج	: رجل كان يحضر استجوابات المصادررين، أي أولئك الذين كان يؤمل استخراج المال منهم وإن بالتعذيب.
المسيم	: الأب المسيم كالسايوم، أطلبه أعلاه.
المفريان	: المطران الأكبر الذي يرأس الأبرشيات السريانية الغربية الموجودة في أراضي الكنيسة السريانية الشرقية.
ناظر الكرسي	: مدبر كرسي الجاثلة في انتظار انتخاب جاثلية جديد.
النطارة	: وظيفة الناطر.



فهرس الموضوعات

ت

- تبشير: ٢٥١ ، ٥٨
- تهمّس (اتهام به، ارتياح): ٧٢ ، ٨٧
- تدخّل السلطات في الشؤون الكنسية: ٣٤٦ ، ٣١٤
- تراث كنسية علنية: ٥٧ ، ١٤٠ ، ١٢٦ ، ٤٢
- ترجمات: ٦٧ ، ٧٤ ، ٨٢ ، ١٠٢ ، ١١٧ ، ١٨١ - ١٨٣ ، ٢٥٦ - ٢٥٧
- تسامح: ٣٣١ ، ٣٨٣ - ٣٨٢
- تعاليم الإنجيل (عدم الالتزام بـ): ١٤٦
- تهميش: ٣٨٢ - ٣٨١
- التنبّيم وعلم الفلك: ٦٦ ، ٧٤ ، ١٦٦
- التغور (معاملة نصارى): ٤٦ ، ٥٧
- ث
- ٧٠ ، ٥٨

م

- اتهام بعض النصارى بعضهم: ٤٩ ، ٤٦
- إرتداد المسلمين: ١٣٩ ، ١١١
- ارتفاع المنازل: ٢٧٥ ، ٢٩٧
- إستباحة القبور: ٧٨ ، ١٤١ ، ٢٤٧
- «إستفزازات» النصارى: ١١٦ ، ٢٨٣
- أراذل على أبواب الكنائس: ٢٥٥
- إضراب: ٢٨٥
- «أعداء» الإسلام، القرآن: ٢٠٥ ، ١٧٩
- الانتحار إلى الإسلام، أسبابه: ٤٤ ، ٤٣
- الانتقال إلى الإسلام، أسبابه: ٤٤ ، ٤٨
- الانتقام: ٦٥ ، ٨٥ ، ١٠٦ ، ١٢١
- الانتقام من النساء: ١٢٤ ، ١٣٠ ، ١٤٠
- الانتقام من المسلمين: ١٦٩ ، ١٥٠ - ١٥١ ، ١٤٦
- الانتقام من النساء: ١٩١ ، ١٨٩ ، ١٨٨ ، ١٧١ ، ١٧٠
- الانتقام من المسلمين: ٢٨٣ ، ٢٦٥ ، ٢٢٨ ، ٢٠٠
- الانتقام من النساء: ٣٣٢ ، ٣١٧ ، ٣٠٥ - ٣٠٢ ، ٢٩٢
- الانتقام من المسلمين: ٣٥٠ ، ٣٤٦ ، ٣٤٤ ، ٣٣٩ ، ٣٣٤
- الانتقام من النساء: ٣٧٤ ، ٣٦٦ ، ٣٦٤ ، ٣٥٦

ج

- جزية، خراج، مكوس الخ. : ٤٣، ٣٢، ١٦٧، ١٠١، ٦٧
 ، ٥٤، ٧٢، ٨٤، ٨٨، ١١٥، ١٧٢، ٢٣٩، ٢٣١، ٢٢٥، ٢١٦، ٢١٥
 ، ٣٧٢، ٢٤٦، ٢٧٦، ٣٥٨، ٢٤٦، ٣٧٣، ٣٨١
 جائز: ١٢٦، ١٤٠، ١٤٨، ١٧٤، ٣٨١، ٣٥٢، ٢٦٣ - ٢٦٢، ١٧٥
 جنابة النصارى: ٦١، ٨٥

ح

- الحج (مناسبة للتصلب): ٤٧، ٨٩
 ، ١٣٨، ٣٤٨
 حرائق المساجد: ٢٦٤، ٣٦٣
 الحروب الصليبية (أثرها في النصارى): ٣١٣، ٣١٤، ٣٤٦، ٣٤١، ٣٥٥
 ٣٥٦
 حظر التسمي بأسماء المسلمين: ١٤٠
 حظر الخروج إلى السوق يوم الجمعة: ١٤٣

خ

- خشية الانتقام: ٣٥٥
 الخمر: ٥٢، ٨٤، ٩٠، ١٢٦، ١٣٢، ١٣٣، ١٤٠، ١٤١، ١٦١، ١٦٧، ٢٢١، ٢١٧، ٢٠٧، ٢٠٠، ١٧٥
 ، ٣٦٣، ٣٢٢، ٢٩٨، ٢٨٧، ٢٨٠
 خنازير: ٨٤، ٨٥، ١٠٩، ١٤٠
 خيل: ٢٦٣، ١٤٣، ١٤٠، ١٧٣، ١٧٣
- شتم القرآن أو الرسول: ١٣٩، ١٨٠
 الشروط العمرية: ٣٣، ١٣٩ - ١٤٠
 ، ٣٥٨، ٢٧٤، ٢٧٣، ١٧٢، ١٤٣
 الشعر (قصص): ٣٤٤
 شعراً: ٢٨٢
 الشهادة المفروضة على المتقلين إلى الإسلام: ٨٦ - ٨٧
 شهداء: ١٢٦، ١١٣، ٧٠، ٥٨، ٣٥٩
 (١٤٨)، (١٩٠)، ٣٤١، ٣٤١، ١٠٣، ٧٠
 الشيطان (صورة): ١٤٤

ص

- صلوات الأخبار (أنظر: كرامات): ٥٦
 ، ٩٣، ١٧٣، ٣١٢، ٣١٥، ٣٥٤
 الصليب: ٥٧، ٧٥، ٨٥، ٩٤، ١٠٩
 ، ١٢٧، ١٢٧، ١٤٠، ١٨١، ٢١١
 ، ٢٦٤، ٢٦٦، ٣٣٨، ٣٥٣، ٣٥٦
 ٣٧٩
 الصليب، شعار المسلمين التمرّدين:
 ٢٦٦، ٢٩٩

ق

- قرص رصاص في العنق: ١٥٤
 ، ٥٥، ٣٠١
 قرى مغصوبة: ٥٦، ٦٩، ١١٢، ١٧٥
 قطع الأيدي: ٦٥
 قلانس: ٥٧

ك

- الكتاب النصاري (إيصاد): ٦٥، ١٣٧
 ، ١٩٠، ٢٠٥، ٣٠٠، ٣١٤، ٣٢٣،
 ٣٤٠، ٣٥٠، ٣٥٠، ٣٤٠
 كرامات، رؤى، أحلام (أنظر صلوات
 الأخبار): ١١٢، ١٣٣، ١٧٥
 ، ١٨١، ٢١٥، ٢٢٤، ٢٢٧، ٢٤٧
 ، ٣١٢، ٣٠٤، ٢٥٨ - ٢٥٧
 ٣٤٨، ٣٢٢، ٣٤٥، ٣١٥
 كنائس، ديارات، أعياد (بناء، هدم،
 ترميم، نهب): ٥٦، ٥٧، ٨٥، ٩٤، ٩٢
 ، ١٠٥ - ١٠٥، ١١٥، ١٠٨، ١٠٦
 ، ١٤٠، ١٤١، ١٤٣، ١٤٨، ١٦٨
 ، ٢٢٢، ٢٠٦، ١٩٤، ١٧٢
 ، ٢٥٥، ٢٥٤، ٢٤٣، ٢٣٢، ٢٢٦
 ، ٢٦٧، ٢٦٤، ٢٦٣، ٢٥٨ - ٢٥٧
 ، ٣١٨، ٢٨٥، ٢٩٧، ٢٩٨، ٢٧١
 ، ٣٢٤، ٣٢٢، ٣٣٠، ٣٣٤، ٣٤٣
 ٣٦٣، ٣٤٦، ٣٥٥، ٣٥٣، ٣٤٥
 ككي بالحديد الحامي: ٥٧

ع

- عجرفة النصاري: ٤٦، ٤٧، ٧١
 ، ١١٠ - ١٠٩، ١٣٨، ١٧٣، ٢٥٤
 ، ٢٩٧، ٣٥٠، ٣٨١
 العدالة الفورية: ٣٣٥، ٣٣٧
 عدد النصاري: ٢٢٤
 العربية (حظر تعلم): ١٤٣، ٥٧
 علم الصنعة: ٤٨، ٤٩
 عهد الجاثليق: ٢٨٩ - ٢٨٨
 عهد النصاري: ١٣٩، ١٥

غ

- الغرامة (حق الجاثليق بفرض): ١٩٦
 غلمان النصاري: ٧٠، ١١٤، ١٤٢
 ، ١٨٠
 الغيار، (وانظر الزنار): ٥٧، ٨٥، ٩٢
 ، ١٤٣، ١٤٣، ١٩٠، ٢٦٣، ٢٨١
 ، ٣٢٢، ٣١٦، ٣٠١، ٢٩٧
 ، ٣٢٣، ٣٢٢، ٣٢٢، ٣٢٢
 ٣٨١، ٣٤٤

ل

لحية النصارى: ٣٧٥، ٥٧
لواط: ٢٦٠، ٢٢٩، ١٣٤، ٧٢

ن

نساء مسلمات (زناب): ١٣٩، ٢٥٧
٣٦٣، ٣٤٦
نواقيس: ١٠٩، ١٢٦، ١٤٠، ٣٦٥
٣٨١

م

المحتسب: ٣٧٢، ٧٠
المحنة: ١١٨، ١٢٤، ١٣٦
خارج لتحاشي دخول الإسلام: ٨٦
مرتدون أقيم عليهم الحد: ٩٥، ٥٨،
١٤٨، ١٢٦
ظاهرات جماعية: ٢٥٥
مقابر: ١٤١
منظرات مع المسلمين: ٥٦، ٧٣، ٦٩،
٩٥ - ٩٦، ١١٤، ١٧٠، ١٧٧، ٣٥٤، ١٩٩، ١٨٦

هـ

هجرة النصارى: ٨٧، ٢١٧، ٢٢٦
٢٤٥ - ٢٤٦
عودتهم ٢٧٤
و

واجب النصيحة: ٥٣، ٦٩، ١٠٩
١١٧، ١٥٠

فهرس الأماكن

- ٢ -

- باب المحول: ٣٤٣، ٢٣٢، ٥١
- باب النبي الشريف: ٣٥٦، ١٨٨، ١٨٨
- باجرمي: ٣٢٩، ٢٥٤، ١٨٨، ١٨٧
- البادورية: ٣٢٤
- بانوهادرا: ٢٢٧
- البحرين: ١٤٣
- برطلي: ٣٥٦، ٣٤٨
- برمشا: ١٧٢
- بشمان: ١٢٦
- البصرة: ٩٤، ٤٣، ٥٨، ٩٣، ٩٢، ٩٤
- بلاشاباد: ٥٠
- بلد: ١١٠ - ١١٠، ٢٨٥
- بهراسير: ٣٧١، ٥٠، ٤١
- بيت الحكمة: ١٧٢، ٨٢، ١٤٧، ١١٧
- بيت يغش: ٧٢، ٧١
- بيروي: ٧١
- آمد: ١٢٣، ١٨٠، ١٨٥، ٢٩١، ٣٥٦
- الأبلة: ٩٢
- أثور: ٣٠٨
- أربيل: ٣٧٧
- أرْجان: ٢٤٣
- أرزنجان: ٣٦٦
- أسبانبر: ١١٠
- الإسكندرية: ٢٨٩
- أصفهان: ٣٢٧، ٣١٧
- الأقصى (المسجد): ٣١٣
- الأبار: ٤٢، ٩٠، ١٧٣، ١٧٨، ٢٠٦
- أنطاكية: ٣١٤، ٢٧٨، ١٢٧، ٨٨
- أنقره: ١٢٧
- الأهواز: ١٠٥، ١٨٦
- الإيتاخية: ١٣٠
- إيرينوبوليس: ١٩٢

- ت -

- التاج: ٢٥٥
- تكريت: ٥٣، ١٩٩، ١٩٨، ١٩٩
- ٢٠٦، ٢٥٩، ٢٧٤، ٢٦٥، ٢٨٢
- ٣١٨، ٢٩٦، ٢٩٨ - ٢٩٨، ٢٨٥

- ب -

- باب أبرز: ٣٠٣
- باب الشهاسية: انظر الشهاسية
- باب الطاق: ٢٢٣

الحلة: ٣٣٣، ٢٢٩، ٣٠٣، ٣١٥	٣٧٠، ٣٣٩
حصن: ١٤٨	تل أعفر: ٣٣٤، ٢٨١
حتزيط: ٣٥٤	تنيس: ١٩٤
الحيرة: ٨٩، ٤١، ٦٤، ٦٩، ٧٢، ٨٣، ٨٩	التوثة: ٢٨٦
١٢٦، ٢٢٤، ١٢٥، ١٠٥، ٩٠	تورينو (كفن): ٢١٨

- خ -

الخالص: ٣٢٠	٣٢٤
خرزانة الحكمة: ٨٢	
الخلد: ٢٤٩، ٥١	
خوارزم: ٣٥٠، ٢٦٢	
خيبر: ١٢١	

- د -

دار الروم: ٨٢، ١٣٤، ١٧٤، ١٧٩	
٢٠٩، ٢٢٩، ٢٢٣، ٢١٧، ٢٠٩	
٢٨٢، ٢٧٩، ٢٦٧، ٢٦٠، ٢٤٤	
٣١٣، ٣١٢، ٢٩٨، ٢٨٧، ٢٨٦	
٣١٦، ٣٢٤، ٣٣٠، ٣٤٥	
دار السلم: ٣٥٨	
دار العلم: ٢٥٣	
دارا: ٢٩٨، ١٢٣	
داريا: ٣٥٥	
داقوق: ٣٥٩، ٢٦١، ٢٥٤، ٧٦	
ديق: ٧٠	
ديبل: ٣٣٩	
دجبل: ٣٥٩	
درب القيار: ٣٦٦	
دكة الشهاسية: ١١٨	

- ث -

ثانون: ٣٢٤	
جزيرة ابن عمر: ٦٤، ٢٨١، ٣٢٠	
٣٤٣	
جسر بغداد: ٣٦٩	
الجعفري (قصر): ١٤٩	
جنديسابور: ٤٣، ٥١، ٥٣، ٧١، ٧٨	
١١٢، ١٣٣، ١٤١، ١٤٦	
٢٨٤، ٢٤٣	
جوبياس: ٣٣١	

- ح -

الحدث: ٣٣٢	
حديثة الموصل: ٥٤، ٧٨، ٢٠٩	
حران: ٧٥، ١٠٨، ٣٥٦	
حزة: ٣٠٥	
حصن زياد: ٣٣١	
حصن كينا: ٣٥٤	
حطين: ٣٦٥	
حلب: ٧٠، ٢١٦، ٢٦٦، ٢٧٨	
٣١٤، ٣٤٦، ٣٤٤	

- دير مار سرجيس: ١١١
 دير مار فشيون: ٥١، ٦٩، ١١٢، ٢٢٩، ٢٤٤، ٢٧٩
 دير مار قسطنطين: ٤٨
 دير مار قرياقوس: ١٤٣
 دير مار ماري: أنظر دير قني
 دير مار متى: ٤٧، ١٠٩، ٣٣٢
 دير مار ميخائيل: ٣١٥، ٢٤٠
 دير واسط: ٤١
 دير يزدفن: ١٤٣
 دير يونان: ٩٠
 ديرا: ٢٤٦
- ر -
- رأس العين: ١٢٣
 الراقة: ٩٥، ٧٠
 الرحمة: ٢٧٨
 الرصافة: ٥١، ٢٥٥، ٢٦٤
 الرقة: ٨٨، ٩٠، ١٠١، ١٢٩، ١٨٥
 الرملة: ١٩٤
 السرها: ٨٨، ١٠٨، ١١٤، ٢١٦
 ٣٧٢، ٣٣٠، ٢٤٦، ٣٦٥
 الري: ٢٤١، ١٠٧، ١٦٣، ١٨٥
- ز -
- الزعفرانية: ١٨٣، ١٨٢
- س -
- سامراء: ٤٢، ٨٢، ١٠١، ١٢٤ وما بعد
- دمشق: ١١٢، ١١٥، ١٢٩، ١٣٥، ١٤٧، ١٤٨، ١٩٦، ٣٤٤، ٣٥٥
 ٣٧٣، ٣٥٦
 دمياط: ٣١٤
 الدور (حيي بغداد): ٢٥٨
 دور قني: ١٤٤، ١٧٢، ٢٠٧، ٣٤١
 دوقره: ٦٩، ٥٦
 ديار بكر: ٣٦٥
 دير أبي يوسف البلدي: ٢٠٩
 دير برسوما: ٣٥٣
 دير بكره: ٣٤٦
 دير بيبي الصقر: ١٣٠
 دير بيت حالا: ٦٩
 دير بيت عاب: ١١٢
 دير الرواحب اليعقوبيات: ٢٥٨
 دير الروم: ١٧٩، ٢٥٤، ٣٢٤
 دير الزريقية: ٣١٩
 دير زكا: ١٠١
 دير الطين: ٧٢
 دير عانا: ١٠١
 دير العاقول: ٢٣٣
 دير العذاري: ١٠١
 دير عين قنا: ١١٠
 دير قنسرين: ٦٦
 دير قني (أو قني): ١٧٤، ٢٤٧، ٢٦٣، ٣٤٥، ٢٨٠
- دير الكاملول: ٢٨١
 دير كليلشوع (مار سبر يشوع): ٩٣، ٢٥٤، ٩٤
 دير مار حنانيا: ٢٩١
 دير مار سبر يشوع (بواسط): ٢٩٧

سانس: ٢٩١
 سروج: ١٢٦
 سل (على نهر بوق): ١٢٩
 السلامية: ٣٢٠
 سلوقيه: أنظر المدائن
 سالو: ١٧٩، ٨٢
 سمرقند: ٣٠٧، ٢٧٧
 ستايد: ٩٣
 سنجار: ٢٨١
 السواد: ٣٣٣، ١٩٣، ٢٥٣، ١٠٢
 سوس: ١٠٢
 سوق الثلاثاء: ٢٢٢، ٢٧٤، ٢٥٤
 سوق الثلاثاء: ٣٥٩، ٣٢٤، ٣١٣، ٢٩٦
 سوق العطر: ٣٢٠
 سوق المدرسة: ٢٩٦
 سوق يحيى: ١٩٨

- ش -

الشهاسية: ٥١، ١١٨، ١٠٦، ٨٢، ٢٧١، ٣١٣ - ٣١٤
 شيراز: ٢٥٧، ٢٤٢، ٢٤٠، ٢٢٣
 ٢٦٥

- ط -

طاق كسرى: ٥٠
 طبرستان: ١٢٨، ١٦٣
 طرابلس (الشام): ٢٢٦
 الطيب: ٣٥٢

الطيرهان: ٢٦٨، ٥٣
 طيزناباذ: ٩٠
 طيسفون: أنظر المدائن
 عانة: ٢٨٤
 العقيقة: ٥١، ١١٢، ٢٢٩، ٢٣٢، ٢٣٢
 ٣٦٠، ٣٠٥
 عسقلون: ١٩٤، ٢٠٦
 العضدي (البيمارستان): ٢٣٤، ٢٤٠
 ٣٥٢، ٣١٧، ٢٩٦، ٢٤١
 عكا: ٣٦٤

- ق -

قبة الصخرة: ٣٥٦، ٣٦٢
 القدس: ٨٨، ٢٧١، ٣١٣ - ٣١٤
 القرح (قناة): ٢٨٧
 القدسية: ٢٧٦ - ٢٧٧، ٢٧٧
 القصر: ٢٦٦، ٢٧٩
 القصر الأبيض (بطيسفون): ٥١
 قصر الجص: ٢٣٨
 قصیر عمرة: ٢١٠
 قطریل: ٩٠
 قطعية الدقيق: ٢٣٩، ٢٥٧
 قلّت: ٢٩٨
 قورس: ١٢٩
 قيصرية: ١٩٤

- ك -

- كنيسة مار أخودمه (بتكريت): ٢٩٩
 كنيسة مار إصطفانوس (بالدور): ٢٥٨
 كنيسة مار بهنام (بطرابلس): ٢٢٦
 كنيسة مار جرجس: ١٣٠
 كنيسة مار سرجيس وباخوس (بتكريت): ٢٩٩
 كنيسة مار يونان (بسمراء؟): ١٤٣
 كنيسة النسطورية بتكريت: ٥٣
 كنيسة كوخي: ٤١
 الكوفة: ٤١، ٥٠
 - ل -
 لاشوم: ٦٩
 اللاذقية: ٢٧٨
 - م -
 مارددين: ١٢٣، ٢٩١، ٣٣٧، ٣٤٦، ٣٦٥، ٣٥٦
 ماروي: ٦٩
 المتكلمة: ١٤٩
 المحمدية: ١٣٠
 المحول: ٢٩٧
 المختار (قصر): ١٣٣
 المدائن: ٤١، ٤٢، ٥٠، ٦٤، ٦٩، ١١١، ١٢٥، ٢٢٤، ٢٢٦
 مدرسة إبراهيم بر داشنداد: ٧٢، ١١٠
 مراغة: ٣٢٦
 مرج دابق: ٨٨
 مرو: ٢٤٧، ١٩٠
 المستنصرية: ٣٧٢
 مشهد أبي حنيفة: ٢٦٢، ٢٨٥، ٣٠٤
- كاشغر: ٢٧٧
 كربلاء: ١٣٦، ٢٦٤
 الكرخ: ٥١، ٢٧٤، ٢٥٣، ٢٥٦، ٣٥٢، ٢٧٨
 الكرخي: ٣٧٣
 كركوك: ٤١
 كرمان: ٢٧٨، ٢٧٧
 كسرى: ٤١، ٧١، ١٢٥، ١٤١، ٢٢٤، ٢٧١، ٢٥٨، ٢٤٠، ٢٢٧
 كلواذى: ٣٥٩، ٤٤٠
 كنيسة الأصيغ العبادى (السيدة): ٧٢، ٢٨٧، ١٧٩، ١٩٨
 كنيسة أهل كسرى: ٢٥٨
 كنيسة الخضراء (بتكريت): ٢٩٩، ٢٠٦
 كنيسة العتقة (السيدة): ٣٠٥، ٢٢٣، ٣٢٤، ٣١٣
 كنيسة العذراء (يعسلون): ٢٠٦
 كنيسة العذراء (بسوق الثلاثاء): ٢٥٤، ٣١٣، ٣٢٤، ٣٤١، ٣٤٥، ٣٥٩
 كنيسة القديس توما (بيغداد): ٥١، ٢٣٩، ٢٥٧ - ٢٥٨، ٢٦٠، ٣٣٤، ٣٤٣
 كنيسة القديس توما (ماردين): ٣٤٦
 كنيسة القديس ضوميط (بنصين): ٥٣
 كنيسة القيامة: ٢٧١
 كنيسة كوخي: ٢٢٨
 كنيسة كيسوم: ٨٧
 كنيسة مار أخودمه: ١٣٠

- نهر المعى: ٢٨٤
 النهروانات: ٢٧٩، ٢٦٤، ٢٦٦، ٢٧٩
 النوبة: ١٢٧ - ١٢٨
 نيسابور: ٧١
 النيل: ٣٣٤، ٣١٥، ٢٨٤، ٢٦٨
 مصر: ١٩٦، ١٩٤، ١١٥، ١١٤
 ملطية: ٢٤٦، ٢٦٤، ٣١٤، ٣٤٣
 الموصل: ٢٧٧، ٢٧٥، ٧٥، ٥٥
 ميافارقين: ٣٤٥، ٢٩٦، ٢٨٧، ٢٤١
 نجران: ١٧٢
 نسطور (قب): ٩٢
 النظامية: ٣٧٢، ٣٥٧، ٣٠٤، ٢٦٩
 النعيمانية: ٢٨٤
 نفُر: ٢٨٤
 نهر صرصر: ٧٨
- ٥ -
- الماشمية: ٤٢، ٦٤
 هرقلية: ١٠١
 همدان: ٣٣٥
- ٦ -
- واسط: ٦٥، ١٧٤، ٢٢٧، ٢٦٣، ٣٣٤، ٣٣٣، ٣٠٥، ٢٩٧، ٢٨٠
 ٣٥٩، ٣٥٨، ٣٣٩

فهرس الأشخاص

- ٤٠١ -
- إبراهيم بن يحيى (الوالي): ٥٥
 - إبراهيم القرشي: ١٠٨
 - إبراهيم الأبرش: أنظر أئوب، إبراهيم
 - ابن آدم: ٢١٤
 - ابن أبي دؤاد: ١٣٣
 - ابن أبي القرافق: ٢٠٢
 - ابن أسلم: ١٨٢
 - ابن الأشقر: ٣٥٠
 - ابن إصطفاوس: ٢٩٢
 - ابن أوان (?): ١٩٩
 - ابن البخاري: ٣٥٠
 - ابن بدران: ٢٩٧ ، ٣٦٦
 - ابن بطلان (أبو الحسن): ٢٧٨
 - ابن البقال: ٢٤٧
 - ابن البلدي (شرف الدين أحمد): ٣٤٠
 - ابن جبير: ٣٤٣
 - ابن البناء (أبو علي): ٢٨٦ ، ٢٨٥
 - ابن التلميذ: أنظر هبة الله بن أبي العلاء
 - ابن جابر: ٢٦٤ ، ٢٦٧
 - ابن جزلة: أنظر يحيى بن عيسى
 - ابن جهير (أبو منصور، عميد الدولة): ٣١٣ ، ٣١٢ ، ٣١١ ، ٣٠٥
 - ابن حشبي: ٣١٥
 - ابن الحمار: أنظر الحسن بن سوار
 - ابن دليل: ١٩١
 - أبا (الجاثيلق): ٦٤ ، ٤٢ ، ٤١
 - أبا (المطران): ١٢٥
 - أبان (الأمير): ٤
 - أبان بن عبد الحميد اللاحقي: ٥٨
 - إبراهيم (الأسقف): ٩٣
 - إبراهيم (الثالث، الجاثيلق): ١٨٧
 - إبراهيم (الثاني، الجاثيلق): ١٢٥ - ١٤٠
 - إبراهيم (صاحب بيت المال): ١٢٥
 - إبراهيم (طبيب المتصور): ٥٦
 - إبراهيم (القس اليعقوبي): ٣٣٤
 - إبراهيم (الكاتب): ١٩٥
 - إبراهيم بن أئوب الأبرش: ١٥٢ ، ١٦٦
 - إبراهيم بن أئوب (الجهب): ١٩٥
 - إبراهيم بن بكس: ٢٤٠
 - إبراهيم بن حдан الشيرازي: ١٨٥
 - إبراهيم بن المهدى: ١٤١
 - إبراهيم بن مهران: ١٢٨ ، ١٢٢
 - إبراهيم بن عيسى بن نصر السوسي: ٢٥٠
 - إبراهيم بن نوح الأنباري: ١٤١ ، ١٦٥
 - إبراهيم بن هارون: ١٦٣
 - إبراهيم بن هلال الصاب: ٢٢٦ ، ٢٤٨ ، ٢٥٣
 - إبراهيم بن الوكيل (أبو إسحق): ٢٢١

- ابن محرز: ٣٥٨
 ابن مسلم: ٢٨٣
 ابن مطر: ٨٨
 ابن المعتز: ١٩٧، ١٨٥
 ابن مقلة (محمد بن علي): ١٩٥، ٢٠١
 ابن سراج: ٢١٠
 ابن المهدى: ٣٥٢
 ابن النحال: ٣٤١
 ابن نصيحة: ٢٢٧
 ابن هبيرة: ٣٦٢، ٣٣٣
 ابن وحيد: ٣٧٧
 ابن يوسف (الواسطي): ٢٤١
 أبو إسحاق بن ثوابه: ٢٢٦
 أبو إساعيل (الموصلى): ٣١٠
 أبو البركات (الطبيب): ٣٦٠
 أبو تغلب فضل الله (الغضنفر، عدّة الدولة): ٢٤٨، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٤٤
 أبو تمام: ١٣٥
 أبو الحسن (أخو المسترشد): ٣١٩
 أبو الحسن (البرمكي): ١٥٠
 أبو الحسن بن إسحاق: ٢٥٩
 أبو الحسن بن بهلول: ٢٢٩
 أبو الحسن بن عبد الله: ٢٧٩
 أبو الحسن بن غسان: ٢٤٠
 أبو الحسن بن مالك: ٢٥٢
 أبو الحسن بن المقلد (?): ٢٠٣
 أبو الحسين (البرidi): ٢٢٧، ٢١٥
 أبو الحسين (البصري): ٢٧٦
 أبو الحسن بن دنحا: ٢٢٩
 أبو الحسين بن سبر يشوع: ٢٧٦
- ابن الدهان: ٩٧
 ابن رائق (محمد): ٢٠٨، ٢١٤ - ٢١٥
 ابن زرعة: أنظر عيسى بن إسحق
 ابن زهان: ٢٢٩، ٢٣٥
 ابن ساوا: أنظر نصر بن ساوا
 ابن سرجويه: ١٤٩
 ابن سعدان: ٢٤٢
 ابن سكرة: ٢٩٢، ٢٨٣
 ابن سلمون: ٩٩
 ابن سنجلاء: أنظر سعيد بن عمرو
 ابن شيرزاد: ٢٠٧، ٢١٦، ٢٢٠
 ابن الصليحية: ٣٧٦
 ابن الطباخ: ٥٤
 ابن الطبرى: ١٨٣
 ابن الطبيب: ٢٤٥
 ابن طولون: ١٧٧، ٢١٨
 ابن عبدالوس: ٢٠٤
 ابن عزرون: ٣٤٤، ٣٦٦
 ابن عقيل: ٢٩٤
 ابن عكاشه: ٣٥٢
 ابن العميد: ٢٤٢
 ابن الفرات: ١٩٥، ١٩٤، ١٩١، ١٩٩
 ابن فرجونا: أنظر عبدالله بن فرجويه
 ابن فضلان (الكاتب اليهودي، أبو علي): ٢٨٣، ٢٨١
 ابن فضلان (محى الدين محمد): ٣٠٨
 ابن فضلان اليهودي: ٢٠٥
 ابن القاورت: ٣٣٠
 ابن مالك: ٢٠٥

- أبو عمران (أولاده): ٢٤٦
 أبو عمرو (الكاتب): ٢٤٨
 أبو عمرو بن شريح: ٢٠٤
 أبو عيسى: ٢٢٦
 أبو غالب (الطبيب): ٢٨٦ ، ٢٨٥
 أبو غالب بن زطينا: ٣٥٠
 أبو غالب بن صفية: ٣٤٠
 أبو غالب بن عيسى بن بابا: ٣٣٩
 أبو غالب بن هبة الله (الأصبغى)، تاج الرؤساء: ٣٠٣ - ٣٠٤
 أبو الفرج (المسيحي): ٣٥٢ ، ٢٤٣
 أبو الفرج بن التلميذ: ٣٠٥
 أبو الفرج بن يعقوب: ٢٥٥
 أبو الفضل بن بهانش: ٢٨١
 أبو الفضل بن داود: ٣٢٤
 أبو الفضل بن دخان (خاصّ الدولة): ٣٨٠
 أبو قابوس: أنظر عمرو بن سليمان
 أبو القاسم (المغربي): ٢٧٧
 أبو القاسم بن جهير (زعيم الرؤساء): ٣١٩
 أبو القاسم بن عيسى بن علي: ٢٤٥
 أبو القاسم بن معا: ٢٧٠
 أبو عشر الفلكي: ١٦٦
 أبو منصور (الدراجي): ٢٥٧
 أبو منصور (الطبيب): ٣٣٣
 أبو موسى: قارن موسى (؟)
 أبو نصر بن إسرائيل: ٢٦٢
 أبو نصر بن الصلت: ١٧٧
 أبو نعيم بن ساوا (الواسطي): ٣١١
 أبو نواس: ١٠١ ، ١٣٤
- أبو الحسين بن كشكريا: ٢٤٠
 أبو الحسين بن الموصلايا: ٣٠٣
 أبو داود (?): ابن المعتصم: ١٢٦
 أبو ذئف: ١٢٦
 أبو رفاعة بن كامل: ٢٥٣
 أبو زكار يحيى بن نعман: ١٥٧
 أبو زكريا: ٢٤٨
 أبو سعد: ٢٨٠
 أبو سعد بن سمحا: ٣٠١
 أبو سعيد (السيرافي): ٨١٩٩
 أبو سعيد (الكاتب): ٢٥٥
 أبو سعيد (العميد): ٢٨٤
 أبو سعيد بن يشفور: ٢١٥ - ٢١٤
 أبو سليم بن أبي عمران: ٢٤٦
 أبو سهل (المسيحي): ٢٦٠
 أبو طاهر (البلدي): ٢٨٥
 أبو الطيب: ٢٤٨
 أبو العباس بن فراس: ١٨٦
 أبو العباس الفضل: ٦٢
 أبو العباس الوارثي: ١٥٩
 أبو عبيد: ٢٤٨
 أبو عصمه: ١٠٦
 أبو علي (الدورقي): ٢٦٢
 أبو علي بن أبي الخير (المسيحي): ٣٥٢ ، ٣٧٣
 أبو علي بن غسان: ٢٢٣ ، ٢٤٠
 أبو علي بن مكيحا: ٢٤٠
 أبو عمر بن عدي: ٢٢٦
 أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب (الحمادي): ١٨٤
 أبو عمر والد متن: ١٩٦

- إسحاق بن نصیر: ٢١٨ ، ١٧٧
 إسحاق بن يحيى (المسيحي، أبو سهل):
 ٢٤١ ، ٢٥٦
 إسحاق (الحراني): ٤٨
 إسحاق أسد بن جانی: ١٤٦
 إسرائیل (أسقف كسكروت): ١٧١
 إسرائیل (الجاثليق): ٢٢٧
 إسرائیل (الشهيد): ٤٢
 إسرائیل (على الجند): ١٩٨
 إسرائیل بن ذکریا (الطيفوري): ١٤١ ، ١٥١
 إسرائیل بن عیسی (أبو الفرج): ١٩٦
 إسرائیل أسعد بن أبي الفتح الياس بن
 جورجیس بن المطران (أبو نصر،
 موق الدین): ٣٥٧
 ٢٢٨ ، ٢١٨
 إسماعیل بن ببل: ١٧٥
 إسماعیل بن صالح: ٨٨
 إسماعیل بن المعتز: ١٦٦ ، ١٦٠
 إسماعیل بن موسی (أبو سعد): ٢٢٣
 الأشعري (أبو موسی): ٣٠٠ ، ٦٠
 إصطفن (بطريرک الملکاتیة): أنظر
 ثیدوسيوس
 إصطفن بن یعقوب: ١٩٢ ، ١٩٥ ، ٢٠٦
 ٢١١ ، ٢٠٦
 الأعز الدهستاني: ٣٠٢
 إغناطیوس داود: ٣٧٠
 إغناطیوس صلیبا: ٣٧٩
 إغناطیوس لعازر: ٣٤٨ ، ٣٣٨ ، ٣٣٤
 إغناطیوس مرقس برقيقي: ٢٦٥ ، ٢٥٩
 ٢٦٦
- أبو نوح (الأنباري): ١٤١ ، ٧٢ ، ١١٠
 أبو نوح (الأهوازي): ٢٦٢
 أبو الھیجاء (الجرجاني، الناصح): ٢٦٢
 ٢٦٥
 أبو یاسر: ١٩٠
 أبو یعقوب (الأهوازي): ٢٤٠
 أبو یوسف (القاضي): ١٠٣
 أبو یوسف یعقوب (الأنصاری): ٨٤ ، ٨٥
 أبي رام: ١١٤
 أنابلک: ٣٠٠
 الأثردي (بنو): أنظر هبة الله بن علي بن
 هبة الله (أبو الغنائم)، علي بن هبة الله
 (أبو الحسن)، الحسن بن علي (أبو
 علي)، علي بن سعيد (أبو الحسن)
 أناسیوس الصندلی: ٤٨
 أحد (الخصبی): ١٨٤ ، ١٩٥ ، ٢٠١
 أحد (المدبر): ١٣٣
 أحد بن إسحق بن برصوما: ١٠٦
 أحد بن إسرائیل: ١٣٣ ، ١٤٤ ، ١٦٦
 أحد بن علي (الکوفی، أبو عبدالله):
 ٢١٣ ، ٢٠٧ ، ٢٠٤
 أحد اخرسسطو دولو (بطريرک
 الإسكندریة): ٢٨٩
 أحد الأخطل: ١٦٩
 أحد أذین: ١٦٧
 أحد الأريوسیون: ١٤٧
 أحد أزدانقاذاز: ١٦٧
 إسحاق (الوكيل): ٢٢١
 إسحاق بن حنین (أبو یعقوب): ١٨٦
 إسحاق بن علي (القناوی): ٢٠٠

إينوسنت (الثالث): ٢٩١

إينوكتوس (الرابع): ٣٥٦

إيوانيس (بطريرك): ٤٨

أيوب (الأبرش): ١٥٢

أيوب الخلقديوني: ١٢٧

أيوب بن إبراهيم: ١٣٧

- ب -

باسيليوس (أسقف جزيرة ابن عمر):

٣٤٤

باسيليوس (الأول، البلدي): ١٠٩

باسيليوس (الثاني): ١٤٨ - ١٤٩

باسيليوس (الرابع): ٢٩٨

باسيليوس برازا بن طاهر: ٢٥٧

باطا: ٢٥٤

باغر (التركي): ١٦٣

بجكم: ٢٠٧، ٢١٣، ٢١١

بختيشوع بن جبرائيل: ٩٠، ١١١،

١١٧، ١٢٥، ١٣٢، ١٣٣، ١٤١ -

١٥٢، ١٥١، ١٤٣

بختيشوع بن جورجيس: ٧٨، ٧٧

بختيشوع بن يوحنا (يحيى): ١٧١،

٢٠٦، ٢٠٢، ٢٠١

بختيشوع (آل): أنظر جورجيس،

بختيشوع، جبرائيل، يوحنا (المطران)،

جبرائيل بن عبدالله، عُبيد الله

بدر (الأمير): ١٨١ - ١٨٣، ١٩٥

بدران فهروز: ٣١٢

البرامكة: أنظر خال، يحيى، جعفر،

الفضل، أبو الحسن

أفريم (المطران): ٧٢، ٧١

الأفشن: ١١٦

الأكراد: ٢٣٩، ٢٦٨، ٢٧٥، ٢٧٩

٣٤٦، ٣٣٩

أب أرسلان: ٢٩٤، ٣٠٠، ٣٠١

الياس (الأول، بطريرك الروم): ١٩٢

الياس (المطران): ٣٠٩

أم جعفر: ١٠٣

أم موسى: ١٩٠

الأمين: ١٠٥ - ١٠٦

الأنباري: أنظر أبو نوح، إبراهيم،

إسرائيل، أحمد، عيسى

أنوش (الجائليق): ١٧٣ - ١٧١

أوجين (أبو العلاء): ٢٨٤

أوريجانوس: ٣٦٧

الأوزاعي: ٨٣، ٣٩

إيتاخ: ١٣٧

أيتكن (السلبياني): ٢٨٦

إيشوع بر نون: ١١٠ - ١١٢

إيشوع يهوب (البلدي): ٣١٧، ٣٣٣ -

٣٤٥

إيشوع (الثالث): ٤١

إيشوع (المطران): ٣١٥

إيشوع بن حزقيال: ٢٦٦

إيليا (أسقف الأنبار): ٢٠٩ - ٢٠٨

إيليا (الأول، الجائليق): ٢٧٩ - ٢٦٨

إيليا (الثالث أبو حليم): ٣٥٧ - ٣٤٥

إيليا (القس): ٣٠٤

إيليا (مطران مرو): ٢٤٧

إيليا بر شيئايا: ٢٧٨

إيليا بن المقلبي: ٣٢٤ - ٣١٧

- تاوفيلا (الرهاوي): ٨٩
 تتش (تاج الدولة): ٣١١
 تداوس (والد أبي تمام): ١٣٥
 تناوش (الناصري، علاء الدين): ٣٥٩
 تنوخ (بنو): ٧٠
 التوحيدى (أبو حيان): ٢٥٠
 توزون (أبو الوفا): ٢١٦، ٢١٧، ٢١٨، ٢٢٠
 توفيل قيسر الروم: ١٢٤
 توما (أسقف كسكروت): ٧١
 توما بزازا: ٢٥٩
 توما (بنو): أنظر صاعد بن هبة الله (أمين الدولة)، شمس الدولة، فخر الدولة،
 تاج الدولة (ماري)
- ث -
- ثابت بن سنان: ٢٠٩
 ثابت بن هارون (أبو نصر): ٢٣٦
 ثاودوسيوس (بطريرك الملاكانية): ٢٠٦
 ثُمل (الذئبة): ١٩٠
 ثيودوسيوس (المطران): ٨٨، ٧٥
 ثيفيلوس بن توما: ٦٦، ١٠٠
- ج -
- الجاحظ: ٦٥، ١٣٩، ١٤٤ - ١٤٦
 ٣٧٢، ١٤٧
 جبر بن هارون: ١٦٣
 جبرائيل (الكحال): ١١٧
 جبرائيل بن بختشوع (أبو عيسى): ٨٢، ٨٩، ٨٩، ٩٠، ٩٣، ٩٦، ١١٠، ١٠٥
 ١٤٢، ١١٧، ١١٢، ١١١
- بيرخمورو: أنظر ابن الخبرار (?)
 برصوما (الأول): ٣٢٩ - ٣٢٤
 برصوما (الماردبيّن): ٣٤٦
 بركيارق: ٣١١، ٣٠٦، ٣٠٢
 البريدي: أنظر أبو الحسين
 البريديون: ٢١٦، ٢١٥، ٢١١، ٢٧٩
 البساسيري: ٢٨٠، ٢٧٥
 بشر (كاتب الحمداني): ٢٠١
 بشر بن هارون: ١٦٣
 بشر بن هارون بن جلا (أبو نصر):
 ٢٣١، ٢٥٣، ٢٧٠
 البشمرية: ١١٥
 البطريق: ٦٧
 بغا (الشارب الصغير): ١٤٩
 بغا (الكبير): ١٦٣
 بكم (البيبورى): ١١٨
 بلحارث (التعجرانيون): ١٧٢
 بنان: ١٩٥
 بنسج بنت عبد الله: ٣٤٠
 بهاء الدولة: ٢٦٢، ٢٥٣، ٢٤٥
 بهنام (مار): ٣٣٨
 بولس بن حنون: ١٢٦
 البوهبيون: ٣٦، ٢٠٨، ٢٢٠ وما بعدها
 البيضاوي (?): ٢٥٨
- ت -
- تاج الدين رشيق: ٣٦١
 تادوروس (المطران): ١٨٨، ١٨٧
 تاذاسيين (الجحاثيليق): ١٤٩ - ١٤٠، ١٥١

- الحكم بأمر الله: ٢٧١
 جبشي بن جكرمش: ٣١٥
 جبشية: ١٦١
 حبيب (الراهن): ١٧٢
 الحجاج بن مطر: ١١٧
 الحجاج بن يوسف: ٤١
 حسام الدين: ٣٤٦
 حسام الشرف بن محمد (الهاشمي): ٣٢٩
 حسان بن سنان (الشتوخني): ٤٤
 الحسن بن إبراهيم (الشيرازي، أبو علي
الخازن): ٢٢٦ ، ٢٢٤
 الحسن بن خليل بن المبارك بن محضار (أبو
سعید): ٣٦٥
 الحسن بن زيد: ١٦٣
 الحسن بن سليمان بن الجمال (أبو علي):
٢١٨
 الحسن بن سهل: ١١٧ ، ١١٠
 الحسن بن سهل (أبو علي): ٢٦٠
 الحسن بن سوار (أبو الخبر، ابن الخبر):
٢٤٩ ، ٢٤٥
 الحسن بن علي بن الأثري (أبو علي):
٣٣٤
 الحسن بن الفضل بن سهلاً (أبو محمد):
١٦٥
 الحسن بن كلبي: ٢٤٧ ، ٢٤٦
 الحسن بن منصور (أبو غالب): ٢٦١
 الحسن بن نصر: ٢٤٧
 الحسن بن وهب: ١٨٨
 حسنون: ٣٧٢
 الحسين بن إسماعيل: ١٧٣
- جبرائيل بن زطينا (أبو الفضل): ٣٥٨
 ٣٧٤
 جبرائيل بن عبدالله بن بختيشع: ٢٤١
 ٢٧٨
 جبريل بن محمد (دبّوس الدولة): ٢٥٤
 جحظة البرمكي: ٧٦
 جرجس (البعثاني، البطريرك): ٤٨ ،
٥٣
 ٦٦
 جرجس بن ماسويه: ١١٠
 جرمقاني = سريانی: ١٢٨
 جرمقاني (أشخاص): ٦٥
 جریر (بنو): ٢٩٦
 جعفر بن المكتفي: ١٨٥
 جعفر بن يحيى البرمكي: ٨٤ ، ٨٣ ،
جلال الدولة (الدين؟) بن بهاء الدولة (أبو
طاهر): ٢٧٧ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٦٨
 الجمال (?)، جلا: أُنظر الحسن، بشر بن
هارون
 جمال الدين (أمير الموصل): ٣٣٨
 جمال يحيى أبو القاسم: ٣٥٧
 العمل (بنو): ٢٦٨
 جميلة بنت أبي تغلب: ٢٥١
 الجواد الأصفهاني (أبو جعفر): ٣٤٨
 الجوالقي (أبو منصور): ٣٣٢ - ٣٣١
 ٣٣٤
 جورجي (ملك الكرج): ٣٣٨
 جبورجيس (الجالطيق): ١١٢
 جورجيس (الراهن): ٧١ ، ٦٩
 - ح -
 الحارث بن بختيشع (الخازن، أبو
سعید): ٢٧٩

- ٥ -

- الدامغاني (أبو عبدالله): ٣٠٤
 دانيال بن الطيفوري: ١٢٢
 دانيال بن العباس (الكاتب): ١٩٥
 داود (أبو سليمان): ٢٠١
 داود (أسقف دارا): ٤٨
 داود بن ديلم: ٢٠٦، ١٨٢
 داود بن سرابيون: ٩٧، ٧٨
 داود بن سلم: ١٨٢
 ديبس بن صدقة: ٣١٩
 دستكبي: ٢٤١
 دليل بن يعقوب: ١١٠، ١٤٩، ١٦٢، ١٦٣
 دنانير: ١٥٥
 دنحا (أبو زكريّا): ٢٠٦
 دنحا (إيوانيس الأسقف): ٣٤٧
 دنحا (المطران): ٣٧٧
 دنحا (الوزير): ٢٢٩
 دوقوز خاتون: ٣٧٨
 ديلم (الطيب): أنظر داود
 ديلم (المطران): ٢٤٣

- ٦ -

- ذخوار: أنظر مهذب
 ذككي: ٢١١

- ر -

- الرازي (فخر الدين): ٣٦٧
 رأس الجالوت: ١٩٩

- الحسين بن عمرو: ١٧٩، ١٨٥، ١٨٦
 الحسين بن عمرو (الكاتب): ٣٢٩
 الحسين بن مقلد: ١٤٣
 الحلاج: ١٩٤
 حاد (التركي): ٦٥
 حدان بن حدون: ١٨١
 الحمدانيون: أنظر ناصر الدولة، هبة الله،
 أبو تغلب، سيف الدولة، فاطمة
 الكريدة، جميلة
 حدون بن علي: ٩٢، ٩٤، ١٠٥
 حدي: ٢١٨
 الحنابلة: ٢٥٧، ٣٣١، ٣٠٧، ٣٠٤
 حنان يشوع (الثاني): ٧١ - ٦٩، ٥٦
 حنين بن إسحاق: ١٣٢، ١٥١ - ١٥٠،
 ٣٥٨، ٢٩٤، ١٧١
 الحواجي: ٢٠٤

- خ -

- خاتون بنت طغرل بك: ٢٨١
 الخازن: أنظر الحسن بن إبراهيم
 الخاقاني: ١٩٣، ١٩٦، ٤٨
 خالد (البرمكي): ٨٢، ٥٠
 ختاختاتون: ٣٦٧
 الخزاعي، أحمد بن نصر: ١٣٦، ١٣٣
 خصيبي: ٥٨
 خلف بن سعيد (أبو زكريّا): ١٩١
 الخلبي (الحسين بن الضحاك): ١٧٩
 خنوج: ١٣٠
 الخيزران: ٦٨، ٧٨، ٧٩، ٨١، ١٥٥

الراشد: ٣٢٧ - ٣٢٨
 الراضي: ٢٠٣ - ٢٠٩ ، ١٨٧
 ربن عزيز: ٣٥٦
 الريبع بن يونس: ٤٧ ، ٥٢ ، ٥٥
 ٧٠ ، ٦٩
 رجاء (الطيب): ٢٨٤
 رحابايا: ٣٤٥
 الرحيم: ٢٧٨
 الشيد: ٣٤ ، ٧٨ ، ٨١ - ٩٦
 رضي الدولة بن التلميذ: ٣١٧
 ركن الدولة: ٢٣٩ ، ٢٢٨ ، ٢٢٣ ، ٩٦
 روحي - أنطوان (الشهيد): ٩٥
 روزبهان: ٢٢٤
 الروم: أنظر الملکائين
 روماتوس: ٧٠

- ز -

زبيدة: ٩٤ - ٩٣ ، ٨١ ، ٩٣
 الزط: ٢٥٩
 زعاره: ٤٧
 زنكي: ٣٣٦ ، ٣٣١ ، ٣٢٧
 زهمان بن هندي: ٢٢٩
 زيرك: ٢٠٧
 زين الدين: ٢٩٣

- س -

سابا: ٢٢٦
 سابور (الراهب): ٢٦١
 سابور بن أردشير (أبو نصر): ٢٥٣ ، ٢٧٠ ، ٢٥٥

سبر يشوع زبور: ٢٨٣ - ٢٨٧
 سبر (الثاني الجاثليق): ١١٢ - ١١٣ ، ١١٥ - ١٢٥
 سبر بن قيوما: ٣٦١ - ٣٣٣٣٦٠
 سبر المسيحي: ٣٥٢ ، ٣٦٠ ، ٣٦٩ - ٣٧٧
 سيككين: ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٢٣ ، ٢٣٨ ، ٢٥٧
 سرجيس (الجاثليق): ١٤٩ ، ١٧٠
 سرجيس (الطيب): ٤٧ ، ٩٧ ، ١٤٧ ، ١٧٠
 سرجيس (المطران): ٧٣ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٦
 سعد بن أبي وفاص: ٣٠٠
 سعد الله جوهر: ٢٨٨
 سعدون: ١٩٥
 سعيد: ١٨٠
 سعيد بن إبراهيم (التستري، أبو الحسين): ١٩١ ، ١٩٤
 سعيد بن إبراهيم (الواسطي، أبو الفرج): ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣١٣ - ٣١١ ، ٣١٥
 سعيد بن أبي الحير بن عيسى (أبو نصر): ٣٥٢
 سعيد بن داود (المسيحي): ٢١٧ ، ٢٢٣
 سعيد بن سلمة: أنظر سلمة بن سعيد
 سعيد بن الشهاس: ٢٩٢
 سعيد بن عبد العزيز (النيلي): ٢٦٨
 سعيد بن عبيدة الله (أبو الحسن): ٢٧٩
 سعيد بن عمرو بن سنجلا (أبو الحسن): ٢٠٣ - ٢٠٤ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩
 ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢١٤ ، ٢٢٦

- ش -

- شارمان: ١٠٤
الشافعي: ٨٣
شبيب بن شيبة: ٤٧
شجاع: ١٩٥، ١٣٨، ١٣٨
شرف الدولة (أبو الفوارس، زين الملك):
٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٢
شغب: ١٩٠، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٥، ١٩٥
شليمون: ٥٦، ٥٤
شمس الدولة بن توما: ٣٦١
الشيرازي (أبو الفضل العباس): ٢٣١
٢٣٢، ٢٣٣
شيركوه بن أيوب: ٣٣٩

- ص -

- الصاحب بن عباد: ٢٤٨، ٢٤١
صاعد بن أبي الخير (أبو الحسن): ٣٥٢
صاعد بن ثابت (أبو العلاء): ٢٢٩
صاعد بن مخلد: ١٦٢، ١٧٢، ١٧٤
صاعد بن هبة الله بن توما (أمين الدولة، أبو الكرم): ٣٤٣، ٣٦٠ - ٣٦١، ٣٦٢
الصالح (الملك): ٣٧٩
صالح بن الرشيد: ١١١
صالح بن علي: ٤٠
صالح بن وصيف: ١٦٨
صدقة بن ديبس (سيف الدولة): ٢٩٩، ٣٠٣

- ٤١٠ -

- سعید بن الفروخان (أبو عمرو): ١٩١
سعید بن منصور بن الموصلايا (أبو الخير): ٣٠٢
سعید بن هبة الله (الأثردي، أبو الغنائم): ٣٣٤
سعید بن هبة الله بن الحسين (أبو الحسن): ٣٠٤، ٢٩٦
السفاح: ٤٤ - ٤١
سفیان الثوری: ٩٩
السلاجقة: ٣٦، ٢٥٦، ٢٧٥ وما بعدها
سلطان بن الحسين بن ثمال (الحفاجي): ٢٦١
سلطان الدولة (أبو شجاع): ٢٦٢، ٢٦٣
سلمة بن سعید: ١٧٣، ١٦٢، ١٣٨
سلمویہ بن بنان: ١١٧، ١٢٥
سلیمان بن ابراهیم الجنید: ١٣٧
سلیمان بن داود بن بابان (?): ١٢٥، ١٢٦
سلیمان بن وهب: ٦٥، ١١٠، ١٣٣
سلیمان بن وهب (أبو العلاء): ٢٣١
سمحا (أبو سعد): ٣٠١
ستان بن ثابت: ٢٠٧، ٢٠٠، ١٩٣
سنجر: ٣٣٣
سنقر (الطویل): ٣٦٧
سهل بن هارون: ١١٧
سوّار بن عبد الله: ٥٨
سورین: ٦٩ - ٤٣
سيف الدولة: ٢٢٩، ٢٤٠
سيف الدين غازی: ٣٤٧، ٣٤٥، ٣٣٩

صلاح الدين: ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٤٣،
عبدالرحمن بن محمد بن داوست: ٣٥٧ - ٣٥٥، ٣٦٢، ٣٥٠،
عبد الرحيم بن علي المربزيان الأصفهاني: ٣٦٦
٣٥٨

صليبا زخا: ٥٣
صمصام الدولة: ٢٦٩، ٢٤٣، ٢٤٢

- ط -

طازاذ بن عيسى (أبو الحسن): ٢٠٧
٢١٧، ٢٢٩، ٢٢٠، ٢٤٣
الطائع: ٢٤٧ - ٢٣٨
طغرل بك: ٢٨٠، ٣٠١
الطوسي (أبو العباس الفضل): ٦٤، ٦٩
طيفوري: ١٤١
الطيفوري: أنظر عبدالله، زكرياء، إسرائيل
طبياثاوس (الجالاثيق): ٧٢ - ٩٦، ١١١،
١١٢، ١٧٣، ٣٠٦

- ظ -

الظاهر (العباسي): ٣٦٩ - ٣٧٠
الظاهر (الفاطمي): ٢٦٦
الظاهر (الملك): ٣٧٥
ظهير الدين (الروذراوري): ٣٠١

- ع -

العادل (الملك): ٣٤٢ - ٣٤١، ٣٦٥
العااضد: ٣٨٠
عباس (العامل): ٥٨
عباس بن الحسن: ١٩١

- عبد الملك (الخليفة): ٤٤
 عبد الملك بن صالح (العامل): ٨٧
 عبده، محمد: ٣٨٢
 عبدالوس: ٢٣٤
 عبدالون (التكربي): ١٠٩ - ١١٠
 عبدالون بن مخلد: ١٦٢ ، ١٧٢ - ١٧٤
 عبد يشوع (الأول): ٢٣٥ ، ٢٢٧ - ٢٤٣
 عبد بن بحرizin: ١٠٢
 عبد بن العارض: ٣٠٥ - ٢٨٧
 عبد بن المقلبي: ٣٢٩ - ٣٣٢
 العبيدي (أبو الحسن): ٢٨٠
 عبيد الله بن يختيشوع: ٢١٠ ، ٢٧٨
 عبيد بن سليمان: ١٨١ ، ١٨٢ ، ٢٠٥
 عبيد بن هبة الله الأصيغي (أبو طاهر): ٣٠٣ - ٣٠٤
 عثمان بن سعيد: ١٤١
 عجيف بن عنبرة: ١٢٧
 عز الدولة يختار: ٢٣٨ - ٢٣١
 عز الملك: ٣١١
 عزير: ١٥٤
 العزيز (الفاطمي): ٢٤١ ، ٢٥٢
 عضد الدولة فناخسرو: ٢٣٨ - ٢٤٢
 عطارد (الشهيد؟): ١٤٨
 عفيف (القائمي): ٣٠٤
 العلاء بن الحسن المصلايا (أبو سعد): ٣٠٣ ، ٢٨٢ ، ٢٨٨
 علون: ١٩٦
 علي بن إبراهيم بن بكس: ٢٤١
 علي بن أبي طالب: ٥٠ ، ٣٥٨
 علي بن بسام: ١٧٧
 علي بن بشر: ٢٤٥
 علي بن الحسن بن مسلمة: ٢٨٠
 علي بن الحسين: ١٨٨
 علي بن حمزة (الكسائي): ١١٦
 علي بن الراهبة: ٣٢٩
 علي بن سعيد (الأثردي): ٣٣٤
 علي بن سهل بن ربن (الطبرى): ١٢٨ ، ٢٩٤ ، ١٤٦
 علي بن طراد (النریني): ٣٢٤ - ٣٣٠
 علي بن عباس: ٢٤١
 علي بن عبد العزيز (أبو الحسن ابن حاجب الشعما): ٢٥٩ ، ٢٦٦
 علي بن علي: ٢٩٣
 علي بن عيسى الجراح: ١٥٦ ، ١٨٨ ، ٢١٦ ، ١٩٣ ، ١٩٥ ، ١٩٨
 علي بن عيسى (الكحال): ٢٦٠
 علي بن منيع قرواش: ٢٩٣
 علي بن نصر بن علي (أبو الحسن، ابن الطيب): ٢٤٥
 علي بن هبة الله (الأثردي، أبو الحسن): ٣٣٤
 علي بن هيثم (جونقا): ١١٨
 علي بن يعقوب (أبو القاسم): ٢٠٤ ، ٢١٤ ، ٢٠٩
 عمارة بن حمزة: ٧٦
 عمانوئيل (الجالطيق): ٢٠٩ - ٢٢٨ ، ٢٢٦ ، ٤٥ ، ٣٧ ، ٦٠ ، ٨٥
 عمر بن الخطاب: ٣٥٨ ، ٣٠٠ ، ١٤٠ ، ١٣٩
 عمر بن عبد العزيز: ٤٥ ، ٣٣ ، ٣٧٠
 عمر بن يوسف: ١٧٨

- ف -

- الفارابي: ١٩٠
فاطمة بنت أحمد: ٢٤٤
الفتح بن خاقان: ١٣٠، ١٣٩، ١٤١، ١٤٧، ١٤٨، ١٥٢، ١٦٢
فيثيون (المترجم): ٩٧
فيثيون بن أبيوب (?): ٢٢٨
فيثيون فوطيوس: ١٥٧
فخر الدولة (البوهيمي): ٢٣٩، ٢٦١
فخر بن توما: ٣٦١
فخر الملك: ٢٥٩، ٢٦٣، ٢٦٤ - ٢٦٧
فرج: ١٩٧
فروخان: ١٩١
الفزاري (أبو إسحاق): ١٠٤
الفضل (الطيب): ٢٩٦
الفضل بن جعفر (أبو الفتح، ابن خنزابه): ١٩٩
الفضل بن الربيع: ٩٤
الفضل بن مروان: ١٢٤
الفضل بن يحيى (البرمكي): ٨٤، ١٠١، ١٠٣، ١٦٣
فضلان (الطيب): ١٦٣
الفضيل بن عياض: ١٠٤
فتون: ٢٣١
فهد (المسيحي، أبو عمرو): ٢١٧
فهد بن إبراهيم (أبو العلاء): ٢٥٢
الفيض بن أبي صالح: ٧١

- ق -

القادر: ٢٤٤، ٢٥٣ - ٢٦٨، ٢٨٦

- عمرو (الخارج): ١٠٨
عمرو بن سليمان (أبو قابوس): ٨٣، ١٠١
عمرو بن يوحنا: ١٣٤
عون (الراهن): ٢٨٢
عون (العبادي): ٨٩، ٩٠، ٩٣، ١٠١، ١١٠
العيارون: ٣٢٧، ٣٣٠
عيسى (أبو قريش): ٦٨، ٦٩، ٧٢، ٧٨، ٨٢، ٨١، ٧٩
عيسى (الأنصاري، أبو نوح): ١٥٢، ١٦٥
عيسى بن إسحق بن زرعة (أبو علي): ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٦٠، ٢٦٥
عيسى بن ثيف (الروماني، أبو السمح): ٢٥٠
عيسى بن شهلوفا: ٥٢ - ٥٤
عيسى بن علي: ٢٤٥
عيسى بن فروخان شاه: ١٤٤، ١٦٩
عيسى بن نسطورس: ٢٥٢
عيسى بن يحيى (المسيحي، أبو سهل): ٢٥٦، ٢٤١
عيسى بن يوسف (ابن العطارة): ٢٠٠

- غ -

- غالب (الطيب): ١٨٠، ١٩٢، ١٩٥
الغَزَّ: ٢٨١، ٢٨٠
غَنَام (المرتد): ١٣٠
غياث الدين: ٣٦٦

- ك -

- الكامل: ٣١٤
 الكرج: ٣٧٨، ٣٣٨
 الكهال محمد بن طلحة: ٣٢٩
 الكندي: ٧٧
 كورنوكين (أبو الفوارس): ٢١٤
 الكوكبي: ٢٤٦
 كيريلوس (القديس أخو مثوديوس): ١٥٧

- ل -

- لعازر: أنظر شباثا
 لعازر (الماردبي): ١١٤
 لوقا (المطران): ٢١٢
 لؤلؤ (بدر الدين): ٣٧٩، ٣٧٠
 لاوون (الرياضي): ١١٧
 لويس (القديس): ٣١٤
 الليث (الشهيد): ٧٠

- م -

- مار حسيا: ٣٦٦
 ماردة: ١٠١
 ماري (الأسقف): ٢٨٤
 ماري بن جابر (أبو بشر): ٢٤٧
 ماري بن صاعد بن توما (تاج الدولة): ٣٧٤، ٣٦١
 ماري بن طوبى: ٢٣١، ٢٤٠، ٢٤٢، ٢٥٦ - ٢٤٣
 ماري بن هبة الله عبد البقاء بن إبراهيم المؤمل: ٣٥١

القاسم بن الرشيد: ١٠٠

القاسم بن عبيد الله: ١٨٠، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٨

القاھر: ١٨٧، ١٨٠ - ٢٠٠

القائم: ٣٠٢، ٢٩٠ - ٢٧٤

قرييانوس: ٥٦، ٥٥، ٥٣

قبیحة: ١٦٥، ١٥٢

قدامة بن جعفر: ١٨٨

قدامة بن زيد: ١٣٧

قرابغا: ٣٧٥

القراريطي (أبو إسحاق محمد بن أحد الإسكافي): ١٩٦ - ١٩٧، ١٩٤

قراطيس: ١٢٢

قرة العين: ٣٠١

قره أرسلان: ٣٥٤

قرياقوس (البطريق): ٨٨، ١٠٩

قريش بن بدران: ٢٨٠

قسطا بن لوقا: ١٥٠

القشيري (أبو نصر): ٣٠٤

قطب الدين (أستاذ الدار): ٣٤٠

قطب إيلغازي (الثاني): ٣٦٥

قطب مودود: ٣٣٩

قلج أرسلان (الثاني): ٣٥٣ - ٣٥٤

٣٦٦

قمر الدين (أبناء): ٣٦١

قوم الدولة: ٣١٩

فورش (الشهيد): ٥٨

القيصر (ابن حاجب): ٣٧٤، ٣٥٨

قيقباذ بن هزارسب: ٢٩٩

- محمد بن علي (أبو الفضل): ٢٨٨
 محمد بن عناز: ٢٣٦
 محمد بن قاسم (أبو العيناء): ١٧٦
 محمد بن محمود بن ملكشاه: ٣١٦، ٣٠٢
 محمد بن موسى (الخوارزمي، أبو بكر): ٢٥٨
 محمود بن سبكتكين: ٢٥٧، ٢٦٤
 محمود بن محمد بن ملكشاه: ٣٢٢، ٣٠٦
 عبي الدين (أبو كاليجار): ٢٧٨، ٢٧٧
 عبي الدين بن الزكي: ٣٦٢ - ٣٦٢
 مخارق (أم المستعين): ١٦٢، ١٧٦
 مخلد (بنو): أنظر صاعد، عبدون
 مدرك (الشيباني): ١٣٤
 مروان: ٤٧
 المرياني (أبو أيوب): ٥٠
 مزيد (بنو): أنظر الحلة
 المسترشد: ٣١٩، ٣٢٢ - ٣٢٥
 المستضيء: ٣١٨، ٣١٨ - ٣٤٣
 المستظهر: ٢٩٦، ٣٠٢، ٣١٨ - ٣١١
 المستنصر: ٣٢٣
 المستعصم: ٣٠٧، ٣٧٦ - ٣٧٩
 المستعين: ١٥٣، ١٦٢ - ١٦٣، ١٧٦
 المستكفي: ٢١٣، ٢١٧، ٢١٧ - ٢٢٠
 المستجد: ٣١٨، ٣٣٨ - ٣٤١، ٣٤٤
 المستنصر: ٣٥٨، ٣٧٠، ٣٧٢ - ٣٧٤
 مسرور (الخادم): ١٢٥، ٩٠
 مسعود (السلطان): ٣٣٢، ٣٣٠ - ٣٢٩
 مسعود بن الحسين (الشريف): ٢٠٥
 المسيح: ٣١٤
- المازيار: ١٢٨، ١٤٦
 ماسويه بن يوحنا: ٨٢، ٨٢، ١٠٢، ١١٠
 ماكيزياس: ٧٠
 الملعون: ٣٤، ٨٢، ٨٣، ١٠٥، ١٠٦
 المانوية: ٦٧، ٧٠، ١١٧
 ماهوية: ٦٥
 التقى: ٢١٩ - ٢١٣
 التبّي: ٢٣٦
 المتوكل: ٦٧، ٧٢، ٧٤، ٨٢، ١٢٥
 ، ١٣٠، ١٣٦ - ١٣٦، ١٦٢، ١٦٣
 ، ١٦٩، ١٧٠، ١٧٨، ١٩٥، ٢٦٩
 ، ٢٨٥، ٣٣٣، ٣٥٨
 متّى بن يونس (أبو بشر): ٢٠٧، ١٩٩
 مجاهد الدين أبيك: ٣٧٤
 مجاهد الدين بهروز: ٣١٨، ٣٣٠، ٣٣٩
 الجبد بن الصاحب: ٣١٧
 المحسن: ١٩٥، ١٩٩
 محفوظ بن عيسى (المسيحي): ٣٣٤
 محمد (الشيباني): ٨٥
 محمد (غياث الدين): ٢٩٩
 محمد بن أبي الساج: ١٩١
 محمد بن إينال: ٢١١
 محمد بن بقية (أبو طاهر، الناصح): ٢٣٨، ٢٣٣
 محمد بن جميل: ١٤٣
 محمد بن جهير (أبو نصر، فخر الدولة): ٢٩٦، ٢٨٨
 محمد بن الحسن: ١٧١
 محمد بن طاهر: ١١٤
 محمد بن عبدالله بن طاهر: ١٧٣، ١٦٣

- المقدي: ٢٩٦ - ٣٠٦ ، ٣١١ ، ٣٢٠ ،
٣٦٦
- المتفى: ٣٢٩ - ٣٣٥
- المقوس: ٢٩٥
- المكتفى: ١٧٩ ، ١٨٥ - ١٨٨ ، ٢٠٠ ،
٢١٧
- مكيخا (الأول): ٣٠٣ ، ٣١٧ - ٣٠٥
٣٢٤
- مكيخا (الثاني): ٣٧٧ - ٣٧٨
- الملكانيون، الملكانية: ١٩٢ -
١٨٧ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٦ ، ٢٠٦ ، ٢٦٠ ،
٣٥٧ ، ٣٢٠ ، ٢٨٨ ، ٢٨٥
- ملكشاه (السلطان): ٣٠٠ ، ٢٩٦ ،
٣٠٦ ، ٣٠٥ ، ٣٠١
- ملكشاه بن محمود بن ملكشاه: ٣٣٥
- ملكي صادق (المطران): ١٤٩
- مهد الدولة (سعيد بن مروان): ٢٤١
- المتصر: ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٦١
- المندل بن النعمن (العبادي): ٢٢٣ ، ٢١٢
- النصرور (ال الخليفة): ٤٢ ، ٥٩ - ٤٦ ، ٦٦
- المنصور بن أحمد بن دارست (أبو
الفضل): ٢٨٤
- المنصور بن عيسى بن مار سرجيس (أبو
علي): ٢٨٤
- المهتمي: ١٦٧
- المهدي: ٥١ ، ٦٥ ، ٦٦ - ٧٤ ، ٨١ ،
٩٩ ، ٨٢
- المهذب (ذخوار): ٣٧٣
- المهذب بن هبل: ٣٥٩
- المهليبي: ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٥٣
- المسيحي (آل): أنظر سعيد بن داود (أبو
علي)، فهد (أبو عمرو)، علي بن عون
(أبو الحسن)، عيسى بن يحيى (أبو
سهيل)، أبو الفرج محفوظ بن عيسى
(أبو العلاء)، ماري بن هبة الله (أبو
الخير)، صاعد بن أبي الخير، سبر
يشوع (أبو الفضل)، أبو علي بن أبي
الخير، أبو الفرج
- المطیع: ٢١٣ ، ٢٢٢ - ٢٣٣
- المظفر بن الدواتي: ٣١٨
- المعتز: ١٥٢ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٥ -
١٧٠ ، ١٦٦
- المعتصم: ١١٥ ، ١٤٧ ، ١٢٤ - ١٢٩ ،
٣٣٥
- المعتضد: ١٧٨ - ١٧٩ ، ١٩٠ ، ١٩٥ ،
٢٢٦ ، ٢٠٥ ، ١٩٨
- المعتمد: ١٧٠ - ١٧٥
- معدان (بني): ٢٥٨ ، ٢٧٩
- المعروف (الكرخي): ٦٣
- المعري (أبو العلاء): ٢٨٣
- معز الدولة (أحمد بن بويء): ٢٣٠ - ٢٢٠
- الموحّج (أبو سعيد): ٣١٨
- المفضل بن عبد الرزاق (الأصبهاني، سعيد
الملك): ٣٠٢
- مفلح (أبو صالح): ١٩٥
- مقاتل بن حكيم العكي: ٤٨ ، ٥٧ ، ٦٠
- ٧٥
- المقدار: ١٧٧ ، ١٨٧ ، ١٨٩ ، ١٩٠ -
٢٠٣ ، ٢١٠ ، ٢٢٥ ، ٢٨٦ ، ١٩٧
- ٣٠١

الموارنة: ٦٦، ٣١٦، ٣٣٢

موسى بن إسرائيل (الكوني): ٦٨

موسى بن بغا: ١٦٢، ١٦٨

موسى بن كيفا: ٢٢٧

موسى بن مصعب: ٥٥، ٧٥، ٧٢، ٦٤

موصلايا: أنظر العلاء بن الحسن، سعيد

بن منصور، هبة الله بن الحسن، أبو

الحسين

الموفق (أبو أحمد): ١٦٣، ١٧٠، ١٧٤

١٧٥، ١٧٦، ١٨٠

موفق الدين بن قدامة: ٣١٤

مؤنس (القشوري): ١٨٠، ١٩٠

٢٠٦، ٢٠١، ١٩٧

مونكا: ٣٧٧

مؤيد الدولة (أبو منصور): ٢٤٨

مؤيد الدين (القمي): ٣٦١

مؤيد الدين بن العلقمي: ٣٧٦، ٣٧٨

ميغائيل (السرياني، البطريرك): ٣٤٥

٣٦٦، ٣٤٧

ميغائيل (الطبيب، صهر بختي Shaw):

١١٧، ١١٢، ١١١

ميغائيل بن يوحنا بن ماسويه: ١٣٢

ميشا: ١٦٧

ميغائيل: ١٠٧

مينا (الأول): ٦٠

- ٥ -

اهادي: ٦٨، ٧٧، ٧٨ - ٧٩

هارون (الرشيد): أنظر الرشيد

هارون (السجستاني): ٣٣٢

هارون بن حتون: ٢٢٨

هارون بن الراضي: ٢٠٦

هبة (توما): ٢٨٥ - ٢٨٦

هبة الله (الحمداني): ٢٢٩

- ن -

الناصح: أنظر محمد بن يقية (أبو الميجا)

الناصر (ال الخليفة): ١٩٨، ٣٤٣، ٣٥٠ -

٣٦٢

- ي -

- هبة الله بن أبي العلاء الغياثي بن التلميذ
(أبو الحسن، أمين الدولة، موفق
الملك) : ٣١٧، ٣١٨، ٣٣١، ٣٣٤،
٣٣٩، ٣٥١
- هبة الله بن زطينا : ٣٧٤
- هبة الله بن علي (أبو نصر، تاج الرؤساء) :
٣٠٣
- هبة الله بن علي بن الحسين (الأثردي) :
٣٣٤
- هبة الله بن علي بن ملكا (أبو البركات) :
٣١٨
- هبة الله بن الفضل بن صاعد (أبو الفتح) :
٣٢٠
- هبة الله بن محمد بن المطلب (أبو المعالي
مجد الدين) : ٣١٦
- هرمزد (الطيبب) : ٢٤١
- هلال الصابئ : ٢٧٨
- هولاكو : ٣٧٤، ٣٧٦، ٣٧٧، ٣٧٨
- المهيش بن خالد : ١٣٧
- هيلانه : ٨٧
- و -
- السواشق : ١٣٠، ١٣٢ - ١٣٣، ١٦٧، ١٩٨
- الواسطي : أنظر سعيد بن إبراهيم
وهب : ١١٠
- وليد (الخلقيدوبي) : ١١٤
- وليد (المغربي، أبو علي) : ٣٠٤
- بابالاهابن قيوما : ٣٥٧ - ٣٦٠
- الياقطاني : ١٩٦
- يانيس : ١٩٥
- يعسى (أبو نصر) : ٢٩٦
- يعسى (الجرمقاني) : ١٢٩
- يعسى (النحووي) : ١٨٦
- يعسى بن إبراهيم : ٤٣
- يعسى بن أكثم : ١٢١
- يعسى بن البطريق : ٧٥، ١١٧
- يعسى بن خالد (البرمكي) : ٨٣ - ٨١،
٨٨، ١٠١، ١٠٥، ١٩٨
- يعسى بن رستم (الطوريانى، أبو سهل) :
٢٤٥
- يعسى بن سعيد : ١٠٨
- يعسى بن سعيد بن ماري (أبو العباس) :
٣٥٢
- يعسى بن سهل (السديد، أبو بش) : ٢٨٢
- يعسى بن صاعد بن يحيى بن التلميذ
(معتمد الملك) : ٣١٧
- يعسى بن عدي (أبو زكريّا) : ٢٣٩،
٢٤٢، ٢٤٩
- يعسى بن عيسى بن جزلة (أبو علي) : ٣٠٤
- يعسى بن المنجم : ١٥٠ - ١٥١
- يعسى بن هبيرة (أبو مظفر، جلال الدين) :
٣٣١
- يروق شاه : ٣٦٥
- يزدان بخت : ١١٧
- يعقوب (الثاني الجائليق) : ٤٣
- يعقوب (النصبيين) : ٢٣٧

- يعقوب (والد دليل): ١١٠
 يعقوب بن إبراهيم بن حبيب
 (الأنصاري): أظر أبو يوسف
- يعقوب بن إسحق: ١٦٥
 يعقوب بن كلس: ٢٥٢
 يعقوب بن يقطان: ١١٤
 اليهود: ٥٧، ٧٣، ١١٦، ١٢١، ١٤٦،
 ١٩٩، ٢٠٥، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٧٤،
 ٢٨١، ٢٩٧، ٢٩٨، ٣٠١، ٣٠٠،
 ٣٢٣، ٣٢٢، ٣٢١، ٣٢٠، ٣٠٤،
 ٣٧٣، ٣٦٦
- يوانيس (الجائليق): ١٧٩ - ١٨١، ١٨١ - ١٩٨
 يوانيس بن عيسى (الجائليق): ٢٥٦ - ٢٦١
- يوحنا (الخامس): ١٤٩
 يوحنا (المطران): ٦٦
 يوحنا بن الأعرج (الجائليق): ١٨١ - ١٨٧
 ٢٠٥، ١٩٦، ١٩٦، ١٨٧
 يوحنا بن بختيشوع (الطبيب): ١٠٢،
 ١٧١
- يوحنا بن بختيشوع (المطران): ١٤٢،
 ١٨١ - ١٨٣
- يعوحنا بن حيلان: ١٩٠
 يوحنا بن شوشان: ٢٨٩
 يوحنا بن الطرغال (الجائليق): ٢٧٩ - ٢٨٣
 يوحنا بن كلدون: ٢٤٨
 يوحنا بن ماسوبيه (أبو زكريا): ٨٢،
 ١٤٨، ١٤١، ١٣٢، ١١٧، ١١١
 يوحنا بن نازوك (الجائليق): ٢٦٠
 ٢٦٢ - ٢٦٦
 يوحنا بن نرسى (الجائليق): ١٧١،
 ١٧٣ - ١٧٩
 يوسف (بطريرك الإسكندرية): ١١٥
 يوسف (القس «الساهر»): ١٨٦
 يوسف (اللبناني): ٣٠٩
 يوسف (المطران): ٧٢ - ٧٣
 يوسف بوسنايا: ٢٣٩
 يوسف القصيري (المطران): ١٢٦
 يوسف بن آبق (التركياني): ٣١١
 يوسف بن أحمد الحزّي (أبو طاهر): ٣٢٢
 يوسف بن صليبا: ١٢٦
 يوسف بن عمر (الثقفي): ٤١

فهرس المحتويات

المصادر والمراجع

٧	أ - المصادر العربية
٧	١ - الكتب والمقالات
١٥	٢ - الدوريات
	ب - المصادر والمراجع الأجنبية
١٦	١ - الكتب والمقالات
٢٨	٢ - الدوريات والسلالس
٣١	مقدمة المترجم
٣٣	المقدمة
٤٣	١ - السفّاح (١٣٢ - ١٣٦ / ٧٤٩ - ٧٥٤)
٤٣	I - آبا الثاني ([٧٤١] - [٧٥١])
٤٥	II - سورين (٧٥٣ - ٧٧٣)
٤٨	٢ - المنصور (١٣٦ - ١٥٨ / ٧٧٥ - ٧٥٤)
٦٨	٣ - المهدى (١٥٨ - ١٦٩ / ٧٧٥ - ٧٨٥)
٧١	III - حنان يشوع الثاني (٧٧٩ - ٧٧٥)
٧٤	IV - طهياطوس الأول (٧٨٣ - ٧٨٠ / ٨٢٣)
٨٠	٤ - الهاדי (١٦٩ - ١٧٠ / ٧٨٥ - ٧٨٦)
٨٣	٥ - الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ / ٧٨٦ - ٨٠٩)
١٠٧	٦ - الأمين (١٩٣ - ١٩٨ / ٨١٣ - ٨٠٩)
١١٠	٧ - المأمون (١٩٨ - ٢١٨ / ٨٣٣ - ٨١٣)
١١٢	V - إيشوع بر نون (٨٢٣ - ٨٢٧ / ٨٢٧)
١١٤	VI - جيورجيس بن الصباح الثاني (٨٣١ - ٨٢٧ / ٨٣١)

- ١١٤ VII - سَبْر يَشُوع الثَّانِي (٨٣٥ - ٨٣١) (٨٣٥ - ٨٣١)
 ١٢٦ ٨ - الْمَعْتَصِم (٢١٨ - ٢٢٧) (٨٤٢ - ٨٣٣) (٨٤٢ - ٨٣٣)
 ١٢٧ VIII - إِبْرَاهِيم الثَّانِي (٨٣٧ - ٨٣٧) (٨٥٠ - ٨٣٧)
 ١٣٤ ٩ - الْوَاثِق (٢٢٧ - ٢٢٧) (٨٤٧ - ٨٤٢) (٨٤٧ - ٨٤٢)
 ١٣٨ ١٠ - الْمُتَوَكِّل (٢٣٢ - ٢٣٢) (٨٦١ - ٨٤٧) (٨٦١ - ٨٤٧)
 ١٤٢ IX - ثَادِيسِيس (٨٥٣ - ٨٥٣) (٨٥٨ - ٨٥٣)
 ١٥١ X - سَرْجِيسُ الْأَوَّل (٨٦٠ - ٨٦٠) (٨٧٢ - ٨٦٠)
 ١٦٣ ١١ - الْمُتَصَر (٢٤٧ - ٢٤٨) (٨٦٢ - ٨٦١) (٨٦٢ - ٨٦١)
 ١٦٤ ١٢ - الْمُسْتَعِين (٢٤٨ - ٢٥١) (٨٦٢ - ٨٦٢) (٨٦٢ - ٨٦٢)
 ١٦٧ ١٣ - الْمُعَذَّر (٢٥١ - ٢٥١) (٨٦٩ - ٨٦٦) (٨٦٩ - ٨٦٦)
 ١٦٩ ١٤ - الْمُهَنْدِي (٢٥٠ - ٢٥٠) (٨٧٠ - ٨٦٩) (٨٧٠ - ٨٦٩)
 ١٧٢ ١٥ - الْمُعْتَمِد (٢٥٦ - ٢٥٦) (٨٩٢ - ٨٧٠) (٨٩٢ - ٨٧٠)
 ١٧٣ XI - أَنُوش (٨٨٤ - ٨٧٧) (٨٨٤ - ٨٧٧)
 ١٧٥ XII - يَوْحَنَّا (٨٩٢ - ٨٨٤) (٨٩٢ - ٨٨٤)
 ١٨٠ ١٦ - الْمُعَضِّد (٢٧٩ - ٢٧٩) (٩٠٢ - ٨٩٢) (٩٠٢ - ٨٩٢)
 ١٨١ XIII - يَوْانِيس (٨٩٣ - ٨٩٣) (٨٩٩ - ٨٩٣)
 ١٨٣ XIV - يَوْحَنَّا بْنُ الْأَعْرَج (٩٠٥ - ٩٠٥) (٩٠٥ - ٩٠٥)
 ١٨٧ ١٧ - الْمُكْتَفِي (٢٨٩ - ٢٨٩) (٩٠٨ - ٩٠٢) (٩٠٨ - ٩٠٢)
 ١٨٩ XV - إِبْرَاهِيمُ أَبْرَازَا التَّالِث (٩٣٧ - ٩٠٦) (٩٣٧ - ٩٠٦)
 ١٩٢ ١٨ - الْمُقْتَدِر (٢٩٥ - ٢٩٥) (٩٣٢ - ٩٠٨) (٩٣٢ - ٩٠٨)
 ٢٠٢ ١٩ - الْقَاهِر (٣٢٠ - ٣٢٠) (٩٣٤ - ٩٣٢) (٩٣٤ - ٩٣٢)
 ٢٠٥ ٢٠ - الرَّاضِي (٣٢٢ - ٣٢٢) (٩٤٠ - ٩٣٤) (٩٤٠ - ٩٣٤)
 ٢١١ XVI - عَمَانُوئِيل (٩٣٨ - ٩٦٠) (٩٣٨ - ٩٦٠)
 ٢١٥ ٢١ - الْمُتَقِّي (٣٢٩ - ٣٢٩) (٩٤٤ - ٩٤٠) (٩٤٤ - ٩٤٠)
 ٢٢٢ ٢٢ - الْمُسْتَكْفِي (٣٣٣ - ٣٣٣) (٩٤٦ - ٩٤٤) (٩٤٦ - ٩٤٤)
 ٢٢٤ ٢٣ - الْمُطَبِّع (٣٣٤ - ٣٣٤) (٩٧٤ - ٩٤٦) (٩٧٤ - ٩٤٦)
 ٢٢٩ XVII - إِسْرَائِيل (٩٦١) (٩٦١)
 ٢٢٩ XVIII - عَبْدُ اِيشُوعَ الْأَوَّل (٩٦٣ - ٩٨٦) (٩٨٦ - ٩٦٣)
 ٢٤٠ ٢٤ - الطَّائِع (٣٦٣ - ٣٦٣) (٩٩١ - ٩٧٤) (٩٩١ - ٩٧٤)
 ٢٤٥ XIX - مَارِيُّ بْنُ طَوْبَا (١٠٠٠ - ٩٨٧) (١٠٠٠ - ٩٨٧)

- ٢٥٥ القدر (٣٨١ - ٤٢٢ / ٩٩١ - ٩٣١) ٢٥
 ٢٥٨ يوانيس بن عيسى (١٠١٢ - ١٠٠١) XX
 ٢٦٤ يوحنا بن نازوك (١٠٢٠ - ١٠١٢) XXI
 ٢٦٨ ايشوع يهوب بن حزقيال (١٠٢٥ - ١٠٢٠) XXII
 ٢٧٠ إيليا الأول (١٠٢٨ - ١٠٤٩) XXIII
 ٢٧٦ القائم (٤٢٢ - ٤٦٧ / ١٠٣١ - ١٠٧٥) ٢٦
 ٢٨١ يوحنا بن الطرغال (١٠٥٧ - ١٠٤٩) XXIV
 ٢٨٥ سبريشوع زنبور (١٠٧٢ - ١٠٦١) XXV
 ٢٨٩ عبد ايشوع بن العارض (١٠٧٥ - ١٠٩٠) XXVI
 ٢٩٨ المقتدي (٤٦٧ - ٤٨٧ / ١٠٧٥ - ١٠٧٥) ٢٧
 ٣٠٧ مكيخا الأول (١٠٩٢ - ١٠٩٩) XXVII
 ٣١٣ المستظر (٤٨٧ - ٤٨٧ / ١٠٩٤ - ١٠٩٤) ٢٨
 ٣١٩ إيليا بن المقلبي (١١١١ - ١١٣١) XXVIII
 ٣٢٤ المسترشد (٥١٢ - ٥٢٩ / ١١١٨ - ١١١٨) ٢٩
 ٣٢٦ برصوما الأول (١١٣٤ - ١١٣٦) XXIX
 ٣٢٩ الراشد (٥٢٩ - ٥٣٠ / ١١٣٥ - ١١٣٥) ٣٠
 ٣٣١ المقتفي (٥٣٠ - ٥٥٥ / ١١٣٦ - ١١٣٦) ٣١
 ٣٣١ عبد يشوع بن المقلبي (١١٤٧ - ١١٣٨) XXX
 ٣٣٥ يشوع يهوب (الخامس) البلدي (١١٤٩ - ١١٧٥) XXXI
 ٣٤٠ المستجد (٥٥٥ - ٥٦٦ / ١١٦٠ - ١١٦٠) ٣٢
 ٣٤٥ المستضيء (٥٦٦ - ٥٧٥ / ١١٧٠ - ١١٧٠) ٣٣
 ٣٤٧ إيليا الثالث (١١٧٦ - ١١٩٠) XXXII
 ٣٥٢ الناصر (٥٧٥ - ٥٧٥ / ١١٨٠ - ١٢٢٥) ٣٤
 ٣٥٩ يابالها الثاني (١١٩٠ - ١٢٢٢) XXXIII
 ٣٦٢ سبريشوع بن قيوما (١٢٢٥ - ١٢٢٥) XXXIV
 ٣٧١ الظاهر (٦٢٢ - ٦٢٣ / ١٢٢٥ - ١٢٢٥) ٣٥
 ٣٧١ سبريشوع بن المسيحي (١٢٥٦ - ١٢٥٦) XXXV
 ٣٧٤ المستنصر (٦٢٣ - ٦٤٠ / ١٢٤٢ - ١٢٤٢) ٣٦
 ٣٧٨ المستعصم (٦٤٠ - ٦٥٦ / ١٢٤٢ - ١٢٥٨) ٣٧
 ٣٧٩ مكيخا الثاني (١٢٥٧ - ١٢٦٥) XXXVI

٣٨٣	الخاتمة
٣٨٨	ملحق ألفبائي في التعريف بغيرب الكتاب
٣٩١	فهرس الموضوعات
٣٩٥	فهرس الأماكن
٤٠١	فهرس الأشخاص
٤٢٠	فهرس المحتويات

أنجزت المطبعة الكاثوليكية ش.م.ل،
عاصمة - لبنان، طباعة هذا الكتاب
في الحادي والثلاثين من كانون الثاني ١٩٩٠



٩٠/١/٣١ - ٢ - ٠٠٩٩٠٢

مَسْتَوْرَاتٌ :
دار المُشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ مُعْمَلٌ
ص.ب. ٩٤٦ - بَيْرُوت ، لِبَنَان

الخوازِيَّع :
المكتبة الشرقيّة - ساحة المتن
ص.ب. ١٩٦٧ - بَيْرُوت ، لِبَنَان